

البرهان في نظام القرآن

(نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران)

د/ محمد عناية الله اسد سبحاني

قدم له

العلامة د/ محمد اديب الصالح العلامة ابو الحسن علي الحسيني الندوي

فضيلة الأستاذ د/ مصطفى مسلم

دار الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ م

توزيع:

دار الفکر للنشر والتوزيع

جـددة	ميدان الجامعة — ص.ب ٤٠٨٤٥ جدة ٢١٥١١
الإدارة :	٦٨٩١٤١٧
الطبعون :	المكتبة : ٦٨٩٤٤٦١
فاكس :	٦٨٩٤١٤٤
الخبر	شارع الأمور نايف — ص.ب ٢٣٢١ الخبر ٢١٩٥٢
	الطبعون : ٨٩٤١١٣٦
المدينة المنورة	شارع السمين — ص.ب ٢٠٢٤٢
	الطبعون : ٨٣٨٨٢٩٢
	فاكس : ٨٣٨٨٢٩٧

مكتبة الجامعة ص.ب : ٢٦٧٣ اسلام آباد

تصدير

(بقلم الباحث الاسلامي الكبير والعلامة الجليل سماحة الشيخ الدكتور/

محمد ادهب صالح - رئيس قسم السنة وعلومها - الاسبق بكلية

اصول الدين - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض)

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . وشاء بحكمته أن يكون هذا القرآن كتاب هداية إلى كل ما تتحقق به سعادة الدارين ، ومعجزة دالة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله يوحى إليه ، وأن الكتاب العزيز كلام الله وليس بكلام البشر . والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على البشير النذير ، سيدنا ونبينا محمد المؤتمن على بيان ما نُزل عليه للناس وعلى آله وصحابه ومن سار على هديه في خدمة هذا الكتاب وبيانه من السنة المطهرة إلى يوم الدين .

وبعد : فقد تحدى ربنا جل شأنه العرب - وهم أرباب الفصاحة واللسن - أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم ، فعجزوا عن ذلك مع توافر الدواعي عندهم على معارضته ، لما أنه نزل بلغتهم وعلى معهودهم في الخطاب ، وهم من هم في العالمين يومذاك ، تميزاً بالبلاغة والفصاحة ، وكونهم أرباب البيان بلا منازع . أجل عجزوا عن أن يأتوا ولو بسورة قصيرة من مثل الفرقان الحكيم ، وصدق فيهم وفي غيرهم من الإنس والجن قول الله تباركت أسماؤه : " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً " .

كان هذا : علماً بأن المتحدي به هو التعبير والأسلوب ، وأنه صحب التحدي انتمانهم هم على الحكم . فكان الإعجاز البياني هو الأصل في الإعجاز وما سواه من الأنواع - وما أكثرها - تبع له ، لأن التحدي لم يكن بمتعلقاتها .

ولست بسبيل الحديث عن الإعجاز والهداية من حيث هما في هذه العجالة بين

يأتي كتاب أخينا الدكتور محمد عناية الله ، فإعجاز البياني تصحبه ألوان الهداية التي تفيض بها مضمونات أي الكتاب ، والنظم الكريم ثوبها المشرق الأخاذ ، ولكنني بسبيل الإشارة إلى أن إنزال القرآن بلسان عربي مبين جعل العلاقة وطيدة بين النظم وبين الإعجاز والهداية جميعاً ، لما أنه مشرق بهما .

فالمتبصر بكتاب الله على نور من ربه ، وأخذ بالأسباب المطلوبة ، بغية الوصول إلى الفهم السليم لمعانيه ومبانيه ، والإحاطة الممكنة للبشر بمرامي الهداية فيه . الهداية التي شاء ربنا جل شأنه أن يخرج الناس - أن لو استمسكوا بها - من الظلمات إلى النور ، والوقوف على مناط الإعجاز وصوره الأسرة في بيانه الفريد الذي لا يجاري ، وأسلوبه الفاذ الذي حاشا أن يبارى مع الاتفعال الصادق والتذوق ... المتبصر بكتاب الله على هذا النحو يدرك - والله أعلم - ما للنظام في آياته وسوره من أثر بالغ في ذلك .

ولقد عني علماؤنا بهذه القضية الكبرى - على تفاوت بينهم في النظرة وتبيين موقع الآية من الآية أو الآيات ، والسورة من السورة ، بل وجد فيهم - جزاهم الله عن الأمة كل خير - من خص بالتصنيف مناسبة ترتيب سور القرآن الكريم ، ومنهم من تجاوز إلى مناسبات الآيات والسور ، لما لذلك من علاقة وثيقة - في نظرهم - بإدراك مرامي النظام وأسراره .

وللامام فخر الدين الرازي المتوفي ٦٠٤هـ في تفسيره "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب" وقفات بارعات عند كثير من الآيات ، وفق عند استلهاام النظم في العديد منها . وقد أشار العلامة بدر الدين الزركشي المتوفي ٧٩٤هـ في كتابه "البرهان في علوم القرآن" إلى ذلك واستحسنه ، وحذا حذوه السيوطي في "الإتقان" .

ومن صنفوا في ترتيب السور للغرض الذي نؤمن إليه : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير الأندلسي المتوفي ٨٠٧هـ فقد صنف كتاباً أسماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" ولعل الكتاب الجامع المتداول في موضوع المناسبات للآيات والسور جميعاً كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لمصنفه الإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم

بن عمر البقاعي المتوفي ٨٨٥هـ على مأخذ لبعض العلماء عليه . والبقاعي نسبة إلى البقاع في لبنان من بلاد الشام .

وللامام حميد الدين الفراهي المتوفي ١٣٤٩هـ جهود طيبة غزيرة النفع في هذا الباب وقد خلف عدة مؤلفات عالية الشأن منها : نظام القرآن ، ومفردات القرآن ، ودلائل النظام .

وللشهيد سيد قطب أجزل الله مثوبته في كتابه القيم "في ظلال القرآن" لفتات بارعات على هذه الساحة ووقفات غاية في الدقة والاستنارة لا تخفى على منصف له قلب .

إن العناية بالكشف عن المناسبات هذه دون تحمل وتعسف ، أولى لأعناق النصوص - كما يقولون - لها آثارها الطيبة عند النظرات المتبصرة في النظام القرآني وما قد يلهم المتأمل من دلالات تغني في تلمس الإعجاز وتبين المعاني ، وبخاصة عندما تتعدد وجوه التأويل عند العلماء .

ولعل مما يزيد الأمر وضوحاً ملاحظة أن الاشتغال بنظام القرآن المجيد ، والنظر المحكم في مسالكة النيرة المباركة ببصيرة مصحوبة بالأخذ بكل ما هو من وسائل التبيين بسبب ، اشتغال بما يسعف في المزيد من فقه الكتاب الكريم ، والقدرة - بعون الله - على حسن تدبره ، كما يكون ذلك مدعاة لأن ينال الدارس حظه من علومه وكنوزه التي لا تنفد ، ويكون ذلك - كما يقول باحثنا الفاضل - بقدر الإخلاص واهتمام الدارس وعنايته بهذا العلم .

ولقد تتشعب المسالك على المفسر أحياناً بسبب التكرار أو الاشتراك في الألفاظ وما إلى ذلك ، ويكون المعتصم من التعثر في الفهم بإدراك بنية النظام القرآني في الآيات التي هي مدار التأويل والاستنباط ، لما أن ذلك يسلم إلى تحديد المعاني والمقاصد ، ويؤمى بوضوح إلى حكمة الله جل شأنه فيما بدا للناظر من التكرار وما إليه .

ثم إن إدراك الوجوه البلاغية في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلقه ، لا يحتمل أنه دراسة علمية ، بل هو دراسة فنية ، وقد يكون ذلك طريقاً نيرةً تزلف إلى أصحاب ما يوحيه النظم لتمثل تلك الوجوه و تدوقها ، وقد يكون ذلك طريقاً نيرةً تزلف إلى حسن التذوق وعميق الإدراك لمحاسن الكتاب ، في كمال نظمه و روعة أسلوبه المتميز ، وسحره الفريد .

هذا : والذين رزقوا أن يألّفوا النظر في معاني الآي من كتاب الله ومدلولاتها ، وارتباط ذلك في كثير من الأحيان بأسباب النزول ، يدركون الأهمية لرعاية النظام في فهم تلك الأسباب - على مختلف أحوالها - ووضعها مواضعها من ساحة التأثير في تبين المعنى المراد ، واتساق الجزئيات مع الكليات على محور الهداية في الفرقان الحكيم ، والتخلي عن ذلك قد يوقع فيما هو عكس المقصود

وإني مورد هنا بعد تلکم الإشارات الموجزة واحداً من الأمثلة تم اختياره من كلام الإمام الرازي على النظم ووجوهه في الوقفات التي أشرت إليها من قبل . فعند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة : " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون " الآية قال رحمه الله : في الآية مسائل . وخص المسألة الأولى بكيفية النظم ، وأتى لذلك بوجوه أربعة ، نقتصر هنا على ذكر ثلاثة منها

(الأول - وهو أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة كمال الملك وكمال العلم وكمال القدرة لله تعالى - وذلك يوجب كمال صفة الربوبية - أتبع ذلك بأن بين كون المؤمنين في نهاية الانقياد والطاعة والخضوع لله تعالى ، وذلك هو كمال العبودية . وإذا ظهر لنا كمال الربوبية وقد ظهر منا كمال العبودية ، فالمرجو من عميم فضله وإحسانه أن يظهر يوم القيامة في حقنا كمال العناية والرحمة والإحسان . اللهم حقق هذا الأمل .

الوجه الثاني -

أنه تعالى لما قال: " وإن تيدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به

الله "بين أنه لا يخفى عليه من سرنا وجهنا ، وباطننا
وظاهرنا ، شئى البتة ، ثم إنه تعالى ذكر عقيب ذلك ما يجري
مجرى المدح والثناء علينا ، فقال : "آمن الرسول بما أنزل إليه من
ربه والمؤمنون" كأنه - بفضله - يقول : عبيدي أنا وإن كنت أعلم
جميع أحوالك ، فلا أظهر من أحوالك ، ولا أذكر منها إلا ما يكون
مدحاً لك وثناءً عليك ، حتى تعلم كما أنا الكامل في الملك والعلم
والقدرة ، فأنا الكامل في الجود والرحمة ، وفي إظهار الحسنات
والستر على السيئات . (١)

الوجه الثالث -

أنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويطيعون
الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم
في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال :
"..... والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين
أحد من رسله" وهذا هو المراد بقوله في أول السورة : "الذين
يؤمنون بالغيب" ثم قال ههنا : "وقالوا سمعنا وأطعنا" وهو المراد
بقوله في أول السورة : "ويطيعون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" ثم قال
ههنا : "غفرانك ربنا وإليك المصير" وهو المراد بقوله في أول
السورة : "وبالآخرة هم يوقنون" ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى
ربهم في قولهم : "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" إلى آخر
السورة ، وهو المراد بقوله في أول السورة : "أولئك على هدى من
ربهم وأولئك هم المفلحون" فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول
السورة وآخرها" (٢).

(١) "التفسير الكبير" : (١٣٨/٧)

(٢) المصدر السابق : (١٣٩-١٣٨/٧)

ومهما يكن من أمر : فإن ما ذكرته - وهو ليس كل ما في الباب - منا فصل القول فيه باحثنا الدكتور محمد عناية الله من قبل ، يأخذ بأيدينا إلى تقرير أن رعاية النظام على الوجه الذي لا تشويه شائبة التخطي لمدلولات النصوص ، أو تحميلها ما لا تحمل ، تفتح على الدارس - وهو يجمع بين الإيمان وسلامة التدبر في ظلها - ما تقر به عينه ويستشير به قلبه ، وتورثه برداليقين الذي لا يتزلزل ، وينفي - بتوفيق الله - أي شك أو اشتباه . وجميل قول أختنا في خاتمة المطاف : (الوقوف على نظام الآيات يؤدي بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها ؛ فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ، تزداد بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام ، وحسن النظام وقوة البرهان) .

غير أن من الأهمية بحكان ملاحظة ما أشرت إليه عرضاً من قبل ، وهو أن النظر في هذا النظام بحيث يراعي ويستفاد منه على صعيد الهداية فوق ما يؤخذ من ظاهر اللفظ مطلوب فيه - بجانب الاحتكام إلى الضوابط الشرعية واللفوية عند النظر في الآية أو الآيات بغية الوصول إلى المعنى - البعد عن التكلف والتعسف وتسوّر النصوص تجاوزاً لإخضاع الكلام إلى مراد سبق تصويره أو تصور ما هو منه بسبب ، وعندها يكون ما وصل إليه الدارس باستنارة قلب ويقظة عقل من الفهم الذي يعطيه الله العبد تفضلاً منه سبحانه ومنه ، وإلا كان أجدر بعدم القبول .

ومن الجدير بالذكر التنبيه على أن لبعض العلماء موقفاً يحمل طابع الاستنكار لعلم المناسبات الذي هو جدّ لصيق بهذا العلم كالذي نرى عند الشوكاني رحمه الله إذ ندّد بمن انتهجوه - عموماً - وخص بالذكر منهم الإمام البقاعي رحمه الله ، وقد يكون مرد الاستنكار عند الشوكاني ما رأى من التعسف والتكلف في بعض الأحيان ، ولكن قد يخالف في تعميم الحكم .

هذا ، وقد آن أن أشير إلى أن الكتاب الذي أقدم له - على بضاعتي المزجاة - بهذه الكلمات هو في صلب موضوع النظام الذي حوله ندندن ، لما أنه بمثابة تطبيق عملي لما ذكر ، وهذا التطبيق العملي مساحته ثلاث سور مباركات - والقرآن مبارك كله - هي الفاتحة

والبقرة وآل عمران كما جاء ذلك واضحا في عنوان الكتاب وهو : "نظام سور الفاتحة والبقرة وآل عمران" . وكان الباحث الفاضل أخونا الدكتور محمد عناية الله محمد هداية الله قد نال بهذا البحث درجة "الدكتوراه" في القرآن وعلومه من جامعة الإمام بالرياض

والناظر المتأنى يرى في هذا البحث إسهاماً ملحوظاً لا ينكر على هذه الساحة المباركة . وإنما تأتي أهميته من أهمية موضوعه ، ثم أهمية المنهج وطريقة المعالجة والتطبيق ، ذلك بأن قضية النظم في حقيقتها - كما سلف - تتعلق بالإيمان والمعرفة جميعاً . لما أنها على صعيد الهداية التي هي قوام المنهج الرباني المشرق بدقته وشموله ، من العناصر المهمة في الوصول إلى المعنى المراد وما قد يتصل به ، كما أنها تعين في استشعار ما تضمنه به أي الكتاب من إعجاز القرآن الكريم ووجوه البلاغة الفاذة من خلال الأمرين أو متعلقاتهما .

ولقد كان من توفيق الله تعالى ، وتيسير التكامل بين الفكر النظري العلمي . وبين التطبيق المنهجي العملي ، أن هذا البحث الذي يعالج فيه الدكتور محمد عناية الله النظم القرآني في أم الكتاب والزهاوين عنايةً بالنظام وإخراجاً لمضمونه الفكري إلى الحيز العملي قد سبق به بحث كان محوره المجال النظري في النظم القرآني حصل به هو نفسه على درجة الماجستير وعنوانه "إمعان النظر في نظام الآي والسور" وبذلك أصبح موضوع الكتاب الذي بين أيدينا وهو يتسم بالطابع التطبيقي امتداداً لسابقه الذي يحمل سيما التحديد النظري العلمي .

وقد حرص الباحث في الموضوع الأول أن تكون المعالجة على أساس منهجي دقيق، لا يعوزه التوثيق، ولا يجفوه العمق قدر المستطاع وبذلك كان هو أقدر منه على تناول ما تناوله من البحث في نظام السور الثلاث المذكورة ، مما لو كان لم يقطع تلك المرحلة السابقة بالدراسة والتعميد . وهكذا حصل التكامل المفيد ، حيث استقام لأخيها عمود التطبيق العملي لما سبق واجتهد في تحريره مشكوراً من قبل ، فكان له من اصطحاب أم القرآن والزهاوين - وبالحا من صحبة مباركة - برهان عملي هنا على ما أوضحه بصورة نظرية هناك.

ولا نكران أنه قد أحسن الإفادة من صنيع من سبقوه ، وكان موفقاً في كثير مما وافق ، أو خالف ، أو ناقش وحاور ، بل في كثير مما زادوا ضاف . وقد استطاع - بحمد الله- أن يؤكد أهمية النظم القرآني في تحسس مواطن الإعجاز - وما أكثرها إذ القرآن كله معجز - والمعاونة على الوصول إلى ما تزخر به نصوص الفرقان الحكيم في مبانيها ومعانيها من الهداية الربانية ، التي تفيض بها كلمات الله التي لا تنفذ . ناهيك عن تفتيح الأبصار والبصائر على عقود تنتظم ما تشرق به لآلئ تلك المعاني ، الأمر الذي يسمو بمدرك ذلك قلباً وعقلاً إلى حيث رحاب أهل القرب الذين يرفعهم الله بكتابه الكريم ، ويهديهم بنوره الصراط المستقيم .

وجميل ما أخذ الباحث به نفسه في رحلته الطويلة المباركة مع النظام في تلكم السور الثلاث من البعد - في أحكامه وما يذهب إليه - عن لي اعناق النصوص والتكلف لحملها على ما يريد ، أو التعسف في استنطاقها وفق فكرة تجفوها الضوابط الشرعية أو اللغوية أو كلا النوعين؛ فهو - كما يبدو - لا يطلق الكلام بمحض الرأي دون دليل كما أنه لا مكان - عنده فيما يذهب إليه - للروايات الضعيفة أن ترفع إلى مستوى صرف آية أو آيات عن وجهها ، الأمر الذي قد يكون حائلاً دون الدارس ودون الوصول إلى صحيح التأويل الذي يعقب سلامة الافادة من النظم .

وكان ذلك وفاءً منه لما وعد أن يلتزم به من أن هذا العلم ليس بالرأي المحض بل الأصل فيه العكوف على كتاب الله وتدبر آياته والتأمل في نظمه وسياقه ، ومتابعته متابعة دقيقة من غير تكلف ولا تعسف ، حتى ينكشف ما خفي من معانيه ، ويتجلى - على حد قوله - كما يتجلى القمر في ليلة تمامه . ولذلك - كما يقول - يرفض منهجه التكلف رفضاً باتاً ، ولا يلتفت إلى تأويل تشم منه رائحة التكلف . وليس هذا فحسب : فكما أنه لا مكان عنده للقول بمحض الرأي ، فكذلك لا مكان لما يشبهه من الروايات الضعيفة التي تصرف الآيات عن وجهها وتكون حجاباً دون التوصل إلى صحيح تأويلها .

وبناءً على ذلك كان اعتماد المنهج على ثلاث مراحل : أولاها - التأكد من صحة

المناسبة بين الآيات وبين أجزاء السورة وفقراتها دون تكلف . الثالثة - استخراج عمود السورة وهو المحور الذي ترتد إليه المعاني على سلم الهداية في الكتاب الكريم .

ولم يدع الأخ الباحث أن يوضح للقارئ أن هذه المراحل الثلاث ، وإن كان يوجد بينها ترتيب ، فإن هذا الترتيب لا يظهر إلا في أول الطريق ، وبعد ذلك - وهذا لفظه - تتداخل الثلاث بعضها في بعض ، وتتعاون فيما بينها وتتعاوض حتى تتحقق الغاية المنشودة وتقربها عين الباحث بإذن الله .

هذا : وبعد الكلام على المنهج وتحديد مراحله ، نجد أن الباحث - شكر الله له - اختار أن يقوم بين يدي بحث النظام في السور الثلاث ، برحلة طيبة مع كتاب البقاعي رحمه الله "نظم الدرر" أتاحت له - على وجه العموم - دراسة موضوعية لكتاب ذي أهمية بالغة في بابهِ ، وهي دراسة كبيرة النفع للقارئ إن شاء الله ، وإن كان قد يخالف في جملة من أحكامه على صنيع البقاعي والشدة في ذلك

وقد تبع هذا التمهيد الباب الأول الذي أفرد له سورة الفاتحة ، حيث كشف في الفصل الأول - على هامش السورة - عن شئني مما ورد في فضلها ، وأزاح الستار عن مكانتها في الصلاة حتى كأنها هي الصلاة نفسها ، وأنها العهد والميثاق بين العبد وربه سبحانه . ثم سلط الأضواء على الربط بين الآيات ووجوه هذا الربط . وقد أحسن فيما تلا ذلك من بيان ارتباط السورة بها بعدها ، ووصل باجتهاده في ذلك إلى ستة وجوه ، لم يجزم بأنها هي الروابط كلها ، بل قد يفتح الله تعالى بجديد .

ودعته فضائل هذه السورة المباركة ومضموناتها الكريمة بوصفها أم القرآن أو أم الكتاب ، والسبع المثاني إلى بيان موقعها من القرآن جملة ، أو من جملة القرآن - على حد تعبيره - وما جاء في كلامه على هذه النقطة المهمة :

"إن هذه السورة مع قصرها ووجازتها تضمنت العلوم والمبادئ الأساسية التي عولجت في القرآن جميعه ، وبذلك صارت أم القرآن ... فالناظر المتأمل فيها ، لا يفوته أن يطلع من خلالها إلى جميع مطالب القرآن، أو يستحضر في ذهنه رؤوس المعاني التي جاء بها القرآن"

على أن الإمام الفراهي رحمه الله قد سبق إلى شيء من ذلك ويسر له مزيداً من تذوق عظمتها ، فكان من الأمانة أن نقل جملة طيبة من كلامه في ذلك .

وبعد هذه الرحلة لم يأل جهداً في أن يكشف عن علاقة فاتحة الكتاب بخواتيمه على صورة تدعو إلى الإعجاب بحسن مخالطته للآيات، والتقدير للوجهة التي اتجه إليها في ذلك .

ولعل هذه الإشارات العجلى إلى نظرات أخينا الباحث في نظام أم الكتاب - علي قلة عدد آيها - بعد التأويل وتبيين المدلول، تسعف في تصور ما يلي ذلك من بحث في النظم القرآني، وتنبيه على المناسبات بين الآيات في الزهراوين واستيحاء هذا النظم - بعد الوصول إلى ما تشتمل عليه الآية أو الآيات من المعاني عند المفسرين أهل التأويل - من توجيهات دقيقة، ولفتات عميقة، ماكان يمكن ازاحة الستار عنها لو لا معاناة النظم وقراءة المناسبة دون تكلف ولا تعسف .

ولقد نكون أكثر إنصافاً إذا ذكرنا أن مجموع الآيات في السورتين الكريميتين ست وثمانون و اربعمائة آية من القرآن المدني، لسورة البقرة منها ست وثمانون ومئتان، ولسورة آل عمران مائتان

وهذا عدد مبارك حمل الباحث طول المسافة فيه مع تنوع الموضوعات و وفرتها في النورالهادي.. على أن يسلك في البحث والافادة من دلالات النظام، مسلك تقسيم الآيات إلى مقاطع أوجمل - على حد تعبير بعضهم - ولم يكن التقسيم على هذا النحو بالأمر السهل، إذ لابد له من دقة النظر فيما يمكن أن يكون - ضمن شتات المسائل والأحكام

والقضايا المنشورة على سلم الهداية - حداً فاصلاً - ولو مجازاً - بين المقطع و أخيه، و معينا على الإحساس بذلك الناظم النوراني الذي ينتظم الآيات عن طريق المناسبة دون تنطع أولى لأعناق النصوص . وهكذا نرى في مواجهة سورة البقرة مثلاً: نظم الآيات : ٨٣ - ٨٧، نظم الآيات : ١٦٣ - ١٧٦ وهلم جرا وعلى هذا السنن كانت مواجهة الأمر في سورة آل عمران

ولقد كان واضحاً أن الباحث الفاضل لم يرغب في مرحلة من مراحل البحث - على ثقل المهمة وطول مسافة السير فيها - عن الأمانة في إيراد الأقوال والآراء والحوار والمناقشة عند الاقتضاء، والموافق أو المخالفة لقول من سبقه بالدليل. مضافاً ذلك إلى ما يلهمه من الفهم لكتاب الله نتيجة العمق في النظرة إلى النظام والأدب مع كلام الله . ذلك بأنه لم يعف نفسه من التدقيق فيما تعطيه الآيات بجملتها أو في مقطع من المقاطع أو آية بمفردها، مع استيعاء النظام، وبيان المناسبات قدر المستطاع في التزام المنهج الذي رسمه لنفسه بين يدي البحث الذي يضطلع به ولا يفض من قدر هذا المنهج والنتائج التي يصل إليها الباحث أن يخالف في رأي، أو واحدة من تلك النتائج .

وكانت حصيلة ذلك كله - بحمد الله - ثمرات طيبة زاخرة بالنفع، يرضى عنها العقل ويطمئن إليها القلب - إن شاء الله - وتزكي في روح المؤمن صادق الرغبة في مخالطة القرآن الكريم بصدق وصفاء قلب، والاستنارة بهديه على صعيد العبادة والعمل والجهاد بشتى صنوفه وأنواعه، والانتظام في زمرة السالكين إلى مولاهم عزوجل، على نور منه سبحانه وبصيرة . ناهيك عما تحققه من وضع الأمور مواضعها في مواجهة التحديات الجاهلية من المستشرقين و أبناء جلدتنا من المستغربين. ولا أجدني بحاجة إلى تبيان ما لذلك من أثر تسهم في استئناف الحياة الإسلامية الحققة على صعيد مجتمعاتنا بل الأمة جمعاء .

والأمثلة في كلامه وافرة - والحمد لله - على هذا ، وأترك للقارئ الكريم أن ينظر فيها ويصحبها في الرسالة مطبوعة إن شاء الله .

جزى الله أخانا الدكتور/محمد عناية خير الجزاء على ما بذل واجتهد و صبر في خدمة الكتاب الكريم منبع الهداية وكلية الشريعة و أصل الأصول ، و أخذ بيد القاريء إلى

كثير من القضايا التي له - إن شاء الله - أجر تجليتها وحسن عرضها والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب القارئ، والدارس، والباحث المنصف - على وجه العموم - من أولئك الذين يحدوهم الصدق في طلب الحقيقة، إلى التحقل عند القراءة ويسلمهم إلى الاستغلاء على الرواسب الدفينة في أعماق النفوس . والله الهادي إلى سواء السبيل . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين و على آله وصحابه ومن اهتدى بهديه و استمسك بسنته إلى يوم الدين .

محمد اديب الصالح

قسم الثقافة الاسلامية -كلية التربية

جامعة الملك سعود

الرياض في ٣/٥/١٤١٣هـ

تقديم

(بقلم الباحث الاسلامي الكبير فضيلة الدكتور / مصطفى مسلم
استاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية اصول الدين جامعة الامام
محمد بن سعود الاسلامية - الرياض)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد : فإن كنوز القرآن لا يدركها إلا الغواصون ، وإن الثمرات البانعة من رياض الذكر الحكيم لا يجتنيها إلا من ملك حساً جمالياً مرهفاً و لا يسير أعماق بحار الكتاب المنزل إلا من عايش التنزيل و أدام التدبر والتفكر وكان على حظٍ كبير من علم العربية عامة وعلوم البلاغة خاصة.

إن من يعايش القرآن الكريم يستشف معاني ثرة من خلف الألفاظ و تشع أنوار الهداية من خلال الوشائج التي تربط الكلمات بعضها ببعض ولقد كانت هذه الوشائج وهذه الروابط تلفت نظر كثير من المفسرين فيطلقون أحكاماً عامة كقولهم : إن آيات القرآن وسوره مترابطة بإحكام وهي كالسلسلة الذهبية آخذة حلقاتها برقاب بعض . ولكنهم كانوا يضيرون أمثلة قليلة لما يقولون يسوقونها نماذج للاستدلال على هذه الفكرة.

وقد اهتم بعض المتقدمين بهذا الجانب وكان أبو بكر النيسابوري المتوفي ٣٢٤هـ يقول في مجالسه : لم وضعت هذه الآية بجوار تلك

وكان يزرى على علماء بغداد انصرافهم عن هذا اللون من التفسير والبيان ولجهلهم وجوه المناسبة بين الآيات

وقد وردت شذرات من هذا اللون في التفسير الكبير للإمام فخرالدين الرازي ولكن لم يتخذ هذا البحث قاعدة ينطلق منها . بل وقف حيث يكون الترابط ظاهراً وتجنب

الخوض في المواطن شعر واضحة الترابط والتلاحم .

وجاء الإمام البقاعي في نهاية القرن التاسع الهجري ليؤلف كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" في اثنين وعشرين مجلداً ، كان جل اهتمامه ينصب على ذكر المناسبات بين الآيات ، وقد ذكر وجوهاً دقيقة في الربط بين كثير من الآيات ولم يخل عمله من شيء من التكلف أحياناً نظراً لدقة الموضوع وجلالة وعمقه .

وفتح البقاعي بعمله هذا آفاقاً جديدة للباحثين في وجوه المناسبات .

وخصص الزركشي باباً في برهانه تحدث فيه عن علم المناسبات ، وكتب الميوطي كتاباً سماه "تناسق الدرر في تناسب السور" ، وكلها جهود في إبراز وجوه المناسبات بين الآيات والسور .

وفي القرن الرابع عشر الهجري ظهرت جهود في تعميق هذه النظرة الا انها اعتمدت من قضية المناسبات لطواهر الآيات المتتالية ، وحاول الشيخ عبدالحميد الفراهي رحمه الله أن يضع ركائز ومنطلقات لوضع لبنات لنظرية نظم القرآن وحاول ان يبين منطلقات السور الكريمة ويسير وفق محاورها ويربط الموضوعات الجزئية والاستطرادات الجانبية كلها بنظم السورة ومحورها الاساسي . وجاء سيد قطب رحمه الله بعد ذلك ليلقي أضواء في ظلاله على هذه الدراسة ويعرف بشخصية كل سورة واهدافها ويحدد محاورها في مقدمة تفسيره لكل سورة .

وممن اهتم بالمناسبات بين الآيات والسور في عصرنا الحاضر الشيخ سعيد حوى رحمه الله في كتابه (الأساس في التفسير) إلا أن اهتمامه انصب على إبراز التناسب بين ألفاظ وردت في آيات وسور ، ولم تغل دراسته من تكلف .

ولقد اشبع الشيخ محمد عناية الله محمد هداية الله بهذه الفكرة وعایشها وقرأ حولها الكثير واضطلع على ما كتبه السابقون فأراد ان يضيف عمقا جديدا لهذا الموضوع

-موضوع المناسبات - بل وسع الموضوع أكثر عندما برز له أن هناك نظاماً دقيقاً ترتبط الآيات به .

وعندما سنحت للشيخ محمد عناية الله فرصة الكتابة في مرحلة التخصص (الماجستير) أراد أن يخرج فكرته إلى حيز العمل، فسجل رسالته بعنوان (امعان النظر في نظام الآي والسور) جعلها تدور حول تقعيد هذه الفكرة ووضع معالمها وأسسها للبناء عليها فيما بعد.

وقد أجاد في هذه الرسالة ونالت إعجاب كل من اطلع عليها مما شجع الشيخ محمد عناية الله على الاستمرار في هذا المنهج ، فسجل رسالته في الدكتوراه في نفس المجال ولتكون دراسة تطبيقية للقواعد التي أرسى دعائمها في رسالة الماجستير ، فجعل عنوان رسالة الدكتوراه (نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران).

حيث تعرف على محور هذه السور ، وربط بين مقاطعها بعضها ببعض ، وبين هذه المقاطع ومحور السورة، ووقف وقفات دقيقة عند هذه الروابط والوشائج ولقد أجاد وأفاد في دراسته هذه أيضاً . إلا أنني - ومن خلال قراءتي لرسالة الدكتوراه - لاحظت بعض الأمور أرى من المصلحة تنبيهه عليها:

١- استخدام بعض الألفاظ الشديدة في حق بعض العلماء عند مناقشته آراءهم، كالقول بأن هذا الرأي محض تكلف وتعسف وهذا خطأ ، وأرجو أن لا يكون ذلك هو محاولة الحط من قدر العلماء الذين حصروا أنفسهم لخدمة كتاب الله ^(١) . فجزاهم الله خيراً على نواياهم سواء أصابوا أم أخطأوا ، ولا أقول إن العجمة غلبت الشيخ محمد عناية الله فلم يستطع التعبير عن مراده تجاه آراء الآخرين فقد أوتي الباحث ملكة بيانية يغبطه عليها أبناء الضاد .

(١) شهد الله لم تخطر بباله قط هذه الخاطرة القبيحة المردولة . "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي" . (سبحاني)

٢- حصره إعجاز القرآن على إدراك هذا النظام في السور . نحن مع الباحث أن إدراك سر النظام في القرآن وجه من وجوه اعجاز القرآن ، ويضفي شعوراً باللذة والجمال والبهجة على متدبر القرآن الكريم ويميط اللثام عن وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن ولكن لا ينبغي أن نحصر وجه الإعجاز في نظام القرآن . فإن وجوه اعجاز القرآن لا تحصى ، وكل جيل من الأجيال سيميط اللثام عن وجوه جديدة بحيث تقام عليهم الحجة ، أنه كلام الله المنزل على قلب رسولہ وليس من وضع البشر . وليتحقق وعد الله في كل جيل (سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد).

٣- جرأة الباحث الكبيرة في اقتحام معمعة الآراء ، وتبني رأي يخالف فيه المفسرين ، ولو كان هذا الرأي مستنداً الى دليل لهان الأمر ولكن بعض هذه الآراء يعوزها الدليل النقلي أو البرهان العقلي وإنما هو مبني على دراسة السياق والسباق للآيات فهو مبني على مطلق الاجتهاد . وما كان كذلك لا ينبغي الحماس الشديد له وإلا لوقعنا فيما وقع فيه غيرنا ، ولصح قول الآخرين عنا إنه مطلق تكلف وتعسف لا يسنده الدليل .

هذه الملاحظات القليلة أبدتها للأخ الشيخ محمد عناية الله و أرجو أن يتسع لها صدره^(١) ، وليس في ذلك تقليل للجهد الذي بذله في هذه الرسالة القيمة وإني من المشغوفين بالبحث في علم المناسبات ، ولي كتابات في ذلك.

(١) لمن يتسع صدري إذا لم يتسع لك ولملاحظاتك القيمة الغالية يا أستاذي الحبيب ؟؟

إلا أنني أريد أن أقول يا والدي الحنون .

أريد أن أقول على تأدب وتهيب واستحياء .

أريد أن أقول ، إذا سمحت ، إن نظم الآيات وسباقها وسبقها أكبر دليل وأقوى برهان في نظري لترجيح رأي دون الآخر ، فإن دليل النظم دليل من داخل القرآن وليس من شأن أي دليل آخر أن يكون معارضا لهذا الدليل .

وأما قضية الاختلاف مع المفسرين فلنا أسوة فيما قال الامام ابن القيم رحمه الله عن شيخه الهروي: "شيخ الاسلام حبيب إلينا ولكن الحق أحب إلينا منه".

والله شهيد على ما أقول إنني وجدت فوائد عظيمة في هذه الرسالة استفدت شخصياً منها.

وهناك آراء سديدة ونظرات ثاقبة للباحث لم أجدها عند غيره ونصيحتي للأخ الشيخ محمد عناية الله أن يتم هذا المشوار وأن يكمل المسيرة مع سور القرآن الكريم ، وأن يخرج هذا الجهد طباعة لطلاب العلم ، على أن يجعل رسالته في الماجستير مقدمة لدراسته هذه ، بحيث يكون بين يدي الباحثين القواعد أو المنهج ثم التطبيق العملي للمنهج . فيكون بذلك قد أسدى خدمة عظيمة لكتاب الله و أرسى دعائم لبنة قوية في صرح الدراسات القرآنية المعاصرة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد في ميزان حسنات الباحث وأن يجزيه عن العلم و أهله خير الجزاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

د. مصطفى مسلم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض ، المملكة العربية السعودية
في ٢/٤/١٤١٣ هـ (١٩٩٢/٩/٢٨ م)

وأما موضوع حصر الاعجاز في نظم الآيات فلا شك أن وجوه الاعجاز في القرآن ، وإن كانت كثيرة ومتنوعة ، إلا أنها كلها ترجع إلى نقطة نظم الآيات والقول بأن سرّ الاعجاز في القرآن هو نظمه الحكيم لا يتنافى أبداً مع سعته وشموله ورحابته وفقه واستمراره إلى ما شاء الله - بل الأمر على العكس كما سيظهر ذلك بعد الاطلاع على الكتاب بإذن الله .
وعلى أية حال فوالدنا الجليل ماجور مشكور على ما أبدي من ملاحظات . والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية إن شاء الله -
(سبحاني)



2019年11月11日

حمداً وشكراً لمن أنعم علينا، فخلقنا في أحسن تقويم، ثم من علينا ففضلنا على سائر الأمم بكتابه الكريم وذكره الحكيم. وأودع في نظمه المتين القويم ما يسر الناظرين وقر عيون الباحثين. والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، ورايته القرآن وآيته القرآن، ليبنى به جيل القرآن، ويشيد به حضارة القرآن، فبنى به جيلاً، وشيد به حضارة لم يسبق لهما مثيل في الزمان. فطوى لمن قدره حق قدره، وعض عليه بنواجذه، وقام به آناً، ليله ونهاره، فهو العروة الوثقى، التى لا انفصام لها، وهو المحجة البيضاء، التى ليلها كنهارها. ومن زاغ عنها فقد خسر الدنيا والآخرة.

وبعد:

فهذه رسالة أسميتها: (البرهان فى نظام القرآن)

وتناولت فيها ثلاث سور عظام من سور القرآن، وتكلمت فيها عن روعة نظامها وحسن المناسبة فى آياتها وفقراتها، وكشفت فيها القناع عن قدر طيب مما أودعه ربنا فى نظم كلماتها ومبانيها من علوم غزيرة وحكم زاخرة.

ولقد سبق لى قبل ذلك بخمسة أعوام أن قدمت رسالة بعنوان (امعان النظر فى نظام الآى والسور) وكانت تلك الرسالة بحثاً منهجياً أصولياً يتناول كل ما يتعلق بالموضوع من ناحية نظرية علمية. ولقد قلت فيها إن الاشتغال بنظام القرآن ليس من الأعمال الترفيحية، التى تقصد بها المتعة والتسلية وازجاء الوقت أو قتل الوقت، كما يقولون. بل الاشتغال به هو الطريق الوحيد لفهم القرآن. ويأخذ الدارس نصيبه من علومه وكنوزه بقدر اهتمامه وعنايته بهذا العلم. ولقد ذكرت هناك أهم تلك المزايا، التى تحصل لمن يعنى بهذا العلم ويتبناه ويعيره من الاهتمام ما يستحقه، وكانت كما يلي:

١- النظام يرشد الى فحوى الكلام وملايساته، والذى يغفل عن نظام الآيات يتعذر عليه العثور على ما ترمى اليه تلك الآيات.

٢- النظام هو الدليل الى صحيح التأويل اذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.

٣- النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار اعجازه. فانه هو الذى جعل القرآن بحراً لا يسبر غوره ولا يتفد كنزه.

٤- النظام يجلى الأمور فى أكمل صورها، ويكشف عن قدرها وأهميتها. و اذا لم تنتبه لنظام الآيات، فكثير من الأمور لا تدرکها، ونظلم غافلين عن قدرها وأهميتها.

٥- النظام يشخص معانى الآيات المكررة، ويحدد مراميها، لكن الذى يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.

٦- النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن. لكن الذى لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التى أعجزت فرسان الكلام.

٧- رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقر به عينه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين الذى لا يتزلزل ولا يتزعزع.

٨- رعاية النظام تمكن من فهم أسباب النزول. والذى يغفل عنه يتحير فى فهمها، ويضعها فى غير موضعها، ثم يتحير فى تأويل الآيات وتفسيرها.

٩- رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هى المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية، فيها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من السليم.

١٠- رعاية النظام فى دراسة القرآن تساعد على الوصول الى أصول الصحاح فى القرآن. فان جملة كبيرة من الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلة العلماء.

١١- الوقوف على نظام الآيات يؤدى بالدارس الى ذروة الشوق والمحبة واللذة التى لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها، فان هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان. (١)

وسيجد القارئ الكريم من هذه الرسالة المتواضعة سجنجلا مصقولا يعكس له كل هذه المزايا وبحكيها بدقة ووضوح باذن الله.

ومن الجدير بالذكر أن تصورى للنظام والمناسبة يختلف عن تصور الكثيرين ممن سبقونى بالكتابة فى هذا المجال.

فليس المراد به عندى أن نربط الآية بالآية، أو الفقرة بالفقرة، أو السورة بالسورة بأي رباط كان، حتى ولو كان رابطا واهنا، كما نلمسه فى كتابات الناس.

وانما الذى يهمنى منه أن نلتمس تلك الروابط التى تكسب الكلام رونقا وبهاء وتزيده قوة وورصانة، وتفجر خلاله أنهارا من المعانى والحكم.

فان النظام ليس شيئا مطلوبيا بذاته، اذا لم يقدم الينا شيئا جديدا.

وانى انما أنوه بشأنه و أشيد بذكره لأننى أعتقد أنه هو سر اعجاز القرآن. كما أنه هو مفتاح فهمه. ومعظم كنوزه وأسراره مودعة فى طى نظامه.

فهذا النظام الذى يحتل ذروته القرآن هو الذى أعجز فرسان الكلام وفحول البيان، وهم أدركوا ذلك ادارا كاجيدا وان كنا لا ندركه نحن.

(١) امعان النظر فى نظام الآى والسور : ص / ١١٩-١٢٠

فكم من آية في القرآن قد جعلها حسن نظامها وروعة رباط معانيها في فم المتذوق أحلى من العسل المصفى، وفي نظره أبهج من القمر الساطع في الليلة الظلماء. ولكننا لا نحس فيها من البلاغة أكثر مما نحسه في كلام أي شاعر من الشعراء أو أي أديب من الأدباء !!

و أوضح مثال لذلك ماكتبه أبوحيان وهو يكشف القناع عما تتضمنه خواتيم سورة آل عمران من ضروب البلاغة حيث يقول:

«وتضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبدیع الاستعارة عبر بأخذ الميثاق عن التزامهم أحكام ما أنزل عليهم من التوراة والانجيل و بالنبيذ وراء ظهورهم عن ترك عملهم بمقتضى تلك الأحكام، و باشتراء ثمن قليل عن ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله، ويسماع المنادي ان كان القرآن عن ما تلقوه من الأمر والنهى والوعد والوعيد وبلاستجابة عن قبول مسألتهم وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاته على يسير أعمالهم وبالتقلب عن ضربهم فى الأرض لطلب المكاسب وبالمهاد عن المكان المستقر فيه وبالنزل عما يعجل الله لهم فى الجنة من الكرامة، وبالخشوع الذى هو تهدم المكان وتغير معاملة عن خضوعهم وتذللم بين يديه وبالسرعة التى هى حقيقة فى المشى عن تعجيل كرامته. قيل ويحتمل أن يكون الحساب استعير للجزاء كما استعير «ولم أدرما حساييه» لأن الكفار لا يقام لهم حساب كما قال تعالى: «فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» والطباق فى «لتبينته للناس ولا تكتمون» وفى «السموات والأرض واختلاف الليل والنهار» فالسماء جهة العلو والأرض جهة السفلى والليل عبارة عن الظلمة والنهار عبارة عن النور وفى قياما وقعودا ومن ذكر أو أنسى. والتكرار فى «لا تحسبن فلا تحسبنهم» وفى «ربنا» فى خمسة مواضع وفى «فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا» ان كان المعنى واحدا. وفى «وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم» وفى ثوابا وحسن الثواب. والاختصاص فى «لأولى الألباب» وفى «وما للظالمين من أنصار» وفى «توفنا مع الأبرار» وفى «ولا تخزنا يوم القيامة» وفى «وما عند الله خير للأبرار». والتجنيس المائل فى «أن آمنوا فآمننا» وفى «عمل عامل منكم» والمغاير فى «مناديا ينادى». والاشارة فى ما خلقت هذا باطلا والحذف فى مواضع.» (١)

فهذه النواحي التى نبه اليها أبوحيان من الطباق والتجنيس والحذف والتكرار وما شابه ذلك لانعدامها فى كلام المتنبي ومقامات الحريري فأى ميزة إذا لهذه الآيات؟

مع أن الواقع الذى لا مرية فيه أن هناك بونا شاسعا بين هذه الآيات وبين تلك (المقامات) أو تلك (المتنبيات) بل لا نسبة بينهما، فأين الثرى من الثريا وأين السمك من السماك !!

والوضع الذى نراه عند أبى حيان ليس مقصورا عليه، فكل من غفل عن نظام الآيات أو تناوله تناولا قاصرا عابرا لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن ولا يمكنه أن يدرك ميزته التى تخصه من بين سائر أنواع الكلام. ولا يمكنه أن يستوعب ما يرمى اليه قوله تعالى:

﴿قل لنن اجتمعن الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (١)

نعم، لا يمكنه أن يستوعب ذلك ويقتنع به اقتناعاً علمياً كاملاً حتى يلج الجمل في سم الخياط. ولذلك نرى الناس تحيروا في ادراك وجه الإعجاز في هذا القرآن. ولم يأتوا فيه بشئ تطمنن اليه النفس.

و يرى كاتب هذه الكلمات المتواضعة أن سر إعجاز القرآن هو هذا النظام.

فهذا النظام هو الذى جعل من تلك الآيات التي لا نرى فيها من ضروب البلاغة الا التجنيس والطباق والحذف والتكرار وما شابه ذلك، عالماً عجيباً من الروعة والجمال وبحراً زاخراً من المعاني والحكم، بحيث تهتز لها النفس اهتزازاً وتقتلى بها بهجة وسروراً، ولا تدرى كيف تعبر عما تجدد فيها من لطائف البلاغة وروائع البيان.

وسيرى القارئ شيئاً من ذلك حين ندرس تلك الآيات في موضعها باذن الله.

وليس هذا الشئ مقصوداً على تلك الآيات، فالقرآن كله -- نزل بهذا الشكل، ولا تفارقه هذه الميزة في أي موضع من مواضعه، وإن كان هناك تفاوت في مقاديرها حسبما يقتضيه الأمر. ولقد سجلت هذه الرسالة ولم يكن القصد بها الا أن تكشف هذه الجوانب التي مازالت في خفاء، ومازالت تنتظر من يبينها ويجليها للناظرين.

وما كان لمثل هذا العمل العظيم أن ينجز على يد هذا العبد المتواضع المسكين، الذي لا يضم بين يديه الا الضعف والعجز وقلة العلم وقلة التقوى والعياذ بالله!

ولكن كم أحمده - سبحانه وتعالى - وكم أثني عليه!

ومن أين لى ذلك اللسان الذى يحصى الثناء عليه!!

فقد كان لى في هذه الفترة من عونه - تعالى - ومن نصره وفتحه حظ والف.

فكم اعترضت لي عقبات في الطريق ولكن سرعان ما ذللت!

وكم واجهتني معضلات ومشاكل في هذا العمل ولكنها مالبثت أن حلت وانكشفت!

وكم حدث أن ينست من انجاز هذا العمل ، وكاد اليأس يقعد به عن الاستمرار فيه، ثم شعرت

كأن يدا حانية مشفقة تمسح عن قلبى اليأس وتفتح أمامي نوافذ الأمل!

وهكذا في ظل رعاية الله وعنايته وفضله وتوفيقه تم هذا العمل واستوى على سوكه!

فلك الحمد يارب مكة السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد!!



وأما خطة هذا البحث فهي عبارة عن تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

فأما التمهيد فهو عبارة عن دراسة موجزة لتفسير الامام البقاعي «رحمه الله» وهو: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

ولقد بينت في هذه الدراسة منهج البقاعي في تناول علم المناسبات، وبينت الفرق بين منهجه وبين منهج الذي حاولت أن أطبقه في هذه الرسالة.

فالفارق الأساسي بين منهج البقاعي وبين منهج هذه الرسالة هو أن منهجه لا يعتمد على أسس علمية واضحة ثابتة، بل يعتمد في أكثر مواقفه على محض الرأي. ولذلك يغلب على أسلوبه طابع التكلف والتعسف بشكل واضح.

بينما هذا المنهج الذي سرت عليه في هذه الرسالة يعتمد من أول أمره على أسس علمية واضحة ثابتة. ولا مكان فيه للقول بمحض الرأي.

ولقد قصرت هذه الدراسة على السور الثلاث الأولى، التي هي موضوع بحثي، لكيلا يطول بنا الحديث، ولكي يتمكن القارئ من المقارنة بين المنهجين إذا أراد.

ويتبع هذا التمهيد الباب الأول، وهو نظام سورة الفاتحة.

وهذا الباب يتضمن ستة فصول:

الفصل الأول: على هامش السورة.

الفصل الثاني: عمود السورة.

الفصل الثالث: وجوه الارتباط بين الآيات.

الفصل الرابع: ارتباط السورة بالتى بعدها.

الفصل الخامس: موقع السورة من جملة القرآن.

الفصل السادس: المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه.

ثم يأتي الباب الثاني، وهو: نظام سورة البقرة .

والباب الثالث، هو : نظام سورة آل عمران.

ولم أفعل في هذين البابين مثلما فعلت في الباب الأول من تقسيمه الى عدة فصول. وذلك للفرق الذي يوجد بين سورة الفاتحة وبين هاتين السورتين من ناحية الحجم.

بل تناولت كل مجموعة من الآيات واحدة واحدة و بينت مناسبتها فيما بينها ولما قبلها، ثم ان كانت هناك حكم تستفاد من نظم تلك الآيات من غير تكلف ولا تعسف، أشرت اليها.

وأیضا ان كانت هناك آية أو آیات قد التبس على الناس أمرها ولم يكن لى بد من الوقوف

عندها، وقفت عندها، وأدليت بدلوى فى بيان تأويلها حتى يستقيم لنا فهم نظمها.
وبعد ما انتهيت من بيان المناسبة فى آيات السورة وفى أجزائها فى كل من الهابين عدت الى
السورة مرة أخرى، لأبين عمودها، الذى تدور السورة حوله بجميع أجزائها.
وفى نهاية الباب الثالث بينت وجوه المناسبة بين البقرة وآل عمران. وأما مناسبة البقرة لسورة
الفاتحة، فقد انتهيت من بيانها فى الباب الأول فى أثناء حديثى عن سورة الفاتحة.
ثم تأتى الخاتمة.

والخاتمة عبارة عن قمتى العودة الصادقة الواعية الى تدبر كتاب الله والتأمل فى نظمه الحكيم الذى
يزخر بعالم من المعانى والحكم.
وتنبية الى أن هذا هو سر سعادة هذه الأمة، وسر تقدمها وازدهارها، فان كانت الأمة حريصة
على سعادتها وتقدمها وازدهارها فلا سبيل لها الا أن تعود الى كتاب ربها كما عاد اليه سلفها، ولن
يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها.



وبعد : فهذه لمحة سريعة الى منهج هذه الرسالة والى موضوعاتها.
ولا يسعنى هنا الا أن أتقدم بالشكر والعرفان بالجميل الى جامعتنا العزيزة جامعة الامام محمد
بن سعود الاسلامية- حرسها الله ورعاها- التى أتاحت لى هذه الفرصة السعيدة، فلقد كانت هذه
لحظات ر مانية مباركة عشتها فى ظلال هذا القرآن العظيم.
ثم لم أكن لأنعم بتلك اللحظات الطيبات المباركات لولا أن جلة أساتذتى وخلص اخوانى
ساعدونى فى التغلب على المشكلات التى كانت جاثمة فى طريقي ولم تكن تسمح لى
بمواصلة دراستى.

فجزاهم الله جميعا عنى وعن هذه الرسالة كل خير وبارك فى حياتهم ونشاطهم، وأسألهم من
فضله ماء غدقا، وهيا لهم من أمرهم مرفقا.

هذا، وأسأل الله ربي أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، و ينفعنى به يوم لا ينفع مال
ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم. انه تعالى جواد كريم ملك بر رؤوف رحيم.

محمد عنايت الله اسد سبحانى

جامعة الفلاح- بليريا كنج

اعظم كره - الهند

التمهيد

﴿ دراسة موجزة لتفسير البقاعى والفرق بين منهجه ومنهج هذه الرسالة ﴾

لقد سألتني كثير من الناس حين وقع اختياري على هذا الموضوع، موضوع نظام الآيات والسور : لماذا اخترت هذا الموضوع؟ فقد كتب فيه الناس كثيرا، وأشبعوا فيه الكلام، وعلى رأسهم الامام البقاعي رحمه الله الذي أفرد هذا الموضوع بتفسير كامل مبسط، أسماه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) فقد تناول فيه كل ما يتعلق بالموضوع، ولم يترك للمتأخر الا أن يفترف من هذا البحر الزاخر، ويستكثر مما فيه من الثمين الزاهر.

فما الذي حملك على أن سجلت هذا الموضوع؟

وهل عندك جديد تريد أن تضيفه اليه؟

لقد وجه اليّ هذا السؤال كثيرا.

والذين وجهوه لم يكونوا من عامة الناس، بل كانوا ممن يعتز بهم من أولى العلم وأصحاب الفضل.

وهذا الوضع يؤكد لنا أهمية هذا السؤال، ويفرض علينا أن نأخذه بعين الاعتبار.

ثم يزداد هذا السؤال أهمية الى أهميته حين نرى الإمام البقاعي نفسه قد نوه بتفسيره تنويها وعظم من شأنه تعظيما حيث قال:

"وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها. ولقد شغاني بعض فضلاء العجم وقد سألتهم عن شيء من ذلك فقرأه مشكلا ثم هزرت اليه وجه مناسبتة وسألته هل وضع له؟ فقال: ياسيدي كلامك هذا يتسابق الى الذهن. فلا تظن أن الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها، قرب آية أقمت في تأملها شهورا، منها: ﴿وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ في آل عمران ومنها: ﴿يُوسِفَتُنْكَ فِي الْغَنَاءِ﴾ قل الله يفتيكم فيهن﴾ «يوسفونك قل الله يفتيكم في الكلالة».

ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ماقلته ثم لينظره يظهره مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله من العون، سواء كان ظهره وجه لذلك عند تأمله أو لا. وكذا اذا رأى ما ذكره غيري من مناسبات بعض الآيات". (١)

ويقول رحمه الله :

«وقد ذكر الزركشي نحو أربع ورقات من مناسبات بعض الآيات، وإذا تأملتها عظم عندك ما في

(٢)

هذا البحر الزاخر من نفائس الجواهر وبدائع السرائر».

(١) نظم الدرر: ١٤/١ - ١٥.

(٢) المصدر السابق: ١٦/١.

إذا فأصبح من الضروري جدا - بعد هذا السؤال الذى وجّه إلىّ ويعد هذه الكلمات التى عرّف بها البقاعى تفسيره - أن أبدأ عملى هذا بتقديم دراسة موجزة لهذا التفسير الضخم الكبير وأن أبين الفرق بين منهج صاحبه وبين منهجى الذى أريد أن أتبعه، وأن أبين الفرق بين النتائج التى تتربّ على المنهجين، حتى يكون لى مبرر لاختيار هذا الموضوع مع وجود هذا التفسير الضخم العظيم. وأما الناس الآخرون الذين عنوا بهذا الموضوع، وبذلوا جهدهم المشكور فى هذا المجال، فلا يسمع لى المقام بأن أتناول عملهم بالدراسة والتقويم فى هذا التقديم المختصر. الا أننى سأفصح لهم المكان فى غضون هذه الرسالة وأضعافها، وسيكون لى معهم حوار ونقاش كلما اقتضى الأمر وكلما دعت إليه المناسبة.

منهج البقاعى فى التماس مناسبات الآيات:

إذا فلنبداً حديثنا الآن عن عمل البقاعى ومنهجه فى تفسيره.

يقول البقاعى وهو يحدث عن منهجه فى التماس مناسبات الآيات:

قال شيخنا الامام المحقق أبو الفضل محمد ابن العلامة القدوة أبى عبدالله محمد ابن العلامة القدوة أبى القاسم محمد المشدالى المغربى البجائى المالكى علامة الزمان سقى الله عهده سحائب الرضوان وأسكنه أعلى الجنان: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام واللوازم التابعة له، التى تقتضى البلاغة شفاء العليل يدفع عنه الاستشراف الى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك ان شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية فى كل سورة سورة، والله الهادى - انتهى.

وقد ظهر لى باستعمالى لهذه القاعدة بعد وصولى الى سورة سبأ فى السنة العاشرة من ابتدائى فى عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شئ تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال اجمالاً على تفصيل ما فيه: وذلك هو الذى أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومقصود كل سورة هاد الى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة، وأطبق بينه وبين اسمها، وأفسر كل بسملة بما يوافق مقصود السورة ولا أخرج عن معانى كلماتها".^(١)

هذا ما حرره البقاعى وهو يبين لنا منهجه فى التماس وجوه المناسبة بين الآيات. والتأمل فى

كلامه يوقننا أمام نقطتين رئيسيتين، وهما كما يلى:-

(١) نظم الدرر : ١٧/١ - ١٩

١- اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.

٢- مقصود كل سورة هاد الى تناسبها، فليكن أول خطوتنا في هذا الطريق أن نحدد مقصود السورة، وأن نحدد المقدمات التي يحتاج اليها ذلك المقصود. وبعد ذلك نلتصق مناسبات الآيات.

هاتان نقطتان أساسيتان في منهج الامام البقاعي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة عندهما.

أما النقطة الأولى فيحوم حولها سؤالان:

١- هل هذه الأسماء التي تروى لنا الآثار لكل سورة من سور القرآن، كلها توقيفية حتى نعتبرها أقلبدا لمقاصد السورة، أم انها اجتهادية وضعها الناس حسب ما ظهر لهم من المناسبات؟

٢- لو افترضنا أنها كلها توقيفية- على خلاف القول الراجح في هذا الموضوع- فهل هناك شيء ثابت في كون هذه الأسماء عناوين لمقاصد السور التي سميت بها؟

قد يقال : هذه ظاهرة يؤيدها الواقع، وان لم ترد بها الآثار. وإذا كان الشيء يؤيده الواقع فلا يضره، ان لم ترد به الآثار.

ويبدو أن البقاعي كان جل اعتماده على ما ظهر له من دليل الواقع، كما نعلم مما سبق من كلامه، حيث قال:

«وقد ظهر لى باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي الى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.»

إذا فلتكن لنا وقفة عند ما ظهر له من دليل الواقع حتى نقول ما نقول عنه عن بينة وعلى بصيرة، ولا نكون متسرعين في الحكم له أو الحكم عليه.

مقصود سورة الفاتحة كما يراه البقاعي :

يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة الفاتحة ودلالة أسمائها عليه :

فالفاتحة اسمها «أم الكتاب» والأساس والمثاني والكنز والشافية والكافية والوافية والواقية والرقية والحمد والشكر والدعاء والصلاة. فمدار هذه الأسماء كما ترى على أمر خفي كاف لكل مراد وهو المراقبة التي سأقول انها مقصودها، فكل شيء لا يفتتح بها لا اعتداد به، وهي أم كل خير، وأساس كل معروف، ولا يعتد بها الا اذا تثبتت، فكانت دائمة التكرار، وهي كنز لكل شيء، شافية لكل داء كافية لكل هم، وافية بكل مرام، واقية من كل سوء، رقية لكل ملم، وهي اثبات للحمد الذي هو الاحاطة بصفات الكمال، وللشكر الذي هو تعظيم المنعم، وهي عين الدعاء فانه التوجه الى المدعو، وأعظم مجامعها الصلاة.

إذا تقرر ذلك فالغرض الذي سبقت له الفاتحة، وهو اثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة، بالسؤال في المن بالزام

صراط الفائزين والانتقاد من طريق الهالكين مختصا بذلك كله. ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم، لأفراده بالعبادة فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل اليه، فانه لا يد في ذلك من اثبات احاطته تعالى بكل شئ، ولن يثبت حتى يعلم أنه المختص بأنه الخالق الملك المالك، لأن المقصود من ارسال الرسل وإنزال الكتب نصب الشرائع والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق والمقصود من جمعهم تعريتهم الملك وما يرضيه، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول ولن يكون ذلك الا بما ذكر علما وعملا. (١)

هذا ما حرره البقاعى في بيان مقصود هذه السورة، ودلالة أسمائها عليه .

ومما نلاحظه في هذا المقال أنه يذكر لنا مقصود هذه السورة العظيمة، ولكنه لا يبين لنا أن هذا الذى توصل اليه من مقصود هذه السورة، كيف يستنبط منها، وما هى الملا مع التى ترشدنا الى هذا المقصود.

وكذلك لا نجد فى كلامه شيئا مما يبين لنا أن هذه الأسماء الكثيرة المتعددة التى وردت بها الآثار كيف تترجم جميعها عن هذا المقصود الذى نص عليه، مع أن هذا أمر يحتاج الى بيان وتفصيل، ولا يقبل منه قبل أن يظهر له دليل.

مقصود سورة البقرة كما يراه البقاعى:

ثم يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه:

«مقصودها اقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع فى كل ماقال. وأعظم ما يهدى اليه الايمان بالغيب، ومجمعه الايمان بالآخرة، فمداره الايمان بالبعث، الذى أعريت عنه قصة البقرة، التى مدارها الايمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة. وكانت بذلك أحق من قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام، لأنها فى نوع البشر وما تقدمها فى قصة بنى اسرائيل من الاحياء بعد الاموات بالصعق وكذلك ما شاكلها لأن الاحياء فى قصة البقرة عن سبب ضعيف فى الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس، فهى أدل على القدرة ولاسيما وقد أتبع بوصف القلوب والحجارة بما عم المهتدين بالكتاب والضالين، فوصفها بالقسوة الموجبة للشقوة، ووصفت الحجارة بالحشية الناشئة فى الجملة عن التقوى المانحة للمدد المتعدى نفعه الى عباد الله. وفيها اشارة الى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولى العزم من الرسل، يرشدنا فى كل أمر الى صواب المخرج منه، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن أجاب اتقى وأجاد.

وسميت بالزهراء لانارتها طريق الهداية والكفاية فى الدنيا والآخرة، ولايجابها اسفار الوجوه فى يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن فى شك مريب، فيحال بينه وبين ما يشتهى.

وبالسنام لأنه ليس في الايمان بالغيب بعد التوحيد الذي هو الأساس الذي يبنى عليه كل خير، والمنتهى الذي هو غاية السير، والعالي على كل غير بأعلى ولا أجمع من الايمان بالآخرة، ولأن السنام أعلى ما في بطن المطية الحاملة. والكتاب الذي هي سورته هو أعلى ما في الحامل للأمر، وهو الشرع الذي أتاهم به رسولهم ﷺ. (١)

هذا ما حرره البقاعى في بيان مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه.

والذي يستفاد من كلامه هو أن هذه السورة انما سميت بهذا الاسم، لأن قصة البقرة، التي وردت في هذه السورة تدل على البعث بعد الموت، وهى بذلك تدل على مقصود هذه السورة وتترجم عنه، حيث ان مقصودها اقامة الدليل على أن الكتاب هدى. وأعظم ما يهدى اليه هذا الكتاب هو الايمان بالغيب. والايمان بالغيب يتصل- في معظمه- بالايمان بالآخرة. والايمان بالآخرة مبنى على الايمان بالبعث، وهو الذى تعرب عنه قصة البقرة.

غير أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا: ان الاستدلال بقصة البقرة على مقصود سورة البقرة تكلف محض. فالذى يثبت بقصة البقرة- على حد قوله- هو البعث بعد الموت. والقصة التي تعرب عن البعث بعد الموت كيف يمكن أن تعتبر مترجمة عن مقصود هذه السورة، اذا كان مقصودها: اقامة الدليل على أن الكتاب هدى.

و لذلك فما أحسبني مغاليا حين أقرر أن كلامه يغلبه لون التكلف والتعسف بحيث يكاد يلمس بالراح.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فان قصة البقرة لا صلة لها بقضية البعث بعد الموت، كما أنه لا صلة لها بقصة احياء النفس المقتولة فهما قصتان مستقلتان منفصلتان. والذين جعلوها قصة واحدة ذهلوها عن أمور كثيرة لا تسمح بذلك.

وسأبين ذلك وأفصله حين أدرس تلك الآيات في موضعها.

وستكون لى لمحات سريعة الى هذا الموضوع في هذا التقديم أيضا بإذن الله.

وأما الاسمان الآخران لهذه السورة- وهما الزهراء والسنام- فلم يذكر عنهما البقاعى الا ما يعتبر تعليلا للتسمية بهما، وليس فى كلامه ما يثبت أنهما يترجمان عن مقصود السورة.

مقصود سورة آل عمران كما يراه البقاعى :

ثم يقول- رحمه الله- وهو يذكر مقصود سورة آل عمران ودلالة أسمائها عليه:

«المقاصد التى سيقَّت لها هذه السورة اثبات الوجدانية لله سبحانه وتعالى، والاخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الاسلام غير مغنية عنهم شيئا فى الدنيا ولا فى

الآخرة، وأن ما أعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذى ينبغى الاقبال عليه والمصارعة اليه.
وفى وصف المتقين بالايمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة.

هذا ماكان ظهرلى أولا، وأحسن منه أن نخص القصد الأول، وهو التوحيد، بالقصد فيها، فان الأمرين الآخرين يرجعان اليه. وذلك لأن الوصف بالقيومية يقتضى القيام بالاستقامة، فالقيام يكون على كل نفس، والاستقامة العدل كما قال: (قائما بالقسط) أى بعقاب العاصى وثواب الطائع بما يقتضى للموفق ترك العصيان ولزوم الطاعة.»

ويزيد فيقول:

«وما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بآل عمران، فانه لم يعرب عنه فى هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذى ليس في درج الايمان أعلى منه. فهو التاج الذى هو خاصة الملك المحسوسة، كما أن التوحيد خاصته المعقولة. والتوحيد موجب لزهرة المتحلى به، فلذلك سميت الزهراء.»^(١)

هذا ما حرية البقاعى فى بيان مقصود هذه السورة ودلالة اسمها عليه.

فأما مقصود هذه السورة فلسنا الآن بصدد الكلام عليه. فلنفترض أن القصد بها هو التوحيد كما يراه البقاعى - ثم لننظر هل اسم هذه السورة يترجم عن هذا المقصود؟

ان التأمل فى قصص آل عمران وفي جوّه وسياقه لا يشجعنا على القول بما قال به البقاعى ، فان الجوالذى يسوده ليس جو الدلالة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد، وانما هو جو الاصطفاء والتكريم، ثم جو الاعزاز والتأييد لآل عمران، على رغم أعدائهم الذين كانوا يكبرون بهم ويبغون لهم السوء.

ولقد نبه سبحانه وتعالى الى هذه الظاهرة فى مطلع هذا القصص حيث قال:

﴿ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين﴾ (٢)

نعم ، إن القدرة التامة هى التى يتم بها الاصطفاء والتكريم والاعزاز والتأييد، كما تتم بها الأعمال كلها، الا أن السياق لا يبرزها هنا، بل يبرز ما أشرنا اليه.

فالقارئ لا ينتهى من قراءة هذا القصص الا وهو مغتبط بما خص الله به آل عمران من السيادة والوجاهة والاصطفاء والتكريم. وسنبين ذلك ونفصله حينما ندرس تلك الآيات فى موضعها باذن الله.
اذا فالقول بأن تسمية هذه السورة بآل عمران تترجم عما قصد بها، وهوالتوحيد، تكلف محض لاينهض به دليل.

(١) نظم الدرر : ١٩٥/٤ - ١٩٧

(٢) سورة آل عمران : ٣٣

وأما تسمية هذه السورة بالزهاء، فالوضع هنا لا يختلف عما مرّ معنا في سورة البقرة، حيث انه لم يذكر عنها الا ما يعتبر تعليلا للتسمية بها، وليس فى كلامه شئ مما يثبت أن هذا الاسم يترجم عن مقصود هذه السورة.

وبالجملّة فهذا المبدأ الذى سار عليه البقاعى فى تفسيره لا يساعدنا فى تحديد مقاصد السور، بل يبعدنا عنها ويتركنا فى حيرة من الأمر.

ولقد جربنا هذا المبدأ فى ثلاث سور عظام، فوجدناه لا يسعفنا بالمقصود. والوضع نفس الوضع فى سائر السور الا أن المقام لا يسمح لنا بأن نتنفس فى سرد الأمثلة بعد ماوضح الأمر وتبلور.

فلنتنقل الآن الى النقطة الأخرى من منهجه - رحمه الله - وهى أن مقصود كل سورة هاد الى تناسبها، فليكن أول خطوتنا فى هذا الطريق أن نحدد مقصود السورة، ونحدد المقدمات التى يحتاج اليها ذلك المقصود، وبعد ذلك نلتبس مناسبات الآيات.

المناسبة بين السور الثلاث كما يراها البقاعى :

وانطلاقا من هذا المبدأ يبدأ البقاعى، فيحدد مقاصد السور، ثم يلتبس فى ضوئها المناسبة بين الآيات والآيات، والسور والسور.

فلقد مرّ معنا آنفا ما قاله رحمه الله فى مقاصد السور الثلاث ، حيث أفاد عن سورة الفاتحة أن مقصودها: مراقبة العباد لربهم.

وأفاد عن سورة البقرة أن مقصودها: اقامة الدليل على أن الكتاب هدى.

وأفاد عن سورة آل عمران أن مقصودها: اثبات الوجدانية لله سبحانه وتعالى.

ثم يقبل الى تلك السور الثلاث ليبين المناسبة بينها فى ضوء مقاصدها، التى أشار اليها، فيقول: « وهذا الوجه أوفق للترتيب ، لأن الفاتحة لما كانت جامعة للدين اجمالا، جاء ما به التفصيل محاذيا لذلك، فابتدئ بسورة الكتاب المحيط بأمر الدين، ثم بسورة التوحيد الذى هو سرّ حرف الحمد، أول حروف الفاتحة، لأن التوحيد هو الأمر الذى لا يقوم بناء الا عليه. ولما صح الطريق وثبت الأساس، جاءت التى بعدها داعية الى الاجتماع على ذلك.

وأیضا فلما ثبت بالبقرة أمر الكتاب فى أنه هدى، وقامت به دعائم الاسلام الخمس، جاءت هذه لاثبات الدعوة الجامعة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فأثبت الوجدانية له بابطال الهيئة غيره باثبات أن عيسى ﴿عليه الصلاة والسلام﴾، الذى كان يحى الموتى، عبده، فغيره بطريق الأولى.

فلما ثبت أن الكل عبيده دعت سورة النساء الى اقبالهم اليه واجتماعهم عليه.

ويزيد فيقول:

«ومناسبة هذا الأول بالابتدائية لآخر ما قبلها أنه لما كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي وما بعدها إنما هو بيان، لأنها أوضحت أمر الدين بحيث لم يبق وراءها مرمى لمتعنت، أو تعجب من حال من جادل في الإلهية، أو استبعد شيئاً من القدرة، ولم ينظر فيما تضمنته هذه الآية من الأدلة مع وضوحه، أو إشارة إلى الاستدلال على البعث بأمر السنايل في قالب الإرشاد إلى ما ينفع في اليوم الذي نفى فيه نفع البيع والخلة والشفاعة من النفقات، وبيان بعض ما يتعلق بذلك، وتقرير أمر ملكه لما منه الاتفاق من السماوات والأرض والأخبار بإيمان الرسول وأتباعه بذلك، وبأنهم لا يفرقون بين أحد من الرسل المشار إليهم في السورة، ويصدقهم في التضرع برفع الأثقال التي كانت على من قبلهم من بنى إسرائيل وغيرهم، وبالنصرة على عامة الكافرين / لما كان ذلك على هذا الوجه ناسب هذا الاختتام غاية المناسبة ابتداء هذه السورة بالذي وقع الإيمان به سبحانه وتعالى ووجهت الرغبات آخر تلك إليه.

وأحسن منه أنه لما نزل إلينا كتابه فجمع مقاصده في الفاتحة على وجه أرشد فيه إلى سؤال الهداية، ثم شرع في تفصيل ما جمعه في الفاتحة، فأرشد في أول البقرة إلى أن الهداية في هذا الكتاب، وبين ذلك بحقيقة المعنى والنظم كما تقدم - إلى أن ختم البقرة بالأخبار عن خلص عباده بالإيمان بالمنزل بالسمع والطاعة وأنهم ذلك مع التوجه بالدعاء إلى المنزل له أن له سبحانه وتعالى كل شيء وبيده النصر، علم أنه واحد لا شريك له حي لا يموت قيوم لا يغفل وأن ما أنزل هو الحق. فصرح أول هذه بما أفهمه آخر تلك، كما يصرح بالنتيجة بعد المقدمات المنتجة لها قال: (الله) أي الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه لأن له الاحاطة بجميع أوصاف الكمال والنزاهة الكاملة من كل شائبة نقص.

وقال الحرالي مشيراً إلى القول الصحيح في ترتيب السور من أنه باجتهاد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أقراراً لله سبحانه وتعالى لهذا الانتظام والترتيب السورى في مقرر هذا الكتاب: هو ما رضى الله سبحانه وتعالى فأقره، فلما كانت سورة الفاتحة جامعة لكلية أمر الله سبحانه وتعالى فيما يرجع إليه، وفيما يرجع إلى عبده، وفيما بينه وبين عبده، فكانت أم القرآن وأم الكتاب، جعل مثنى تفصيل ما يرجع منها إلى الكتاب المنبأ عن موقعه في الفاتحة مضمناً سورة البقرة إلى ما أعلن به، لأن نور آية الكرسي فيها، وكان منزل هذه السورة من مثنى تفصيل ما يرجع إلى خاص علن الله سبحانه وتعالى في الفاتحة، فكان منزلة سورة آل عمران منزلة تاج الراكب وكان منزلة سورة البقرة منزلة سنام المطية، قال ﴿يَعْلَمُ﴾: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة. لكل شيء تاج وتاج القرآن سورة آل عمران».

وانما بدئ هذا الترتيب لسورة الكتاب لأن علم الكتاب أقرب إلى المخاطبين من تلقى علن أمر الله، فكان في تعلم سورة البقرة والعمل بها تهيؤ لتلقى ما تضمنته سورة آل عمران ليقع التدرج والتدرب بتلقى الكتاب حفظاً وبتلقيه على اللقن منزل الكتاب بما أبداه علنه في هذه السورة. وبذلك

يتضح أن احاطة «الم» المنزلة في أول سورة البقرة احاطة كتابية بما هو قيامه وقامه، ووصلة ما بين قيامه وقامه، وأن احاطة «الم» المنزلة في أول هذه السورة احاطة الهيبة حيائية قيومية بما بين غيبة عظمة اسمه (ﷺ) الى تمام قيوميته البادية في تبارك ما أنبأ عنه اسمه «الحى القيوم» وما أوصله لطفه من مضمون توحيد المني عن كلمة الاخلاص في قوله «لا اله الا هو» فلذلك كان هذا المجموع في منزله قرآنا حرفيا وقرآنا كلسيا أسمائيا وقرآنا كلاميا تفصيليا عما هو اسمه الأعظم كما تقدم من قوله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم﴾ «الم» الله لا اله الا هو الحى القيوم»

وكما وقعت الاحة في سورة البقرة لما وقع به الانصاح في سورة آل عمران كذلك وقع في آل عمران من نحو ما وقع تفصيله في سورة البقرة ليصير منزلا واحدا بما أفصح مضمون كل سورة بالاحة الأخرى فلذلك هما غماتان وغيابتان على قارئهما يوم القيامة- كما تقدم- لا تفترقان. فأعظم «الم» هو مضمون «الم» الذى افتتحت به هذه السورة ، يليه في الرتبة ما افتتحت به سورة البقرة، يليه في الرتبة ما افتتحت به سور الآيات نحو قوله سبحانه وتعالى: «الم .. تلك آيات الكتاب الحكيم» فللكتاب الحكيم احاطة قواما وقاما ووصلة، وللمطلق الكتاب احاطة كذلك. واحاطة الاحاطات وأعظم العظمة احاطة افتتاح هذه السورة. « (١)

ثم يقول وهو يبين المناسبة بين بداية سورة آل عمران وبين ما ورد في أثنائها، وينبه الى سر الاختلاف الذى نلاحظه في صدر السورتين: البقرة وآل عمران:

«ومناسبة ابتدائها بالتوحيد لما في أثنائها أنه لما كان خلق عيسى عليه الصلاة والسلام من أنثى فقط. وهى أدنى أسباب النساء كان وجوده اشارة الى أن الزيادة قد انتهت وأن الخلق أخذ في نقصان، وهذا العالم أشرف على الزوال، فلم يأت بعده من قومه نبي بل كان خاتم أنبياء بنى اسرائيل وكان هذا النبي الذى أتى بعده من غير قومه خاتم الأنبياء مطلقا، وكان مبعوثا مع نفس الساعة وكان نزوله هو في آخر الزمان علما على الساعة. وصدرت هذه السورة التى نزل كثير منها بسببه بالوحدانية اشارة الى أن الوارث قد دنا زمان إرثه، وأن يكون - ولاشئ معه - كما كان، وأن الحين الذى يتمحض فيه تفرد الواحد قد حان، والآن الذى يقول فيه سبحانه: له الملك اليوم، قد آن. ويوضح ذلك أنه لما كان آدم عليه الصلاة والسلام مخلوقا من التراب الذى هو أمتن أسباب النماء، وهو غالب على كل ما جاوره، وكانت الأنثى مخلوقة من آدم الذى هو الذكر وهو أقوى سببى التناسل كان ذلك اشارة الى كثرة الخلائق ونمانهم وازديادهم، فصدر أول سورة ذكر فيها خلقه وابتداء أمره بالكتاب اشارة الى أن ما يشير اليه ذكره من تكثر الخلائق وانتشار الأمم والطوائف داع الى انزال الشرائع وارسال الرسل بالأحكام والدلائل فالمعنى أن آدم عليه الصلاة والسلام» لما كان منه الابتداء وعيسى عليه

الصلاة والسلام لما كان دليلا على الانتهاء اقتضت الحكمة أن يكون كل منهما مما كان منه، وأن تصدر سورة كل بما صدرت به. والله سبحانه وتعالى الموفق." (١)

تقويم رأى البقاعى:

هذا ما كتبه البقاعى وهو يريد أن يكشف القناع عما يوجد من المناسبة بين هذه السور الثلاث. وما لا يخفى أن هذه المناسبات، التى ذكرها بين هذه السور الثلاث، كلها ترجع الى ما حدد لها من المقاصد . وقد عرفناها قبل قليل.

والتأمل فى كلامه هذا، لا يلبث أن يثور فى ذهنه سؤال:

إن هذه المقاصد التى يركز عليها البقاعى، ويعتبرها مفتاحا لمعرفة المناسبات بين الآيات والسور، من أين عرفها ومن أين استخرجها؟

وهل هناك طرق معلومة للتوصل الى تلك المقاصد، ويستطيع كل باحث أن يتوصل اليها باتباع تلك الطرق ، أم انها من قبيل الأسرار، التى لا يعرفها الا من تفتح عليه؟
والذى يظهر من صنيعه هو الوجه الثانى، حيث انه لم يذكر فى تفسيره الا تلك المقاصد، ولم يبين لنا شيئا مما يعتبر دليلا اليها .

فكأنما أُلقيت هذه المقاصد فى روعه القاء حتى تكون له أداة ومفتاحا لما انغلق على الناس من علم المناسبات.

فهو يعتمد عليها اعتمادا كلياً، ويستعين بها فى التماس المناسبات.

وبعبارة أخرى، فهو لا يعتمد فى عمله هذا على أسس علمية ثابتة واضحة، بل لا نحيف عليه اذا قلنا: انه فى عمله هذا أشبه برجل يبنى على جرف هار، لا يدري ما ليل من نهار.
وتلك النقول التى نقلناها من تفسيره أصدق شاهد وأثبت حجة عليه.

فتلك النقول منها ما يشتمل على شئ يتعارض مع صريح النص وصريح العقل، كما نشاهد ذلك فى العبارة الثالثة الأخيرة، فالذى يطلع على هذه العبارة يحتار ويسائل نفسه:

هل كل ما فى هذه السورة هو أن عيسى ﴿عليه السلام﴾ خلق من أنثى فقط، حتى يعتبر ذلك دليلا على مناسبة أول السورة لما فى أثنائها؟ وحتى يحمل ذلك محملا بتيه منه اللب ويشده منه الجنان!

لا شك أن هذه الإشارة التى استنبطها البقاعى فى غاية البعد، فسيدنا عيسى كان آية الحياة وآية النور، كما يدل عليه كلامه فى المهد، وكما يدل عليه لقبه الخاص به، وهو كونه روحا من الله:

﴿وَكَلَّمْتَهُ نَفَقَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٢)

(١) نظم الدرر : ٢١١/٤ - ٢١٣

(٢) سورة النساء : ١٧١

وكما تدل عليه الآيات التي خص بها من بين سائر الأنبياء والرسل من خلق الطير وأحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

ولعل البشرية التي خلقت بعده أكثر بكثير مما خلقت قبله.

ثم إن كان خلق آدم إشارة إلى كثرة الخلاق وغنائهم وازديادهم - على حد قوله - فذكره لا يشير إلى ذلك .

وكذلك إن كان خلق عيسى إشارة إلى انتهاء الزيادة - على حد قوله - فذكره لا يشير إلى ذلك ، والا سيحصل هناك تعارض بين دلالة السورتين ، حيث إن سورة البقرة ستدل على كثرة الخلاق وغنائهم وازديادهم ، وستكون داعية إلى انزال الشرائع وإرسال الرسل بالدلائل والأحكام ، لكونها مشتملة على ذكر خلق آدم ، بينما سورة آل عمران ستدل على عكس ذلك تماما لكونها مشتملة على ذكر خلق عيسى ﷺ .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن انزال الشرائع وإرسال الرسل بالدلائل والأحكام لا يرجع إلى كثرة الخلاق ، بل لا صلة له بها أصلا .

إذا فهذه المناسبة التي ذكرها ، ليس لها قوائم ، وليس عليها دلالة في السياق ، أو شهادة من الواقع ، بل هي تتعارض مع صريح النص وصريح العقل .

وأیضا فیما نقلناه من كلامه ما هو كالضريح الذي لا یسمن ولا یغنى من جوع ، أو كالمورد الملع الذي لا یزید واردة الا حرارة العطش ، كالذي اقتبسه من كلام الحرالي ، فلا شك أنه أشبه بالألغاز منه بالمناسبات ، والقارئ كلما تأمل فيه لم یزد منه الا حيرة وعمى .

وأیضا فیما نقلناه من كلامه ما هو مثال واضح لضعف الاستدلال فقوله في الفقرة الثانية من العبارة الثانية : (فصرح أول هذه - أي سورة آل عمران - بما أفهمه آخر تلك - أي سورة البقرة - كما یصرح بالنتيجة بعد المقدمات المنتجة لها) من هذا النوع حيث إن المخاطبين بأوائل سورة آل عمران غیر الذين وردت فيهم خواتيم سورة البقرة ، فقد وردت الخواتيم تحكى حال الصفوة المختارة من المؤمنین بينما أوائل سورة آل عمران ناظرة إلى كفار أهل الكتاب .

إذا فالمناسبة التي أشار إليها لا تصح ولا تستقیم .

وأیضا فیما نقلناه من كلامه ما یعتمد على افتراضات ليس لها أساس ، فالقول بأن آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي قول یحتاج إلى دلیل لا یقل فی وضوحه عن وضوح الشمس ، وذلك مطلب دونه خبط القنادا !

وأیضا من هذا النوع ما قاله فی الفقرة الثانية من العبارة الأولى ، حيث انه لم یبین لنا أن هذه .

السورة كيف تثبت تلك الدعوة الجامعة الواردة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (١).

وأما ذكر عيسى ﴿عليه السلام﴾ فلم يرد في هذه السورة لإبطال الهيئته - كما سنبينه في موضعه - ولو افترضنا أن الأمر كما قال فإن ذكر عيسى لا يشغل إلا مساحة قصيرة من هذه السورة. فهذا الأمر وحده لا يكفي للقول بأن السورة كلها جاءت لاثبات تلك الدعوة الجامعة.

وبالجملة فهذا الضعف والتكلف الذي نلاحظه عند البقاعى في التماس المناسبات نتيجة طبيعية لذلك النقص الذى يوجد فى منهجه، حيث انه لا يعتمد على قواعد علمية واضحة ثابتة، وإنما هو عبارة عن مبدئين، لا نصيب لهما من الدقة والمتانة.

وبعد ما انتهينا من دراسة منهجه في التماس المناسبة بين سورة وسورة، وبين مقصد السورة وما في أثنائها، وبين ختام السورة وأوائل السورة التالية لها، نود أن تكون لنا وقفة عند تناوله الآيات والتماسه المناسبة فيما بينها بشكل عام، حتى نكون قد ألقينا الضوء على جوانب الموضوع كلها، وحتى نتمكن من اعطاء صورة واضحة متكاملة عن عمله.

المناسبة بين القصص الثلاث كما يراها البقاعى :

لقد جاء في سورة البقرة التلميح الى قصة أهل السبت:

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

ثم جاءت قصة البقرة :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً الْخ ...﴾ (٣)

ثم جاء التلميح الى قصة النفس المقتولة :

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ

يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٤)

فيقول البقاعى وهو يبين المناسبة بين هذه القصص الثلاث:

« ولما بين تعالى قساوتهم في حقوقه عامة ثم خاصة أتبعه بيان جساوتهم في مصالح أنفسهم

لينتج أنهم أسفه الناس فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾

(١) سورة البقرة : ٢١

(٢) سورة البقرة : ٦٥-٦٦

(٣) سورة البقرة : ٦٧-٧١

(٤) سورة البقرة : ٧٢-٧٣

... أو يقال انه لما كان السبت انما وجب عليهم وابتلوا بالتشديد فيه باقتراحهم له وسؤالهم اياه بعد ابائهم للجمعة كما يأتى ان شاء الله تعالى بيانه عند قوله تعالى: ﴿انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ كان أنسب الأشياء تعقيبه بقصة البقرة التى ما شدد عليهم في أمرها الا لتعتهم فيه وابائهم لذبح أى بقرة تيسرت. ويجوز أن يقال انه لما كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة الى ازهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصة البقرة التعت والتباطؤ عن ازهاق نفس واحدة أمروا بها تلاء بها. ومن أحسن المناسبات أن في كل من آتى القردة والبقرة تبديل حال الانسان بمخالطة لحم بعض الحيوانات العجم، ففي الأولي إخراسه بعد نطقه بلحم السمك وفي الثانية انطاقه بعد خرسه بالموت بلحم البقر. ولعل تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لا يقاطهم من رقتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذى عبده. وقال الامام أبو الحسن الحارثي: وفي ذلك تشام بين أحوالهم في اتخاذهم العجل وفي طلبهم ذلك. وفي كل ذلك مناسبة بين طباعهم وطباع البقرة المخلوقة للكذ وعمل الأرض التى معها التعب والذل والتصرف فيما هو من الدنيا توغلا فيها وفيه نسمة مطلبهم ماتت الأرض الذي هو أثر الحرث - يعنى الذى أبدلوا الحطة به وهو حبة فى شعرة، فكأنهم بذلك أرضيون ترابيون لا تسمو طباع أكثرهم الى الأمور الروحانية العلوية، فان جيلة كل نفس تناسب ما تنزع اليه وتلهج به من أنواع الحيوان فجعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا﴾ انتهى.

وقسمت القصة شطرين تنبيهها على النعمتين: نعمة العفو عن التوقف عن الأمر ونعمة البيان للقاتل بالأمر الخارق وتنبيهها على أن لهم بذلك تقيدين: أحدهما باسائة الأدب في الرمي بالاستهزاء والتوقف عن الامتثال والثانى على قتل النفس وما تبعه. ولو رتب ترتيبها في الوجود لم يحصل ذلك، وقدم الشطر الأنسب لقصة السبت ثم أتبعه الآخر. وقال الحارثي: قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر تدارؤهم في القتل ابتداء بأشرف القاصدين من معنى التشريع الذى هو القائم على أفعال الاعتداء و أقوال الخصومة. انتهى. (١)

تقويم هذه الوجوه :

هذه الوجوه التى ذكرها البقاعى للمناسبة بين هذه القصص الثلاث.

وحين نمن النظر فيما كتبه، لا نرتاح اليه من عدة وجوه وهى كما يلى:

- ١ - الاعتداء في السبت لا يعنى ازهاق أرواح الحيتان. وانما يكفى لكونهم معتدين في السبت أن يصطادوها في ذلك اليوم، وان لم يزهقوا أرواحها أو يحبسوها حتى يتمكنوا من اصطيادها فيما بعد.
- حتى ولو حاولوا في ذلك اليوم اصطيادها أو حبسها فهم يعتبرون معتدين في السبت، بمجرد محاولتهم تلك، وان لم يظفروا بواحدة منها.

إذا فلا يستقيم قوله في بيان مناسبة قصة البقرة لما قبلها:

«انه لما كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة الى ازهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصة البقرة التعتن والتباطؤ عن ازهاق نفس واحدة أمروا بها تلاه بها.»

٢- ان المعتدين في السبت لم يخرسوا بلحم السمك وانما أخرسوا بفسقهم وعتوهم كما صرح به القرآن، حيث قال تعالى:

﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ (١)

والذى أنطق بعد خرسه بالموت لم ينطق بلحم البقر، وانما أنطق بمحض قدرة الله . ولا صلة له بقصة البقر. وسنشيع الكلام على هذا الموضوع في موضعه باذن الله.

ومن هنا لا حاجة بنا الى التكلف الذي اضطر اليه حيث قال:

« ولعل تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لا يقاطهم من رقتهم وتبئهم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبده.»

ولا ندري كيف سكنت نفسه الى هذا التعليل، فانه لا فرق بين لحم البقر ولحم غيرها من الحيوانات في كونه مظهرًا لعظيم قدرة الله اذا ظهرت منه تلك المعجزة التي تحكى عن لحم تلك البقرة. اذا فلم يبق وجه لتخصيص لحم البقر بهذا الأمر.

٣= بيان القاتل بالأمر الحارق لم يكن نعمة ورحمة، وانما كان بالنسبة لهم عقوبة وفضيحة!

٤- ان كان ذبح البقرة واحياء النفس المقتولة قصة واحدة قسمت شطرين- كما يزعمون- فلماذا اختلف الأسلوب في الشطرين؟ حيث ان الأول ذكر بصيغة الغيبة والثاني بصيغة الخطاب:

﴿واذ قتلتم نفساً... تكتُمون﴾

٥- ان القول بأن القصة لو رتبت ترتيبها في الوجود لم تدل على ما دلت عليه، افتراض محض لا دليل عليه. فان ما ذكره من التقريعين والتنبية على النعمتين، لا صلة له بترتيب القصة، فليست هذه الأمور تستفاد من نظم الكلام، بل تستفاد من عبارة القصة وألفاظها.

اضافة الى ذلك أنه لا عهد لنا في القرآن بتقديم ما تأخر وتأخير ما تقدم. فالقصص التي وردت في القرآن كلها ذكرت على ترتيبها في الوجود.

٦- ان قصة البقرة ليست مثالا للتشديد في الأمر وانما هي مثال لسعة حلم الله وعظيم عفوه عن تعنت القوم واستهزائهم بأمره.

والأوصاف التي وردت في شأن البقرة ردا على سؤالهم، ليست من قبيل التشديد في الأمر، وانما هي من قبيل تبين المجمل وتوضيحه على طلب منهم.

ولا شك أن الأمر يكون فيه سعة اذا كان مجملا، ولا تبقى فيه تلك السعة بعد مجئ البيان. وهذه قاعدة عامة تجرى في جميع الأمور، ولا علاقة لها بالتشديد في الأمر.

وقد كان من واجبه حين وجه اليهم الأمر مجملا أن ينتقوا للنبح أحسن بقرة تيسر لهم. وان كان يكفي لخروجهم من العهدة أن يذهبوا أى بقرة من أبقارهم.

فلما جاءهم البيان من ربه على طلب منهم، ألزموا به الزاما ولم يبق لهم الخيرة من أمرهم.

ونظير ذلك أن الله تعالى أمر المؤمنين بالقرآن فقال:

﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا

البائس الفقير.﴾ (١)

فهذه الآية وأمثالها تأمر بقرآن الأضاحى بدون أن تذكر شروطها وتحدد أوصافها، ولكن النبي

﴿ﷺ﴾ قرب منها أحسنها وأسمنها وأكرمها وعلمنا كذلك ألا تقرب من الأنعام الا خيارها وكرائمها.

ففي رواية عن عائشة ﴿رضي الله عنها﴾ أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أمر بكبش أقرن، يطأ في سواد،

وينظر في سواد، ويبرك في سواد، فأتى به فضحى به. (٢)

وعن أنس ﴿رضي الله عنه﴾ أن النبي ﴿ﷺ﴾ نحر سبع بدنان بيده قياما، وضحى بالمدينة بكبشين

أقرنين أملحين. (٣)

وعن أبي سعيد - وهو الخدري - قال كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يضحي بكبش أقرن. فحبل ينظر

في سواد، ويأكل في سواد، ويمشي في سواد. (٤)

فترى من خلال هذه الروايات أن النبي (ص) أمرنا ألا تقرب من أموالنا الا ما كان صحيحا قويا

وكان جميلا سوياً يسر الناظرين.

(١) سورة الحج : ٢٨

(٢) مختصر سنن أبي داود: ٩٩/٤

(٣) المصدر السابق: ١٠٠/٤

(٤) المصدر السابق : ١٠١/٤

وكان عليه السلام أيضا يلتزم بذلك كما كان يأمر به الناس فكان لا يضحى من الأنعام الا بما كان أقواها وأسمنها وأكرمها وأجملها.

و كانت هذه سنته ﴿عليه الصلاة والسلام﴾ مع أن الله لم يأمرنا بذلك ولم يطلب منا الا أن نذكر اسمه على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.

و ذلك لأن العبد من واجبه ألا يتقرب الى ربه الا بأكرم أمواله وان لم يؤمر بذلك أمرا صريحا. فهكذا لما أمر بنو اسرائيل أن يذبحوا بقرة، كان من واجبه أن ينتقوا للذبح أحسن بقرة و أكرمها و أغلاها وأجملها في أعينهم وكان بنو اسرائيل يدركون ذلك جيدا، ولكنهم استهزؤا بنبيهم وأبوا الا أن يخرجوه بتلك الأسئلة الهازلة الساخرة.

فكان من سعة حلم الله وعظيم عفوه أنه لم يؤاخذهم بتلك السخرية الساخرة بل رد على أسئلتهم ردا جميلا وبين لهم ما أرادوه بيانا شافيا. وما يدل على أن تلك الأوصاف التي ذكرت للبقرة لم تكن من قبيل التشديد في الأمر أنها جاءت في جو يسوده البيان والتبيين فقد حكيت هذه الحكاية في خمس آيات. وورد ذكر طلبهم البيان في هذه الآيات الخمس ثلاث مرات:

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ ﴾

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ ﴾

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ ﴾

فجاءت مجموع هذه الأوصاف في ثلاث دفعات. وجاءت كل دفعه منها بعد طلبهم البيان، فكلما استزادوا البيان زادهم الله بيانا وايضا ، حتى تبين لهم الأمر ولم يبق لهم موضع للسؤال. وهناك قالوا تلك الكلمة الهازلة الساخرة : ﴿الآن جئت بالحق!!﴾

كأنهم يمنون على الرسول ويمنون على ربهم حيث قبلوا منه ذلك الأمر، وقد قبلوه منه بعد رد وكد ونقاش طويل. مع أن الأمر كان واضحا بينا عندهم، ولم تكن بهم حاجة الى ما فعلوه.

وبالجملة فهذا الجواب الذي يسود هذه الآيات يأبى القول بأن الأوصاف التي ذكرت للبقرة ردا على سؤالهم كانت من قبيل التشديد في الأمر لقاء تعنتهم وابائهم لذبح أى بقرة تيسرت وانما هو تبين من الله وايضاح منه على طلبهم حتى لا يكون لهم العذر في التعود عنه.

ولعلنا لا نبعد اذا قلنا ان الشروط التي كان يراعيها النبي ﷺ في الأضاحي والتي يجب علينا أن نراعيها كذلك هي كلها مستفادة من هذه الآيات، فالأحاديث التي تحذر من العرجاء والعوراء والخرقاء والشرقاء وما إليها ناظرة الى قوله تعالى: ﴿مسلعة لا مشية فيها﴾.

وكونه ﴿عليه الصلاة والسلام﴾ يضحى بكبش فحيل - وهو الكريم المختار للفحلة - يذكرنا قوله

تعالى : ﴿ انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾

وكان ﴿ عليه الصلاة والسلام ﴾ قد أمر بكبش يظأ في سواد، وينظر في سواد ويبرك في سواد - وهو الكبش الذي تكون أظلافه ومواضع البروك منه وما أحاط بملاحظ عينيه من وجهه أسود وسائر بدنه أبيض.

وكذلك ضحى ﴿ عليه الصلاة والسلام ﴾ بالمدينة بكبشين أملحين - والأملح من الكباش: هو الذي في خلال صوفه الأبيض طاقات سود.

ومثل هذه الروايات تذكرنا قوله تعالى : ﴿ انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ فالأملح من الكباش أو الذي يظأ في سواد وينظر في سواد ويبرك في سواد يعتبر بمنزلة الاصفر من الأبقار ولا فرق بينهما من حيث ان الأثنين يفوقان غيرهما بخلاصة اللون وحسن المنظر. وقال ﴿ عليه الصلاة والسلام ﴾: لا تذبخوا المسنة . والمسنة من البقر ابنة ثلاث، ودخلت في الرابعة - الا أن يعسر عليكم فتذبخوا جذعة من الضأن (١) - وهى التي دخلت في السنة الثانية -.

وهذا القول يذكرنا قوله تعالى: ﴿ انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾. فان صح أن هذه الشروط التى أمرنا بمراعاتها في الأضاحى ، كلها مستفادة من هذه الآيات ، أو شبيه بما تتضمنه هذه الآيات ، فكيف يصح القول بأنها وردت تشدد على قوم موسى في أمر البقرة؟

المناسبة بين القصص الثلاث الأخرى كما يراها البقاعى:

وبعد هذه الملاحظات المتواضعة على ما كتبه البقاعى في مناسبة هذه القصص الثلاث فيما بينها، تنتقل الى القصص الثلاث الأخرى لننظر كيف عالجه، وبين مناسبتها فيما بينها.

يقول ﴿ رحمه الله ﴾ وهو يلتمس المناسبة بين قصة الذى حاج ابراهيم في ربه ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقصة ابراهيم اذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى:

« ولما كان الايمان بالبعث، بل الايقان من المقاصد العظمى في هذه السورة، وانتهى الى هذا السياق الذى هو لتثبيت دعائم القدرة على الاحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق فبين أولاً بالرد على الكافر ما يوجب الايمان، وباشهاد المتعجب ما ختم الايقان، علا عن ذلك البيان في قصة الخليل ﴿ صلوات الله وسلامه عليه ﴾ الى ما يثبت الطمأنينة، وقد قرر سبحانه وتعالى أمر البعث في هذه السورة، بعد ما أشارت اليه الفاتحة بيوم الدين أحسن تقرير، فبث نجومه فيها خلال سموات آياتها، وفرق رسومه في أرجائها بين دلائلها وبياناتها فعل الحكيم الذى يلقى ما يريد بالتدرج غير عجل ولا مقصر، فكرر سبحانه وتعالى ذكره بالآخرة تارة والاحياء أخرى، تارة فى الدنيا وتارة فى

(١) مختصر سنن أبى داود: ١٠٢/٤

الآخرة في مثل قوله : «وبالآخرة هم يوقنون» «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم» الآية «ثم بعثناكم من بعد موتكم» «كذلك يحيى الله الموتى» «فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» وما كان من أمثاله ونظائره وأشكاله في تلك الأساليب المروءة غالبا بالذات لغيره فاستأنست أنفس المنكرين له به فصار لها استعداد لسماع الاستدلال عليه حتى ساق لهم أمر خليله «عليه الصلاة والسلام» والتحية والاكرام، فكان كأنه قيل: يامنكرى البعث ومظهرى العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التى أكثرها كاذب! اسمعوا قصة أبيكم ابراهيم «عليه السلام» التى لقاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرق وإعادة الروح بأخبار من لا يتهم بشهادة القرآن الذى أعجزكم عن الاتيان بمثل شئ منه فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين. فقال تعالى «واذ» عطفًا على نحو اذكروا ماتلى عليكم من أمر البعث و اذكروا قصة أبيكم ابراهيم فيما يدل عليه اذ، وقال الحرالى ولما كان أمر منزل القرآن اقامة الدين بمكتوبه وحدوده فأنهاه تعالى منتهى منه ثم نظم به ما نظم من علته فى آية الكرسي ورتب على ذلك دين الاسلام الذى هو القاء كالحق اليد عند الموت انتظم به أمر المعاد الذى لا مدخل للعباد فى أمره فرتب سبحانه وتعالى ذكر المعاد فى ثلاثة أحوال:

حال الجاحد الذى انتهت غايته الى بهت ، ثم حال المستبعد الذى انتهت غايته الى علم وإيمان وأنهى الخطاب الى حال المؤمن الذى انتهى حاله الى يقين وطمأنينة ورؤية ملكوت فى ملكوت الأرض - انتهى ، فقال سبحانه وتعالى «واذ قال ابراهيم» ولقد استولى الترتيب والتعبير فى هذه الآيات الثلاث على الأمد الأقصى من الحسن، فانها بدئت بمن أراد أن يخفى ما أوضحته البراهين من أمر الاله فى الاحياء بأن ادعى لنفسه المشاركة باحياء مجازىً تلبيسا بلفظ «الى» الدال على بعده ولعنه وطرده، ثم بمن استبعد احياء القرية فأراه الله سبحانه وتعالى كيفية الاحياء الحقيقية آية له وتتميمًا للرد على ذلك مع الاقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة . ثم بمن سأل اكرام الله تعالى له بأن يريه كيف يحيى فيثبت ثم أثبتت ثم أكدت. ومناسبة الثلاث بكونها فى احياء الأشباح بالأرواح لما قبلها وهو فى احياء الأرواح بأسرار الصلاح أجل مناسبة، فالمراد التحذير عن حال الأول والندب الى الارتقاء عن درجة الثانى الى مقام الثالث الذى حقيقته الصدق فى الايمان لرجاء الحيازة مما أكرم به . ولذلك عبر فى قصته بقوله (واذ) ولم يسبقها مساق التعجيب كالأول. (١)

ويزيد فيقول:

«ولما انقضى جواب السؤال عن الملك الذى لا تنفع عنده شفاعة بغير اذنه ولا خلة ولاغيرهما وما تبع ذلك الى أن ختم بقصة الأطيار التى صغت الى الخليل بالاتفاق عليها والاحسان اليها ثنى الكلام الى الأمر بالنفقة قبل ذلك اليوم الذى لا تنفع فيه الوسائل الا بالوجه الذى شرعه بعد قوله : «من ذا

(١) نظم الدرر: ٦٠/٤ - ٦٣

الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له» نظراً إلى أول السورة تذكيراً بوصف المتقين حثاً عليه ، فضرب لذلك مثلاً صريحة لمضاعفتها فاندرج فيه مطلق الأمر بها اندراج المطلق في المقيد وتلويحه الذي هو من جملة إلمار اليه بحكيم للأحياء . فصرح بأن النفقة المأمور بها من ذخائر ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما شرعه وهو من جليل العزة . وساقه على وجه يتضمن أحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات . فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس ، وذلك من دقيق الحكمة . فكأنه سبحانه وتعالى يقول : ان خليلي «عليه الصلاة والسلام» لما كان من الراسخين في رتبة الإيمان . أهله لا متطاء . درجة أعلى من درجة الايقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن أحياء الطيار وأقمت غطا من ذلك لعامة الخلق مطوياً في أحياء النبات على وجه معتاد فمن اعتبر به أبصر ومن عسى عنه انعكس حاله وأدبر فقال سبحانه وتعالى : (مثل) . « (١١)

تقويم هذه الافادات:

هذا ما يفيدنا البقاعى في مناسبة هذه القصص فيما بينها ، ولما بين يديها وما خلفها . والمتأمل إذا تأمل في هذه الافادات ، وثقلها ظهراً لبطن ، فانه لا يستريح اليها من عدة وجوه . وهى كما يلى :

١- ان ربط هذه الآيات بمنكري البعث يجعلها غريبة بين جاراتها . حيث ان الآيات التى سبقتها والتى تليها ، كلها تتصل بالذين آمنوا ، ولا صلة لها بمنكري البعث أصلاً ، لا من قريب ولا من بعيد . حتى الآيات التى استأنس بها ما جاءت لاثبات البعث ، وليس وجه الخطاب فيها إلى منكري البعث . وانما هى تخاطب بنى اسرائيل ، ومعلوم أنهم كانوا يؤمنون بالتوراة وكانوا يؤمنون بالبعث . وهكذا سيكون الوضع إذا رجعت هذه الآيات الى موضوع المعاد فان السياق ليس سياق اثبات المعاد . والموضوع الذي تتضمنه هذه الآيات غير هذا الموضوع .

ومن هنا يصعب على الباحث أن يوافق الحوالى فيما ذهب إليه من أن الله سبحانه وتعالى رتب ذكر المعاد هنا فى ثلاثة أحوال .

وكذلك الأمر فيما قاله البقاعى من أن الله تعالى أرى الذى استبعد أحياء القرية كيفية الأحياء الحقيقى مع الاقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاحظة .

أو ما قاله الحوالى من أنه انتهت غاية هذا المستبعد الى علم وإيمان .

فالذى يترجع في هذا الموضوع بعد التأمل في نظم الآية وسياقها هو ما قاله الزمخشري رحمه الله حيث قال :

«وَأَمَّا كَانَ كَافِرًا بِالْبُعْثِ وَهُوَ الظَّاهِرُ لانتظامه مع غرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي أنى يحيى.» (١)

٢- إذا كان ما قبل هذه القصص الثلاث في احياء الأرواح بأسرار الصلاح ، أليس من الأفضل أن تؤول هذه القصص أيضا الى احياء الأرواح حتى تتم المطابقة ويتحقق التناسب؟

أما أن يكون السياق سياق احياء الارواح وتذكر فيه قصص احياء الأشباح ، اعتمادا على فهم المخاطب ، أنه سيجيد الفهم ويحسن الاعتبار ويستوحى من تلك القصص ما يتناسب مع سياقها وان كانت هي في أصلها لا توحى بذلك ، خاصة وهو يرى أن المخاطب في هذه الآيات منكر للبعث- كما مر معنا آنفا- فهذا ليس من دأب القرآن - القرآن الذى ينتقى لكل موضع مايناسبه، ويكون دقيقا غاية الدقة فى سرد قصصه وأمثاله. اذا فهذه المناسبة التى ذكرها لا تخلو من تكلف ، وان كان يعتبرها هو (أجل مناسبة!).

٣- ان هذه المناسبة التى ذكرها بين قصة سيدنا ابراهيم وبين ما يتلوها من الأمر بالاتفاق والترغيب فيه والتحريض عليه، مناسبة ضعيفة تعتمد على الخيال أكثر مما تعتمد على الواقع.

فأى مناسبة بين الاتفاق على الطير والاحسان اليها وبين الاتفاق فى سبيل الله ، حتى يكون أحدهما تمهيدا للآخر، أو مدعاة اليه، أو سببا لانجراح الكلام اليه؟

وتزداد هذه المناسبة ضعفا حين نضع في اعتبارنا أن هذا الأمر الذى بنيت عليه هذه المناسبة ، ليس أمرا ثابتا، وإنما هو من الاحتمالات التى تتأرجح بين ثبوتها وانتفائها، وكفة انتفائها أرجح من كفة ثبوتها.

فليس هناك شئ يثبت أن سيدنا ابراهيم «عليه الصلاة والسلام» أنفق على الطير وأحسن اليها، حتى صفت اليه، الا ما ذكره عن الحرائى، حيث يقول:

« (فصرهن) أى: اضممنهن » اليك « أى لتعرف أشكالها فيكون ذلك أثبت في أمرها. قال الحرائى: من الصور وهو استعماله القلوب بالاحسان حتى يشتد الى المستميل صفوها وميلها، واشعاره ينهى ، والله سبحانه وتعالى أعلم، أن ابراهيم «عليه الصلاة والسلام» رآهن و غذاهن حتى عرفنه، ليكون ذلك مثلا لما لله سبحانه وتعالى في خلقه من تربيتهم بخلقهم ورزقهم حتى عرفوه بما احتاجوا اليه. فوجدوه معرفة عجز عنه لا معرفة نيل له، فمتى دعاهم من أقطار الآفاق أجابوه اجابة هذه الطوائر لخليله بحظ يسير من تربيته لهن. واذا كانت هذه الأربع مجيبة للخليل «عليه الصلاة والسلام» بهذا الحظ اليسير من الصور والصفو فكيف تكون اجابة الجملة للجليل العزيز الحكيم ! » (١)

(١) الكشف : ٣٩١/١

(٢) نظم الدرر: ٦٧/٤-٦٨

وهذا يعنى أن قصة الطير والاتفاق عليها ليست الا اجتهدا واستنباطا من الحوالى ﴿رحمه الله﴾. وماكان يضربنا هذا الاجتهاد لوأنه استند فيه الى دليل، ولكنه بنى أمره كله على لفظ (صور) ومن الواضح أن لفظ(صور)وحده لا يؤدي أبدا الى تلك النتيجة الرهيبة التى استخرجها الحوالى منه. ٤- وكما أن هذه المناسبة ليست من الوجاهة في شئ فكذلك تلك المناسبة التى ذكرها بعدها ، حيث قال:

«وساقه على وجه يتضمن احياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات، فهو ايماء الى الاستدلال على البعث بأمر محسوس، وذلك من دقيق الحكمة ، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: ان خليلي ﴿عليه الصلاة والسلام﴾ لما كان من الراسخين في رتبة الايمان أهله لا متطاء درجة أعلى من درجة الايقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن احياء الأطيوار ، وأقمت نمطا من ذلك لعامة الخلق مطوبا في احياء النبات على وجه معتاد.» (١)

فهذه المناسبة ليست أحسن حالا من أختها ، حيث ان هذه الآيات لا تقس موضوع احياء الموات مساً ، ولا صلة لها بالاستدلال على البعث أصلا.

والقارئ الخالى الذهن اذا قرأها وتدبرها، فلن تتبادر الى ذهنه هذه التكلفة التى استخرجها البقاعى ونوه بشأنها ولوطال مكثه عليها.

فهذه ليست من جنس المناسبات التى تتبادر الى الذهن طوعا، وتسرع اليه عفوا صفوا من غير تكلف ولاعناء ، وانما هى من جنس ما يخترعه الذهن اختراعا، ثم يقبل الى الآيات ليستخرجه منها استخراجا ولوكانت العبارة لا محتمله، بل كانت ترفضه رفضا!

فكم من آية في القرآن قد تناولت موضوع احياء الموات، واستدلّت به على البعث بعد الممات، ولكنها واضحة في موضوعها، وتختلف في لونها وأسلوبها. ولا بأس بأن نذكرها نماذج منها. قال تعالى :

(فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، ان ذلك لحىي الموتى، وهو على كل شئ قدير) (٢)

(يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) (٣)

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون.) (٤)

فأين هذه الآيات من تلك ، فهناك فرق واضح في لونها وأسلوبها ، فالقرآن يستدل على احياء

(١) المصدر السابق: ٧٤/٤

(٢) سورة الروم : ٥٠

(٣) سورة الروم : ١٩

(٤) سورة يس : ٣٣

الموتى باحياء الأرض الميتة، ولكن لا يستدل عليه أبدا بكثرة النبات وشدة النمو.

ولعل الامام البقاعى «رحمه الله» لم يضطر الى هذا التكلف في التماس المناسبة إلا لأنه ارتبك في فهم تلك الأمثلة الثلاثة وفى فهم أهدافها ودلالاتها، والا فالمناسبة بينها كانت واضحة، ولم يكن الأمر بحاجة إلى هذا التكلف الذي لجأ اليه.

تلك الوجوه التى أردت أن أنبه اليها. وهى تجعل الباحث لا يستريح الى ما ذهب اليه في مناسبة هذه القصص الثلاث فيما بينها ولما حولها.

وقفة عند آية أقام عليها البقاعى شهورا:

وقبل أن نقفل هذا الحديث نود أن تكون لنا وقفة عند آية يقول عنها البقاعى، انه أقام في تأملها شهورا، حيث يقول:

« فلا تظن أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها، فرب آية أقيمت في تأملها شهورا، منها: (واذ غدوت من أهلك) في آل عمران . الخ » (١)

فلننظر كيف عالج هذه الآية ، يقول رحمه الله:

ولما كان ما تضمنته هذه الآية من الاخبار ومن الوعد ومن الوعيد منطوقا ومفهوما محتاجا إلى الاجتلاء في صور الجزئيات ذكرهم سبحانه وتعالى بالوقائع التى شوهدت فيها أحوالهم من النصر عند العمل بمنطوق الوعد من الصبر والتقوى وعدمه عند العمل بالمفهوم وشوهدت فيها أحوال عدوهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة . وذلك غنى عن دليل لكونه من المشاهدات، مشيرا الى ذلك بوار العطف على غير مذكور، مخاطبا لأعظم عباده فطنة وأقربهم اليه رتبة، تهيبجا لغيره الى تدقيق النظر واتباع الدليل من غير أدنى وقوف مع المؤلف، فقال تعالى: (واذ) أى اذكر ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتقيتم فنصرتم، وحين ساءهم نصركم في كل ذلك: في سرية عبداللّه بن جحش الى نخلة ثم في بدر ثم في غزوة بنى قينقاع ونحو ذلك، واذكر اذ لم يصبر أصحابك فأصيبوا، واذ سرّتهم مصيبتكم في وقعة أحد. » (٢)

ويزيد فيقول:

« ولعله انما خص هذه الغزوة بالذكر دون ما ذكرت أن وار عطفها دلت عليه مما أيدوا فيه بالنصر لأن الشماتة بالمصيبة أدلّ على البغضاء والعداوة من الحزن بمايسرّ، ودل ذكرها على المحذوف لأن المدعى فيما قبلها شيئان: المساءة بالحسنة والفرح بالمسرة بالمصيبة فاذا برهن المتكلم على الثانى علم ولا بد أنه حذف برهان الأول. وأنه انما حذفه وهو حكيم لنكتة، وهى هنا عدم الاحتياج الى ذكره لوضوحه

(١) نظم الدرر : ١٥/١

(٢) المصدر السابق: ٤١/٥-٤٢

بدلالة السياق مع واو العطف عليه، وما تقدم من كونه غير صريح الدلالة في أمر البغض على أنه تعالى قد ذكر بذرا كما ترى بعد محكمة ستذكر. « (١)

هذا ما يقوله البقاعي في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

وكنا نظن أن الوضع في معالجة هذه الآية سيختلف عنه في معالجة أخواتها، لما أنه «رحمه الله» أقام في تأملها شهورا، ولكن ماذا ستفعل هذه الإقامة الطويلة في تأمل الآية إذا كان المنهج نفسه لا يسلم من خلل؟

فهيئات، هيئات أن يصل المرء الى ما يروم، ولوسهر له طوال السنين، إذا كان منهجه لا يسلم من خلل!

ونحن سننبه هنا الى أمور لا نرتاح لأجلها الى هذا التأويل، وهي كما يلي:

١- أن قوله تعالى: (واذ غدوت... الآية) لا يحتمل أبدا تلك المقدرات التي أشار اليها البقاعي، حيث قال:

« (واذ) أى اذكر ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم وأتقيتم فنصرتم وحين ساءهم نصركم في كل ذلك: في سرية عبدالله بن جحش الى نخلة ثم في بدر، ثم في غزوة بنى قينقاع ونحو ذلك. واذكر اذ لم يصبر أصحابك فأصيبوا، واذ سرتهم مصيبتكم في وقعة أحد. »

٢- ان هذه الآيات (١٢٩-١٢١) لا تتناول الا ما حدث قبل نشوب المعركة، وليس فيها ذكر ما أصاب المسلمين في تلك الغزوة، حتى نربطها بما فوقها برابطة الشماتة بالمصيبة.

٣- ان هذه المناسبة التي ذكرها تعتمد على فكرة هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وهي فكرة خاطئة لا تقوم بها حجة قائمة وسأبين ذلك باذن الله حين ندرس تلك الآيات في موضعها.

٤- ان هذه الآيات لو كانت تستهدف إقامة الحجة على ما ذكر من حال عدوهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة، لكان لها اشارة واضحة أو خفية مفهومة في تلك الآيات.

تلك الاشكالات التي جعلنا لانفرج بهذا التأويل، وتحثنا حثا على أن نلتمس له بديلا، وليس ذلك على الله بعزير.

وبالجملة فهذا المنهج الذي اتبعه البقاعي واستخدمه في ممارسة هذا العلم لم يستطع أن يملأ يديه من خيرات هذا العلم. ولقد بينت فيما مضى أنه يقوم على قاعدتين، احدهما: اسم كل سورة مترجم عن مقصودها. والثاني: مقصود كل سورة هاد الى تناسبها.

ويجمع هاتين القاعدتين أنه ليس لهما أصل ثابت، وإنما تعتمدان كل الاعتماد على الخيال.
فالأصل في هذا المنهج أنه يطير بجناح الخيال ، ويتلقف كل ما يسوقه اليه الخيال، حتى ولو كان
في غاية الرذالة والغرابة.

ولقد قدمت نماذج فيما مضى، و أود أن أضيف إليها أمودجا جديدا من هذا القبيل.

تقوم ما قاله البقاعى في الفرق بين آيتى البقرة وآل عمران:

يقول البقاعى وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل
والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ (١)

« وذكر سبحانه وتعالى في أخت هذه الآية في سورة البقرة ثمانية أنواع من الأدلة واقتصر هنا
على ثلاثة، لأن السالك يفتقر في ابتداء السلوك الى كثرة الأدلة، فاذا استنار قلّت حاجته الى ذلك؟
وكان الاكثار من الأدلة كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لبح المعرفة. واقتصر هنا من آثار
الخلق على السماوية، لأنها أقهر وأبهر ، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها الى عظمتها سبحانه
وتعالى وكبريائه أشد وأسرع . وختم تلك بما هو لأول السلوك: العقل، وختم هذه بلبه، لأنها لمن
تخلص من وساوس الشيطان وشوائب هواجس الوهم المانعة من الوصول الى حق اليقين، بل
علم اليقين. » (٢)

وهذا يعني أن من شأن السالك المستنير أن يحذر المواضع التى كثرت فيها الأدلة فى القرآن فلا
يقرأ تلك الآيات ولا يستمع لها، حتى لا تكون تلك الآيات كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب
في لبح المعرفة. ثم ان هذه النكتة لا تنسجم مع النكتة الثانية وهى قوله: « واقتصر هنا من آثار الخلق
على السماوية لأنها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب منها الى عظمتها سبحانه وتعالى
وكبريائه أشد وأسرع. »

فإن الذى يتضرر بكثرة الأدلة سيتضرر بها اذا كانت أقهر وأبهر. وإنما الذى يناسبه أن تكون
الأدلة المعروضة عليه أخف وأيسر.

وأياضا اذا كانت كثرة الأدلة كالحجاب الشاغل له، فكثرة العجائب سيكون ضررها عليه
أكثر وأشد.

اذا فلا معنى لقوله بعد ذلك: « وانتقال القلب منها الى عظمتها سبحانه وتعالى وكبريائه أشد
وأيسر » فهناك تعارض واضح بين الأمرين كما لا يخفى.

(١) سورة آل عمران : ١٩٠

(٢) نظم الدرر : ١٥٥/٥

ولاشك أن مثل هذه المناسبات - أو بعبارة أصح: مثل هذه التكاليفات - هي التي أحفظت الامام الشوكاني وجعلته يثور على هذا العلم ، حيث يقول:

«اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلّفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهى عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم ارادوا ان يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكاليفات وتعسفات يتبرأ منها الانصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته.» (١)

ونحن أيضا مع الإمام الشوكاني في الرغبة عن مثل هذه التكاليفات، التي تعتمد على محض الرأي، ثم نزيد فنقول:

كلمة عن المنهج الذي تمثله هذه الرسالة:

إن الأصل في هذا العلم ليس الرأي المحض، كما يتوهم ذلك من ينظر في عمل البقاعي، بل الأصل فيه هو العكوف على كتاب الله، وتدبر آياته، والتأمل في نظمه وسياقه، ومتابعته متابعة دقيقة من غير تكلف ولا تعسف، حتى ينكشف ما خفى من معانيه، ويتجلى كما يتجلى القمر في ليلة قمامه.

فمحاولة التمكن من فهم القرآن والتوصل الى صحيح تأويله هو الأصل في هذا العلم. ومن هنا يختلف منهجى في ممارسة هذا العلم عن منهج الامام البقاعي، حيث ان منهجه يغلبه طابع التكلف والتعسف، بينما هذا المنهج، الذي تمثله هذه الرسالة، يرفض التكلف رفضا باتا، ولا يلتفت الى تأويل تشتم فيه رائحة التكلف.

وكما أنه لا مكان هنا للقول بمحض الرأي فكذلك لا مكان لما يشبهه من الاعتماد على الروايات الضعيفة، التي تصرف الآيات عن وجهها وتكون حجابا دون التوصل الى صحيح تأويلها. فمثل هذه الأشياء كلها مرفوضة في هذا المنهج.

ان هذا المنهج يعتمد من أول أمره على أسس علمية واضحة ثابتة.

فأول أمر يهم صاحب هذا المنهج أن يتأكد من صحة تأويل الآيات ، التي يريد أن يلتمس فيها المناسبة، فكثير من الآيات قد العبس علينا أمرها، ولم يتبين لنا صحيح تأويلها. فان أردنا أن نلتمس المناسبة بينها من غير أن نتأكد من صحة تأويلها، كنا كباسط كفيه الى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغفه.

وهذا الذى حصل مع كثير من الناس ، ممن عنوا بالتماس المناسبات بين الآيات ، ومنهم البقاعى - رحمه الله - حيث انهم التمسوا المناسبة بين آيات لم يتأكدوا من صحة تأويلها ، فلم يظفروا بما أرادوا ، وما كان لهم أن يظفروا بما لم يمهّدوا الطريق اليه ، ولم يسلكوا المسالك التى تؤدّيهم اليه . ولقد سبقت لذلك نماذج فيما مضى ، وستأتى نظائرها في غضون هذا البحث باذن الله .

فهذا المنهج يفرض على من يلتبس المناسبة بين الآيات أن يتأكد أولا من صحة تأويل تلك الآيات ، بحيث يعرض ما بدا له من التأويل على معايير دقيقة لاتخطئ في الحكم ، ولا تبخل ببيان ما هو عليه من صحة أو سقم .

○ فإذا كانت الآية - مثلا - تحتمل وجوها كثيرة أو وجوها عديدة من المعانى ، فلا يؤخذ منها الا ما كان أقرب لحسن التأويل ، وكان أليق بعظمة هذا الكلام .

○ ولا يؤخذ منها الا ما كان موافقا لمحكم الكتاب والسنة .

○ وإذا كان هناك وجه له شاهد في العبارة ، ووجه آخر ليس له شاهد ، فلا يؤخذ الا ما كان له شاهد .

○ ولا يقبل من التأويل ما كان يعدل بألفاظ الآية عن المعنى المتبادر ، المعروف في لسان العرب الى غيره .

○ وكذلك لا يقبل منه ما يعدل بالكلام عن الأسلوب المعروف في لسان العرب ، وكان يوحى بالتكلف والتعسف ، حيث ان القرآن نزل بلسان عربى مبين ، فكل تأويل يوهم غير ذلك ، أو يجرّد القرآن عن هذا الوصف ، فهو رد على صاحبه .

هذه المعايير أشار اليها الفراهي في مواضع متفرقة من كتبه وخاصة في كتابه « دلائل النظام » . وبالجمل فلابد لنا أن نتأكد أولا من صحة تأويل الآيات ثم نلتبس وجوه المناسبة فيها .

ثم ان المعايير التى ذكرتها لمعرفة صحيح التأويل من سقيمها ، ستساعدنا في معرفة صحيح المناسبة من سقيمها كذلك .

○ فلا يقبل من وجوه المناسبة الا ما كان أقرب لحسن التأويل ، وكان أليق بعظمة هذا الكلام .

○ ولا يقبل منها الا ما كان موافقا لمحكم الكتاب والسنة .

○ ولا يقبل منها الا ما كان له شاهد في العبارة .

○ ولا يقبل منها ما كان يلجئ الى التكلف والتعسف وسخافة الاستدلال .

○ ولا يقبل منها ما كان يربط المتصل القريب ويقضب البعيد المحيط ، وكان غير منسجم مع الجو العام للسورة .

وبعد ما تنتهى من التماس المناسبات وربط الآيات بعضها ببعض، نعود الى السورة مرة أخرى لنلتبس مقصدها، أو عمودها، الذى تدور السورة حوله بجميع أجزائها.

ولا يمكن الاطلاع على عمود السورة الا بعد الاطلاع على تناسب أجزائها.

ثم مجرد الاطلاع على تناسب الأجزاء لا يكفى للتوصل الى عمود السورة، بل يحتاج الباحث بعد ذلك أن يكرر النظر فى جميع أجزاء السورة، ويطيل التأمل فيها.

ويحتاج كذلك الى أن يستحضر فى ذهنه مضامين السور المجاورة ومقاصدها. ويتأمل فى الميزات والسمات التى تجمعها معها، أو تفرق بينها.

ومع ذلك كله يتضرع الى الرحمن أن يفتح عليه من خزائن رحمته، ولا يحرمه من علم كتابه. وقد يستغرق هذا التأمل المتكرر فى مضامين السورة ومضامين جاراتها شهورا وسنين، حتى اذا استيأس الباحث وظن أنه لن ينال ما كان يتطلع اليه جاء النصر وانكشف له العمود.

واذا انكشف العمود أضاءت له السورة كلها كفلق الصبح، وتجلت له بأطرافها وأبعادها وهى تزخر بالمعاني والحكم.

وبما يجدر التنبيه اليه أن الاطلاع على تناسب أجزاء السورة كما يساعد فى التوصل الى عمودها، فكذلك العمود بعد وضوحه يبلور وجوه المناسبة بين أجزاء السورة.

فان العمود -كما قدمت- يجعل السورة واضحة شاحصة، ويضى جوانبها وأطرافها. وبذلك تتضح الأمور التى لم تكن واضحة قبل، وتسفر كما يسفر الصبح بعد ظلمة الليل.

وكلما ازدادت السورة وضوحا وسفورا، ازدادت وجوه المناسبة بين أجزائها وتكاثرت.

وقد يكون هناك-قبل أن يتضح العمود-ميل أو غيش فى الرؤية الى وجوه المناسبة، ولكن اذا وضع العمود، وضعت السورة كلها، وتبين للباحث ما كان فيه من ميل أو غيش فى رؤيته.

يقول أستاذنا الفراهي رحمه الله «هو ينبئ الى خطورة شأن العمود، والى عزة حصوله وصعوبة منا له».

«اعلم أن تعيين عمود السورة، هو اقليل لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج الى

شدة التأمل والتمحيض وترداد النظر فى مطالب السور المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق

الصبح، فتضى به السورة كلها وتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات

المحتملة أرجحها. « (١)

وكذلك الأمر فى تأويل الآيات قبل وضوح المناسبة بينها، فقد يتصور الباحث أنه مصيب فيما

ذهب اليه من تأويل الآية أو الآيات، ثم اذا ظهرت له المناسبة بينها تبين له أنه كان مخطئا فى ظنه.

وأن تأويل الآية على غير ما ذهب إليه.

وبالجملة فهذا المنهج يعتمد على ثلاث مراحل، أولاها:

التأكد من صحة تأويل الآيات، بعرضه على المعايير العلمية الدقيقة الثابتة.

والمرحلة الثانية: التماس المناسبة بين الآيات وبين أجزاء السورة وفقراتها.

والمرحلة الثالثة: استخراج عمود السورة.

ثم هذه المراحل الثلاث ، وإن كان يوجد بينها ترتيب ، إلا أن هذا الترتيب لا يظهر إلا في أول الطريق. وبعد ذلك تتداخل هذه الثلاث بعضها في بعض ، وتتعاون فيما بينها وتتعاقد - كما بيناه آنفا - حتى تتحقق الغاية المنشودة ، وتقر بها عين الباحث باذن الله.

ويعد : فهذه دراسة موجزة لتفسير البقاعى ومنهجه في تناول علم المناسبات.

وتلك لمحات سريعة الى المنهج الذى ستمثله هذه الرسالة المتواضعة باذن الله.

والفرق بين المنهجين واضح شاخص.

وكفى به مبررا لاختياري لهذا الموضوع.

تنبيه هام:

وقبل أن أختم هذا الحديث أود أن أنبه الى أمر لا بد من التنبيه اليه ، وهو أنني ما نهضت لهذا العمل العظيم الجليل ثقة بحولي و قوتي ، فكلى ضعف وعجز وانكسار. ولا حول ولا قوة الا بالله .

وانما عدتي وزادى في هذا الطريق هو الثقة بالله والتوكل على واسع رحمته وعظيم فضله .

فسأبدأ مسيرى هذا متضرعاً اليه جل شأنه أن يعلمنا من كتابه ما جهلنا ، ويفتح علينا من كنوزه ما خفى عنا ، ولا يكلنا الى أنفسنا طرفه عين فنهلك.

وأعطى العهد من نفسي أنني لن أخط فيه كلمة الا اذا انشرح لها صدرى و تأكد لدي أنها مما أفاضه ربنا من فضله.

وأما اذا أرتج على واستغلق على شئ من كلام ربنا فلن أتكلف القول هناك. ولن أتعسف في تأويله ، بل أعترف على نفسي بالعجز وأقر بالجهل.

ولكن اذا عجزنا عن اكتشاف النظام فى آية أو سورة أو مجموعة من الآيات ، أو مجموعة من السور فلن يكون ذلك دليلا على انتفائه وعدم وجوده.

وانما يكون دليلا على عجزنا وقلة علمنا وقصور فهمنا فقط.

فان العجز عن ادراك حقيقة لا يكون دليلا على انتفائها. وانما يكون دليلا على العجز عن ادراكها فقط.

ومثله في هذا كمثل ما يحدث معنا في هذا الكون ، حيث ان هذا الكون كتاب الله المنظور كما أن هذا كتاب الله المتلو . وبينهما شبه كبير.

فكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف على من قبلنا ، وانكشفت علينا اليوم! وكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف علينا اليوم وستنكشف على من يأتون بعدنا . فان لم تنكشف هذه الحقائق على من قبلنا بالأمس ، أو لم تنكشف علينا اليوم ، ولم يكن ذلك دليلا على انتفائها وعدم وجودها ، فكيف يكون ذلك دليلا على انتفاء النظام في كتاب الله ، ان لم ينكشف شيء منه علينا اليوم ، أو لم ينكشف شيء منه على من قبلنا؟ وهذه نكتة لا بد أن ننتبه لها .

فالغفلة عن هذه النكتة هي التي حملت بعض الناس على انكار النظام في القرآن ، كما حملت بعضهم الآخرين على التكلف والتعسف في أمره ، حيث انهم ظنوا أنهم ان اعترفوا على أنفسهم بالعجز عن ادراكه في أى موضع من القرآن ، يكن ذلك حجة لخصمهم عليهم . ولا شك أن موقفهم هذا أصبح ضرا عليهم . وياحبذا لو أنهم قالوا بوجود النظام في القرآن . وأردفوه بأن وجوده في جميع القرآن لا يستلزم أن ينكشف عليهم في جميع القرآن . فقد ينكشف عليهم في موضع ولا ينكشف في آخر .

فما انكشف فهو فضل من الله ونعمة ، وما لم ينكشف فهو راجع الى قلة علمهم وقصور فهمهم ، وقد قال تعالى ﴿وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾ ولو أنهم قالوا ذلك لكان أولى بهم وأجدر ، وكان أقوى لموقفهم وأثبت لحجتهم ، ولكنهم - والله يسامحهم - فعلوا ما كان ضرره أقرب من نفعه! هذه وجهة نظرى في هذا الموضوع .

وسألتزم بها التزاما في عملي هذا بإذن الله . وبعد هذه الكلمة القصيرة المتواضعة أقبل الى ثلاث سور عظام من سور القرآن ، لأكشف القناع عن نظامها ونظام آياتها وأميط اللثام عما أودع الله - سبحانه وتعالى - فيها عن طريق حسن نظامها من خزائن العلم وكنوز الحكمة .

سائلا ربي ومولاي أن يسدد خطاي وينور قلبي ويلهمني رشدي وصوابي ، ويأخذ بناصيتي الى ما يرضيه عني ، فهو وليي ومولاي ، فنعم المولى ونعم النصير .

الباب الأول

نظام سورة الفاتحة

الفصل الأول

على هامش السورة

قال الله تعالى في فاتحة كتابه العزيز:

﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهتدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾
تلك سورة الفاتحة - السورة التي يرددها كل مسلم في كل ركعة من صلاته في ليله ونهاره.
ألا ما أعظمها من سورة وما أجلها !! فقد سماها النبي ﷺ أعظم سورة في القرآن. (١)
وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا (٢) من فوقه، فرفع رأسه فقال:

هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال:

هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما

نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. (٣)

ثم ما أحب هذه السورة عند ربنا وما أعظمها !! وما أشرفها وما أكرمها !! فقد روى أبوهريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدى ما سأل..

فاذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى: حمدنى عبدي

واذا قال: الرحمن الرحيم.

قال الله تعالى: أثنتى على عبدي.

واذا قال: مالك يوم الدين.

(١) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب ١٠٣/٦

(٢) (نقيضا) أى صوتا كصوت الباب اذا فتح .

(٣) صحيح مسلم، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة،

رقم الحديث (٨٠٦) ٥٥٤/١

قال : مجدنى عبدى . (وقال مرة : فوض الى عبدى)

فاذا قال : اياك نعبد و اياك نستعين.

قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل.

فاذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. (١)

هذان حديثان من بين أحاديث أخر كثيرة في هذا الموضوع، وناهيك بهما دلالة على شرف هذه السورة ، وعلى خطورة شأنها وجلالة قدرها.

فلعمري ان المسلم الواعى اذا اطلع عليهما لم يملك إلا أن يختر ساجدا أمام ربه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على عظيم فضله علينا وبالغ تكميمه لنا بهذه السورة العظيمة، كما وجد فى نفسه دافعا قويا الى أن يقف عندها طويلا وينعم فيها النظر متدبرا لمعانيها، باحثا عن سر مكانتها وجلالة قدرها.

والحق أننا كلما أطلنا الوقوف عندها رأينا من شأنها عجا.

فمن عجيب شأنها - مثلا- أن هذه السورة القصيرة الوجيزة، التى لا تزيد على سبع آيات قصار، صورة مصغرة للصلاة وبرنامج كامل لها، بالاضافة الى أنها روحها وبهاؤها وسندها وعمادها ومادتها الحقيقية التى لاصلاة بدونها حيث قال- عليه السلام:-

لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . (٢)

وبعبارة أوضح: فالصلاة بجميع أركانها من قيام وركوع وسجود وقعود تفسير عملى لهذه السورة، ولعل هذا هو السر فى أن الله تبارك وتعالى سمى هذه السورة (الصلاة) حيث قال- عز من قائل - فى الحديث القدسى الذى مر بنا آنفا:

(قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين)

ومما يشير اعجابنا أن السورة نفسها أرشدتنا الى هذه الحقيقة الغالية.

أرشدتنا اليها بنظمها وموقعها من السورة التى تليها.

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة، رقم الحديث (٣٩٥) ٢٩٦/١

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للامام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر

والسفر. ١٨٣/١

فان أول سورة وضعت في المصحف الكريم هي سورة الفاتحة، وأول عبادة ورد ذكرها في صفات المتقين هي فريضة الصلاة، حيث قال تعالى في مستهل السورة التي تليها وهي سورة البقرة:

﴿هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾

هذا النظم يشد انتباهنا ويوحى إلينا بأنه لابد أن يكون هناك سبب ونسب بين هذه السورة وبين فريضة الصلاة.

والتأمل في هذا النظم يجد-فعلا- مناسبة قوية بين هذه السورة وبين الصلاة، بل انه يجد بينهما مناسبات متعددة من جهات مختلفة.

حتى ان السورة لتكاد تصبح كأنها هي الصلاة، لشدة ما بينهما من صلة وقربى.

فنجد- مثلا- حين نتأمل في هذه السورة الكريمة أن الآيات الثلاث الأولى التي هي عبارة عن الحمد والثناء والتمجيد ناظرة بمضمونها الى ركن القيام الذي هو - في حقيقته- حمد وثناء وتمجيد، فان القيام قوامه قراءة القرآن وهو كله حمد وثناء وتمجيد. ثم الآية الرابعة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ نصفها ناظر الى الركوع ونصفها الى السجود. فالركوع يكون لله والسجود للعبد، حيث ان الركوع عبارة عن عبادة الله وتعظيمه والتسبيح له والثناء عليه ، والسجود عبارة عن الدعاء والاستعانة و اظهار العجز والافتقار الى الله، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(ألا وانى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عزوجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم .) (١)

ثم الآيات الثلاث الأخيرة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ناظرة الى القعدة التي هي قام الصلاة والتي هي- بطبيعتها- أقرب ما تكون الى السجود حيث ان كلتا الحالتين حالة دعاء وتضرع ورجاء واستعانة كما ورد عن عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه- أن النبى ﷺ علمهم التشهد ثم قال فى آخره:

(ثم يتخير بعد من الدعاء) (٢)

وفى رواية البخارى : (ثم يتخير من الدعاء أعجبه اليه فيدعو) (٣)

وفى روايات لمسلم : (ثم يتخير من المسألة ماشاء) (٤)

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب النهى عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. رقم الحديث

(٤٧٩)

(٢) و (٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد فى الصلاة. ٣٠٢/١

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الأذان ، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد. ٣٠٢/١

ثم التشهد نفسه أقرب ما يكون في مضمونه الى الآيات الثلاث الأخيرة، فهذه الآيات الثلاث تعبير بليغ عما تهيج به قلوب المؤمنين من حنين وشوق الى الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين.. وفي التشهد أيضا نعر عن نفس المعاني حين نزول السلام الى عباد الله الصالحين وعلى رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ.

وكان من حسن الأدب أن يبدأ هذا السلام على الصالحين بازاء التحية لله رب العالمين فنقول: ﴿التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله﴾ وعلى هذا، فالآيات الثلاث الأولى حمد وثناء وتمجيد، وهي ناظرة الى ركن القيام الذي هو حمد وثناء وتمجيد.

والآيات الثلاث الأخيرة دعاء وتضرع وحنين الى الصالحين وهي ناظرة الى القعدة، التي هي دعاء وتضرع وحنين الى الصالحين.

والآية الرابعة نصفها عبادة وتعظيم وهو ناظر الى الركوع، الذي هو عبادة وتعظيم. ونصفها الأخير رجاء وتضرع واستعانة، وهو ناظر الى السجود، الذي هو رجاء وتضرع واستعانة. وما نستأنس به في هذا المقام ماورد في الروايات من أن النبي ﷺ كان يقول اذا رفع رأسه من الركوع:

(ربنا لك الحمد، ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، اهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجمد منك الجمد..)(١)

فترى هذه الكلمات الندية الماثورة وردت على نفس الترتيب الذي نلاحظه في سورة الفاتحة، كما أنها تحمل نفس الایحاءات التي تشتمل عليها تلك السورة. فقله - عليه السلام:

﴿ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد﴾ ناظر الى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين)

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقول اذا رفع رأسه من الركوع، رقم الحديث (٤٧٧).

وقوله -عليه السلام- : (أهل الشاء والمجد) ناظر الى قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين﴾ حيث مر معنا في الحديث القدسي:
(وإذا قال: الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى على عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله :
مجدنى عبدي.)

وقوله عليه السلام : (أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما
منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.) ناظر الى قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين.)
وهذه الكلمات كان يلهج بها النبي ﷺ بعد ما يرفع رأسه من الركوع، فأودع فيها بأسلوب
عجيب وبلاغة معجزة مضمون الآيات التي تتعلق بالقيام والركوع والسجود، حيث انه انتهى من
القيام والركوع وهو متهيئ للسجود.

فهذه ناحية عجيبة من نواحي عظمة هذه السورة ، وبذلك يتضح تماما أن هذه السورة هي سورة
الصلاة، بل هي نفس الصلاة ، وكل صلاة لم يقرأ فيها بفتحة الكتاب فهي خداج، فهي خداج ،
فهي خداج!!

هذه ناحية . وهناك نواح أخر عجيبة تشتمل عليها تلك السورة، وهي لا تنكشف الا لمن
يتدبرها ويعن النظر فيها ويتأمل في نظام آياتها ورباط معانيها.

وسنحاول باذن الله في الفصول الآتية أن نميط اللثام عن بعضها، متضرعين الى الله أن يفتح
علينا من أسرار كتابه ونفائس حكمه وكنوز معانيه. انه سميع قريب.



الفصل الثاني

عمود السورة

إن هذه السورة الكريمة، وإن كانت زاخرة بمعان وحكم جمة إلا أن هدفها الأساسي وقطب رحاها، هو العهد والميثاق.

عهد وميثاق يؤكده الرجل المسلم لربه على العبادة الخالصة المطلقة، والانابة الكاملة الصادقة: «إياك نعبد وإياك نستعين». فهذه الآية - إياك نعبد وإياك نستعين - ليست في الواقع اخباراً عن الواقع، بل هي عهد وميثاق للمستقبل أكثر مما هي اخبار عن الواقع. وهذا العهد له أسلوبه المتميز وطابعه الخاص.

فهو عهد يجيش به قلب مفعم بمشاعر الحمد والثناء.

وهو عهد تنطق به روح فائضة بحب الله، حريصة على مرضاة الله.

وهو عهد منبثق من تلك الكلمات الدودة الرقيقة الخاشعة المباركة: (الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين).

وعلى هذا فإن هذا العهد يكون قد سيطر من دم صاحبه، ويكون له طهره ونزاهته ويكون مأمونا من أن يعتريه نقض أو نقص.

ثم يتبع هذا العهد دعاء حار واستعانة ضارعة للاستقامة على هذا العهد: (اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

وهذا ضمان آخر لمتانة هذا العهد وقوته واستحكامه، فإن العهد إذا كان ناشئاً من قلب مفعم بعظمة الله - سبحانه وتعالى -، وجلاله وكبريائه ثم انضمت إليه الاستعانة به وطلب التوفيق منه، فهو عهد قد استكمل مقوماته، وهو مضمون من جميع جهاته.

وما أبعد الفرق بين عهد كهذا وعهد يؤخذ من قوم، ثم هم لا يلبثون أن يبنذوه وراء ظهورهم، كما حصل مع اليهود مرات ومرات، حيث قال تعالى:

فَوَازٍ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ. (١)

وقال تعالى:

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون.﴾ (١)

ولما كانت هذه السورة سورة عهد وميثاق، وهى سورة الصلاة كذلك، بحيث ان الصلاة لا تستقيم بدونها، أعطيت الصلاة حكمها، ووصفت بوصفها، واعتبرت عهدا وميثاقا، كما أن هذه السورة عهد وميثاق حيث قال - ﴿عليه الصلاة والسلام﴾:

(العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر.) (٢)

ومن ثم نرى من خصائص هذه الأمة الخيرة المباركة أنها تجدد عهدها مع ربها في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة على الحد الأدنى ، والى غير حد اذا كان الرجل من تلك الالة المباركة التي تجد أنسها و راحتها فى الصلاة.

ولا شك أن هذه مفخرة لهذه الأمة ومن مزاياها، فقد سبقها أقوام كانوا يتبجحون ويتبذخون بتمردهم واستكبارهم أمام ربهم، وكان من دأبهم - قاتلهم الله - أن ينقضوا مواعيقهم فى كل مرة، ويقولوا بكل خبث وكل وقاحة: سمعنا وعصينا !!!



(١) سورة البقرة: ٩٩-١٠٠

(٢) سنن الترمذى، باب ماجاء فى ترك الصلاة، ١٤/٥، رقم الحديث (٢٦٢١).

الفصل الثالث

وجوه الربط بين الآيات

حينما نتأمل فى هذه السورة الكريمة ورباط معانيها لاتقضى منها العجب.
آياتها متعاقبة، متشابكة بعضها مع بعض بشكل يأخذ باللب. يقرأها القارئ فينساق من آية الى آية بدون أن يشعر فيها بشئ من تنافر أو تحجاف، بل انه يشعر أن كل كلمة من كلماتها صادفت موضعها بحيث لا تبغي عنه حولا، فهي مشدودة الى ما قبلها وما بعدها. كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا.

ولا بأس بأن نقف هنا وقفة، ونرى ما فى هذه الآيات من تآلف قوى وتناسق عجيب.

تبدأ هذه السورة بقوله تعالى:

﴿الحمد لله رب العلمين.﴾

و (الحمد) له دلالات واعتبارات:

فهو يستعمل مثلا فى معنى الشكر على حصول نعمة، أو تحقيق رغبة، أو انجلاء كربة، كما نرى بالترتيب فى الآيات التالية:

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.﴾ (١)

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.﴾ (٢)

﴿الحمد لله الذي وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق، ان ربي لسميع الدعاء.﴾ (٣)

﴿الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين.﴾ (٤)

(١) سورة الكهف: ١

(٢) سورة الأعراف: ٤٣

(٣) سورة ابراهيم : ٣٩

(٤) سورة المؤمنون: ٢٨

وأيضاً تستعمل كلمة (الحمد) عند ظهور سنة الله الحكيمة العادلة في هذه الدنيا، حيث يهلك المجرمون بعذاب الله ويفرح المؤمنون بنصر الله، كما تستعمل هذه الكلمة في سياق الدينونة الكبرى، حين يفصل الله بين العباد، فيحشر المؤمنين إلى النعيم ويسوق الكافرين إلى الجحيم:

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العلمين﴾ (١)

﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العلمين﴾ (٢)

ويطرّد استعمال (الحمد) كذلك في موطن اثبات الكمال والعزة والملك لله - سبحانه وتعالى - كما نرى في هذه الآيات:

﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌ من الدّل وكبره تكبيراً﴾ (٣)

﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير﴾ (٤)

﴿ومن يقول فإن الله هو الغني الحميد﴾ (٥)

ويتبادر إلى الذهن بعد التأمل أن كلمة (الحمد) في قوله تعالى في بداية سورة الفاتحة: ﴿الحمد لله رب العلمين﴾ تحتوى هذه المعانى كلها. فلننظر كيف اختار الوحي الكريم لهذا الموطن ثلاث صفات من صفات الله الحسنى، بحيث تيسر بها استيعاب معانى (الحمد). ثم التدرج بها إلى معنى يخدم جو السورة بكل دقة وأمانة، وتلك الصفات هي:

﴿رب العلمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين﴾

فالصفة الأولى: ﴿رب العالمين﴾ صفة جامعة شاملة مثل كلمة (الحمد) وبالتالي هي تغطي جميع جوانب الحمد، وتستوعب كافة أطرافها. فهم تشمل -مثلاً- أصناف النعم كلها صغيرها وكبيرها، كما نرى ذلك واضحاً في الآيات التالية:

(١) سورة الأنعام : ٤٥

(٢) سورة الزمر : ٧٥

(٣) سورة الإسراء : ١١١

(٤) سورة الفاطر : ١

(٥) سورة الحديد : ٢٤

﴿قال فمن ربكما يا موسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ (١)
﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون؟ فإنهم عدو لى إله رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقئ، وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يميمتنى ثم يحيين، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين.﴾ (٢)
وأيضا تشمل هذه الصفة معنى الملك ، والكمال ، والعزة ، والغنى، كما يتجلى ذلك فى تلك الآيات:

﴿ذلكم الله ربكم ، له الملك .﴾ (٣)
﴿بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم. ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو، خالق كل شئ ، فاعبدوه، وهو على كل شئ وكيل. لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.﴾ (٤)
فاذا كان الله هو رب العالمين - رب العالمين ، بد لوله الواسع الشامل الكامل. وهو الذى يتصف بتلك الصفات العظيمة دون غيره، فمن يكون له الحمد ، اذا لم يكن له- سبحانه وتعالى - ؟
ثم تتبع هذه الصفة الصفة الثانية: (الرحمن الرحيم).
ومدلول الرحمة وان كان داخلا فى صفة (رب العالمين) كما رأينا آنفا، الا أن الوحي أراد أن يبرز هذا الجانب، ويلفت الانتباه الى أكبر مظهر من مظاهر الرحمة، و الى أعظم نعمة خص بها الانسان من بين سائر الأجناس ، ألا وهى نعمة الهداية ، ونعمة الرسالة، ونعمة الوحي، ونعمة الكتاب. والجدير بالذكر أن هذه الصفة الكريمة - صفة (الرحمن) المشفوعة بصفة (الرحيم) - لا تذكر الا فى موطن الوحي والرسالة، كما قال تعالى:

﴿حم . تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون.﴾ (٥)
ولقد جاءت هذه الصفة ماعدا ذلك فى ثلاثة مواضع:
١- ﴿والهكم اله واحد، لا اله الا هو الرحمن الرحيم.﴾ (٦)

(١) سورة طه : ٤٩ - ٥٠

(٢) سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٢

(٣) سورة فاطر : ١٣

(٤) سورة الأنعام : ١٠١ - ١٠٣

(٥) سورة فصلت : ١ - ٣

(٦) سورة البقرة : ١٦٣

٢- ﴿انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (١)

٣- ﴿هو الله الذى لا اله الا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم﴾ (٢)

أما الآية الأولى فقد سبقتها هذه الآيات:

﴿ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. الا الذين تابوا وأصلحوا وينبؤا فقولك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.﴾ (٣)

وبعد هذه الآيات جاءت تلك الآية :

﴿والهكم اله واحد، لا اله الا هو الرحمن الرحيم﴾

ولا يخفى على المتأمل فى هذه الآيات أن الآية الأخيرة جاءت بعد التنديد على ناس يكتُمون ما أنزل اليهم من البينات والهدى ويريدون بذلك أن يعيقوا مسير هذه النبوة المباركة، جاءت هذه الآية لتنصح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويشربوا الى رشدهم وينبؤا الى الههم، الذى لا اله الا هو ، فقد طال شقاؤهم بسبب اعراضهم عنه، فلينبؤوا الى ربهم وليؤمنوا بالرسالة التي ما جاءت الا لتفتح عليهم أبواب الرحمة وتنزلهم فى دار الكرامة.

وأما الآية الثانية فقد جاءت فى الكتاب الذى أرسله سيدنا سليمان - عليه السلام- الى ملكة

سبأ يدعوها الى الاسلام.

وأما الآية الثالثة فقد سبقتها هذه الآية:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، وتلك الأمثال

نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (٤)

وبعدها جاءت تلك الآية لتقول للناس : ان هذا القرآن الذى تعرضون عنه ليس الا رحمة مهداة

من الرحمن، فهل تريدون أن تحرموا أنفسكم ان كان الله يريد أن يسعدكم ويدخلكم فى رحمته!!

ولعل هذه الصلة القائمة بين نعمة الهداية والرسالة وبين تلك الصفة الكريمة- صفة (الرحمن)

المشفوعة بصفة (الرحيم)-هى التى اقتضت أن تتخلل سور القرآن كلها آية (بسم الله الرحمن

الرحيم) حتى يستشعر المسلم كلما خلا يسورة من السور الكريمة أنه الآن موصول الحبل بربه الرحمن.

وبالتالى هو محظوظ بأعظم نعمة فى هذا الكون فلا يجوز له أن يتهاون بها ولو طرفة عين.

(١) سورة النمل: ٣٠

(٢) سورة الحشر : ٢٢

(٣) سورة البقرة : ١٥٩-١٦٢

(٤) سورة الحشر: ٢١

وهذه الحكمة لا تتنافى مع الحكمة القائلة بأن آية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وضعت بين السور للفصل بين سورة وسورة ، فقد يتضمن الأمر أكثر من حكمة ، وما أكثر ذلك فى كتاب الله !
نعود الى حديثنا الأول فنقول: ان هذه الرحمة المهداة فى صورة الوحي والرسالات التى تشير اليها الآية الثانية: ﴿الرحمن الرحيم﴾ تشعرنا بضرورة وقوع يوم الدين، ليتم جزاء من قابل هذه النعمة بالشكر والطاعة، وتحمل فى سبيلها ما تحمل واليه يشير قوله تعالى:

﴿كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه.﴾ (١)

فوقوع يوم الدين نتيجة حتمية لهذه الرحمة، وليس عذاب الكافرين والمستكبرين الا صورة من صور الانعام على المتقين الخاشعين، كما نستوحى من قوله تعالى:

﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى ورى لتأتينكم عالم الغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم.﴾ (٢)

فجزاء المؤمنين هو الأصل فى اتيان الساعة كما يشعرنا أسلوب الآية: ﴿ليجزى الذين آمنوا... الخ﴾

وأما عذاب المعاندين فهو يأتى تبعا لتكتمل العدالة وليتم الجزاء:

﴿والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم.﴾

ومن هنا حسن موقع (مالك يوم الدين) بعد قوله تعالى ﴿الرحمن الرحيم﴾.

بقى علينا أن نبين الفرق بين كلمتى الرحيم والرحمن، فان هذا يكشف لنا جانبا آخر من حكمة النظام وروعة البيان.

ومن العجيب أن الناس قد تناولوا قديما وحديثا هاتين الكلمتين بالبحث والدراسة، وحاولوا أن يفسروهما و يبينوا الفرق بينهما، ولكن الأمر مازال بحاجة الى زيادة وضوح ، فنقول وبالله التوفيق:

ان صيغة «فعليل» تدل- فيما تدل- على ثبوت الصفة ورسوخها واستمرارها فى موصوفها كما نرى فى مثل «كريم» و«أمين» و«لثيم».

ولقد سهل لنا الشاعر العربى مهمتنا حيث قال:

إذا هى لم تمنع برسلى لحومها من السيف لاقت حده وهو قاطع (٣)

ندافع عن أحسابنا بلحومها وألبانها ان الكريم يدافع

ومن يقترب خلقا سوى خلق نفسه يدعه وترجعه اليه الرواجع (٤)

(١) سورة الأنعام : ١٢

(٢) سورة سبأ: ٣ - ٥

(٣) الرسل: اللين. وقد أرسل القوم، أى صار لهم اللين من مواشيهم.

(٤) الحماسة لأبى تمام (٣٣١/٢) رقم : ٧٥٣

فقد بين لنا الشاعر فى مقطوعته حقيقة كلمة «الكريم» وما تحتوية من معانى الدوام والاستمرار والرسوخ وعدم التخلف فى الكرم بحال من الأحوال، وبذلك بين لنا طبيعة هذه الصيغة - صيغة فعيل - فى أغلب أحوالها.

وأما صيغة «فعلان» فهى تشرب الوصف معنى الفيضان والغليان والهبيجان، كما نرى فى مثل «حران» و «غضبان».

ف« الغضبان » - مثلاً - هو الذى يهيج غضبه فيملكه ويبلغ منه منتهاه. ولقد فسر لنا الشاعر العربى هذا اللفظ، فقال:

فأقسمت ما جشمت من ملعة تؤود كرام القوم الا تجشما
ولاقلت: مهلا وهو غضبان قد غلا من الغيظ وسط القوم الا تبسما^(١)
ولقد بين لنا القرآن أيضا هذه الكلمة حيث قال فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام -:
﴿ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا﴾

ثم لفسر ذلك الغضب وصور مدى شدته وغليانه فقال:

﴿قال بنسما خلفتمونى من بعدى، أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه﴾^(٢)

وبالجملة، فإن صيغة «فعلان» تدل على معنى الفيضان والغليان فى الوصف دون معانى العمق والرسوخ والدوام والاستمرار، بخلاف صيغة «فعليل» فإن الأمر فيها على العكس.

وقد نستأنس هنا فى تبين هذا الفرق بقول الخنساء رضى الله عنها وهى تراثى أخاها صخرا:

تحسبه غضبان من عزه ذلك منه خلق ما يحول^(٣)

فإنها ما جاءت بالشرط الثانى الا لتعالج النقص الذى يوجد فى الأول، فإنها أرادت أن تضيف الى ما وصفت به أخاها من جلال المهابة وسطوة العز، معانى العمق والرسوخ والدوام والاستمرار.

هذا ما تيسر لنا فى تحقيق الأمر عن صيغة «فعليل» و «فعلان». ويمكن أن نحزم على هذا الأساس بأن كلمة (الرحمن) تدل على فيضان رحمته - سبحانه وتعالى - وعمومها وشمولها وسعتها، فقد وسعت رحمته كل شئ. وأما كلمة (الرحيم) فهى تدل على دوام الرحمة و ثبوتها واستمرارها، لرحمته - سبحانه وتعالى - دائمة مستمرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة.

(١) المرجع السابق (٤٨٨/١) رقم : ٣٤٣

(٢) سورة الأعراف : ٢٥٠

(٣) ديوان الخنساء : ص ١١٥

والآن نرتقى خطوة أخرى ونقول: ان رحمته- سبحانه وتعالى- اذا كان من شأنها الدوام والاستمرار فهي تستوجب- ولا شك - أن تتبع هذه الحياة الفانية حياة باقية خالدة تستمر فيها رحمة الله لمن يستحقها ويرشح نفسه لها، وتظهر فيها- لمن يكون لها أهلا - بمظهر أجمل وأشمل وأكمل . ومن هنا حسن أن تتلو الصفة الثانية الصفة الثالثة:

﴿مالك يوم الدين﴾

وهنا يحضرنا ماورد عن سيدنا عمر بن الخطاب- رضى الله عنه - حيث قال:
(قدم على رسول الله ﷺ بسبى فاذا امرأة من السبى تبغى اذا وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بطنها وأرضعته، فقال لئارسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، والله ! وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ لك أرحم بعباده من هذه بولدها .

وقال- عليه السلام:-

(ان الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها فى الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض ، فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة.) (١)

ثم هناك جانب آخر ، وهو أن صفة «الرحيم» ان كانت تدل على دوام الرحمة واستمرارها فصفة (الرحمن) تدل - كما سبق أنفا- على فيضان الرحمة وشمولها وسعتها وتدفقها بلا حدود ولانهاية. وهذا لا يتهيأ أبدا الا اذا اجتمعت الرحمة مع الملك الشديد، الواسع العريض المحيط، حتى يكون الأمر كما ذكره الله تعالى عن نفسه، فقال:

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ (٢)

﴿وان يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.﴾ (٣)
ومن هنا تضمن (الرحمن) معنى الملك الواحد القهار الذى تعنوله الوجوه وتخضع له الجباه. ونظائر هذا المعنى فى القرآن كثيرة متكررة:

﴿ان كل من فى السموات والأرض الا اتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم غدا.﴾ (٤)

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

(٢) سورة فاطر: ٢

(٣) سورة يونس: ١٠٧

(٤) سورة مريم: ٩٣-٩٤

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (١)

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٢)

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ﴾ (٣)

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا

تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٤)

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَنَدٌ لَّكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ (٥)

فكلمة (الرحمن) في هذه الآيات كلها تتضمن - كما لا يخفى - معنى الملك العزيز الجبار، الذي لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، والكون كله خاضع لنظامه ورهن لشارته.

ولعل هذا هو السر في أن صفة (الرحمن) أصبحت مختصة بالله - سبحانه وتعالى - دون صفة (الرحيم) فإنها تستعمل لله وللعباد، كما ورد في شأن الرسول - عليه الصلاة والسلام -

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦)

فإذا كانت صفة ﴿الرحمن﴾ تتضمن معنى الملك الواحد القهار، فلنعرف أن الملك والدين - وهو الحساب والجزاء - توأمان لا يفترقان، فالملك لا يتم له ملكه إلا إذا حاسب الرعية على الطاعة والمعصية.

ومن هنا حسن أن تتلو صفة (الرحمن) صفة ﴿مالك يوم الدين﴾ فربنا الرحمن سيأتي بيوم يفصل فيه بين من أطاعه وشكره وبين من عصاه وأعرض عنه.

ثم هو مالك يوم الدين، يملك أن يأتي بهذا اليوم إذا أراد. فيأذن له إذا شاءت حكمته، ويتصرف فيه كما أرادت قدرته. وليس لأحد أن يعارضه ويحول دون ما يريد.

فالمسلم يخضع ربه بحمده وهو على بصيرة من أمره، ومطلع على أسمائه وصفاته. فإذا تذكر هذه الصفات الحسنى، وهي ملاك أسمائه وصفاته، لم يملك إلا أن يلقي بنفسه على عتبة جلاله وكبريائه، ويفرده بعبادته واستعانته كما أفرد به بحمده، وثنائه، فذلك قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(١) سورة النبأ: ٣٨

(٢) سورة طه: ١٠٨

(٣) سورة الفرقان: ٢٦

(٤) سورة طه: ٥-٦

(٥) سورة الملك: ٢٠

(٦) سورة التوبة: ١٢٨

ومن ناحية أخرى فإن هذه الآية جاءت في الوسط، فحلت محل واسطة العقد من هذه السورة، فالشرط الأول من هذه الآية: ﴿إياك نعبد﴾ ختام لما قبله من حمد الرب وتمجيده والثناء عليه، كما أن الشرط الثاني منها: ﴿وإياك نستعين﴾ تمهيد لما بعده من الدعاء والاستعانة وطلب الهداية من الله :
﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾
ثم إن هذا الدعاء كما أنه عبارة عن الاستعانة، فهو في نفس الوقت مخ العباداة وجوهرها، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال.

(الدعاء مخ العباداة) (١)

هذا ما تيسر لنا التوصل إليه من وجوه الربط بين آيات هذه السورة العظيمة المعجزة ، فلله الفضل والمنة، وله الحمد في الأولى والآخرة.
ولعل فيه كفاية لادراك ما تتميز به هذه الآيات الجليلة من ترابط متين وتعانق عجيب فيما بينها



(١) سنن الترمذى ، باب ما جاء في فضل الدعاء ٤٥٦/٥ ، رقم (٣٣٧١).

الفصل الرابع

ارتباط السورة بالتى بعدها

ان هذه السورة كما أنها تتسم آياتها بتشابهك عجيب وارتباط قوى فيما بينها، فكذلك تمت بوشائج قوية متينة متعددة الى السورة التى تليها، وهى سورة البقرة.

وستكون لنا باذن الله محاولات متواضعة لاماطة اللثام عن بعض جوانبها، فنقول وبالله التوفيق:

ان النظرة المتأنية فى هاتين السورتين تكشف لنا ستة وجوه بارزة من المناسبة بينهما، وهى كما يلى:

١- ان سورة الفاتحة سورة عهد وميثاق كما مضى معنا من قبل. وسورة البقرة تذكير بذلك العهد والميثاق، وتقريع لمن ينقضونه. ولعل هذا هو السر فى تكرار ذكر العهد والميثاق فى هذه السورة.

ولأبأس بأن نذكر هنا بعض تلك الآيات، التى تساعدنا فى تحديد هذا الاتجاه:

﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا، وما يضل به الا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض، أولئك هم الخاسرون.﴾ (١)

﴿يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم، وإياى فارهبون.﴾ (٢)

﴿يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين.﴾ (٣)

﴿يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين.﴾ (٤)

﴿واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون.﴾ (٥)

﴿واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون.﴾ (٦)

(١) سورة البقرة : ٢٦-٢٧

(٢) سورة البقرة: ٤٠

(٣) سورة البقرة: ٤٧

(٤) سورة البقرة: ١٢٢

(٥) سورة البقرة: ٦٣

(٦) سورة البقرة: ٨٣

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَ﴾ (١)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِشَيْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢)
﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣)
﴿فَإِذْ كَرُونِي أَذْكَرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (٤)

ولعل هؤلاء الآيات يكفين لادراك ما أشرنا اليه من موضوع هذه السورة. وسيكون لنا كلام مستفيض حول هذا الموضوع ان شاء الله.

٢- جاء التنويه بشأن سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة معا، وفي وقت واحد، وبأسلوب واحد، حيث روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال:

(بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السما فتح اليوم، لم يفتح قط الا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل الى الأرض، لم ينزل قط الا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما الا أعطيته.) (٥)

وهذا ان دل على شئ فإنما يدل على مناسبة تامة، وصلة وثيقة بينهما، فما أقرب الشبه بين قوله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وبين قوله تعالى في خاتمة سورة البقرة:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكِتَابُهُ وَرَسُولُهُ، لَانْفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاعْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦)

(١) سورة البقرة: ٨٤

(٢) سورة البقرة: ٩٣

(٣) سورة البقرة: ١٠٠

(٤) سورة البقرة: ١٥٢

(٥) صحيح مسلم: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم الحديث (٨٠٦)، ١/٥٥٤

(٦) سورة البقرة: ٢٨٥-٢٨٦

ففى أول وهلة يشعر القارئ، حينما يمر بهذه الآيات، أنها عهد خاشع واستعانة ضارعة بالله - سبحانه وتعالى-.

وبعبارة أخرى، فهى تفصيل لقوله تعالى:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

وهناك جوانب أخر سنشير إليها فى موضعها من سورة البقرة، ان شاء الله.

٣- سورة الفاتحة تعبير بليغ عن حرص المتقين على الإيفاء بعهودهم و مواعيثهم وعظم عليها بالنواجذ، بينما سورة البقرة تصوير واضح فاضح لخيانة اليهود ونقضهم مواعيثهم.

٤ - فى سورة الفاتحة تنفر وامتنعاض شديد من الضالين والمغضوب عليهم، وسورة البقرة تقلب صفحات من تاريخهم البغيض، وتعدد الأسباب التى أدت بهم الى ذاك الحضيض.

٥ - فى سورة الفاتحة حنين وشوق من المؤمنين الى الانتظام فى سلك من أنعم الله عليهم، وسورة البقرة تحمل اليهم البشرى بإتمام النعمة عليهم:

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، لنلا يكون للناس عليكم حجة ، الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني، ولأنتم نعمتى عليكم ولعنكم تهتدون.﴾ (١)

٦- فى سورة الفاتحة طلب للهداية الى الصراط المستقيم وسورة البقرة استجابة لذلك الطلب، حيث قال تعالى :

﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين.﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا.﴾ (٣)

تلك ستة وجوه بارزة للمناسبة بين السورتين. ولا نقول انها هى كلها، فقد تكون هناك وجوه، و وجوه! وعسى أن يفتحها الله علينا فيما بعد ، والله ولى التوفيق.

(١) سورة البقرة : ١٥ .

(٢) سورة البقرة : ١-٢

(٣) سورة البقرة : ١٤٢-١٤٣

الفصل الخامس

موقع السورة من جملة القرآن

عن أبي سعيد بن المعلق قال: كنت أصلي فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، قلت: يا رسول الله ، انى كنت أصلى، قال: ألم يقل الله: استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم، ثم قال:

ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله ، انك قلت: ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العلمين» هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته. (١)

وهنا يثور سؤال: فما هى الميزة التى تتميز بها هذه السورة دون غيرها حتى اعتبرت أعظم سورة فى القرآن؟

قد تكون هناك اجابات واجابات على هذا السؤال، ولكن الذى يترجع عندنا هو أن هذه السورة - مع قصرها ووجازتها- تضمنت العلوم والمبادئ الأساسية التى عولجت فى جميع القرآن. وبذلك صارت أم القرآن، وأعظم سورة فى القرآن.

وعلى هذا فيسعنا كذلك أن نقول: ان سورة الفاتحة ديباجة القرآن، ومرآة القرآن، فالناظر المتأمل فى هذه السورة لا يفوته أن يطلع من خلا لها الى جميع مطالب القرآن ، أو يستحضر فى ذهنه رؤوس المعانى التى جاء بها القرآن.

وهذا اجمال لا يد له من تفصيل، فنقول وبالله التوفيق:

الآيات الثلاث الأولى تحتوى ملاك الأسماء الحسنى كلها، وهى القدرة المطلقة، والحكمة العادلة، والرحمة الفائضة الفامرة غير المتناهية. وبذلك رسخت دعائم التوحيد وتوطد بنيانه، بينما انسدت منافذ الشرك وتقلصت ظلاله. بالاضافة الى أن هذه الآيات تثبت الجزاء وتزرع فى النفوس الايمان بالآخرة، كما سبق معنا من قبل.

ثم الآية الرابعة تتضمن الاخلاص لله واللجوء اليه والاستعانة به والالتابة اليه.

ثم الآيات الثلاث الأخيرة:

○ تعبير جميل عن الايمان بالرسالات كلها، وعن الحنين الى الرسل واتباعهم والاعتراف بفضلهم ومكانتهم.

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب ١٠٣/٦

○ ودلالة واضحة على أن الهداية إلى الصراط المستقيم منوطة بالأنبياء والرسل، ومن أراد الهداية بعيدا عنهم فقد ضل الطريق وباء بغضب من الله.
○ وبراء كاشفة صارخة من أعداء الله وأعداء الرسل والأنبياء..

ثم هذه الآيات تدل بنظمها على مسلبة النعم أو على مصدر الخطر ومنشأ الفساد فى هذه الأمة وهم اليهود والنصارى- قاتلهم الله- وتاريخ المسلمين- على مر الدهور- حافل طافح بما يصدق ذلك. فتؤمن هذه الآيات الى موطن الداء ومكمن الشقاء، وهو الانخداع بالضالين والمغضوب عليهم من اليهود والنصارى ، مع التنبيه على قارورة الدواء و ابرة الشفاء، وهو اتباع صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبالجمله فهذه السورة:

- ١- تتضمن ملاك الصفات الحسنى كلها.
 - ٢- وترسى دعائم التوحيد وتجث جذور الشرك.
 - ٣- وتزرع في النفوس الايمان بالآخرة.
 - ٤- وتهيب باخلاص العبادة لله والاستعانة به واللجوء اليه.
 - ٥- وتذكر ما حصل بين العبد و ربه من عهد وميثاق.
 - ٦- وتلهب فى القلوب جذوة الحنين الى طريق الأنبياء.
 - ٧- وتنبيه على موطن الداء فى هذه الأمة.
 - ٨- وتصف العلاج الواقى من ذلك الداء.
 - ٩- وترغّب في الحب والولاء للصالحين.
 - ١٠- وتحذر من مصير الطغاة والمفسدين.
- تلك عشرة كاملة، وتلك هى المبادئ الأساسية أو المعارف الأصولية، التى فصلت تفصيلا فى سائر سور القرآن. وهى - كما نرى - جاءت عفوا صفوا بدون تكلف ولا تعسف.
- ثم هناك حكم أخرى أودعت في نظم هذه السورة ، والاطلاع على هذه الحكم يزيدنا ايمانا بأهمية هذه السورة وعظم شأنها، وجلالة قدرها، ويفتح علينا آفاقا جديدة من مرامى هذه السورة وشمولها وسعتها.

فمن تلك الحكم التى تستنبط من نظم هذه السورة ما يلى:

- ١- ان من آداب الدعاء تقديم الحمد والثناء مع الاعتراف بالعجز والافتقار الى الله- وهو كما لا يخفى، من تمام الحمد والثناء- ثم التطرق الى ما هو المطلوب، وكانت أدعية النبي ﷺ على هذا

النمط، وبهذا كان يأمر أصحابه، حيث قال عليه الصلاة والسلام:

(الصلاة مثني مثني، تشهد في كل ركعتين، وتخضع وتضرع وتمسك، وتقع يديك، - يقول: ترفعهما الى ريك- مستقبلا ببطونهما وجهك، وتقول: يارب، يارب! ومن لم يفعل ذلك فهو كذا وكذا. وفي رواية: من لم يفعل ذلك فهو خداج.) (١)

وعن فضالة بن عبيد قال: بينا رسول الله ﷺ قاعدا اذ دخل رجل فصلّى، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: (عجلت أيها المصلّي اذا صليت ففقدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل على ثم ادعه)، قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: (أيها المصلّي، ادع تحب.) (٢)

٢- أحق ما يطلبه العبد من ربه هو الهداية والتوفيق، ولذلك تلقينا، أول ما تلقينا من ربنا، هذا الدعاء: «اهدنا الصراط المستقيم»

٣- الهداية الى الصراط المستقيم هي باب الرحمة ومفتاح النعمة، ومن ابتعد عن الصراط فلا جرم أن سائر النعم تنقلب وبالا عليه.

٤- الرحمة من أبرز صفات الرب، كما قال تعالى:

«وسعت رحمتي كل شيء» ولذلك وضعت هذه الصفة في غرة هذا الكتاب.

٥- من رحمته تعالى أنه سيأتي بيوم الدين، ثم هو الذي يتولى الحكم والقضاء، فلا يتكلم من يتكلم إلا بأذنه، ولا يقول من يقول الا صوابا. ولقد فصلت هذه النقطة فيما مضى.

٦- الأصل في المدح والثناء أن يكون بظهر الغيب، كما نرى في هذه السورة، فانها كلها خطاب مباشر الى الله تعالى غير ما فيها من الحمد والثناء، فانه جاء بلفظ الغيبة، وهذا هو أقرب الى الأدب والصدق والصفاء، وأبعد من الكذب والتعلق والرياء.

٧- العبادة من تمام الحمد، ومن تهاون بالعبادة وحرك لسانه بالحمد فهو كاذب في حمده.

٨ - الاستعانة أيضاً من تمام الحمد ومن استعان بغير الله فهو كاذب في حمده.

٩ - الاستعانة واحساس الافتقار الى الله هو جوهر العبادة، ومن استعان بغير الله فهو كاذب في عبادته، ومن هنا سمي الدعاء مخ العبادة.

(١) سنن الترمذي: باب ماجاء في التخضع في الصلاة، ٢٢٥/٢-٢٢٦، رقم الحديث (٣٨٥)

(٢) سنن الترمذي: ٥١٦/٥، كتاب الدعوات، رقم الحديث (٣٤٧٦)

١٠ - الدعاء بعد العبادة أقرب الى الاستجابة، ولذلك ورد أولا التمهيد بالعبادة والاستعانة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ثم تبعه الدعاء، ومن هنا شرع النبي ﷺ أن يصلى العبد ركعتين، ثم يطلب مبتغاه، فذلك أحرى أن يستجاب.

فقد روى عن عبد الله بن أبي أوفى، قال : قال رسول الله ﷺ: (من كانت له الى الله حاجة أو الى أحد من بنى آدم فليتوضأ، فليحسن الوضوء ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله وليصل على النبي - ﷺ - ثم ليقل: لا اله الا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم. الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل اثم، لا تدع لى ذنبا الا غفرتة، ولا هما الا فرجته ، ولا حاجة هي لك رضا الا قضيتها يا أرحم الراحمين. (١)

وعن على قال: كنت رجلا اذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفغنى الله منه بما شاء أن ينفعنى، واذا حدثنى أحد من أصحابه استحلقتة، فاذا حلف لى صدقته، قال: وحدثنى أبويكر، وصدق أبويكر، أنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: مامن عبد يذنب ذنبا، فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين، ثم يستغفر الله الا غفرله. (٢)

وتلك أيضا عشرة كاملة. ومن يدري؟ فقد تكون هناك عشرات أخرى لم نصل اليها بعد ، ولا يستوعب كلام ربك الا هو.

فلننظر هذه السورة، -مع قصرها و وجازتها- كيف جمعت في غضونهما أصول معارف القرآن كلها، وبذلك استحقت-حقا- أن تسمى أم القرآن وأعظم سورة في القرآن. وللإمام الفراهي - رحمه الله - كلمة جميلة في هذا الموضوع، ونرى من حقها علينا أن نسجلها هنا، يقول- رحمه الله- :

« ان هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاث على الاجمال، ولذلك سماها العلماء موفية، ومن حيث انها ديباجة القرآن وحاوية لجميع علومه هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث انها هي شئ زائد عليه.

وهذا انما هو من جهة اعتبار واحد والا فالديباجة ليست الا جزءا من الكتاب. وذلك أمر استنبط العلماء من القرآن، فان الله تعالى تنبيها لعظيم منته على نبيه قال:

﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم.﴾ (٣)

(١) سنن الترمذى: باب ماجاء فى صلاة الحاجة، ٣٤٤/٢ رقم الحديث (٤٧٩)

(٢) مختصر سنن أبى داود : باب فى الاستغفار ، ١٥٢/٢ ، رقم الحديث (١٤٦٥)

(٣) سورة الحجر: ٨٧

فانظر كيف سماها الله على حديثها قرآنا عظيما ، كأن لهذه السبع شأنا على حديثها .
وان قيل ان العطف ليس للتفسير بل المراد انا أعطيناك هذه الآيات السبع ومعها القرآن العظيم ،
فعلى هذا التأويل أيضا هي زائدة على القرآن العظيم ، فالى أى تقدير تذهب تجدها مستقلة
وجامعة.. « الى أن قال - رحمه الله- : « أما انها كيف جمعت علوم القرآن ، فالقرآن بحسب الاجمال
يعطيك علوما ثلاثة :

(١) التوحيد (٢) والشرائع (٣) والمعاد

وان فصلنا هذه الأمور بحيث تراها تسع جميع القرآن خرجنا عن هذا البحث الى فضاء عريض ،
وسيطهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل . ولانقول ان بعض آياتها فى التوحيد وبعضها فى الشرائع
وبعضها فى المعاد على حديثها ، فان هذه العلوم فيها ممزوجة ، فلا تراها مفترقة ، والتوحيد كجلباب
أسبل على السورة ثم تحتها الشرائع والمعاد .

ومن هذا الذى قدمناه تبين لك حكمة وضع هذه السورة للصلاة ، فان الذى قرأ الفاتحة كأنه قرأ
جميع القرآن اجمالا ، وبعد علم التفاصيل يذكر ك الاجمال جميعها . « (١)

هذا مما كتبه الامام الفراهي - رحمه الله - عن هذه السورة ولا شك أن كلامه هذا يمكن من الروعة
والدقة والوجاهة ، فجزاه الله عنا خير الجزاء وأوفاه .

ونرى الأمر قدبلغ غايته من الوضوح ، وتجلت مكانة سورة الفاتحة وموقعها من جملة القرآن تجليا
كاملا ، فله الحمد أولا وآخرا .

والآن نأتى الى نقطة مهمة جدا ، وهى المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه ، راجين من الله العون
والتيسير ، فانه نعم المولى ونعم النصير .



(١) تفسير سورة الفاتحة : ص ٤١-٤٣

الفصل السادس

المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه

قد يستغرب القارئ إذا رأى هذا العنوان، ويسائل نفسه بشئ من الاستعجاب:

فهل توجد مناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه؟

نحن نقول بدون أى تردد أو توقف: نعم، اى ورى، ان الأمر كذلك . وهو أوضح من أن يجحده جاحد أو يستريب فيه مستريب، فكلما نتدبر هذه السورة مع السور الأخيرة في القرآن لا نقضى منها العجب لشدة ما يوجد بينها من تناسق رائع والتحام عجيب، فقد عاد الكلام على بدنه بأسلوب تهتز له النفس وتهتز، وترتاح له أيما ارتياح.

لقد رأينا قبل أن قطب سورة الفاتحة و عمودها هو قوله تعالى :

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

والآن سنرى فى نهاية الشوط أن القرآن كيف عاد الى هذه النقطة كرة أخرى، وتناولها بطريقة عجيبة وروعة فائقة.

فقد أقر المسلم هناك وأعطى العهد والميثاق أنه يسلم نفسه لله، فلا يعبد الا اياه ولا يستعين الا به. وأعرب عن لوعته وحنينه الى تلك النفوس القدسية التى آثرها الله بنعمته واختصها برحمته و رضوانه، كما أعرب عن ضجره وكراهيته لأولئك الأشقياء الذين حادوا عن الطريق وباعوا بفضب من الله.

والآن نرى فى نهاية المطاف أن المسلم مطالب بأن يفاصل هؤلاء الأشقياء الكفار مفاصلة كاملة، ويصارعهم بضجره وكراهيته لهم ولما يعبدون من دون الله، ويكاشفهم بأنه لا يمكن أن يلتقى معهم في منتصف الطريق، أو يسالمهم في عقيدتهم وسلوكهم إلى أن يأتى وعد الله: ﴿قل ياأيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولى دين.﴾

ويقرع أسماعهم بذلك العهد الذى أبرمه مع ربه حين قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾:

﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد.﴾

أى الذى أعبد هوالله، الذى يتفرد بهذه الصفات، وهى صفات لايد من توافرها فى الإله المعبود.

فكان هذا تكملة للعهد الذى سبق فى سورة الفاتحة، فان الاقرار بعبادة الله واخلاص النفس له يفقد اعتباره اذا بقى هو سرا بين العبد وربّه، ولم يجهر به العبد على رؤوس الناس، ولم تصاحبه البراءة الصريحة المكشوفة من عبادة غير الله.

ثم جاءت المعوذتان.

ومعلوم أن الاستعاذة اخت الاستعانة ونسيبها أو أنها شطر منها، فان الاستعانة هى طلب العون للتخلص من عدو أو التوقى من فتنة.

فلما تقدم العبد المسلم الى ربه بطلب العون فى سورة الفاتحة:

﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾

استجاب الله دعاءه، وبين له الطريق، وبين له الشرائع، وبين له الأحكام، وبين له كل ما يساعده فى عبادة الله وطاعته وابتغاء رضوانه.

ثم علمه، بعدما حمّله الرسالة وأقامه على المحجة البيضاء، كيف يستعين بربه من الشرور والفتن، التي تحيط به من كل جانب وتريد أن تنقض عليه فتفسد عليه دينه وأمانته وتحرمه من السعادة، التي اختصّه الله بها:

﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق اذا وقب. ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد اذا حسد.﴾

هذه الشرور-كما لا يخفى- شرور خارجية وظاهرة تقف للمسلم بالمرصاد، وتتوعدده فى كل حين بالدمار والهلاك، ثم تنقض عليه انقضاضاً، ان لم تتداركه نعمة من ربه.

وهناك شرور خافية تدب فى نفس الانسان دبيب النعاس، وهى الوسوس، التي تتوآب على النفس وتسيطر عليها بحيث لا يكاد الانسان يشعر بها، فتعمل فى كيان الانسان عملها وتحتاج دينه وأمانته ان لم يتيقظ لها.

فتلك شرور داخلية علّما الله كيف نستعين منها:

﴿قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. اله الناس. من شر الوسواس الخناس. الذي يوسوس فى صدور الناس. من الجنة والناس.﴾

وهكذا يكون المؤمن فى مأمن من الفتن كلها، ويكون مأمونا فى دينه وأمانته، ولا يؤتى من داخله ولا من خارجه، ان لم يتوان فى الاستعاذة بربه.

ولقد صدق نبينا ﷺ حيث قال منها بشأن هاتين المعوذتين:

(ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس.) (١)
ومن يديع التناسب بين فاتحة الكتاب وخواتيمه أن الله سبحانه وتعالى وضع سورتين للاستعانة في أول القرآن، وسورتين للاستعاذة في آخر القرآن.

فخواتيم سورة البقرة كلها استعانة حارة ضارعة من العبد المسلم أمام ربه الكريم الودود:
﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ (٢)
وخواتيم سورة آل عمران أيضا جاءت تحمل نفس الروح وينفس الأسلوب :

﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانه، فقنا عذاب النار، ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار. ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، انك لا تخلف الميعاد﴾ (٣)

لا نقول ان هاتين السورتين عمودهما الاستعانة بالله، وانهما تدوران حول هذا الموضوع، لكننا نقول: ان تلك الآيات لها شأن خاص تتميز به دون غيرها، وهى تكاد تطبع السورتين بطابعها. ولن نبالغ اذا قلنا: ان تلك الآيات تبرق في السورتين كبريق الثريا في كبد السماء، أو كبريق الشمس في رابعة النهار.

ولقد جاءت أدعية أخرى كثيرة في سور أخرى متعددة، والأدعية كلها استعانة بالله، ولكن لهذه الآيات وضعا يختلف عن البقية، وان لها لشأنا لا يوجد في غيرها.

ثم ان الترتيب الذي نراه في الاستعانة والاستعاذة، حيث بدئ القرآن بالاستعانة وختم بالاستعاذة، كان هو الترتيب المفضل من ناحية البلاغة، فان الانسان يكون في أول أمره بحاجة الى الاستعانة بربه، ليعرف معالم الطريق ويعرف القاصد من الجائر، والقويم من الأعوج، وبعد ذلك يحتاج الى أن يلجأ اليه ويستعيز به من قطاع الطريق حتى لا تفوته الغاية بعد ما عرف الطريق اليها.

(١) صحيح مسلم: باب فضل قراءة المعوذتين، ١/٥٥٨، رقم الحديث (٨١٤).

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥-٢٨٦

(٣) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩٤

وكما أن الصفات التي جاءت في سورة الفاتحة قبل قوله تعالى:

«إياك نعبد وإياك نستعين»

كانت ملازمة تماما لموضوع العبادة والاستعانة، فإن الشعور بالربوبية العامة، والرحمة الشاملة الدائمة، والعدالة الخالصة البهتة هو الذي يهيب بالانسان الى اخلاص العبادة لله ، ويغمر قلبه بالأمل الخاشع في عون الله.

فكذلك الصفات التي جاءت في سورة الاخلاص قبل المعوذتين منسجمة تماما مع موضوع الاستعاذة بالله، فإن الصمدة في اللغة هي الصخرة الراسية في الأرض، وهي التي اذا لذت بها نجوت من مخاوف العدو، وكثيرا ما كانوا يلوذون بالصخور اذا دهمهم العدو.

ومن هنا سمى سيد القوم صمدا، فإن القوم يلجأون اليه ويحتمون بحماه اذا دهاهم أمر. فالله هو الصمد، فانه لا يملك أحد أن يكشف الضر ويرد المكروه الا هو، واذا فر الانسان اليه ولاذ بكنفه واحتسى بحماه أمن المخاوف كلها، ولن يضره شئ في الأرض ولا في السماء، فهو الملجأ وهو المعاذ.

ولقد كثر في الكتب السماوية استعمال (صخرة) لله سبحانه وتعالى ، وخاصة في مزامير سيدنا داود- عليه السلام- ولا بأس بأن نذكر هنا بعض الأمثلة:

«أحبك يا رب ، يا قوتي، الرب صخرتي وحصني ومنقذي. الهى صخرتي به أحتمى. ترسى وقرن خلاصى وملجأى. أدعو الرب الحميد فأنتخلص من أعدائى». (١)

« الله طريقه كامل. قول الرب نقى. ترس هو لجميع المحتمين به، لأنه من هو اله غير الرب، ومن هو صخرة سوى الهنا. » (٢)

«حى هو الرب ومبارك صخرتى ومرتفع اله خلاصى». (٣)

«لتكن أقوال فمى وفكر قلبى مرضية أمامك، يارب صخرتى وولى». (٤)

وأما بقية الصفات فنناسبتها مع موضوع الاستعاذة واضحة، فما دام أن الله أحد، وليس له ابن ولا أب، وليس له شبيه ولا عدل ولا نديد ولا نظير، فمن الذي يملك أن يتحدى قدرته أو يخفر جواره، أو يس من يدخل فى حماه بسوء! فسبحان من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه.

(١) المزمور الثامن عشر، آيات : ٣-١

(٢) المزمور الثامن عشر ، آيات : ٣٠-٣١

(٣) المزمور الثامن عشر، آية: ٤٦

(٤) المزمور الثامن عشر، آية: ١٤

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة السور الأربع مع سورة الفاتحة، آن لنا أن نكشف القناع عن المناسبة بينها وبين سورتي النصر والهب.

فالحقيقة أن سورتي النصر والهب جاءتا استجابة للدعاء الذى تقدم به العبد المسلم بين يدي ربه الملك الرحيم في سورة الفاتحة، وهو قوله تعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾

والجدير بالذكر أن الترتيب الموضوعى في كلا الموضعين واحد، ففى سورة الفاتحة يقر العبد أولاً بعبوديته الكاملة الخالصة من خلال قوله تعالى:

﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾

ثم يسأل الله أن يرزقه الاستقامة ويلحقه بمن استحقوا منه النعمة ويجنبه من اشتروا الضلالة بالهدى وباءوا بغضب من الله. وبعبارة أخرى هو يسأل لنفسه العزة والنصرة والنعمة، ولمن ناصبه العدا، التباب والعذاب والنقمة:

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾

فطوبى المؤمن أولاً فى سورة الكافرون بأن يتبرأ من أعداء الله وما يعبدون من دون الله ويجهر بهذا العهد الذى أبرمه مع ربه ويصدق به أمام الناس حتى يتأكد صدقه مع الله.

وبعد ذلك تأتى الاستجابة لدعائه فى سورة النصر فى صورة الفتح والنصر:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، انه كان توابا.﴾

ثم تأتى سورة الهب:

﴿تبت يدا أبى لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب، وامراته حمالة الحطب، فى جيدها حبل من مسد.﴾

وليست هذه السورة الا تكملة لسورة النصر، حيث ان الأولى تحمل الى المؤمنين بشرى النصر والفتح بينما الأخرى جاءت تؤذن بالويل والتباب لسانئهم من أهل الكفر.

فهاتان السورتان ثقلان فى مجموعهما قوله تعالى:

﴿جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقا.﴾ (١)

ولا تفوتنا الإشارة هنا الى أن هاتين السورتين تجمعان بين نعيم الدنيا والآخرة للمؤمنين، وخزى الدنيا والآخرة للكافرين. فسورة النصر تشير الى النصر والتمكن للمؤمنين فى هذه الدنيا، كما أن

سورة اللهب قميل- فى طبيعتها وجوها- الى سوء عاقبة الكفار فى الآخرة. وتمكن المؤمنين فى الدنيا يستلزم هزيمة أعدائهم فيها، كما أن سوء عاقبة الكفر فى الآخرة ايدان بحسن عاقبة الايمان فيها. والدعاء الوارد فى سورة الفاتحة أيضا جاء على هذه الشاكلة، فهو يشمل النعمى فى الدنيا والآخرة، وبالتالي هو يتضمن سوء مصير أعداء الله فى هذه الدنيا وفى الآخرة. تلك لمحات سريعة الى ما يوجد بين فاتحة الكتاب وخواتيمه من نظام متين وتلاحم قوى وتناهي عجيب !!

ولا غلك بعد ذلك الا أن نحنى رؤوسنا و نردد بكل خشوع ما قاله ربنا فى وصف هذا القرآن: ﴿قل لنن اجتمعن الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ (١)

نعم، يا ربنا، انه ليس فى استطاعة أحد من الجن والانس أن يأتى بمثل هذا القرآن، بل وليس فى استطاعة أحد منهم أن يحيط بما فيه من دقة النظام و روعة البيان، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.



الباب الثانى

نظام

سورة البقرة

ان هذه السورة - كسائر أخواتها - نموذج رائع لحسن الارتباط في آياتها، وروعة التناسق فيما بين أجزائها، وذلك بالرغم من أنها لم تنزل جملة واحدة، بل نزلت على فترات زمنية متباعدة.

والفواصل الزمنية في النزول، وإن كانت طويلة مديدة إلا أنها لا تخل أبدا بهذا الارتباط وذلك التناسق.

وسوف نتناول باذن الله هذه السورة العظيمة من هذه الناحية جزءا جزءا، ونسعى جهدنا في ابراز ما تتمتع به من حسن التناسق وروعة التعانق.

فلنبدا إذا بما تستهل به هذه السورة العظيمة.

نظم الآيات (١-١٦)

قال تعالى:

﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾

ان دراسة نظم هذه الآيات تلح علينا أن نستحضر أولا تلك السورة التي مضت قبلها، وهي سورة الفاتحة.

لقد عرفنا في الباب السابق ان سورة الفاتحة هي سورة العهد والميثاق، الذي يتقدم به العبد المسلم بين يدي ربه بالعشى والابكار، وتوثيق هذا العهد هو عمودها وروحها السارى فيها.

ويظهر هذا واضحا جليا حين ننظر الى موقعها من جملة القرآن، وموقعها من السور الأربع، التي تدور حول هذا العنوان، ولقد بينا ذلك فيما مضى و سنبينه فيما بعد باذن الله.

ثم هناك وجه آخر يلمسه الناظر في هذه السورة حين يجمعها مع مطالع سورة البقرة، وهو أنها ترجمة رائعة لما كان يجده الصالحون ممن أهل الكتاب فى صدورهم من تلهف واشتياق شديدين الى الحق. فقد كانوا متمسكين ببقايا معالم الهدى وسنن الأنبياء، وكانوا متضجرين من أولئك الأخبار والرهبان، الذين طمسوا معالم الحق و باعوا دينهم بعرض من الدنيا، فضلّوا وأضلّوا واستحقّوا غضب الله.

فهم يتوسلون بعبادتهم الى ربهم و يتضرعون اليه أن يرسل اليهم الكتاب الذي وعد به على لسان الأنبياء، ويأخذ بأيديهم الى الصراط المستقيم، الذي سلكه الصالحون من سلفهم ممن أنعم عليهم.

وهنا تجبى سورة البقرة، تحمل اليهم البشرى: ان الكتاب الذى أنزل على محمد هو ذلك «الكتاب» أى الكتاب الذي وعد به الله على لسان الأنبياء السابقين.

فهو ذلك الكتاب الموعود بالتأكيد، وليس هناك مجال لأن يستريب فيه مستريب:

﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾

ويوحى الينا السياق كذلك أن هؤلاء الصالحين من أهل الكتاب لما سمعوا بهذا الكتاب لم يترشوا ولم يترددوا، بل لم يكن هناك أى فاصل زمانى بين سماعهم بهذا الكتاب وبين إيمانهم به واستجابتهم له، فقد كانوا يتمتعون بخلال الخير، انتي لا تدع صاحبها يتأخر أو يتردد اذا ظهر له الحق.

ان هذه الآيات تذكرنا ذلك الحوار الذى جرى بين موسى وربه، فان هناك شبهها واضحا

بين هذا و ذاك:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هـي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة، انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون.﴾ (١)

فقد ذكرت هناك ثلاث صفات لهؤلاء الصالحين من أهل الكتاب الذين سينالهم نصيبهم من هذه الرحمة:

١- التقوى

٢- وإيتاء الزكاة

٣- والايان بالآيات

وتلك عيون الصفات التي ذكرت في الآيات التي نحن بصدها من سورة البقرة، وماعداها فهي داخلة فيها حيث انها من مستلزماتها.

وبعدما ينتهى السياق من ذكر تلك الصفات يأتى بهذه الآية مباشرة:

﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون.﴾ (٢)

وهذا الوضع ان دل على شئ فأنما يدل على أن الصالحين من أهل الكتاب، الذين كانوا يتصفون بهذه الصفات، ما لبثوا أن آمنوا بهذا النبى حين سمعوا به، وكانوا فى استعدادهم للايمان كزيت يضى ولو لم تمسه نار، فهم سارعوا الى الايمان وتنافسوا فيه، ولم يكن دافعهم الى ذلك الا تلك الحلال التي كانوا يتمتعون بها من أول أمرهم.

ولقد أشاد القرآن بذكرهم في عدة مواضع، وذكر مسارعتهم الى الايمان بأسلوب يطرب له القلب وتهتز له النفس، وما أروع تلك المشاهد التي تعرضها هذه الآيات:

﴿واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.

(١) سورة الأعراف : ١٥٥-١٥٦

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧

يقولون ربنا آمنا فاكثبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. ﴿١﴾

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا.﴾ (٢)

﴿الذين أتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين.﴾ (٣)

وبالجملـة فالأوائل الخمس من هذه السورة جاءت في شأن الصالحين من أهل الكتاب ، وهى تشير بسياقها الى شوقهم ولهفتهم ومسارعتهم الى القرآن، كما تشير الى ذلك الرصيد الطيب من الصفات، التى كانوا يملكونها ، والتى دفعتهم دفعا الى دائرة الايمان. وليس هذا بدعـامـن القول، فقد كان فى السلف من ذهب اليه، كما صرح بذلك الامام ابن جرير- رحمه الله- حيث قال:

«وقال بعضهم: بل نزلت هذه الآيات الأربع فى مؤمنى أهل الكتاب خاصة.» (٤)

وقد نستأنس هنا بالأسلوب الذى نلاحظه فى كلا الموضعين من هذه السورة ومن سورة الأعراف، حيث ان آيات سورة الأعراف، التى وردت فى شأن الصالحين من أهل الكتاب، ختمت بهذه الكلمات:

﴿فالذين آمنوا به وعزوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون.﴾
وآيات سورة البقرة أيضا ختمت بنفس الكلمات:

﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾

وبعد ما ينتهى النص من ذكر الصالحين من أهل الكتاب ينصرف الى طواغيتهم مبينا موقفهم من الكتاب :

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.﴾

هؤلاء زعماء اليهود وطواغيتهم، الذين ليس لهم هم إلا أن ينفثوا السم ضد الاسلام، ويشعلوا نار الفتنة كي يطفئوا نورالقران!

(١) سورة المائدة: ٨٣-٨٤

(٢) سورة الاسراء : ١٠٧-١٠٩

(٣) سورة القصص: ٥٢-٥٣

(٤) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ١٠٢/١

ان أمثال هؤلاء لا يجدى فيهم الانذار، فقد عرفوا الحق وجحدوه واستحبوا الكفر على الايمان وآثروه!

ان أمثال هؤلاء ليس لهم الا أن يعيشوا ماعاشوا على الكفر ويموتوا اذا ماتوا على الكفر ، فقد عاقبهم الله على كفرهم بأن ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا رجاء في ايمانهم بعد أن تسببوا في اغلاق مداخل الايمان ومناقله وغدوا جيبسى كفرهم وظلماتهم.

ومما يؤيد هذا الرأي قول ابن عباس والكلبي حيث قالوا عن هاتين الآيتين:

(نزلت في رؤساء اليهود حيسى بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما.) (١)

ومثله ما روى عن ابن السائب حيث قال:

(انها نزلت في طائفة من اليهود ومنهم حيسى بن أخطب.) (٢)

وبعد ما ينتهى النص من ذكر هؤلاء الطواغيت، ينصرف الى ذكر المنافقين، الذين هم من أتباعهم وعماليتهم داخل صفوف المسلمين:

فومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء. ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم ، انما نحن مستهزون. الله يستهزي بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. ﴿

هؤلاء المنافقون أيضا من اليهود، كما ورد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في هذه الآيات أنه قال:

(انها في منافقي أهل الكتاب.) (٣)

وقادتهم وشياطينهم هم الذين سلف ذكرهم من اليهود، فهم الذين يخططون لهم ويرسمون لهم الطريق، ثم يدسونهم في صفوف المسلمين كي يخدموهم ويخدعوا المسلمين.

(١) فتح القدير: ٣٩/١

(٢) زاد المسير: ٢٧/١

(٣) زاد المسير: ٢٩/١

نظم الآيات (١٧-٢٠)

وبعد ما ينتهى النص من ذكر هذه الطوائف الثلاث يتناول الطائفتين الأخيرتين بمزيد من الايضاح، ويضرب لهما مثلين حتى تتجلى صورتها بكل ما فيها من خيب وفساد:

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا. فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعدو برق، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شئ قدير.﴾
هذان المثالان يتناولان الطائفتين الأخيرتين بالترتيب.

فالمثل الأول يتناول الطواغيت من اليهود. وهو يصور رجلا استوقد النار لسيارة يتيهون فى الظلام، وهو لم يستوقد هذه النار الا لكى يدعوهم اليه ويعد لهم طعاما يشبعهم ويغنيهم من جوع. ولكنهم لم يلقوا له بالا مع أنهم فى أسوأ حالة وفى أمس حاجة اليه، انهم آثروا البقاء فى الحيرة والمسغبة على تلك الضيافة المهيأة ، لا لسبب الا لعنجهيتهم واستكبارهم وفساد فى طبيعتهم! فهكذا حال هؤلاء الطواغيت، انهم جاءهم الرسول بالهدى والنور وهم فى أمس حاجة اليه، ولكنهم آثروا البقاء فى الحيرة ودياجير الظلمة ولم تسمح لهم عنجهيتهم واستكبارهم بأن يلتفتوا الى ذلك النور!

﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾

وكلما ازداد هذا النور سطوعا وتألقا ازداد هذا النفر نفورا وتنكرا. فلما أبى هذا النفر الا نفورا و تنكراً لهذا النور - نور الوحي ونور الهداية - ذهب الله بنورهم الذى أودعه فى فطرتهم ليكون لهم دليلا الى هذا النور. وما ذهب بنورهم هذا، الذى قد أودعه فى فطرتهم الا لأنهم لم ينتفعوا به و عطلوه، وبذلك تركهم فى ظلمات لا يبصرون، فلا رجعة لهم الى الحق ولا أوبة لهم الى الهدى ولا هداية لهم الى النور!

وهنا يحضرنا ذلك الحديث الذي رواه الدرامى عن ربيعة الجرشي، قال:

(أتى نبي الله - ﷺ - فقيل له: لتتم عينك ولتسمع أذنك وليعقل قلبك. قال: فنامت عيني وسمعت أذناي وعقل قلبي . قال: فقيل لى: سيد بنى دارا فصنع مأذبة وأرسل داعيا، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأذبة ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يطعم

من المأدبة وسخط عليه السيد، قال: قاله السيد ومحمد الداعى والدار الاسلام، والمأدبة الجنة. (١)

والمثل الثانى يرسم حال الطائفة الثالثة وهى طائفة المنافقين.

انه يرسم حالة الخذر والخوف الشديد. انه يصور قوما وقعوا فى مطر شديد رهيب، مطر يصحبه رعد و برق وظلام.

فكلما سمعوا جلجلة الصواعق ظنوا كأنها حلت بهم. وجعلوا أصابعهم فى آذانهم، وهم خائفون وجلون من الموت. وان لاح لهم البرق ارتجفوا وحسبوا أن سناه سيذهب بأبصارهم. واذا أضاء لهم الطريق مشوا، واذا خيم عليهم الظلام وقفوا.

فما ظنك بقوم يقطعون طريقهم هكذا خائفين وجلين، يعيث بهم الجزع والفزع! لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال!

وهكذا حال هؤلاء المنافقين. انهم اندفعوا الى طريق الاسلام ولم يقدروا الموقف قبل أن يدخلوا فيه. انهم اقتحموا المعركة ولم يتزودوا من التقوى والثقة بالله ما يثبت أقدامهم، ويربط على جأشهم، فاذا بهم قد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر لشدة الموقف وهول المنظر!

انهم لا يشقون بالله. كما يشقون بأنفسهم وكياستهم، أو كما يشقون بمكرهم وحيلتهم. ويحسبون أنهم هم الذين ينجون بسمعهم وأبصارهم فى جلجلة الصواعق ولمعان البرق.

ويا لسذاجة النفوس وغباوة العقول! فان الله هو الذي يكلاهم ويحفظهم ويرعاهم من غير حول منهم ولا قوة. ولوشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم، ولكن المنافقين لا يفقهون، فهم مترددون بين معسكر الايمان ومعسكر الكفر، تقودهم المصلحة مرة الى هؤلاء وأخرى الى هؤلاء.

وهكذا هم دائما فى قلق واضطراب، مذبذبين بين المعسكرين، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء.

فالمثل الأول يوحى بالعنجهية والاستكبار والاباء والتعرد، وهو يتناسب مع حال الطغاة من اليهود.

كما أن المثل الثانى يوحى بالوجل الشديد والخوف المستمر والخذر الدائم وهو يتناسب مع حال المنافقين المخادعين.

ولقد روى الامام ابن جرير- رحمه الله- أن قتادة وابن جريج- رحمهما الله- كانا يتأولان قوله تعالى: «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت» أن ذلك من الله -جل ثناؤه- صفة للمنافقين بالهلع وضعف القلوب وكراهة الموت. وكانا يتأولان فى ذلك قوله تعالى:

(١) سنن الدارمى: باب صفة النبى ﷺ فى الكتب قبل مبعته، ص: ٧

«يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ» (١)

ويقول الفراء - وهو يذكر معنى الآية:

«قيل إن الرعد إنما ذكر مثلاً لخوفهم من القتال إذا دعوا إليه، ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر:

«يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ» أى يظنون أنهم أبدا مغلوبون. (٢)

ومن هذا التفصيل يتبين ضعف الرأى الذي يربط كلا المثلين بالمنافقين وأحوالهم، فإن هذا الرأى خلاف ما يمليه علينا السياق.

والذي يمليه علينا السياق هو ما عرفناه من أن المثل الأول يتناول الطائفة الثانية من طواغيت اليهود وشياطينهم والمثل الثانى يتناول الطائفة الثالثة من المنافقين المخادعين.

وكان الدكتور عبدالله دراز - رحمه الله - موفقا كل التوفيق، حيث قال وهو يناقش هذا الرأى:

«لعلك ترى هنا شيئا من المخالفة لكلام المفسرين، إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين الى المنافقين خاصة، وجعلناهما موزعين على الطائفتين، نشرا على ترتيب اللف. ولكنك إذا رجعت بنفسك الى أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثانى وحده. فهؤلاء القوم الذين «ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون» أليسوا هم أولئك القوم الذين «ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة». وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب هل ترى فيها تصورا لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ انك لا تجد هذه الصورة الا في المثل الثانى حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثانى قوما لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب. وهذا مناسب لقوله في المنافقين «في قلوبهم مرض» فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلى على القلوب والحواس.

نعم يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح اذا ضممنا اليه ضميمه. ذلك بأن نقول ان المثل الأول يصور حال المنافقين في بواطنهم وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار. والمثل الثانى يصور حالهم في ظواهرهم، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعى، لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا في الباطن. غير أن هذه الدعوى أيضا محل نظر، إذ ما يدرينا لعل نوع الكفر الذى يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد، وأن هذا الاضطراب الذى نشاهده على حركاته الظاهرة فى أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسى الذى يحس به هو فى دخليته بخلاف النوع الأول، وهو كفر المجاهرين، فهو طبيعة واحدة مصممة، حسبما تشهد به وحدة آثاره. (٣)

(١) تفسير الطبرى : ١٥٧/١

(٢) معاني القرآن للفراء : ١ / ١٧

(٣) النبأ العظيم ص : ١٦٨ - ١٦٩ بالهامش.

نظم الآيات (٢١-٢٩)

وبعد ما ينتهى السياق من تمثيل هؤلاء وهؤلاء يأخذ القوم بالنصيحة والموعظة بالحسنة:

«يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون. وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين»

من هم المعنيون بـ(الناس) فى قوله تعالى: (يا أيها الناس)؟ وإلى من يتوجه الخطاب فى هذه الآية؟

للناس فى ذلك أقوال. ولكن الذى يرجحه السياق ونظم الآيات هو أن الخطاب موجه إلى الطائفة الثالثة الأخيرة، وهى طائفة المنافقين من اليهود، فإن الطائفة الثانية من طواغيت اليهود قد ختم على قلوبهم وسمعهم وقد عميت أبصارهم، فتوجيه الخطاب إليهم أشبه شئ بنفخ فى رماذ أو صيحة فى واد. ولعل هذا هو السر فى أن القرآن يقف منهم دائما موقف التبكيت والاعراض.

فالخطاب هنا موجه إلى هؤلاء المنافقين المتأرجحين بين الاسلام والكفر. وجه الخطاب إليهم حتى يراجعوا أنفسهم ويعبدوا ربهم الذى خلقهم.

و (العبادة) هنا الطاعة كما روى عن ابن عباس فى أحد قوليه. (١)

و (الأنداد) هم. أئمة اليهود و طواغيتهم، الذين يمتطون هؤلاء المنافقين ويوحون إليهم زخرف القول غرورا.

ومثل ذلك روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - فى تفسير الأنداد حيث قال:

«أكفأ من الرجال يطيعونهم فى معصية الله». (٢)

وقال السدى: «رجال كانوا يطيعونهم فى معصية الله». (٣)

فقليل لهؤلاء القوم: ان كان ابتعادكم من كتاب الله امتثالا لما يوحى إليكم زعماءكم وكبراءكم، فهذا أمر لا يقره العقل، فإن الذى خلقكم وخلق آباءكم وأغدق عليكم وعليهم النعم، هو الذى يستحق الطاعة والامتثال دون غيره. وأما اذا أطعتم كبراءكم فى معصية ربكم، فهذا يعنى أنكم جعلتموهم أندادا لله. وهذا أمر لا مبرر له مطلقا.

(١) زاد المسير: ٤٨/١

(٢) فتح القدير: ٥١/١

(٣) زاد المسير: ٤٩/١

وان كان هذا التردد ناجما من شك يساور أنفسكم فى هذا الكتاب وكنتم أنتم غير مقتنعين بكونه من عند الله فاجتهدوا أن تأتوا أنتم كذلك بسورة من مثله. ولا بأس بأن تدعوا كبراءكم حتى يساعدوكم فى هذا الأمر.

فان كنتم عاجزين ولا شك أنكم عاجزون، فهذا دليل ساطع على كونه من عند الله، وأن الاتيان بمثله خارج عن طوق البشر، فاحذروا عاقبة تكذيبكم فإنها وخيمة!

وهناك نكتة لا بأس بالتنبيه اليها، وهى أن الصالحين من أهل الكتاب كانوا ملتزمين بعبادة الله كما مر الاقرار به فى سورة الفاتحة على لسانهم:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

ويفضل هذه العبادة كانوا على قدر صالح من التقوى. وهذه التقوى هى التى أسرع بهم الى الايمان بكتاب الله كما مر الكلام عليه فى قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه. هدى للمتقين﴾

وأما هؤلاء القوم فكانوا غافلين عن عبادة الله وبالتالى كانت قلوبهم خاوية من تقوى الله، فقليل لهم:

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون.﴾

ثم بإزاء عاقبة الكافرين تذكر عاقبة المؤمنين العاملين، حتى تكون الصورة متكاملة:

﴿ويبشر الذى آمن وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون.﴾

وبعد هذا الانذار والتبشير يعود الكلام مرة أخرى الى ماكان عليه من الدعوة الى الايمان بالقرآن:

﴿ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها. فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا. يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا. وما يضل به الا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون. كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم.﴾

لقد كانت الدعوة الى الايمان فيما مضى من جهتين:

١- لا يصدنكم شياطينكم عن الايمان بهذا القرآن، الذى أكرمكم الله به، فان الله هو الرب وهو الخالق وهو أولى بأن يطاع

٢- عجز البشر عن الاتيان بمثله دليل قاطع على كونه من عند الله ، فلا يجوز الشك فيه اعتمادا على الوسائس التى لاتستند الى أساس.

وهنا يدخل عليهم الحديث من باب ثالث، ويعالجهم بشئ من العنف ، فانه كان من ضمن أسباب الاعراض - كما يوجيه الينا السياق- أن القرآن قد كشف القوم وأماط اللثام عن الوجوه وبين كل طائفة بما فيها وما يتصل بها.

ولعل هذا هو المراد بضرب المثل، فان ضرب المثل لا يستلزم تشييل حال بحال أو تشبيه شئ بشئ، وانما هو حكاية الأمر وبيان الحقيقة بأى أسلوب كان. والقرآن نفسه بين لنا هذا المعنى حيث قال:

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم. ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.﴾ (١)

فكلما ضرب الله للناس أمثالهم وقف الناس منها موقفين متعاكسين، ففريق منهم أذعنوا لها واتعظوا بها ، وفريق آخر أخذتهم العزة بالاثم ، وطفقوا يستهزؤن بها : «ماذا أراد الله بهذا مثلا؟» أى ان أخذنا الكلام على ظاهره فهو خلاف الواقع ، ولاندرى اذا كان له مفهوم باطن . فما هو المفهوم الباطن؟

وهم بقولهم هذا كانوا يضاهئون قول قوم شعيب- عليه السلام- إذ قالوا لنبيهم:

﴿يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول، وانا لنراك فينا ضعيفا.﴾ (٢)

وهذا داء قديم فى المخالفين المستكبرين، فكلما انهزموا فى ساحة الاستدلال لجؤا الى أرخص الأساليب ودافعوا عن سمعتهم أو شخصيتهم بسهام الاستخفاف والاستهزاء.

وهنا يبين لهم القرآن أن الله لا يستحيى من ضرب الأمثال، كائنا ما كان موقفكم منها.

انه لا يستحيى من قول الحق قدر بعوضة فما فوقها ، الا أن الانتفاع بتلك الأمثال وتلقى الهداية منها يعتمد على صلاحية المرء وسلامة طبعه.

فأما الذين استنارت قلوبهم بالايمان فهم الذين ينتفعون بها لكن الذين أشربوا في قلوبهم الكفر يتخذون آيات الله هزوا ، وبذلك يزدادون رجسا الى رجسهم.

ومما يجدر الانتباه له أن القرآن وسم هنا هؤلاء القوم بالفسق كما وصف الصالحين منهم بالتقوى فى أول هذه السورة، فسماهم (المتقين) كما سمي هؤلاء (الفاسقين).

(١) سورة محمد : ١-٣

(٢) سورة هود: ٩١

ثم ذكر من صفات هؤلاء الفاسقين ما يناقض تماما صفات أولئك المتقين. هؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه بتكذيب رسله وتكذيب كتبه، بينما أولئك يوفون بعهد الله، حيث يؤمنون بما أنزل الى النبي ﷺ وما أنزل من قبله.

وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بينما أولئك يصلون ما أمر الله به أن يوصل فيؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة.

وهؤلاء يفسدون في الأرض بينما أولئك ينفقون مما رزقهم الله و بالتالى هم يحاربون الفساد ويرفعون لواء الاصلاح.

وهذا الاختلاف البين في أعمالهم وتصرفاتهم يؤدى الى الاختلاف البين فى عواقبهم ونتائج أعمالهم، فقال عن هؤلاء: ﴿أولئك هم الخاسرون.﴾

بينما قال عن الأولين:

﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾

ثم عاد الكلام من حيث بدأ. فقد بدأ بدعوة هؤلاء القوم الى عبادة ربهم الذى خلق:

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون.﴾

وهنا يتوجه اليهم السياق بسؤال فيه استنكار وفيه تعجيب من شأنهم لاصرارهم على الكفر ونفورهم من عبادة الله:

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم.﴾
ومادة العرض أو الاستدلال فى كلا الموضعين واحدة. فقد ذكر هناك من الأسباب المستوجبة لعبادة الله، أنه هو صاحب الخلق وصاحب النعمة، وهنا - فى مقطع الفقرة - أيضا ذكر نفس الشئ، الا أن هناك فرقا يسيرا فى الموضعين من ناحية الاستدلال.

فقد كان التركيز فى مطلع الفقرة على أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الخلق وصاحب النعمة ، وعلى هذا فهو الذى يستحق العبادة ويستحق الطاعة دون غيره من الأنداد المختلفة.

بينما نرى السياق هنا يميل الى أمر الدينونة والجزاء فهو كما أحياكم من بعد موتكم سيحييكم مرة أخرى واليه ترجعون.

هذه ناحية. ومن ناحية أخرى فانه ليس أنه خلقكم وخلق هذه النعم ثم ترككم وشأنكم، بل هو بكل شئ عليم، فهو يراقب العباد وسيحاسبهم يوم الحساب فيجزى المحسن باحسانه والمسيئ بأساءته.

نظم الآيات (٣٠-٣٩)

ثم اذا عدنا الى هاتين الآيتين (٢٨-٢٩) مرة أخرى فستتكشف لنا ناحية أخرى لحسن مناسبتها، حيث انهما أوجدتا بموقعهما جوا ملائما لذكر خلافة آدم، فالتأمل فى هذه الآيات حين يقرأ قوله تعالى:

﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾

يستوحى منه مباشرة مفهوم خلافة بنى آدم، فان خلق الأرض وخلق ما فيها لبنى آدم لا يعنى الا أن الله قد اختارهم لمكرمة الخلافة، ومن هنا حسن بعده ذكر خلافة آدم و ذكر تاريخها:

﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال انى أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا، انك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون.﴾

لقد علمنا أننا مناسبة هذه الآيات لما قبلها. وهذا اذا أخذناها بنظرة قريبة عاجلة. أما اذا توسعنا قليلا وألقينا عليها نظرة بعيدة متأنية فستتكشف لنا جوانب أخر من المناسبات باذن الله. وهما نحن نذكر هنا بعضا منها:

لقد ذكرت فى الفقرة السالفة آثار من ربوبية الله سبحانه وتعالى وكانت هذه الآثار مادية ملموسة، بحيث يحس بها كل من يملك الشعور والاحساس.

وأما الآيات التي نحن بصدددها فهى أيضا تعرض ربوبية الله سبحانه وتعالى الا أنها ربوبية روحية أدبية. انها ربوبية معنوية بحتة، انها تعرض ذلك التكريم الكبير الذى خص الله به الانسان من بين سائر الأنواع، ألا وهو ترشيح الانسان لخلافة الله فى الأرض.

ولعل هذا هو السر فى أن الفقرتين استهلتا بذكر الربوبية حيث جاء فى الموضعين:

﴿يا ايها الناس اعبدوا ربكم ... الآية﴾

﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة... الآية﴾

والتأمل فى نظم هذه الآيات يرشدنا كذلك الى حقيقة أخرى مهمة ، وهى أن القطيعة والافساد فى الأرض ليس لهما أصل ثابت فى هذا الكون. وانما هى أحوال طارئة لا تلبث أن تنقشع، والجولة الأخيرة الفاصلة دائما تكون للخير والصلاح.

ولم يكن جزع الملائكة وقلقهم فى أول الأمر الا لخفاء هذه الظاهرة عليهم، فلما أنباهم آدم بأسماء ذريته الطيبين الطاهرين ، الذين سيصمدون للباطل ويكونون معه دائما فى صراع مرير، عرفوا حقيقة الأمر وأدركوا حكمة الله فى ارادته.

ولقد أحسن الامام ابن كثير رحمه الله فى تأويل قوله تعالى: ﴿انى أعلم ما لا تعلمون﴾ حيث قال: «أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاصد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فانى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.» (١)

ولقد سبقه قتادة الى هذا التأويل حيث قال:

«فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنتو الجنة.» (٢) وعلى هذا فان تلك الآيات توحى بنظمها أن هذا التكريم الذى خص الله به آدم ليس للمفسدين الفاسقين منه نصيب، فان الخلافة ليست افسادا فى الأرض ولا نقضا للميثاق، وانما هى العبادة والتقوى والايمان بما أنزل الله.

هذا اجمال القول فى تأويل تلك الآيات وفى ايعاءات نظمها. وسنردف ذلك الاجمال بشئ من الايضاح والتفصيل، فان الناس تحيروا تحيرا عجيبيافى تأويل تلك الآيات، فيقول مثلا صاحب تفسير البحر المحيط وهو بصدد تأويل قوله تعالى ﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة﴾:

«وخطاب الله للملائكة بقوله انى جاعل فى الأرض خليفة ان كان للملائكة الذين حاربوا مع ابليس الجن فيكون ذلك عاما بأنه رافعهم الى السماء ومستخلف فى الأرض آدم وذريته وروى مايدل على ذلك عن ابن عباس وهو ما ملخصه أن الله أسكن الملائكة السماء والجن الأرض فعبدوا دهرًا طويلا ثم أفسدوا وحسدوا فاقتتلوا فبعث الله لهم جندا من الملائكة رأسهم ابليس وكان أشدهم وأعلمهم فهبطوا الأرض وطردهوا الجن الى شعف الجبال وبطون الأودية وجزائر البحور وسكنوها وخفف عنهم العبادة وأعطى الله ابليس ملك الأرض وملك سماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد تارة فى الأرض وتارة فى الجنة فدخله العجب وقال فى نفسه ما أعطانى الله هذا الا أنى أكرم الملائكة عليه. فقال الله تعالى له ولجنوده: انى جاعل فى الأرض خليفة بدلا منكم ورافعكم الى، فكروهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة ، وقالوا أتجعل الآية: (٣)

(١) تفسير ابن كثير : ٦٩/١

(٢) تفسير ابن كثير : ٧٢/١، والمحرم الوجيز: ٢٢١/١ - ٢٢٢

(٣) تفسير البحر المحيط: ١٤٠/١

هذا بعض ما يفيدنا أبوحيان في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والذي نلاحظه فيما ذكره من الوجوه أنها لا تعتمد على أصل ولا تستند الى دليل. ولعل هذا هو السبب في أنه- رحمه الله- سردها سردا، من غير أن يميل الى واحدة منها ميلا. ولأبأس بأن نشير هنا الى ما يوجد فيها من نقاط الضعف ، فنقول:

النقطة الأولى :

ان الحكاية التي تنسب الى ابن عباس من أن الجن هم الذين كانوا يعمرن هذه الأرض قبل آدم ثم أفسدوا فيها فطردوا الى شعاف الجبال وبطون الأودية، ثم خلق آدم ليخلفهم فيها، ان هذه الحكاية بجميع تفاصيلها أشبه ما تكون بالأساطير. ومن الصعب جدا جدا أن نصدق نسبتها الى سيدنا ابن عباس-رضى الله عنهما - وما ألجأ الناس الى قبول هذه الحكاية الا قلة امعانهم في معنى (الخليفة)، فهم ظنوا- وقد ظنوا خطأ- أن آدم لا يكون خليفة في الأرض الا اذا كان قد سبقه بعمارة الأرض قوم آخرون .

تحقيق معنى الخليفة:

فلنعلم أن القرآن اذا أراد أن يؤدي هذا المعنى - وهو مجئ قوم بعد قوم- فانه يستعمل له صيغة الجمع - خلافت أو خلفاء - وأما كلمة (الخليفة) فانه لا يستخدمها في هذا السياق. وسيوضح ذلك بالأمثلة، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾ (١)

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٣)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ (٤)

﴿وَإِذْ كُنْتُمْ أَقْصَى الْبَحْرِ فَأَنْحَرْتُمْ فَعَرَضْنَا بَيْنَكُمْ وَابْنِ نُوحَ الْوَادِي مَخْلُوفًا﴾ (٥)

﴿وَإِذْ كُنْتُمْ فِي الْغَنَاءِ فَأَمْرٌ إِذْ أَتَاكُمْ مِنْكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ وَفَاةً يُبْذَلُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَلَوْلَا فَتْنَةُ الْغَنَاءِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦)

﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ (٧)

(١) سورة الأنعام : ١٦٥

(٢) سورة يونس : ١٤

(٣) سورة يونس : ٧٣

(٤) سورة فاطر: ٣٩

(٥) سورة الأعراف: ٦٩

(٦) سورة الأعراف : ٧٤

(٧) سورة النمل : ٦٢

فهذه الآيات كلها تستخدم كلمة (الخلفاء أو الخلفاء) للمعنى الذى أشرنا اليه وهو مجئ قوم بعد قوم.

وأما كلمة (الخليفة) فلم يستعملها القرآن الا فى موضعين: أحدهما تلك الآية التى نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والآخر ذلك الخطاب الذى وجه الى سيدنا داود:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (١)

يقول الامام ابن الجوزى - رحمه الله - فى تأويل هذه الآية:

« أى : تدبر أمر العباد من قبلنا بأمرنا فكأنك خليفة عنا. » (٢)

ويقول رحمه الله فى تأويل الآية الأولى السابقة:

«وفى معنى خلافة آدم قولان، أحدهما: أنه خليفة عن الله تعالى فى إقامة شرعه و دلائل

توحيده والحكم فى خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد. » (٣)

و روى الطبرى عن سيدنا ابن مسعود-رضى الله عنه- أنه قال فى تأويل هذه الآية:

«انما معناه خليفة منى فى الحكم بين عبادى بالحق وبأوامرى، يعنى بذلك آدم عليه السلام ومن

قام مقامه بعده من ذريته. » (٤)

ويقول الامام أبو محمد الفراء البغوى:

«والصحيح أنه -أى آدم - خليفة الله فى أرضه لاقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه. » (٥)

ويقول صاحب لباب التأويل فى معانى التنزيل المعروف بالخازن:

«والصحيح أنه -أى آدم- سمي خليفة لأنه خليفة الله فى أرضه، لاقامة حدوده وتنفيذ

قضاياه» (٦)

ولقد ورد فى الحديث الصحيح المشهور:

(اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل.) (٧)

أى : أنت الذى تكلاهم وترعاهم وتتولى أمرهم.

(١) سورة ص : ٢٦

(٢) زاد المسير: ١٢٤/٧

(٣) زاد المسير: ٦٠/١

(٤) تفسير الطبرى : ١٥٧/١

(٥) تفسير البغوى، المسمى : معالم التنزيل: ٣٨/١ (بها مش تفسير الخازن)

(٦) تفسير الخازن، المسمى : لباب التأويل: ٣٨/١

(٧) سنن الترمذى : باب مايقول اذا خرج مسافرا، ٤٩٧/٥، رقم الحديث (٣٤٣٨). وسنن الدارمى، باب

فى الدعاء اذا سافر، ص : ٦٨٣

ونعرف من هذا الحديث أمرين، أحدهما:

أنه لا اشكال في كون المرء خليفة الله في أرضه، إذا صح كون الله خليفته في أهله.

والثاني: ان كلمة (الخليفة) تتضمن معنى الملك والسلطة وحرية الرأي والتصرف.

وهذا المعنى كما يدل عليه هذا الحديث فكذلك تدل عليه الآيتان. ومن هنا حسن استعمال هذه

الكلمة لمن يسوس أمر المسلمين ويلى شئونهم وقضاياهم. فالانسان جعل خليفة الله في الأرض، وذلك بأنه أوتى حظا مما يعتبر من خصائص الألوهية وهو الملك والسلطة وحرية الرأي والتصرف وهذه ميزة لم تحصل لأحد غير الانسان.

النقطة الثانية:

ان حكاية استعمال ابليس على الملائكة وحكاية اعطائه ملك الأرض وملك سماء الدنيا وخزانة الجنة حكاية ليس لها قوائم. ونحن لانجد نظيرا واحدا لما يحكى في شأن ابليس، فرينا -سبحانه وتعالى- كان خبيرا بفسقه وكفره من أول أمره، اذا فكيف يتصور أن ينال ابليس عنده هذه الخطوة وهذه المكانة ويستمر على ذلك دهرا طويلا، فهذا الشئ يتعارض مع قوله تعالى:

﴿وماكنت متخذ المضلين عضدا.﴾ (١)

ولعل الذي أساغ للناس هذه الحكاية زعمهم أن ابليس كان من الملائكة، استنادا الى قوله تعالى:

﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس﴾ حيث ان السياق قد استثنى ابليس من

الملائكة، فيقول-مثلا- صاحب المحرر الوجيز:

« وقوله تعالى (الا ابليس) نصب على الاستثناء المتصل لأنه من الملائكة على قول الجمهور،

وهو ظاهر الآية وكان خازنا وملكا على سماء الدنيا والأرض واسمه عزازيل. » (٢)

منشأ الوهم:

ولعل الذين ذهبوا الى مثل هذا القول على الرغم من تصريح القرآن بأنه كان من الجن حيث قال

تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (٣) انما ذهب هؤلاء الى مثل هذا القول وتكلفوا له لأنهم

لم يدركوا السر في استثناء ابليس من الملائكة.

والذي يظهر لنا أن هذا الاستثناء جاء على نحو قولنا: جاء القوم الا كلب القرية. فاستثناء

الكلب من القوم في هذه الجملة يفيد أنه لم يبق أحد من القوم الا جاء. وانما لم يجرى كلب القرية فقط.

وهذه الاحاطة أو هذا الشمول لا يستفاد أبدا لوقلنا مثلا: جاء القوم كلهم. أو جاء القوم

أجمعون. فانه يبقى الاحتمال مع كل من هذه العبارات أنه ربما تخلف واحد أو اثنان.

(١) سورة الكهف: ٥١

(٢) المحرر الوجيز: ٢٣١/١-٢٣٢

(٣) سورة الكهف: ٥٠

ولكننا اذا قلنا: جاء القوم الا كلب القرية، قطعنا دابر هذا الاحتمال وجزمنا أنه لم يبق أحد من الناس الا قد جاء. وانما الذي تخلف هو كلب القرية فقط.

فهكذا قوله تعالى: ﴿فسجدوا الا ابليس﴾ يدل على الشمول والاحاطة، ويفيد أنه لم يبق أحد من الملائكة الا وسجد. وانما الذي لم يسجد هو ابليس فقط. وهذا النوع من الاستثناء كثير شائع في القرآن وفي كلام العرب، ومنه قول النابغة الذبياني في قصيدة مدح بها النعمان بن المنذر واعتذر له فيها، وكان واجداً عليه:

يادارميةً بالعلياء فالسند	أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً نأسانسها	عيتَ جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواريّ لأيسا ما بيننا	والنوى كالحوض بالمظلومة الجلدا ^(١)
ومنه قول جرّان النميري:	

ويلد ليس به أنيس	إلا اليعافير وإلا العيس ^(٢)
وهذا الأسلوب له فوائد أخر غير التي أشرنا اليها. وليس هذا موضع تفصيلها.	

النقطة الثالثة:

ان قوله تعالى: ﴿اننى جاعل فى الأرض خليفة﴾ يفيد بأسلوبه أن عمارة الأرض بدأت من آدم، كما يفيد أن هذا الخليفة سيكون خليفة الله. ولو كان الأمر كما يقولون ل قيل: (انى جاعل فى الأرض خلفاء من بعد الجن) على نحو قوله تعالى: ﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾، ﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾.

(١) معاني القرآن للفراء: ٢٨٨ / ١

الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه أصلٌ وأصال وأصائل ويجمع أيضاً على أصلان، مثل بعير ويُعران ثم صغروا الجمع فقالوا: أصيلان. والأواريّ جمع الآريّ وهو الأخية، وهي عود في حائط أو في جبل يدفن طرفاه في الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشدّ فيها الدابة

والنوى: الحفير حول الخيمة أو الخباء يمنع الماء. والمظلومة: الأرض التي قد حفر فيها في غير موضع الحفر. والجلد: الأرض الغليظة.

(٢) معاني القرآن: (٢٨٨ / ١)

اليعافير جمع اليعفور، وهو ولد الظبية. والعيس: جمع الإعيس والعيساء وهما وصفان من العيسة، وهو بياض يخالطه شقرة، أراد بها بقرا الوحش.

النقطة الرابعة:

ان قوله تعالى: ﴿انى جاعل في الأرض خليفة﴾ قد سبقته هذه الآية: ﴿هو الذي خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾ وتلك الآية تدل بعبارتها أن هذه الأرض بجميع ما فيها قد خلقت للانسان! اذا فمن أين للجن أن يسبقوا الانسان الى هذه الأرض ويملكوها ويستمتعوا بها دهرًا طويلا حتى يفسدوا فيها ويخرجوا منها؟!

النقطة الخامسة:

ان هذه الآية تدل بنظمها أنه لم يكن هناك فاصل زمنى كبير بين خلق هذه الأرض وخلق من خلقت له هذه الأرض. كما أنه ليس هناك فاصل فى الآيات بين ذكر خلق هذه الأرض وذكر استخلاف آدم فيها.

هذه عدة نقاط اذا وضعناها فى اعتبارنا ظهر لنا ضعف الوجه الأول، الذي ذكره أبوحيان فى تعليل قول الله للملائكة: ﴿انى جاعل في الأرض خليفة﴾.

وأما بقية الوجوه التى ذكرها هو وغيره من المفسرين-رحمهم الله- فى تعليل هذا القول من اختبار طاعة الملائكة أو اطلاعهم على ما فى نفس ابليس من الكبر أو اظهار عجزهم عن الاحاطة بعلمه أو تعليمنا مشاورة ذوي الأحلام منا، أو اظهار علو قدر آدم فى العلم أو تطمين قلوب الملائكة أنهم ليسوا بمن يدخلون النار أو... أو... أو... فهذه الوجوه أيضا ليست أحسن حالا من أختها التى أسلفنا الكلام عليها. والسقم الذي يعم هذه الوجوه كلها هو أنها لا تستند الى دليل ولا تأوى الى ركن شديد، وانما هى خواطر خطرت ببال أصحابها ثم أخذت طريقها الى كتب التفسير، ولم تعرض على المعايير الدقيقة، التى تبين الغث منها من السمين.

وستظهر هذه الوجوه كلها بما فيها وما يرد عليها حين نتابع المشهد ونتأمل فى طبيعة الموقف.

فماذا قالت الملائكة حين اطلعوا على هذا القرار؟

﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾

وهنا يثور سؤال: من أين عرفت الملائكة أن هذا الخليفة سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء؟

وماذا كانوا يقصدون بقولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾؟

تأويل قول الملائكة:

يقول صاحب المحرر الوجيز وهو يعالج هذين السؤالين:

وقوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية. قد علمنا قطعا أن الملائكة لاتعلم الغيب ولا تسبق بالقول وذلك عام فى جميع الملائكة، لأن قوله تعالى ﴿لايسبقونه بالقول﴾ خرج على جهة المدح لهم. قال القاضي ابن الطيب: فهذا قرينته العموم فلايصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من

افساد الخليفة في الأرض نبأ ومقدمة، قال ابن زيد وغيره: ان الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء فقالوا لذلك هذه المقالة فهذا امّا على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وامّا على طريق الاستعظام والا كبار للفعليين جميعا والاستخلاف والعصيان، وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: انما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من افساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم: «أتجعل فيها» الآية على جهة الاستفهام المحض هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقا يفسدون ويسفكون فلما قال لهم بعد ذلك: «أني جاعل» قالوا «أتجعل فيها» الآية. على جهة الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟^(١)

ويقول رحمه الله :

«ونحن نسبح». قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك الآية أم نتغير عن هذه الحال.

قال الفقيه القاضي أبو محمد عبدالحق بن عطية (رض): وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: (أتجعل). وقال آخرون: معناه التمدح ووصف حالهم وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السلام: «أني حفيظ عليم» وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام، لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم: أتجعل وعلى هذا أدهم بقوله تعالى: «أني أعلم ما لا تعلمون» وقال قوم: معنى الآية ونحن، لوجعلتنا في الأرض واستخلفتنا، نسبح بحمدك، وهذا أيضا حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم أتجعل؟^(٢)

هذا ما يقوله ابن عطية في تأويل هاتين الجملتين.

ثم يتبعه أبوحيان فيقول بمثل ما قاله ابن عطية ويزيد عليه: «وعلى هذه الأقوال يكون علمهم بذلك قد سبق امّا باخبار من الله أو مشاهدة في اللوح أو يكون مخلوق غيرهم وهم معصومون أو قالوا ذلك بطريق القياس على من سكن الأرض فأفسد قبل سكنى الملائكة أو استنبطوا ذلك من لفظ خليفة إذ الخليفة من يكون نائباً في الحكم، وذلك يكون عند النظام^(٣).

ويقول (رحمه الله) وهو يتناول المسألة الثانية:

ومن أندر ما وقع في تأويل الآية ما ذهب إليه صاحب كتاب «فك الازرار» قال في ذلك الكتاب: «ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الاعتراض وهم متزهون عن ذلك . والبيان أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين، وكان ابليس مندرجا في جملتهم، فورد منهم الجواب مجملا، فلما انفصل ابليس عن جملتهم بإبائه وظهور ابليسيته واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين:

(١) المحرر الوجيز: ٢١٨/١ - ٢١٩

(٢) المحرر الوجيز: ٢٢٠/١

(٣) تفسير البحر المحيط ١٠٨/١

فنوع الاعتراض منه كان عن ابليس، وأنواع الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة، فانقسم الجواب الي قسمين كانقسام الجنس الي جنسين، وناسب كلّ جواب من ظهر عنه، والله أعلم، انتهى كلامه، وهو تأويل حسن، وصار شبيها بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ لأنّ الجملة كلّها مقولة والقاتل نوعان، فردّ كلّ قول لمن ناسبه. «(١)

ولقد حاول أبو السعود أيضا أن يدلي بدلوه في تحرير هذا الموضوع فقال: وأنما عرفوا ما قالوا أمّا باخبار من الله تعالى حسبا نقل من قبل، أو بتلقّ من اللوح، أو باستنباط عما ارتكز في عقولهم من اختصاص العصمة بهم، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر. (٢) ويزيد رحمه الله فيقول: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجدّ في خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره استخدم العصاة وأنا مجتهد فيها، كأنه قيل: أتستخلف من من شأن ذرّيته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا، والمقصود غرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع، لا العجب والتفاخر، فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتها الافراطية الفساد في الأرض. والقوة الغضبية التي رذيلتها الافراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا «(٣).

الاشكالات الواردة على ما قيل:

هذه ثلاث محاولات لثلاثة من أعلام المفسرين (رحمهم الله) في تحرير هذا الموضوع. وحين ننظر في هذه المحاولات ونتأمّل فيها نشور في أنفسنا عدّة اشكالات وهي كما يلي:

١- من أين لنا أن نعرف أنّ الله تعالى قد أعلم الملائكة أنّ الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، أو أعلمهم مسبقا أنّه يخلق في الأرض خلقا يفسدون ويسفكون الدماء؟ فإنّ القرآن لا يشير الي ذلك. بل أسلويه يصرف عن ذلك. وليس هناك شئ ثابت عن النبي ﷺ حتى نعتبره بيانا مأمونا لما أجمله القرآن. ولو افترضنا الأمر كذلك فهل يكون له معنى غير أن يقال: إنّ أبرز صفة في هذا الخليفة هو الافساد وسفك الدماء؟! ولذلك لم يذكر للملائكة الا أنّهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء!!

٢- كيف سمحت الملائكة لأنفسهم أن يقيسوا هذا الخليفة على من سبقه من مفسدي الجن. فإنّ الجن خلقوا من نار السموم، وهذا الخليفة خلق من طين. وشتان بين طبيعة النار وطبيعة الطين! وما أبعد أن يقاس أحدهما على الآخر!

(١) تفسير البحر المحيط: ١٤٣/١ - ١٤٤

(٢) تفسير أبي السعود: ١٠١/١ - ١٠٢

٣- ما يدري الملائكة أن هذا الخليفة سيملك القوة الشهوية التي رذيلتها الافراطية الفسادية الأرض ، والقوة الغضبية التي رذيلتها الافراطية سفك الدماء . حتى يستنبطوا من ذلك أنه سيكون سببا في الانفساد وسفك الدماء ؟ فان الله تعالى لم يخبرهم بذلك . وإنما الذي أخبرهم به هو أنه سيخلق بشرا من طين .

٤- من أين ارتكز في عقول الملائكة اختصاص العصمة بهم ، حتى يتهموا غيرهم بالافساد وسفك الدماء ؟ وأنّي لنا أن نعرف أن الأمر كان كذلك ؟!

٥ - أن المكانة التي خصّ الله بها الملائكة في هذا الكون الهائل العظيم ليست أقلّ شأنًا من أن يكونوا خلفاء الجن في هذه الأرض ، بل لعلها أعزّ وأشرف وأخطر شأنًا من هذه الخلافة ألف مرة ، فهل من الممكن أو من المعقول أن يزهد الملائكة في مكانتهم تلك ويرغبوا عنها أو يزدروها حتى يروّعهم ويقلق بالهم أن ربّهم أثر غيرهم بأن يكون خليفة في الأرض ؟!

٦- لاشكّ أن الملائكة يسبحون لربّهم بالليل والنهار وهم لا يفترون ولا يسأمون . فقد شهد القرآن بذلك ، وشهدت به الأحاديث الصحيحة الثابتة ، ويعتبر هذا الأمر من المسلّمات عند الجميع . ولكن مع ذلك فهل يتصوّر أن ينوّه الملائكة هم أنفسهم بظاعتهم وعبادتهم أو بتسبيحهم وتقديسهم ، ويستدلّوا بذلك على أحقيّتهم بالخلافة ؟!

كلاً ثم كلاً !!

ولعلّ هذا الاشكال هو الذي حمل من حمل على أن يقول ، أن قوله تعالى (ونحن نسبح) جاء على جهة الاستفهام ، كأنهم أرادوا : ونحن نسبح بحمدك الآية أم تتغيّر عن هذه الحال ؟ ولكن الذين قالوا ذلك كانوا أشبه حالا بالمستجير من الرمضاء بالنار !

يقول أبوحيان : وقد أبعد من ذهب الى أن هذه الجملة من قوله : ونحن نسبح استفهاميّة حذف منها أداة الاستفهام ، وإنّ التقدير : أو نحن نسبح بحمدك أم تتغيّر بحذف الهمزة من غير دليل ويحذف معادل الجملة المقدّرة دخول الهمزة عليها ، وهي قوله أم تتغيّر ؟ (١)

٧ - أن القرآن واضح صريح في أن قوله تعالى ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ من كلام الملائكة فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نؤوّه الى قول إبليس ؟ ولاندرى كيف استساغ الامام أبوحيان مثل هذا القول واستحسنه ثم التمس له ما يبرّر ذلك !

تلك عيون الاشكالات أو التساؤلات التي تثور في نفس الباحث اذا تأمل في تلك المحاولات الثلاث التي بذلت في سبيل تحرير هذا الموضوع . وليس الأمر مقصورا على تلك المحاولات الثلاث ، فبقية المحاولات أيضا لا تختلف في وضعها عن هذه المحاولات .

وهنا يبرز سؤال : فما هي الصّورة الصحيحة الواضحة لهذا الموقف ؟

ونحن سنحاول أن نجلي تلك الصورة الصحيحة الواضحة للموقف باذن الله. ألا أننا نريد قبل ذلك أن ندرس مذاهب الناس في تأويل (الأسماء) التي ورد ذكرها في الآية التالية:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فالاطلاع على تأويل تلك الأسماء سيساعدنا في التوصل الى ما نرومه باذن الله.

ما قيل في تأويل الأسماء:

يقول ابن عطية (رحمه الله):

واختلف المتأوكون في قوله تعالى: (الأسماء)، فقال جمهور الأمة: علمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص. والأول أبين، ولغة علمه تعطي ذلك. ثم اختلف الجمهور في أى الأسماء علمه؟ فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد: علمه اسم النجوم فقط.

وقال الربيع بن خثيم: علمه أسماء الملائكة فقط، وقال ابن زيد: علمه أسماء ذريته فقط، وقال الطبري: علمه أسماء ذريته والملائكة، واختار هذا ورجحه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾. وحكي النقاش عن ابن عباس: أنه تعالى علمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء وقال آخرون: علمه أسماء الأجناس كالخيل والجمال والأودية ونحو ذلك دون أن يعين ما سمته ذريته منها، وقال ابن قتيبة: علمه أسماء ما خلق في الأرض، وقال قوم: علمه الأسماء بلغة واحدة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها. وقال بعضهم: بل علمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته. وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: علم الله تعالى آدم كل شيء حتى أنه كان يحسن من النعمو مثلما أحسن سيبويه ونحو هذا من القول الذي هو بين الخطأ من جهات. وقال أكثر العلماء: علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم.

وقال قوم: بل وصفها له دون عرض أشخاص وهذه كلها احتمالات قال الناس بها. (١)

ويقول أبو السعود (رحمه الله):

الاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه الى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً، مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد هنا أمّا الأول أو الثاني وهو مستلزم للأول اذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بالاتخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد افاضة المعلم بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر في تفسير الهدى، وهو السر في اثاره على الاعلام والانبياء فانهما انما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه البشر والملك وبه

تظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل أحوال
الجزئيات الجسمانية خبراً. (١)

تساءلات حول تلك التأويلات:

هذه هي مذاهب الناس في تأويل تلك الأسماء التي تعلّمها آدم من ربه.
وإذا تأمل المتأمل في هذه التأويلات فأنّه يجد نفسه أمام عدد من التساءلات:

١- لماذا علّم آدم هذه الأسماء؟

٢- هل علّمها ليظهر شرفه على الملائكة؟ فهذه الأسماء ليست مناط شرف عند الله، وقد قال
تعالى: ﴿إِن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾

٣ - أم علّمها ليقنع الملائكة بكفاءته للخلافة؟ فالملائكة ما كانوا ليقنعوا بكفاءته لكونه عالماً
بأسماء الخيل والجبال والأودية، أو لكونه عالماً بمصالح الحياة ومنافع الأشياء، أو لكونه عالماً بقوانين
الصناعات وتفاصيل آلائها وكيفيات استعمالاتها، وما إلى ذلك ممّا ذكره المفسّرون (رحمهم الله)، فأنّه
لم يكن مبعث قلقهم أن هذا الخليفة سينقصه العلم وسعة الاطلاع ولا يكون مزوداً بما يضمن له النجاح
في تسيير دفة الحياة، وأنما الذي أقلقهم هو أنّه يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

٤ - أم علّمها لأنها تتصل اتصالاً مباشراً بمهمة الخلافة، وما كان لآدم أن يقوم بتلك الأمانة لولا
أنه زوّد بعلم تلك الأسماء؟

ولئن أجبنا على هذا السؤال بنعم فهذا لا يعني إلا أن تلك العلوم التي ذكرها المفسّرون (رحمهم
الله) أكبر أهمية عند الله من العلم الذي نزلت به الكتب وجاءت به الأنبياء!! ولذلك زوّد هذا الخليفة
بتلك العلوم قبل أن يزوّد بالكتاب والنبوة.

ثم إن كان آدم قد زوّد بتلك العلوم قبل أن يزوّد بأيّ شئ آخر فلماذا لم يزوّد بها من خلف من بعده
من الأنبياء والرسل؟

فإن الأمر كان يقتضي أن يكون خلفاؤه قدوة واماماً في تلك العلوم إن كان هو قدوة واماماً في
تلك العلوم!

ولكن الأمر كان على العكس كما يتبيّن ممّا رواه مسلم حيث قال: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة
وعمر بن النّاقد، كلاهما عن الأسود بن عامر. قال أبو بكر: حدّثنا أسود بن عامر حدّثنا حماد بن سلمة
عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة وعن ثابت، عن أنس، أن النبي ﷺ مرّ يقوم يلقحون فقال:

(١) تفسير أبي السعود: ١/١٠٣

(لولم تفعلوا لصلح) قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال (مالنخلكم؟) قالوا: قلت كذا كذا. قال: (أنتم أعلم بأمر دنياكم). (١)

هـ - ثم إن كان آدم خليفة من سبقه من الجن في عمارة الأرض أليس ذلك يدل على أن الجن أيضاً علموا في فترتهم، تلك الأسماء التي علمها آدم في نوبته، وهم أيضاً زودوا بالأمس بكل ما زود به اليوم آدم؟ فإن اتحادهما في المهمة والمجال يوجب اتحادهما في قدراتهما ومواجهتهما. ولكن الذي حدث يدل على غير ذلك، فإن إبليس أيضاً لم يبن بتلك الأسماء، كما لم تنبئ بها الملائكة.

وهذا يدل على أحد أمرين، فإما أن نقول إن تلك الأسماء لم تكن لها صلة بمهمة الخلافة حتى يعلمها كل من خلعت عليه الخلافة، أو نقول إن آدم كان أول خليفة في الأرض فلذلك كان أول من علم تلك الأسماء.

٦- لقد حكى ابن عطيّة عن الجمهور أن المراد بتعليم آدم الأسماء تعليمه التسميات. (٢) ويقول أبو حيان وهو يذكر ما قيل في تأويل (الأسماء):

«... أو التسميات ومعنى هذا علمه أن يسمي الأشياء وليس المعنى علمه الأسماء، لأن التسمية غير الاسم قاله الجمهور». (٣)

ونرى الاستاذ سيد قطب رحمه الله أيضاً قد وضع ثقله في كفة هذا التأويل حيث قال: «ها نحن أولاً- بعين البصيرة في ومضات الاستشراف - نشهد ما شهده الملائكة في الملاء الأعلى... ها نحن أولاً نشهد طرفاً من ذلك السرّ الالهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهي ألفاظ منطوقة - رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... الشأن شأن نخلة. فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النخلة! الشأن شأن جبل فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إلى الجبل الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من الناس. أنّها مشقة هائلة لاتتصور معها حياة! وإن الحياة ماكانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات.

(١) كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره (ص) من معاش الدنيا على سبيل الرأي، ١٨٣٦/٢، رقم الحديث (٢٣٦٣). (فخرج شيصاً) هو البسر الردى الذي إذا ببس صار حشفاً.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٢٢/١

(٣) تفسير البحر المحيط: ١٤٦/١

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية، لأنها لا ضرورة لها في وظيفتهم. ومن ثم لم توهب لهم. فلما علم الله آدم هذا السرّ، و عرض عليهم ماعرض لم يعرفوا الأسماء. لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخص... وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والاعتراف بعجزهم، والاقرار بحدود علمهم، وهو ما علمهم.. وعرف آدم... ثم كان هذا التعقيب الذي يردهم الى أدراك حكمة العليم الحكيم:

«قال: ألم أقل لكم: انى أعلم غيب السماوات والأرض، و أعلم ما تبديون و ما كنتم تكتمون؟»^(١)

وهنا يثور سؤال: هل يصحّ تأويل (الأسماء) الى القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات؟

فإنّ (الأسماء) جمع الاسم. والاسم غير التسمية. ولم نعر على شاهد واحد لاستعمال الاسم بمعنى التسمية.

ويتأكد لدينا هذا الاشكال حين نتأمل في قوله تعالى: (كلها) فإنّ تلك الزيادة تؤكد في (الأسماء) معنى الاستيعاب والاستغراق.

ولا تظهر لهذا التوكيد أية فائدة اذا أوكلنا (الأسماء) الى معنى التسمية.

ثمّ الإقدرات كلها، ومنها القدرة على التسمية، لم توضع في آدم الا في أثناء خلقه، وأما هذا التعليم الذي تذكره الآية «وعلم آدم الأسماء كلها.... الآية» فإنه لم يتمّ الا بعد خلقه، بعد ما أعربت الملائكة عن قلقهم في شأنه. اذا فكيف يصحّ تأويل هذا التعليم الى ايجاد القدرة فيه على التسمية؟

ثم القول بأنّ القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ممّا يميّز به الانسان على غيره قول لا ينهض به دليل.

فما الذي يدرينا أنّ الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية؟

و اذا كانت الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية، فهم كيف يدبرون أمر هذا الكون الهائل الرحيب؟

وكيف يراقبون هذه البشرية الهائلة وكيف يكتبون حركاتها وسكناتها؟

فان كنّا نعتقد أنّ الملائكة ليست وظيفتهم التسبيح والتقديس المجرد بل من وظيفتهم أيضا تدبير هذا الكون، فإنّ تدبير هذا الكون الواسع الرحيب لا يتمّ أبدا الا بالقدرة الفائقة على التسمية وعلى الرمز بالأسماء للمسميات.

ثمّ الأمر ليس مقصورا على الملائكة، فقد أثبتت الأبحاث والدراستات والتجارب الحديثة وبرهنت أنّ هذه المقدرة التى نحسبها من ميزات الانسان وخصائصه تملكها الحيوانات والطيور أيضا، حتّى الديدان والحشرات الصغيرة أيضا تتمتع بهذه القوة، -قوة التسمية والتعبير- بشكل مذهل!

(١) في ظلال القرآن: ٥٧/١

والمقام لا يسمح لنا بأن نخوض في تلك الأبحاث والدراسات القيمة التي تزرع بها المكتبات الحديثة، ولاضير، ففي قرأتنا ما يغنيننا عن تلك الأبحاث ويعطينا فكرة واضحة عن هذا الموضوع، فلنتدبر قوله تعالى:

هوورث سليمان داود وقال ياأيهاالناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، ان هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون. حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين. وتفقّد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائين. لأعذبته عذابا شديدا أولا ذبحته أو ليأتينيّ بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجنّتك من سبأ نبأ يقين. أني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله الا هو ربّ العرش العظيم. قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فאלقه اليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون» (١)

فسيّدنا داود وسيّدنا سليمان قد علّما منطق الطير. و ماكان منطق الطير؟ هل كان ذلك خاليا من الأسماء والرموز؟

ولقد ذكر ربّنا - سبحانه وتعالى - نموذجين له في تلك الآيات: نموذج لمنطق النمل ونموذج لمنطق الهدهد.

و اذا تأملنا في هذين النموذجين فعمل نكاد نصدّق أنّهما من كلام النمل وكلام الطير؛ ولكنّهما - بالخبر اليقين - من كلام النمل وكلام الطير.

فهذا الشبه الشديد بين منطق الانسان ومنطق الطير لا يدع لنا مجالا للقول بأنّ القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات ممّا يخصّ الانسان دون غيره من الخلاق.

اذا فهذا التأويل الذي ينسب الى الجمهور لا يخلو من ضعف. وبعد هذه الدّراسة السريعة الوافية لما قيل في تأويل تلك الآيات، نريد أن ندلى بدلونا في تحرير هذا الموضوع، و نريد أن نجلى الصّورة الصّحيحة الواضحة للموقف، والله وليّ التوفيق.

تأويل الآيات كما يمليه علينا السياق:

الذي يظهر لنا بعد التأمل الطويل المتكرر فى سياق تلك الآيات هو أن ربنا - سبحانه وتعالى - لما أعلم الملائكة بقرار جعل الخليفة فى الأرض استغريوه.

ولم يكن السبب فى استغرابهم أنهم حسبوه منقصة لشأنهم وغضا من مكانتهم وإشارا لغيرهم عليهم كما قيل.

وأما كان السبب فى استغرابهم أنهم كانوا يدركون معنى الخليفة، انهم كانوا يدركون جيدا أن الخلافة تعنى الملك والسلطة و حرية الرأى والتصرف. فإذا كان هناك خلق توهب لهم السلطة والحرية، فالسلطة والحرية لهما ضراوة ستجر - ولا محالة - الى الفساد وسفك الدماء.

فهم ظنوا ذلك من لفظ الخليفة. وقد كانوا المعينين فى ذلك الظن ولاشك. الا أن الصورة التي استلهموها من لفظ (الخليفة) لم تكن هى كل المشروع.

فقد كان من قام المشروع أن الله سيمنحهم هذه السلطة والحرية الا أنه لا يلقى حبلمهم على غارهم ولا يتركهم وشأنهم بل يرسل اليهم رسلا ويبعث فيهم أنبياء ويجعل فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون. ويجعل فيهم قوما يحاربون الفساد ويحافظون على الارواح ويجاهدون لتمكين الخير والصالح.

فيكون هناك صراع مستمر دائم بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

فهذا الجزء من المشروع ظل خافيا على الملائكة، لأنه لم يكن مما يدل عليه لفظ (الخليفة) فهم استغريوا هذا القرار ولم يستقبلوه بفرح واستبشار. وأظهروا قلقهم وانزعاجهم ولكن بأسلوب يبنى بحسن أدبهم مع ربهم وينبئ بخضوعهم لمشيئته وأرادته:

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.﴾

فقولهم : ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ لم يكن تنويها بتسبيحهم وتقديسهم وما كان لهم أن ينوهوا هم أنفسهم بتسبيحهم وتقديسهم وأما كان ذلك تقريرا لطاعتهم وخضوعهم لمشيئة ربهم وكان دفعا لما قد يوحى سؤلهم هذا من معنى الحرج مما قضى الله من جعل الخليفة فى الأرض.

وأما القول بأنهم كانوا يريدون بذلك عرض أحقيتهم بالخلافة، فهذا قول لا يستقيم الا اذا ثبت أن الخلافة التي رشح لها آدم كانت أرفع شأنًا وأعظم خطرا من مكانة الملائكة فى هذا الكون، حتى زهدت الملائكة فى مكانتهم تلك وتطلعو الى نيل الخلافة فى الأرض. والى الآن لم نطلع على دليل يثبت ذلك، والذي اطلعنا عليه يثبت غير ذلك، حيث قال تعالى وهو يذكر الانسان بما جباه به من فضل وكرامة:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (١)

فهذه الآية صريحة في أن الانسان لم يفضل على جميع الخلائق وإنما فضل على كثير منهم. وبالتالي هي صريحة في أن الانسان لم يفضل على الملائكة، فانه لو كان فضل عليهم لكان قد فضل على الجميع. حيث انه لا يبقى بعدهم من يقال بفضله على الانسان. قد يقال: ان الله تعالى أسجد الملائكة لآدم وهذا دليل على شرفه وفضله عليهم. ويردّ هذا القول انه دليل على شرفه وكرامته، ودليل على رفيع شأنه وعظيم مكانته - ولا شك - ولكنه ليس دليلاً على تفضيله عليهم. فالتكريم غير التفضيل. ومثال ذلك ما حدث ليوسف مع أبويه:

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾ (٢)

يقول الامام ابن الجوزي رحمه الله:

«(وخروا له) يعني أبويه واخوته. وفي هاء (له) قولان، أحدهما: أنها ترجع الى يوسف، قاله الجمهور. قال ابن الأنباري سجدوا له على جهة التحية، لا على معنى العبادة. وكان أهل ذلك الدهر يحيى بعضهم بعضاً بالسجود والاعتناء» (٣)

فسجد سيدنا يعقوب لابنته سيدنا يوسف - عليهما السلام - ولكن لم يستدل به أحد على فضل يوسف على سيدنا يعقوب.

إذا فليس لدينا ما يثبت فضل آدم على الملائكة. بل الأمر على العكس. والمقام لا يسمح لنا بأن نسترسل في الموضوع.

فاذا لم يكن هناك دليل على أن الخلافة التي رشح لها آدم كانت أرفع شأنًا وأعظم خطراً من مكانة الملائكة في هذا الكون، فكيف يقال: ان الملائكة تمنوا أن ينالوا تلك الخلافة التي أرادها الله لآدم، وأرادوا أن يثبتوا أحقيتهم بها فقالوا ما قالوا؟

وإنما القول في ذلك ما فصل مسبقاً من أن الملائكة لم يريدوا بقولهم ذلك الا تقريراً لطاعتهم وخضوعهم لمشيئة الله.

فلما أبدت الملائكة قلقهم وانزعاجهم لهذا القرار مع الالتزام الكامل بحسن الأدب وحسن الخضوع لمشيئة ربهم - وكان ذلك نتيجة طبيعية لفطرتهم البريئة، التي لا ترضى لربها الا الخشوع والبر والانقياد - أحب ربهم أن يمسح عنهم هذا القلق والانزعاج. فطمئنتهم أولاً بقوله تعالى:

(١) سورة الاسراء: ٧٠

(٢) سورة يوسف: ١٠٠

(٣) زاد المسير: ٢٩٠/٤

«انى أعلم ما لاتعلمون» أى هونوا عليكم واطمننوا فان الأمر على غير ما قدرتموه. ولما يتضح لكم القرار على جليته. ثم علم آدم أسماء ذريته، وكان فيهم الرسل والأنبياء. ، وكان فيهم الشهداء والصادقون والصلحاء، ورأى آدم الأنبياء والرسل فيهم مثل السرج عليهم النور. (١)

ولما علم آدم أسماء ذريته الطيبين الطاهرين وعرفهم عرضهم ربنا- سبحانه وتعالى- على الملائكة المقربين وقال لهم: «أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين.» أى ان كنتم صادقين فى ظنكم الذي ظننتم بهم من أنهم جميعا يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء. فأنبئوني من هؤلاء ؟ هل تلك الوجوه النيرة المشرقة الوضيئة أيضا وجوه المفسدين فى الأرض!

ثم بعد ذلك أمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم ، فأنبأهم آدم- مثلا - بأن هذا نوح، وذاك ابراهيم. وهذا من أعماله كيت وكيت، وذاك من بطولاته ذيت وذيت.

فلما علم الملائكة ذلك فرحوا واستبشروا، واطمأنوا الى روعة القرار.

وبعد هذا الحوار السدى جرى بين ربنا- سبحانه وتعالى- وبين الملائكة حول خلافة آدم تأتى

هذه الآيات:

«واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فآزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو. ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.»

هذه الآيات - كما هو ظاهر من سياقها- تكملة للمشهد، فان سجود الملائكة لآدم لم يكن الا تطبيقا لفكرة الخلافة فى صورتها العملية البدائية.

وكذلك إسكان آدم فى الجنة لم يكن الا تدريبا عمليا لمهمة الخلافة، فقد عرف آدم هناك جسامة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، كما أدرك تلك الصعوبات والمحن، التي ستعترض طريقه.

وبعد أن اطلع على مخاطر الطريق وعرف كيف ينجر منها اذا وقع فيها، أهبط من الجنة الى الأرض وقد زود بهذه الوصية الغالية :

«فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النارهم فيها خالدون.»

ثم القصة هنا بسياقها وأسلوب عرضها تنبه على بالغ رعاية الله وعظيم ربوبيته وحسن تكميمه لآدم.

(١) انظر زوائد المسند: ١٣٥/٥، وسنده حسن موقوف ولكنه فى حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الراى.

وبيانه أن فكرة خلافة آدم لم تلق فى أول أمرها ذلك القبول والترحيب فان ملائكة القدس أبدوا قلقهم واستغرابهم حين سمعوا بها، لأنهم خافوا من الخليفة، أنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء. فخلق الله آدم ثم خلق الصالحين من ذريته، حتى يقتنع الملائكة اقتناعا كاملا بحكمة ارادة الله وعظمتها، ويشاهدوا عيانا أن الأمر على غير ما قدروه.

وكان من شدة تكريمه لآدم أنه- تعالى- لم ينبئ الملائكة بأسماء ذريته ابتداء، بل علم آدم أولا ثم جعل آدم هو الذى ينبئهم اظهارا لفضله واشعارا بمكانته وجلالة قدره. ثم خصه بتكريم آخر، حيث أمر الملائكة كلهم أن يسجدوا له زيادة فى تكريمه وتنويرها برفيع شأنه، ولما لم يسجد ابليس أنحى باللائمة عليه:

﴿فسجدوا الا ابليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين.﴾

ثم أسكنه الجنة وتركه يتقلب فى نعيمها حيث يشاء. ولما أزاله الشيطان بتحريضه على الأكل من الشجرة المنوعة وأخرجه مما كان فيه من رغد العيش وطيب المقام أسرع الى العناية الالهية الحانية وألهمته كلمات تنجيه من سخط الله وترجعه الى ما كان فيه من رعايته. ووعدته فى نفس الوقت أن هذه الرعاية وهذه العناية بذرية آدم ستستمر لمن أراد:

﴿قلنا امبطوا منها جميعا فاما ياتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.﴾

وهكذا نرى السياق يحكى القصة كلها بأسلوب يوحى بالتكريم المتواصل والرعاية الدائمة والعناية البالغة بشأن آدم وذريته.



نظم الآيات (٤٠-٦٢)

وبعد ما ينتهى السياق من ذكر هذه القصة التاريخية الهامة يتوجه بالخطاب الى بني اسرائيل بأسلوب يملأه العطف واللين ويشوبه الزجر والموعظة:

هيا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم وأوقوا بعهدي أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وأمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون.﴿

لقد رأينا فيما مضى كيف أكرم الله سبحانه وتعالى آدم و ذريته، وكيف أنعم عليهم وخصهم بالمنزلة الرفيعة والمكانة العالية فى هذا الكون. ولا شك أنه كان لبني اسرائيل من ذلك التكريم ومن تلك النعم نصيب وافر، ولكنهم قابلوه دائما بالعنجهية والجحود والكفران.

ولقد كانت هذه البعثة الجديدة احدى تلك النعم، بل كانت على رأسها، فان الخلافة فى الأرض قائمة على أساس هذه الرسائل، ولا يتصور أن ينهض الانسان بتلك الأمانة العظمى بعيدا عن هذه الرسائل.

بالإضافة الى أن بني اسرائيل كانوا يمتون بصلة خاصة الى هذه الرسالة الجديدة، فقد بشرت بها كتبهم ونادت بها رسلهم منذ قديم الزمان، ولقد أخذ منهم العهد والميثاق أن يكونوا أسبق الناس الى هذا الدين اذا سمعوا به، فكان يلى عليهم الواجب أن يكون أسرع الناس اليه ويكونوا أول مؤمن به. ولكنهم عكسوا الأمر واتخذوا موقفا غير الموقف الذى كان ينتظر منهم.

فجاءت هذه الآيات تذكرهم بواجبهم نحو هذه البعثة المباركة، التى ما ظهرت الا لاقام النعمة عليهم بإقامة خلافة الله فى الأرض فى أروع صورة وأكملها.

وكان من فضائحهم أنهم لم يرقبوا عهد الله فى يوم من أيامهم بل كتموا الحق وكذبوا الرسل وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. وبعد ذلك كانوا ينتظرون من الله أن يوفى بعهدهم، مع أن عهدهم كان مشروطا بعهد الله، حيث قال تعالى:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا، وقال الله اني معكم لئن أقمتם الصلاة وآتيتم الزكاة وأمتتم برسلي وعزتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل.﴾ (١)

على الرغم من هذا البيان الصريح هم قنوا على الله الأمانى، ولم ينهضوا لأداء ما كان عليهم من شرط الايفاء بعهدالله.

ثم انتهى بهم الأمر الى أن يطلبوا من النبى وأصحابه كذلك أن يبروهم ويحسنوا اليهم، ويدوموا لهم على هذا البر والاحسان، على الرغم من مخالفاتهم و نقضهم لعهودهم ومواثيقهم.

كان هذا شأنهم وكانت هذه مواقفهم، مع أنهم كانوا يتلون الكتاب، وكانوا يعرفون سنن الله فى العباد.

ف قيل لهم على سبيل النصح والموعظة:

﴿أوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون.﴾

وقيل لهم على سبيل الزجر والعتاب:

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون؟﴾

وهنا ينصرف الخطاب بسرعة عجيبة الى هؤلاء الناس، الذين كان يأمرهم بنو اسرائيل بالبر ولا يأثمرون به، وهم ذلكم الركب الكريم الذين هداهم الله للإيمان، والذين كانوا يعانون من بنى اسرائيل ما يعانون:

﴿واستعينوا بالصبر والصلوة، وانها لكبيرة الا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم وأنهم اليه راجعون.﴾

أمر هؤلاء المؤمنون أن يستعينوا ضد من يعارضهم بالصبر والصلوة. فهذا هو السلاح الناجع والدرع الواقى لكل من أراد أن يسلك هذا الطريق وأراد أن يصحبه النجاح والتوفيق.

ولقد تكرر هذا التوجيه الكريم فى نفس السورة ونفس السياق حيث قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة. ان الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله انا لله انا اليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.﴾ (١)

الا أن هناك فرقا بين الموضعين، حيث ان التوجيه الأول ينيه الى تلك الشحنة الداخلية، التى اذا تعباً بها المسلم تمكن من الاستعانة بالصبر والصلوة، وهى الايمان بلقاء الله والايمان برجوعه الى الله.

وجاء هذا التوجيه فى أوانه، قبل احتدام المعركة ، حين كان المسلمون فى فترة الاعداد والترية.

وأما التوجيه الثانى فهو يرشد الى الصبر والصلوة، ويركز على الصبر بصفة خاصة، فان المسلمين

قد دخلوا فى المعمعة، وكثر فيهم القتلى والجرحى، وكانو بأمر حاجة الى توجيه يحثهم على الصبر ويثبتهم على الطريق.

وبعدما يزود السياق جماعة المسلمين بهذا الزاد الكريم، يتوجه مرة أخرى الى بنى اسرائيل ويواصل معهم الحديث، فان الآيتين (٤٥-٤٦) ما جاءتا الا كالجملية المعترضة فى أثناء الحديث معهم للغرض الذى أشرنا اليه آنفا . قال تعالى:

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون. وأذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وأذ فرقنا بكم البحر وانجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون. وأذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون. وأذ أتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون. وأذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الي بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم. وأذ قتلتم ياموسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون. وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وأذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا مما فيها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون. وأذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا. قد علم كل أناس مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. وأذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وقومها وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير. اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.﴾

ان هذه الفقرة بكاملها جاءت شرحا وتفصيلا للآية التى مضت معنا فى الفقرة السالفة، وهى قوله تعالى:

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون.﴾

فهى تفسر تلك النعم الجسماء، التى تتابعت على بنى اسرائيل وتفصلها تفصيلا بعد ما أشارت إليها تلك الآية الكريمة إشارة مجنلة خاطفة.

فالأسلوب هنا أسلوب التفصيل بعد الاجمال . وهو أسلوب شائع فى القرآن.

ومما يجدر بالانتباه أن النعم فى هذه الفقرة مصحوبة بذكر عاقبة كفرانها، فهى تعدد أولا تلك النعم الكبار التى أسبغت على بنى اسرائيل فى فترة تعتبر أقسى فترة وأخرجها فى تاريخهم. ثم تتبعها عقوبة نكرانها، حتى تبرز ناحية الدينوية والجزاء، ويتلأم السياق تماما مع قوله تعالى:

﴿فَوَاتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم هناك ناحية أخرى يتبادر إليها ذهن المتأمل فى نظم هذه الآيات ، وهى ناحية لطيفة تحتاج الى شئ من الايضاح.

لقد مضى معنا فى الفقرة السابقة أن بنى اسرائيل نبذوا عهد الله ونقضوه. ومع ذلك كانوا يحلمون أن يتقبلوا فى نعيم الله وكانوا يتمنون أن تبقى لهم مكانتهم عندالله.

وهم كلما عاهدوا عهدا مع النبى وأصحابه نقضوه، ومع ذلك كانوا ينتظرون منهم أن يبروهم ويحسنوا اليهم، ف قيل لهم:

﴿أَوْفُوا بعهدي أوف بعهدكم﴾.

* وقيل لهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

وهنا يوحى إلينا السياق أنه بلغت بهم وقاحتهم الى أن ظنوا بهذه الرسالة الجديدة المباركة ظن السوء. وأشاعوا عنها أنها ليست نعمة ولا رحمة للناس، وإنما هى رسالة تتسم بالقسوة والغلظة والاعتداء. فالنبى ﷺ يعاملهم دائما معاملة قاسية، ويؤاخذهم على تصرفاتهم مؤاخذة شديدة، فلا بر هناك ولا مجاملة ، وإنما هو ظلم واعتداء.

فهذه الآيات تذكرهم تاريخهم وتنبيههم الى طبيعة الرسل والرسالات. فالرسل لا يعاملون الناس على أحسابهم وأنسابهم، وإنما يعاملونهم حسب أعمالهم وتصرفاتهم.

وتاريخهم ان كان حاقلا بنعم الله المتواليات، فهو حافل كذلك بعقوباته المتلاحقات.

فلينظروا أن موسى «عليه السلام» وهو نبيهم الذي يعتزون به- قد أمرهم بقتل أنفسهم حين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل

ولينظروا أنهم لما قالوا لنبيهم: أرنا الله جهرة ، أخذتهم الصاعقة بظلمهم.

ولينظروا أنهم قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى.. ولكنهم لما قابلوا هذه النعم بالكفران، ذاقوا وبال أمرهم

ولينظروا أنهم قد قيل لهم ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ، ولكنهم بدكوا قولا غير الذى قيل لهم فأنزل عليهم رجز من السماء بما كانوا يفسقون.

ولينظروا أنهم لما قالوا لنبيهم : لن نصبر على طعام واحد زجرهم نبيهم وعنفهم وقال لهم: أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم.

فاذا كان هذا تاريخهم وكانت هذه أيامهم، فما بالهم يحملون الحقد على هذا النبى وأصحابه؟ فانهم كلما أصابتهم نعمة من عذاب ربهم بسبب سوء تصرفاتهم اتهموا النبى وأصحابه وقالوا هؤلاء هم الذين جلبوا علينا هذا السوء .مع أن السبب فيما يعانون اليوم هو هو، لم يتغير عما كان عليه بالأمس، وهو أنهم نسوا الله ونسوا نعمه المتواليات ونقضوا عهده فَنسيهم وتخلّى عن عهدهم وتركهم وحصائد أعمالهم.

ويعد ماينتهى السياق من ذكر بعض فضائحهم، التى اقترفوها في تاريخهم القديم، وينتهى من الاشارة الى بعض العقوبات التى حلت بهم لقاء ثردهم وعصيانهم، يَجْمَل القول و يذكر تلك النتيجة الرهيبة التى ترتبت على سوء تصرفاتهم وسوء مواقفهم:

«وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.»

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة ليستدرك ما قد يعلق بالأذهان بعد سماع هذه الآية، وهو أن باب التوبة والرجوع الى الله قد سكر أمام اليهود وأعوانهم مطلقا، فلا يمكن أحدهم أن يعود الى الطريق ويصل حبله بالله اذا أراد. ولا يمكن أحدهم أن يخرج مما قد أحاط به من غضب الله ، ولا يمكنه أن يتخلص مما قد ضرب عليه من الذلة والمسكنة:

﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

فهذه الآية ترد هذا الوهم وتدخل برد الاطمئنان الى كل قلب يريد أن يقلع عن المعصية ويشوب الى الرشده.

انها تفسح المجال لكل من أراد أن يتوب، كائنا من كان، ومن أية فرقة أو طائفة كان.

انها تفتح الطريق لكل من أراد أن يقترب من الله وينال جنته ورضوانه ، سواء كان هذا الشخص من الذين آمنوا، أو كان من اليهود، أو النصارى، أو الصابئين.

انما المهم أن يؤمن المرء بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا فاذا توفرت هذه الشروط في أى شخص فلا يضره ان كان- فى السابق- يهوديا أو نصرانيا، أو ...أو..

ومما لا يخفى أن كلمة ﴿الذين آمنوا﴾ جاءت فى الآية كعلم لطائفة معينة أو جماعة معينة، مثل ﴿الذين هادوا﴾ ومثل ﴿النجاري والصابئين﴾ فاذا كان الرجل من طائفة تعرف باسم من هذه الأسماء فهذه الصلة أو هذا الانتماء لا ينفعه ولا يضره. فانما الاعتبار عند الله للعقيدة الصافية والأعمال الصالحة ، دون هذه الأسماء أو تغييرها من الأسماء.



نظم الآيات (٦٣-٨٢)

وبعد ما ينتهى السياق من هذا الاستدراك يرجع الى ما كان فيه من الحديث عن فضائح اليهود: **هَؤُلَاءِ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خَنُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**. ثم توليت من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين. ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. واذ قال موسى لقومه ان الله يفتكمم أن تذبحوا بقرة، قالوا أنتخذنا هزوا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال، انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا، وانا ان شاء الله لمهتدون . قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كانوا يفعلون.

وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها، كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون.﴿

لقد ذكر فى الفقرة السالفة موقف بني اسرائيل ازاء تلك النعم المادية التي أفيضت عليهم، فذكرت نعمة أوجملة من النعم ثم ذكر موقفهم منها.

أما هذه الفقرة فقد ذكر فيها الصنف الثاني من نعم الله ، وهى النعمة الروحية المعنوية المتمثلة فى وحى الله وتنزيله ورسالاته وشرائعه.

لقد ذكرت فيها هذه النعمة، التي هى فى الواقع أكبر نعمة أفيضت عليهم، ثم ذكر موقفهم المخجل منها.

نعم، لقد ذكرت هذه النعمة فى الفقرة السالفة كذلك حيث قال تعالى:

هَؤُلَاءِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.﴿

ولكنها ذكرت هناك عرضا فى ضمن بيان عفو الله عنهم، حين اتخذوا العجل ، حيث انه عفا عنهم، ولم يسك عنهم هذا العطاء الكريم بسبب ما اقترفوه من الاثم. فكان هذا من دلائل العفو عنهم.

ومن ناحية أخرى فقد كانت النعم التى أفيضت عليهم، والتى ذكرت فى الفقرة السالفة، بمثابة موثائق أخذت منهم، الا أنها كانت موثائق مفهومة صامته.

فبعد تلك الموثائق المفهومة الصامته ذكر هذا الميثاق الناطق الصريح:

﴿وَأَذِّنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.﴾
ثم ذكر موقفهم منه كما ذكرت مواقفهم من أمثاله من الموثائق. ولقد تناول القرآن هذا الحديث بأسلوب تهتز له النفس، حيث ذكر فى الآية الأولى كيفية أخذ الميثاق على التمسك بالكتاب، و ذكر ذلك الاهتمام البالغ بشأنه.

ثم ذكر فى الآية الثانية كيف تولوا عنه على الرغم من هذا التأكيد، وهذا الاهتمام البالغ الذى بذل فيه.

ويسرعة عجيبة مذهلة يفاجئ السامعين بذكر المنة العظيمة والنعمة السابغة التى أفاضها عليهم حيث أنزل اليهم هذا الكتاب بفضل منه ورحمة، فأعطاهم بذلك فرصة جديدة لاكتساب الفلاح وللإبتعاد عن الخسران بعد ما فاتتهم الفرصة فيما مضى بسبب غفلتهم واعراضهم عن كتاب الله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.﴾

ولقد روى عن أبى العالية فى تأويل الآية مثل هذا القول. قال ابن جرير حدثنى المشنى بن ابراهيم، قال: ثنا أبوالنضر، عن الربيع، عن أبى العالية ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ قال: فضل الله : الاسلام، ورحمته: القرآن. (١)

ويبدو أن صاحب الظلال أيضا يميل الى هذا التأويل حيث قال:

ولكن هيهات! لقد أدركت اسرائيل نحيزتها، وغلبت عليها جبلتها:

﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾..

ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى، وشملها فضله العظيم، فأنقذها من الخسار المبين:

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.﴾ (٢)

لكنتم من الخاسرين كماخسر اخوانكم الذين اعتدوا فى السبت، فحل بهم ما حل من سخط الله.

مناسبة ذكر المعتدين فى السبت:

وخص بالذكر هنا أهل السبت، لأن اعتداء هم فى السبت انما كان اعتداء على كتاب الله فانه

ماجعل السبت عليهم الا ليتفرغوا فيه لكتاب الله، يتدارسونه فيما بينهم، ويعكفون عليه ويجددون صلتهم به وينشطون للنهوض بأحكامه.

(١) جامع البيان عن تأويل أى القرآن: ٣٢٨/١

(٢) فى ظلال القرآن : ٧٦/١

فلما اعتدوا فيه، كان هذا اعتداءً مباشراً على كتاب الله.

فاقتضت المناسبة أن تذكر قصتهم هنا تحذيراً من عاقبة التفريط في جنب كتاب الله وتخويفاً من مغبة الاعتداء على حقه.

ومثل هذا النظم نرى في سورة الأعراف، حيث ذكرت نفس القصة بشئ من التفصيل، ثم جاءت هذه الآيات:

هوذا تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، ان ربك لمرسيع العقاب
وانه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمما، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك. وبلوناهم
بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا
الأدنى ويقولون سيففر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا
يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون. والذين
يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا ننزع أجر المصلحين. واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة
وظنوا أنه واقع بهم، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ﴿١١﴾

هذه الآيات تدور في مجموعها حول موضوع الكتاب، حيث انها تذم الذين فرطوا في جنب كتاب
الله، وأخلدوا الى الدنيا وشهواتها ونسوا عهودهم ومواثيقهم، وتثنى على المصلحين الذين يمسكون
بالكتاب وأقاموا الصلاة، ثم هي تذكر الميثاق الذي تم في ظل الجبل بشأن كتاب الله والذي تشير اليه
الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها من سورة البقرة.

ولا شك أن النظر في نظم هذه الآيات وسياقها يساعدنا في التوصل الى أبعاد قصة أهل السبب
وطبيعتهم، ويكشف لنا عن حقيقتها ودلالاتها، ويزيدنا اطمئناناً الى ما أشرنا اليه سابقاً من أن
الاعتداء في السبب إنما كان اعتداءً مباشراً في شأن كتاب الله. ولذلك اشتد غضب الله عليهم، وجعلوا
نكالا لمن خلفهم وموعظة للمتقين.

وبعد التلويح الى سوء عاقبة التفريط في جنب كتاب الله أو الاعتداء على حقه يعود السياق،
فيذكر نموذجين مخجلين من تاريخ بني اسرائيل للتلاعب بكتاب الله والاستهزاء بأوامره.
وتاريخهم وان كان يعج بمثل هذه القصص الشائنة المخجلة الا أن لهاتين القصتين طبيعة خاصة
ومناسبة ماسة بالموضوع.

النموذج الأول:

ان بني اسرائيل كما- نعلم ويعلمه الجميع- قد أشربوا في قلوبهم العجل. وكان هذا حجر عثرة
في طريقهم الى الله، وكان يعوقهم عن التمسك بكتابه والخضوع لأوامره. ولقد أشار القرآن في نفس

(١) سورة الأعراف: ١٦٧-١٧١

السورة الى هذا الواقع المؤلم:

هواذ أخذنا ميثاقتكم و رفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بنسما يأمركم به إيمانكم ان كنتم مؤمنين» (١)
ولم يكن لمرضهم هذا علاج الا أن يؤمروا بذبح بقرة !

ويقارب هذا ما ذهب اليه الأستاذ المودودي - رحمه الله - حيث قال، وهو يفسر هذه الآيات:

« كان بنو اسرائيل - في فترة اقامتهم بمصر- جيرة قوم يعبدون البقر، ويبدلون لها كل تعظيم وتقديس. ومن هنا تعدى هذا المرض اليهم واستشرى فيهم فأمروا أن يذبحوا بقرة.

ولم يكن هناك طريق أفضل لاختبار صدقهم في إيمانهم من أن يؤمروا بتعطيم ذلك الصنم الذي كانوا يعبدونه ، قبل أن يدخلوا في حظيرة الايمان، بأيديهم.

وكان هذا الاختبار بالنسبة اليهم صعبا جدا. واذا لم يكن الايمان قد استقر في قلوبهم، فقد حاولوا أن يتملصوا من هذا التكليف وراحوا يسألون ويسألون.

وكلما ازدادت أسئلتهم، ازداد الأمر عليهم ضيقا وتعقدا. حتى انتهى الأمر بأن كلّفوا بذبح بقرة ذهبية كانت تختار عندهم وتخصص للتقديس والعبادة.

ونجد في العهد القديم اشارات الى تلك الواقعة الا أنه لا يذكر تلكا بنو اسرائيل في تنفيذ هذا الأمر وروغانهم للتملص منه . (انظر سفر العدد ١٩: ١-١٠) (٢)

وعلى أية حال فقد جاءهم الأمر بالذبح وأبلغهم نبيهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة.

وكان الأمر موضع جد وصرامة ولكنهم أخذوه مأخذ الهزل وأتعبوا نبيهم بأسئلتهم اللاغية المزعجة:

ويلفت بهم الوقاحة أنهم أرادوا أن يظهروا في نفس الوقت وكأنهم جادون مخلصون في تلك الأسئلة وحريصون غاية الحرص على أن ينفذوا ما أمرهم الله به حيث قالوا: (وانا ان شاء الله لمهتدون)
وبعد تردد ومماطلة ونقاش طويل ذبح هؤلاء البقرة، ولكنهم ذبحوها وكأنهم لم يذبحوها:

«فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.»

فان ذبحهم لها، اذ لم يكن في أوانه وفور سماع أمره قد فقد روحه وفقد معناه.

وعلى هذا فلا يعتبر هذا الذبح تنفيذا وامتنالا لأوامر الله، وانما هو استهزاء و سخرة و تلاعب بكتاب الله

(١) سورة البقرة : ٩٣

(٢) تفهيم القرآن : ٨٥/١ - ٨٦

النموذج الثاني:

والقصة الأخرى أيضا تدل- كأختها- على تلاعبهم بكتاب الله، واستخفافهم بأوامر الله، فقد حدث أنهم قتلوا نفسا منهم، ثم جعل كل فريق منهم يدرأ عن نفسه التهمة ويبرؤها من تلك الجريمة. فالذي عرف القضية أوتلبس بها أسدل عليها ستور الكتمان، والذي لم يعرفها لم يتعب نفسه في البحث عن حقيقتها، واقتصر على درء التهمة عن نفسه الى غيره.

علما بأنهم كانوا ملزمين جميعا بأن يكشفوا القاتل بدون مواربة ولا محاباة، ويطبقوا قانون القصاص الذي كان موجودا عندهم في التوراة، كما ينص عليه القرآن:

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ.﴾ (١)

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا. فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢)

فلما تواطأ الجميع على كتمان الجريمة ، أظهر الله اسم القاتل، فانه قد قرر أن يخرج ما كانوا يكتُمون. وقال لهم: اضربوا هذا الشخص ببعض تلك النفس المقتولة.

والى هذا المعنى ذهب صاحب تفسير المنار حيث قال وهو يفسر هذه الآية:

﴿فَقَتَلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعُضِّهَا﴾ المشهور أن معناه : اضربوا القتيل بجزء من البقرة، ويرى بعض المدققين أن هذه قصة غير قصة البقرة ، فتلك انتهت بالاحالة على حكم التوراة المعروف وأن المراد في هذه، ضرب المتهم بالقتل ببعض أعضاء القتيل.... (٣)

فكان أن دبت الحياة في تلك النفس المقتولة لما ضرب هذا الشخص ببعضها، ونطقت وشهدت أن هذا الشخص المائل أمامها هو القاتل.

وهكذا انكشف الأمر وافتضحت المؤامرة المشؤمة ضد كتاب الله!

هذا ما يظهر لنا في تأويل تلك الآيات، حين نتأمل في نظمها وسياقها وأسلوبها وألفاظها.

ولقد ذهب الناس في تأويلها مذهبا آخر.

فيقول-مثلا- الأستاذ سيد قطب وهو بصدد تأويلها:

(١) سورة المائدة: ٣٢

(٢) سورة المائدة: ٤٥

(٣) مختصر تفسير المنار : ٦٥/١

« هنا فقط .. وبعد أن تعقد الأمر، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار؛

«قالوا الآن جئت بالحق»...

الآن! كأننا كان كل ما مضي ليس حقاً أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جأهم به هو الحق إلا اللحظة!

«فذبحوها وما كادوا يفعلون» !!

عندئذ-وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف- كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف: «وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا: اضربوه ببعضها. كذلك يحيى الله الموتى، ويريكم آياته لعلكم تعقلون»..

وهنا نصل الى الجانب الثانى من جوانب القصة. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة. وهنا يتغير السياق من الحكاية الى الخطاب والمواجهة.

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة.. لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدراً عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة الى احيائه، وذلك بطريقه ببعض من تلك البقرة الذبيح .. وهكذا كان، فعادت اليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلى الرب والشكوك التى أجاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين» (١).

هذا ما يراه الأستاذ سيد قطب-رحمه الله - فى تأويل تلك الآيات، وهو نفس التأويل الذى ذهب اليه الناس قديماً وحديثاً. وكان أولى بنا كذلك أن نكون مع هذا التأويل، إلا أن هناك أميراً تقسروا قسراً على العدول عنه، وهى كما يلى:

الأمير الأول:

ان بني اسرائيل قد أشربوا فى قلوبهم العجل كما ينص عليه القرآن، وكما نعلم من ترددهم وتلكؤهم فى ذبح البقرة، التى أمروا بذبحها. وهذا الذى هكّن السامري من أن يعود بهم مرة أخرى الى عبادة العجل.

وقد بلغ بهم الأمر الى أنهم كلما رأوا صنماً يعبد من دون الله حاج بهم الشوق الى أن يعبدوه، ويشهد لنا بذلك القرآن حيث قال تعالى:

«وجاورنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال انكم قوم تجهلون. ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العلمين» (٢)

(١) فى ظلال القرآن: ١ / ٧٩

(٢) سورة الأعراف: ١٣٨-١٤٠

تلك الأمة التي لم تتخلص من حب العجل وحب الصنم، رغم مارأت وشاهدت من آيات الله
البيّنات المتواليات، لا يتصور أن حكمة الله تجعل أمامها البقر وسيلة عودة الحياة الى تلك النفس
المقتولة، فان هذا الحادث يغرس فيهم حب العجل وقداصة البقر وينمى فيهم نوازع الشرك ونوازع
الكفر، بينما القوم كانوا بأمس حاجة الى عملية تنزع من قلوبهم هذا الحب وهذه القداسة وتشعرهم أنها
ليست الا لأن تذبح و تؤكل.

وكان الأمر هكذا، فانهم ما أمروا بذبح البقرة الا لينزع حبها من نفوسهم وتحطم قداستها في
قلوبهم ، ويبين لهم أنها ليست لها يعبد، وانما هي لحم يمضغ ويؤكل!

الأمر الثاني:

ان قصة قتل النفس ذكرت بعد قصة ذبح البقرة. والظاهر أن قصة قتل النفس لو كانت متقدمة
على قصة ذبح البقرة، وكان الهدف من ذبح البقرة ذلك الذي ذكره لكان الترتيب على العكس.
و دعوى التقديم والتأخير في النظم الحكيم ليست أمرا هينا حتى نقول بها كلما تعرقل مسيرنا
أو خفى علينا التأويل الصحيح للآيات.

الأمر الثالث:

ذكر الله تعالى المقتول بالنفس فقال: ﴿وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ثم جاء لها بضمير المؤنث حسبا كان
يقتضيه اللفظ فقال: ﴿فَإِذَا رَأَيْتُمْ فِيهَا﴾ فرجع ضمير المذكر في قوله تعالى: ﴿فَقَتَلْنَا أُخْرَاهُ﴾ الى
تلك النفس على تأويل (المقتول) وان كان صحيحا سائغا من ناحية الاعراب، الا أنه مع ذلك عدول عن
الأصل. وهو يحتاج الى دليل.

الأمر الرابع:

ان كلمة (إِذَا) تفصل الكلام الذي بعدها من الذي قبلها، وتجعله كلاما مستقلا قائما على حدة ،
فلا يجوز إذا أن يرجع الضمير الذي جاء بعدها الى الاسم الذي قبلها.
هكذا نعلم اذا تقصينا استعمالاتها في القرآن وفي كلام العرب.
وعلى هذا فلا يجوز رجوع الضمير في قوله تعالى: (يَبْغُضُهَا) الى البقرة التي ذكرت قبل (إِذَا)
ولم يرد لها ذكر بعدها.

هذه أربعة أمور تقسرننا قسرا على العدول عن ذلك التأويل،
ومع ذلك فلسنا ندعى العصمة من الخطأ. فالعصمة لله، وهو الذي يعلم الصواب من الخطأ.
وحسبنا أن بذلنا الجهد وتوكلنا على الله.

منظر رهيب لقسوة القلوب:

ومن عجيب المناسبة بين القصتين - ماعدا التي أشرنا إليها آنفا - أنهم استعظموا الأمر بذبح البقرة حين أمروا به، وتلكأوا فيه وما رضوا أن يمتثلوا لهذا الأمر الا كرها وبضيق الأنفس. ولكنهم استهانوا بتلك النفس البشرية وتواطأوا على اهدار دمها، ولم يروا بأسا بالتلبس بتلك الجريمة وكتماها!

كأن دم الحيوان كان أعلى عندهم من دم الانسان وهكذا تنتكس العقول وتبتلك النفوس حين يتواطأ الناس على التلاعب بكتاب الله، وحينما يستخفون بشأنه ويعدلون عن أحكامه. وما برح بنو اسرائيل يتلاعبون بكتاب الله و يستخفون بشأنه على الرغم من تلك الآيات المتواليات التي رأوها بأعينهم. فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن قست قلوبهم وقست، وقست حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة!!

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾

وتلك هي النتيجة الطبيعية الحتمية لنبد كتاب الله والاستخفاف بشأنه، فما حمل قوم كتابا من عند الله ثم تولوا عنه وأعرضوا الا حلت بهم تلك العقوبة.

ويعد ما ينتهي السياق من ذكر موقف بني اسرائيل القدامى من كتابهم: التوراة، يأخذ في ذكر موقف أخلاقيهم من هذا الكتاب: (القرآن) الذي أنزل اليهم مصدقا لما معهم:

﴿أفقتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وإن هم الا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة. قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.﴾

يقسم السياق هنا هؤلاء اليهود المعاصرين الى قسمين:

قسم منهم كان يمثله الدهاة الطغاة من علماء السوء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. والقسم

الثانى كان يمثله الأمسيون أو الهمج السريع، الذين ليس لهم عقل ولا دين، ولا يعلمون الكتاب الا أمانى.

وكلا القسمين لا مطمع لطامع في إيمانهم.

فالرهبان والأخبار كان لهم حظ أوفى من قسوة القلب كما كان لأسلافهم، فهم كانوا يسمعون كلام الله غضا طريا، ثم كانوا يحرفونه.

وكانوا يحرفونه عن فهم وادراك لا عن جهل وغفلة.

وكانوا يحملونه مالا يحتمله ويصرفونه الى ما لا ينصرف اليه.

كانوا يحرفونه الى ما يتفق وأهواءهم، ويخدم مآربهم.

وكان من قسوة قلوبهم كذلك أنهم كانوا يخادعون المؤمنين، فكانوا يزعمون لهم اذا جلسوا اليهم أنهم منهم ثم اذا رجعوا وخلا بعضهم الى بعض أقبلوا يتلاومون فيما بينهم، ان كان فيهم من خرج-سهوا- عن أساليبهم الملتوية، وأبدى رأيه المحض الصريح بدون تحفظ عن القرآن الذى جاء به هذا النبى ﷺ.

هكذا كانت مهمة علمائهم وأخبارهم تجاه كتاب الله!

وأما الأميون منهم فكان كتاب الله عندهم عبارة عن أمانى وأحلام كاذبة فارغة عن التكاليف والواجبات، فان الذى كان بأيديهم وكان يملأ أسماعهم وأفئدتهم لم يكن كتاب الله، وانما كان مما يكتبه أخبارهم بأيديهم!

كان مما يكتبه أخبارهم الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون! كان مما يكتبه أخبارهم ويضمنونه كلما تولى عليهم أهواءهم، وكان من شأنه ان يخدم مآربهم، ثم يروجونه بينهم باسم كتاب الله!

والأميون يحتضنونه، وكأنه- فى الواقع- كتاب الله، مع أن كتاب الله فى واد وهم فى واد! وهم أبعد ما يكونون من الكتاب فى وقت يحسبون أنهم مستمسكون بالكتاب!!

وكان من ضمن تلك الأمانى، التى تلقوها من (كتائبهم) وكانوا يعيشونها، أنهم لن تقسم النار الا أياها معدودة.

فرد القرآن اليهم تلك الأمنية الفارغة، التى لا تتلاءم مع العدل الالهى، الذى لا يعرف الأتساب والأحساب، وانما يعامل من يعامل حسب ما كسبه من حسنات أو سيئات:

﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.﴾



نظم الايات (٨٣-٨٧)

وبعد ما يتضح موقف اليهود من كتاب الله، سواء كانوا محدثين أو قدامى، وسواء كان موقفهم من القرآن أو من الكتب السالفة، يعود السياق، فيفصل ذلك الميثاق الذى ورد ذكره فى مستهل الفقرة السابقة فى قوله تعالى:

﴿وَاذْخُرْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

كان الميثاق وكان ما آتاهم الله مجملا فى تلك الآية، فيتناولها السياق هنا بشئ من التفصيل، ويتبعه كذلك ذكر موقفهم السيئ من ذلك الميثاق، حتى تكون الصورة متكاملة:

﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ. وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَاوَهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ﴾

ولقد ذهب الأستاذ سيد قطب «رحمه الله» فى تأويل تلك الآيات الى ما أشرنا اليه، حيث يقول:

«ولقد سبقت الإشارة الى الميثاق فى معرض تذكير الله لبني اسرائيل باخلاف موقفهم معه فى
الدرس الماضى. فهنا شئ من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق.

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني اسرائيل، ذلك الميثاق الذى اخذه عليهم فى ظل
الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروا ما فيه.. أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة
لدين الله. (١)

وهنا يثور سؤال بطبيعة الحال:

ما الحكمة فى ايراد هذا التفصيل بعد ذاك الاجمال؟

ان البحث عن هذه الحكمة يقتضى منا أن نرجع قليلا، ونتذكر تلك الآية الكريمة، التى مضت
معنا قريبا وهى:

﴿وممنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون﴾

لقد اقتضت الحكمة نظرا الى هذا الوضع، الذى تشير اليه الآية ، أن يؤتى ببعض التفصيل لما يحويه ذلك الكتاب أو لما يتضمنه ذلك الميثاق، حتى تنكشف لهؤلاء الأميين حقيقة الأمر ، ويعرفوا أن الكتاب أو الميثاق لا يعنى الأحلام والأمانى، كما لقنهم الريانيون والأخبار، وانما هو عمل وجهاد وتكاليف واجبات. وانما يتحقق وعد الله فى الآخرة لمن ينهض بتلك التكاليف ويؤدي تلك الواجبات. وأما من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وتمنى على الله الأمانى، بدون أن يتحرك للعمل أو يبتعد من المنكرات، فله فى الدنيا خزي، وله فى الآخرة أشد العذاب.

لفتة بارعة:

وهناك لفتة بارعة لفضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز فى ربط هذه الآيات بما قبلها حيث يقول «رحمه الله» :

«ولقد أمر النبى أن يوسع هذا الزعم- أى قولهم: لن تمسنا النار الا أياما معدودة- دحضا وابطالا، وأن يتدرج معهم فى هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا، ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الالهى الذى لا يعرف شيئا من الظلم والمحابة لأحد، بل الخلق أمامه سواء، كل امرئ رهين بعمله، ومن يعمل سوءا أو حسنا يجز به ، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبينا لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم: ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتهم؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟ ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتهم ببعض، وحكمتهم أهواءكم فى الشرائع فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم» (١).

وبعد ما ينتهى السياق من تفصيل موقفهم من ميثاقهم وينتهى من تعنيفهم على اعراضهم وسفك دمانهم واعتدائهم على اخوانهم ، يزيد فيذكر تصرفاتهم مع رسلهم وأنبيائهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيننا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقاتلون﴾

فقد بلغت بهم الضراوة بالاثم والعدوان، أنهم لم يقنعوا بقتل خيارهم وعداء الصالحين من اخوانهم، المتمسكين بدينهم، بل تجاوزوا ذلك الى تكذيب رسلهم وقتل أنبيائهم.

(١) النبأ العظيم: ١٨١-١٨٢

حقيقة هامة تستفاد من نظم هذه الآيات:

ويوحى إلينا نظم هذه الآيات أن القتل والاخراج الذي عوتب عليه بنو إسرائيل فى الفقرة السابقة، إنما هو قتل الصالحين منهم وإخراجهم من ديارهم، فتلك ميزتهم التى يتميزون بها على مدى تاريخهم، فهم دائما قتلوا الصالحين منهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، وإن أتاها هؤلاء أسارى عاملوهم بالفدية^(١) ومارضوا أبدا أن يطلقوا سراحهم بدونها.

وتلك شئسنتهم التى مضوا عليها فى جميع عصورهم. وفى يومهم الذى كان ينزل فيه القرآن كانوا يفعلون كذلك. فالصالحون منهم، الذين آمنوا بالقرآن وانضموا الى كتيبة الاسلام لم يكونوا ليتخلصوا من شرastهم وعدوانهم، فكأنوا يعانون منهم أشد العناء، وكأنوا ينالون نصيبهم من أذاهم. ولقد روى ابن جرير عن ابن عباس-رضي الله عنهم- فى سبب نزول هذه الآيات ما لا يتفق مع السياق ولا ينسجم مع نظم الآيات. (٢)

فالكلام هنا دائر حول نقضهم ميثاق الله، وتلاعيبهم بكتاب الله، واعتدائهم على أولياء الله، ثم اعتدائهم على رسل الله، وهذه الأمور كلها حلقات متصلة، يطلب بعضها بعضا، ويأخذ بعضها بأعناق بعض.

ومن ناحية أخرى، فإن الميثاق الذى أخذ من بنى إسرائيل أنهم لا يسفكون دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم، وإن كان عاما فى لفظه، إلا أنه من قبيل العموم الذى أريد به الخصوص، فانه كان فى أصله يخص الأنبياء والصالحين الذين درج بنو إسرائيل على قتلهم وسفك دمائهم.

(١) يقول ابن عطية-رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى: (تفادوهم): «معناه فى اللغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئا، قاله أبو على.» (المحرر الوجيز: ٣٤٣/١)
ويقول أبو حيان-رحمه الله - :

«وقيل: تفادوهم: تطلبوا الفدية من الأسير الذى فى أيديكم من أعدائكم، ومنه قوله:

قفى فادى أسيرك إن قومى وقومك ما أرى لهم اجتماعا

وقال أبو على معنى (تفادوهم) فى اللغة: تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئا. «(تفسير البحر المحيط: ٢٩١/١)

ولعل هذا المعنى هو أدنى الى الصواب نظرا الى صيغة المفاعلة، ونظرا الى سياق الكلام، ونظرا الى طبيعة اليهود، الذين جبلوا على حب المال وشح النفس. ولا أصعب على أنفسهم من أن يدفعوا المال لتفاد أسير ولو كان من ذوى أرحامهم، فضلا عن أن يكون ممن قد تظاهروا على إخراجهم.

والذين فسروا (تفادوهم) بغير هذا المعنى فقالوا: (أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الداء) فلملهم ما ذهبوا اليه إلا لأن يأتوا بدليل على الايمان ببعض الكتاب فى جنب الكفر ببعض الكتاب.

وهذا تكلف ماله لزوم، فالكفر ببعض الكتاب يكفى لأن يقال لهم: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟)

(٢) انظر تفسير الطبرى: ٣٦٧/١

ولقد صرح به القرآن فى موضع آخر حيث قال تعالى:

«ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل ويعثنا منهم اثني عشر نقيبا، وقال الله انى معكم لنن أقمت الصلاة وآتيتكم الزكاة وأمنتكم برسلى وعزرتهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لا تكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل» (١).

وأما الحروب الأهلية، التي دارت بين الأوس والخزرج، وبين قبائل اليهود لأسباب تافهة سخيفة، فلا علاقة لها بالموضوع، ولا داعى لذكرها هنا.

وما نظن ابن عباس-رضى الله عنهما- يؤول تلك الآيات بما وردت به الروايات، فانه كان أجل وأفقه من أن يعدل بالآيات عن مساقها، ويصرفها الى غير منصرفها، ويؤولها الى معنى لا أصل له فى كلام العرب. فالعرب لا يستعملون المفاداة الا بمعنى المعاملة بالفدية، كما مر معنا قول أبى على. والشواهد التي عثرنا عليها كلها تؤيد قول أبى على، فمنها قول الأجدع بن مالك الهمداني:

أسألتنى بركائب ورحالها . ونسيت قتل فوارس الأرباع
والحارث بن يزيد ويحك أعولى حلوا شمانله رحيب الباع
فلو أننى فوديته لفديته بأئاملى وأجنه أضلاعى (٢)

ومنها ما رواه البيهقي عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه - حيث قال ، قال النبى ﷺ
فى الأسارى يوم بدر:

«ان شئتم قتلتموهم، وان شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم» (٣)
ومنها ما رواه الدار قطنى عن أبى هريرة-رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «فمن قتل
له قتيل فهو بخير النظرين، اما أن يقتل واما أن يفادى أهل القتيل.» (٤)

فتلك الشواهد واضحة كل الوضوح فى المعنى الذى اخترناه فى تأويل هذه الآية. ولعل الذين
عدلوا عنه لم يعدلوا عنه الا للسبب الذى سبق أن أشرنا اليه.



(١) سورة المائدة : ١٢

(٢) الأصمعيات: رقم (١٦)، ص: ٦٨-٦٩

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب قسم الفئ والغنيمة : ٣٢١/٦

(٤) سنن الدار قطني: كتاب الحدود والديات وغيره: ٩٨/٣

نظم الآيات (٨٨-١٠٣)

وبعد ما ينتهى السياق من ذكر موقف بني اسرائيل من ميثاق الله ورسله على مدى تاريخهم الطويل المديد الى يومهم هذا، يعود الى الحديث السابق، الذى كان فيه، وهو موقفهم من هذا الكتاب الجديد الذى نزل على النبي الجديد، فقد جاءت تلك الآيات الخمس عرضا، للمناسبة التى سبق أن أشرنا اليها.
قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا قُلُوبَنَا غَلْفًا، بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ، فَكَثِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كُفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاعُوا بِغْضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذْ أَقْبَلُ لَهُمْ أَمْنًا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا، نُوْثِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ. قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ. قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ. وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ.

قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزل على قلبك بأذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين. ولقد أنزلنا اليك آيات بينات، وما يكفر بها الا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنه فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بأذن الله. ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق. ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا و اتقوا لثوية من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾

لقد تكرر فى هذه المجموعة ذكر تصديق القرآن لما معهم أو لما بين يديه ثلاث مرات:

﴿كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية : ٨٩

﴿وهو الحق مصدقا لما معهم﴾ الآية : ٩١

﴿مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ الآية : ٩٧

ثم شفع ذلك بذكر تصديق الرسول لما معهم:

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية : ١٠١

هذا الوضع يساعدنا فى تحديد طبيعة هذه المجموعة من الآيات، فانها تعنف بني اسرائيل على موقفهم من كتاب الله من ناحية جديدة، وهى أنهم كذبوا بهذا الكتاب مع أنه جاء مصدقا لما معهم أو مصدقا لما بين يديه.

تحقيق معنى (مصدقاً لما معهم) أو (مصدقاً لما بين يديه):

وقبل أن نمضى فى الحديث نريد أن نقف هنا وقفة قصيرة، ونتحقق معنى قوله تعالى: (مصدقاً لما معهم) أو (مصدقاً لما بين يديه) فان له تأثيراً كبيراً فى تحديد اتجاه هذه الآيات، بالإضافة الى أن كثيراً من جلة المفسرين - رحمهم الله - قد حاروا فى تفسيره.

ولقد تناول الامام الفراهى ^(١) هذه الكلمة بالبحث والتحقيق ، وهو أحسن ما اطلعنا عليه فى هذا الباب. والمقام لا يتسع لأن نذكره بكامله، فلا أقل من أن نذكر نبذة منه. يقول رحمه الله : « (مصدقاً لما بين يديه) : كلمتان لم يفهمهما أكثر الناس، فظنوا أن القرآن يشهد للكتب المحرفة المبدلة.. ثم يقول ﴿رحمه الله﴾:

فاعلم أن (صدقه) له معنيان:

١- شهد بصديق رجل أو كلام.

(١) هو الامام العلامة عبدالحميد الفراهى. ولد سنة ١٢٨ هـ فى (فريها) - قرية من قرى الهند- وتوفى فى التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩ هـ. وكان- رحمه الله- آية من آيات الله فى تضلعه من علوم القرآن. وكانت له نظرة نافذة عميقة فى الأدب العربى القديم، كما كان له باع طويل فى اللغة العبرانية، فاطلع على التوراة والانجيل والصحف الأخرى فى لغتها. وأماط اللثام عن كثير من زيغ اليهود وتحريفاتهم فى كتبهم.

(انظر ما كتبه عنه صديقه العلامة السيد سليمان الندوى فى مقدمة كتابه القيم : « امعان فى

أقسام القرآن »).

٢- جعله صادقا فيما توقع. قال الحماسي:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني

وفي القرآن: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين﴾.

ثم اذا تأملت فى مواقع هذا القول علمت أن المراد هو المعنى الثانى، فان النبى والقرآن جاء كما أخبرت بهما التوراة، فجعلاهما صادقة، فان كذبوا بالقرآن والنبى، يكن ذلك تكذيبا لكتبهم. وهذا أيضا يظهر اذا تأملت أن محمدا وعيسى -عليهما الصلوات- يأتیان بهذا القول مستدلين به على صحة نبوتهما، فأى استدلال فى أنهم يشهدون بصدق ما عند اليهود.

وان تنبأ أحد فى يومنا هذا وقال انى آمنت بالأنبياء وأنا نبى مثلهم فهل يكون هذا حجة على دعواه.

أما موقع الآية فقال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾

أى لما جاءهم محمد ﷺ حسب ما وجدوا فى كتبهم أعرضوا عن كتبهم وأنكروه كأنهم لا يعلمون. (١)

هذا ما قاله الامام الفراهى فى تحقيق معنى هذه الكلمة. ولا شك أن ما قاله -رحمه الله- فى غاية الروعة والدقة.

وبالجملة فهذه الآيات جاءت تعنف بني اسرائيل على موقفهم السيئ من كتاب الله مع أنه جاء مصدقا لما معهم، حيث انه حقق النبوءات التى وردت بها كتبهم، وكان يحمل تلك الصفات وتلك النعوت التى بشرت بها رسلهم.

نبوءات حول هذا النبى وهذا القرآن:

ولا بأس بأن ندرس هنا بعض تلك النبوءات، حتى تتسنى لنا الرؤية الواضحة لدلالات قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

وحتى نعرف مدى تعنت بني اسرائيل وجحودهم وكنودهم، ونعرف أنهم-قاتلهم الله- كيف ردوا الكرامة التى ساقها الله اليهم، مع أنهم كانوا أولى الناس بالحرص عليها والمساورة اليها. وها هى بعض تلك النبوءات:

« أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى، الذى يتكلم به باسمى، أنا أطلبه. » (٢)

(١) مفردات القرآن: ٦٤-٦٥

(٢) تثنية: باب (١٨)، آيات: ١٨-١٩

« قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم: ان ملكوت الله ينزع منكم، ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه. » (١)

« تنبيهات في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم، ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود وشرفانهم بكيول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب. كرامة هذا لجميع أتقيائه، هللوا يا. » (٢)

« وأما الآن فأنا ماض الى الذي ارسلنى، وليس أحد منكم يسألني أين تمضى، لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكنى أقول لكم الحق، انه خير لكم أن أنطلق، لأنه ان لم أنطلق لا يأتىكم المعزى ولكن ان ذهبت أرسله اليكم. ومتى جاء ذاك يبكى العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى، ولا تروننى أيضا، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. » (٣)

لقد كانت هذه النبوءات وأمثالها موجودة في كتبهم، وكلها كانت تنتظر هذا القرآن وهذا النبى لتتحقق وتبرز الى عالم الواقع.

وينواسرائيل كانوا يعرفون ذلك، وكانوا يترقبون بلهف ذلك (الكلام) وذلك (المعزى) وكانوا يعتقدون أنه اذا ظهرت تلك البعثة الجديدة، فستكون الكرة للحق وستتم تلك البشارات كلها.

وعلى هذا «كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا» ولكن لما جاء ذلك (المعزى) وجعل الكلام فى فمه، وتحققت على يديه بعض تلك النبوءات، وبعضها كانت تنتظر أوانها المكتوب، وهم عرفوا ذلك معرفة لا يشوبها شك، تنكروا للايمان به، ووقفوا فى وجهه، وتظاهروا عليه وعلى أصحابه بالاثم والعدوان، كما مر ذلك قريبا فى الفقرة السابقة.

فهذه الآيات تلومهم على موقفهم السيئ نحو كتاب الله، ثم تكشف الداء الدوى، الذى كانوا يعانون منه، والذى حملهم على اتخاذ هذا الموقف المشين نحو كتاب الله، ألا وهو البغى، ذلك الداء القديم الذى لم يفارقهم فى فترة من فترات تاريخهم الطويل المديد:

«بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده»

(١) انجيل متى ٢١/٤٢-٤٤

(٢) الزمور : ٦/٩-٦

(٣) انجيل يوحنا : ١٦/٥-١١

وقد بلغ منهم البغى مبلغه ، حتى أعمى قلوبهم كما أعمى أبصارهم ، فلم يقدرُوا تلك النتائج التي تترتب على بغيتهم ، فإن هذا البغى لم يكن بغياً في شأن نبي دون نبي ، أو فى شأن كتاب دون كتاب ، وإنما كان معناه التخلّى عن أصل الايمان وعن مبدأ الايمان ، فأنهم كفروا بالحق الذى جاء مصداقاً لما معهم . وبذلك كفروا بجميع الكتب المنزلة ، التي كانت عندهم ، والتي كانت تبشر بمجيئ هذا النبي وهذا القرآن .

ثم هذا البغى لم يكن ينم عن تخليهم عن الايمان فى وقتهم الحاضر فقط ، بل كان ينم عن تخليهم عن الايمان فى سالف أزمانهم على مدى تاريخهم ، فان كفرهم وبغيتهم اليوم لم يكن إلا نتيجة طبيعية لكفرهم وبغيتهم بالأمس .

ولذلك نرى القرآن أخذ عليهم قولهم : «نؤمن بما أنزل علينا» ثم أشبع هذه الدعوى الكاذبة رداً وتفنيداً ، حيث وضع أمامهم تاريخهم الذى يناقض دعواهم ، ويجللهم بعار لا يفارقهم :

«قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل بشئما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين.»

وبعد ما انتهى النص من تفنيد ما كانوا يدعون من الإيمان بما أنزل عليهم فى ضوء واقعهم على مدى تاريخهم ، عاد ففند المفهوم الخاطئ لما أنزل عليهم - ذلك المفهوم الخاطئ ، الذى يفسر الكتاب بالأمانى ويعد فى الآخرة بالحسنى بدون عمل يعمل أو بدون جهد يبذل ، بل ومع سيئة تكسب وخطيئة ترتكب!!

كما أنه لا يمنع أن يعتبر الانسان نفسه من أهل الكتاب ، ومن المؤمنين بالكتاب ومن المستحقين لكل ما يعد به الكتاب ، وان كان الواقع أن الكتاب نفسه يتبرأ منه ويعاديه!

وكان وضع بنى اسرائيل فى يومهم ذاك أشبه بذلك ، فانه قد لصق بأذهان كثير منهم ذلك المفهوم الخاطئ ، بل قد سيطر عليها ، فهم كانوا يعيشونه وكانوا يفسرون الكتاب بتلك الأمانى ، وكانوا يزعمون أنهم أهل الكتاب ، ومن المؤمنين بالكتاب ، ومن المستحقين لكل ما يعد به الكتاب ، كانوا ماكان عملهم ، كما قال تعالى :

«وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ الْأَمَانَىٰ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ»

وقال تعالى :

«وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ»

ولعل هذا التصور الخاطئ للإيمان هو الذى حدا بهم الى البغى ، وحدا بهم الى أن يقولوا : «قلوبنا

غلف» ويقولوا : «نؤمن بما أنزل علينا»

فتناول السياق زعمهم هذا أو تصورهم هذا بالرد والتفنيد:

﴿قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين. ولئن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون﴾

وبعد ما ينتهى السياق من تبيكتهم على بغيهم وكفرهم بما أنزل الله لغير ما سبب، الا أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده، ينبههم الى أن عدائهم لهذا النبى ، أو لهذا القرآن ليس أمرا هينا، بل هو عداً يمتد ويتسع حتى يصل الى جبريل-عليه السلام- فانه هو الذي نزل القرآن على قلب هذا النبى باذن ربه.

فمن عادى هذا النبى أو هذا القرآن، فكأنه عادى جبريل.

ثم ليس هذا غاية الأمر، بل يمتد عداؤه الى الله، فان جبريل ما نزل هذا القرآن من عند نفسه، وانما نزله باذن الله ومن عند الله. فمن كان عدوا لهذا النبى أو لهذا القرآن، فهو فى الحقيقة عدو لجبريل، ثم عدو لله!

ثم هذا النبى وهذا القرآن جاءا مصدقين لما بين يديهما من الكتب الالهية المقدسة، فمن كذب بهذا القرآن، فكأنه كذب بتلك الكتب كلها، ومن كذب هذا النبى فكأنه كذب أولئك الأنبياء كلهم.

وكما أن عداً هذا النبى او عداً هذا القرآن يستلزم عداً جبريل الذى نزل على قلب هذا النبى باذن ربه، فكذلك يستلزم عداً ميكال الذى نزل بتلك الكتب السابقة، التي تبشر بمجئ هذا النبى وهذا القرآن.

ثم الملائكة كلهم أسرة واحدة، كما أن الرسل والأنبياء كلهم أسرة واحدة. فمن كان عدوا لأحد منهم فهو عدو للجميع!

وهكذا تجر عداوة هذا النبى وهذا القرآن الى عداوة الله ورسله وملائكته أجمعين! فذلك قوله تعالى:

﴿قل من كان عدوا لجبريل فانه نزل على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين﴾

سبب نزول الآيتين:

ولقد وردت فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات، منها ما روى عن ابن عباس- رضى الله عنهما- أنه قال:

« أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فان أنبأنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك- فى حديث طويل- ثم قالوا: انما بقيت واحدة، وهى التى نتابعك ان أخبرتنا

بها، انه ليس من نبي الا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال : جبريل-عليه السلام- قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لوقلت: ميكائيل، الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى:

﴿قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن﴾ الى آخر الآية (١)

الاشكال الأول:

وهذه الرواية وأمثالها لا تخلو من اشكال. وموضع الاشكال فيها أننا اذا اعتبرناها تفسيراً لسبب نزول هاتين الآيتين، فأننا لا نجد محملاً صحيحاً للآية الأولى منهما.

وبيانه أن تلك الروايات تقتضى أن تكون الآية على نحو هذه العبارة: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فان الله وملائكته ورسله وميكايل عدو للكافرين﴾ وأما قوله تعالى: ﴿فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه ويهدي للمؤمنين﴾ فأننا لا نكاد نجد له محملاً واضحاً، ولا نكاد نطلع على سر هذه الزيادة.

الاشكال الثانى:

وهناك اشكال آخر غير هذا الاشكال وهو أن جبريل ﴿عليه السلام﴾ ليس من شأنه أن ينزل بالحرب والقتال والعذاب، كما أن ميكايل ﴿عليه السلام﴾ ليس من شأنه أن ينزل بالقطر والنبات، وانما الواقع أن كليهما من ملائكة الوحي.

فأما جبريل فأمره أشهر من أن يذكر.

وأما ميكايل فان هذه الآيات تشير بنظامها الى اختصاصه بالوحي. وسنزيده بيانا فيما بعد. وقد نستأنس هنا بقول ورقة بن نوفل حيث قال:

وجبريل يأتيه وميكايل معهما من الله وحى يشترح الصدر منزل (٢)

وقال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ويجبرئيل وكذبوا ميكا (٣)

هذان البيتان ان دلا على شئ فانما يدلان على أن ميكايل كان معروفا عند الناس بكونه من ملائكة الوحي.

(١) تفسير ابن كثير: ١٣٠/١

(٢) زاد المسير: ١١٧/١

(٣) شرح ديوان جرير للصاوى: ص/ ٤٥٠

ثم نري (العهد الجديد) يذكر فى وصف ميكال أنه رئيس الملائكة. (١) ولا يبعد ان يكون هذا الوصف باعتبار أنه كان ينزل بالوحى على أنبياء بنى اسرائيل، كما أن جبريل معروف عندنا بهذا الوصف باعتبار أنه كان ينزل بالوحى على نبينا-عليه الصلاة والسلام-.

ثم ان القرآن نص على كون جبريل (مكيننا مطاعا) فى سياق أنه هو الذي نزل بهذا القرآن، حيث قال تعالى:

﴿وَإِنَّا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين﴾ (٢)

وبناء على هذا النص يتبادر الى الذهن أن جبريل-عليه السلام- هو رئيس الملائكة وسيدهم. وربنا سبحانه وتعالى اذخره حتى ينزل بالوحى على سيد ولد آدم-عليهما الصلاة والسلام- تشريفا له وتنويها بشأنه ومكانته.

وأرسل ميكال- وهو واحد من وزراء جبريل- الى أنبياء بنى اسرائيل . فزعم بنو اسرائيل أنه (رئيس الملائكة) باعتبار أنه كان ينزل بالوحى الى أنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

روايات تؤكد نزول ميكال بالوحى:

ومما يدل على أن ميكال هو الذي كان ينزل بالوحى على أنبياء بنى اسرائيل ما أخرجه سفيان بن عيينة عن عكرمة قال: (كان عمر يأتى يهود يكلمهم فقالوا: انه ليس من أصحابك أحد أكثر اتيانا الينا منك، فأخبرنا من صاحب صاحبك الذي يأتيه بالوحى؟ فقال: جبريل.

فقالوا: ذاك عدونا من الملائكة، ولو أن صاحبه صاحب صاحبنا لاتبعناه، فقال عمر : من صاحب صاحبكم ؟ قالوا : ميكائيل. (٣)

وأخرج ابن جرير عن السدى قال: « لما كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكان يأتياها، وكان عمره على مدارس اليهود، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم، وانه دخل عليهم ذات يوم فقال لهم: أنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمدا عندكم؟ قالوا: نعم، انا نحمده مكتوبا عندها ولكن صاحبه من الملائكة، الذي يأتيه بالوحى جبريل. وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتال وخسف، ولو كان وليه ميكائيل لآمنابه، فان ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث. » (٤)

(١) انظر يهوذا : ٩

(٢) سورة التكوين: ١٩-٢١

(٣) انظر الدر المنثور: ٢٢٣/١

(٤) تفسير الطبرى: ٤٣٤/١ (باختصار فى العبارة).

وعن أنس قال: «سمع عبدالله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يحترف، فأتى النبى ﷺ فقال: أنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبى ، فما أول أشراف الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه؟ قال: أخبرنى بهن جبريل أنفا. قال: جبريل؟ قال: نعم . قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة.» (١)

فالرواية الأولى واضحة فى أن ميكال هو الذى كان ينزل بالوحى على سيدنا موسى . وكذا الرواية الثانية تشير الى ذلك إشارة واضحة.

وأما الرواية الثالثة فهى تفيد أن نزول جبريل بالوحى لم يكن معهودا عندهم. ولذلك استغرب عبدالله بن سلام لما قال النبى ﷺ «أخبرنى جبريل بهن أنفا» وقال: جبريل؟ وأما نظام الآيات ، فهو أيضا يدل على أن التوراة والانجيل وما عدا هما كان من وحى ميكال ، كما أن القرآن من وحى جبريل «عليهما الصلاة والسلام».

وكما أن عدو القرآن هو عتو جبريل، لأنه هو الذى نزل بالقرآن، فكذلك عدو التوراة والانجيل هو عدو ميكال، لأنه هو الذى نزل بهما.

ثم ان القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل فتلزم من عداوته عداوة التوراة والانجيل، وبالتالي عداوة ميكال، ثم عداوة الله ورسله وملائكته أجمعين.

فهذا النظم، نعى ذكر القرآن من حيث انه مصدق لما بين يديه، ثم ذكر عداوة جبريل بعد ذكر الكفر بالقرآن، ثم قران عداوة ميكال بعداوة جبريل، هذا النظم يدل دلالة واضحة على ما أشرنا اليه. ولله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه.

الاشكال الثالث:

ثم هناك اشكال آخر من ناحية الأسلوب، وهو أن هاتين الآيتين (٩٨، ٩٧) جاءتا على أسلوب واحد، فلا بد أن تفسر الأولى بما تفسر به الأخرى.

فان فسرت الآية الأولى بأنهم كانوا على عداوة سابقة مع جبريل فلا بد أن تفسر الآية الأخرى كذلك بأنهم كانوا على عداوة سابقة مع الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال. وهذا خلاف الواقع، ولم يقل به أحد.

فلا بد أن تفسر الآية الأولى بما تستقيم به الأخرى، وهو أنهم كفروا بالقرآن وصاروا له أعداء، ولم يتفكروا أن هذه العداوة لن تظل عداوة واحدة، بل تجلب عليهم العداوات كلها: عداوة جبريل، وميكال، وعداوة الله ورسله وملائكته أجمعين.

(١) صحيح البخارى: كتاب تفسير القرآن ، باب : ٦ ، ٥ / ١٤٨

وعلى هذا فالروايات التي وردت فى سبب نزول هاتين الآيتين توقفتنا أمام عدة اشكالات. وليس أمامنا بعد ذلك الا أن نقول : ان صحت تلك الروايات فانها لا تفسر لنا السبب الحقيقى لنزول هاتين الآيتين، بل الآيتان نزلتا قبل أن يقول اليهود ما قالوا للمناسبة التى أشرنا إليها. ثم قرأهما النبى ﷺ استشهادا بهما على مصير اليهود. حين قالوا تلك الكلمة الكاذبة الخاطئة. ولم يكن الأمر فى الواقع كما تذكر لنا تلك الروايات، ولكن المكابرة والعزة بالاثم هى التى أنطقتهم بما نطقوا.

فكانت هذه الواقعة أيضا مما تشمله الآية بعمومها، ولم تكن السبب الحقيقى لنزولها وبعد ما ينتهى السياق من انذار هؤلاء اليهود سوء مغبة الكفر بالقرآن، يزيدهم فيلومهم ويعنفهم على ولعهم بنبذ العهد وتعودهم عليه، فان عادتهم هذه أو طبيعتهم هذه هي التى حملتهم على الكفر بالقرآن وتكذيب الرسول كما حملتهم على مثله فيما مضى من تاريخهم القديم: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون. أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم، بل أكثر هم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.﴾

فهم نبذوا القرآن وكذبوا الرسول، مع أنهم كانوا على موعد معهم، وقد بشرت بهما كتبهم ووصت بهما رسلهم، ولم يكن أمرهما خافيا عليهم، بل عرفوها معرفة لا يشوبها شك.

ولكن- مع ذلك- قد كان لتصرفهم هذا نوع من المعقولية، أو كان موقفهم هذا مفهوما الى حد ما، لو أنهم عدلوا عن القرآن والنبى الى ما يعاد لهما أو يقاربهما فى السمو والشرف ان لم يكن يفوقهما، ولكنهم-قاتلهم الله- تبدلوا الخبيث بالطيب، وتبدلوا الهابط بالرفيع.

انهم تبدلوا ما تتلو الشياطين بما أنزل على الرسل والنبیین، وتبدلوا ما أنزل على الملكین فتنة لهم، بما جاءهم مصدقا لما معهم وهدى ويشرى للمؤمنين:

﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكین ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق. ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.﴾

انهم كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما استجيبت دعوتهم، وجاءهم ذلك النبي وذلك القرآن وكان من شأنهما أن يجلبا اليهم النصر ويعيدا اليهم المجد الضائع والكرامة المفقودة ناصبوهما العداء وعدلوا عنهما الى السحر، ظنا منهم أن هذا يغنى غناهما، فقد أوحى اليهم شياطينهم كذبا وافترأ أن ملك سليمان ذلكم الملك الواسع العريض كان كله يعتمد على السحر.

وكذلك اعتقدوا فيما أنزل على هاروت وماروت أنه يساعدهم في الانتصار على من عاداهم، ويساعدهم في إلحاق الضرر به إذا أرادوا، فكاثوا يفرقون به بين المرء وزوجه، مع علمهم بأن الملكين ماجاء إلا فتنة لطفاتهم، المتلاعبين بكتاب ربهم، وكل ما تلقوه منهما سيكون وبالاً عليهم. وبالجملة فهم عملوا عن كتاب الله وعن رسول الله إلى السحر وإلى ما أنزل على الملكين، ولم يتفكروا أن أى واحد منهما لا يغنى غناهما، بالاضافة الى أنهما كفر، وأنهما يجلبان عليهما سخط الله في الدنيا والآخرة.

ويا لها من تجارة بائرة وصفقة حاسرة!

«لبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون»



نظم الآيات (١٠٤-١١٠)

هنا نرى فى السورة أول مرة أن السياق يتوجه بالخطاب المباشر الى الذين آمنوا، بوصفهم أنهم آمنوا، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

يتوجه بالخطاب اليهم بعد ما نبذ بنو اسرائيل هذا القرآن، ولم يتركوا مطمعا لطامع فى ايمانهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا، وَقُولُوا انظُرْنَا واسمعوا وللكافرن عذاب أليم. ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم. والله يختص برحمته من يشاء. والله ذو الفضل العظيم. ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير. ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير. أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل. ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره، إن الله على كل شئ قدير. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله. إن الله بما تعملون بصير.﴾

يكشف التأمل فى هذه الآيات أن بني اسرائيل لم يقتصروا على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم، بل تجاوزوا ذلك الى بليلة أفكار المسلمين، وزعزعة ثقتهم بالرسالة الجديدة. انهم بدأوا يغزون المسلمين فى معتقداتهم حتى يردوهم من بعد ايمانهم كفارا حسدا من عند أنفسهم.

وقد ساعدهم على ذلك أن القرآن قد نسخ كثيرا من مقولاتهم الغريبة الشاذة، التى كانوا مستمسكين بها، وعاملين على اشاعتها فى الناس، وكأنها من عند الله، وما هى من عند الله.

وكان من تلك المقولات مثلا أنهم اشتغلوا بالسحر- كما مر معنا فى الفقرة السابقة - وزيئوه للناس بأن نبي الله سليمان كان يشتغل بالسحر. وملكه العظيم الذي لم يؤت أحد مثله، كان كله يعتمد على السحر.

فجاء القرآن ونسخ هذه الافتراءات الباطلة ونص على أن السحر كفر، وأن نبي الله سليمان كان بريئا من هذا الكفر.

وكذلك شغلوا أنفسهم بما أنزل على الملكين بيهابيل هاروت وماروت، مع علمهم بأنهما ماجاءا بما جاء به الا فتنة لهم. وأن ما جاء به كفر، ولكنهم اشتغلوا به محتجين بأنه علم أنزل على الملكين، وأنه من عند الله ، وهكذا.

فنسخ القرآن هذه الأقوال وأمثالها، بالاضافة الى مانسخ من الشرائع السابقة، التى كانت بحاجة الى تعديل حسب الظروف والملابسات المتجددة، وستأتى بعض النماذج لهذا النسخ فى محلها فى نفس السورة.

فاستغل أعداء الله هذه الفرصة، ونفثوا فى روع الضعفاء أن هذا الرجل ان كان نبيا فلماذا ينسخ الشرائع السابقة؟ ولماذا يخالف ملة الأنبياء الآخرين؟

وكانت هذه الحملة الماكرة الخبيثة ناجحة فى بعض قلوب المسلمين، فهم وجهوا هذه الأسئلة المريبة الى الرسول، وكأنهم قد خالجهم الشك فيما جاء به ﷺ.

فجاءت تلك الآيات تعالج هذا الوضع، وتبين للناس حقيقة هذه الحملة المسعورة الماكرة، مع التنبيه الى ما يليق بهم فى مثل هذا الوضع من السمع والطاعة والاذعان للرسول. وقد كان هذا التنبيه أول ما بدأت به هذه الآيات. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تأويل (راعنا) كما وردت به الروايات:

لقد اختلف الناس فى تأويل هذه الآية وذهبوا مذاهب شتى. (١)

ولا نريد أن نقف عندها طويلا، فقد كفانا الامام ابن جرير مثونة الكلام عليها، ووضعها فى نصابها بعد ما أفاض فيها القول من شتى نواحيها

وانما نريد هنا أن نضيف الى ما قاله كلمة واحدة، وهى: أن هذه التأويلات كلها لاتتلاءم مع سياق الآيات، بل هى تصرفها عن وجهها وتقطعها عما بين يديها وما خلفها.

وهذا السبب وحده يكفى للحكم عليها، بغض النظر عن الموانع الأخر، التى نبه اليها رحمه الله.

واذ كانت هذه التأويلات لا ترضيه فهو يعدل عنها، ويذكر لنا تأويلا آخر يترجح عنده فيقول:

«والصواب من القول فى نهى الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا لنبية: راعنا أن يقال انها كلمة

كرهها الله لهم أن يقولوها لنبية ﷺ نظير الذى ذكر عن النبى ﷺ أنه قال: (لا تقولوا للعنب الكرم،

ولكن قولوا الحبللة ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى) وما أشبه ذلك من الكلمتين اللتين تكونان

مستعملتين بمعنى واحد فى كلام العرب، فتأتى الكراهة أو النهى باستعمال احدهما واختيار الأخرى

عليها فى المخاطبات.» (٢)

(١) انظر مثلا تفسير الطبرى: ٤٦٩/١-٤٧٠ وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص/٦٠

(٢) تفسير الطبرى: ٤٧١/١

هذا ما يراه ابن جرير فى تأويل الآية. والجدير بالذكر أن تأويله هذا لا يختلف كثيرا عن التأويلات الأخرى، التى عدل عنها، فانه أيضا-كغيره من الأقوال- لا يتلاءم مع السياق، ولا يستقيم معه النظام.

بالإضافة الى أنه لا يستند الى دليل، ولا يزيد على أن يكون قياسا ليس له أساس.

وهنا يثور سؤال: فما هو التأويل الصحيح اذا؟

ان تأويل الآية واضح وميسر باذن الله، ولكن قبل أن نخوض فى تأويل الآية نريد أن نعرف معنى قوله تعالى: (لا تقولوا راعنا)، فان الخطأ فى تفسير (راعنا) هو الذى يوقعنا فى حيرة، ويحجب عنا تأويل الآية.

تحقيق القول فى معنى (راعنا) و (وانظرنا):

ان طلب المراجعة يتضمن فيما يتضمن معنى التبرم والاستئثار وعدم الثقة وسوء الظن. فاذا قال التلميذ لأستاذه-مثلا- أو الجندي لأمره: (راعنا) فمعنى ذلك أنه متضجر من معاملته، مستثقل لتصرفاته، غير واثق من حبه ورعايته، فهو يسأله الرعاية ويطلبه بها.

هذه هى طبيعة هذه الكلمة كما نستوحى من مواقع استعمالها فى كلام العرب.

ولا بأس بأن نزيد فنقول: ان هذه الكلمة قد تقارب فى طبيعتها كلمة (العصيان) أو تحمل فى طيها رائحة العصيان. ولذلك نراها قد قرنت به فى قوله تعالى:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَانُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيَا بَالِغُسْتَنَّهُمْ طِعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)

فهم كانوا يلوون ألسنتهم بـ(عصينا) حتى يوهموا السامعين أنهم يقولون (أطعنا) وكانوا يقولون (راعنا) وبذلك كانوا يطعنون فى الدين، ويظهرون أنه أصبح عبثا ثقيلا عليهم، بحيث أنهم لا يكادون ينهضون بتكاليفه.

وكما أن كلمة (راعنا) نسيب العصيان، فكذلك كلمة (انظرنا) نسيب الشوق والمودة وكمال الخضوع وقام الثقة وطلب المزيد، فتلك المعانى كلها داخلة فى كلمة (انظرنا) كما نستوحىها من مواقع استعمالها. وتلك المعانى تكرر استعمالها فى القرآن. قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا نَظُرْنَا فَقَبِضْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(٢)

(١) سورة النساء : ٤٦

(٢) سورة الحديد: ١٣

لقد فسرت كلمة (انظرونا) بمعنى (انتظرونا) وهذا التفسير قد يصح على وجه التقريب، والا فمعنى (انظرونا) أوسع وأدق من معنى (انتظرونا).

اللهم الا أن يقال: ان الانتظار أيضا يوحي بمعنى الثقة المتبادلة بين الطرفين فإن الشخص لا ينتظر الا من يحب، ولا يطلب من غيره أن ينتظره الا اذا كان هو يحبه.

فيكون معنى الآية اذا أردنا التعبير الشامل عن ايجاباتها- انتظرونا، ارحمونا، تكرموا علينا، ساعدونا، دعونا نقتبس من نوركم.

وعلى هذا فلا يصح القول بأن كلمة (راعنا) مرادفة لكلمة (انظرونا)، بل الصحيح أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الضدين ولا تقارب بينهما.

تأويل الآية كما يليه علينا السياق:

والآن نعود الى تأويل الآية فنقول:

بعد ما انتهى السياق من تاريخ بني اسرائيل-التاريخ الذى يعج بالمخالفات والانحرافات والاباء والتمرد والعصيان- جاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من أن يقفوا من نبيهم موقف بني اسرائيل من أنبيائهم، حيث انهم درجوا على قولهم: (سمعنا وعصينا). واستثقلوا دائما ما جاءت به رسلهم من عند الله، وقد مر معنا فى الفقرة السالفة قولهم المرذول هذا، حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنْشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

فجاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من هذا الموقف السيئ، وترغبهم فى السمع والطاعة والاذعان للرسول، بل واظهار الشوق والتلهف والاستزادة بما جاء به الرسول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ونبه المسلمون فى نفس الوقت الى موضع الخطر، وأمروا أن يكونوا دائما على حذر من هؤلاء الكفار، فانهم ما يرضيهم أن يسعد المسلمون بهذا الخير، الذى نزل اليهم من ربهم فى صورة القرآن، فهم يسعون سعيهم ليشككوه فيه ويصرفوه عنه.

وكان الذى أمدهم فى هذا الغزو الفكرى الرهيب، هو أن القرآن قد نسخ كثيرا مما كانوا عليه. فاستغله هؤلاء الأعداء لبليلة أفكار المسلمين وزعزعة ثقتهم بالنبي وبالقرآن.

فحسم القرآن جذور هذه الفتنة، وطمن المسلمين أن هذا النسخ ليس شيئا مربيا، كما يصوره الأعداء المفرضون. وانما هو سلم الى الخير الذى أراده الله لهم.

ومزج النص هذا الخطاب بشئ من العتاب، ويزجر المسلمين عن الاستجابة لكل ناعق، وعن ازعاج الرسول بأسئلة لا تتناسب الا مع طبيعة الطفافة من اليهود، الذين آذوا موسى بجماحهم وعصيانهم

وكثرة سؤالهم.

ثم يعهد الى المسلمين أن يكونوا على حذر من أهل الكتاب، لأنهم لا يثيرون ما يثيرون في صدورهم من مثل هذه الأسئلة، ولا يزرعون ما يزرعون في نفوسهم من هذه الشكوك والشبهات مودة ونصيحة لهم. وإنما هم يحسدونهم ويريدون أن يعودوا بهم الى الكفر من بعد إيمانهم .

ولتلك المناسبة توجه الوصية الى المسلمين باقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فإنهما هما الحصان المنيعان أو الدرعان الواقيان من وساوس كل وسواس، سواء كان من الجنة أو كان من الناس.

سبب نزول: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية :

وقبل أن نتقل من هذه الآيات الى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند ماورد في سبب نزولها. فانه يختلف اختلافا كبيرا عما فسرنا به تلك الآيات.

فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ السوحى بالليل وينسأه بالنهار، فأنزل الله عز وجل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (١)

هذا ماورد في سبب نزول هذه الآية وفي تأويلها، وكفيينا لعدم حجيته أن الأئمة الثقات لم يلتزموا به فهذا الامام ابن الجوزي-رحمه الله - يعدل في تفسيره عن هذه الرواية وأمثالها ويذكر لنزول تلك الآية سببا آخر، فيقول:

«سبب نزولها أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: ان محمدا يحل لأصحابه اذا شاء، ويحرم عليهم اذا شاء فتزلت هذه الآية.» (٢)

ويشبه ذلك ما قاله الامام القرطبي والامام الزمخشري والامام الرازي-رحمهم الله- في تأويل تلك الآية. (٣)

وكذلك الوضع عند الامام ابن جرير فانه وان كان قد ذكر هذه الروايات كلها في تفسيره، الا أنه لم يلتزم بها في تأويل الآية، يقول رحمه الله :

وهذا الخبر وان كان من الله عز وجل خطابا لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فانه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ، وأنكروا

(١) تفسير ابن كثير: ١٥٠/١

(٢) زاد المسير: ١٢٧/١

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٦١/٢ والكشاف: ٣٠٣/١، والتفسير الكبير: ٢٢٦/٣

محمدًا ﷺ لمجئتهما بما جاء به من عند الله، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له، والطاعة لأمره ونهييه، وإن له أمرهم بما شاء، ونهيهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وأقرار ما شاء، وإن شاء ما شاء من أحكامه وأمره ونهييه. (١)

فيرى الامام ابن جرير هذه الآية لاتعرض لموضوع النسخ فى القرآن، وإنما هى تتصل بموضوع نسخ القرآن لما قبله من الشرائع.

ولا شك أن هذا القول أحسن ما قيل فى تأويل الآية، لأنه هو الذي يتفق مع جو الآية وسياقها. وقول الامام ابن الجوزي والامام القرطبي أيضا لا يختلف عن هذا القول اختلافا كبيرا، بل لعلهما يتجهان فى اتجاه واحد، وإنما الفرق بينهما فى العموم والخصوص، فإن نسخ القبله وتحويلها الى الكعبة أيضا كان فى أصله نسخا لشريعة سابقة، قد اتخذها النبي ﷺ قمشيا مع أهل الكتاب، فانه -عليه السلام- ما كان يختلف مع أهل الكتاب الا فى شئ يرد به الوحي. (٢)

وعلى هذا فانه عليه السلام اتخذ بيت المقدس قبله له ومع ذلك كان يقلب وجهه فى السماء انتظارا لحكم جديد.

جماع القول فى تأويل الآية:

وعلى أية حال فنحن نجيل فى تأويل الآية الى ما مال اليه ابن جرير ونفصله فيما يلى بعض التفصيل فنقول:

ان الشرائع السابقة كانت تنقسم الى قسمين: فقسم منها كانت باقية معروفة عند الناس، وقسم منها قد نسيت كما نص عليه القرآن حيث قال:

«فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم قاعف عنهم واصفح، ان الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به، فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون». (٣)

ثم هذا القسم الثانى كان ينقسم الى قسمين: فقسم منه كان سارى المفعول، وكان يصلح لأن يبقى فى شريعة الاسلام، وقسم منه قد انتهى وقته، وفقد صلاحتيه لهذا الزمان.

فالذى كان صالحا للبقاء أحياء الاسلام وأبقاه، والذي كان قد نسي، وقد انتهى وقته، تركه الاسلام كما كان فى عالم النسيان. وقد أشار اليه القرآن حيث قال :

(١) تفسير الطبري : ٤٨٣-٤٨٢/١

(٢) انظر: الدر المنثور/٣٤٦، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٣٦٠/١ والدر المنثور:

٣٤٤-٣٤٣/١

(٣) سورة المائدة : ١٣-١٤

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين.﴾ (١)

وأما القسم الأول، الذى كان باقيا معروفا عند الناس، فهو أيضا كان ينقسم الى قسمين: فقسم منه كان يصلح لأنه يبقى فى شريعة الاسلام فابقاه القرآن، وقسم منه قد انتهت صلاحيته، ولم يكن يناسب العصر المعاصر لنزوله، أو كان مما قد ابتدعه الناس، فنسخه القرآن وجاء بخير منه. فالذى نسخه القرآن من تلك الشرائع جاء بخير منه، والذى أحياه وقد نسى جاء به أو بمثله. فذلك قوله تعالى :

﴿ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾

قوله تعالى: أم تريدون أن تسألوا رسولكم . . . الآية:

وكما رأينا الوضع فى سبب نزول تلك الآية، نراه فى سبب نزول قوله تعالى:

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالايमान فقد ضل سواء السبيل.﴾

فقد وردت فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات (٢) مختلفة.

وهى ان دلت على شئ فانما تدل على أنه ليس هناك شئ ثابت ومحدد فى سبب نزول تلك الآية، اذا فالأمر فيه سعة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان تلك الروايات توقفنا أمام عدة اشكالات، وهى كما يلى:

○ ان الخطاب فى هذه الآية موجه الى الذين آمنوا، والروايات تصرفه عن المؤمنين الى الكفار.

○ هذه الآية مدنية وليست مكية حتى نربطها بمطالبة قريش أو مطالبة العرب.

○ ان كفارات بنى اسرائيل لم تكن الا عقوبة لهم لقاء بغيتهم وتعنتهم، وما كان لأحد من المؤمنين أن يتمنى لنفسه تلك العقوبة.

○ هذه الروايات لا تتفق مع سياق الآية. وهى تجعل الآية غريبة بين جاراتها.

ثم أسناد هذه الروايات ليست بتلك القوة، حتى نقلها على ما فيها من علل واشكالات.

اذا فليس لنا أن نعتبر تلك الروايات تفسيراً حقيقياً لسبب نزول تلك الآية.

(١) سورة المائدة : ١٥

(١) انظر مثلاً لباب النقل: ص ٢٥ وتفسير الطبرى: ٤٨٤/١

اللهم الا أن يقال: ان الآية بعموم ألفاظها - وعموم ألفاظها فقط - تشمل جميع هذه الحالات، كما تشمل حالات أخرى لم ترد بها الرواية. وهذا مما لا بأس به والا فالسبب الحقيقي لنزول الآية كما يظهر بعد التأمل في سياقها - هو الذي سبق أن أشرنا اليه، وهو أن بعض ضعفاء المسلمين قد انخدعوا بطعن أهل الكتاب في أمر النسخ وطفقوا يسألون الرسول عنه، كما سأل اليهود نبيهم موسى عن لون البقرة وسنها ونوعيتها مثلاً، وقد مر ذلك قريباً في هذه السورة.

ولم يكن الدافع الى هذا السؤال، الحرص على الاستفادة أو طلب القناعة. وانما كان الدافع اليه قلة الثقة بالرسول والشك والريبة فيما جاء به الرسول. وعلى هذا كان هذا السؤال أقرب الى الكفر منه الى الايمان، فجاء التحذير:

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ. وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.﴾



نظم الآيات (١١١-١٢١)

وبعد ما ينتهى السياق من تحذير المسلمين من وساوس أهل الكتاب، وتشكيكاتهم فى أمر النسخ، يزيد فينبههم إلى خطورة الموقف، وينبههم إلى خطة مشؤمة دبرها لهم أهل الكتاب لاغوائهم عن دينهم، وهي تواضعهم ضدهم على كلمة ما كادوا يتواضعون عليها لولا بغضهم الشديد للقرآن وحملة القرآن.

فبغضهم الشديد للقرآن قد أنساهم أحقادهم التى نشأوا عليها، وجمعهم على موقف واحد، حتى تمكنهم مقاومة هذا الخطر، الذى يهدد كيانههم ويكاد يهدم دينهم، فجاءت هذه الآيات:

﴿وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى. تلك أمانيتهم. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب. كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، قاله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، ان الله واسع عليم. وقالوا اتخذ الله ولدا، سبحانه، بل له ما فى السموات والأرض، كل له قانتون. بديع السموات والأرض، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أوتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون. انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل ان هدى الله هو الهدى. ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذى جاءك من العلم، ما لك من الله من ولى ولا نصير. الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون.﴾

تأويل الآية: وقالوا لن يدخل الجنة .. الخ

يقول الامام ابن جرير وهو يفسر الآية الأولى من هذه الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى﴾ الآية:

«فان قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود

تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟ قيل :
ان معنى ذلك بخلاف الذي ذهب اليه، وانما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة ألا من كان هودا،
وقالت النصارى: لن يدخل الجنة الا النصارى. ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به ،
معناه جمع الفريقان فى الخبر عنهما. (١)

هذا ما قاله ابن جرير فى تأويل الآية.

وهناك عدد من المفسرين رحمهم الله - قد ذهبوا الى مثل ما ذهب اليه.

والذي يوحى ألينا سياق الآيات هو أن الموقف قد جمع اليهود والنصارى فى موقف واحد، فقد
قيل قديما : عند الشدائد تذهب الأحقاد.

فهم كانوا يضجون فى وجه القرآن وما جاء به من النسخ ضجيج رجل واحد. وكانوا يهتفون بأن
هناك طريقين الى الجنة لا غير، وهما اليهودية أو النصرانية.

وأما الدين الجديد الذى يعرضه القرآن وهو دين الاسلام ، ففيه الخسران كل الخسران.

فقولهم : لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى كان مفهومه بدليل المخالفة أنه لن يدخل
الجنة من دخل فى دين الاسلام، فجاء الرد على دعواهم هذه:

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.﴾

ثم أشير الى طبيعتهم اللجوج اللدود على مدى تاريخهم الطويل المديد:

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم
يتلون الكتاب. كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه
يختلفون.﴾

فقد كان هؤلاء اليهود والنصارى حزينين متناحرين على مدى تاريخهم ، يتبادلون التهم،
ويتقاذفون بالشتم، بل وقد حصلت بينهم معارك دامية كادت تطحنهم وتبيدهم.

ثم لما ظهر هذا النبى اجتمعوا كلهم على عداوته وأصبحوا حربا عليه وعلى أتباعه، فهم يرمونهم
اليوم عن قوس واحدة، ويقولون لهم ما قال بعضهم لبعضهم بالأمس.

وليس هذا كله بسبب أن القرآن قد نسخ ما نسخ من شريعتهم، كما يزعمون. كلا فقد سبق
أنهم جميعا كانوا يتلون التوراة، ولم يكن هناك أى نسخ أو تبديل، ومع هذا كانوا فى حرب
مستمرة وصراع دائم.

(١) تفسير الطبرى: ٤٩١/١

فلو كان الاختلاف فى الكتاب أو الاختلاف فى الشريعة هو السبب فى خلافهم هذا لم يوجد هذا الخلاف فيما بينهم ليوم واحد، فكيف وتاريخهم كله عبارة عن حروب وصراعات! ومن ناحية أخرى فإنهم تبادلوا فيما بينهم التهم مع أنهم كانوا أولى الناس بحسن الألفة فيما بينهم ، لأنهم كان يجمعهم كتاب واحد، وكلهم كانوا يتلون التوراة. ثم جاء هذا الكتاب مصدقا لما معهم، فكان حقا عليهم كذلك أن يفتحوا له صدورهم وينضموا الى أهله وأتباعه من المسلمين، ولكنهم عاملوهم اليوم كما عامل بعضهم بعضا بالأمس. فهم تواطأوا جميعا على عداوتهم وصاروا حربا عليهم.

ولعل المراد بـ «الذين لا يعلمون» هنا هم اليهود والنصارى المعاصرون لنزول القرآن، وقد كان فى السلف من يرى ذلك، كما ذكره الامام الشوكانى «رحمه الله» حيث قال: « وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم. » (١) فاليهود والنصارى ذكروا أولا باسمهم، ثم ذكروا ثانيا بوصفهم. وكما أن هذا الاسم يشمل الجميع، فكذلك هذا الوصف يشمل الجميع.

وهل يشك فى أن الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها كانوا من الذين لا يعلمون؟ وهل هو بحاجة الى دليل بعد ما شبههم القرآن بالحمار يحمل أسفارا؟ حيث قال:

«مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا.» (٢) فالملذكورون بهذا الوصف هم اليهود المعاصرون لنزول القرآن، كما أن المذكورين بالاسم هم أسلافهم وكان من بلاغة القرآن، التي تهتز لها الحاسة البيانية، أنه ذكر الأولين بالاسم وذكر المعاصرين بالوصف حتى يستحيوا من موقفهم هذا، ان كان فيهم رمق من حياة، أو ذرة من حياة.

وبعد ما ينتهى النص من هذه الإشارة العابرة الى طبيعتهم اللجوج اللدود، و الى تاريخهم الخافل بالعداوات والصراعات، يمضي فى بيان مواقفهم العدائية الراهنة ضد المسلمين، الذين آمنوا بهذا القرآن:

«ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين. لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.»

تأويل الآية:

لقد ذكر الامام الرازى فى تأويل الآية أربعة وجوه. وهى الوجوه التى ذكرها، أو ذكر بعضها أغلبية المفسرين-رحمهم الله - ثم قال:

(١) فتح القدير: ١٣٠/١

(٢) سورة الجمعة: ٥

«وعندى فيه وجه خامس، وهو أقرب الى رعاية النظم، وهو أن يقال انه لما حولت القبلة الى الكعبة، شق ذلك على اليهود، فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجيههم الى الكعبة، ولعلمهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة، بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضا في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلوا فيه متوجهين الى القبلة. فعابهم الله بذلك، وبين سوء طريقته فيهم» (١)

هذا التأويل، الذي ذهب اليه الإمام الرازي تأويل وجيه ولاشك. ولعله أرجح من غيره مما ذهب اليه الناس.

ولكننا نزيد فنقول:

لا داعى هناك لربط هذه الآية بمسألة تحويل القبلة، فان القبلة ما حولت بعد. ثم صد المسلمين عن التوجه الى الكعبة شئ، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، شئ آخر.

والذي يترجح عندنا هو أن المسلمين قد منعوا من الصلاة في المسجد الحرام قبل تحويل القبلة، بل قد منعوا منه، وهم في أحضان مكة، ولم يهاجروا بعد الى المدينة.

والذين كانوا وراء هذا الظلم، هم اليهود والنصارى بصفة خاصة، فان كفار قريش- وفيهم ما فيهم لم يكونوا يعرفون هذا النوع من الظلم، كما ورد في الأثر:

«ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصد» (٢)

ولكن اليهود والنصارى-قاتلهم الله-حرضوا المشركين على هذا العدوان، وأجأوهم الى أن يصدوا المسلمين عن المسجد الحرام.

واذ تم هذا الظلم وهذا المنع بتحريضهم وتحريضهم، وكان لهم النصيب الأوفى في هذا الاثم، فهم الذين ألبسوا هذا الظلم، وحملوا هذا الاثم، وسجل هذا في سجل أعمالهم، حتى لا يفوتهم عارهم وجزاؤهم!

وهذا كما يفهم من نظم هذه الآيات، فكذلك يفهم من نظم الآيات التي وردت في سورة الحج. فقد جاءت في سورة الحج هذه الآية:

«ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة. ان الله على كل شئ شهيد» (٣)

(١) التفسير الكبير: ٩/٤-١٠

(٢) تفسير ابن كثير: ١٥٦/١

(٣) سورة الحج: ١٧

وبعدها بقليل جاءت تلك الآية:

﴿ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.﴾ (١)
وسنفصل هذا الموضوع ونزيده بيانا فى الفقرة التالية، حين نتناول الآيات التى وردت فى شأن بيت الله الحرام.

وبعد ذكر هذا الظلم الصارخ بجحى العزاء والسلى للمسلمين الذين منعوا من المسجد الحرام:
﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله. ان الله واسع عليم.﴾

تأويل الآية: ولله المشرق والمغرب .. الخ:

لقد اختلف الناس فى تأويل هذه الآية على عشرة أوجه أو أكثر. ولعل أقربها للسياق هو ما قاله الامام الزمخشري رحمه الله حيث قال:

«ولله المشرق والمغرب: أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله، هو مالها ومتوليها، «فأينما تولوا» ففى أى مكان فعلتم التولية يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى:- «قول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره»- «فثم وجه الله» أى جهته التى أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم اذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام وفى بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجدا فصلوا فى أى بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فان التولية ممكنة فى كل مكان، لا يختص امكانها فى مسجد دون مسجد ولا فى مكان دون مكان «ان الله واسع» الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم «عليهم» بمصالحهم.» (٢)

ونحن - كما قلنا- نميل الى هذا التأويل ونرجحه على غيره ثم نزيد فنقول:

منشأ الوهم:

لعل منشأ الوهم فى تأويل الآية هو قوله تعالى: «فأينما تولوا» فقد وهم فى تأويله عامة المفسرين رحمه الله فان (التولية) اذا كان لازما غير متعد الى مفعول، فانه لا يأتي بمعنى: توجيه الوجه الى جهة، كما ذهبوا اليه، وانما هو يأتي بمعنى اللجوء والذهاب والانطلاق وما شابه ذلك.

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض استعمالا ته فى القرآن، حتى يتضح الأمر، قال تعالى:

﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمعون.﴾ (٣)

(١) سورة الحج: ٢٥.

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل : ٣٠٦/١-٣٠٧.

(٣) سورة التوبة: ٥٧.

«إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا»^(١)

«فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين»^(٢)

«فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب»^(٣)

فنرى هذه المادة فى تلك الآيات، ماجأت الا على احدى تلك المعانى، التى أشرنا اليها.
بالإضافة الى أن كلمة (أيضا) لا تفيد معنى الجهة، كما ذهب اليه الامام الشوكانى
وغيره من المفسرين.^(٤)

قال سيويه: لا يكون (اين) إلا للأماكن.^(٥)

ولقد كان الزمخشري متنبها لهذه الناحية فقال في تفسير الآية:

«ففى أى مكان فعلتم التولية، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة.»^(٦)

فأصاب رحمه الله فى مراعاة كلمة (أيضا) ولكنه وهم كغيره فى تفسير لفظة (تولوا).
وكان هذا الوهم نابعا من وهم آخر وهو أنهم ظنوا-خطأ- أن الحديث هنا دائر حول القبلة، مع أن
هذه الآية لا علاقة لها بموضوع القبلة.

وانما موضوع الحديث هنا أن المسلمين منعوا من المسجد الحرام فاغتموا لذلك، فتقدم
الوحي اليهم بهذا العزاء.

وبيانه أنكم ان منعتم من المسجد الحرام فلا تبتئسوا، فان الكون كله لله. وهو ليس متحيزا فى
مكان دون مكان، فتحسبوا أنكم انقطعتم من الله بانقطاعكم من المسجد الحرام، بل هو معكم أينما
كنتم. «أيضا تولوا» أى أينما تذهبوا والى أى مكان تقبلوا «فتم وجه الله» أى: الله سبحانه وتعالى
حاضر وموجود هناك.

ويتوارد الى خاطر أن هذه الآية هى مأخذ قول النبي ﷺ:

(وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا...) ^(٧)

وبعد ما ينتهى السياق من ذكر هذا الموقف العدائي لليهود والنصارى ضد المسلمين، يتبعه
موقفا آخر مثله:

(١) سورة الاسراء: ٤٦

(٢) سورة الأحقاف: ٢٩

(٣) سورة النمل: ١٠

(٤) فتح القدير: ١٣١/١

(٥) الكتاب: ٢١٩ / ١. تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون.

(٦) الكشف: ٣٠٧/١

(٧) صحيح مسلم: كتاب المساجد و مواضع الصلاة، رقم الحديث (٥٢٢) ٣٧١/١.

﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون . بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ﴾

هذا موقف آخر من مواقف اليهود والنصارى ضد القرآن ونبي القرآن . فأنهم لما سمعوا القرآن يعرض دعوة الاسلام ، وهى دعوة التوحيد الخالص النقى ، عارضوه بدعوى الشرك البشع القبيح . وهذا الشرك وان كان موجودا فيهم منذ قديم ولكنهم لما رأوا الاسلام ينسخ دينهم ويهدد كيانهم أعلنوا ورفعوا أصواتهم بتلك الاعتقادات الباطلة .

وهذه العملية كما أنها أثارت الشبهة حول الاسلام وحول القرآن فكذلك ساعدتهم فى كسب ثقة المشركين ومودتهم . وبذلك استطاعوا أن يهولوا أمامهم أمر المسلمين واستطاعوا أن يصدوهم عن المسجد الحرام ، بل استطاعوا أن يفرضوا عليهم قانون حظر الدخول والتجول فى حدود مكة . ثم هم أمدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى حول الرسالة الجديدة :

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أوتينا آية ﴾

ولقد سبق أن قلنا فى الآية (١١٣) أن المراد بالذين لا يعلمون هم أهل الكتاب المعاصرون لعهد نزول القرآن . وأشرنا هناك الى سبب اختيار هذا اللقب لهم . وهنا نريد أن ننبه الى دليل آخر من السياق يدعم هذا القول ، وهو قوله تعالى بعد هذا القول :

﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ﴾

فالمراد بـ « الذين من قبلهم » - كما هو المتبادر الى الذهن - هم أسلافهم من اليهود والنصارى - قاتلهم الله - ولقد ذكر ذلك - فيما ذكر - الامام القرطبي والامام الشوكانى - رحمهما الله - ^(١)

وبعد ما ينتهى السياق من تفنيد هاتين الشبهتين ، يلتفت الى النبى ﷺ يعظه أن يلزم حد الاعتدال فى التبليغ ، ولا يحملنه الحرص على هدايتهم الى أن يرضى معهم بأنصاف الحلول ، فان مهمته هى التبشير والانذار فقط ، وهو ليس مسئولاً عنهم ان صار هؤلاء حطب الجحيم .
بالإضافة الى أن هذه المحاولة لا تجدى معهم ، فأنهم لم يكونوا منفيين عن ملتهم - وهى خليط من أهوائهم ، ولا صلة لها بالعلم ، ولا صلة لها بهدى ربهم .

أنهم ليسوا منفيين عن ملتهم الى هدى ربهم . وإنما همهم أن يتنازل هو! عن هدى الله الى ملتهم :
﴿ انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا . ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير. ﴾

ثم يذكر بازاء هذا الموقف السيئ المظلم ، الذى وقفه اليهود والنصارى من كتاب ربهم ، ذلكم الموقف المشرق الجميل ، الذى وقفه منه أمة من علماء أهل الكتاب حيث أنهم استقبلوه بحنين القلب ورحابة الصدر ، فهم يؤمنون به ويتلونونه حق تلاوته :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به . و من يكفر به فاولئك

هم الخاسرون. ﴾

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٩٢/٢ ، وفتح القدير: ١٣٤/١

نظم الآيتين (١٢٢-١٢٣)

بعد هذا الحديث الطويل المستفيض مع بني اسرائيل وعن بني اسرائيل- هذا الحديث الذي بدأ من الآية (٤٠) واستمر الى هنا، تتكرر هاتان الآيتان:

«يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأنى فضلتكم على العلمين. واتقوا، يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون.»

سرتكرار الآيتين:

وهنا يثور سؤال: ماهو السر فى تكرار هاتين الآيتين؟ أوما هى الفائدة التى أراد أن يكسبها السياق من تكرار هاتين الآيتين؟ فنقول وبالله التوفيق:

ان هاتين الآيتين لارتبطان بما يجاورهما من الآيات ارتباط الجار بالجار، بل هما أعم من ذلك وأشمل. فهما ترتبطان بكل ماسبقهما من الآيات وما يأتى بعدهما، وسواء كانت تلك الآيات التى تتحدث مع بنى اسرائيل، أو التى تتحدث عنهم، فكلها داخلة فى متناولهما.

وبعبارة أخرى فان هاتين الآيتين تحلان ما قبلهما من الآيات وما بعدهما محل واسطة العقد، فلهما بريق خاص ولهما تأثير كبير فى تحديد طبيعة هذه الآيات أو المجموعة من الآيات.

وبيانه أن الآيات التى سبقتهما تحمل - فى أغلبها - طابع الغلظة والشدة، وتنضج بسخونة اللوم والتعنيف، مع أن الكلام قد بدأ معهم بأسلوب كله عطف ومودة ورقة وحنان:

«يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون» (١)

«يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العلمين.» (٢)

ولكن ذلك الأسلوب الحلو اللطيف أخذ يشتد شيئا فشيئا، حتى صار الأمر كما قال الأستاذ سيد قطب:

« ان الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول- فى بعض المواضع- الى صواعق وحمم. » (٣)

فتكررت هاتان الآيتان فى هذا الجو حتى تلقيا على هذا العنف وهذه الشدة ثوبا فضفاضاً من العطف والمودة، وحتى تقذفا فى روع المخاطبين أن هذه الضربات الشديدة العنيفة، وان كانت فى ظاهرها قاسية مؤلمة، ولكن ليس وراءها إلا النصح والارشاد واردة الخير. فلاتأخذنهم العزة بالاثم،

(١) سورة البقرة: ٤٠

(٢) سورة البقرة: ٤٧

(٣) فى ظلال القرآن: ٨٩/١

ولا يجعلن فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، وليثوبوا الى رشدهم قبل أن تفوتهم الفرصة.

ثم ان هاتين الآيتين كما أنهما تمسحان على الوحشة التى دخلت القلوب بخصوص ما أسلف من القول، فكذلك تهيئان النفوس لسماع ماسياتى بعدهما، ولا شك أن ماجاء بعدهما كان أدهى وأمر، وكان أثقل على النفوس، وكان بحاجة ماسة الى أن تمهد له الأرض، ويهيأ له الجو، فان تلك الآيات تقطع صلتهم بتاريخهم المجيد الذى كانوا يفتخرون به ، ويعتزون بالانتماء اليه، اللهم الا أن يفيقوا من غفلتهم ويثوبوا الى رشدهم .

بخلاف الآيات التى سبقتهما، فانها لاتزيد على أن تلومهم على سوء تصرفاتهم وتعنفهم على قبيح مواقفهم، وتنذرهم وخامة العقابة التى تنتظرهم. وسيأتى له بعض التفصيل فيما بعد باذن الله. ثم هناك نكتة أخرى فى تكرير هاتين الآيتين، وقد كررتا بعد ذكر مواقفهم المنكرة القبيحة من ربهم ومن كتاب ربهم ومن موثيق ربهم.

وهى أن هذا التكرار على هذا الأسلوب-أسلوب العود على البدء- يدل على دانهم الذى كانوا يعانون منه، والذى كان يحملهم على المواقف المنكرة، التى وقفوها من ربهم ومن كتاب ربهم. ألاوهو الغفلة عن ذكر الله، والكفران بنعم الله.

ولعل هذا هو السر فى أن هذه الأمة المسلمة الناشئة لما استخلفت فى الأرض بعدهم زودت بنفس الوصية:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾. (١)

فهذه الوصية- مع اختلاف لفظها- لا تختلف فى روحها ومعناها عن الوصية التى زود بها بنو اسرائيل، وذكروا بها مرة بعد مرة:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

و بعد هاتين الآيتين اللتين وردتا كالجملية المعترضة، واللتين تحلان مما حولهما من الآيات، محل واسطة العقد، عاد الأمر الى ما كان عليه. وارتبط الكلام بما قبلها من الآيات ارتباطا عجيبا. وسنفضله فيما يلى باذن الله.

نظم الآيات (١٢٤-١٤١)

قال تعالى:

هوذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتتهن. قال انى جاعلك للناس اماما. قال ومن ذريتى،
قال لاينال عهدي الظالمين. وانجعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. واتخذوا من مقام ابراهيم
مصلى. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيئى للطائفين والعاكفين والركع السجود. واذ
قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر.
قال ومن كفر فأتته قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير. واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت واسماعيل. ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك
ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم
رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم. ومن
يرغب عن ملة ابراهيم الا من سغه نفسه. ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن
الصالحين. اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العلمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا
بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب
الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق،
الها واحدا ونحن له مسلمون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما
كانوا يعملون. وقالوا كونوا هودا أونصارى تهتدوا. قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من
المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب
والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له
مسلمون. فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وان تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم
الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون. قل اتحاجوننا
فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون ان ابراهيم
واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أنتم أعلم أم الله، ومن أظلم
ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم
ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.

لقد قلنا فى نهاية الفقرة السابقة: ان الآيتين (١٢٢-١٢٣) وردتا كالجملة المعارضة، ثم عاد
الأمر الى ما كان عليه. وارتبط الكلام بما قبلهما من الآيات ارتباطا عجيبا.

فلننظر الآن تصديق ذلك، حيث ارتبطت تلك الآيات بما قبل هاتين الآيتين ارتباطا تهتز له النفس
ويطرب له القلب.

في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾

فإن الله سبحانه وتعالى لا يعامل العباد حسب عروقتهم وأنسابهم وإنما العبرة عنده بأعمالهم و تصرفاتهم، حتى أن إبراهيم-عليه السلام- ما نال ما نال من مكانة وكرامة عند الله إلا بعد ما امتحن واختبر وابتلاه ربه بكلمات فأتتهن.

ثم إن إبراهيم لما دعا ربه- سبحانه وتعالى- أن يحوط ذريته بالنعمة والكرامة استجاب الله دعاءه في حق الصالحين. وأما الظالمون منهم، فقد رفض أن يكون لهم من نعمته نصيب: ﴿قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

وأما الآيتان: الثانية والثالثة من هذه الآيات وهما الآيتان (١٢٥-١٢٦) فهما تنكران على أهل الكتاب صد المسلمين عن المسجد الحرام.

وقد مضت الإشارة الى موقفهم هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.. الآية﴾

فإن هذا البيت جعل مثابة للناس وأمثا، وجعل لهم قبلة ومصلى، ولكنهم ظاهروا المشركين على صد المسلمين عن هذا البيت.

وليس هذا فحسب، بل أسهموا في تدنيسه بالأصنام، مع أن إبراهيم واسماعيل قد عهد إليهما أن يطهرا هذا البيت للطائفين والعاكفين.

وقد كان من اهتمام إبراهيم بهذا البيت أنه دعا ربه أن يجعل هذا البلد آمنا لتمكن زيارته بأمن وسلام ويرجع عنه بأمن وسلام.

وكان من شدة اهتمامه به كذلك أنه دعا لأهله بالرزق ورغد العيش حتى يعمروا هذا البيت ولا يسأموا جواره.

ولكن هؤلاء الظالمين، الذين يزعمون أنفسهم من أبناء إبراهيم وأحفاده! لم يراعوا شيئا من ذلك، بل لم يألو سعيًا في خرابه، ولم يدخروا جهدًا في منع الناس عن طوافه و زيارته.

ثم هؤلاء ينادون بالشرك ويدعون اليه ويردون دعوة الاسلام و يريدون لها العفاء كما مر في الفقرة السابقة في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾

مع أن إبراهيم واسماعيل-عليهما السلام- كانا أحرص الناس على الاسلام، حيث انهما كانا يرفعان القواعد من البيت، وكانت تلك الأمنية تجول في خاطرهما، وتتردد على ألسنتهما بتلك الكلمات الضارعة:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾

ثم هؤلاء يشيرون الشبهات حول هذا النبي و يسخرون منه ويقولون:

﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية؟﴾

مع أن هذا النبي ماجاء الا استجابة لتلك الدعوة الكريمة التي دعا بها ابراهيم واسماعيل، وهما بينان البيت:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، انك أنت العزيز الحكيم.﴾

ثم قد مضى معنا فى الفقرة السابقة اصرار أهل الكتاب على ملتهم الجائرة، حيث قال تعالى:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾

فجاءت هذه الآيات تبين لهم أن ملتهم هذه لا تمت بصلة الى ملة ابراهيم. وان كانوا يزعمون أنها ملة ابراهيم، فملة ابراهيم فى واد وملتهم فى واد، ولا لقاء بينهما فى أى مرحلة من مراحل الطريق. ان ملة ابراهيم هى الاسلام:

﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العلمين.﴾

هذه هى الملة التي رضيها ابراهيم لنفسه، ووصى بها بنيه، ثم جاء بعده أبوه يعقوب، فسلك نفس الطريق، فعاش على تلك الملة وترك بنيه عليها:

﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت، اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا، ونحن له مسلمون﴾

ثم بين لهم أن ملة الاسلام ليست هى ملة ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب فحسب، بل هى ملة الرسل والأنبياء أجمعين، فلم يأت نبي ولا رسول من لدن ابراهيم الى يومهم هذا، الا و دعا الى ملة الاسلام، وأما اليهودية أو النصرانية فلا عهد لهم بها. انهم لم يعرفوها ولم يوصوا بها:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة ابراهيم حنيفا، وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾

بينت لهم هذه الحقيقة على لسان النبي وأصحابه، ثم قيل لهم: ان آمن هؤلاء بمثل ما آمنتم به، واحتذوا مثالكم حذو القذة بالقذة، من غير نقص فيه أو زيادة، ومن غير تبديل فيه أو تغيير، فقد استقاموا على الطريق ونالوا نصيبهم من الهدى، والا فهم فى شقاق، والله يتولى أمرهم

ويكفى شرهم:

«فان آمنوا بمثل ما أمتم به فقد اهتدوا، وان تولوا فانما هم فى شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم»

وهنا نود أن تكون لنا وقفة عند هذه الآية قبل أن نغادرها الى ما بعدها. فقد وهم الناس فى تأويلها وتحيروا بين عدة وجوه (١)

تحقيق معنى (مثل):

ولعل منشأ الهم فى تأويل الآية هو عدم التثبت فى دلالات كلمة (مثل)، فان (مثل) لا يدل دائما على المغايرة كما قيل، فهم اما أولوه الى غيرما يقتضيه السياق، واما ألغوه بقولهم: انه صلة. وبذلك أبطلوا تلك الفائدة، التي سبقت لأجلها هذه الكلمة.

والتأمل فى استعمالات هذه الكلمة يرشدنا الى أن (مثل) ربما يأتى ليمثل الشئ بأوصافه وأبعاده و يشخصه بميزاته وخصائصه، أو ليزر الجانب الوصفى أو المعنوى، الذي قد يذهل عنه.

فاذا قلنا- مثلا - لرجل يقوم بعمل عظيم: مثلك ينهض بعظام الأمور، أو مثلك يصنع الأعاجيب، فلا نقصد بذلك، إلا أن نشيد بصفاته وخلال العجيبه، التي يتحلّى بها، والتي هى مصدر أعماله التي يقوم بها.

ويشبه ذلك ما ورد عن أم الأحنف أنها كانت ترقصه وتقول:

والله لولا حنق برجله ودقة فى ساقه من هزله

ماكان منكم أحد كمثل (٢)

أى ما كان منكم أحد يضاهيه فى مواهبه وصفاته.

ومن ذلك ما قالت الخنساء وهى ترثى أخاها:

فمثل حبيبي أبكى العيون و أوجع من كان لا يوجع

فهى لم تقصد بقولها (فمثل حبيبي) الا أن تبرز للناس تلك الخصال التي كان يملكها حبيبها، وتشخص لهم تلك الخصائص التي كان يتمتع بها.

وما يؤيد ذلك أنها ذكرت بعد ذلك عيون صفاته التي كانت تريد أن تشيد بذكرها، والتي تؤهلها لأن يبكى عليه:

(١) انظر تفسر الخازن : ١٦/١ . والكشاف : ٣١٥ /١ .

(٢) التفسير الكبير : ٨٤ / ٤ .

أخ لى لا يشتكيه الرفيق ولا الراكب فى الصاجة الجوع

ويهتز فى الحرب عند النزال كما اهتز ذوالرونق المقطع^(١)

ومن ذلك أيضا ما قاله بشر بن المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة:

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلنى لا تنبو عليه مضاريه^(٢)

فهو لم يرد بقوله (مثلنى) إلا أن ينوه بصفاته وشمائله التى كان يتميز بها من بين أقرانه.

ومما يؤيد ذلك أن هذا البيت من تلك الأبيات التى قالها الشاعر حينما كان بخراسان مع المهلب. وكان يطمع أن يوليه ولاية ولكنه أبى أن يستجيب لرغبته. فقال الشاعر تلك الأبيات ليستميله إليه ويقنعه بكفائه لما يشتهيته.^(٣)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شئ﴾^(٤)

ومن الصعب جداً أن نستريح الى قول الذين قالوا فى تأويله: (أى ليس كهو شئ)^(٥)، فإن معناه - كما يبدو للمتأمل فيه - ليس هناك شئ يعادله فى أسمائه ويكافئه فى صفاته، يصنع صنعه، ويخلق خلقه، وينشئ انشاءه.

فالمقصود بسوق كلمة (مثل) هنا - والله أعلم - هو التركيز على إبراز تفرد - تعالى - بتلك الصفات.

ويصبح هذا واضحا جليا إذا نظرنا الى كامل الآية، وهو قوله تعالى:

﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه، ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير﴾^(٦)

والآن نعود الى الآية التى كنا فيها فنقول: ان قوله تعالى: ﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ معناه: ان آمنوا بنفس الشئ الذى آمنتم به، واحتذوا على مثالكم حذو النعل بالنعل، من غير زيادة فيه ولا نقصان، ولا تغيير فيه ولا تبدل، ولا نفاق فيه ولا شقاق فقد اهتدوا.

وبناء على هذا الحصر وهذا التحريض قد يخالغ الأذهان أن هذا انحياز الى قوم دون قوم، ومحاولة لتغليب عنصر على عنصر. وهنا يبادر السياق بإزالة هذا الوهم على لسان المؤمنين أنفسهم:

(١) ديوان الخنساء : ص ٩٤. ذوالرونق : أرادت به السيف، المقطع : الماضي.

(٢) الحماسة لأبى تمام: ١٥١/١، رقم (٧٣)

(٣) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٥٨ / ١

(٤) سورة الشورى : ١١

(٥) زاد السير : ٢٧٦ / ٧

(٦) سورة الشورى : ١١

«صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون»

بالإضافة الى أن الجو كان مهينا من قبل لمثل هذه النصيحة، حيث أن اليهود كانوا ينادون باليهودية. والنصارى كانوا يبشرون بالنصرانية فكل قد اختار لنفسه طريقا من الطرق بعيدا عن الله. وهنا جاء النداء الالهى الكريم على لسان المؤمنين:

«صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون»

أى اتركوا هذه الطرق كلها، فهى مردولة قبيحة. ولا صلة لها بملة ابراهيم. انما ملة ابراهيم أن تصطبغوا بصبغة الله، وتسلموا وجوهكم لله، وتخلصوا عباداتكم لله فعليكم بها! ونحن أيضا تركنا الطرق كلها ولجأنا الى صبغة الله فنحن له عابدون.

فدعوة الاسلام ليست دعوة قومية ولا عنصرية ولا ولا وانما هى صبغة الله وهل أحد أحسن من الله حتى يصطبغ بصبغته؟

ثم الثورة على الاسلام لا تقوم الا على أحد أمرين:

١ - فاما أن ينفوا عن الله الربوبية وأحقيته باخلاص العبادة، - فهى الحقائق التى جاء الاسلام لتأكيدهما وهى لا تقبل الجدل ولا النقاش للحظة واحدة.

٢ - واما أن يقولوا ان سلفهم الصالحين، الذين يفتخرون بهم ويعتزون بالانتماء اليهم كانوا على غير ملة الاسلام، وهى اليهودية أو النصرانية، مع أن اليهودية أو النصرانية ما نجمت الا بعدهم بقرون!

وعلى هذا فيفهمهم النص قبل أن ينهى معهم الحديث من هاتين الناحيتين:

«قل أحتاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون»

ثم تأتى الآية الفذة، التى يمكن أن يقال، انها الكلمة الأخيرة الحاسمة فى شأن اليهود والنصارى فى هذه السورة:

«تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.»

ولقد تكررت الآية فى هذه الفقرة مرتين، ولكن قبل أن غيط اللثام عن سر تكرارها، وقبل أن نلتبس وجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها نريد أن نتحرى عن صحيح تأويلها.

تأويل الآية كما وردت به كتب التفسير:

يقول الامام ابن جرير فى تأويل هذه الآية:

«يعنى تعالى ذكره بقوله (تلك أمة) ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط.»

ثم يقول -رحمه الله-:

«وقد بينا فيما مضى أن الأمة: الجماعة.

فمعنى الآية إذا: قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك في الله من اليهود والنصارى ان كنتموا ما عندهم من الشهادة في أمر ابراهيم ومن سمينا معه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هودا أونصارى فكذبوا أن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط أمة قدخلت: أى مضت لسبيلها، فصارت الى ربها، وخلت بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شر لاينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها الا سيئها، فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فانكم ان كان هؤلاء هم الذين بهم تفتخرون وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم، لا ينفعهم عندالله غير ما قدموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سيئها، فأنتم كذلك أخرى أن لا ينفعكم عندالله غير ما قدمتم من صالح الأعمال، ولا يضركم غير سيئها، فاحذروا على أنفسكم وبادروا خروجها بالتوبة والانابة الى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على الله وعلى أنبيائه ورسله، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فانما لكم ما كسبتم وعليكم ما اكتسبتم، ولا تسألون عما كان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال، لأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، فانما تسأل عما كسبت وأسلفت دون ما أسلف غيرها.» (١)

هذا ما اختاره الامام ابن جرير في تأويل هذه الآية. وهذا هو التأويل المفضل عند الآخرين كذلك على رغم ما يكتنفه من ضعف.

فلنقف هنا وقفة تكشف فيها هذا الضعف، حتى يفتح لنا الطريق الى التأويل الصحيح للآية. فلنعلم أن الضعف هنا من ناحيتين.

الناحية الأولى:

ان هذا التأويل لا يتفق مع سياق الآية، فان الحديث هنا لايدور حول موضوع (الاتكال على فضائل الآباء والأجداد) كما ذهب اليه ابن جرير ومن يرى رأيه من المفسرين-رحمهم الله - وانما الموضوع هنا أن جميع الأنبياء والرسل كانوا على ملة الاسلام، ولم تكن لهم أي صلة بملة اليهودية أو النصرانية، كما يزعمه هؤلاء افتراء عليهم. ولم يكن يدفعهم الى هذا الافتراء (اتكالهم على فضائل الآباء والأجداد) وانما كان الدافع اليه عداؤهم للمسلمين وحرصهم على أن يعززوا موقفهم العدائى هذا باثبات أن جميع الأنبياء والمرسلين -عليهم ألوف التحية والتسليم- بعثوا على ملتهم، ولم تكن لهم أي صلة بملة الاسلام أو ملة المسلمين.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥٧٦/١

الناحية الثانية :

ان هذا الأسلوب الذى وردت به الآية- وهو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ - لا يجيب فى القرآن للمعنى الذى ذهب اليه الامام ابن جرير وغيره، وانما يطرد استعماله فى معنى المنازعة واطهار البراءة.

ونسوق هنا بعض الأمثلة لكى يتضح الأمر. قال تعالى:

﴿وَأَن كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أُنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (٢)

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَاحِجَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. اللَّهُ يَجْمَعُ

بَيْنَنَا وَاليه المصير﴾ (٣)

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ (٤)

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٥)

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يذهب بنا الى المعنى الذى ذهب اليه الناس، فان هذه العبارة تشبه فى دلالتها تلك الآية التى مضت معنا فى نفس السورة وهى قوله تعالى:

﴿أَنَا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (٦)

يقول صاحب الكشاف وهو يفسر هذه الآية:

« هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه لأنه كان يغتم ويضيق صدره لاصرارهم وتصميمهم

على الكفر ، ولا نسألك «عن أصحاب الجحيم» ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك فى دعوتهم كقوله: ﴿فَأَنمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٧)

ويقاربه قوله تعالى فى سورة سبأ:

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا

بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٨)

أى ليس عليكم من مسؤوليتنا شئ وليس علينا من مسؤوليتكم شئ.

(١) سورة يونس : ٤١

(٢) سورة القصص : ٥٥

(٣) سورة الشورى : ١٥

(٤) سورة البقرة : ١٣٩

(٥) سورة الكافرون : ٦

(٦) سورة البقرة : ١١٩

(٧) الكشاف : ٣.٨/١

(٨) سورة سبأ : ٢٥ - ٢٦

منشأ الوهم:

ويبدو أن منشأ الوهم فى هذا التأويل هو كلمة (خلت) فانهم توهموا أنها لا تطلق الا على الذين انقرضوا وانغرقوا فى سلك الأموات، مع أن الكلمة أعم من هذا، فهي لا تستلزم الموت وانما تدل فى أصلها على المضى فقط، والموت صورة من صور المضى، فقد يكون مع المضى الموت وقد لا يكون. ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف:

﴿قال ادخلوا فى أمم قد دخلت من قبلكم من الجن والانس فى النار. كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى اذا أدركوا فيها جميعا قالت أوراها لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأنهم عذابا ضعفا من النار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون.﴾ (١)
فقد ذكر الامام ابن الجوزى - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى: ﴿قد خلعت من قبلكم﴾ قولين، أحدهما: (مضت الى العذاب). (٢)

تأويل يتفق مع سياق الآية:

وبجدرنا الآن - وقد عرفنا سقم هذا التأويل - أن نبهت عن تأويل آخر، يتفق مع سياق الآية، ويتفق مع أسلوبها.

فما هو ذلكم التأويل اذا؟

يبدو لي أن الامام الفراهي - رحمه الله - كان حليفه التوفيق، حيث قال فى تأويل هذه الآية: ﴿وانها أمة قد خلعت بما كسبت ويعتتم خلائف فلکم ما تكسبون، وليس عليكم من ذنوبهم مشى.﴾ (٣)

وأوضح من ذلك وأروع ما قاله الأستاذ محمد قطب وهو يدرس المناسبة فى هذه الآيات:

« ثم تجيئ (المفاصلة) بين الأمتين على اثر اعلان تلك الوثيقة الهامة:

﴿تلك أمة قد خلعت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾

لقد انتهت صفحة تلك الأمة وبدأت صفحة جديدة لأمة جديدة.. هي التى سيتناولها السياق

منذ هذه اللحظة ويوجه اليها البيان! » (٤)

(١) سورة الأعراف : ٣٨

(٢) زاد المسير : ٣ / ١٩٤

(٣) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط)

(٤) دراسات قرآنية : ص / ٢٩٦

ويكرر فيقول حين تكررت هذه الآية :

» ثم يختتم السياق مرة أخرى بصيغة المفاصلة، التي تفصل بين الأمتين، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ليبدأ عهد الأمة الثانية:

﴿تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (١)

وعلى هذا فالمراد بالأمة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ولقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي المليح في تأويل هذه الآية، قال:

(الأمة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعدا) (٢)

فكان أبا المليح يقصد بهذا، الرد على من قالوا، ان المراد بالأمة هم ابراهيم واسماعيل واسحق

ويعقوب والأسباط، فانهم لا يبلغون هذا العدد، بل ولا يبلغون نصفه، ولا ثلثه.

وإذا كان هذا فلم يبق أمامنا الا أن نقول: ان المراد بالأمة عندهم هم اليهود والنصارى.

وبذلك يكون أبوالمليح قد سبق الفراهي ومحمد قطب الى هذا التأويل، وهو تأويل وجيه ولا

شك، لكونه متلائما مع سياق الآيات.

فا لأمة هم اليهود والنصارى. والمراد بخلوهم، أنهم انتهى دورهم وظهر فشلهم ، فهم أبعدوا عن

شرف الأمانة، ونزعت منهم كرامة الخلافة.

وأما قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ فهو عبارة

عن البراءة منهم.

فالمسلمون برءاء منهم ومن تصرفاتهم. وقد تقطعت أسبابهم ورمامهم، فلا ترجى عودتهم الى

الطريق وهم ليسوا بمسئولين عن أودهم وانحرافهم، فهم الذين يحصلون ما يزوعون

ويذوقون ما يجترحون.

السفر في تكرار الآية:

وبعد ما توصلنا الى التأويل الذي يتفق مع سياق الآية وأسلوبها نخرج الى السؤال الذي يفرض

نفسه علينا، وهو: ما هو السفر في تكرار هذه الآية؟

والجواب عليه سهل وميسر، باذن الله ، اذا تأملنا في نظم هذه الآيات.

والذي يظهر لنا بعد التأمل في نظمها، هو أن السياق أراد بتكرار هذه الآية أن يلفت الانتباه

الى جريمتين عظيمتين من جرائم أهل الكتاب، فانهم ما صاروا الى ما صاروا اليه إلا بسببهما.

(١) دراسات قرآنية : ص / ٢٩٩

(٢) الدر المنثور : ١ / ٣٤٢

وقد كانت كل واحدة منهما من الفظاعة، بحيث تكفى وحدها لأن يصيروا إلى ماصاروا إليه، فكيف وقد اجتمعت الاثنتان؟

أما الجريمة الأولى، فهي أنهم رغبوا عن ملة ابراهيم ونسوا ما وصاهم به أبواهم ابراهيم ويعقوب، من الموت على ملة الاسلام، حيث قالوا لهم:

﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون﴾

وكذلك نقضوا العهد الذي أبرموه مع أبيهم يعقوب، إذ قال لهم حين حضره الموت: ﴿ماتعبدون من بعدي؟

﴿قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق لها واحدا ونحن له مسلمون﴾

فهم خالفوا تلك الوصية ونقضوا ذلك العهد، وبذلك استحقوا أن يبعدوا عن شرف الأمانة وتنزع منهم كرامة الخلافة، فجاءت هذه الآية: .

﴿تلك أمة قد خلت. لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾

وأما الجريمة الثانية، فهي أنهم مارغبوا عن ملة ابراهيم فحسب، بل أرادوا أن يقطعوا صلة ابراهيم نفسه بملته. وأرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلهم بملته، مع أن الأنبياء الذين جاءوا من بعده، كلهم بعثوا على ملته.

فهم قالوا- كذبا ومينا- ان الأنبياء كلهم بعثوا بملة اليهودية أو النصرانية حتى سيدنا ابراهيم بعث بملة اليهودية أو النصرانية !! كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ألم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى، قل أنتم أعلم أم الله؟﴾

وهم لم يقولوا ذلك عن جهل وعدم اطلاع، بل كانوا يعرفون الحق وكانوا يكتبون، كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؟﴾

فهم أرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلهم بملة ابراهيم، ثم أرادوا أن يغفروا الناس أجمعين، وأن يعدلوا بهم عن هدى الله إلى أهوائهم، كما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين.﴾

فهاتان جريمتان من جرائم أهل الكتاب، وما أعظمهما من جريمة وما أشتعهما !!

وكل واحدة منهما كانت تكفى لأن تبعدهم عن شرف الأمانة وتخلع عنهم تاج الخلافة وترمى بهم

في هاوية الهوان، فكيف بهم، وقد اجتمعت فيهم الاثنتان !!

فتكررت هذه الآية بعد ذكر كل من هاتين الجريمتين تنبيها إلى فظاعتهما وفداحة خطبتهما!

مناسبة تلك الآيات فيما بينها:

وبعد ما علمنا وشانج الرِبط بين هذه الآيات وما قبلها، نعود إليها مرة أخرى لنعرف ما فى هذه الآيات أنفسها من التعام متين وتناسق عجيب:

هوذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فائتمهن. قال انى جاعلك للناس اماما، قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين.﴿

لقد جمعت هذه الآية ابتلاء ابراهيم وجمعت ما أعقبه من جزاء عظيم، وتكريم يفوق كل تكريم، فقد جعله الله امام الناس أجمعين. جعله امام عصره وامام العصور المتأخرة الى يوم الدين.

ثم جاءت الآية التالية تدل على أعظم مظهر من مظاهر امامته العامة الشاملة:

هوذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيئتي للطائفين والعاكفين والركع السجود.﴿

فقد جعل الله بيته مثابة يشوب اليها الناس جميعا، وجعله أمنا يأمنون فيه على أنفسهم وأرواحهم، وجعله قبلة ومصلى يتوجهون اليه فى صلاتهم، وعهد بتطهيره للركع السجود من المقيمين هناك أو الوافدين اليه.

السرفى تسمية البيت مقام ابراهيم:

وسمى الله هذا البيت مرة (مقام ابراهيم) ومرة أخرى سماه (بيئتي). وهذا النظم كما أنه يشعر بتكريم بيت ابراهيم وتشريفه، ينبه الى حقيقة هذا البيت، التى قد يغفل عنها الغافلون.

فقد سماه الله (مقام ابراهيم) من حيث ان ابراهيم هو الذي أقام هذا البيت، ثم قام فيه يدعو ربه ويعبده ويتضرع اليه.

ومن حيث أن هذا البيت مظهر من مظاهر امامته العامة الشاملة المستمرة الى يوم القيامة.

ومن حيث أن هذا البيت يذكرنا بتاريخه الطويل، الحافل بالمواقف الجادة والبطولات الرائعة ويذكرنا بشخصيته الغذة العجيبة، المسلمة المؤمنة القانئة، فانه ما أمر ببناء هذا البيت الا بعد ما ابتلاه ربه مرة بعد مرة، وفى كل مرة أبلى ابراهيم بلاء حسنا. فكان هذا البيت أثرا خالدا و تذكرة باقية لتلك الأمثلة الرائعة، التى ضربها ابراهيم فى طاعة الله وعبادته والامتنال لأوامره والتضحية فى سبيله بنفسه ونفيسه.

ثم سماه الله (بيئتي) حتى لا يخطر ببال أحد أنه اذا اتخذ مقام ابراهيم قبلة ومصلى، وتوجه اليه بصلاته وعباداته، فهى تصل الى ابراهيم ولا تصل الى الله فان هذا البيت فى حقيقته بيت الله، وما سعى هذا البيت مقام ابراهيم الا بعد ما أسلم ابراهيم وجهه لله.

وما كان القصد بتلك التسمية- والله أعلم بما قصد- الا ربط هذا البيت بتلك المعاني السامية النبيلة، التي كانت تتمثل فى شخصية ابراهيم، حتى يتذكر الناس كلما طافوا بالبيت أو توجهوا اليه بالصلاة تلك المعاني السامية، فيحرصوا على التحلى بها والالتيان بمثلها.

ومن هنا تتبين أرجحية موقف الذين يفسرون المقام بالبيت كله، فلا شك أن موقفهم أقرب لسياق الآيات و أوفق لطبيعة الموضوع من موقف غيرهم .

الروايات الواردة فى شأن مقام ابراهيم:

وأما الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية، والتى تقول:

(ان المراد بالمقام اما هو الحجر الذي كان ابراهيم - عليه السلام- يقوم عليه لبناء الكعبة. لما ارتفع الجدار أتاها اسمعيل - عليه السلام- به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار. وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه. كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التي تليها، وهكذا حتى أتم جدران الكعبة.) (١)

فهذه الروايات قد وقف منها أعلام الأمة موقفين متقابلين.

فمنهم من تمسك بها، وفسر الآية فى ضوءها.

ومنهم من غدل عنها ولم يرض أن يفسر الآية بها.

ومن عدل عنها ولم يفسر الآية بها الشعبى والنخعى وعطاء ومجاهد وابن عباس- رضى الله عنهم- فانهم فسروا مقام ابراهيم بغير ما فسرت به الروايات. (٢)

ولقد قال فريق من العلماء ان المراد بالمقام هو المسجد الحرام. (٣)

يقول صاحب تفسير المنار:

« ومقام ابراهيم موضع قيامه فى مكة لبناء المسجد، فهو يشمل المسجد الحرام كله، كما قال المحققون من الفقهاء.. » (٤)

ويقول صاحب الظلال:

« لقد أمروا أن يتخذوا من مقام ابراهيم مصلى - ومقام ابراهيم يشير هنا الى البيت كله، وهذا ما نختاره فى تفسيره- فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعى، الذي لا يثير اعتراضا. (٥)

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ١٧٠

(٢) تفسير الطبري : ١ / ٥٣٦. والكشاف : ١ / ٣١

(٣) المحرر الوجيز : ١ / ٤١٥، وتفسير البحر المحيط : ١ / ٣٨١.

(٤) مختصر تفسير المنار : ١ / ٩٩

(٥) فى ظلال القرآن : ١ / ١١٣

وبالجملة فقد وقف الأئمة الأعلام من تلك الروايات موقفين متقابلين. ونحن قد اخترنا من الموقفين ما رأيناه أقرب لسياق الآيات، بعد ما عجزنا من التوفيق بينها وبين الروايات.



والآن نعود الى حديثنا السابق فنقول:

لما جعل الله البيت- وهو مقام ابراهيم- مثابة للناس وأمنا، وأمر باتخاذها قبلة ومصلى توجه ابراهيم الى ربه بالدعاء، وسأله- تبارك وتعالى- أن يجعل البلد الذي هو محل هذا البيت، بلدا آمنا حتى يتم الأمن فيه ويعم، وسأله أن يرزق أهله من الثمرات حتى لا يسأموا جوار هذا البيت، ولا يرغبوا عن عمارته وسدائته، ويكونوا عوناً في جعله مثابة للناس:

هوذا قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات ، من أمن منهم بالله واليوم الآخر. قال ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير.﴿

كانت هذه دعوة ابراهيم بعد ما انتهى من بناء البيت، ولكن ما هي المشاعر وما هي التمنيات، التي كانت تضرب في نفسه وفي نفس اسمعيل حين كانا يرفعان قواعد هذا البيت:

هوذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا. انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. انك أنت العزيز الحكيم.﴿

تلك المشاعر القدسية أو التمنيات المباركات، التي كانت تجول وتضطرب في نفوس ابراهيم واسمعيل أثناء بناء هما هذا البيت.

لماذا كان ذكر مشهد بناء الكعبة ختام هذا الحديث؟

وهنا يثور سؤال:

لماذا أخرج بيان هذا المشهد الى آخر القصة، مع أنه من ناحية ترتيبه الزماني لم يكن آخر القصة؟

هذا سؤال لابد أن يثور في ذهن الباحث، ولا سيما اذا كان ممن يقولون بفكرة النظام. والجواب أيضا يكمن في نظام هذه الآيات.

إن الموضوع الأساسي الذي كان موضع خلاف وموضع نقاش بين المسلمين وأهل الكتاب في تلك الساعة هو موضوع (المللة).

فاليهود والنصارى كانوا في نزاع حاد عنيف مع النبي وأصحابه، وكانوا يزعمون أنهم هم على

ملة ابراهيم ! وأن ملتهم هي الملة السوية المستقيمة المفضلة عند الله

واليه تشير الآية الكريمة، التي مضت معنا قبل قليل:

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» والتي جاءت بعدها بقليل: «وقالوا

كونوا هودا أو نصارى تهتتوا»

فجاءت هذه الآيات تفصل لهم هذا الموضوع وتذكر لهم بهذه المناسبة قصة امامة ابراهيم ، وتذكر تاريخها وتاريخ بناء الكعبة ، وكونها قبلة ومثابة للناس، وتذكر الدعوات التي كانت تتردد على لسان ابراهيم وكانت تضطرب في جوانحه وهو يرفع قواعد هذا البيت.

وبما أن هذه الدعوات كانت تعكس اتجاهاته واهتماماته، وكانت تعبر عن مشاعره وأحلامه، وكانت خير وثيقة للاستدلال على طريقته وملته، التي كانت موضع خلاف وموضع جدال بين الناس، جاء بها السياق -على غير ترتيبها الزمني- في آخر القصة واختار لها أسلوبا أى أسلوبا ليظهر شأنها وبلغت الأنظار نحوها.

وقفة موفقة للأستاذ سيد قطب:

ولقد وقف الأستاذ سيد قطب عند هذا الأسلوب وقفة موفقة، واستمتع بها استمتاعا

حيث قال رحمه الله:

«ان التعبير يبدأ بصيغة الخبر..حكاية تحكي:

«وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل»

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر ، اذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا أيهما، كما لو كانت

رؤية العين لا رؤيا الخيال. انهما أمامنا حاضرا، نكاد نسمع صوتهما يبتهران:

«ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك

وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم...ربنا..»

فنغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء..كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة

متحركة.. وتلك احدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضرا يسمع

ويرى، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة.. انها خصيصة (التصوير الفني) بمعناه الصادق،

اللاقى بالكتاب الخالد...»^(١)

ولا شك أن الأستاذ سيد قطب كان موفقا في ابراز ناحية التصوير الفني في هذه الآيات ، ولقد

أحسن وأجاد.

(١) في ظلال القرآن : ١ / ١١٤

نظم الكلام له دور ملموس فى روعة هذا الأسلوب:

ولكن الموقف يزداد روعة وجمالا، و يزداد الأسلوب قيمة واعتبارا، حين نتأمل فى نظم هذه الآيات ، ونعرف الغرض الذى استخدم له هذا الأسلوب. فإننا نشعر حينئذ كأن هذا الأسلوب قد طوى تلك المسافات الهائلة، التي كانت حائلة بيننا وبين أبونا ابراهيم واسماعيل وكشف لنا عنهما حتى يعلننا عن حقيقة ملتهما فى حين قد تراكمت عليها الظلمات، وتضاربت فيها الآراء، والناس أحوج ما يكونون إلى صوت يحسم هذا النزاع ويقشع هذا الظلام.

وبالجملة فقد اختار السياق هذا الأسلوب ليتعاون مع نظم الكلام فى إبراز تلك الآيات التي هى بمنزلة (بيت القصيد) فى مجموعتها، والتي تعالج الموضوع الأساسي الذى كان وقتئذ (موضوع الساعة) ولذلك جاء بعد هذه الآيات مباشرة:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم الأيمن سفة نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين. ان قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العلمين.﴾

ويستمر هذا الموضوع الى نهاية هذه الفقرة، نعى قوله تعالى:

﴿انم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؟ وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قدخلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.﴾

ولقد أسلفنا الكلام على نظم هذه الآيات كلها فيما مضى. وفيه غنية وكفاية باذن الله.

ولقد طال بنا الوقوف عند هذه المجموعة من الآيات، ولم ينته الحديث بعد، فان هناك جملة من الحقائق تستنبط من نظم هذه الآيات، وهى قيمة ومهمة جدا.

فلا يسعنا الا أن نحمد الله على أن من علينا بتلك الحقائق، ثم نأخذ فى تسجيلها باختصار. والله ولى التوفيق:

الحقيقة الأولى:

ان هذه الآيات توحى إلينا بنظمها وسياقها أن هذا البيت وضع على ملة الاسلام. بل هو قطب رحا هذه الملة.

ولعل هذا هو السر فى أن ابراهيم واسماعيل -عليهما السلام- كانا يركزان وهما يرفعان قلوبهما إلى البيت -على دعوة الاسلام، فهما دعوا فى تلك اللحظة المباركة لأمة الاسلام ونبي الاسلام:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا، انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة و

يزكيهم. انك أنت العزيز الحكيم.»

ولقد ضلت اليهود والنصارى عن هذه الملة ، مع أن الله أرسل اليهم رسله تترى. وهؤلاء الرسل كلهم بعثوا على هذه الملة، ودعوا الناس إليها.

ولعل ضلأ لهم هذا عن هذه الملة برغم تتابع الدعاة إليها، ليس إلا لأنهم قطعوا صلتهم بهذا البيت. وأما بنو اسمعيل فهم بقوا على بقايا ملة الاسلام، وكانوا أقرب إليها من غيرهم مع أنهم ما جاءهم بشيرو لا نذير قبل نبينا-عليه الصلاة والسلام- علما بأن هذه الفترة تمتد الى قهرن لا يعلمها الا الله.

وليس ذلك فيما نرى، إلا لحرصهم على هذا البيت واعتزازهم بجواره واهتمامهم بخدمته وسدائته.

الحقيقة الثانية:

لقد اختلف الناس في أول أمر الكعبة ، وأكثروا فيه الكلام، ولكن لم نطلع عند أحد منهم على شئ تظمن اليه النفس.

ولقد كان موقف صاحب تفسير البحر المحيط موقفا لا بأس به، حيث قال-رحمه الله-:

«ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت، وقدمه وحدوثه، ومن أى شئ كان باباه، وكما مرة حجه آدم، ومن أى شئ بناه ابراهيم، ومن ساعده على البناء قصصا كثيرة. وبعضها يناقض بعضا. وذلك على جرى عاداتهم في نقل ما دب وما درج ولا ينبغي أن يعتمد الا على ما صنع في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ : (١)

وهذا الموقف - ولا شك - كان أقرب للحق وأولى بالصواب، وكان أجدر بالاتباع، لولا أن القرآن نفسه قد دلنا بنظمه على حقيقة الأمر، فان هذه الآيات تدل بنظمها وسياقها على أن سيدنا ابراهيم هو الباني الأول أو المؤسس الأول لهذا البيت .

وبيان ذلك أن الله تعالى اصطفى ابراهيم ليكون اماما للناس حيث قال:

«اني جاعلك للناس اماما»

ولم تكن هذه الامامة خاصة بفترة من الزمان، أو ببجيل من الناس، وإنما كانت امامة الناس أجمعين، الى أن يقوم الناس لرب العلمين. ولذلك جعل الله تعالى ملة ابراهيم ملة الرسل والأنبياء أجمعين، وقال- عز من قائل:-

«ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا امن سغه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة

لمن الصالحين.»

وحتى نبينا-عليه الصلاة والسلام- بعث بملة ابراهيم ، وكان مأمورا باتباعها والالتزام بها ، حيث قال تعالى:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفا، و ماكان من المشركين.﴾

يقول العلامة أبو السعود وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أنى جاعلك للناس اماما﴾:

«الامام اسم لمن يؤتم به. وكل نبى امام لأمته، وامامته - عليه السلام- عامة مؤبدة. اذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته.» (١)

فاعلان امامة ابراهيم ، ثم اعلان كون البيت مثابة للناس وأمنا، وتسميته فى نفس الوقت مقام ابراهيم ، والأمر باتخاذة قبلة ومصلى، ثم ذكر بناء ابراهيم واسماعيل لهذا البيت، هذه الحلقات كلها، اذا ضمت بعضها الى بعض فانها تؤدى الى أن ابراهيم هو الذي أسس هذا البيت. وجعل بيته هذا مثابة للناس وقبلة ومصلى باعتباره امام الناس أجمعين.

وتسمية البيت هنامقام ابراهيم- كما ذهب اليه طائفة من أعلام المفسرين- لها دلالتها الخاصة فى هذا الموضوع. ولقد سبق أن أشرنا إليها.

الحقيقة الثالثة:

ثم هناك أمر آخر يستنبط من نظم هذه الآيات وهو أن سيدنا ابراهيم مارشح لتلك الامامة العظمى الابدع واقعة الذبح، فانه بعد ما اجتاز هذا الامتحان- وكان هو الامتحان الأخير- بنجاح وتوفيق باهر، خلعت عليه تلك الكرامة، وجعلت ملته هى الملة التي يأتى الناس بها الى يوم القيامة. وبيان ذلك أن هذه الواقعة كانت تمثل- فى حقيقتها- ذروة الاسلام فعبّر عنها بلفظة الاسلام ، حيث قال تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه. ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين.﴾

فقوله تعالى: ﴿اذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العلمين﴾ تلميح رائع الى تلك الواقعة. ولقد استخدم نفس التعبير فى موضع آخر، حيث ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل. قال تعالى:

﴿فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظرما ذاترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا، انا كذلك نجزي المحسنين. ان هذا لهو البلاء المبين.﴾ (٢)

(١) تفسير العلامة ابي السعود: ١٨٥/١

(٢) سورة الصافات : ١٠٦/١٠١

فقوله تعالى: ﴿ فلما أسلما وظله للجبين ﴾ يشبه قوله تعالى: ﴿ اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العلمين. ﴾

إذا عرفنا هذا فلنعرف أن نظم الكلام ، أعني ذكر ملة ابراهيم بما يدل على علو شأنها ، ثم ذكر اصطفاؤه بأسلوب خاص: ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ ثم التلميح الى واقعة الذبح ، هذا النظم ان دل على شئ فانما يدل على أن واقعة الذبح كانت هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الابتلاءات التي تجتلي بها ابراهيم. وبعدها مباشرة تم اصطفاؤه لامامة الناس، كما تقرر لملته أن تكون هي الملة المفضلة الباقية الى يوم القيامة.

ومما يؤيد هذا أن اسمعيل أيضا كان له نصيب أوفى من هذه الامامة، حيث انه كان شريك أبيه في بناء البيت الذي كان من آيات امامته، وليس ذلك الا لأنه كان شريكه في واقعة الذبح ، التي كانت آخر الابتلاءات وأشدّها.

وبعد هذه الواقعة الفذة الفريدة- وكانت أروع نموذج لحقيقة الاسلام- أمر ابراهيم ببناء البيت ، الذي أراد الله له أن يكون أول حصن، وأكبر مركز لملة الاسلام.

الحقيقة الرابعة:

ومما يستنبط من نظم هذه الآيات أن حياة الأمة المسلمة منوطة ببقاء هذا البيت، فهي تبتدئ برفع قواعده، حيث ان ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام- كانا مسلمين، وكانا من قواعد هذه الأمة . وستنتهي بقلع أحجاره، حيث ذكر نبينا- عليه الصلاة والسلام- من ضمن أشراف الساعة:

(كأنى به أسود أفحج يقلعها- أى الكعبة - حجرا حجرا). (١)

فلتحرص الأمة الاسلامية على كرامة هذا البيت ويقانه، لأن كرامتها من كرامته ويقاها من بقائه.

الحقيقة الخامسة:

وأیضا يستنبط من نظم هذه الآيات أن العنصر الأساسى فى معنى (الاسلام) هو البذل والتضحية فى سبيل الله . فان قول ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام- ﴿وأرنا مناسكتنا﴾ بعد قولهما ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريقتنا أمة مسلمة لك﴾ يقودنا الى هذه النكتة.

ولقد اختلف الناس فى تأويل قولهما: ﴿وأرنا مناسكتنا﴾ على عدة أقوال. ولعل أرجحها هو ما روى عن عطاء ومجاهد وعبيد بن عمير أن المراد به: (وأرنا مذابحنا) (٢)

ولقد فسر ابن جرير هذا التأويل بما يلى :

(١) صحيح البخاري : كتاب الحج، باب ٤٩ هدم الكعبة، ١٥٩/٢.

(٢) تفسير الطبري : ١ / ٥٥٤

«فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وارنا كيف ننسك لك ياربنا نسائكنا فنذبها لك.»^(١)
ويبدو أنه لم يكن دقيقا في تفسير قولهم هذا ، فان (مذابح) جمع مذبح ، وهو ظرف مكان.
وتفسيره بكيفية نسك النسائك أو كيفية ذبح الذبائح ، بعيد جدا.

بالإضافة الى أنهم قالوا (مذابحنا) ولم يقولوا (مذابح ذبائحنا).

ولعل التفسير الصحيح لتأويلهم هكذا:

(وأرنا مذابح أنفسنا ، أى أرنا المواضع التى نبذل فيها مهجنا ونضحى فيها بأنفسنا)

وعلى هذا يكون قولهما «وأرنا مَناسكنا» بيانا لقولهما: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك»

ومن هنا نعرف أن حقيقة الاسلام أو ذروة الاسلام هى بذل المهج والتضحية بالنفس
والنفيس فى سبيل الله.

ومن هنا كانت واقعة الذبح هى فاتحة ملة الاسلام. وكان ابراهيم واسماعيل -عليهما السلام - أول
من رفع راية الاسلام.

ومن هنا كانت السمة البارزة لهذه الأمة، التى دعا لها ابراهيم واسماعيل أنها أمة تقاتل فى سبيل
الله. فقد جاءت صفتها فى التوراة والانجيل والقرآن هكذا، حيث قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ. وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ،
فَأَسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.»^(٢)

الحقيقة السادسة:

لقد دعا سيدنا ابراهيم لنبينا وللأمة المسلمة وهو يبني الكعبة.

وكما أن القرآن ذكر هذه الدعوة فى سياق بناء الكعبة ، فكذلك الكتب القديمة أيضا التزمت بهذا
السياق فى ذكر دعوة ابراهيم .

هذا النظم وهذا السياق يشير الى أن هناك سببا خاصا بين هذا البيت وبين هذا النبى وأمتهم

وبهذا يمكن أن يفسر تقلب وجه النبى ﷺ فى السماء ، كما ورد فى الآية الكريمة:

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام. الآية)^(٣)

(١) تفسير الطبري : ٥٥٤/١

(٢) سورة التوبة : ١١١

(٣) سورة البقرة : ١٤٤

وأهل العلم من الملل السابقة أيضا قد فطنوا بهذا السياق الى هذه الصلة الخاصة بين البيت وبين هذا النبي وأصحابه. وفطنوا الى أن أرض هذا البيت ستكون مبعث هذا النبي وأصحابه. وهذا البيت نفسه سيكون منطلق هذه الدعوة.

فالصالحون منهم حاولوا أن ينتقلوا من البلاد النائية ويلتفوا حول هذا البيت، كما يذكر لنا التاريخ القديم لبنى إسرائيل. (١)

وأما الأشرار منهم، فهم لم يألوا جهدا في طمس معالم هذه النبوة، وفي تحريف الكلم عن مواضعه، حتى يوهمو الناس أن ذلك (البيت) هو بيت المقدس. وأن ابراهيم بنى البيت الذي في أورشليم، لا هذا البيت الذي هو واقع في مكة. وأن شريكه في بناء هذا البيت هو اسحق وليس اسمعيل. وأن الذبيح كذلك هو اسحاق وليس اسمعيل، الى غيرها من المحاولات الخاطئة الكاذبة، التي بذلوها في هذا الطريق.

الحقيقة السابعة:

ان سيدنا ابراهيم دعا ربه لأمة مسلمة، وهذه الأمة المسلمة لم تكن كأحد من الأمم، بل السياق يوحى الينا أن الأمة التي دعا لها ابراهيم كانت أمة متفردة، لها شأنها ولها وظيفتها ان ابراهيم دعا لأمة تقوم في الدنيا بمهمة الرسل والأنبياء، والدليل على هذا هو نظم الكلام وسياقه.

فانه - عليه السلام - دعا لأمة مسلمة مستميتة في سبيل الله، قبل أن يدعو لبعثة الرسول. وهذا الترتيب له دلالاته وإيحاءاته.

ثم انه - عليه السلام - دعا - لما دعا لبعث الرسول - بأسلوب له دلالاته وإيحاءاته كذلك. ولايضاح كلامنا هذا نلجأ الى مثال من نفس القرآن، فسيدنا زكريا أيضا دعا ربه لاستمرار النبوة في ذريته كما دعا ابراهيم، ولكن شتان بين أسلوبيهما.

ولا بأس بأن نضع أمامنا كلا الأسلوبين حتى ندرك الفرق بينهما.

قال سيدنا زكريا وهو يسأل ربه نفس السؤال:

﴿قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا. ولم أكن بدعائك رب شقيا. وانى خفت الموالى من ورأى وكانت امرأتى عاقرا، فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا.﴾ (٢)

فسيدنا زكريا لم يزد في هذا الدعاء على أن سأل ربه وليا يرثه ويرث من آل يعقوب وسأله أن يجعله رضيا.

(١) انظر للتفصيل (دلائل النبوة) لأبي نعيم، بتحقيق الدكتور محمد رواس قلعه جي : ٨٥/١، ٩٥، ٢٣٧

(٢) سورة مريم : ٤ - ٦

بينما نرى سيدنا ابراهيم لم يقتصر على الدعاء لبعث الرسول بل حدد للرسول وظيفته ومهمته كذلك، حيث قال:

﴿وَرَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فذكر لذلك الرسول في دعائه أربع وظائف :

١ - يتلو آيات الله على تلك الأمة.

٢ - ويعلمهم الكتاب.

٣ - ويعلمهم الحكمة.

٤ - ويزكيهم .

ويعد التأمل في مطالب هذا الدعاء يتبين لنا أن جل اهتمام ابراهيم كان منصبا على تربية تلك الأمة المسلمة وتنشئتها واعدادها وصياغتها على مثال الأنبياء ، حتى تقوم بمهمتها الجسيمة في هذا الكون.

وانطلاقا من اهتماماته تلك دعا لبعثة رسول يحقق تلك الغاية، ويقوم بذلك العمل العظيم أحسن قيام.

ثم يشد انتباهنا كذلك قوله- عليه السلام- : ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ فهذا شيء لم يرد ذكره في سياق ذكر أى أمة من الأمم.

وانما كان هذا من اختصاص الأنبياء - عليهم السلام- فورد - مثلا - في شان المسيح حين بشرت به أمه مريم:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(١)

فلما سأل ابراهيم ربه أن يبعث في تلك الأمة رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة فكأنه سأل أن يرشح تلك الأمة المسلمة بكاملها لمهمة الأنبياء .

وهذه الحقيقة ، التي تشير اليها تلك الآيات بنظمها وسياقها قد جاءت واضحة ومصرحا بها في نفس السورة في قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢)
وستفصل القول في تأويل تلك الآية في محلها باذن الله .

(١) سورة آل عمران : ٤٧ - ٤٨

(٢) سورة البقرة : ١٩٠ / ٢

الحقيقة الثامنة:

لقد ذكرت للنبي ﷺ في هذه الآية أربع وظائف ، وآخرها هي (التزكية) والتأمل في نظم هذه الآية يكشف لنا أن الوظيفة الأخيرة هي الغاية المنشودة، والثلاث الأول من تلك الأربعة هي وسائل للوصول إلى تلك الغاية.

ولقد نبه النبي ﷺ إلى غاية مبعثه فقال:

(بعثت لأتم حسن الأخلاق) (١)

وقال - عليه الصلاة والسلام:-

(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا). (٢)

ولا يبعد أن يكون هذان الحديثان وأمثالهما مستفادة من نظم هذه الآية.

الحقيقة التاسعة:

لقد دعا ابراهيم ربه لانشاء أمة مسلمة ولبعث رسول فيهم، وتأخرت الاستجابة لهذه الدعوة حتى ظهرت بعد قرون وقرون!

هكذا يبدو في بادئ النظر. وهكذا كان الأمر في عالم الواقع.

ولكننا اذا دققنا النظر في نظم هذه الآيات، فان هذه الآيات توحى إلينا بنظمها أن الاستجابة لم تتأخر، وأن الدعوة تلقت بالقبول في لحظتها الأولي. وأن الفترة التي مضت قبل ظهور هذه الأمة كانت فترة اعداد وتحضير لظهور تلك الأمة.

ولم يكن هذا الأمر خافيا على سيدنا ابراهيم ، ولذلك نراه يدعو لبعث نبي في تلك الأمة، مع أنه هو نفسه كان نبيا ، وكان ابنه اسمعيل نبيا، وقد بشر باسحق ومن وراء اسحاق يعقوب.

فلولم يكن يعرف أن دعوة كالدعوة التي طلبها لا بد أن تسبق ظهورها في عالم الواقع فترة اعداد وتحضير طويلة لما قرن الدعوة لأمة مسلمة بدعوة نبي يبعث فيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة. ولهذا كان ابراهيم أول من بدأ هذه العملية - أي عملية اعداد وتحضير لظهور تلك الأمة المسلمة حيث انه وصى بنيهِ بملة الاسلام:

﴿يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون﴾

(١) الموطأ للإمام مالك : باب ما جاء في حسن الخلق : ٩٠٤ / ٢ .

(٢) سنن الترمذي باب ما جاء في حق المرأة على زوجها : ٤٦٦ / ٣ ، رقم (١١٦٢) - والأربعون

الصغرى للبيهقي : الباب السابع والثلاثون ص / ٢٥٤ .

واستمرت هذه السنة فيمن جاء بعده. فيعقوب أيضا وصى بنيه بتلك الوصية كما نص عليه القرآن.

ثم الرسل الذين جاء وامن بعدهم كلهم وصوا بملة الاسلام، وبشروا بظهور أمة الاسلام، وأخذوا ميثاق قومهم أن يؤمنوا بتلك الرسالة المباركة الخالدة اذا أدركهم أوانها.

ونرى هذه الحقيقة واضحة ماثلة فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا وَقَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَالْيَهُ يَرْجِعُونَ.﴾^(١)

الحقيقة العاشرة:

ان هذه الآيات توحى الينا بنظمها أن بني اسرائيل استقاموا على الطريقة الى عهد الأسباط ، ثم عدلوا عن الطريق ، ودبت فيهم المويقات، حتى أرسل اليهم موسى - عليه صلوات الله وسلامه-.

فمن قبل موسى يبتدأ تاريخ انحرافهم. ثم مازالوا فى جماعهم وانحرافهم وعصيان رسلهم ، وما زالوا فى كفرهم وفسوقهم وشقاقهم، حتى ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

ولعل هذا هو السر فى أن القرآن لما أراد فى هذه السورة أن يذكر تاريخ مساوئهم وانحرافهم بدأ من عهد موسى الى ما بعده. ثم أجمل تاريخهم البغيض فى آية واحدة حيث قال تعالى:

(ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول وآتيناعيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)﴾^(٢)

ثم بعد ما أشبعهم لوما وتعنيفاعلى سوء تصرفاتهم، وأراد أن يذكر لهم الملة السوية المستقيمة، التى عدلوا عنها بدأ من عهد ابراهيم الى عهد الأسباط ، حيث قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْأَمَنِ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لرب العلمين. فَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ، يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِاهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِلَٰهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.﴾

(١) سورة آل عمران : ٨١ - ٨٣

(٢) سورة البقرة : ٨٧.

الحقيقة الحادية عشرة:

ونعرف من نظم الآيات كذلك أن سيدنا موسى ومن بعده من الرسل والأنبياء جاءوا-مع ما جاءوا به من البينات والهدى- بالآيات الحسية، التى يسميها الناس (المعجزات) بخلاف من كانوا قبلهم. وليس ذلك الا لما قد تنوعت فى بني اسرائيل من السوء والانحراف ابتداء من عهد موسى الى ما بعده.

ونقول ذلك استنباطا من قوله تعالى:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.﴾^(١) فقد اختار السياق للتعبير عما جاء به ابراهيم ومن بعده من الرسل والأنبياء لفظة (أنزل) حيث قال تعالى: ﴿وما أنزل الى ابراهيم.... الخ﴾.

كما اختار للتعبير عما جاء به موسى ومن بعده من الرسل والأنبياء كلمة (أوتى) حيث قال تعالى: ﴿وما أوتى موسى..... الخ﴾

ولقد تكررت هذه الآية فى سورة آل عمران مع فرق يسير ومع الاحتفاظ بهذا الاختلاف فى التعبير حيث قال تعالى:

﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.﴾^(١) ولا يخفى أن كلمة (أوتى) أعم وأشمل من كلمة (أنزل) حيث ان الأولى منهما تشمل الآيات الحسية المشاهدة مع غيرها من الآيات المتلوة المنزلة، بخلاف الأخرى، فانها لا تشمل الا مساجاء عن طريق الوحى.

وما كان لنا أن ندرك سر هذا الاختلاف فى التعبير ونفس الكلمتين بهذا التفسير الا بالتأمل فى نظم الكلام وسياقه.

فسرى ابن عطية- مثلا- يفسر ﴿وما أوتى موسى﴾ بالتوراة وآياته وما أوتى عيسى بالإنجيل وآياته.^(٢)

وكذلك نسمع أباحيان يقول:

وجاء ﴿وما أنزل إلينا﴾ وجاء ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ تنوعا فى الكلام وتصرفا فى ألفاظه

(١) سورة آل عمران : ٨٤.

(٢) المحرر الوجيز : ١ / ٤٣١.

وان كان المعنى واحدا ، اذ لو كان كله بلفظ الايتاء أو بلفظ الانزال لما كان فيه حلاوة تنوع
فى الألفاظ. » (١١)

فهما لم يفرقا بين مدلول الكلمتين، كما أن الذين سبقوهما، ولم يهتموا بنظام الآيات
لم يفرقوا بينهما.

الحقيقة الثانية عشرة:

وينكشف لنا بالتأمل فى نظم هذه الآيات أن بني اسرائيل لما عدلوا عن الطريق وتغلغل فيهم
الشر والفساد، صاروا شيعا وأحزا با بطبيعة الحال.

ثم طفقوا يفرقون بين الرسل والأنبياء فأمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم الآخرين. فحبب حزب
كان بغیضا عند الآخرين، وبغیضهم كان حبيبا عند غيرهم.

وبما أنهم دب فيهم هذا الانحراف من عهد موسى- عليه السلام- لم يبق عندهم الاحترام
والتوقير الا لمن سبقوا موسى. وهم: ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط. فهؤلاء كانوا
يتمتعون بالاحترام والتوقير وحسن الثناء عند الجميع ، والجميع كانوا ينظرون اليهم بعين الاعتبار
والتقدير.

ولعل هذا هو السر فى أن القرآن لما أراد أن يحتج على يهوديتهم أو نصرانيتهم احتج بهؤلاء
حيث قال تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُونَ ابْنَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كُنَّا هُودًا أَوْ نَصَارَى. قُلْ
أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ؟ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.﴾
فالقرآن اقتصر على الاحتجاج بهؤلاء الأنبياء نظرا لهذا الوضع وإلا فغيرهم أيضا لم يكونوا
هودا أو نصارى وإنما كانوا مسلمين.

ولذلك لما أراد القرآن أن يذكر عن ملة الاسلام أنها ملة ابراهيم وملة جميع الأنبياء والمرسلين، لم
يفادرنهم أحدا ، وجمعهم جميعا فى آية واحدة حيث قال تعالى:

﴿هَؤُلَاءِ أَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ. لَنُفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.﴾
هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمل فى نظم تلك الآيات، فله الحمد أولا وآخرا، وله الحمد
ملء الأرض وملء السموات.

والآن، وقد انتهينا من تلك الآيات، نبدأ فيما بعدها، سائلين الله - عزوجل - أن يتولانا
ويسدد خطانا. إنه ولينا ومولانا.

نظم الآيات (١٤٢-١٥٢)

قال ربنا تبارك وتعالى:

«سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله. وما كان الله ليضيع ايمانكم، ان الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنيك اذا لمن الظالمين. الذين أتينا هم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا، ان الله على كل شئ قدير. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وانه للحق من ربك ، وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، لنلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون. فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون.»

لقد مر معنا فى الآيات السالفة أن سيدنا ابراهيم دعا- وهو يرفع قواعد البيت - لأمة مسلمة ودعا لرسول يبعث فيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

فإنه - عليه السلام- رضى لنفسه ملة الاسلام. وأراد أن تستمر هذه الملة فى ذريته من بعده.

فأخرجت هذه الأمة وبعث هذا النبى استجابة لدعوته، حتى يوا صلوا المسير على ملته وعلى طريقته، بعد أن رغب عنها بنو اسرائيل، وتخلوا عنها وتعلقوا بأهداب اليهودية أو النصرانية مما اليها.

وكانت الكعبة هى عماد هذه الملة وأساسها، وكانت بمنزلة القلب فى جسدها، وقد أمر الله باتخاذها قبلة ومصلى، كما مر ذلك بشئ من التفصيل فى الفقرة السالفة.

ولكن بني اسرائيل - على الرغم من هذا كله- عدلوا عنها بعد ما ضربت السفاهة فيهم بجرائنها وورست فيهم أوتادها.

فلما أنشأ الله هذه الأمة ، استجابة لدعوة ابراهيم ، وأراد أن يقيمها على ملته ، أعادها-
بطبيعة الحال - الى قبلته.

وكانت هذه الاعادة الى قبلة ابراهيم دليلا على أن هذه الأمة هي تلك الأمة التي دعا
لها ابراهيم.

وماليت القرآن أن أوماً اليه ايماء حيث ذكرهم بهذه المناسبة تلك المهمة التي كان يريد لهم
ابراهيم . قال تعالى:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾
ولقد ذهب الناس في تأويل هذا الشطر من الآية عدة مذاهب ، ولكن أوفقها للسياق وأقربها
للسواب قول من قال في تأويله:

معناه لتنتقلوا اليهم ما علمتموه من الوحي والدين كما نقله رسول الله ﷺ . (١)
يزداد هذا المعنى وضوحا سفورا حين نضع في اعتبارنا نظير هذه الآية في سورة الحج ،
حيث قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا
فى الله حق جهاده. هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج. ملة أبيكم ابراهيم. هو
سماكم المسلمين من قبل وفى هذا، ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس،
فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير.﴾ (٢)
فهذا الخطاب الا لى الكريم يكشف لنا عدة أمور وهى كما يلى.

١ - إن الأمة المسلمة ، وهم صحابة رسول الله ﷺ كانوا أمة مجتباة.

٢- إن أباهم ابراهيم سماهم مسلمين ، وربهم أيضا سماهم مسلمين فى هذا القرآن ، واجتباهم
على العالمين ليكونوا شهداء على الناس فى هذه الدنيا.

٣ - إن هذه الشهادة لا تتم إلا بأن يجاهدوا فى الله حق جهاده.

٤ - لا بد لأداء هذه الشهادة من اعداد سابق باقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله. وبعد
هذا الاعداد يكون الله معهم وينصرهم فى محجاز هذه الشهادة.

إن هذه الأمور كلها تسوقنا سوفا الى ما أشرنا اليه مسبقا ، وهو أن هذه الشهادة عبارة عن
القيام بتلك المهمة التي بعث لأجلها الرسل والأنبياء . وسيدنا ابراهيم دعا لهذه الأمة ، حتى تقوم هى
الأخرى بتلك المهمة على صعيد عالمي ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

(١) تفسير البحر المحيط : ١ / ٤٢٢.

(٢) سورة الحج : ٧٧ / ٧٨.

ولقد ذكر المسلمين بمهمتهم هذه أكثر من مرة حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (٢)

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

وعلى هذا فيكون هذا الشطر من الآية تنبيها من الله- تبارك وتعالى- الى تلك الكرامة التي خص بها الأمة المسلمة، حيث رفعها - استجابة لدعوة أبينا ابراهيم- الى منزلة الأنبياء- عليهم السلام- وناط بها ماناظ بهم من مهمة الارشاد والتوجيه والشهادة على الناس.

ومن هنا قال النبي ﷺ فيما رواه أبان وليث عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت:-

(أعطيت أمتي ثلاثا لم تعط الا الأنبياء... (منها) وكان الله اذا بعث النبي جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس) خرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في (نوارد الأصول) (٤)
وبما أن هذه الأمة قامت في هذه الدنيا بدور الأنبياء فسيكون لها- باذن الله - شأن خاص عند الله يوم القيامة، كما روى ابن جرير عن زيد بن أسلم أن الأُمم يقولون يوم القيامة:
(والله لقد كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلهم لما يرون الله أعطاهم) (٥)

والآن، وقد تبين لنا التأويل الصحيح للآية نرجع الى حديثنا الأول، فنقول: إن تحويل المسلمين الى قبلة ابراهيم لم يكن أمرا يسيرا، وانما كان هذا اعلانا بظهور أمة كانت دعوة ابراهيم، وهو يرفع قواعد البيت، وكان اعلانا بمهمتها السامية الجليلة، التي ستقوم بها في رحاب هذا الكون:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

وهنا يثور سؤال: اذا كانت هذه الأمة قد ظهرت اسجابة لدعاء ابراهيم ، وكان من مهمتها أن ترفع لواء ملته ، فلما ذاك ان هذا التأخير في تحويلها الى قبلته؟

فقد كان من المفروض أن تستقيم الأمة على قبلتها قبل أن تبدأ مسيرها الى غايتها.

فيجيب السياق على هذا السؤال ويبين الحكمة في هذا التأخير:

(١) سورة المائدة : ٨.

(٢) سورة النساء : ١٣٥.

(٣) سورة آل عمران : ١٤٠.

(٤) الجامع الأحكام القرآن: ٢ / ١٥٥.

(٥) تفسير الطبري : ٢ / ١٠، ولقد وردت هذه الرواية ايضا بهذا اللفظ : (وتقول الأُمم: كادت هذه

الأمة أن تكون أنبياء كلها. أنظر مستند الإمام أحمد : ١ / ٢٩٦.

﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع إيمانكم، ان الله بالناس لرؤف رحيم﴾.

وبيانه أن الله تعالى لم يأمر باستقبال بيت المقدس الا ليختبر الناس ويعلم من يسلم لأمره ممن لا يسلم. فإن هذه القبلة- وهى بيت المقدس- كانت ثقيلة على النفوس، وما كان ليتوجه اليها من غير أهل الكتاب إلا من استنار قلبه بالهدى والايمان.

ولقد كان الدكتور دراز- رحمه الله- موفقا كل التوفيق حيث قال وهو يدرس هذه الآيات:

« إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختبارا لايمان المهاجرين ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه. » (١)

والاستاذ الامام سيد قطب أيضا يرى نفس الرأى، ولقد تناول - رحمه الله - هذا الموضوع بالبيان والايضاح، وكتب كلاما فى غاية الروعة والجمال، حيث قال:

« واذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التى كانوا عليها، بمناسبة تحويلهم الآن عنها:

﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التى يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة، التى يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلقة فى الأرض تحت راية العقيدة. إنه يريد لها أن تخلص له، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رغابها الدفينة، وأن تتعزى من كل رداء لبسته فى الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد فى حسها شعار الاسلام وحده لا يتلبس به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذى تتلقى منه لا يشار كه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه الى البيت الحرام قد تلبست به فى نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة، وشابت عقيدة جددهم ابراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس، اذ كان البيت يعتبر فى ذلك الحين بيت العرب المقدس.. والله يريد أن يكون بيت الله المقدس، لا يضاف اليه شعار آخر غير شعاره، ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته.

لما كان الاتجاه الى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة، ووجههم الى بيت المقدس، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول ﷺ ثانيا، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة، فاستراحت نفوسهم الى هذا الابقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة.

(١) النبأ العظيم : ص / ١٨٧.

انها لفترة دقيقة شديدة الدقة ... ان العقيدة الاسلامية لا تطبق لها في القلب شريكا ، ولا تقبل شعارا غير شعارها المفرد الصريح ، انها لا تقبل راسبا من روايب الجاهلية في أية صورة من الصور. جل أم صفر. وهذا هو ايعاء ذلك النص القرآني: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.. و الله - سبحانه- يعلم كل ما يكون قبل أن يكون. ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس، حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، فهو- لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم.

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقه.. أمر شاق، ومحاولة عسيرة... إلا أن يبلغ الايمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به ويهديه اليه:

﴿وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾..

فاذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب، وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع، حيشما وجهها الله تنجه ، وحيشما قادها رسول الله تقاد. (١)

وعلى هذا فالذين هداهم الله استجابوا لأمره، ويادروا الى تنفيذه، وأما من سواهم فهم لم يرضخوا لأمر الله، ولم يتبعوا الرسول وانقلبوا على أعقابهم. واليه الاشارة في قوله تعالى:

﴿وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾

فكان هذا القول، حسبما يوحيه الينا السياق، تعليلا لاختيار هذه القبلة كمادة للاختبار، فانها بكونها ثقيلة على النفوس- والاختبار دائما يكون بشئ يثقل على النفوس- مازت من يتبع الرسول ممن لا يتبعه.

قول في غاية الضعف:

ومن هنا يتبين ضعف ما قاله الامام ابو جرير في تأويل ما نتحدث عنه من قوله تعالى: ﴿وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ حيث قال:

« قال بعض نحوي البصرة: أنثت الكبيرة لتأنيت القبلة، وإياها عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿وان كانت لكبيرة﴾. وقال بعض نحوي الكوفة: بل أنثت الكبيرة لتأنيت التولية والتحويل.

وهذا التأويل أولى التأويلات عندي بالصواب ، لأن القوم انما كبر عليهم تحويل النبي ﷺ وجهه عن القبلة الأولى الى الأخرى لآعين القبلة ولا الصلاة، لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت وهى غير كبيرة عليهم (٢)

(١) في ظلال القرآن : ١ / ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) تفسير الطبري : ٢ / ١٦.

ولاندري كيف يذهب ابن جرير - رحمه الله - الى هذا القول:

فهذا القول لا يستقيم مع العبارة كما لا يستقيم مع السياق .

أما العبارة فهي لا تقبل أبدا تلك التقديرات التي قدرها - رحمه الله - فليست هناك أية قرينة تدل على أن المراد بـ « القبلة » في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ هو التحويلة عن القبلة والتولية عنها حتى نقول: (بل أنشئت الكبيرة لتأنيث التولية والتحويلة).

وأما السياق فهو لا يقبل قوله: (لأن القوم إنما كبر عليهم تحويل النبي ﷺ وجهه عن القبلة الأولى الى الأخرى لاعتين القبلة والصلاة، لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت وهى غير كبيرة عليهم)، فالسياق ينادى بصراحة أن القبلة الأولى هى التى كبرت على النفوس وكانت غصة لا يستسيغها إلا من هداهم الله وتولاهم بعنايته وتوفيقه.

وإذا أردنا أن نعرف مدى ثقل هذه القبلة على النفوس فيكفي أن نتذكر ما أخرجه أبو داود فى ناسخه عن أبي العالوية من أن رسول الله ﷺ نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل: «وددت أن الله صرفنى عن قبلة اليهود الى غيرها» فقال له جبريل: «إنما أنا عبد مثلك، ولا أملك لك شيئا إلا ما أمرت، فادع ربك وسله.» فجعل رسول الله ﷺ يديم النظر الى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل. (١)

فإذا كان النبي ﷺ نفسه يسمى تلك القبلة (قبلة اليهود) وكان يود أن يصرفه الله عنها ، فما ظننا بمن سواه من أصحابه

وقلق المسلمين وخوفهم على اخوانهم الذين قتلوا أو ماتوا قبل تحويل القبلة أيضا يؤكد لنا هذا الوضع.

فإنهم ما كان يحزنهم إلا شعورهم بأن هذه النعمة العظيمة السابقة التى ساقها الله اليهم بتحويلهم الى قبلة ابراهيم ، لم يكن لإخوانهم الماضين منها نصيب. وإنما كان من نصيبهم أن يموتوا على قبلة لم تكن تزيد على أن تكون وسيلة للاختبار:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾

وأما القول بأن تحويل القبلة هو الذي كبر على المؤمنين، فهذا قول يردده الواقع.

فالواقع أن القوم استقبلوا أمر تحويل القبلة- لما حوت - بلهفة وحنين وشوق عجيب كما يظهر عما رواه البخارى وغيره من أن رجلا صلى مع النبي ﷺ ثم مر على أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت. (٢)

(١) الدر المنثور : ١ / ٣٤٣ - ٣٤٤ ، ووفاء الوفاء : ١ / ٣٦٣ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب تفسير القرآن باب ١١ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا : ٥ / ١٥١ .

هذه المبادرة العجيبة الى تنفيذ هذا الأمر ان دلت على شئ فانما تدل على لهفة القوم و شوقهم الى هذا التحويل بخلاف ما ذهب اليه ابن جرير.

وأما الذين كبر عليهم هذا التحويل فهم سفهاء اليهود، الذين نص عليهم القرآن.
«سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها».

ثم قال تعالى: «وما كان الله ليضيع إيمانكم. ان الله بالناس لرؤوف رحيم»
أي هذا الاختبار وهذا الابتلاء كان ضروريا للحفاظ على إيمان المؤمنين، فإن الجماعة إذا كانت تضم إليها الكاذب والصادق والمؤمن والمنافق فإن هذا سيكون- ولا محالة- مجلبة شر وضياح لصدق الصادقين وإيمان المؤمنين، ولا يلبث داء الكذب والنفاق أن يعم وينتشر ويتعدى الى الجميع.
ولذلك كان من سنة الله الجارية- لشدة رأفته ورحمته بعباده المؤمنين- أن يبثلى أتباع الرسل الفينة بعد الفينة حتى يميز الخبيث من الطيب ويعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.
فتكون هذه الابتلاءات رحمة للمؤمنين الصادقين ووباء لا على الكاذبين المنافقين.

وعلى هذا فقوله تعالى:

«وما كان الله ليضيع إيمانكم. ان الله بالناس لرؤوف رحيم» يشبه فى معناه قوله

تعالى فى سورة آل عمران:

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فأمنوا بالله ورسله، وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» (١)

وبعد ما ينتهى السياق من بيان حكمة التأخير فى شأن تحويل القبلة يتوجه الى النبى ﷺ
فيأمره وبالتالي يأمر الأمة المسلمة بتولية وجوههم شطر المسجد الحرام ويبين فى نفس الوقت حقيقة الخلاف والشقاق واللجاج الذي سيواجهه المسلمون من قبل أهل الكتاب حتى يكونوا على بينة من أمرهم ويعتصموا بالصمود وصدق العزيمة اذا اشتد ضغط الظروف عليهم.

ويستمر هذا الحديث الى أن تنتهى الفقرة بقوله تعالى:

«فأذكروني أذكركم واشكرواالى ولا تكفرون»

وقبل أن نبدأ فى الفقرة التالية نريد أن نلمع الى أمور وحقائق تستنبط من نظم هذه الآيات، فإنها هامة جدا، وهي كما يلي:

(١) سورة آل عمران : ١٧

الحقيقة الأولى:

كان الأصل فى هذه الأمة - كما نستوحى مما سبق من الآيات- أن تبدأ رحلتها الى ملة ابراهيم باستقبال المسجد الحرام الذي هو قبلة ابراهيم . وكان المفروض أن تكون هذه هى أول خطوتها فى هذا الطريق ، ولكن أجل هذا الأمر الى ما شاء الله لحكمة أرادها . فبدأ الله هذا الباب - وهو الباب الذي يمتاز براز معالم هذه الملة- بموضوع تحويل القبلة، حتى ننتبه عن طريق النظم لحقيقة الأمر ونعرف مكانة هذه القبلة فى هذه الملة . فالتوجه الى هذه القبلة هو المدخل الى ملة الاسلام. ويقدر تعظيم المرء لهذا البيت وحنينه اليه يكون له نصيبه من نعمة الاسلام.

الحقيقة الثانية:

لقد اختلف الناس فى تفسير تقلب وجه النبى ﷺ فى السماء على عدة أقوال.

إلا أن ما يوحيه إلينا نظم الكلام وسياقه هو أن النبى ﷺ قد أدرك من الآيات التى مضت معنا فى الفقرة السابقة أن القبلة- فى الواقع- هى الكعبة. والذين اتخذوا بيت المقدس قبلة لهم إنما اتخذوه لسفاهتهم وورغبتهم عن ملة ابراهيم، كما أدرك- عليه السلام- أن القرآن لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة إلا ليعيد الأمر الى نصابه. وكان - عليه السلام- على يقين من هذا الأمر ولكنه كان ينتظر الوحي بذلك.

وما يؤيد ذلك ما أخرجه أحمد والبيهقي فى سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

(انهم - يعنى أهل الكتاب - لا يحسدونا على شئ كما يحسدونا على الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الامام أمين.) (١)

والجزء الأخير من هذه الآية نفسها يلعب بنظمه الى هذه الحقيقة حيث قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾

فما كان تطلع النبى - عليه السلام- وحنينه الى هذه القبلة إلا لما عرف أنه هو الحق وأى شئ يكون أحب الى النبى وأثر عنده من الحق ؟

ولا يفوتنا التنبيه هنا الى أن تقلب الوجه فى السماء ليس عبارة عن الرغبة أو التمنى أو الدعاء، وإنما هو عبارة عن الانتظار والترقب فى غاية الشوق والرضا. وما كان - عليه السلام- ليملى

(١) مسند الامام أحمد : ١٣٥/٦

والآيات التي مضت معنا في الفقرة السابقة كانت واضحة الإشارة الى أن القبلة ستحول الى البيت الذي بناه ابراهيم. فكان - عليه السلام- ينتظر بلهفة ما قد توقع وقوعه وعرف حدوثه من نفس القرآن.

لقد مضت معنا في أول السورة موعظة ربنا لبنى اسرائيل بعدم كتمان الحق حيث قال تعالى:

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِيهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾

ثم وصمهم الله هنا بتلك الجريمة حيث قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.﴾

هذا النظم وهذا التكرار يبين لنا مدى جهد اليهود لكتمان أمر القيلة، ويبين لنا مدى اهتمامهم بمحو معالمها وآثارها، كما يبين لنا أن هذا الكتمان هو الذي قطع عليهم الطريق وكان سدا منيعا في طريق اقبالهم الى الحق. فكلما أرخوا سدول الكتمان على هذا الحق كرههم الحق وعاداهم. حتى انفصلوا من ملة ابراهيم انصفا لا لا وصلة بعده . كما قال تعالى:

﴿وَلَنَنْتَبِهَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾

(3.4)

الحقيقة الرابعة:

قال تعالى:

﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾

فأمرنا ربنا باستباق الخيرات، ثم أordفه قائلا:

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾

هذا النظم يدل على أن المسجد الحرام هو جماع الخيرات كلها. فمن أراد أن يستبق الخيرات فليقر صلاته بهذا المسجد .

ولعل هذا هو البسر في تسمية الكعبة بـ «الكوثر» في رأى من يفسر «الكوثر» بالكعبة،

كما ذهب اليه بعض أئمة التفسير مثل الامام الفراهي - رحمه الله - (١)

الحقيقة الخامسة:

قال ربنا - تبارك وتعالى :

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره .

لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني﴾

ثم قال تعالى:

﴿ولأنتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون.﴾

(هذا النظم يفيد أن النعمة والهداية لهما ارتباط خاص بهذا البيت. فمن سره أن يكون فى موكب

الهداية والنعمة فلا بد له أن يصل حبله بهذا البيت . هكذا نستنبط من نظم هذه الآية.

ثم اذا رجعنا قليلا وألقينا النظر فيما سبقها من الآيات تأكد لنا صحة هذا القول:

وبيانه أن الله تعالى قال في سورة الفاتحة على لسان هذه الأمة المسلمة الخاشعة:

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾

ثم نادى فى هذه السورة هؤلاء الذين ضلوا وجلبوا على أنفسهم غضب الله ثلاث مرات. ودعاهم

الى أن يتذكروا ما كانوا يتقلبون فيه من عظيم فضل الله وسابغ نعمته. وناداهم أن يرجعوا عما هم

فيه من نقض العهد وكتمان الحق، حتى يعودوا الى ما كانوا فيه من جديد:

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى

(١) انظر تفسير سورة الكوثر للفراهي - رحمه الله - : ص ١-٣

فارهبون... ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون.﴾ (١)

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العلمين.﴾ (٢)

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العلمين.﴾ (٣)

ثم وصى فى هذه الآية تلك الأمة المسلمة الناشئة، المتطلعة الى النعمة والهداية، أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام حتى يتم عليهم النعمة ويربطهم بمركز الهداية:

﴿ولأنتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾

كما وصم قبل ذلك بني اسرائيل أنهم كتموا أمر هذا البيت وارتكبوا جريمة كتمان الحق- وقد حذروا منها فى هذه السورة عدة مرات- وكأنهم بذلك رفضوا أن يعودوا الى ما كانوا فيه من النعمة والهداية:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين.﴾

إذا جمعنا هذه الأمور بعضها الى بعض تبين لنا- كما ذكرنا- أن الله تعالى ربط النعمة والهداية بهذا البيت. فمن وصل حبله بهذا البيت كان فى ظل النعمة والهداية ومن قطع حبله عنه انقطعت عنه النعمة والهداية.

وهذا الذي حصل مع أهل الكتاب ، فانهم ما لبثوا أن قطعوا حبلهم عن هذا البيت فزالت عنهم النعمة وانقطعت عنهم الهداية ، حتى أتى الله بهذه الأمة وربطها بهذا البيت ليتّم عليها النعمة ويسكب عليها من فيض الهداية.

الحقيقة السادسة:

قال ربنا - تبارك وتعالى- بعد ما أمر بالتوجه الى البيت :

﴿ولأنتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾

ثم قال تعالى:

﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم الآية﴾

(١) سورة البقرة: ٤٠-٤٢

(٢) سورة البقرة: ٤٧

(٣) سورة البقرة: ١٢٢

هذا النظم يفيد أن هذا البيت وهذا الرسول كليهما صنوان فالهداية والنعمة مرتبطتان بهذا الرسول كما أنهما مرتبطتان بهذا البيت. ولقد أنعم الله على هذه الأمة بهذا الرسول كما أنعم عليها بهذا البيت.

الحقيقة السابعة:

لقد ذكرت هناك أربع وظائف لنبيينا - عليه الصلاة والسلام- وهى تلاوة الآيات، والتزكية ، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة ، كما قال تعالى:

﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

وهى نفس الوظائف التى ذكرها سيدنا ابراهيم - عليه الصلاة والسلام- حين دعا لهذا الرسول وهو يرفع قواعد البيت ، حيث قال تعالى:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك انت العزيز الحكيم﴾.

ولكن النظم يختلف فى كلا الموضعين، حيث ان « التزكية » ذكرت هنا بعد تلاوة الآيات ثم ذكر تعليم الكتاب والحكمة ، بينما نرى فى دعوة سيدنا ابراهيم - عليه الصلاة والسلام- أن التزكية هى رابعة الأربعة. فقد ذكرت فيها تلاوة الايات ، ثم تعليم الكتاب، ثم تعليم الحكمة ثم التزكية.

ثم إن هذا المضمون ذكر فى موضعين آخرين من القرآن غير هذين الموضعين وهما سورة آل عمران وسورة الجمعة.

فقد ذكر فى سورة آل عمران هكذا.

﴿لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (١)

كما ذكر فى سورة الجمعة هكذا.

﴿هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (٢)

(١) سورة آل عمران: ١٦٤

(٢) سورة الجمعة: ٢

والأمر الذي يستدعى الانتباه هو أن هذا المضمون ذكر في المواضع الثلاثة على نظم واحد ، وهو غير النظم الذي ذكر عليه في دعوة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

ولقد دلنا القرآن بهذا النظم ، أو بهذا الاختلاف في النظم على حقائق مهمة جدا . فقد دلنا بنظمه الأول - وهو النظم الذي وردت عليه دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام- على أن التزكية هي غاية الغايات . وهي أقصى ما يطالب به العبد. ولأجلها بعثت الرسل والأنبياء ، ولأجلها بعث نبينا ﷺ ، ولقد صرح النبي ﷺ بهذا الأمر حيث قال:

(بعثت لأتم حسن الأخلاق) (١)

كما دلنا بنظمه الثاني - وهو النظم الذي وردت عليه الآيات الثلاث الأخر- على أن التزكية، وإن كانت غاية الغايات، فإنها في تحققها وظهورها ليست خاضعة للترتيب المنطقي البحث ، بل هي تتحقق- إذا تحققت- أو تظهر- إذا ظهرت- من أول الطريق . وهي تكون أول زاد للمقبل الى الله.

وبيان ذلك أن تلاوة الآيات وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة ، هذه الأمور كلها بمنزلة الوسائل الموصلة الى الغاية المنشودة وهي التزكية. ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الغاية تنتظر لوجودها أو تحققها أن تتحقق أولا. تلك الوسائل كلها تحققت كاملا، ثم تتبعها هذه كما هو المعهود في شأن الوسائل والغايات. بل هذه الغاية تتفاعل مع تلك الوسائل من أول أمرها وتخدمها وتنميتها و تحدونها الى الأمام وتبلغ بكمالها الى كما لها.

وعلى هذا إذا تخلفت هذه الغاية ولم يقدر لها أن تلازم تلك الوسائل فإن تلك الوسائل لن تعمل عملها ولن تؤتي أكلها.

وبعبارة أدق، فإن علم الكتاب والحكمة يتوقف أمره على أن يكون الدافع اليه هو الحرص على التزكية. ولو أراد انسان أن يكسب هذا العلم بدون تصحيح النية أو بدون الحرص على التزكية فلن يبلغ ما يؤمله ولن يعطى ما يمتناه.

وهكذا تكون النتيجة إذا عكس الأمر فلو أراد انسان أن يتزكى وهو يستهين بما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وحاول أن يبلغ مناه عن طريق غير هذا الطريق كما فعل التصرفة- مثلا - فلن

(١) الموطأ للإمام مالك: باب ما جاء في حسن الخلق: ٩٠٤/٢

يجنى إلا الندم ولن يملأ يديه إلا التعب والنصب. وسيكون مثله كباسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو بهالغه.

وبعد الاطلاع على ما يوحيه الينا هذا النظم من تلك الحقائق القيمة، نريد أن نعلم مناسبة كل من هذين النظمين لسياقهما وللملابسات التى تحيط بهما، فنقول وبالله التوفيق:

ان التزكية اذا كانت فكرة مجردة تعيش فى الذهن، أو أمنية خالصة تجول فى القلب ، أو بندا من بنود مخطط العمل فمحلها فى الأخير ولا شك.

محلها فى الأخير باعتبارها هدف الأهداف وغاية الغايات. فان الغاية من شأنها أن تذكر فى الختام، ومن شأنها أن تكون هى نهاية القائمة، اذا عملت للأعمال قائمة، كما نرى فى دعوة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأما اذا كانت الدعوة قد سبقت هذه المرحلة- مرحلة كونها فكرة مجردة، وكانت قد بدأت فعلا، وأصبحت حقيقة عملية واقعية، وكان الرسول أو الداعى واقفا فى مجال العمل والجهاد، كما نرى فى المواضع الثلاث الأخر ، حيث ان هذه الآيات نزلت والنبي ﷺ فى جهد جاهد وشغل شاغل من تلکم الأعمال التى بعث لأجلها ، فإن التزكية لا تكون اذا آخر الأمور ظهورا وتحققا ، بل تواكب الدعوة خطوة خطوة وتنضج شيئا فشيئا حتى تبلغ كما لها حينما تصل الدعوة الى نضجها وكمالها.

ولذلك اختلف النظم فى تلك المواضع الثلاث، وقدم فيها ذكر التزكية عن موضعها فى الآية الأولى.

هذا ، وقد تكون هناك أسباب أخر لاختلاف هذا النظم فى تلك المواضع الثلاث، فيمكن مثلا أن نقول فى هذه الآية، التى نتحدث عنها ، ان السياق هنا اراد بهذا التقديم والتأخير أن يركز على ناحية العلم و ينوه بشأنه . ولذلك جعل تعليم الكتاب والحكمة فى آخر الآية . والزيادة التى جاءت فى آخر الآية ترشدنا الى ذلك حيث قال تعالى:

﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

ويمكن أن نستأنس لقولنا هذا بما سبق هذه الآية من قوله تعالى:

﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذا لمن الظالمين﴾

ومثله ما جاء قبل هذه الآية.

﴿وَلَوْ أَنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَ هُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
فالجو هنا جو التنويه بما جاء من العلم من عند الله .

الحقيقة الثامنة:

وبعد ما انتهى السياق من ذكر تحويل القبلة جاءت هذه الآية:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾

وهذه الآية كما لا يخفى آية عهد وميثاق بيننا وبين ربنا. وهي تشبه بمضمونها قوله تعالى لبني

اسرائيل:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ وَأَيُّيَ
فَارْهَبُونُ﴾

فمجيئ هذه الآية بعد ذكر تحويل القبلة يدل عن طريق النظم على أن القبلة هي معقد ميثاق
بيننا وبين ربنا.

ومن هنا اعتبرت الصلاة لما لها من صلة خاصة بهذه القبلة عنوان هذا العهد. وقال نبينا ﷺ:

(العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر) (١)

وقال عليه الصلاة والسلام:

(خمس صلوات كتبهن الله عزوجل على العباد، فمن جاء بهن، لم يضيع منهن شيئا، استخفافا
بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة. ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه
وإن شاء أدخله الجنة) (٢)

ثم ربط هذا الميثاق بهذه القبلة في سياق ذكر أهل الكتاب يشير إلى أن أهل الكتاب نقضوا -
أول ما نقضوا- عهدهم بتخليهم عن هذه القبلة ورغبتهم عنها.

ثم رغبتهم عن هذه القبلة هي التي أفضت بهم إلى اضاعة الصلاة، فهم أضاعوها أى اضاعة
حتى لم يبقوا لها أثرا ولا تركوا لها ذكرا في شريعتهم !!

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نأخذ فيما بعدها من الآيات.

(١) سنن الترمذى : باب ما جاء فى ترك الصلاة : ١٤/٥ ، رقم الحديث (٢٦٢١)

(٢) الموطأ للإمام مالك : باب الأمر بالوتر : ١٢٣/١ ، رقم الحديث (٢١٤)

نظم الآيات (١٥٣ - ١٦٢)

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ. بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ. إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ. فَمَنْ حُجِ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكُمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ.﴾

لقد بينا فيما مضى أن الكعبة بنيت على ملة الاسلام ، بل هي قطب رحا هذه الملة. وبيننا كذلك أن العنصر الأساسي في معنى «الاسلام» هو البذل والتضحية في سبيل الله، وبيننا أن تحويل المسلمين الى الكعبة المشرفة لم يكن خطبا يسيرا، بل كان ذلك اعلانا بظهور أمة قد دعا لها ابراهيم وهو يرفع قواعد البيت. وكان اعلانا بمهمتها السامية الجليلة التي ستقوم بها في رحاب هذا الكون، وهي الشهادة بالحق على الناس - المهمة التي بعث لأجلها الرسل والأنبياء..

فبعد ما انتهى السياق من تقرير القبلة التفت الى المسلمين يذكرهم مهمتهم تلك ويحفزهم الى القيام بها والتهيئ لها... المهمة التي بنيت لها الكعبة، وأنشئت لأجلها هذه الأمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ. بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ.﴾

ثم ابراهيم ، الذي أنشأ هذه البنية ودعا لهذه الأمة، ما بلغ ما بلغ إلا بعد ما ابتلى بكلمات فأقمن، فأحرى بالأمة التي أنشئت استجابة لدعوته واجتبيت لرفع لواء ملته، أن تبتلى وأحرى بها أن تحصى ، فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.﴾

ومثله ما جاء فى سورة محمد حيث قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (١)

وعلى هذا فتلك الآيات الخمس جاءت كالجملـة المعترضة فى هذا السياق لاستجـاشة همـ المسلمـين وتحريضهم على القيام بتلك المهمة الجليلة التى نيطت بهم ولتذكيرهم برسالة القبلة التى يستقبلونها فى صلاتهم.

ثم عاد الكلام الى ماكان فيه من أمر البيت وما يتصل به:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ. فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

جاءت هذه الآية لتفـضح بني اسرائيل وتكشف ما أرادوا كتمانـه من أمرالصفا والمروة وكونها من شعائر الله، فانهم كما أرخوا سدول الكتمان على بيت الله الحرام حيث قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢)

فكذلك أرخوا على جميع معالـمه وأرخوه على كل شـئ يـمـت اليه بـصلة ويوشك أن يبوح بسرهم ويكشف عن دسائسهم.

فكتموا «المروة» التى اختارها الله لأن تكون موضع قربان سيدنا اسمعيل وحرفوها فى كتبهم عن «مروة» الى «موريا» و «مورة» و«مريا» وادعوا أن هذا المكان يوجد فى أورشليم لا فى مكة التى يعمرها بنو اسمعيل. (٣)

إنهم لم يألوا جهدا فى كتمان مكان الصفا والمروة وفى تعمية أمرهما باعتبارهما من أبرز معالم القبلة الابراهيمية، التى رغبوا عنها لمجرد كونها فى أرض بنى اسمعيل.

فجاءت هذه الآية تكشف عن تلك المحاولة الخبيثة، وتعلن للناس أمرهما وتبين لهم أنهما من شعائرالله:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

(١) سورة محمد: ٣١

(٢) سورة البقرة: ١٤٦

(٣) ومن أراد زيادة البيان فى هذا الموضوع فليراجع (الرأى الصحيح فىمن هو الذبيح)

للامام عبدالحميد الفراهى ص/٢١-٢٢

كلمة موفقة للأستاذ عبدالله دراز:

ومما يسرنا ويدخل البهجة فى نفوسنا أن الأستاذ عبدالله دراز أيضا وصل بفضل التأمل فى نظم الآية وسياقها الى نفس التأويل، فله الحمد.

يقول- رحمه الله - فى كتابه «النبأ العظيم» وهو يتكلم عن نظام هذه الآيات:

«.. ثم أوما الى أن الجدل فى هذه القبلة ليس صدا عن الشعائر التى فى داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صدّ عما حوله من الشعائر. «أن الصفا والمروة من شعائر الله»

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلها فى تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون. «^(١)

وبعد ما ينتهى النص من تقرير القبلة وتأكيد أمر هاتين الشعيرتين يتوجه الى أهل الكتاب يشبعهم لوما وتعنيفا على كتمانهم ما أنزل الله من البينات والهدى ويتوعددهم بسوء مصيرهم ان لم ينتهوا عما هم فيه من الكفر والكتمان:

«إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. ان الذين كفروا وما توا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.»

وقبل أن نبدأ فى الفقرة التالية نود أن نشير الى بعض الحقائق التى تستنبط من نظم هذه الآيات فنقول وبالله التوفيق:

الحقيقة الأولى:

قال ربنا تبارك وتعالى:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة. ان الله مع الصابرين.»

يستفاد من نظم هذه الآية أن الصلاة هى التى تمد المؤمن بالصبر. ويقدر لجوء المرء الى الصلاة تنشأ فيه قوة الصبر.

(١) النبأ العظيم: ص/ ١٨٨

ولعل هذا هو السر في أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان يكثر من الصلاة وكان يفرغ اليها اذا حزنه أمر. فقد روى أبوداود عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال:
«كان النبي ﷺ اذا حزنه أمر صلى .» (١)

الحقيقة الثانية:

ويستفاد كذلك أن الصبر على لأواء الكفاح وشدائد الجهاد في سبيل الله هو الغاية من الصلاة. وهو المقياس الدقيق لحسن صلاة المرء وكمالها ، فكلما حسنت الصلاة واستكملت شروطها زودت المرء بزيادة الصبر والصمود في سبيل الله. وان كان المرء هلوعا جزوعا جبانا هرابا وهو يصلي فهذا يعني انه يصلي ولا يصلي وصلاته تلك لاتغنيه ولا تقنيه ولا ترضيه عند ربه لكونها فاقدة النتيجة.

وهذا يستفاد من نظم هذه الآية حيث جمع الله تعالى بين الصبر والصلاة في الوصية فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾

ثم اقتصر في بيان النتيجة على ذكر الصابرين، فقال:

﴿إن الله مع الصابرين﴾

فذكر الصابرين دون المصلين يشعر أن الصبر و الصمود في سبيل الله هو الغاية من الصلاة، والصلاة وسيلة الى تلك الغاية.

الحقيقة الثالثة:

التأمل في نظم هذه الآيات الخمس (١٥٣-١٥٧) ينبهنا إلى أهمية الصلاة وينبهنا إلى رفيع منزلتها من ناحية جديدة حيث نرى أن هذه الصلاة تغذي المؤمن بالصبر وتغذيّه ثم تسمو به الى أن تكون عليه صلوات من ربه ورحمة. فصلاة العبد لربه سلم الى أن تكون عليه صلوات من ربه ورحمة !!

وهذا الشعور يهز المؤمن هزا ، ويدخل في نفسه من البهجة والسرور ما يجلب عن الوصف.

الحقيقة الرابعة:

قال تعالى :

﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله﴾

يرشد هذا النظم الى أن السعى يبدأ من الصفا الى المروة.

(١) مختصر سنن أبي داود: باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل: ٩٤/٢، رقم الحديث (١٢٧٤)

ولقد فعل نبينا- عليه الصلاة والسلام- هكذا استنباطا من هذا النظم كما نعرف من رواية جابر بن عبدالله «رضى الله عنه» حيث قال وهو يحكي لنا قصة حجة الوداع:

(.. ثم خرج من الباب الى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: «إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ»
أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت . (١)

الحقيقة الخامسة:

التأمل فى نظم هذه الآيات يكشف لنا السر فى كون الصفا والمروة من شعائر الله، فإن الآية: «إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» جاءت بعد التنويه بشأن الصابرين. وهذا النظم يلح علينا أن نلتصم الصلة بين الصفا والمروة وبين هذه الصفة، فإذا بالموضوعين لهما ارتباط بواقعة الذبح، فإن الصفا- كما مر معنا قريبا- كان مسكن إبراهيم واسماعيل - عليهما السلام- والمروة هو المكان الذي قُت فيهِ واقعة الذبح، وكانت هذه الواقعة أروع مثال للصبر فى طاعة الله.

وقد نبهنا القرآن الى هذا الجانب عند ذكره لنا هذه القصة حيث قال تعالى:

فلما بلغ معه السعى قال يا بنى ائنى ارى فى المنام أنى اذبحك فانظر ما ذاترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدنى أن شاء الله من الصابرين.. (٢)

الحقيقة السادسة:

قال تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيْنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» هذه الآية تدل بنظمها أن التوبة لا تتم باللسان وإنما تتم باصلاح الحال والاقلاع عن السيئة التى اجترحها الانسان. فالنطق بالتوبة، اذالم يسانه العمل، لا يعتبر توبة، ولا تبرأ منه الذمة.

الحقيقة السابعة:

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تَوَّاهُمْ كَفَارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»
يستفاد من نظم هذه الآية أن اللعنة تبدأ من الله- سبحانه وتعالى- ثم تنتقل منه - تعالى - الى الملائكة ثم منهم الى الناس. ولا يبعد أن يكون الحديث الذي رواه مسلم عن أبى هريرة- رضى الله عنه- مستفادا من نظم هذه الآية، حيث قال، قال رسول الله ﷺ :

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ: ٨٨٨/١

(٢) سورة الصافات: ١٠٢

(ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: انى أحب فلانا فأحبه قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول فى الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: انى أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فأبغضوه. قال : فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء فى الأرض) (١)

الحقيقة الثامنة:

قال تعالى: ﴿ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.﴾

وقبله جاءت هذه الآية:

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾

يتبين لنا بعد الجمع بين الآيتين أن المراد بـ « الذين كفروا » هم الذين كتموا ما أنزل الله . ثم هذا التنظيم يرشدنا الى حقيقة أخرى، وهى أن كتمان الحق كفر. وهو - بمفرده- يكفى لأن يخرط المرء فى سلك الكفار. فالذى يكتُم الحق ويصر على هذا الكتمان يخشى عليه الكفر وإن لم ينطق بكلمة الكفر، حتى ولو ادعى أنه مؤمن.

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجه الى ما بعدها.



(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب اذا أحب الله عبدا حبه الى عباده، رقم الحديث: (٢٦٣٧)

نظم الآيات (١٦٣-١٧٦)

قال تعالى:

هو الحكم اله واحد ، لا اله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأنحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون. ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله. والذين آمنوا أشد حبا لله.. ولويرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ، أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرعوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار.

يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان، انه لكم عدو مبين. انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون. واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالو بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. صم بكم عمى فهم لا يعقلون. يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون.

إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه. ان الله غفور رحيم. إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا، أولئك ما ياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم.

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد.



بعد ما انتهى موضوع القبلية، وقد أعطى حقه من البيان والايضاح وبعد ما توعده أهل الكتاب وعنفوا على ما كانوا متلبسين به من جريمة كتمانها، انساق الكلام الى التوحيد، الذي وضع عليه أساس هذه القبلية، والذي تركهم عليه أبوه يعقوب وأخذ عليه منهم العهد والميثاق، حيث قال تعالى:

﴿ألم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا نعبد

الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا. ونحن له مسلمون.﴾ (١)

ولم يكن كتمانهم لهذه القبلة وعداؤهم لهذه النبوة إلا نتيجة لانخلاصهم عن هذا العهد، ويعدمهم عن التوحيد .

فذكرهم ربهم - تبارك وتعالى - هذا العهد حيث قال:

﴿والهكم اله واحد . لا اله الا هو الرحمن الرحيم﴾

ذكرهم بأسلوب كله نصح ومودة ورقة وحنان.

ثم ذكر طائفة من نعمه الجسام ، التى ينعمون بها ويتقبلون فيها ، والتى تدعو كل من كان فيه ذرة من حياء أو مضرة من فكر سليم الى الشكر لنعمه ، واللجوء الى حبه ، والخضوع لأوامره:

﴿ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأنحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون﴾

ثم تعجب من غباوتهم وسخافة عقولهم ، حيث ينهلون من نعم الله ثم يجعلون له أندادا، (٢)

ويحبونهم كحب الله ، مع أن هذا الحب كان من حق الله.

وهذا يشبه ما جاء فى سورة التوبة حيث قال تعالى:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا. لا اله الا هو. سبحانه عما يشركون﴾

ثم ذكر أن هؤلاء الأنداد لا يملكون ثوابا ولا يدفعون عنهم عذابا ، ويتميزون منهم يوم القيامة، وتعود أعمالهم كلها حشرات عليهم. ويريدون أن يخرجوا من النار ما هم بخارجين منها.

ثم ان هذه النديّة كانت لها أشكال وألوان، منها أنهم حرموا كثيرا مما أحل الله لهم من الطيبات.

و يؤيد ذلك ما رواه الترمذى عن عدى بن حاتم قال: (أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من

ذهب، فقال: يا عدى، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعتة يقرأ فى سورة براءة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ قال: أما انهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيئا

استحلوه واذا حرموا عليهم شيئا حرموه. (٣)

(١) سورة البقرة: ١٣٣

(٢) ذكر القرطبى عن ابن عباس والسدى -رضى الله عنهم- أن المراد بالأنداد: الرؤساء المتبعون،

يطيعونهم فى معاصى الله. انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٠٣

(٣) سنن الترمذى : كتاب تفسير القرآن: ٥/٢٧٨ ، رقم الحديث (٣٠٩٥)

وعلى هذا جاء الأمر الإلهي:

﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان، انه لكم عدو مبين. انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.﴾

ثم تحسر على غباوتهم وشدة غفلتهم ، أنهم كلما دعوا الى الحق والهدى يرفضونه لمجرد أنه لم يؤثر عن آباؤهم:

﴿واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لا يعقلون.﴾ (١)

ثم وعظ المؤمنين حتى لا يقيموا فيما وقع فيه أهل الكتاب من تحريم ما أحل الله، فان هذا يتنافى مع الشكر و يتنافى مع العبادة:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون. انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه . ان الله غفور رحيم.﴾

ثم توعدهم الذين يكتُمون ما أنزل الله، ويبتغون به عرضا من الدنيا:

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يسزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد.﴾

وبيان ذلك أن اليهود قد حرم عليهم كثير من الطيبات، وكان ذلك جزاء بغيهم واعتدائهم كما

قال تعالى:

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهاهم ببغيهم وانا لصادةون.﴾ (٢)

إلا أن رأفة الله بهم لم تجعل هذا الجزاء دائما مستمرا الى يوم القيامة، بل جعلته لفترة محدودة، وبشرتهم بمجيئ نبي يخلصهم مما هم فيه من شدة ومحنة، ويفتح عليهم أبواب الخير والسعادة، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إلا صر والأغلال حيث قال تعالى:

(١) ذكر ابن كثير عن ابن عباس «رضى الله عنهما» أن هذه الآية نزلت فى طائفة من اليهود.

انظر تفسير ابن كثير: ٢٠٤/١

(٢) سورة الأنعام: ١٤٦

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. ﴾ (١)

فكان من واجب هؤلاء القوم أن يخروا سجداً لله شكراً وامتناناً على هذه النعمة التي أفيضت عليهم، ثم يكونوا أول الناس إيماناً بهذا النبي، وأسبقهم إلى مساندته في مهمته. ولكنهم نكسوا على رؤوسهم فكذبوه وخالفوه، وشككوا الناس في نبوته، وقالوا، ما بال هذا النبي؟! فانه ما ترك شيئاً الا وخالفنا فيه وخالف رسلنا، فأحل ما حرموه وحرم ما أحلوه. مع أنهم كانوا يعرفون أن هذا النبي ما جاء الا ليدخلهم في رحمة ربهم بعد ما طال حرمانهم، وطال شقاؤهم، فهو يحرم عليهم الخبائث ويحل لهم الطيبات. ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

كانوا يعرفون هذا جيداً، ولكنهم ما أرادوا أن يخرجوا من شقائهم وقادوا في غيهم وأصروا على كتمانهم فجاءت هذه الآيات تنذرهم ما ينتظرهم من سوء المصير وعذاب السعير!

* * *

والشئ الذي نلاحظه في تلك الآيات هو أن هذا الموضوع ... موضوع الاحلال والتحريم، أو موضوع طيبات الطعام وخبائثه.. جاء بعد موضوع تحويل القبلة الى المسجد الحرام. وعلى مثل هذا النظم جاءت مطالع سورة المائدة. فقد استهلّت السورة بموضوع المسجد الحرام وما يتصل به مما يناسب المقام، حيث قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود. أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم. ان الله يحكم ما يريد. يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشعائر الحرام ولا الهدى والقلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمكم شفتان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان. واتقوا الله ان الله شديد العقاب﴾ (٣)

(١) سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٧

(٢) سورة المائدة: ١-٢

ثم ذكر ما أحل للناس وما حرم عليهم من الطعام، غير أن السياق يميل هنا الى تفصيل المحرمات أكثر مما يميل الى تفصيل الطيبات بخلاف سورة البقرة فان سياقها يميل الى التنويه بشأن الطيبات، أكثر مما يميل الى تفصيل المحرمات، قال تعالى:

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فسق، اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً. فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم فإن الله غفور رحيم. يسألكم ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله أن الله سريع الحساب. اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾ (١)

ثم نلاحظ نفس الوضع في آخر سورة المائدة، حيث ذكر الله تعالى ما يحل من الصيد في حالة الاحرام وما لا يحل، و ذكرنا يناسب المقام من توجيهات وتشريعات:

﴿يا أيها الذين آمنوا ليلنكنم الله بشئ من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدقق وبال أمره، عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه. والله عزيز ذو انتقام. أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة حرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً. واتقوا الله الذي اليه تحشرون﴾ (٢)

وبعد تلك الآيات مباشرة جاء ذكر الكعبة وما اليها من الشهر الحرام والهدى والقلائد، حيث قال تعالى:

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد. ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، وأن الله بكل شئ عليم﴾ (٣)

ثم نلاحظ في سورة البقرة في سياق تحويل القبلة هذا التوجيه الالهى الكريم:

﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ (٤)

(١) سورة المائدة: ٣-٥

(٢) سورة المائدة: ٩٤-٩٦

(٣) سورة المائدة: ٩٧

(٤) سورة البقرة: ١٥٠

كما نلاحظ نفس التوجيه فى سورة المائدة فى ختام ذكر المحرمات حيث قال تعالى:
﴿اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (١)

هذا الوضع ان دل على شئ فانما يدل على ما يوجد من صلة وثيقة وسبب خاص بين المسجد
الحرام وبين ما جاءت به هذه النبوة المباركة من احلال الطيبات وتحريم الخبائث من الطعام.
والنبي ﷺ نفسه جمع بين الأمرين، على ما رواه أنس بن مالك- رضى الله عنه- عن نبينا -
عليه الصلاة والسلام- أنه قال:

(من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله،
فلا تخفروا الله فى ذمته.) (٢)

والآن نعود مرة أخرى الى تلك الآيات لنرى ما يستفاد من نظمها من نفائس الفوائد
والحكم، وهى كما يلى:

الفائدة الأولى:

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله. والذين آمنوا
أشد حبا لله. ولويرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا، وأن الله شديد
العذاب.﴾

تنبئ هذه الآية بنظمها أن الحب المطلق من حق الله. ومن أحب غير الله كحب الله فقد ظلم. ومن
هنا اعتبر الشرك ظلما عظيما كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (٣)

الفائدة الثانية:

ثم قال تعالى بعد هذه الآية:

﴿اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾
يتبين لنا من نظم هاتين الآيتين أن الاتباع هو مقياس الحب ومظهره. فمن اتبع أحدا فقد أحبه،
ومن لم يتبعه فقد رغب عنه و تخلى عن حبه، وان كان يدعى أنه يحبه ويرغب اليه. ومن هنا يعتبر
حب الله باتباع شرائعه وأوامره، التى جاءت عن طريق رسله كما قال تعالى:

(١) سورة المائدة: ٣

(٢) صحيح البخارى: كتاب الصلاة ، باب ٢٨ فضل استقبال القبلة: ١٠٢/١

(٣) سورة لقمان: ١٣

﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ (١)

فمن رمى بشرائع الله عرض الحائط واتبع هواه ثم قال انه يحب الله فهو أحد الكاذبين.

الفائدة الثالثة:

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون﴾. توحى الينا الآية بنظمها أن أكل الطيبات من الشكر، والشكر لله يستلزم الأكل من الطيبات، فمن حرم على نفسه شيئا من الطيبات - كائنا ما كان السبب - فقد أعلن عن نفسه أن ليس من الشاكرين.

الفائدة الرابعة:

ونستوحى كذلك من نظم الآية أن الاستمتاع بالطيبات من مستوجبات العبادة، فمن حرم على نفسه شيئا منها، فقد اختلت عبادته، وإن كان نهاره صائما وليله قائما. ومن هنا نعرف أن الرهبانية - بجميع أشكالها وألوانها - لا مكان لها في دين الله، وهي ليست من الاسلام في شيء.

الفائدة الخامسة:

قال تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾

فقد ذكر تعالى في هذه الآية الميتة، ثم الدم، ثم لحم الخنزير ثم ما أهل به لغير الله. وهذا النظم يشير الى أن ما أهل به لغير الله أشد هذه الأنواع وأكبرها مقتا عند الله.

الفائدة السادسة:

ثم قال تعالى: ﴿ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمنا قليلا. أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ فذكر الله هذا « الثمن القليل » بعد ذكر عيون المحرمات. وهذا النظم ينبئ أن شناعة هذا الثمن القليل وحرمة تفوق شناعة تلك المحرمات الأربع وحرمتها.

الفائدة السابعة:

قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ جاءت تلك الآية بعد آية الكتمان، ومن هنا تعتبر - بنظمها - تفسيرا للكتمان. فالاختلاف في الكتاب يعنى كتمانه، والذين يختلفون فيه، يستوجبون عقوبة كتمانه.

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجه الى ما بعدها.

نظم الآية: (١٧٧)

قال تعالى:

فليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین. وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والمساكين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذین صدقوا وأولئك هم المتقون. ﴿

ان هذه الآية بضمونها و سياقها تذكرنا الآيات التي مضت معنا فى أول الحديث مع بنى اسرائيل،

وهى قوله تعالى:

هيا بنى اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. و أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب. أفلا تعقلون. ﴿ (١)

فنرى السياق هنا قد عاتبهم على أنهم يأمرُونَ الناس بالبر وينسون أنفسهم، وحشهم على أن يوفوا بعهدهم و يؤمنوا بما أنزل اليهم مصدقا لما معهم، وحذرهم من أن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون.

بينما نرى فى الآية التى نتحدث عنها أنها خلعت عنهم فضيلة البر نهائيا بعدما أذرتهم العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم من جراء كتمانهم ما أنزل الله، وقد حذروا منه فى أول الطريق.

انها تخلع عنهم فضيلة البر نهائيا وتخلعها على قوم آخرين، يصلحون لها وهى تصلح لهم.

انها قد فصلت مقومات البر وشروطه ومظاهره وأركانه. ولكن ليس القصد منه اعلام الناس بمقومات البر وشروطه، وان كان ذلك حاصلًا من دون قصد.

وإنما القصد منه خلع هذه الفضيلة عن هؤلاء جملة وتفصيلا وتعريضهم عنها تعرية كاملة. فأننا عرفنا فيما مضى بالتفصيل أنهم أدخلوا بجميع متطلبات البر ومقتضياته التى فصلت هنا، فلم يدعوا ركنا من أركان البر إلا هدموه ولا شرطا من شروطه إلا نقضوه.

وبذلك استحقوا أن تخلع عنهم هذه الكرامة بجميع أطرافها حتى لا يبقى عليهم ظل من ظلالها
ثم تخلع - فى نفس الوقت - على قوم آخرين قد رشحوا للقيام بأعبائها والنهوض بتكاليفها.
والجدير بالذكر أن كثيرا من الناس لم ينتبهوا لبلاغة الأسلوب الذى وردت عليه الآية حيث قال
تعالى:

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر.. الآية»

فيقول - مثلا - الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يفسر هذا الأسلوب:

« فان قال قائل : فكيف قيل «ولكن البر من آمن بالله» وقد علمت أن البر فعل، ومن اسم ،
فكيف يكون الفعل هو الانسان؟ قيل: ان معنى ذلك غير ما توهمته، وانما معناه : ولكن البر كمن
آمن بالله واليوم الآخر، فوضع من موضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلته التي هى له صفة من
الفعل المحذوف كما تفعله العرب فتضع الأسماء مواضع أفعالها التي هى بها مشهورة، فتقول: الجود
حاتم، والشجاعة عنترة وانما الجود حاتم، وانما الشجاعة عنترة، ومعناها: الجود جود حاتم، فتستغنى
بذكر حاتم اذ كان معروفا بالجود من اعادة ذكر الجود بعد الذى قد ذكرته فتضعه موضع جوده لدلالة
الكلام على ما حذفته استغناء بما ذكرته عما لم تذكره، كما قيل «واسأل القرية التى كنا فيها»
والمعنى أهل القرية، وكما قال الشاعر، وهو ذوالخرق الطهوى:

حسبت بغام راحلتى عناقا وما هى ويب غبيرك بالعناق

يريد بغام عناق أو صوت، كما يقال: حسبت صياحى أخاك، يعنى به حسبت صياحى صياح
أخيك، وقد يجوز أن يكون معنى الكلام: ولكن البار من آمن بالله. فيكون البر مصدرا وضع
موضع الاسم. (١)

والحق أن الآية فى غنى عن مثل هذه التكاليفات، التى لا تكسبها روعة ولا تكسبها معنى
جديدا غير إخضاعها للقواعد التى درج عليها النحاة.

والا فآية قد وردت على أسلوب ادماج فقرتين احدهما فى الأخرى، وهو أسلوب شائع معروف
فى القرآن وفى كلام العرب.

ويكون تقدير الكلام، اذا فصلنا الفقرتين ، هكذا:

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر أن تؤمنوا بالله واليوم الآخر..
المخ.»، وليس البر (بفتح الباء) من ولى وجهه قبل المشرق والمغرب ولكن البر (بفتح الباء) من آمن
بالله واليوم الآخر..... الخ)

(١) تفسير الطبرى : ٩٥/٢

واذ كان المقصود هنا خلع هذه الفضيلة عن قوم على قوم والثناء على ناس وإدانة ناس آخرين دون تعديد أركان البر وشروطه اكتفى السياق من الفقرتين بما كان يخدم هذا المقصود ويجليه وحذف البقية لما أن ذكره كان مغلا به.

ولذلك نرى هذا الأسلوب يمثل لنا هؤلاء الأبرار وكأننا نراهم رأى العين، ونرى خصال البر تملأ إهابهم وتتجلى فى صورهم و تجعل كل من رآهم يعرفهم بسيماهم.

وفى ذات الوقت ينكر علم قوم آخرين قد تخلوا عن البر نهائيا وهم يحسبون أنه ملء أيديهم وملء إهابهم. وهم اليهود والنصارى، قاتلهم الله !

ثم هو يذكرنا أركان البر وشروطه كذلك بدون أن يبتعد بالذهن عن المقصود.

ولقد تضمنت الآية هذه الأمور كلها بفضل هذا الأسلوب- أسلوب إدماج الفقرتين إحداهما فى الأخرى، حتى أصبحتا وكأنهما فقرة واحدة.

وبعد ما انتهينا من ربط هذه الآية الكريمة بما قبلها، نعود إليها مرة أخرى لتأمل فى نظم أجزائها ونستنبط ما أودع الله فيه من فوائد وحكم وتوجيهات مهمة غالية:

الفائدة الأولى:

نستوحى من نظم هذه الآية أن اليهود والنصارى انما كانوا يولون وجوههم قبل المشرق والمغرب لأنهم كانوا فى واد والايمان فى واد. ولو أنهم كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لما لبثوا أن ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام، ولكنهم كانوا كما قال الله فيهم:

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾

الفائدة الثانية:

ذكرت فى الآية مظاهر البر وأركانه وذكر فى آخرها الايفاء بالعهد بأسلوب خاص يميزه عما سبق. هذا النظم بهذا الأسلوب يوحي لنا أن الايفاء بالعهد له شأن خاص من بين أركان البر، بل هو الأصل فى معنى البر.. وسائر ما ذكر من الصفات والمعانى منبثقة من هذا المعنى ونتيجة منه.

ويشبه هذا النظم ما مر معنا فى أول الحديث مع بنى اسرائيل ، وان كان هناك فرق يسير فى الموضوعين، حيث ذكر هناك الايفاء بالعهد أولا:

﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون﴾

ثم ذكر البر حيث وجه العتاب اليهم في شأنه:

﴿اتأمرؤن الناس بالبر وتتسؤن أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

ولكن هذا الاختلاف في الترتيب لا يمنعنا من الوصول الى ما وصلنا اليه، بل يدنا بالاعتناع به والاطمئنان اليه. واختلاف الترتيب في الموضعين انما هو بسبب الجو الذي يحيط بهما.

فالجو في الموضع الأول جو توجيه وارشاد، فوعظوا وذكروا أولاً بأن يوفوا بعهد الله و يقوموا لأداء ما يلى عليهم هذا العهد، ثم عوتبوا على أنهم يأمرؤن الناس بالبر وينسؤن أنفسهم.

بخلاف الموضع الثاني حيث ان الجو فيه جوتنحية من جهة وجو تكريمة من جهة أخرى.

فقد نحى بنو إسرائيل عن شرف البر، وفي نفس الوقت أكرم به قوم آخرون. ثم ذكر - آخر ما ذكر

- في سياق القوم الذين أكرموا بهذا الشرف أنهم يوفون بعهدهم اذا عاهدوا. وذكر هذا بأسلوب متميز خاص: ﴿والموفون بعهدهم اذا عاهدوا﴾

وليس معنى ذلك إلا أن أكبر ما اجتريته اليهود والنصارى هو أنهم نقضوا عهودهم لما عاهدوا،

ولأجل سلوكهم هذا خلعت عنهم فضيلة البر.

هذا النظم وهذا الوضع يؤكد لنا أن الوفاء بالعهد هو الأساس وهو الأصل في معنى البر.

وتغير الأسلوب هنا له شأن لا ينكر . وهو لا يخلو من دلالة خاصة.

والعرب كثيرا ما استعملوا كلمة البر في معنى الفضيلة التي يكون قوامها الايفاء

بالعهد، قال امرؤ القيس:

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله * أبر بميثاق و أوفى وأصبرا (١)

وقال، وهو يمدح عوير بن شجنة ورهطه:

فقد أصبحوا والله أصفاهم به * أبر بميثاق و أوفى بجيران (٢)

ثم اذا كان البر بمعنى الايفاء بالعهد، أو كان الايفاء بالعهد هو الأصل في مدلوله فلا يضرنا اذا

قلنا، ان البر هو الخير كله، أو هو جماع الخيرات أو هو الخلق الحسن وما شابه ذلك مما هو مأثور في

تفسيره، فان الايفاء بالعهد هو أساس كل خير، ولذلك قال عليه السلام: (لا دين لمن لا عهد له) (٣)

(١) ديوان امرؤ القيس: ص/٩٥

(٢) ديوان امرؤ القيس : ص/١٦٩

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٢٨٨/٦، مسند الامام أحمد: ١٥٤، ١٣٥/٣، ٢٥١، ٢١٠

الفائدة الثالثة:

وما تدل عليه الآية بنظمها أن الصبر والصمود في أحلك الظروف وأحرج المواقف هو تمام الوفاء بالمعهد وهو ذروة البروقمته كما أنه هو الزاد الوحيد لمن كان يزيد أن يسلك سبيل البر. ومن هنا قال سيدنا عمر في وصية له لسعد بن أبي وقاص - رضى الله عنهما -:
(...واعلم أن لكل عادة عتادا، فعتاد الخير الصبر. فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابتك) (١)

الفائدة الرابعة:

ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وهذا الختام يوحى إلينا أن الصدق هو الذى يوصل من يوصل الى ذروة البر. ومن هنا قال - عليه الصلاة والسلام:
(ان الصدق يهدى الى البر، وان البر يهدى الى الجنة.) (٢)

الفائدة الخامسة:

ذكر الله أمورا كلها تتعلق بالاعتقاد والعمل ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، وهذا النظم يفيد أن الصدق - فى أصله - سلوك وعمل. وهو يقاس دائما بالسلوك والعمل. ولا يعتبر المرء صادقا إلا إذا صدق عمله وسلوكه.

الفائدة السادسة:

ذكر الله مقومات البر وأركانها، ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بدلا من أن يختتمها بقوله: «وأولئك هم الأبرار» كما هو المتبادر الى الذهن بحكم السياق. وهذا النظم يفتح علينا حقيقة مهمة جدا، وهى أن التقوى هى روح البر وقوامه، وهى سنده وعماده. فكل عمل من أعمال البر اذ لم يكن يستند الى التقوى فلا وزن له فى ميزان البر، ولا عبرة به عند الله.

(١) تاريخ الطبرى: ٤٨٣/٣

(٢) صحيح البخارى: كتاب الأدب، باب ٦٩ قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع

الصادقين: ٩٥/٧

الفائدة السابعة:

ذكر الله تعالى من ضمن اركان البر: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ فذكر ايتاء المال وذكر معه كون المال محبوبا الى النفس.

وهذا النظم يرشدنا الى أن أفضل الاتفاق أو أفضل الصدقة ما شق على النفس. ولا يبعد أن يكون الحديث الذي رواه أبوهريرة - رضى الله عنه - مستفادا من هذا النظم حيث قال:

(أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان). (١)

الفائدة الثامنة:

ثم ذكر - تعالى - أول من ذكر فى هذا السياق ذوى القربى. وهذا النظم يدل على أن أولى الناس ببر الرجل هم أقاربه. ومن هنا قال النبى ﷺ ﴿

دينار أنفقت فى سبيل الله، ودينار أنفقت فى رقية، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجرا الذى أنفقت على أهلك. (٢)

الفائدة التاسعة:

ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية الايمان ثم ايتاء المال ثم اقامة الصلاة، ثم ايتاء الزكاة ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فختم هذه الخصال بالايتاء بالعهد.

ثم ذكر الايتاء بالعهد بصيغة اسم الصفة بينما ذكر البراقى بصيغة فعل الماضى. هذا النظم مع هذا التصريف كما يدل على أن الايتاء بالعهد هو الأصل، وهو الجامع لهذه الخصال فكذلك يدل على أنه يعم الدين كله. ومن هنا قال ﷺ ﴿لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ﴾ (٣)

هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمل فى نظم هذه الآية العظيمة، فله الحمد وله الشكر كما يحب ربنا ويرضى.

و بعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآية العظيمة نتوجه الى ما بعدها.

(١) صحيح مسلم: باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الصحيح، رقم الحديث (١٠٣٢)، ص/٧١٦.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك: رقم الحديث (٩٩٥)، ص/٦٩٢.

(٣) السنن الكبرى للبيهقى : ٢٨٨/٦، ومسند الامام أحمد: ١٣٥/٣، ٢٥١، ٢١٠، ١٥٤.

نظم الآيات (١٧٨-١٨٢)

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى. الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. فمن عفى له من أخيه شيئاً فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان. ذلك تخفيف من ربكم ورحمة. فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون. كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين. فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم. فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم﴾



قبل أن نقدم الى ربط هذه الآيات بما قبلها نريد أن نقف عند الآية الأولى ونطمئن الى صحيح تأويلها، فإنها - على كثرة ما بحثت- ما زالت بحاجة الى بحث و دراسة موضوعية متكررة. ثم ان هذه الدراسة ستكون لنا عوناً في مهمتنا وضماناً لنجاح سعيينا واستقامة قصدنا باذن الله. فإذا تفحصنا مذاهب المفسرين في تأويل هذه الآية وتأملنا في أقوالهم، فانا نستخلص منها ما يلي:

١ - يرى هؤلاء الأعلام أن المراد بالقصاص هنا حد القتل، أى قتل القاتل جزاءً متكافئاً بما كسب من جريمة القتل.

٢ - ويرون أن المراد بقوله تعالى ﴿كتب عليكم﴾ فرض والزم وأثبت وما فى معناه بما يدل على الوجوب.

٣ - ويرون- مع هذا - أن القصاص ليس بلازم، وانما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود الى الاعتداء.. والذي يراه لازماً انما يراه على القاتل دون الولي، أو يراه على الناس اذا أرادوا. وهذا الخلاف- كما لا يخفى - خلاف شكلى والا فالمالك واحد، والنتيجة هى.

٤ - ويرون أن القصاص حكمه حكم المباح، وهو الغاية عند التشاح. والا فالأفضل المطلوب هو العفو.

٥ - ثم هم مختلفون في حكم هذه الآية أنها محكمة أم منسوخة. ولم يأت أحد من الفريقين بما يثبت دعواه.

هذا موجز ما قيل فى هذا الموضوع ^(١) والدراسة الموضوعية لتلك الأقوال تجعلنا نحس فيها عدة

اشكالات وهى كما يلي:

(١) انظر- مثلاً- تفسير الطبري: ١٠٢/٢-١٠٣، المحرر الوجيز: ٤٩٥/١، ٤٩٦، زاد المسير: ١٨٠/١، تفسير الخازن: ١٤٦/١، تفسير القرطبي: ٢٤٦/٢، تفسير ابن كثير: ٢٠٩/١

الاشكال الأول:

لقد ذكرت الحدود فى القرآن فى عدة مواضع، ولكنه ما جاء الخطاب فى سياق تلك الحدود بـ«يا أيها الذين آمنوا» البتة. فان الحدود ليست من اختصاص الجماهير، وانما هى تخص أولى الأمر منهم. فذكر حد المحاربين -مثلا- هكذا:

﴿انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفقوا من الأرض. ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.﴾^(١)

وذكر حد السارقين والسارقات هكذا:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله عزيز حكيم.﴾^(٢)

وذكر حد الزنا هكذا:

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون. الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذا بهما طائفة من المؤمنين.﴾^(٣)

ثم ذكر حد القذف هكذا:

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا. وأولئك هم الفاسقون.﴾^(٤)

تلك العبارات أو الأساليب التى استخدمها القرآن لبيان الحدود. ولا نرى فى أى واحد منها الخطاب بـ«يا أيها الذين آمنوا».

فإن القرآن لا يوجه الخطاب بـ«يا أيها الذين آمنوا» إلا اذا كان داعى الخطاب عاما شاملا يخص كافة المؤمنين دون طائفة منهم.

كما نرى فى هذه الآيات مثلا:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾^(٥)

(١) سورة المائدة: ٣٣

(٢) سورة المائدة: ٣٨

(٣) سورة النور: ١-٣

(٤) سورة النور: ٤

(٥) سورة البقرة: ١٨٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (٤)

تلك بعض الأمثلة من هذه السورة نفسها، والا فالقرآن غنى حافل بمثل تلك الأمثلة.

الاشكال الثاني:

لو كان المراد بالقصاص هو القود أى قتل القاتل بالقتيل، لتعين الأخذ به. فانه كتب علينا والمكتوب علينا لا محيد لنا عنه الى غيره. كما أن الصيام كتب علينا فلا محيد لنا عنه، حتى ولو كنا على سفر أو كنا مرضى فعلينا عدة من أيام أخر.

وأما قول الامام ابن جرير- رحمه الله-: « لا أنه وجب علينا القصاص فرضا وجوب فرض الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه » فهو قول لا يخلو من ضعف. وليس عليه دليل.

ثم اذا تعين الأخذ بالقصاص بمعنى القود بطلت مشروعية الدية مع أن الآية تنوه بشأنها وتسميها (تخفيفا ورحمة).

الاشكال الثالث:

لو كان المراد بالقصاص كما قيل لكانت العبارة مختلفة عما هي عليه الآن. وكانت هكذا : ﴿كتب عليكم القصاص من القتلة﴾

أى فرض عليكم أن تقتصوا من القاتلين. فان قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص من القتلى﴾ يكون معناه، اذا فسرنا القصاص بالمعنى المعروف: كتب عليكم أن تقتصوا فى شأن المقتولين. وهو معنى لا يستقيم الا بتكلف شديد.

الاشكال الرابع:

ذكر الله موضوع القصاص فى آيتين قصيرتين، وبدأ بقوله تعالى:

(١) سورة البقرة: ٢٠٨

(٢) سورة البقرة: ٢٥٤

(٣) سورة البقرة: ٢٦٤

(٤) سورة البقرة: ٢٨٢

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتل ﴾

وختم بقوله تعالى:

﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾

هذا الأسلوب القوى مع هذا الإيجاز الشديد فى العبارة يزيد من قيمة الموضوع وأهميته وخطورته ما يجعل عن الوصف.

وبعيد جدا جدا أن يسبغ القرآن على هذا الموضوع بأسلوبه وعبارته هذه الأهمية البالغة، ثم لا يتجاوز ذلك الموضوع فى حكمه أن يكون مباحا من المباحات. ويترك للناس الخيار أن يأخذوه أو يعدلوا عنه الى غيره.

الاشكال الخامس:

الجو الذى يسود الآيات أو اللون الذى يلونها لهما تأثير كبير فى تحديد مرامى الآيات واتجاهاتها.

ففى- مثلا- الآيات التى تتناول الحدود الأخرى مثل حد المحاربين أو حد السرقة أو حد الزنا أو حد القذف، يظهر عليها لون الغضب والمقت والكراهية بحيث يكاد يلمس بالراح. والجو كله جو ادانة واخزاء واعراض.

فلننظر آية الحراب كيف ترمى بشر السخط والغضب.

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض. ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ (١)

ولننظر آية السرقة، كيف تصور لنا صرامة الدينونة وشدة البطش:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله عزيز حكيم﴾ (٢)

ولننظر آية الزنا، كيف تجسد لنا الكراهية والامتعاض وشدة النكال:

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون. الزانية والزانى فاجلدوا

كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (٣)

(١) سورة المائدة : ٣٣

(٢) سورة المائدة: ٣٨

(٣) سورة النور: ١-٣

ولننظر آية القذف، كيف تمثل لنا العقوبة الصارمة العاجلة الدائمة:
«والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا. وأولئك هم الفاسقون.» (١)

بالإضافة الى أن الجو العام، الذي يحيط بتلك الآيات يماثل جوها الخاص في طبيعته وإيحائه.
وأما آية القصاص، فنرى جوها ولونها يختلف تماما عن جو تلك الآيات ولونها، فالجو فيها جو
عفو وتخفيف ورحمة . واللون الذي يلونها لون معروف واحسان وامداد بالحياة!
ثم جوها العام كذلك يماثل جوها الخاص في هدوئه ورقته و يسره وعذوبته.
وهذا الوضع يلتقى في روعنا أن تلك الآية ليست من آيات الحدود.

الاشكال السادس:

هذا المفهوم يزيد موضوع القصاص غموضا وتعقدا، ويضطرنا الى تأويلات بعيدة شاذة. ولا أدل
على ذلك من تلك الخلافات التي تشتمل عليها كتب التفسير حول هذا الموضوع.
ولا بأس بأن نشير هنا الى شيء من تلك الخلافات حتى يتضح الموقف.
يقول الامام أبوبكر الجصاص-رحمه الله- في تأويل قوله تعالى «كتب عليكم
القصاص في القتلى»:

« هذه الآية تدل على قتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي والرجل بالمرأة لما بينا من اقتضاء أول
الخطاب ايجاب عموم القصاص في سائر القتلى، وأن تخصيصه الحر بالحر ومن ذكر معه لا يوجب
الاقتصار بحكم القصاص عليه دون اعتبار عموم ابتداء الخطاب في ايجاب القصاص. » (٢)

ويقول الامام أبوبكر المعروف بابن العربي - رحمه الله - في تأويل تلك الآية:
« قوله تعالى: «الحر بالحر» تعلق أصحابنا على أصحاب أبي حنيفة بهذا التنوع والتقسيم
على أن الحر لا يقتل بالعبد لأن الله تعالى بين نظير الحر و مساويه وهو الحر، وبين نظير العبد
ومساويه وهو العبد. »
ويقول رحمه الله :

« فان قيل: فقد قال تعالى: «والانثى بالانثى» فلم يقتل الذكر بالانثى؟ قلنا ذلك ثابت
بالاجماع ، وهو دليل آجر، ولو تركنا هذا التقسيم لقلنا : لا يقتل الذكر بالانثى.

(١) سورة النور: ٤

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ١٣٤/١

ويقول - رحمه الله :

« هل يقتل الأب بولده مع عموم آيات القصاص؟ »

قال مالك: يقتل به اذا تبين قصده الى قتله بأن أضجعه وذبحه، فان رماه بالسلاح أديا وحنقا لم يقتل به، ويقتل الأجنبي بمثل هذا.

وخالفه سائر الفقهاء وقالوا : لا يقتل به.

وقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه لا يقاد والد بولده. وهو حديث باطل ومتعلقهم أن عمر-رضى الله عنه- قضى بالدية مغلفة في قاتل ابنه. ولم ينكر أحد من الصحابة عليه. فأخذ سائر الفقهاء المسألة مسجلة، وقالوا: لا يقتل الوالد بولده. وأخذها مالك محكمة مفصلة، فقال: انه لو حذفه بسيف، وهذه حالة محتملة لقصد القتل وغيره، وشفقة الأب شبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد الى القتل تسقط القود، فاذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله. »

وقال رحمه الله :

«احتج علماؤنا رحمة الله عليهم بهذه الآية، وهى قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص فى المقتلى﴾ على أحمدبن حنبل فى قوله: لا تقتل الجماعة بالواحد ، قال لأن الله تعالى شرط فى القصاص المساواة. ولا مساواة بين الواحد والجماعة، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾

الجواب أن مراعاة القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، ولوعلم الجماعة أنهم اذا قتلوا واحدا لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك فى قتلهم، ويلغوا الأمل من التشفى منهم. »
وقال - رحمه الله - :

«قوله تعالى: ﴿فمن عفى له من أخيه شئ:...﴾ الى آخرها.

قال القاضى رضى الله عنه هذا قول مشكل تبدلت فيه أبواب العلماء، واختلفوا فى مقتضاه، فقال مالك فى رواية ابن القاسم: موجب العمد القود خاصة. ولا سبيل الى الدية الا برضا من القاتل. وبه قال أبو حنيفة، وروى أشهب عنه أن الولي مخير بين أحد أمرين، ان شاء قتل وان شاء أخذ الدية وبه قال الشافعى.

وقال مالك: تفسيره من أعطى من أخيه شيئا من العقل فليتبعة بالمعروف ، فعلى هذا، الخطاب للولى، قيل له: ان أعطاك أخوك القاتل الدية المعروفة فاقبل ذلك منه واتبعه.
وقال أصحاب الشافعى: تفسيره اذا أسقط الولي القصاص، وعين له من الواجبين له الدية

فاتبعه على ذلك أيها الجاني، على هذا المعروف وأد إليه باحسان.» (١)

هذه نبذة من تلك الخلاقات التي لم تكن إلا نتيجة طبيعية لذلك التأويل الذي ذهب إليه الناس.

وبيانه أن فريقا منهم رأى هذه الآية لا تنسجم مع طائفة من الأحاديث والروايات التي ليس من شأنها أن يغضى عنها ويفقل أمرها.

فهم رأوا - مثلا - أن هذه الآية لا تبيح أن يقاد الحر لِعبد مع أن النبي ﷺ قال: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم) (٢) فكأنه - عليه السلام - جعل العبد مثل الحر في الدم إذ علق حكم التكافؤ بينهم بالآيمان.

وروى الليث عن الحكم أن عليا وعبدالله بن مسعود قالوا:

(إذا قتل الحر العبد فهو به قوده). (٣)

وهم رأوا أن هذه الآية تقتضي أن يقتل الوالد بولده مع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (لا يقتل الوالد بالولد) (٤)

يقول الامام أبو بكر الجصاص - رحمه الله -:

«هذا خبر مستفيض مشهور وقد حكم به عمر بن الخطاب بحضرة الصحابة من غير خلاف من واحد منهم عليه. فكان بمنزلة قوله: (لاوصية لوارث) ونحوه في لزوم الحكم به، وكان في حيز المستفيض المتواتر» (٥)

وهم رأوا أن هذه الآية تقتضي ألا يقتل المسلم بكافر مع أن رسول الله ﷺ قتل رجلا من أهل القبلة قتل رجلا من أهل الذمة، وقال: أنا أحق من وفي بالذمة. (٦)
ولقد روى الأشهب عن أبي نضرة أن عمر بن الخطاب أقاد رجلا من المسلمين برجل من أهل الذمة. (٧)

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٦٢/١-٦٦ مع اختصار في العبارة.

(٢) سنن الدار قطنى: كتاب الحدود والديات وغيره: ١٣١/٣

(٣) المصنف لابن أبي شيبه: كتاب الديات: ٣٠٦/٩، وأيضا أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق منصور عن الحكم: ٣٥/٨

(٤) سنن الدار قطنى: كتاب الحدود والديات وغيره: ١٤١/٣

(٥) أحكام القرآن للجصاص: ١٤٤/١

(٦) المصنف لابن أبي شيبه: باب إذا قتل الذمي المسلم قتل به: ٢٩٠/٩، وسنن الدار قطنى:

كتاب الحدود والديات: ١٣٥/٣

(٧) المصنف لابن أبي شيبه: كتاب الديات: ٢٩٢/٩

فمثل هذه الاشكالات ألجأتهم الى أن يقولوا، ليتخلصوا منها:

« ليس توجيه الخطاب الى المؤمنين بايجاب القصاص عليهم في القتل بموجب أن يكون القتل من المؤمنين، لأن علينا اتباع عموم اللفظ ما لم تقم دلالة الخصوص، وليس في الآية ما يوجب خصوص الحكم في بعض القتل دون بعض.

«وإذا كان أول الخطاب قد شمل الجميع ، فما عطف عليه بلفظ الخصوص لا يوجب تخصيص عموم اللفظ، لأنه اذا كان أول الخطاب مكتفيا بنفسه، غير مفتقر الى ما بعده، لم يجز لنا أن نقصره عليه.» (١)

وهكذا أراد هؤلاء أن يدفعوا التعارض الذي كانوا يحسونه بين الآية وبين طائفة من الروايات إلا أنهم ما كادوا يتخلصون من هذا الاشكال حتى وقعوا في اشكال آخر، حيث انه اذا كان أول الخطاب مكتفيا بنفسه غير مفتقر الى ما بعده فما فائدة قوله تعالى اذا بعد ذلك الخطاب : «الجر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» ؟

ولقد حاول هؤلاء أن يلتصموا لتلك الزيادة توجيهها، ولكنهم لم يأتوا بشئ. (٢)

وأما الفريق الثاني فهم فضلوا أن يلتزموا بما رأوه موافقا لمقتضى الآية، حتى ولو أفضى بهم ذلك الى أن يقولوا للحديث الذي يراه الفريق الآخر في حيز المستفيض المتواتر: (انه حديث باطل) كما رأينا ذلك في حديث (لا يقاد والد بولده) (٣)

مع أنه كان أولى بهم، حين رأوا الحديث المستفيض المشهور يتعارض مع ذلك التأويل، أن يعيدوا النظر في تأويلهم، فانه لا يتصور أن يتعارض حديث صحيح مع آية من آيات كتاب الله. ثم هذا التأويل هو الذي أفضى بالامام أحمد الى أن يقول:

لا تقتل الجماعة بالواحد، مع أنه روى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن انسانا قتل بصنعاء وأن عمر قتل به سبعة نفر وقال: لو قالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعا. (٤)
علما بأن هذه الآية لو كانت تقتضى أن لا تقتل الجماعة بالواحد لم يكن سيدنا عمر رضي الله عنه ليقتل بانسان واحد سبعة نفر، ولم يكن ليقول كلمته التي قالها-رضى الله عنه وأرضاه- .

(١) أحكام القرآن للجصاص: ١٣٣/١-١٣٤ مع اختصار في العبارة.

(٢) انظر أحكام القرآن للجصاص: ١٣٤/١

(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ٦٥/١

(٤) سنن الدار قطنى: كتاب الحدود والديات وغيره: ٢٠٢/٣، رقم الحديث (٣٦٠)

ثم هذا التأويل هو الذي أنطق القاضى بما نطق به عن قوله تعالى: ﴿فمن عفى له من أخيه
مشی:..﴾ حيث قال:

« هذا قول مشكل تبلدت فيه ألباب العلماء !! ».

فهذا التأويل هو الذي ألجأ الامام مالك الى أن يفسر هذا القول بتفسير شاذ، حيث ان العفو لا
يطرد استعماله بمعنى الاعطاء..

كما أنه هو الذي ألجأ أصحاب الشافعي الى أن يفسروا قوله تعالى: (شى) بالقصاص. ولا
يخفى ما فى هذا التفسير من بعد وضعف.

ثم ان هذا التأويل كان يقتضى ألا يقتل الذكر بالأنثى نظرا الى قوله تعالى: ﴿والأنثى
بالأنثى﴾

ولكنه انعقد الاجماع على خلاف ذلك.

وقد روى أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب الى أهل
اليمن وكان فى كتابه: (ان الرجل يقتل بالمرأة) (١).

فلننظر هذا التأويل كيف يزيد موضوع القصاص غموضا وتعقدا و كيف يضطرنا
الى تأويلات بعيدة شاذة.

اضافة الى ذلك أن هذا التأويل لا يستقيم معه نظم الكلام، وهو ينقض الرباط الذي يشد الآيات
بعضها الى بعض.

إذا فما هو ذلك التأويل الذي يكون سليمان تلك الاشكالات. ويكون متلائما مع نظم الآيات
وسياقها ومتلائما مع لونها وجوها؟

قبل أن نخرج الى الاجابة على هذا السؤال، أو الى بيان التأويل الصحيح للآية، نريد أن ننبه
الى سبب خفاء هذا التأويل.

وبيانه أن أمراقصاص هو موضوع هذه الآية. ففهمها يتوقف على فهمه. ولا يمكن التوصل الى
صحيح تأويلها قبل التوصل الى صحيح معناه.

ولكن الذي حدث هو أن هذا اللفظ لم يعن بدراسته عناية يستحقها. وتناقله الناس بمعناه
المعروف الذي كان بحاجة الى أن يتأكد من صحته. (٢)

(١) سنن الدارمى: باب القود بين الرجال والنساء: ص/٥٨٥-٥٨٦

(٢) انظر - مثلا - تفسير الطبرى: ١٠٦/٢، التفسير الكبير: ٤٧/٥، المحرر الوجيز: ٤٩٥/١.

فتح القدير: ١٧٤/١، التفسير القيم: ص/١٤٤

تحقيق معنى القصاص:

ويبدولى أن الامام ابن تيمية - رحمه الله - كان موفقا فى رأيه وكان أقرب الى الصواب حيث قال:

«لفظ القصاص يدل على المعادلة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والانصاف

فى أمر القتلى» (١)

وقال - رحمه الله -:

«ولكم فى القصاص حياة» فانهم اذا تفادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم تبق واحدة تطلب الأخرى

بشيء فحى هؤلاء وحى هؤلاء ، بخلاف ما اذا لم يتقاصوا فانهم يقتاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت

فيها خلائق، كما هو معروف فى فتن الجاهلية والاسلام ، انما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين

الطائفتين والا فمع التعادل والتناصف الذي يرضى به أولو الألباب لا تبقى فتنة. » (٢)

والامام الرازى - رحمه الله - أيضا كان منتبها لهذا الجانب من معنى كلمة القصاص حيث قال:

«وسميت القصة قصة لأن بالحكاية تساوى المحكى، ويسمى المقص مقصا لتعادل جانبيه.» (٣)

وعلى هذا المعنى ورد الحديث الذي رواه البخارى عن أبى سعيد - رضى الله عنه - حيث قال:

قال رسول الله ﷺ :

(اذا أسلم العبد فحسن اسلامه، يكفر الله عنه كل سيئة كان زلقها وكان بعد ذلك القصاص:

الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمئة ضعف، والسيئة بمثلها الا أن يتجاوز الله عنها.) (٤)

أى كان بعد ذلك المعادلة فالحسنة تعادل بعشر امثالها إلى سبعمئة ضعف والسيئة تعادل بمثلها.

ومن ذلك ما رواه الترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

(أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يارسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ:

المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل

مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيقتصد فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته، فان فنيت

حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح فى النار.) (٥)

(١) دقائق التفسير للامام ابن تيمية: ٢٤٩/١

(٢) دقائق التفسير : ٢٤٨/١

(٣) التفسير الكبير: ٤٧/٥

(٤) صحيح البخارى: كتاب الايمان: باب ٣١ حسن اسلام المرء: ١٥/١

(٥) سنن الترمذى: باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص: ٦١٣/٤، رقم الحديث (٢٤١٨).

فكما لا يخفى أن القصاص فى هذه الرواية لا يعنى الفعل بالانسان مثل ما فعل، وانما يعنى اقامة العدل والقسط واشكاء المظلوم وارضاءه بما يعادل مظلمته من حسنات مَنْ ظلمه.

ومن هذه الناحية قيل ليوم القيامة يوم القصاص كما قال يزيد بن أسد البجلي وهو يخطب الناس بصفين:

(وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له كلمة النجاة فى الحياة الدنيا وعند الوفاة، وفيها الخلاص يوم القصاص.) (١)

ولقد وردت هذه الكلمة مرتين فى القرآن ما عدا هذين الموضعين. مرة فى قوله تعالى:

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين.﴾ (٢)

ومرة أخرى فى قوله تعالى:

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.﴾ (٣)

والذى نلاحظه فى تلك المواضع كلها هو أنه لا يستقيم فيها لكلمة القصاص إلا معنى التعادل والتكافؤ والتساوى كما سنفصله فيما بعد بعون الله.

وأما المعنى الذى جنح له المفسرون - رحمهم الله - فهو لا يستقيم الا بتكليف شديد.

تأويل الآية:

والآن نتوجه الى بيان الوجه المفضل المقبول فى تأويل الآية، فنقول:

إن ما تفيدته هذه الآية هو أنه كتب على المؤمنين أن يقاصوا ويعادلوا فى شأن القتلى، فيعادلوا الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. فاذا قتل الحر فلتكن له دية الحر، وإذا قتل العبد فلتكن له دية العبد، وإذا قتلت الأنثى فلتكن لها دية الأنثى من غير تفريق بين قوم وقوم، أو لون ولون، فالمؤمنون تتكافأ دماؤهم، وتتعين عليهم المعادلة فى دياتهم، من غير أن تكون لهم الخيرة من أمرهم.

(١) شرح ابن أبى الحديد: ٤٨٥/١، والأغانى: ٥٥/١٩، نقلا من جمهرة خطب العرب: (٣٤٤/١)

(٢) سورة البقرة: ١٩٤

(٣) سورة المائدة: ٤٥

وهذا التأويل شبيه في جملته بما رواه ابن جرير، قال: حدثنا موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدي قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى قال اقتتل أهل ملتين من العرب، أحدهما مسلم، والآخر معاهد في بعض ما يكون بين العرب من الأمر، فأصلح بينهم النبي ﷺ وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يؤدى الحر دية الحر، والعبد دية العبد، والأنثى دية الأنثى، فقاصهم بعضهم من بعض.

وقال: حدثنا المنثى قال: ثنا سويد بن نصر، قال: أخبرنا ابن المبارك، عن شعبة، عن أبي بشر قال: سمعت الشعبي يقول في هذه الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ قال: نزلت في قتال عمية، قال شعبة: كأنه في صلح، قال: اصطلحوا على هذا. (١)

وروى سفيان بن حسين عن ابن أشوع عن الشعبي، قال: كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هؤلاء، ومن هؤلاء فقال أحد الحيين: لا نرضى حتى نقتل الرجل بالمرأة وبالرجل الرجلين. وارتفعوا الى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: القتل بواء أى سواء فاصطلحوا على الديات. ففضل لأحد الحيين على الآخر فهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ الى قوله ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ (٢)

فلا فرق هناك بين ما ذكرناه وبين ماوردت به تلك الروايات، الا أننا نرى هذه الآية عامة شاملة محكمة سارية المفعول الى اليوم والى ما بعد اليوم. ولا داعي هناك لتخصيصها بحادث معين أو بوضع معين كقتال عمية مثلاً.

بل كلما حدث حادث القتل، سواء كان فردياً أو جماعياً كان على المؤمنين أن يحتكموا الى هذه الآية الكريمة، فيعادلوا الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، أى يؤدوا دية الحر ان كان المقتول حراً، ودية العبد ان كان عبداً، ودية الأنثى ان كانت أنثى.

فمن عفى له - من أخيه - أى ولى الدم - شئ مما يلزمه من الدية فليتبعه بالمعروف وليؤده اليه باحسان.

وهذا الضابط في ذاته تخفيف من ربنا ورحمة. ويتجسد لنا كونه تخفيفاً ورحمة اذا وضعنا في اعتبارنا تلك الثارات الجاهلية، التى كانت تنوء بأثقالها قبائل العرب، والتى كانت تمتد وتمتد بلا حدود. وما كان لها أن تخبر اذا استعرت نيرانها حتى تأكل العشائر والبطون بكاملها.

وليس هناك أى فرق أو اختلاف ملحوظ في مدلول هذه الآية والنهي وردت في سورة المائدة حيث

(١) تفسير الطبري: ١٠٤/٢

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ١٥١/١

قال تعالى:

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا. فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.﴾ (١)

فهذه الآية تبين لنا ما شرع لبني اسرائيل في شأن الدية، فكان عليهم - كمثلتنا - أن يعادلوا النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسِّن بالسِّن. وكان عليهم أن يفعلوا في الجروح كذلك، فان الجروح قصاص أى متكافئة متعادلة ، فلا فرق بين جرح شخص وشخص وبالتالى لا فرق بين دية شخص وشخص.

ولقد بينت الآية نفسها نوعية القصاص حيث ورد في آخرها:

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾

والظاهر في التصديق والصدقة أن يكونا بالمال.

فالصدقة: ما يخرج به الانسان من ماله على وجه القرية. (٢) والمتصدق: الذى يعطى الصدقة.

ومنه الصَّدَاق والصِّدَاق: لمهر المرأة. وقد أصدقت المرأة إذا سميت لها صداقا. (٣)

فهذان اللفظان يدلان في أصلهما على التقرب بالمال، كما نص عليه أئمة اللغة، وكما نعلمه من تقصى استعمالهما في القرآن وفي كلام العرب، اللهم الا أن تكون هناك قرينة تصرفهما عن معناهما الأصل، فهذا شئ آخر.

إضافة الى ذلك أنه ورد ذكر التصديق في سياق الديات صراحة، حيث قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ

مُسْلِمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا... الخ﴾ (٤)

والقرآن يفسر بعضه بعضا، وخير ما رجع اليه المرء في تفسيره هو نفسه.

ثم هناك روايات تعزز رأينا وتذهب بنا الى ما ذهبنا اليه.

فقد أخرج ابن مردويه عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: « الرجل تكسر سنه، أو تقطع يده، أو يقطع الشئ، أو يجرح في بدنه، فيعفو عن ذلك، فيحيط عنه قدر خطاياه، فإن كان ربع الدية فربع خطاياه، وإن كان الثلث فثلث خطاياه، وإن

(١) سورة المائدة: ٤٥

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني: ص/٢٧٨

(٣) الصحاح للجوهري (صدق).

(٤) سورة النساء: ٩٢.

كانت الدية حطت عنه خطاياہ كذلك. « (١)

وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ :

﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ الرجل تكسر سنه، أو يجرح من جسده، فيعفو عنه فيحط من خطاياہ بقدر ما عفا من جسده، ان كان نصف الدية فنصف خطاياہ، ان كان ربع الدية فربع خطاياہ، وان كان ثلث الدية فثلث خطاياہ، وان كانت الدية كلها فخطاياہ كلها! « (٢)

وذكر مكى حديثا من طريق الشعبى أنه يحط عنه من ذنوبه ما عفى عنه من الدية. (٣)
تلك الروايات تبين لنا بوضوح أن الموضوع هنا موضوع الديات والمراد بالتصدق هو التصديق بالديات.

وبالجملة فلا علاقة لهذه الآية أو آية البقرة بموضوع حد القتل أو قتل النفس بالنفس.
وانما هما تعالجان موضوع الديات وتبهيان بالمعادلة فيها من غير ظلم ولا هضم ولا اعتداء.
وهذا المفهوم ليس فقط أنه يريحنا من كثير من المشاكل التي واجهها المفسرون - رحمهم الله -
فى تأويل الآية، بل يجلى لنا نظامها، ويسهل لنا مهمة ربطها بما حولها.

ارتباط الآية بما قبلها:

والآن: فما هو وجه ارتباطها بما حولها؟

لقد رأينا فيما سبق أن الموضوع كان موضوع الترغيب فى أكل الطيبات حيث قال تعالى:
﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان، انه لكم
عدو مبين.﴾

وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون.﴾
ثم جاء ذكر ما حرم من الطعام، وكان ذلك تكملة لحديث الأكل من الطيبات، حيث قال تعالى:
﴿انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا
عاد فلا اثم عليه. إن الله غفور رحيم.﴾

(١) الدر المنثور: ٩٢/٣

(٢) الدر المنثور: ٩٢/٣

(٣) تفسير البحر المحيط: ٤٩٧/٣

ثم جاء الوعيد على تكسب المال بكتمان ما أنزل الله وهو - كما لا يخفى - من جنس ما حرم من الطعام، بل من أقبح أنواعه، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ثم جاءت آية البر. ولقد فصلنا فيما مضى أنها ما جاءت الا لتفضح بنى اسرائيل وتسلبهم الشرف الذى كانوا يتبجحون به. انها جاءت لتخلع عنهم فضيلة البر نهائيا، حيث انهم كتموا الحق وكتموا ما أنزل الله واشتروا به ثمنا قليلا.

وكان هذا الكتمان من أفدح ما اجترحه بنو اسرائيل، فحسن التعقيب هنا بذكر تلك الفضيحة تنبيها على فداحة خطيئهم وشناعته.

ثم عاد الكلام الى نصابه، وجاءت آيات القصاص والوصية لتحذر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير فى أدائها، وكل ذلك مما يكمل حديث الأكل من الطيبات والابتعاد من المحرمات. فأمرُوا أن ينصفوا فى شأن الديات ويوفوا الحقوق الى أهلها إلا أن يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم.

وأمرُوا بالوصية قبل الموت حتى يصيب كل ذى حق حقه مما تركوه من الخير، ولا يهضم القوى حق الضعيف ولا يعتدى بعضهم على بعض.

وحذروا من تبديلها حتى لا يعبت بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين فيفوت الغرض منها. اللهم إلا اذا كان هناك جنف أو اثم فى الوصية، فلا اثم عليهم فى اصلاحها، فان الوصية فى ذاتها لا حرمة لها إلا اذا كانت تحقق غرضها، وكانت محفوظة لحقوق من يستحقها.

وكان هذا الأمر بالوصية قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت الموارث وعرفت الفرائض تعين على المؤمنين التمسك بها، فإن المصلحة من الوصية - وهى سد باب من أبواب أكل المال بالباطل - قد تحققت بها على أكمل وجه.

وبعد ما انتبهنا من بيان نظم هذه الآيات وعرفنا وجه ارتباطها بما قبلها نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (١٨٣-١٨٨)

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معهودات. فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين. فمن تطوع خيرا فهو خيرا له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون. شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون. وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب، أجب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون. أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد. تلك حدود الله فلا تقربوها. كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون. ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.﴾



قبل أن نبحث موضوع نظم هذه الآيات فيما بينها، وقبل أن غيط اللثام عن وجه ارتباطها بما قبلها نود أن تكون لنا وقفة عند الآية الثانية والخامسة من هذه الآيات، فان الآيتين مازالتا بحاجة الى بحث ودراسة.

ويدون تلك الدراسة لا يمكن لنا التوصل الى الرؤية الصحيحة لنظم تلك الآيات.

﴿فتوقف أولا عند قوله تعالى:

فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر﴾

نرى المفسرين - رحمهم الله - القدامى منهم والمحدثين، يؤولون الآية وهم يتصورون أنها ما جاءت الا لترخص للمسافرين والمرضى فى الافطار عن الصيام وقضائه فى أيام آخر. ثم منهم من رخص فى الافطار بشروط، ومنهم من بالغ فى هذا الترخيص وأطلقه اطلاقا، وأبى أن يقيد بتلك الشروط، أو بأى شرط من تلك الشروط، ظنا منه أن هذا تقييد لما أطلقه النص القرآنى، وهو أمر لا يسوغ ويتنافى مع طبيعة هذا الدين. (١)

(١) انظر -مثلا- الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٧٦، ٢٧٧ وتفسير البحر المحيط ٢/٣٢.

وتفسير ابن كثير: ١/٢١٤، وفي ظلال القرآن: ١/١٦٨-١٧١

وهذا التصور فى ذاته تصور لا نستريح اليه. ونراه نتيجة طبيعية لقلة التروى فى سياق الكلام. ولو أنهم تأملوا فى سياق الكلام وتمسكوا بالنظام لذهبوا الى غير ما ذهبوا اليه ، فان الحديث فى هذه الآية يتركز على اكمال عدة الصيام، لا على الانقطاع عن الصيام. وبيانه أن الله تعالى كتب على المؤمنين أن يصوموا أياما معدودات إلا أنه قد يكون من المرضى والمسافرين من لا يقدر على الصوم لشدة المرض أو صعوبة السفر، ويفوته الصوم على رغم أنفه فى تلك الأيام المعدودات، فيأتى التوجيه فى حقهم أنهم ان لم يتمكنوا من الصوم أو من مواصلة الصوم فى تلك الأيام المعدودات- أى الأيام الموقته بعدد معلوم- فلا يفوتهم أن يكملوا تلك العدة من أيام أخر اذا قدروا عليه. فالاهتمام كله منصب على توصية المرضى والمسافرين باكمال عدة الصيام اذا فاتهم شئ منه بسبب المرض أو السفر، لا على الترخيص لهم فى الانقطاع ، أو الزامهم بالانقطاع وقضائه فى أيام أخر.

وهذا الأمر ، وان كان واضحا بينا، ولم يكن بحاجة الى دليل، الا أننا نذكر هنا بعض الأدلة، حتى يبلغ الموضوع غايته من الوضوح وحتى يطمئن اليه كل من كان من أمره فى شك.

الدليل الأول:

إن هذا الموضوع جاء متكررا فى هذه الآيات حيث قال تعالى:

﴿أَيُّهَا مَا مَعْدُودَاتٍ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.﴾

ثم قال تعالى فى الآية التالية بعد مانوه بشأن شهر رمضان ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.﴾ ومعلوم أن الرخص- بطبيعتها- لا تحتاج الى تكرار، فانها تكون سهلة سائغة، والنفوس تكون اليها مسرعة وفيها رغبة. بخلاف العزائم فانها تكون مرة المذاق، ثقيلة على النفوس. والطبائع لا تقبل اليها إلا أن يكرر لها النداء.

ولذلك نرى القرآن مليئا بتكرار العزائم، ولكن لا نجد شأنا واحدا لتكرار الرخص.

الدليل الثانى:

ان الله تعالى خصص لبيان الرخص آية جامعة فى نهاية الحديث حيث قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ....الآيَة﴾ فجمع الله تعالى فى هذه الآية الكريمة ما رخص فيه لهذه الأمة بخصوص الصيام. فلو كانت تلك الآية ترمى الى الترخيص فى الانقطاع لكانت أولى بأن توضع فى جنب هذه الآية أو تدمج فيها.

الدليل الثالث:

نرى السياق هنا قد ركز على اكمال العدة حيث ورد ذكره فى آيتين اثنتين (١٨٤-١٨٥) أربع مرات.

مرتين فى الآية الأولى : ١- أياما معدودات ٢- فعدة من أيام أخر

ومرتين فى الآية الثانية: ١- فعدة من أيام أخر ٢- ولتكملا العدة

فالتأويل الذي يتلاءم مع هذه الظاهرة هو أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يصوموا أياما

معدودات- أى الأيام الموقته بعدد معلوم، وهى شهر رمضان - ويكملوا عدتها. فإذا لم يتمكنوا من

اكمال عدتها فى أوانها بسبب المرض أو السفر فليكملوها فى أيام أخر.

وهذا المفهوم يقتضى ألا يفطر المريض أو المسافر فى شهر رمضان الا أن يكون مضطرا اليه .

فإذا اضطر اليه فعليه عدة من أيام أخر.

فالأصل هنا اكمال العدة وليس الترخيص بسبب المرض أو السفر.

الدليل الرابع:

افترض الله علينا صيام شهر رمضان، وجعله احتفالا بنزول القرآن. فالمفروض أن يشترك فى

هذا الاحتفال جميع المؤمنين. ولا يتخلف عنه الا من حبسه مرض أو سفر ولم يكن فى وسعه أن

يشترك فيه.

أما أن يكون هناك تحريض أو تشجيع أو توجيه للتخص فى الافطار باسم المرض أو السفر فهذا

لا يتناسب مع هذه المناسبة، ولا يتناسب مع تلك المشاعر الحارة التى يريد الله لكتابه فى قلوب

المؤمنين.

وعلى هذا جاء الأمر الالهى أن يصوم هذا الشهر كل من شهدده، أما من اضطر الى الافطار

بسبب مرض أو سفر فلا جناح عليه، فان الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، الا أنه ملزم،

إذا زال عنه الحرج، بأن يكمل العدة.

فجميع مكلفون باجلال هذا القرآن وبالاحتفال بهذا الشهر المعطاء بأن يكملوا هذه العدة، إما فى

أوانها أو فى غير أوانها اذا لم يتمكنوا من إكمالها فى أوانها.

الدليل الخامس:

لو كانت هذه الآية للتخص فى الافطار، وكان الافطار فى السفر أو المرض أمرا مندوبا اليه

لكان أولى الناس بتطبيقه النبي ﷺ وأصحابه، بينما الروايات الصحيحة تنقل إلينا أن النبي ﷺ صام

فى السفر وصام معه أصحابه ولم يلجؤا الى الافطار الا بعد ما اضطروا اليه.

فقدروى الشيخان عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة الى مكة، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بما فرغه الى يده ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان. (١)

وفى رواية لمسلم عن جابر - رضى الله عنه - أنه دعا بقدر من ماء بعد العصر. (٢)
فافطاره - عليه السلام - بعد العصر ان دل على شئ فانما يدل على شدة الموقف، وأنه - عليه السلام - ما لجأ اليه الا بعد ما اضطر اليه، وإلا فقد كان - عليه السلام - أحرص ما يكون على اكمال الصوم. ولذلك ظل باقيا على صومه الى صلاة العصر.

ولذلك نرى الامام مسلم - رحمه الله - قد ذكر هذا الحديث في باب سماه: (باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية اذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاق بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر).

وأیضا روى الشيخان عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى ان كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر. وما فينا صائم الا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة. (٣)

وهذا الحديث أيضا يدل على حرص النبي ﷺ وأصحابه على اكمال الصوم مع بعد الشقة وفداحة المشقة.

ثم لم يعد هذا أمر اجتهد واستنباط، فقد صرح النبي ﷺ بهذا الأمر حيث قال: (من كانت له حمولة تأوى الى شيع فليصم رمضان حيث أدركه). (٤)

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون فهم ما كانوا يفطرون في أسفارهم ولا غزواتهم إلا اذا ضعفوا عن الصيام. يقول أبو سعيد الخدري - رضى الله عنه -:

(كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر، فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم. يرون أن من وجد قوة فصام، فان ذلك حسن. ويرون أن من وجد ضعفا فأفطر فان ذلك حسن). (٥)

فيفيد هذا الحديث أن الأفضل للقوى هو الصوم ويجوز للضعيف أن يفطر ولا بأس عليه.

(١) متفق عليه. واللفظ للبخاري، انظر كتاب الصوم، باب ٣٨ من أفطر في السفر ليراه الناس.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر.

(٣) متفق عليه. واللفظ لمسلم. انظر كتاب الصيام: باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

(٤) مختصر سنن أبى داود: كتاب الصيام، باب فيمن اختار الصيام في السفر، رقم الحديث (٢٣٠٣).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر.

ولا يعز علينا أن نحمل الأحاديث الآخر أيضا هذا المحمل، وإن كانت تبدو في ظاهرها على خلاف ذلك .

ولنقبل الآن الى الشطر الثاني من الآية، وهو قوله تعالى:

﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين. فمن تطوع خيرا فهو خيرا، وأن تصوموا خيرا لكم إن كنتم تعلمون.﴾

الوجوه الماثورة في تأويل الآية:

لقد ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله أربعة وجوه ثم قال:

« وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقول الله تعالى ذكره ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ لأن الهاء التي في قوله ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ من ذكر الصيام.

ومعناه : وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين، فإذا كان ذلك وكان الجميع من أهل الاسلام مجمعين على أن من كان مطيقا من الرجال الأصحاء المقيمين غير المسافرين صوم شهر رمضان فغير جائز له الانقطاع فيه والافتداء منه بطعام مسكين، كان معلوما أن الآية منسوخة، (١)
هذا هو اختيار الامام ابن جرير - رحمه الله - من بين الوجوه الواردة في تأويل الآية. والمفسرون الذين جاءوا من بعده ركنوا - في أغلبهم - الى هذا التأويل.

تقويم رأي الامام ابن جرير:

ولكن يتوجه الى هذا التأويل اعتراض لا يمكن أن يغمض عنه. وهو - كما يقول الامام الرازي - رحمه الله -:

« ان القائلين بأن هذه الآية منسوخة اتفقوا على أن ناسخها آية شهود الشهر، وذلك غير جائز، لأنه تعالى قال في آخر تلك الآية: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ ولو كانت الآية ناسخة لهذا لما كان قوله ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ لائقا بهذا الموضع لأن هذا التقدير أوجب الصوم على سبيل التضييق، ورفع وجوبه على سبيل التخيير، فكان ذلك رفعا لليسر وإثباتا للعسر فكيف يليق به أن يقول: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ (٢)

(١) تفسير الطبري : ١٣٩/٢

(٢) التفسير الكبير : ٨٠/٥

ثم ان (على) اذا جاءت على مثل هذا الأسلوب، فانها تدل على معنى الوجوب دون التخيير، بينما التأويل الذي ذهب اليه الامام ابن جرير- رحمه الله- يعدل بنا عن هذا المعنى الى معنى التخيير والترخيص.

تقويم سائر الوجوه:

وهذا الاعتراض كما يتوجه الى هذا التأويل، يتوجه الى سائر الوجوه التى ذكرها الامام ابن جرير- رحمه الله - أو الامام الرازى - رحمه الله - فإن تلك الوجوه كلها متشابهة من حيث انها تفسر الآية على معنى التخيير أو الترخيص، الذى هو خلاف الأصل فى معنى هذه الكلمة. ثم ليس فى الآية ما يدل على أنها و ردت فى شأن الشيخ الكبير أو المرأة العجوز ومن فى حكمهما. فتخصيصها بهؤلاء- كما نرى فى الوجه الثانى والثالث والرابع عند ابن جرير- تخصيص بدون مخصص.

وأما القول بأن (يطيقونه) بمعنى لا يطيقونه، أو يتجشمونه، أو يتكلفونه، أو يستطيعونه بجهد أو أقصى جهد، وما شابه ذلك مما وردت به كتب التفسير^(١)، فهو مما لم نجد له شاهدا فى القرآن ولا فى كلام العرب، بل الأمر على العكس، فان اطاقه الفعل يعنى التمكن منه والقدرة عليه بكل سهولة ويسر. يقول الفيروز آبادى:

(الاطاقة : القدرة على الشئ)^(٢)

ويقول الجوهري:

(الطوق: الطاقاة . وقد أطق الشئ اطاقاة، وهو فى طوقى أو وسعى. وطوقنى الله أداء

حقك أى قوائى.)^(٣)

والشواهد على هذا المعنى كثيرة متوافرة.

منها ما رواه أبوهريه عن النبى ﷺ أنه قال: (اياكم والوصال) قالوا : فانك تواصل يا رسول الله! قال: (انكم لستم فى ذلك مثلى . انى أبيت يطعننى ربي ويسقينى . فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون، وفى رواية: فاكلفوا ما لكم به طاقة).^(٤)

ومنه قول سيدنا أبى بكر الصديق:

«يا أيها الناس: انما أنا مثلكم ، وانى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله ﷺ

يطيق.»^(٥)

(١) تفسير الطبرى: ١٣٨/٢-١٣٩، الكشاف: ٣٣٥/١، المعرر الوجيز: ٥١٢/١، فى ظلال القرآن: ١٧١/١

(٢) القاموس المحيط: فى مادة (ط، و، ق)

(٣) الصحاح للجوهري: فى مادة (ط، و، ق)

(٤) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب النهى عن الوصال فى الصرم.

(٥) تاريخ الطبرى: ٢٢٤/٣

ومنه قول سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه:-

(لو أطبق الأذان مع الخليفة- أى الخلافة- لأذنت). (١)

ونرى أنه ما فسر من فسر (يطيقونه) بهذا المعنى إلا لأنه خفى عليه الوجه الصحيح. ولو أنه استطاع تأويل الآية بدون أن يلجأ الى هذا القول لما لجأ اليه.

ونفس الاعتراض يتوجه الى الوجه الخامس الذي ذكره الامام الرازي، فان تخصيص الآية بالمرضى والمسافرين بدون أن يكون هناك دليل يلجئنا اليه، قول لا يخلو من ضعف.

الوجه الصحيح فى تأويل الآية:

إذا فما هو الوجه الصحيح فى تأويل الآية؟

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يذكر الوجوه الواردة فى تأويلها:

«وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله «وعلى الذين يطيقونه» وعلى الذين يطيقون الطعام. وذلك لتأويل أهل العلم مخالف...» (٢)

وقال الفراء:

«الضمير فى» يطيقونه «يجوز أن يعود على الصيام أى وعلى الذين يطيقون الصيام، أن يطعموا إذا أفطروا، ثم نسخ بقوله: «وأن تصوموا» ويجوز أن يعود على الفداء، أى وعلى الذين يطيقون الفداء فدية.» (٣)

وقال ابن عطية:

«والضمير فى (يطيقونه) عائد على الصيام وقيل على الطعام وهو قول ضعيف.» (٤)

وكاتب هذه السطور يرى هذه الأقوال أقرب شئ فى تأويل الآية.

ولقد قال ابن عطية: (وهو قول ضعيف) ولكنه-رحمه الله- اكتفى بهذا الحكم المبهم ولم يبين لنا ما فيه من الضعف.

والحق أنه ليس فى هذا التأويل ما يستوجب هذا الحكم.

(١) الصحاح للجوهري: (خ، ل، ف)

(٢) تفسير الطبرى: ١٤١/٢

(٣) تفسير القرطبي: ٢٨٨/١

(٤) المحرر الوجيز: ٥١٣/١

أقصى ما يقال فيه ما قاله الجصاص - رحمه الله - حيث يقول:

«وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قداختلف فى ضمير كنايةته فقال قائلون:

هو عائد على الصوم، وقال آخرون: الى الفدية، والأول أصح لأن مظهره قد تقدم والفدية لم يجر لها ذكر والضمير انما يكون لمظهر متقدم. ومن جهة أخرى، ان الفدية مؤنثة والضمير فى الآية للمذكر فى قوله: (يطيقونه). (١)

وما احتج به الجصاص - رحمه الله - لا يفض من قيمة هذا التأويل، فان عود الضمير الى متأخر لم يتقدم له ذكر ليس عيبا فى الكلام، وخاصة اذا كان ذلك المتأخر مقدم الرتبة. وقد أجاز ذلك ابن جنى وابن عقيل وأجازه قبلهما الأخفش من البصريين وأبو عبدالله الطوال من الكوفيين. (٢)

ولذلك شواهد فى القرآن وفى كلام العرب.

فمنه قوله تعالى: ﴿فَفُوجِسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى﴾ (٣)

ومنه قولهم: ﴿ففى بيته يؤتى الحكم﴾ (٤)

ومنه قول جزء بن ضرار وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام:

أتأتى فلم أسروبه حين جاعنى حديث بأعلى القنطين عجيب (٥)

ومنه ما ذكره ابن عقيل فى كتابه «شرح التسهيل»:

شريوميتها وأغواه لها ركبت عنز بحدج جملا (٦)

وأما قوله: «ان الفدية مؤنثة والضمير فى الآية للمذكر» فنظيره قوله تعالى قبل هذه الآية بآيتين، حيث قال تعالى:

(١) أحكام القرآن للجصاص: ١٧٩/١

(٢) انظر المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل: ١١٢/١ - ١١٣

(٣) سورة طه: ٦٧

(٤) المستقصى فى أمثال العرب للزمخشري: ١٨٣/٢

(٥) الحماسة لأبى تمام: ٢٠١/١، رقم القصيدة (١١٧).

(٦) شرح التسهيل: ١١٢/١.

وعنز فى قوله: (ركبت عنز) امرأة من طسم، وطسم قبيلة من عاد كانوا وانقرضوا. ويقال:

ان عنزا أخذت سبية، فحملوها فى حدج بالكسر، وهو مركب من مراكب النساء.

والطفوها بالقول والفعل. فقيل: هذه أكرم السباء. فقالت: هذا شريومى، أى حين صرت أكرم السباء.

والشاهد فى قوله: (شريوميتها) أى ركبت عنز بحدج جملاً فى شريوميتها.

«فمن بدله ^{بغير} ماسمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم.»
فان صح أن يرجع ضمير المذكر في قوله تعالى: (فمن بدله) الى الوصية فأى اشكال في رجوع ضمير المذكر في (يطيقونه) الى (القدية) ؟

وأما قول ابن جرير - رحمه الله - : (وذلك لتأويل أهل العلم مخالف) فهو لا يعدو أن يكون دعوى لا تساندها بيعة، أو حكما لا يعضده دليل.

وذلك لأنه ليس هناك تأويل موحد مجمع عليه عند أهل العلم، حتى يقال لغيره، انه لتأويل أهل العلم مخالف. وإذا جاز أن تكون هناك أربعة وجوه في التأويل، وهى كلها ليست مخالفة لتأويل أهل العلم، فلماذا لا يجوز أن يكون هناك وجه خامس أو سادس؟ وإذا كان هذا الوجه يعتمد على دليل علمي متين فكيف يعتبر مخالفا لتأويل أهل العلم؟

فالأصل في الموضوع هو الدليل والبرهان. وهو الذي سيكون مقياسا لضعف هذا القول أو قوته.

فلننظر في هذا التأويل من هذه الناحية.

ولقد قلبنا هذا التأويل ظهرا لبطن، واختبرناه من ناحية الدليل والبرهان، فوجدناه أحكم شئ في

هذا الباب.

وبيانه أنه يحق على الذين يطيقون الطعام، وهم الأغنياء والموسرون، أن يضموا الى الصيام اطعام مسكين. فهم مطالبون بالصيام ومطالبون في نفس الوقت باطعام مسكين.

ولعل ابن شهاب أيضا كان يرى هذا رأى حيث روى ابن جرير عنه:

«فمن تطوع خيرا فهو خير له» يريد أن من صام مع القدية فهو خير له. (١)

ومن هنا قال - عليه الصلاة والسلام - عن رمضان: «انه شهر المواساة». (٢)

وكان - عليه الصلاة والسلام - أجود ما يكون في شهر رمضان. (٣)

وكان - عليه الصلاة والسلام - يرغب الناس في هذا الشهر في الانفاق. وكان يحثهم على الجود

والمواساة واطعام الطعام مستخدما في ذلك مختلف الأساليب، فكان يقول - مثلا - :

(من فطر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئا). (٤)

الى غير ذلك من عشرات الأحاديث التى وردت في هذا الباب.

(١) تفسير الطبري : ١٤٣/٢ .

(٢) صحيح ابن خزيمة : باب فضائل شهر رمضان ان صح الخبر : ١٩١/٣ . رقم الحديث (١٨٨٧)

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير. رقم الحديث (٢٣٠٨).

(٤) سنن الترمذي : باب ما جاء في فضل من فطر صائما : ١٧١/٣ رقم الحديث (٨٠٧).

ويلعل الحكمة فى الحث على اطعام المسكين مع الحث على اكمال الصيام هي أن هذا الاطعام سيكون عوناً للمرء على القيام بمهمة الصيام أحسن قيام، وبهين نفسه لاستقبال الخيرات والبركات التى يفيض بها شهر رمضان.

فأمر المؤمنون أولاً أن يصوموا أياماً معدودات وأمرُوا أن يكملوا عدة الصيام. ثم خص الأغنياء منهم بأمر آخر وهو أن يجمعوا مع الصيام اطعام مسكين. فهذا كما يعدهم لتلقى النفحات الالهية فى رمضان ويعدهم للاستكثار منها، فكذلك يساعد اخوانهم الفقراء ويقويهم على صيام رمضان. وهذا أمر دون أمر، وليس كالأمر الأول كما لا يخفى.

وعلى هذا، فهذه الآية محكمة باقية بحكمها غير منسوخة كما ذهب اليه الامام ابن جرير - رحمه الله - وذهب معه ناس آخرون.

السرفى تكرار الشطر الأول دون الثانى من الآية:

وهنا يثور سؤال : ان كان هذا الحكم باقياً فلما ذا لم يكرر مثلاً كمر حكم اكمال العدة؟ والجواب أن هناك فرقاً بين الواجبين، فان الكلام هنا مركز على واجب الصيام، وهو الموضوع الرئيسى فى تلك الآيات، بخلاف واجب الاطعام فانه ألحق به إلحاقاً، ليكون عوناً على أداء واجب الصيام، وليهين النفس للقيام به أحسن قيام.

اضافة الى ذلك أنه واجب اضافى وليس واجباً كواجب الصوم. فأراد السياق أن ينبه بنظمه على هذا الفرق كما أراد أن يركز على ما هو أثقل على النفس وأشق. وهذا التأويل يريحنا - والحمد لله - من تلك الاشكالات التى ترد على غيره من وجوه التأويل. اضافة الى ذلك أنه أكثر روعة وأكثر حيوية من غيره مما اطلعنا عليه. فله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه.

والآن نتوجه الى الآية الخامسة من هذه الفقرة، وهى قوله تعالى:

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم. هن لباس لكم وأنتم لباس لهن. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد. تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون.﴾

مذهبان فى تأويل الآية:

للناس فى تأويل الآية مذهبان ،

- ١- «ذهب جمهور المفسرين الى أن فى أول شريعة محمد ﷺ كان الصائم اذا أفطر حل له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلى العشاء الأخيرة. فاذا فعل أحدهما حرم عليه هذه الأشياء. ثم ان الله تعالى نسخ ذلك بهذه الآية.
- ٢- وقال أبو مسلم الأصفهاني: هذه الحرمة ماكانت ثابتة فى شرعنا البتة. بل كانت ثابتة فى شرع النصارى. والله تعالى نسخ بهذه الآية ما كان ثابتا فى شرعهم.» (١)

تقويم المذهبين:

هذان مذهبان فى تأويل الآية. ولقد تأملنا فى المذهبين وفى دلائلهما، فلم نجد فى أى واحد منهما ما ينال إعجابنا.

والعجيب فى الأمر أن موقف المفسرين-رحمهم الله - فى هذه الآية يختلف عن موقفهم فى الآية (١٨٤)، حيث انهما موقفان متعارضان متعاكسان.

فحينما ننظر فى تأويلهم لتلك الآية نعلم أن حكم الصيام فى أوله كان فى غاية اليسر والسهولة، حيث انهم كان يسعهم أن يصوموا، وكان يسعهم ألا يصوموا ويطعموا مكان كل يوم مسكينا، حتى ولو لم يكن هناك أى عذر قاهر من سفر أو مرض.

وحينما ننظر فى تأويلهم لهذه الآية نعلم أن حكم الصوم فى أوله كان فى غاية الصعوبة والمشقة، حيث انه كان يبدأ من بعد صلاة العشاء الى غروب الشمس من النهار المقبل.

وعلى هذا فكانت مدة صومهم على الأقل اثنتين وعشرين ساعة متواصلة!

وهذه مدة لا يستطيعها إلا أقل قليل من الناس. وهم أيضا ليسوا بالغبيا الا بشق الأنفس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان موقع الآية ونظمها وسياقها لا يقبل هذا التأويل، ولا ينسجم معه البتة.

فأى مناسبة بين هذه الآية- وفق هذا التأويل- وبين الآية التى قبلها وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۝١٠٠﴾

وأى مناسبة بين مضمون هذه الآية- وفق هذا التأويل - وبين قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فان الآية- وفق هذا التأويل - ما جاءت بيانا للناس

(١) التفسير الكبير : ١٠٣/٥

وإنما جاءت لتنسخ أمرا كان ثابتا في شرعنا- كما يقوله المفسرون- أو كان في شرع من قبلنا- كما يزعمه أبو مسلم-.

ثم إن كان الأمر أمر نسخ لحزمة مباشرة النساء في ليلة الصيام، بعد أن لم يصبر القوم عن شهواتهم وفاض كأسيهم مسيقا، فهم كانوا يباشرون نساءهم مع علمهم بحرمتها في لياليهم تلك، فماوجه قوله تعالى إذا بعد هذا الإحلال: ﴿هَنَ لِبَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسَ لَهُنَّ﴾؟ وما وجه قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾؟

فهذه الزيادات أو هذه التعقيبات لا تستقيم مع هذا التأويل ولا تتلاءم مع هذا الجواب.

تأويل الآية:

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل الآية إذا؟

إن تأويل الآية- كما يليه علينا السياق- هو أن المؤمنين أو عددا غير قليل منهم حسبوا مباشرة النساء في ليلة الصيام عملا يتنافى مع روح الصيام وقداسته ويتنافى مع التجرد المطلوب لله في تلك الأيام. فهم تورعوا من ذلك نهائيا وامتنعوا عنه امتناعا كاملا، وكأنه حرام محرم عليهم من عند الله. وإذا حرموا ذلك على أنفسهم من تلقاء أنفسهم ومنعوها ما أحل الله لها من غير أن يأذن به الله سمي عملهم هذا خيانة مع أنفسهم، ثم تاب الله عليهم وعفا عنهم نظرا إلى نياتهم التي لم تكن تنطوي إلا على الخير والصدق مع الله.

ثم حثهم وحرضهم على إتيان ما أحل الله لهم. وخلط هذا الحث والتحريض بما يستميل أنفسهم ويزرع فيهم الشوق والرغبة في العمل الذي عافته أنفسهم ظنا منهم أنه يتنافى مع روح الصيام، ويتنافى مع حرمة وقداسته، ويتنافى مع التجرد الكامل المطلوب لله في تلك الأيام.

فقال تعالى: ﴿هَنَ لِبَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسَ لَهُنَّ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقوله تعالى: ﴿هَنَ لِبَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسَ لَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما جاء إلا زيادة في الترغيب والتحريض وزيادة في الاستمالة والتشويق. والمراد به «ما كتب الله لكم» هو الولد، كما يرشدنا إليه السياق.

وأما الأكل والشرب فهم بالغوا في الاحتياط في أمره. فكانوا يمسكون عنه في وقت مبكر. وأكثر الروايات تقول: إنهم كانوا يمسكون عنه إذا رقد أحدهم من الليل رقدة. والذي نستلهمه من الآية هو أنهم كانوا يمسكون عنه قبل تبيين الفجر.

وليس هناك كبير فرق بين هذا وهذا، فإنهم ما كانوا يرقدون في رمضان إلا في ساعة متأخرة من الليل. فإذا رقد أحدهم في ساعة متأخرة من الليل، ثم استيقظ في الليل امتنع عن وجبة السحور خشية أن يكون الفجر قد طلع، أو يكون على وشك الطلوع.

كانوا يفعلون ذلك لشدة احتياطهم لا لأنه حرم عليهم أن يأكلوا شيئا بعد نومتهم. وما رواه معاذ بن جبل -رضى الله عنه- أقرب للصواب وأشبه بطبيعة الموضوع حيث قال: «كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا، فإذا ناموا تركوا الطعام والشراب وأتيان النساء.» (١)

فكلام سيدنا معاذ أقرب الى المفهوم الذي أشرنا اليه، وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك شدة في الاحتياط، لا لأنه كان محرما عليهم في شريعتهم.

كانت هذه عادتهم في الطعام والشراب، وأما آتيان النساء فقد كانوا يمتنعون عنه نهائيا طوال شهر رمضان كما رواه ابن جرير عن السدي، قال: كتب على النصارى رمضان. وكتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا النساء شهر رمضان، فكتب على المؤمنين كما كتب عليهم، فلم يزل المسلمون على ذلك يصنعون، كما تصنع النصارى، حتى (٢)

ودراسة الروايات تبين لنا أن الأمر فيها قد اختلط بعضه ببعض. ولا تمكننا الرؤية الصحيحة الواضحة للموضوع إلا بعد جمع الروايات كلها وعرض بعضها على بعض، ثم عرضها جميعا على نص القرآن.

وبعد اتباع هذه الطريقة يتبين لنا ما يلي:

١ - أن المؤمنين ما كانوا يمتنعون - حين يمتنعون - عن الطعام والشراب وآتيان النساء إلا لغاية تورعهم وشدة احتياطهم، والا فما كان هناك أمر سابق من الله يلزمهم بهذا. حتى وليس في أدينا شيء ثابت أو شبه ثابت يثبت لنا أن النصارى أو غير النصارى كانوا مأمورين بهذا. حتى نقول: أن المؤمنين قد استوردوه منهم واتخذوه جريا على عادتهم فيما سكنت عنه شريعتهم. وقول أبي مسلم: أن هذه الآية جاءت تنسخ ما كان عند النصارى في شريعتهم، قول غير مسلم. فالى وقتنا هذا لم نطلع على شيء يوثق به في هذا الموضوع.

٢ - المؤمنون كانوا يمتنعون عن آتيان النساء نهائيا طوال شهر رمضان.

٣ - وانهم كانوا يسكون عن الطعام والشراب مبكرين قبل أن يتبين لهم الفجر.

فجاءت هذه الآية تعالج هذه الأمور، وتصحح الأخطاء التي وقع فيها المؤمنون لشدة تورعهم. واذ نزلت هذه الآية بعد نزول أمر الصيام بزمان، ونزلت لتبين لهم طبيعة شريعتهم السمحة الميسرة التي حباهم الله بها، نبه عليه السياق فقال في آخر الآية:

«كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون.»

(١) تفسير الطبري: ١٦٤/٢

(٢) تفسير الطبري ١٦٦/٢

دفع شبهة:

بقى علينا أن نقطع دابر الوهم الذي تسرب الى الأذهان فى شأن قوله تعالى: (أحل لكم . الآية) فان هذا الوهم كان أثره كبيرا في صرف الناس عن التأويل الصحيح للآية. فإنه تبادر الى أذهانهم لما سمعوا قوله تعالى: (أحل لكم) أن هذا احلال لشيء قد حرم عليهم. وليس الأمر كذلك. فان احلال الشيء لا يستوجب أن يكون قد سبقه تحريره. ونبين ذلك بعدد من الأمثلة، قال تعالى:

١ - ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ (١)

٢ - ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما﴾ (٢)

٣ - ﴿أحلّت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم﴾ (٣)

٤ - ﴿وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأولثان واجتنبوا قول الزور﴾ (٤)

فهذه الأشياء كانت حلالا لهذه الأمة منذ أول يومها. ولم يمض عليها يوم وهى حرام عليها. ومع ذلك فقد استخدم فى تلك الآيات كلها نفس الأسلوب الذي استخدم فى الآية التى نحن بصدده الكلام عليها.

ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض:

ولنعد الآن الى تلك الايات لنعرف وجه ارتباطها بعضها ببعض، فنقول وبالله التوفيق: ان الله تعالى أمر المؤمنين فى الآيتين الأوليين أن يصوموا أياما معدودات. أمرهم به كما أمر الذين من قبلهم.

وأمرهم أن يكملوا عدتها من أيام آخر اذا لم يتمكنوا من صومها لعذر قاهر من سفر أو مرض. ثم خص الأغنياء منهم بأمر آخر، وهو أن يلتزموا مع الصوم باطعام المساكين حتى تلين قلوبهم وتتهبأ نفوسهم للاستكثار من خيرات الصيام وبركاته.

وأمرهم أن يتلقوا هذا الأمر ويطبقوه بكامل الشوق والحماس وطواعية النفس، فان من تطوع

(١) سورة المائدة: ٥

(٢) سورة المائدة: ٩٦

(٣) سورة المائدة: ١

(٤) سورة الحج : ٣٠

خيرا، أى عمله طيعًا به قلبه وطيعًا به جوارحه فهو خير له . وبعد التنبيه على هذا المبدأ الأساسى فى دين الله، عاد فرغَّب فى الصوم:

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم بين ما هى تلك الأيام المعدودات، التى أمر المؤمنون بصيامها، ألاهى شهر رمضان، شهر أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

فأمرهم بصيام الشهر مع تكرار الأمر باكمال العدة تنويها بشأنه، وتنبيها على خطورة أمره.

ثم بين الغاية من هذا الصوم، ألاهى تكبير الله وشكره على أن هيا لنا أسباب الهدى.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وعلى هذا فصيام رمضان عبارة عن الشكر لله وتكبيره على أن من علينا بهذا القرآن. ومن هنا كان أفضل أعمال المؤمن فى رمضان الاشتغال بالقرآن والاكثار من تلاوته و تدارسه. وليست مشروعية صلاة التراويح فى ليالى رمضان إلا سببا الى الاكثار من تلاوة القرآن فى تلك الأيام.

ثم نبه تعالى على ذلكم الشعور القدسى الكريم، الذى ينبغى أن يفيض به قلب المؤمن بفضل صيام رمضان، وبفضل تدارس القرآن فى تلك الأيام، ألا وهو شدة الحنين الى ربه الودود الكريم، والحرص على رؤيته ولقائه والسؤال والبحث عنه للاتصال به والاطمئنان الى رضوانه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ. أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ.﴾

ولا ندرى كيف نعبّر عما أخفى فى تلك الآية الكريمة من قرّة أعين!

فناهيك بها دلالة على مزية صوم رمضان وعلى فضيلة تدارس القرآن فى تلك الأيام.

ويغلب على ظننا أن تلك الآية هى التى ملكت على المؤمنين قلوبهم وجوارحهم، وشغلّتهم بحلاوتها ونداوتها عن لذاتهم وشهواتهم، فهم زهدوا فى نسايتهم، وزهدوا فى مآكلهم ومشاربهم ورغبوا عنها الى الصيام والى تلاوة القرآن، واشتغلوا به آناء الليل وآناء النهار.

فهنالك تداركهم التسويجه الا لى الكريم، حتى لا يميل بهم الطريق الى الرهبانية التى لا صلة لها بدين الله:

﴿أَحْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ... (الآية)﴾

وقد فصلنا القول فى تأويل تلك الآية فيما مضى.

ثم تأتى الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لَتَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَثَمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾

بالاثم وانتم تعلمون.»

يقول الشيخ أبوحيان - رحمه الله - وهو يبرز مناسبة هذه الآية لما قبلها:

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة. وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام، فحبس نفسه عما تعودته من الأكل والشرب والمباشرة بالنهار ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبد الله تعالى صائما له ممنوعا من اللذة الكبرى بالليل والنهار جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه إلا من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضى به الى الاجتهاد في العبادة فلذلك نهى عن أكل الحرام الماضي به الى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه. وتخلل أيضا بين آيات الصيام آية اجابة سؤال الداعي وسؤال العباد الله تعالى. وقد جاء في الحديث أن من كان مطعمه حراما وملبسه حراما ومشربه حراما ثم سأل الله أنى يستجاب له؟! فناسب أيضا النهى عن أكل المال الحرام. (١)

ثم يأتي الدكتور محمد عبدالله دراز فيكشف لنا ناحية جديدة من نواحي مناسبة هذه الآية لما قبلها حيث يقول:

«وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحلال، الى الصوم الدائم عن السجى والحرام» (٢)
وسيزداد الأمر وضوحا باذن الله حينما نتكلم عن مناسبة هذه المجموعة من الآيات لما قبلها.

مايستفاد من نظم هذه الآيات:

نعود مرة أخرى الى تلك الآيات لتأمل في نظمها ونرى ما أودع الله فيها من نفائس الفوائد وأطيب الحكم.

الفائدة الأولى:

انما جعل شهر رمضان شهر الصيام لأجل كونه موسم نزول القرآن وهكذا كان الوضع في كل أمة، أنها كانت تصوم أيامها التي أوتيت فيها الكتاب.

فان صحت الرواية بأنه كتب على كل أمة صيام رمضان كما كتب على هذه الأمة، كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ

(صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم) (٣)

فمعنى ذلك أن كل أمة أوتيت كتابها في هذا الشهر، وأمرت بصيامه وإلا فكل أمة كانت تصوم شهرها الذي أوتيت فيه كتابها.

(١) تفسير البحر المحيط: ٥٥/٢

(٢) النبأ العظيم: ص/١٩٧

(٣) فتح القدير: ١٨١/١

الفائدة الثانية:

افترض الله علينا صيام رمضان حتى نتهياً ونستعد للانتجاع بطابع القرآن الذي أنزل فى هذا الشهر. فاعداد النفوس لحمل رسالة القرآن هو العامل الأساسى فى افتراض صيام رمضان.

الفائدة الثالثة:

أمر الله الموسرين باطعام مسكين ، وأمر بهذا فى سياق فرضية الصيام. وهذا النظم يفيد أن العناية بالفقراء والمساكين : تأثير كبير فى فعالية الصيام، فيها تتهياً النفوس وتستعد لاستقبال بركات الصيام وللاستكثار منها. وكلما بسط الانسان يده فى هذه الأيام ازداد نصيباً من خيراتها.

الفائدة الرابعة:

قال تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ ثم قال تعالى بعده مباشرة: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ هذا النظم يفيد أن مجرد السفر أو مجرد المرض لا يكفى لافطار رمضان. وإنما يجوز الافطار إذا كان المرض أو السفر بحيث لو صام الانسان معه وقع فى العسر. فالعسر هو مناط الرخصة. وإذا زال العسر زالت الرخصة.

الفائدة الخامسة:

من خيانة المرء مع نفسه أن يشدد عليها ويحرمها من طيبات أحلت لها، حتى ولو كان ذلك بدافع الورع والتقوى. فالاسلام دين الفطرة. وهو يحب اشباع رغبات الفطرة وتلبية دواعيها فى حدودها. ومن هنا يختلف طريقه عن طريق الرهبانية.

الفائدة السادسة:

قال تعالى: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ وقال ذلك فى سياق موضوع الصيام. هذا النظم يدل على أن الصيام من شروط الاعتكاف. والاعتكاف لا يتم بدونه.

الفائدة السابعة:

قوله تعالى: ﴿وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ يفيد بنظمه أن الاعتكاف لا يكون الا فى المساجد. ومن هنا قالت عائشة - رضى الله عنها -: (لا اعتكاف إلا بصوم، ولا اعتكاف الا فى مسجد جامع). (١)

(١) مختصر سنن ابي داود : باب المعتكف يعود المريض: ٣/٣٤٤، رقم (٢٣٦٣)

الفائدة الثامنة:

جعل الله تعالى موضوع الاعتكاف خاتمة موضوع الصيام. وهذا النظم يدل على أن من حسن الصيام أن ينتهى مع الاعتكاف، وأن أيامه هى الأيام الأخيرة من رمضان.
كما يدل على أن الاعتكاف من مكملات الصيام. ومن جمع بين الصيام والاعتكاف فقد نال خيرات الصيام بحذافيرها.
وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات، نعود إليها مرة أخرى لنعلم مناسبتها لما قبلها.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

لقد سبق أن قلنا أثناء الحديث عن الآيات السالفة:
(وجاءت آيات القصاص والوصية لتحذر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير فى أدائها الى أهلها، فأمرُوا أن ينصفوا فى شأن الديات وأمرُوا أن يوفوا الحقوق الى أهلها، إلا أن يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم.
وأمرُوا بالوصية إذا حضرهم الموت حتى يصيب كل ذى حق حقه مما تركوه من الخير ولا يهضم القوى حق الضعيف ولا يعتدى بعضهم على بعض.
وحذروا من تبديلها حتى لا يعثب بهامن أراد التطاول على حقوق الآخرين فيفوت الغرض منها)
وبعد هذه الآيات مباشرة جاءت آيات الصيام. ثم بعدها مباشرة جاءت الآية الكريمة:
﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون﴾.
هذا النظم يبنى أن السياق ما زال فى موضوع التحذير من أكل الأموال بالباطل. وأنه ما تخللته آيات الصيام الا لتخدم هذا الموضوع، فلنتظر فى آيات الصيام من هذه الناحية.
لقد علمنا فيما مضى فى تأويل قوله تعالى:
﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن الموسعين منا والموسرين مطالبون فى أيام الصيام بأن يجمعوا بين الصيام واطعام مسكين.
وعلى هذا فيكون الصيام دورة تربية يتربى فيها الأغنياء والموسرون على حب المساكين وتفقد أحوالهم.

ومن هنا قال نبينا - عليه الصلاة والسلام - عن شهر رمضان انه شهر المواساة.
هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فان حلول رمضان - وهو شهر الصيام - يذكرنا معشر المؤمنين

بتلك النعمة الجسيمة التي من الله بها على هذه البشرية، ألا وهي نعمة القرآن.
وتلك النعمة اذا تذكرها المؤمن وعرف قدرها فانها تزده في كل نعمة سواها. وتقبل به وبرغبته
واهتماماته عن حطام الدنيا الى ما هو خير وأبقى وأنفع له عند الله. فهو يتجافى عن دار الغرور
وشهواتها ويتجافى عن أهلها وحكامها المغترين بزينتها.

فما ذا يفتنه من الدنيا وقد ملأ يديه بنعمة تهون في جنبها كل نعمة سواها؟
وما الذي يذهب به الى حكام سوء وهو في شغل شاغل عنهم، وموصول الحبل بربهم ومليكمهم؟
وعلى هذا فالصوم بأعماله وبرامجه والقرآن بتوجيهاته وإيحاءاته يزرع في نفس المؤمن حب الله
وحب عمل يرضيه. ويحبب اليه كل حلال طيب ويكره اليه كل حرام خبيث. ويدفعه الى الجود
والسخاء وتفقد أحوال الضعفاء، فضلا عن أن يأكل أموال الناس بالباطل.
ولذلك كان أعلم الناس بالقرآن أجود الناس بالخير. وكان يبلغ منه الجود ذروته حين كان
يتدارس القرآن مع جبريل - عليهما السلام - في شهر رمضان.

فقد روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:
(كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان. ان جبريل -
عليه السلام - كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ، فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن.
فاذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.) (١)
وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نتوجه الى ما بعدها.



(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل : باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة: رقم

نظم الآيات (١٨٩-٢٠٧)

قال تعالى :

فيسألك عن الأهل قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون. وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين. وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا، ان الله يحب المحسنين. وأتموا الحج والعمرة لله. فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله. فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك. فاذا أمنتكم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم. تلك عشرة كاملة. ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام. واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب. الحج أشهر معلومات. فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج. وما تفعلوا من خير يعلمه الله. وتزودوا فان خير الزاد التقوى. واتقون يا أولى الألباب. ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم، فاذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم. وان كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله، ان الله غفور رحيم. فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا، فمن الناس من يقول ربنا آتتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقننا عذاب النار. أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب. واذكروا الله في أيام معدودات. فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه، ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى. واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون. ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام. واذا تولى سقى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبس المهادر. ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. والله رؤف بالعباد.



قبل أن نعالج بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نود أن تكون لنا وقفة عند الآية

الأولى من هذه الآيات، حتي ندرسها دراسة موضوعية جادة.

فإن هذه الدراسة هي التي ستفتح لنا الطريق الى نظم تلك الآيات، وتكون لنا عوناً في ادراك مناسبتها فيما بينها ولما قبلها.

ودراستنا هذه ستقسم الى قسمين: قسم يتناول الشطر الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

وقسم يتناول الشطر الثاني منها وهو بقية الآية.

فنبداً بالشطر الأول من الآية، متضرعين الى الله أن يسدد خطانا، ويلهمنا رشدنا وصوابنا.

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذا الشطر من الآية:

« ذكر أن رسول الله ﷺ سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية جواباً لهم فيما سألوها عنه. » (١)

هذا ما ذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - في تأويل الآية. وهو التأويل المفضل عند أكثر الناس، و التأمّل فيه يجعلنا نحس فيه عدة اشكالات: وهي كما يلي:

الاشكال الأول:

ما معنى سؤال الصحابة - رضى الله عنهم - أو غيرهم عن الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ومحاقه واستمراره. وقد بينها القرآن بوضوح قبل أن يشور في نفوسهم هذا السؤال. وذلك في سورتين من السور المكية حيث قال تعالى:

«هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق. يفصل الآيات لقوم يعلمون» (٢)
وقال تعالى:

«وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلاً» (٣)

الاشكال الثاني:

لفظ الأهلة لا يقبل هذا التفسير، فإن الأهلة جمع الهلال. والهلال لا يطلق.

(١) تفسير الطبري : ١٨٥/٢.

(٢) سورة يونس : ٥

(٣) سورة الاسراء : ١٢.

إلا على القمر في أول ليلته. يقول ابن منظور :

(الهِلال غرة القمر حين يهله الناس في غرة الشهر.) (١)

ويقول الخازن - رحمه الله - :

« والأهلة جمع هلال، وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر. » (٢)

ويدل على ذلك وجه تسميته بالهلال، فإن الهلال ماسمي هلالا إلا لاهلال الناس عند رؤيته.
قال أبو العباس:

(وسمى الهلال هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالأخبار عنه.) (٣)

والى مثله ذهب الشوكاني - رحمه الله - حيث قال:

« وإنما قيل له هلال، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالأخبار عنه عند رؤيته. » (٤)

فاذا كان هذا هو وجه تسميته بالهلال تعين أنه لا يكون هلالا إلا في أول ليلته، حين يرفع
الناس أصواتهم بالأخبار عنه عند طلوعه.

وهذا المعنى كما يظهر بالتأمل في وجه تسميته، يظهر بتتبع استعمالاته كذلك. ولا بأس بأن نمر
هنا على بعض الأمثلة:

أخرج الدار قطنى عن أبي وائل قال: أتانا كتاب عمر بخانقين: إن الأهلة بعضها أعظم من
بعض، فإذا رأيتم الهلال من أول النهار فلا تفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس. (٥)

وأخرج الدار قطنى عن قيس بن طلق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فإذا رأيتموه فصوموا وإذا رأيتموه فافطروا، فإن غم
عليكم فأتوا العدة ثلاثين.» (٦)

وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول:

(والله يا ابن أختي إن كنا لننظر الى الهلال، ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما

أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار.) (٧)

(١) لسان العرب : مادة (ه.ل.ل)

(٢) تفسير الخازن : ١٦٦/١.

(٣) لسان العرب : مادة (ه.ل.ل)

(٤) فتح القدير : ١٨٩/١.

(٥) سنن الدار قطنى : باب الشهادة على رؤية الهلال : ١٦٨/٢.

(٦) سنن الدار قطنى: كتاب الصيام : ١٦٣/٢

(٧) متفق عليه واللفظ لمسلم، انظر كتاب الزهد والرقائق. رقم الحديث (٢٩٧٢). وقد رواه البخاري
مع اختلاف يسير في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.

ففرى الروايتين الأوليين تستعملان الهلال والأهلة بالمعنى الذي أشرنا إليه. وأما الرواية الثالثة -
وهي رواية عائشة - فهي لا تفسر بعبارتها معنى الهلال والأهلة فحسب، بل تقطع الطريق على
الذين يفسرونهما بمعنى آخر كقول الجوهري:

(الهلال أول ليلة والثانية والثالثة ثم هو قمر.) (١)

أو كقول الأصمعي:

(هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالحيط الرقيق، وهو هلال حتى يبهل بضوئه السماء وذلك

ليلة سبع.) (٢)

أو كقول الفيروز آبادي :

(الهلال غرة القمر أو لليلتين أو الى ثلاث أو الى سبع ولليلتين من آخر الشهر ست وعشرين

وسبع وعشرين وفي غير ذلك قمر.) (٣)

فهذه الأقوال لا تعدو أن تكون آراء واجتهادات لا يوجد لها أصل في كلام العرب. ورواية
عائشة نص على أنه لا يكون في الشهر الا هلال واحد.

الاشكال الثالث:

لقد وردت في هذا السياق ستة أسئلة غير هذا السؤال، وهي كما يلي:

١- «يسألونك ماذا ينفقون. قل ما أنفقتم من خير فقلوا الدين والأقربين.. الآية» (٤)

٢- «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه...» (٥)

٣- «يسألونك عن الخمر والميسر» (٦)

٤- «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو...» (٧)

٥- «ويسألونك عن اليتامى...» (٨)

٦- «ويسألونك عن المحيض...» (٩)

وهذه الأسئلة كلها متجانسة متشاكلة في طبيعتها واتجاهها، وأخذ بعضها بأعناق بعض، كما

سنبينه فيما بعد.

(٦) سورة البقرة: ٢١٩

(٧) سورة البقرة: ٢١٩

(٨) سورة البقرة: ٢٢٠

(٩) سورة البقرة: ٢٢٢

(١) الصحاح للجوهري : مادة (هـ، ل، ج)

(٢) المحرر الوجيز : ٥٣١/١

(٣) القاموس المحيط : مادة (هـ، ل، ج).

(٤) سورة البقرة: ٢١٥

(٥) سورة البقرة: ٢١٧

وأما هذا السؤال فإنه سيصبح غريباً جداً غريباً في هذا الجو، إن رضينا بذلك التأويل الذي ذهب إليه الناس.

الاشكال الرابع:

هذا التأويل يبتز الشطر الأول من الآية من الشطر الثاني منها، وهذا أمر غير مستساغ حتى عند الذين لا يعترفون بالنظام ولا يعترفون بالمناسبات في آيات القرآن وسوره. فالآية الواحدة لا يمكن أن تشتمل على مضامين متنافرة متباعدة، لا يجمعها سبب ولا نسب. وبعد ما انتهينا من دراسة ما قيل في تأويل الشطر الأول من الآية نتوجه الى تأويل الشطر الثاني منها.

تأويل الشطر الثاني من الآية:

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾، واتقوا الله لعلكم تفلحون. « بعد ما ينقل الأخبار الواردة في سبب نزوله:

« فتأويل الآية إذا: وليس البر أيها الناس بأن تأتوا البيوت في حال احرامكم من ظهورها، ولكن البر من اتقى الله فخافه، وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها، فأما اتيان البيوت من ظهورها فلا بر لله فيه، فأتوها من حيث شئتم من أبوابها وغير أبوابها، مالم تعتقدوا تحريم اتيانها من أبوابها في حال من الأحوال. فان ذلك غير جائز لكم اعتقاده، لأنه مما لم أحرمه عليكم. » (١١)

هذا ما ذهب إليه ابن جرير في تأويل الآية ولم يكن هناك مانع من قبول هذا التأويل لولا أنه يوقفنا أمام عدة اشكالات. وهي كما:

الاشكال الأول:

إن الوجوه التي ذكرها المفسرون في تأويل هذه الآية، ومنها ما ذهب إليه ابن جرير، تبتز الشطر الأول من الآية من الشطر الثاني منها. ولقد حاول بعض المفسرين أن يلمس الصلة بين الشطرين، ولكن محاولته هذه لا تخلو من تكلف. بل تشي بعدم اقتناعه هو بما حاول، فيقول ابوحيان، مثلاً، وهو يبرز المناسبة بين شطري الآية:

« ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أن الأهلة مواقيت للحج استطرد إلى ذكر شئ كانوا يفعلونه في الحج زاعمين أنه من البر فينب لهم أن ذلك ليس من البر وإنما جرت العادة به قبل الحج ان يفعلوه في الحج.

(١١) تفسير الطبري: ١٨٩/٢

أو لما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب نقصان الزيادة وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم فأفعاله جارية على الحكمة ردّ عليهم بأن ما يفعلونه من اتیان البيوت من ظهورها، إذا أحرموا، ليس من الحكمة في شيء ولا من البرّ.

أولما وقعت القصة في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً ووصل احدهما بالآخرة» (١)
هذا ما يفيدنا ابوجهان في مناسبة هذه الآية لما قبلها. وهذه المناسبة التي ذكرها (رحمه الله) لاتزيد على أن نجتزئنا إلى سؤال آخر.

وبيانه أنه كانت للعرب في جاهليّتهم عادات أشدّ أقطع وأبعد عن الحكمة والبرّ وكانوا يأتونها في حجّهم. وكانت تلك العادات أولى بالادانة والاستنكار من هذه، فكان مما ابتدعوه. مثلاً، «أنه لا يطوف القادم إلى البيت إلا في ثياب الحمس ومن لم يجد ذلك طاف عرياناً. فإن طاف بشيابه القاها فلا يأخذها ابداً. لاهو ولا غيره، وتسمي العرب تلك الثياب اللقي، وسمحو للمرأة أن تطوف وعليها درعها وكانت قبل تطوف عريانة وعلى فرجها نسعة.» (٢)

فإذا كان حجّهم مليئاً بمثل تلك المنكرات المزريات، فلما ذا أنكر القرآن عليهم تلك العادة وترك غيرها مع كونها أعظم وأطمّ؟

ثم إن قوله (رحمه الله) «أو لما وقعت القصة في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً ووصل احدهما بالآخرة» يشي بعدم اقتناعه هو بما أسلف من القول وشي بتذبذه بين الوجهين.

الاشكال الثاني:

قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.﴾

فعطفت هذه الآية على ما قبلها، والعطف يدل على صلة بين المعطوف والمعطوف عليه، فما هي الصلة بين القتال في سبيل الله وبين تنفيذ تلك العادة التي كانوا يأتونها في الحج أو بعد الحج؟

الاشكال الثالث:

لقد كرر السياق ذكر التقوى في هذه الآية فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَى﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.﴾

وهذا التكرار ان دل على شيء فانما يدل على فطاعة الأمر ونكاحته ويعدّه من التقوى تمام البعد،

(١) تفسير البحر المحيط: ٦٣ / ٢

(٢) تفسير البحر المحيط: ٩٨ / ٢

مع أن ماذكر من فعلهم وهو اتيان البيوت من ظهورها، وأن لم يكن من البر فى شئ، ولكنه لم يكن يصطدم مع التقوى اصطداما ظاهرا، وانما كان ينم على سذا جتهم وقلة وعيهم فقط.

تلك اشكالات تجعلنا نشك فى صحة ماورد فى سبب نزول هذه الآية. اللهم الا أن يقال: ان ماوردت به الروايات لايفسر السبب الحقيقى لنزولها، وانما هو عما تشمله الآية بعموم دلالتها.

إذا فما هو التأويل الصحيح للآية؟

تحقيق مدلول الأهلة:

قبل أن نرد على هذا السؤال، نود أن نقف مرة أخرى عند لفظ (الأهلة) ونتأكد من مدلوله، فان له دورا كبيرا فى تحديد المراد من الآية.

يقول الامام القرطبى -رحمه الله - فى تحقيق هذا اللفظ:

«الأهلة جمع الهلال، وجمع وهو واحد فى الحقيقة من حيث كونه هلالا واحدا فى شهر، غير كونه هلالا فى آخر، فانما جمع أحواله من الأهلة. ويريد بالأهلة شهورها، وقد يعبر بالهلال عن الشهر لخلوله فيه.»^(١)

ويقول الامام أبوحيان - رحمه الله -:

«وقد يطلق الهلال على الشهر كما يطلق الشهر على الهلال.»^(٢)

وقال ابن المقرئ:

« وقيل الهلال هو الشهر بعينه »^(٣)

وليس هناك أى اشكال فى اطلاق الهلال بمعنى الشهر بعد ما تقرر أنه لا يكون فى الشهر الا هلال واحد. فكل هلال يكون عنوانا للشهر الذى أهل فيه.

وقد روي عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) أن قال: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة ايام من غرة كل هلال، وكلما كان يفطر يوم الجمعة.^(٤)

وقال زرعة بن عمرو، وكان من الفرسان المذكورين، وقد أدرك الجاهلية والاسلام:

وأفنتني الليالي أم عمرو	وحلي في التنائف وارتحالي
وتربيتني الصغير الي مداه	وتأملي هلالا عن هلال ^(٥)

(١) تفسير القرطبى: ٣٤١/١

(٢) تفسير البحر المحيط: ٥٩/٢

(٣) كتاب المصباح المنير لابن المقرئ: ٨٧٩/٢ - ٨٨.

(٤) الفتح الرباني: ٢١٥/١.

(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٤٧٦ / ٢

أى أضعف قواى يا أم عمرو مرور الليالي وكثرة الأسفار وتريتي الصغير حتى يبلغ أشده،
وانتظاري الشهر بعد الشهر.

وعلى هذا فنقول: ان المراد هنا بالأهلة هى الشهور.

والشهور هى أشهر الحج بدليل السياق. واللام على الأهلة هى لام العهد. ولفظة الأهلة كانت
أنسب للتعبير عن أشهر الحج من لفظة الشهور، فانهما تمثل لنا- بخلاف لفظة الشهور - تلك المشاعر
التي كانت تفيض بها قلوب الناس عند حلول موسم الحج، حيث انهم كانوا يرفعون أصواتهم من شدة
الفرح اذا أقبلت تلك الأشهر المباركة، ولاحث لهم تلك الأهلة فى أفق السماء.

مصادر السؤال:

ثم لنعلم أن السؤال هنا كان عن تقديم أشهر الحج أو تأخيرها عن مكانها، وكان ذلك من عادتهم
فى الجاهلية وكانوا يفعلونه كلما دعتهم اليه المصلحة، وهو الذي كان يسمى عندهم (النسي). فجاء
الجواب على هذا السؤال :

«قل هى موافقت للناس والحج»

والموافقت واحده الميقات وهو الوقت المضروب للفعل، أى تلك الأشهر أوقات محددة ومضروبة
للناس حتي يدخروا فيها الخير ويكسبوا فيها الأجر ويقوموا بأداء الحج.
فمادام أن هذه الأشهر موافقت محددة لأداء الحج وكسب الخير فلا يجوز التلاعب بها أبداً بتقديم
أو تأخير، فان التوقيت يتنافى مع تقديم فيه أو تأخير.

ويبدو أنه وجه هذا السؤال حينما قرر النبي ﷺ الخروج للعمرة سنة ست من الهجرة فى شهر ذى
القعدة وكان هذا القرار مبعث قلق شديد لفريق من المسلمين حيث انهم كانوا يدركون جيداً أن قريشا
لن يسمحوا لهم بالدخول فى شعاب مكة. وأنهم سيشهرون فى وجوههم السلاح ويستقبلونهم - كما
يستقبل العدو الموتور عدوه- فى حلق وغيط شديد.

ويبدو كذلك أن هذا الشهر كان من شهور النسي عند المشركين، أو انهم لما وصلتهم الأنباء بتوجه
المسلمين الى مكة أعلنوا النسي حتى يتمكنوا من محاربتهم وصددهم عن بيت الله.

فلم يكن من رأى هؤلاء الناس أن يخاطروا بأنفسهم، بل كانوا يرون أن يجتنبوا هذا الخطر
بمسيرة المشركين فى قانون النسي، وتأجيلهم هذه العمرة الى شهر آخر يعتبره المشركون من الأشهر
الحرم، حتى يتسنى لهم الدخول فى مكة آمنين من العدو، من غير أن يقتحموا الحرب
أو يواجهوا الخطر.

فهم وجهوا الى النبي ﷺ هذا السؤال وكأنهم يملأ اهابهم البر ولا يقيمهم ويقعدهم الا النصيحة
للاسلام والمسلمين، مع أنهم ما أهتمهم الا أنفسهم ومادفعهم الى هذا السؤال الا خوفهم وكراهيتهم

للحرب والقتال.

فجاءهم الجواب من ربهم الذي كان مطلعا على ما يعتمل في صدورهم:
«فيسألونك عن الأهلة. قل هي مواقيت للناس والحج. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون.»

معنى اتيان البيوت من ظهورها:

والمراد من اتيان البيوت من ظهورها - على ما يرجحه السياق - هو ما ذكره الامام القرطبي - رحمه الله - حيث قال:

« وقد قيل ان الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه، وهو الوجه الذي أمر الله تعالى به، فذكر اتيان البيوت من أبوابها مثلا ليشير به الى أن تأتى الأمور من مآتها الذي ندبنا الله تعالى اليه. » (١)

وقال الامام الرازى - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية:

« فجعل اتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، واتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور فى الكناية فان من أرشد غيره الى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتى الأمر من بابه، وفى ضده يقال: انه ذهب الى الشئ من غير بابه. » (٢)
وعلى هذا فالشطر الثانى من الآية لا يفسره سبب آخر، وانما هو تأكيد للشطر الأول منها.

اصالة هذا المفهوم:

وأما المفهوم الذي أشرنا اليه وهو أن السؤال هنا كان عن مشروعية النسئ فقد كان فى السلف من ذهب اليه. فروى - مثلا- عن القفال ما يشير الى ذلك ، حيث قال- رحمه الله:-

« أفرد الحج بالذكر لبيان أن الحج مقصور على الأشهر التى عينها الله تعالى لفرض الحج، وأنه لايجوز نقل الحج عن تلك الأشهر لأشهر آخر انما كانت العرب تفعل ذلك فى النسئ. » (٣)

ويشبهه ما ذكره الامام القرطبي - رحمه الله - حيث قال:

«وقيل إنّه النسئ وتأخيرالحج به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراما بتأخيرالحج اليه والشهر الحرام حلالا بتأخير الحج عنه. فيكون ذكرالبيوت على هذا مثلا لمخالفة الواجب فى الحج وشهوره » (٤)

(١) تفسير القرطبي : ٣٤٦/١

(٢) التفسير الكبير : ١٢٦/٥

(٣) تفسير البحر المحيط : ٦٢/٢

(٤) تفسير القرطبي : ٣٤٥/٢

وبعد ابطال فكرة النسئ وتفتيدها جاء التحريض على القتال، الذي كانوا يكرهونه وكانوا قد أثاروا موضوع النسئ ليتخلصوا منه:

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثققتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فان قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين»

لفتة بارعة:

ويحلون لنا أن نثبت هنا ما كتبه الامام ابن كثير - رحمه الله - وهو يتحدث عن تلك الآيات فانه أقرب للسياق وأوفق لنظام الآيات . يقول - رحمه الله -:

« قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» قال هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وفي هذا نظر لأن قوله «الذين يقاتلونكم» انما هو تهبيج واغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الاسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» ولهذا قال فى هذه الآية «فاقتلوهم حيث ثققتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» أى لتكن همتمكم منبعثة على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم وعلى اخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها قصاصا. » (١)

ومثل ما قاله ابن كثير - رحمه الله - في تأويل «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» نقول فى تأويل ما بعده من قوله تعالى: «ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين.» فليس المراد بالاعتداء هنا قتل النساء والولدان، أو قتال من لم يقاتلهم، أو اتيان ما نهوا عنه ، أو ابتداءهم بالقتال في الحرم فى الشهر الحرام، كما قيل وقيل.

المراد بالاعتداء:

فالا اعتداء - بعموم لفظه - وان كان شاملا لهذه المعانى كلها الا أن المراد به فى هذا السياق هو التحذير من النكوص والاحجام وعدم الاستجابة لما أمرؤابه من القتال. فيكون معنى الآية: «قاتلوا فى

(١) تفسير ابن كثير: ٢٢٦/١

سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا بالنكوص على أعقابكم أو بالتهيب من عدوكم. ﴿

وهذا المعنى كما يدل عليه السياق، فكذلك يدل عليه ما روى عن سيدنا عمر، حيث كان يقول عند عقد الألفية:

(بسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين، ولا تحببنا عند اللقاء..) (١)

فقوله - رضى الله عنه- : (ولا تحببنا عند اللقاء) بعد قوله: ﴿ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين﴾ يساعدنا فى التوصل الى ما ترمى اليه كلمة الاعتداء. وكلمة الاعتداء مطرد استعمالها فى القرآن بمعنى عدم الاتقياء لأوامر الله والتقصير فى أدائها. ومنه قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين﴾ (٢)

ثم نلجئ الى قوله تعالى:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين.﴾

فهذه الآية أيضا ما جاءت لتكف أيدي الناس وتهدي من سورة غضبهم وتلزمهم بالعدل فى بأسهم وفتكهم، كما قيل، - وان كان ذلك من أوليات الجهاد الاسلامى ولا شك- وانما جاءت لتهييج الناس واغرائهم بمن يعتدى عليهم ويتهك حرمااتهم.

فليس المراد بالمائلة هنا المائلة فى حجم الاعتداء وقدره، بل المراد بها المائلة فى عملية الاعتداء وكيل الصاع بالصاع.

فهو كما قال الفند الزماني:

صفحنا عن بنى ذهل	وقلنا القوم اخوان
عسى الأيام أن يرجع	نقوما كالذى كانوا
فلما صرح البشر	فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوان	دناهم كما دنا (٣)

(١) العقد الفريد: ٩١/١

(٢) سورة المائدة: ٨٧

(٣) الحماسة لأبي تمام: باب الحماسة: رقم القصيدة (٢).

فقرله تعالى: «فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» يشبهه في مثليته قول الشاعر: (دناهم
كما دانوا)

وكذلك المراد بالتقوى هو الغضب لله ولدينه والاندفاع وراء داعى القتال بخفة وحماس. فمن
أجاب داعى القتال فقد اتقى ومن نكص وأحجم وتصامم فهو من العصاة المتمردين على الله.
ثم عاد الكلام الى موضوع الانفاق في سبيل الله :

«وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين»
فان هذا النكوص عن الجهاد والتماس مبرراته انما يأتى نتيجة لحب المال، فالمرء اذا أشرب في
قلبه المال وأحضر الشح فانه يحرص على الحياة وينفر من الموت ويكره القتال فى سبيل الله. والانفاق
هو الذي يداوى تلك النفوس ويمسح عنها أسقامها ويعيد اليها صحتها وطهارتها.

التشابه بين هذه الآيات وآيات سورة التوبة:

وتلك الآيات (١٨٨-١٩٥) تشبه فى نظمها ومضامينها آيات سورة التوبة حيث قال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون
عن سبيل الله. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيبشرهم بعذاب أليم.
يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم.
فأنفقوا ما كنتم تكنزون.

ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض.
منها أربعة حرم. ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم
كافة. واعلموا أن الله مع المتقين. انما النسي زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاما
ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله. زين لهم سوء أعمالهم. والله لا
يهدى القوم الكافرين.

يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض. أرضيتم
بالحياة الدنيا من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل:» (١)

فذكر هنا أولا أكل أموال الناس بالباطل كما ذكر هناك فى قوله تعالى:

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام .. الآية»

ثم ذكر النسئ حيث قال تعالى:

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أى فى شأن تلك الأربعة الحرم بتقديمها أو تأخيرها عن محلها، كما ذكر هناك حيث قال تعالى:

﴿يسألونك عن الأهله. قل هى مواقيت للناس والحج.... الآية.﴾

ثم حرض على القتال:

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.﴾

كما حرض هناك :

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين.﴾

وجعل هذا القتال آية التقوى حيث قال تعالى:

﴿واعلموا أن الله مع المتقين.﴾

وهذا التنبيه ورد فى كلا الموضعين على نمط واحد وفى سياق واحد حيث قيل فى سورة البقرة:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين.﴾

وقيل فى سورة التوبة:

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين.﴾

ثم كشف القناع عن وجوه الذين كانوا يثيرون موضوع النسئ وكانوا يتحمسون له:

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض. أرضيتم باحياة الدنيا من الآخرة. فامتناع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليلا.﴾
وهكذا سنرى فى سورة البقرة قوله تعالى فى شأن هؤلاء..

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾

وهذه المقارنة بين آيات السورتين تزيدنا قناعة الى قناعة بما أسلفنا من تأويل تلك الآيات. فله الحمد وله الشكر على ما أرشدنا اليه.

والآن نعود مرة أخرى الى الآيات التى كنا نتحدث عنها فنقول:

بعد ما انتهى السياق من تفنيد فكرة النسئ وانتهى من شحن تلك النفوس الضعيفة بشحنات الجهاد والقتال عاد الى موضوع العمرة والحج، الذى كان موضوع الساعة، بالاضافة الى أن الأشهر التى أثير السؤال عنها كانت هى مواقيت الحج والعمرة. والذين طرحوا هذا السؤال لم يطرحوه الا

لغفلتهم عن أهميتها. قال تعالى:

﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ. فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ. وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ. فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ. تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ. ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ. فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ. وَتَزِدُّوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا يَا أُولَى الْأَلْبَابِ. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ. فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ. ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ. وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْدَّ ذِكْرًا. فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا أَثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا أَثْمَ عَلَيْهِ، لِمَنِ انْتَقَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.﴾

هذه الآيات - كما نرى - تتناول موضوع الحج، وتبين بعض أحكامه، مع التركيز على روحه، التي تسرى في مناسكه، وهي الاكثار من ذكر الله وتزود تقواه.

فهى - في جملتها - واضحة من ناحية نظمها ورياط معانيها، إلا أن هناك مفهومات قد اشتهرت بين الناس وتسربت الى كتب التفسير وهى لم تدع تلك الآيات تظهر من ناحية نظمها بكامل جمالها وبهائها، بل وتركت الدارس يحس فيها نوعا من الاقتضاب، مع أن الاقتضاب ليس من شأنها. وبالتالي فهى بحاجة الى تأمل ودراسة تنفى عنها الاقتضاب وتزيل عنها الغبش، وتجلى نظمها واضحا ناصعا يسر الدارسين ويقنع الباحثين.

وها نحن نذكر تلك المفهومات التى قد شاعت وانتشرت مع كونها لا تتلاءم مع السياق، ثم نذكر ما نراه أدنى الى الصواب وأقرب للسياق.

المفهوم الأول:

لقد اختلف الناس فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ على عدة أقوال.

والذى يظهر من السياق أن هذه الآية جاءت تخاطب الذين مضى معنا ذكرهم قبل قليل، وهم الذين كانوا يريدون أن يقعدوا عن الخروج للعمرة مع النبى ﷺ خوفا مما كانوا يتوقعون من الحرب والقتال. وهذا الخوف هو الذى دفعهم الى أن يثيروا موضوع النسئ كما فصلناه آنفا.

فبعد التحريض على القتال جاء التحريض على اقام العمرة والحج. والمراد بالانتماء اداؤه والالتحاق به كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ثم أنتموا الصيام الى الليل﴾ (١)

فيكون معنى الآية :

﴿أنا شدكم بالله أن تخرجوا لأداء العمرة والحج﴾

ولا يعنينا هنا ذلك الموضوع الذي أثير بتلك المناسبة، وهو كون العمرة واجبة أو غير واجبة، بعد ما ثبت أن النبي ﷺ قد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه لأداء العمرة. (٢)

فالخروج لتلك العمرة بالذات كان واجبا، وإن لم تكن العمرة فى نفسها واجبة.

ثم تبع هذا الأمر قوله تعالى:

﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾

تحقيق معنى الاحصار:

ومعنى الاحصار فى هذا السياق أوضح من الواضح، ولكن العجيب الذي يضحك له أن أكثر أهل اللغة قالوا: إن الاحصار هو ما كان من مرض أو نحوه، وأما ما كان من العدو فهو الحصر.

قال الزجاج: « الاحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض ، فأما من العدو فلا يقال فيه الإحصار، يقال: حُصِرَ حصرا، وفى الأول: أحصر إحصارا. » (٣)

والذي يظهر لنا من الفرق بين الحصر والاحصار بعد النظر فى استعمالات القرآن هو أنه إذا قيل: حصره العدو، فمعناه أنه ضيق عليه وأحاط به، وإذا قيل: أحصره العدو، فمعناه أن العدو حال بينه وبين ما يريد ، وعلى الأول جاء قوله تعالى:

﴿ فإذا انسلكوا الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ (٤)

وعلى الثانى جاءت هذه الآية، التى نتحدث عنها، وأيضاً جاء قوله تعالى:

(١) سورة البقرة: ١٨٧

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠٨/٢

(٣) تفسير القرطبي : ٣٧٢/١

(٤) سورة التوبة: ٥

﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض.. الآية﴾ (١)

ولعل القاضى ابن عطية - رحمه الله - أراد أن يشير الى نفس الفرق حيث قال:

«والصحيح أن حصر انما هى فيما أحاط وجاور وأحصر معناه جعل الشئ ذا حصر.» (٢)

فيكون معنى الآية اذا: أنا شدكم بالله أن تخرجوا لأداء العمرة والحج فان حال دونكم العدو-

الذين تخافونهم - فتقربوا الى الله بما استيسر من الهدى وكفى.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - أيضا يميل الى هذا المعنى ، ويحتج له بدليل

السياق حيث يقول:

«اختلف العلماء فى المراد بالاحصار فى هذه الآية الكريمة فقال قوم: هو صد العدو المحرم ومنعه

اياء من الطواف بالبيت، وقال قوم: المراد به مايشمل الجميع من عدو ومرض ونحو ذلك. ولكن قوله

تعالى بعد هذا : (فاذا أمنتهم) يشير الى أن المراد بالاحصار هنا صد العدو للمحرم، لأن الأمن اذا

أطلق فى لغة العرب انصرف الى الأمن من الخوف لا الى الشفاء من المرض، ونحو ذلك ويؤيده أنه لم

يذكر الشئ الذي منه الأمن، فدل على أن المراد به ما تقدم من الاحصار ، فثبت أنه الخوف من

العدو (٣).

ولقد سبق الشنقيطى الامام الشوكانى - رحمهما الله - بمثل هذا القول حيث يقول وهو يتحدث

عن قوله تعالى: (فاذا أمنتهم.. الآية):

«أى برأتم من المرض. وقيل : من خوفكم من العدو، على الخلاف السابق. ولكن الأمن من

العدو أظهر من استعمال أمنتهم فى ذهاب المرض، فيكون مقويا لقول من قال: ان قوله (فان أحصرتم)

المراد به الاحصار من العدو، كما أن قوله «فمن كان منكم مريضا» يقوى قول من قال بذلك لافراد

عذر المرض بالذكر.» (٤)

حكم قضاء المحصر:

ثم هناك خلاف بين العلماء فى وجوب القضاء على من أحصر والذي يظهر من نظم الآية وسياقها

هو عدم الوجوب. وبيانه أن الله تعالى قال بعد ذكر الاحصار:

﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله. فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه

ففدية من صيام أو صدقة أو نسك.﴾

(١) سورة البقرة: ٢٧٣

(٢) المحرر الوجيز: ٥٤٢/١

(٣) اضواء البيان: ١٠٦/١

(٤) فتح القدير: ١٩٦/١

فألزم - سبحانه وتعالى - المحصر بما يفعله أو بما يلتزم به غير المحصر، تنبيها على أن المحصر قد كتب اسمه في سجل الحجاج وان لم يشهد أما كن الحج، وأن هذا الإحصار لا يضره شيئا ولا يفите الأجر، فعليه أن يلتزم - ما استطاع - بما يلتزم به الحجاج، فليتقرب الى الله بما استيسر من الهدى ولا يحلق رأسه حتى ينتهى من ذكاة الأضاحى. وإذا اضطر الى حلق رأسه وخلع احرامه قبل ميقاته بسبب المرض فليفتد لذلك بصيام أو صدقة أو نسك.

فهذا النظم يفيد أن المحصر فى حكمه كغير المحصر وأنه يحلق رأسه ويتحلل من احرامه بعد ما ينتهى من ذكاة هديه، ولا قضاء عليه.

وهكذا فعل النبى ﷺ عام الحديبية ولا يبعد أن يكون فعله - عليه الصلاة والسلام - استنباطا من نظم هذه الآية.

هذا، ولعل الأمر قد بلغ غايته من الوضوح، فلنتقل منه الى مفهوم آخر.

المفهوم الثانى:

يقول القاضى ابن عطية - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى:

«ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام»

« فهذه شدة على القادم مكة من سائر الأقطار لما أسقط سفرا والمكى لا يقتضى حاله سفرا فى

عمرة ولا حج، لأنه فى بقعة الحج، فلم يلزم شيئا، لأنه لم يسقط شيئا. » (١)

ويقول الامام الرازى - رحمه الله -:

« قوله (ذلك) اشارة الى ما تقدم، وأقرب الأمور المذكورة ذكر ما يلزم المتمتع من الهدى وبدله، وأبعد منه ذكر تمتعهم، فهذا السبب اختلفوا، فقال الشافعى (رضى الله عنه) انه راجع الى الأقرب وهو لزوم الهدى وبدله على المتمتع، أى انما يكون اذا لم يكن المتمتع من حاضرى المسجد الحرام، فأما اذا كان من أهل الحرم فانه لا يلزمه الهدى ولا بدله، وذلك لأن عند الشافعى (رضى الله عنه) هذا الهدى انما لزم الآفاقى، لأنه كان من الواجب عليه أن يحرم عن الحج من الميقات، فلما أحرم من الميقات عن العمرة ثم أحرم عن الحج لا من الميقات فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبورا بهذا الدم، والمكى لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فأقدمه على التمتع لا يوقع خلا فى حجه فلا جرم لا يجب عليه الهدى ولا بدله. وقال أبوحنيفة (رضى الله عنه) ان قوله (ذلك) اشارة الى الأبعد، وهو ذكر التمتع، وعنده لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام، ومن تمتع أو قرن كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه. » (٢)

(١) المحرر الوجيز: ٥٤٧/١

(٢) التفسير الكبير: ١٥٨/٥

هذه عبارات تعطينا عن حج التمتع فكرة لاتكاد تتلام مع الفكرة التي يستقيها الباحث من القرآن نفسه، اذا تأمل فى سياق آياته.

فهى تصور لنا حج التمتع وكأنه عبارة عن تقصير واساءة وجناية وكأن الهدى الذى يتقرب به المتمتع انما هو جبر لذلك التقصير أو غرامة لتلك الجناية.

حكم حج التمتع كما يستفاد من نظم الآيات:

بينما اذا تأمل الباحث فى نظم القرآن وجد حج التمتع أفضل من غيره. ولا يفوتنا التنبيه على أن التمتع فى عبارة القرآن يشمل حج القران كما يشمل الحج الذى نسميه حج التمتع. ولعل الناس ذهلوا عن هذه الظاهرة لما أنهم لم يتندوا فى تفسيره.

وان أحسن شئ عثرنا عليه فى تفسيره هو ماكتبه الامام الزمخشري - رحمه الله - حيث قال: «فمن تمتع» أى استمتع «بالعمرة الى الحج» واستمتع بالعمرة الى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها الى الله تعالى قبل الانتفاع بتقريبه بالحج. ^(١)

هذا، وان النظم القرآنى يوحى الينا أكثر من ذلك، فان الأمر لا ينتهى عند الأفضلية فقط، بل يفيد السياق أن حج التمتع يكاد يكون كمثلى حج الافراد.

وتلك فضيلة ومكرمة خص بها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وذلك تقديرا للمشاق التى يكابدونها والتكاليف التى يتحملونها فى سفرهم اليه.

ولا يعجزنا ادراك هذه النكتة اذا تأملنا فى الأمور الآتية:

١- اختار السياق للجمع بين العمرة والحج لفظ (التمتع) ولا يخفى ما فيه فى هذا السياق من رقة وعذوبة وحلاوة!

٢- ثم طلب من المتمتع أن يتقرب بالهدى. ولم يأت السياق لأداء هذا المعنى بعبارة تحمل مفهوم الإيجاب أو الالتزام، وانما جاء بعبارة لطيفة سمحة: «فما استيسر من الهدى» وهذه العبارة كما أنها تحمل توجيهها لتقديم الهدى، فكذلك تومئ ايماء الى الغاية المنشودة من وراء هذا الهدى، وهى تكميل المتاع الذى أراده المتمتع بالعمرة الى الحج. فهذا الهدى يجبر ذلك النقصان أو يغطى ذلك الفرق الذى يوجد بين الحج والعمرة. وهكذا ترتفع العمرة الى درجة الحج، فتجتمع للمتمتع حجتان فى حجة.

٣- جاء التوجيه لمن لم يجد الهدى أن يصوم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله. ثم قال تعالى: «تلك عشرة كاملة»

ولا يخفى على المتذوق الفطن ما تحمل لفظة (كاملة) فى هذا السياق من حلاوة أى حلاوة!

ولا يخفى ما فيها من إحياءات كأن هذه العبارة تنادى بلسانها أن لا تحسبوا هذه العشرة هينة !
فإنها تتسم بالكمال وتصلح لأن تكون سلماً إلى الكمال. وتكمل ما ينتقص العمرة حتى تصل إلى
درجة الحج.

٤- ثم جاء فى ختام الحديث:

«ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام»

وهذا اللام فى (لمن) أظهر فى معنى الاختصاص منها فى أى معنى آخر، فهى تدل على أن
هذه فضيلة ومكرمة خص بها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، دون من سواهم فما هى تلك
الفضيلة أو تلك المكرمة؟ إذا لم تكن التى أشرنا إليها من أن حج التمتع يكاد يكون كمثلى
حج الأفراد.

وبالجملة فالتأمل فى نظم الآية يكشف لنا أن حج التمتع له شأن ليس لغيره. ولذلك أثر النبى
ﷺ فى رأى الأرجح - أن يكون متمتعاً لا مفرداً.

وأما القول بأن من إتمام العمرة والحج أن يفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران ، وأن من
حق العمرة أن تقصد بسفر ومن حق الحج كذلك، فهو قول ليس عليه دليل.

٥- ويمكن أن نستأنس لما قلناه فى شأن حج التمتع بما أخرجه مالك عن سيدنا عبدالله بن عمر
رضى الله عنهما أنه قال :

(والله لأن أعتمر قبل الحج وأهدى أحب إلى من أن أعتمر بعد الحج فى ذى الحجة.) (١)

فهذا نص واضح على أن التمتع بالعمرة إلى الحج أفضل من إفرادهما.

المفهوم الثالث:

يقول القاضى ابن عطية - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا
فضلاً من ربكم»:

«الجناح أعم من الائتم، لأنه فيما يقتضى العقاب وفيما يقتضى العتاب والزجر. و (وتبتغوا)
معناه تطلبون بمحاولتكم. وقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء: ان الآية نزلت، لأن العرب تخرجت
- لما جاء الاسلام - أن يحضروا أسواق الجاهلية كهكاظ وذى المجاز ومجنة فأباح الله تعالى ذلك أى
لا درك فى أن تتجروا وتطلبوا الربح. وقال مجاهد: كان بعض العرب لا يتجرون مذ يحرمون، فنزلت
الآية فى إباحة ذلك. (٢)

(١) موطأ الامام مالك بشرح الزرقانى، كتاب الحج، باب ما جاء فى التمتع: ٧٠/٣

(٢) المحرر الوجيز ٥٥٨/١

ويقول ابن الجوزى - رحمه الله -:

« الفضل هاهنا: التماس الرزق بالتجارة والكسب. » (١)

ويقول الزمخشري - رحمه الله -:

«فضلا من ربيكم» عطاء منه وتفضلاً وهو النفع والريح بالتجارة (٢)

وهكذا نرى المفسرين - رحمهم الله - قد نحوا في تأويل الآية منحى واحداً، كما هو واضح من كلامهم.

تقويم هذا التأويل:

ولقد قلبنا هذا التأويل ظهراً لبطن فوجدناه حقيقاً باعادة النظر فيه ، لكونه لا يتلاءم مع سياق الآية وجوها. بل ان سياق الآية وجوها يأبى هذا التأويل كل الالباء، كما أن نظيرها من سورة المائدة تجعلنا نشك في صحته، وتعديل بنا عنه الى غيره.

وبيانه أن قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» قد سبقته هذه الآية: «الحج أشهر معلومات. فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج. وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خيراً لزد التقوى. وانتقون يا أولى الألباب.» وجاء بعده قوله تعالى: «فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين.»

فالجو كله جو يسوده التقوى وذكر الله. جو يسمو بالمرء عن حطام الدنيا وشهواتها الى نعيم الآخرة وجناتها. جو يزرع في المرء حب الله وابتغاء رضوانه ويزهده فيما يفتنه من ماله وسلطانه. فان قبلنا هذا التأويل فسيكون قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» غريباً جد غريب في هذا الجو كأنه لم يصادف مكانه الذي يليق به.

ثم قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» عطف عليه قوله تعالى : (فاذا أفضتم ... الآية) ولا بد من صلة ومناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا سيما اذا كان العطف بالفاء. فما هي الصلة والمناسبة بينهما، اذا رضينا بهذا المفهوم؟ وعلى هذا فنحن لا نستريح الى هذا التأويل ونفضل أن نفسر الآية في ضوء نظيرها في القرآن، وهو قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً... الآية»

(١) زادالمسير : ٢١٢/١

(٢) الكشاف: ٣٤٧/١

فقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ جاء فى سياق الحج كما أن قوله تعالى: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) جاء فى سياقه، فتصلح كلتا الآيتين لأن تفسر احدهما الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

ولقد ذكر أبو حيان - رحمه الله - عن بعض السلف أنه قال فى تأويل ﴿فضلاً من ربكم﴾: «الفضل هنا هو ما يعمل الانسان مما يرجو به فضل الله ورحمته من اعانة ضعيف واغاثة ملهوف واطعام جائع.»

والجدير بالذكر أن هذا القول مع أنه أحسن من غيره مما سبقه من الأقوال لم يصب المحرز، فالقرآن نفسه بين لنا كيف نبتغى فضلاً من ربنا، فقال:

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ. ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ. وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.﴾
فالفاء هنا فى قوله تعالى: (فإذا أقضتم) تفيد التفصيل والبيان. والاكثار من الذكر والاستغفار هو الذي نركز عليه فى حجتنا، وهى الطريقة التي نبتغى بها فضلاً من ربنا، والبر أنواع وأشكال، ولكل محله الخاص.

ثم قال أبو حيان بعد ما ذكر هذا القول:

« واعترضه القاضى بأن هذه الأشياء واجبة أو مندوب اليها فلا يقال فيها لا جناح عليكم، انما يقال فى المباحات. (١) »

وهذا الاعتراض يتمخض لنا عن أمرين:

١- الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ليست من القوة والمتانة بحيث يحتج بها، فانها لو كانت تتسم بالقوة والمتانة لما عدل عنها القاضى - رحمه الله - الى دليل آخر.

٢- مما صرف الناس عن التأويل الصحيح للآية قلة انتباههم للمواضع التى يطرد فيها استعمال ﴿لا جناح عليكم﴾ وهذا الذي ساقهم الى قبول تلك الروايات التى غيرت نط الكلام وأفسدت عليهم النظام.

وهذا الوضع يلح علينا أن تكون لنا وقفة يسيرة نبين فيها ما خفى من معانى ﴿لا جناح عليكم﴾.

معنى (لا جناح عليكم):

ان كلمة (لا جناح عليكم) أو (ليس عليكم جناح) كما أنها تستعمل للإباحة والترخيص ورفع الاثم فكذلك تستعمل للترغيب والتشويق والتحريض على الأمور الواجبة أو المندوب اليها. ونبين ذلك بالأمثلة.

قال تعالى:

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشووزاً أو أعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا. والصلح خير. وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما. ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ (٢)

وقال تعالى:

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا. إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبيناً﴾ (٣)

فالمثال الأول قد استعمل فيه (فلا جناح عليهما) للأمر المندوب اليه بلا شك، وهو إصلاح ذات البين. والقرآن نفسه قد دل على خيريته حيث قال: (والصلح خير) ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾

والمثال الثاني قد استعمل فيه (فلا جناح عليه) لما يجب على من حج البيت أو اعتمر، وهو السعي بين الصفا والمروة.

والمثال الثالث قد استعمل فيه ﴿فليس عليكم جناح﴾ للقصر من الصلاة وهو أيضاً مما يجب على الجيش الإسلامي إن كان هناك خوف الفتنة من الأعداء.

فهذه الأمثلة الثلاثة حجة على من يقول: إن (لا جناح) يستعمل للإباحة والترخيص فقط، فإنه كما يستعمل للإباحة والترخيص فكذلك يستعمل للترغيب والتحريض والتوكيد. وقد يكون هذا الأسلوب أبلغ من غيره في التحريض والتوكيد.

المفهوم الرابع:

يقول الامام ابن الجوزي - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى:

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم﴾

«وفي المخاطبين بذلك قولان. أحدهما: أنه خطاب لقرش، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه خطاب لجميع المسلمين، وهو يخرج على قول من قال: الناس آدم أو إبراهيم.

(١) سورة النساء : ٢٨

(٢) سورة البقرة : ١٥٨

(٣) سورة النساء : ١٠١

والافاضة هاهنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: هي الافاضة من المزدلفة الى منى صبيحة النحر،
 الا أن جمهور المفسرين على أنها الافاضة من عرفات، فظاهر الكلام لا يقتضى ذلك، كيف يقال:
 ﴿فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله﴾ ثم أفيضوا من عرفات؟ غير أنى أقول: وجه الكلام
 على ما قال أهل التفسير: أن فيه تقدما وتأخيرا، تقديره: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فاذا
 أفضتم من عرفات فاذكروا الله. (١)

ويقول الامام ابن جرير - رحمه الله - فى تأويل تلك الآية بعد ما يذكر الأخبار الواردة فى
 سبب نزولها:

« والذي نراه صواباً من تأويل هذه الآية، أنه عنى بهذه الآية قريش ومن كان متحمسا معها من
 سائر العرب لا جماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله.

واذ كان ذلك كذلك فتأويل الآية: فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج،
 ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله، ان الله غفور رحيم، وما تفعلوا من خير يعلمه
 الله، وهذا اذ كان ما وصفنا تأويله فهو من المقدم الذى معناه التأخير، والمؤخر الذى معناه التقديم،
 على نحو ما تقدم بياننا فى مثله، ولولا اجماع من وصفت اجماعه على أن ذلك تأويله، لقلت: أولى
 التأويلين بتأويل الآية ما قاله الضحاك، من أن الله عنى بقوله ﴿من حيث أفاض الناس﴾ من حيث
 أفاض ابراهيم، لأن الافاضة من عرفات لاشك أنها قبل الافاضة من جمع، وقبل وجوب الذكر عند
 المشعر الحرام، واذا كان ذلك لا شك كذلك وكان الله عزوجل انما أمر بالافاضة من الموضع الذى أفاض
 منه الناس بعد انقضاء ذكر الافاضة من عرفات وبعد أمره بذكره عند المشعر الحرام، ثم قال بعد ذلك
 ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ كان معلوماً بذلك أنه لم يأمر بالافاضة الا من الموضع الذى
 لم يفيضوا منه دون الموضع الذى قد أفاضوا منه، وكان الموضع الذى قد أفاضوا منه فانقضى وقت
 الافاضة منه، لوجه لأن يقال: أفض منه، فاذا كان لا وجه لذلك، وكان غير جائز أن يأمر الله جل وعز
 بأمر لا معنى له، كانت بينة صحة ما قاله من التأويل فى ذلك وفساد ما خالفه لو لا اجماع الذى
 وصفناه، وتظاهر الأخبار بالذى ذكرنا عن حكيما قوله من أهل التأويل. » (٢)

هذا ما قاله ابن جرير وابن الجوزى - رحمهما الله - وكلاهما هذا يعرض لنا صورة غريبة
 للأسلوب الذى اتبعاه فى تأويل الآية، فهما يوفقان الى تأويل أحسن وأجمل بما درج عليه الآخرون،
 ويدركان جيدا أن تأويلهما أقرب لظاهر الكلام وأوفق لما يقتضيه النظام، ثم يتنازل أحدهما عن تأويله
 الذى يراه أقوى وأهدى، الى تأويل لا يستريح اليه، لظنه - خطأ - أنه تأويل انعقد عليه الاجماع.

(١) زادالمسير: ٢١٤/١

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٣/٢ - ٢٩٤.

والآخر لا يتنازل عن تأويله، الا أنه يلتمس للتأويل المرجوح وجها يكسبه وجاهة، وهو نفس الوجه الذي أشار اليه الامام ابن جرير - رحمه الله - فى مقاله حيث قال: «وهذا اذ كان ما وصفنا تأويله فهو من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.» و هنا يثور سؤال:

١- ما الدليل على أن هناك تقديمًا وتأخيرًا فى الكلام؟

٢- ثم ما الحكمة أو النكتة البلاغية، التي استوجبت هذا التقديم والتأخير؟ فان الأصل فى الكلام هو الترتيب. وتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم يعتبر عيبا فى الكلام، الا اذا كانت هناك حكمة ظاهرة أو نكتة رائعة تستوجب ذلك.

واليه أشار الامام الرازى - رحمه الله - حيث قال:

« هذا - أى التقديم والتأخير فى الآية - وان كان محتملا الا أن الأصل عدمه، واذا أمكن حمل الكلام على القول الثانى - وهو ما ذهب اليه الضحاک رحمه الله - من غير التزام الى ما ذكرتم، فأى حاجة بنا الى التزامه؟ » (١)

٣- ثم ما الدليل على أن الخطاب فى هذه الآية موجه الى قریش بالذات؟ فانه فى غيرها من الآيات عام وموجه الى الجميع، إن تخصيص آية واحدة بقریش من بين سائر الآيات يحتاج الى دليل واضح كالشمس.

وأما ما قاله الامام ابن جرير - رحمه الله - من انعقاد الاجماع على هذا التأويل - أى التأويل الذي يعتمد على القول بالتقديم والتأخير فى الآية - فهو قول فيه نظر. فقد روى الامام البخارى من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ما يقتضى أن المراد بالافاضة هنا هى الافاضة من المزدلفة الى منى لرمى الجمار. (٢)

ولقد اختار الامام الضحاک، - رحمه الله - هذا القول كما ذكره الامام ابن جرير - رحمه الله -:

هذا من ناحية النقل، وأما من ناحية العقل، فالعقل لا يقبل أبدا أن ينعقد الاجماع على معنى يخالف ظاهر الكلام، اللهم الا أن يكون هناك سبب ظاهر قاهر يلجئ الى ذلك.

وكان أولى بابن جرير أن يقيم على قول الضحاک ان كان قد اطمان الى قوته ورجعانه من ناحية النظم والمعنى، وكان أولى به أن لا يعدل عنه الى غيره بسبب روايات لا تخلو من احتمال الخطأ.

(١) التفسير الكبير: ٥/ ١٨١

(٢) صحيح البخارى: كتاب التفسير، باب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس.

رأى ثالث:

هذا، وهناك رأى ثالث قد يكون أرجح من غيره في تأويل الآية، ويكون أقرب لسياقها وأوفق لنظامها. وهو أن هذه الآية ليست بصدد ذكر موضع الافاضة، فانه معلوم مفهوم فالحاج إذا وصل الى المشعر الحرام، فهو يفيض - بطبيعة الحال- من المشعر الحرام. فليس القصد من الآية التنبيه الى موضع الافاضة، وانما القصد منها التنبيه الى كيفية وطريقتها التى يتبعها الحاج وقت افاضته. فالملطوب من الحاج أن يفيض كما يفيض النبى ﷺ وأتباعه الصادقون.

ولقد سبق فى نفس السورة أن أطلقت كلمة (الناس) وأريد بها هؤلاء المؤمنون الصادقون، حيث قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا أَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)

فهذه الآية تأمر الجماهير أن يخلعوا تلك المنكرات التى كانوا يأتونها فى افاضتهم قبل أن يهديهم الله للإسلام، ويتبعوا فى ذلك سبيل المؤمنين الصادقين، الذين كانوا يمثلون حينئذ ملة ابراهيم وكانوا يبذلون جهدهم ليحيوا معالمها ويجددوا آثارها.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيانا وتفصيلا لتلك الطريقة، التى يتبعها الحاج فى افاضته.

معنى (من حيث):

و نزداد ركونا واطمئنانا الى هذا التأويل حينما نتقصى استعمال كلمة (من حيث) فى القرآن الكريم، فانها جاءت فى معنى الكيفية أكثر منها فى معنى الظرفية. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِّهَمَا. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)

أى نظرتهم اليكم تختلف عن نظرتكم اليه، فأنتم تحسبونونه ناصحا لكم وهو لكم عدو، فاحذروه ولا تدعوه يفتنكم كما فتن أبويكم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يشبه فى روحه وإيحاءاته قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوًّا فَخَازِنُوهُ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة: ١٣

(٢) سورة الاعراف: ٢٧

(٣) سورة فاطر: ٦.

ومن المواضع التى جاءت فيها كلمة (من حيث) فى معنى الكيفية قوله تعالى:

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار.﴾ (١)

أى فأهلكهم الله بطريقة لم تخطر ببالهم ولم تكن فى حسابهم وهى أن قذف فى قلوبهم الرعب. ومن تلك المواضع قوله تعالى فى شأن المطلقات:

﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن.﴾ (٢)

أى أسكنوهن كما تسكنون أنتم وليكن مستوى عيشهن شبيها بمستوى عيشكم. وهذا كما قال تعالى بعد هذه الآية.

﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾

ومن تلك المواضع قوله تعالى:

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها.﴾ (٣)

أى ولما دخلوا كما أمرهم أبوهم، وقد أمرهم أبوهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ويدخلوا من أبواب متفرقة.

وهكذا نرى كلمة (من حيث) قد اطرده استعمالها فى القرآن فى معنى الكيفية. ونرى أن الآية التى نتحدث عنها لو فسرنا أيضا بنفس المعنى كان أقرب لسياقها وأوفق لنظامها.

المفهوم الخامس:

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى : ﴿فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذاكم أباعكم أو أشد ذكرا﴾:

«يعنى يقوله جل ثناؤه: ﴿فاذا قضيتم مناسككم﴾ فاذا فرغتم من حجكم فذبحتم نسانكم (فاذكروا الله).» (٤)

ونرى جلة المفسرين - رحمهم الله - يتناقلون هذا المعنى الواحد فى تأويل الآية مع أنه لا ينسجم مع السياق، لا أقول سياق الآيات، بل سياق تلك الآية نفسها.

(١) سورة الحشر: ٢

(٢) سورة الطلاق: ٦

(٣) سورة يوسف: ٦٨

(٤) تفسير الطبري : ٢٩٥/٢.

ولعل الذى جعل الناس يقبلون الى هذا التأويل هو ما ورد فى الروايات من أن العرب بعد ما كانوا ينتهون من أعمال الحج، كانوا يتفاخرون بأبائهم ويتعاضمون بأنسابهم، فأمرهم الله تعالى أن يشتغلوا بذكره دون غيره.

ولا يهمنى هنا أن العرب كانوا يفعلون ذلك أم لا، وإنما الذى يهمنى هنا هو أن هذه الآية لم تتعرض لصنيعهم ذلك. ولو كانت قد تعرضت لذلك لاختلفت العبارة عما هى عليه الآن، وكانت نحو ما يلى:

(فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا، فمن الناس من يقول: « أولئك آبائى فجننى بمثلهم » ومنهم من يقول: « أبى الاسلام لا أب لى سواه، اذا افتخروا بقيس أو قيس »)

ولكن السياق ما جاء على هذا النمط، بل جاء يحمل لونا آخر وطابعا آخر، فقوله تعالى: ﴿ فمن الناس من يقول: ربنا آتانا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول: ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾. يوحى إلينا بأن السياق هنا غيرنا ظر الى ما كانوا يفعلونه بعد رجوعهم الى منى بالذات، وإنما هو مركز على صرف اهتماماتهم عن حب الدنيا وشهواتها الى الاكثار من ذكر الله تعالى والتزود للآخرة.

وما استخدم هنا هذا الأسلوب - كذكركم-آباءكم أو أشد ذكرا- الا مبالغة فى التوكيد والتحريض على ذكر الله، فان ذكر الآباء كان أحلى شئ فى أفواههم، وابرز فى حياتهم، وكان هذا فى نظرهم مناط عزهم وافتخارهم، كما هو غير خاف على كل من اطلع على أحوالهم ونظر فى خطبهم وقصائدهم، فلم يكن هناك تشبيه أبلغ من هذا التشبيه لأداء هذا المعنى بهذه القوة.

فهو يشبه فى حكمه ووضعه قوله تعالى:

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ (١)

فكلا التعبيرين لا يشيران الى مشهد خاص أو عادة خاصة وإنما هما أسلوبان من أساليب التعبير فقط.

هذا، وهناك أمر آخر يجدر التنبيه اليه، وهو أن قوله تعالى: (فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله الآية) جملة شرطية. فان فسرنا (فاذا قضيتم) بقولنا: فاذا فرغتم أو فاذا انتهيتم، فسيستلزم هذا أن الذكر لا يلزم الا بعد الفراغ من المناسك، فان الجزاء يتبع الشرط، ولا يجب أو لا يجوز تحققه الا بعد تحقق الشرط، كقوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع..)(٢)

(١) سورة البقرة: ١٤٦

(٢) سورة الجمعة: ٩

فالسعى الى ذكر الله و ذرالبيع لا يلزم الا بعد النداء للصلاة.
وهذا المعنى لا يستقيم فى الآيه التى نحن فيها، فان أنسب وقت للذكر، بل الوقت الذى يجب فيه الذكر وجوباً مؤكداً هو الوقت الذى يزاول المرء فيه أعمال الحج لا بعده.
ثم ان هذا التأويل كما أنه يخل بنظام هذه الآيه نفسها، فكذلك لا ينسجم مع سياق ما بين يديها وما خلفها، وذلك من وجهين:

الوجه الأول:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ...﴾ الآيه عطف على ما قبله بالفاء وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
فان فسرنا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ بقولنا: فإذا فرغتم أو فإذا انتهيتم، فهذا العطف بالفاء يوهم اذا أن أعمال الحج تنتهى بانتهاء الافاضة من المشعر الحرام، كما أنه يخل بالمصلحة التى تسببت الى المبادرة بهذا التوجيه الكريم دون تفصيل بقية المناسك التى تتبع هذه الافاضة. وسنشير الى تلك المصلحة باذن الله، حينما نذكر ما يترجع عندنا فى تأويل الآيه.

الوجه الثانى:

قال تعالى بعد هذه الآيه بآيه واحدة:
﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا أَثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا أَثْمَ عَلَيْهِ، لِمَنْ انْتَقَى...﴾ الآيه
والمراد بأيام معدودات هي أيام الحج بلاخلاف .
فإذا جمعنا الآيتين فسيكون المضمون حسب التأويل السائر هكذا: ﴿فَإِذَا فرغتم من أعمال الحج فاذكروا الله كذكركم أبابكم أو أشد ذكراً.. واذكروا الله في أيام الحج، فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه، ومن تأخر فلا اثم عليه.﴾
ولا يخفى ما فى هذا المضمون من الخلل وسوء الترتيب فى أجزائه.
والآن نتوجه الى بيان ما يترجع عندنا فى تأويل الآيه.
ولاشك أننا ان توصلنا الى تأويل يكون سليماً من هذه الاشكالات ويكون أقرب لنظام الآيات، فانه سيكون أرجح وأفضل وأجدر بالقبول والاختيار من غيره.

تأويل الآيه:

ان التأمل فى نظام هذه الآيه وسياقها يذهب بنا الى القول بأن المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ هو أداء تلك المناسك ومباشرتها، لا الفراغ منها. فيكون معنى الآيه اذا:

﴿فإذا أدبتم أعمالكم التي افترضها الله عليكم في حجكم فاكثروا من ذكر الله في تلك الفترة، أى الفترة التي تؤدون فيها أعمالكم﴾

ولابأس بأن نردف هذا القول بشئ من البيان والايضاح، فنقول وبالله التوفيق:
ان الله تعالى لم يقصد فى هذه الآيات الى أن يفصل مناسك الحج، وانما أراد- كما هو واضح من السياق - أن ينبه الى روحها وغايتها، وهى الرجوع الى الله والاكثار من ذكره تعالى، والتزود بالكثير الكثير من التقوى.

وذكر الله تعالى بتلك المناسبة الاقاضة من عرفات والاقاضة من المشعر الحرام، وحرص الناس على أن يذكروا الله ويستغفروه أثناء تلك الاقاضة.

وخص هذين المنسكين بالذكر، لأنهما يعتمدان على الأسفار والرحلات. والغالب فى الأسفار والرحلات أنها تغفل المرء عن ذكر الله وتقبل بطبيعته الى النزهة والمتاع.
وقد كانت حال العرب قبل الاسلام كذلك، فقد تحولت هذه الأماكن عندهم الى أماكن النزهة والمتاع.

فخص الله تعالى بالذكر هذين المكانين وخصهما بالارشاد والتوجيه، وخصهما بالتحريض على ذكر الله، حتى لا تتحول هذه الرحلات عند المسلمين كذلك الى رحلات ترفيهية واستمتاعية.
ثم أجمل القول، وقال: فهكذا كلما أدبتم مناسككم فلتكن قلوبكم وألسنتكم رطبة من ذكر الله. واذكروه كما تذكرون آباءكم، بل اذكروه أشد ذكرا.

ثم كرر- تعالى - هذا النداء فقال:

﴿واذكروا الله في أيام معدودات ... الآية﴾

ونرى هذه الآيات التي وردت فى شأن الحج تشبه فى نظمها وأسلوبها تلك الآيات التي وردت فى شأن صلاة الخوف حيث قال تعالى:

﴿وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا. ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم، ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا.﴾

وبعد هذه التوجيهات التي اقتضاها الموقف فى شأن صلاة الخوف قال تعالى:

﴿فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فاقیموا الصلاة. ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا.﴾ (١)

(١) سورة النساء : ١٠١-١٠٣

يقول الامام الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية:

« فإذا قضيت الصلاة فاذا صليتم في حال الخوف والقتال ﴿فأذكروا الله﴾ فصلوها (قياماً) مسايقين ومقارعين (وقعوداً) جاثين على الركب مرامين (وعلى جنوبيكم) مشخنين بالجراح ﴿فإذا اطمأننتم﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم ﴿فأقيموا الصلاة﴾ (١) »

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله -:

« قيل معنى قوله ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ اذا صليتم فصلوا قياماً وقعوداً أو على جنوبيكم، حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله: (فان خفتم فرجالاً أو ركبانا). » (٢)

فترى قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة .. الآية﴾ ورد على نفس الأسلوب ونفس النظم، اللذين ورد عليهما قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت مناسككم .. الآية﴾.

ففي كلا الموضعين نرى اجمال القول بعد شئ من التفصيل، ونرى التركيز على الغاية والروح بعد التلويح الى الشكل والصورة، مع تشابه ملحوظ في العبارة وأسلوب الأداء.



هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبات تلك الآيات (١٨٩-٢٠٣) فيما بينها، وهذا ما ظهر لنا من مفهوماتها، فله الحمد أولاً وآخراً. وله الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء بينهما. والآن نتوجه الى التماس وجوه المناسبة فيما بينها وبين ما سبقها من الآيات وما تلاها، متضرعين الى الله أن يهدينا الى سواء الصراط.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

ان هذه الآيات قد سبقتها آيات الصيام، وكان بيت القصيد فيها قوله تعالى:

﴿واذا سألك عبادى عنى فانى قريب، أجب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾.

ولا بد لنا ان كنا نريد الاطلاع على وجه المناسبة فيما بين آيات الصيام والتي جاءت بعدها، من أن نستعيد في الذهن ما قد هدانا اليه السياق من ايحاءات تلك الآية. فقد استوحينا من سياقها ما يلى:

(ثم نبه - تعالى - على ذلكم الشعور القدسى الكريم، الذي ينبغي أن يفيض به قلب المؤمن بفضل صيام رمضان، ويفضل تدارس القرآن فى تلك الأيام، ألا وهو شدة الحنين الى ربه الودود الكريم، والحرص على رؤيته ولقائه ، والسؤال او البحث عنه للاتصال به والاطمئنان الى رضوانه:

(١) الكشف : ٥٦٠/١

(٢) فتح القدير: ٥١٠/١

﴿وإذا سألَكَ عبادى عَنِ فانى قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان .. الآية﴾
 فالأصل فى الصوم أن يُوجَّه الوجه الى ربها، ويشعل فى القلوب جذوة الحنين والشوق اليه-
 سبحانه وتعالى- ويدع العباد لا يقلهم قرار لشدة ما يشعرون به من الالحاح فى التساؤل عن ربهم،
 وكيفية الوصول اليه؛ وكيفية الحصول على رحمته ورضوانه
 وهكذا يعمل الصوم عمله فى قلوب المؤمنين الصادقين.
 الا أن هناك ناسا آخرين مثلهم كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا.
 فهم يخرجون من الصوم بما قد دخلوا به.
 ويودعون شهر الصيام وقلوبهم خاوية من ذكر الله.
 ومن آياتهم أنهم لا يتساءلون عن ربهم وعما يرضى عنهم ربهم وعما يقربهم اليه.
 وانما تحوم أسئلتهم حول مصالح الدنيا ومتاعها وشهواتها ولذاتها.
 تحوم حولها والناس قد لا ينتبهون لما وراءها، لأنهم يطرحونها بأسلوب يخدع الناس، ويخلطونها
 بما يوهمهم بالنصح والمودة والحب والحماس.
 فهم يسألون - مثلا - عن الأهلة، وكأنهم يملأهم الحب والاخلاص والنصيحة لله ولرسوله. مع
 أنهم ما حدا بهم الى هذا السؤال الاحب الدنيا والتريص بالاسلام وأهله وقد بينا ذلك فى موضعه أثناء
 حديثنا عن الآية.
 ولذلك نرى السياق، بعد ما انتهى من الرد على سؤالهم، وانتهى من ذكر ما كان يستوجبه
 الموقف من التحريض على القتال والحث على اتمام العمرة والحج- وقد بينا الصلة والمناسبة فيما بين هذه
 الموضوعات أثناء حديثنا عن تلك الآيات - نراه قد عاد الى هؤلاء السائلين مرة أخرى، فأفصح عما
 كان يهيجهم الى مثل هذا السؤال وعما كانت تنطوى عليه جوانحهم، فقال:
 ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد
 الخصام. وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.
 وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد.﴾
 وذكر الى جانب هؤلاء قوما ليسوا مثلهم، فهم يختلفون عنهم تماما فى سلوكهم وتطلعاتهم:
 ﴿ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله. والله رؤوف بالعباد﴾
 وهؤلاء هم عباد الله الذين يسألون عنه ويتطلعون الى قربه ورحمته ورضوانه، وهم المعنيون
 بقوله تعالى: ﴿وإذا سألَكَ عبادى عَنِ فانى قريب ... الآية﴾
 والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات فيما بينها ولما قبلها، نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (٢٠٨-٢١٤)

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ. سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ. وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِكُمْ الْبُؤْسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.﴾



قبل أن نعالج ابراز مناسبات هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها، نود أن تكون لنا وقفة عند الآية الأولى من هذه الآيات ألا وهي قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.. الآية﴾

فإن القصور في تأويلها أو الخطأ في تحديد اتجاهها يكاد يحجب نظام هذه الآيات كلها، ويمنع الباحث أن يدرك ما تتمتع به هي الأخرى من حسن الارتباط وروعة التناسق فيما بينها.

فنبداً أولاً بما قاله المفسرون - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية وفي تحديد اتجاهها.

فمنهم من يؤول هذا الخطاب إلى المؤمنين الصادقين (١) ومنهم من يأخذه على إطلاقه، بل يبالح في إطلاقه حتى يصل به إلى درجة لا يحتملها النص. (٢)

فنحن لا نجد في القرآن شاهداً واحداً للإطلاق وصف الإيمان على الذين رفضوا الإيمان بمحمد ﷺ ولو كانوا يؤمنون بالأنبياء الذين خلوا من قبل. وبالعكس هو ينص على كفرهم وفسقهم ويصمهم به في غير ما آية.

(١) انظر تفسير البحر المحيط: ١٢٠/٢، وتفسير ابن كثير: ٢٤٧/١

(٢) تفسير الطبري: ٣٢٥/٢، وفتح القدير: ٢١٠/١

فالقول بأن المراد بـ «الذين آمنوا» فى هذه الآية هم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ قول يعلن عن نفسه بالبطلان.

وأما القول بأن المراد بـ «الذين آمنوا» فى هذه الآية هم المؤمنون الصادقون فهو قول يأباه السياق. والتأمل فى الآيات التي تتبع هذا الخطاب لا يدع لنا مجالا لمثل هذا القول. نأخذ- مثلا - قوله تعالى بعد هذه الآية بآية واحدة.

«هل ينظرون الا أن يأتئهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور.»

فهل يتصور أن يوجه مثل هذا الوعيد أو التهديد الى المؤمنين الصادقين المخلصين فى إيمانهم؟ كلا فلا عهد لنا فى القرآن بمثل هذا الأسلوب وبمثل هذا التوعد الا فى شأن الغافلين المستهزئين بآيات الله، الذين تبلغ بهم القساوة مبلغا لا يجدى معه أى لون من ألوان التنبيه والانذار. ونظرا لهذا الواقع المتكرر فى القرآن يربط الامام ابن كثير - رحمه الله - هذه الآية بالكافرين ، حيث يقول:

«يقول تعالى مهذا للكافرين بمحمد ﷺ : (هل ينظرون.. الآية)» (١)

أليس من الأولى اذا أن نؤول الخطاب فى قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة» الآية، الى قوم يستحقون هذا الوعيد وهذا التهديد، بدلا من أن نقول ان الخطاب فى الآية الأولى الى قوم وفى الآية الثانية الى قوم آخرين، من غير دليل يوجب ذلك؟

وعلى هذا فلم يبق أمامنا الا أن نقول: ان المراد بـ «الذين آمنوا» فى الآية هم المنافقون المخادعون، وهم الذين سبق ذكرهم فى قوله تعالى: «يسألك عن الأهلة. الخ» وفى قوله تعالى: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا.. الخ».

فبعد الرد على سؤالهم وبعد التنديد بتصرفاتهم جاء التوجيه الكريم لأن يشوبوا الى رشدهم:

«ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، انه لكم عدو مبين.»

وجاء الوعيد والتهديد على تردددهم ونكوصهم وعدم الاستجابة لدعوة ربهم:

«هل ينظرون الا أن يأتئهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر، والى الله

ترجع الأمور.»

ثم انصرف السياق الى كبرائهم وطواغيتهم من اليهود، وتوعددهم على اصرارهم على الكفر بعد ما جاءتهم الآيات البينات.

ثم ذكر دأبهم العضال، الذي كانوا يعانون منه، والذي قعد بهم عن الايمان وأخرهم عن ركب

الاسلام ، ألا وهو تبحرهم و انتفاشهم على ما يرون لأنفسهم من المكانة والفضل على غيرهم باعتبارهم أهل الكتاب ومهبط الرسالات منذ عهد قديم.

وما نشأ فيهم هذا التفكير الا لأنهم ركنوا الى الدنيا واغترفوا بحياتها، فأصبحوا يزنون الأمور بموازينها، وإلا فالتقوى هى مقياس الفضل والمكانة عند الله والمتقون هم الأفضلون المتفوقون يوم القيامة.

وأما هؤلاء الساخرون المتبحرون بأحسابهم، فلا يقام لهم وزن ولا يحسب لهم حساب، وإنما لهم عندالله سوء العقاب:

﴿سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة. ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاعته فإن الله شديد العقاب. زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا. والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة. والله يرزق من يشاء بغير حساب.﴾

ثم كشف حقيقة غرورهم، الذي كانوا يعيشونه، فكونهم من بيوتات الأنبياء لا يكسبهم شرفا ولا وجهة. فالتناس كلهم سواسية وكلهم أمة واحدة. ولا فضل لأحد منهم على أحد الا بالتقوى. ولم يبعث الله نبيا لتفخر أسرته على أختها، وإنما بعث من بعث ليبشروا الناس وينذروهم ويعودوا بهم الى الهدى، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليكون حكما يرجع اليه الناس فى خلافاتهم.

وكان من واجب هؤلاء باعتبارهم أهل الكتاب أن يبادروا الى الايمان بهذا النبى وهذا الكتاب. ولا يتأخروا عنهما بعدما جاءتهم البيئات على صدقتهما، وتبين لهم أنهما من عند الله.

ولكنهم أشربوا فى قلوبهم الغرور، فسخروا من هذا النبى ومن آمن به وسخروا من هذا الكتاب، واختلفوا فيه بغيا وعدوا، فذلك قوله تعالى:

﴿كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاعتهم البيئات بغيا بينهم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه. والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم.﴾

ثم عاد السياق الى هؤلاء المنافقين، الذين كانوا يتهيّبون من مخاطر الطريق، ولم تكن فيهم تلك الشجاعة الكافية التي تحدى بهم الى الأمام، وتحملهم على عصيان طواغيتهم الذين كانوا

مسيطين على الموقف:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسْتَهْمِ الْبِئْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.﴾
وما أشبه هذه الآيات في نظمها ومضمونها بتلك التي مضت معنا في أول السورة،
وخاصة تلك الآيات:

﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاعَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ
لَا يَبْصِرُونَ. صَمَّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ
أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ. كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارَهُمْ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾ (١)

ولقد فصلنا القول في هذه الآيات في محلها، وتناولناها بما فيه كفاية باذن الله.



(١) سورة البقرة: ١٧-٢٠.

نظم الآيات (٢١٥-٢٢٧)

مما لا يخفى على المتأمل فى الآيات (١٩٠-٢١٤). أنها كلها جاءت اعتراضا واستطرادا حتى تلقى الضوء على خلفية السؤال الذي ورد فى قوله تعالى : «يسألونك عن الأهلة .. الخ» وحتى تمرى تلك العقليات المريضة، التى كانت تعمل فى الظلام لتكدر على المسلمين الجو.

ثم عاد الكلام الى مجراه، حتى يسوق الينا نماذج أخرى من أسئلة هؤلاء. قال تعالى:

«يسألونك ماذا ينفقون. قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامي والمساكين وابن السبيل. وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم. كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون. يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير. وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا. ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله. والله غفور رحيم. يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. فى الدنيا والآخرة. ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير. وان تخالطوهم فأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم. ان الله عزيز حكيم. ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن. ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم، أولئك يدعون الى النار. والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون. ويسألونك عن المحيض. قل هو أذى فاعزلوا النساء فى المحيض. ولا تقربوهن حتى يطهرن، فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله. ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم. واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين. ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم. للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر. فان فاعوا فان الله غفور رحيم. وأن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم».



تلك ستة أسئلة وجهت الى النبي ﷺ بالاضافة الى السؤال الأول، الذي مضى معنا فى قوله تعالى: ﴿يسألكونك عن الأهلة.. الخ﴾

وهذه الأسئلة كلها متناسبة فيما بينها من ناحية اتجاهها ودلالاتها، وان كانت تبدو فى بادئ النظر أنها مختلفة، بل متنافرة لا يجمعها سبب ولا نسب، سوى أنها أسئلة وجهت الى النبي ﷺ فى شتى المناسبات.

ونحن سنحاول الكشف عن وجوه المناسبة فيما بينها، الا أننا نريد أن نعرف قبل ذلك أن هذه الأسئلة لم تكن منبعثة من قلوب خالطتها بشاشة الايمان، وانما الذي أثارها فى قلوب أصحابها هو النفاق وضعف الايمان.

ولسنا نقول ذلك من عند أنفسنا، فالآيات نفسها تنطق بذلك، وتؤكد لنا بلسان نظمها. ولقد علمنا شيئا من ذلك أثناء حديثنا عن السؤال الأول، ولنتأمل الآن فيما تتضمنه الآيات التالية.

فجاء - مثلا - قوله تعالى: ﴿يسألكونك ماذا ينفقون.. الآية﴾ ثم جاءت هذه الآية: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾

هذا السياق يثبتنا أنهم ما دفعهم الى هذا السؤال الا كراهيتهم للقتال، فان الاتفاق والقتال هما طرفا الجهاد، والجهاد بالمال لا يقدر عليه الا من قدر على الجهاد بالنفس، فهما متلازمان لا يفترقان فلما قيل لهؤلاء القوم:

﴿وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين﴾ شق عليهم هذا الأمر كما كان يشق عليهم الأمر بالقتال، فسألوا: ماذا ينفقون؟ ولا يخفى ما يفيض به هذا السؤال من الملل والتضجر وضيق النفس. ولا يمكن أن يأتى هذا السؤال الا من قلب أحضر الشح وأطبق عليه البخل.

ثم جاء السؤال الثانى: ﴿يسألكونك عن الشهر الحرام قتال فيه.﴾

وبعد الرد عليه جاء هذا التنبيه:

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.﴾

ثم ذكرت فى مقابل هذه الطائفة طائفة أخرى قد خالطت بشاشة الايمان قلوبها، فلم تضن فى سبيله بنفائسها ونفوسها:

﴿ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله. والله غفور رحيم.﴾

هذا النظم وهذا السياق يشعر أن الذين أثاروا هذا السؤال لم يكونوا من المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله. وإنما كانوا من قوم آخرين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان.

ثم كرر السؤال الأول: «ويسألكونك ماذا ينفقون؟»

هذا السؤال المتكرر في شأن الاتفاق أن دل على شئ فأنما يدل على مدى تضاييق هؤلاء القوم من واجب الاتفاق. والتضاييق من الاتفاق من آيات النفاق. وقد بين القرآن ذلك في موضع آخر، حيث قال في شأن المنافقين:

﴿ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون.﴾ (١)

ثم قوله تعالى في ختام هذه الآية: «كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة» أيضا يفيد بنظمه أن القوم كانوا منشغلين بالدنيا وكانت الدنيا هي موضع اهتمامهم ومحل تفكيرهم دون الآخرة.

ثم جاء السؤال الخامس: «ويسألكونك عن اليتامى..»

وبعد الرد عليه قال تعالى:

﴿والله يعلم المفسد من المصلح. ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم.﴾

هذا التذييل أيضا يظهر أن القوم لم يكونوا بحيث يوثق بصلاحهم بل كانت شوائب الفساد والافساد قائمة فيهم.

وبالجملة فنظم الآيات وسياقها يذهب بنا الى القول بأن هذه الأسئلة لم تكن مطروحة من قبل المؤمنين الصادقين. وإنما المنافقون هم الذين طرحوها بوحى من كبرائهم من شياطين اليهود وطواغيتهم.

وجوه المناسبة بين تلك الأسئلة:

وبعد التنبيه الى هذه الظاهرة الهامة نتوجه الى التماس وجوه المناسبة بين تلك الأسئلة السبعة.

ان تلك الأسئلة في جملتها تمثل لنا قوما يكرهون القتال في سبيل الله، ويكرهون الاتفاق. وهم منصرفون بجميع همهم الى حب الدنيا وشهواتها من الخمر والميسر والنساء.

أما السؤال الأول- وهو: «يسألكونك عن الأهلة» - فقد بينا فيما سلف أنه كان سؤالا عن النسب، وكان الدافع اليه كراهية القتال في سبيل الله.

ولذلك نرى السياق يحرضهم على القتال بعد ما ينتهى من الرد عليه مباشرة.

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين.﴾

ونرى نفس النظم في سورة التوبة، حيث جاء التنديد ببذعة النسيئ ثم جاء بعده مباشرة:

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض. أرضيتم

بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل.﴾ (١)

وأما السؤال الثاني، وهو: ﴿يسألكونك ماذا ينفقون﴾ فهو أيضا يشبه في روحه ومنشئه السؤال الأول، حيث ان الدافع إليهم هو هو. ولقد صرح سبحانه وتعالى بذلك، اذ قال بعد الرد عليه مباشرة.

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾

ومن ناحية أخرى فإن الاتفاق والقتال صنوان، حيث انهما طرقا الجهاد، فأحدهما جهاد بالمال، كما أن الثاني جهاد بالنفس، ولا فرق بينهما في أنهما يشقان على النفس، ولا تنهياً النفس لأحدهما الا اذا تهيات للآخر.

وأما السؤال الثالث، فهو عودة الى السؤال الأول، ولكن من باب آخر وبأسلوب آخر، فقد سألوا المرة الأولى عن النفس، أى امكانية تناول الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير عن محلها. وكانوا يرمون بذلك الى أن يدفعوا عنهم محنة القتال، التى كانت جاثمة على صدورهم وكانت تهدد مصالحهم.

فلما لم يأتهم الرد كما كانوا يشتبهون، كرروا المحاولة للوصول الى مطلبهم بأسلوب آخر، وقالوا: وكأنهم لا يهمهم الا الحفاظ على الأشهر الحرم وعلى حرمتها وقد استها- كيف نقاتل فى الشهر الحرام؟ من الذى يراعى حرمة ان لم نراع نحن؟ والله هذه كبيرة وما ينبغى لنا أن نرتكب هذه الكبيرة! الى غير ذلك من الأقاويل، التى توهم بظاهاها أنه ليس وراءها الا الغيرة والحماس لله ولشعائر الله، مع أنه ليس هناك من الحماس والغيرة الا اسمها ورسمها.

فرد الله على هذا التساؤل ردا منطقيا:

﴿يسألكونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير. وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا﴾

ثم أضاف عنهم اللثام، وحذرهم مما يوشكون أن يقعوا فيه لسوء استجابتهم لداعى الهجرة والجهاد:

﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله. والله غفور رحيم.﴾

ثم جاء السؤال الرابع والخامس والسادس والسابع:

يسألكونك عن الخمر والميسر.....

ويسألكونك ماذا ينفقون.....

ويسألونك عن اليتامى

ويسألونك عن المحيض

وهذه الأسئلة وإن كانت تبدو فى ظاهرها متفرقة متباينة لا يمت بعضها الى بعض بصلة، ولكن النظرة الفاحصة المتأملّة فى مراميها وسياقها تدرك أنها مترابطة فيما بينها برباط قوى.

وما يؤيد ذلك أن هذه الأربعة جاءت معطوفة بعضها على بعض بخلاف ماسبق من الأسئلة ، ولا يدل ذلك الا على غاية الاتصال والترابط فيما بينها.

ولكن قبل أن نقدم على التماس هذا الاتصال والترابط بين هذه الأسئلة، نود أن نعرف القصد منها، أو نعرف المناسبة التى أثارته واستوجبت الرد عليها.

فإن ذلك سيساعدنا فى معرفة وجه الاتصال والترابط فيما بينها.

مناسبة السؤال عن الخمر والميسر:

أما السؤال الأول- وهو قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر.. الآية﴾ - فقد ذكر الامام ابن الجوزى. - رحمه الله - فى تفسيره قولين، أحدهما: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت هذه الآية. والثاني أن جماعة من الأنصار جاءوا الى النبى ﷺ وفيهم عمر ومعاذ، فقالوا: أفنتا فى الخمر، فانها مذهبة للعقل مسلبة للمال. فنزلت هذه الآية. (١)

وهكذا ذهب كثير من المفسرين- رحمهم الله - الى أن هذه الآية نزلت ردا على سؤال المؤمنين. ولكن التأمل فى سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات التى وردت بالسؤال فى مواضع آخر يلح علينا بأن هذه الأسئلة لم تطرح أبدا من قبل المؤمنين، وانما طرحت من قبل غيرهم ممن لم يسلموا أو أسلموا ولم يحسن اسلامهم.

أما الآيات التى وردت فى غير هذه السورة مثل قوله تعالى:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾ (٢)

أو قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح. قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾ (٣)

أو قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (٤)

(١) زاد المسير: ٢٣٩/١

(٢) سورة طه : ١٠٥-١٠٧

(٣) سورة الإسراء : ٨٥

(٤) سورة الأنفال : ١

أو قوله تعالى: ﴿يسألك عن الساعة أيان مرساها. قل انما علمها عند ربي . لا يجليها لوقتها الا هو. ثقلت في السموات والأرض لاتأتينكم الا بغتة.﴾ (١)

فهذه الآيات ليست بحاجة الى ايضاح وتفصيل لكونها واضحة بيّنة في أمرها.
وأما الأسئلة التي وردت في هذه السورة، فقد أسلفنا القول فيها باجمال، ثم تناولنا بعضها بالتفصيل، وسنفضل الباقي فيما يلي باذن الله .

فتبدأ اذا بهذه الآية التي نتحدث عنها، وهي قوله تعالى: ﴿يسألك عن الخمر والميسر ... الآية﴾ فنقول: اننا لا نرتاح كثيرا الى ماورد في الروايات من أن سيدنا عمر وسيدنا معاذ - رضى الله عنهما - سألا عن الخمر ورداً على سؤالهما نزلت الآية، وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول:

قال ربنا - تبارك وتعالى - في سورة النحل، وهي سورة مكية:
﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ (٢) فنصت هذه الآية على أن الخمر ليست رزقا حسنا، وبالتالي هي من الخبائث. وكون الخمر من الخبائث يكفى للحكم عليها بالحرمة، فان من مزايا هذه الرسالة المباركة أنها جاءت لتعزم الخبائث. وقد نبه اليه سبحانه وتعالى في سورة الأعراف، وهي أيضا سورة مكية ، حيث قال:

﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.﴾ (٣)
فهذا النص لا يترك مجالا، لأن يشك في حرمة الخمر، فما بالك بسيدنا عمر وسيدنا معاذ وهما كانا من أدرى الناس بما تنطوى عليه الخمر من شر وفساد حيث قالوا: (فانها مذهبة للعقل مسلبة للمال) وبالتالي كانا من أعرف الناس بحكمها ومكانها في دين الله.

الوجه الثاني:

ان العرب - رغم أنهم كانوا يحتسون الخمر وكانوا يعلنون منها وينهلون - قد أدركوا جيدا ما تنطوى عليه الخمر من أضرار وويلات. ولذلك نرى العقلاء منهم والصالحين كانوا يعزفون عنها، وكانوا يحذرون الناس من معاقرتها. ومن ذلك ما قال عفيف بن معديكرب عم الأشعث بن قيس:

فلا والله لا ألفى وشريبا
أنازعهم شرابا ماحييت
أبى لى ذاك آباء كرام
وأخوال بعزهم ربييت (٤)

(١) سورة الأعراف: ١٨٧

(٢) سورة النحل: ٦٧

(٣) سورة الأعراف : ١٥٧

(٤) كتاب الأمالي لأبى على القالى: ٢٠٥/١

وقال عامر بن الظرب:

سألك للفتى ما ليس فى يده
أقسمت بالله أسقيها وأشربها
مورثة القوم أضفانا بلا إحسن
وحرم قيس بن عاصم الخمر وقال فى ذلك:
لعمرك ان الخمر مادمث شاربا
وتاركتي من الضعاف قواهم
وكان من أمثالهم السائرة فيما بينهم:
(الخمر مفتاح كل شر.) (٣)

وقال ابن قتيبة: «وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية لعلمهم بنسوء مصرعها وكثرة جناياتها. وقالت عائشة - رحمة الله عليها - : (ما شرب أبوبكر - رحمة الله عليه - خمرًا فى جاهلية ولا اسلام).
وقال عثمان - رحمة الله عليه - : (ما تغنيت ولا تفتيت ولا شربت خمرًا فى جاهلية ولا اسلام، ولا مسست فرجى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ)» (٤)
فمن المستبعد جدا جدا من أمثال سيدنا عمر وسيدنا معاذ - رضى الله عنهما - أن يستفتيا فى أمر الخمر أو يطلبوا البيان الشافى فى شأنها، وقد كان الأمر عندهم أبين من الشمس فى رابعة النهار

الوجه الثالث:

ان هذا السؤال ليس سؤال من يريد أن يستفسر ويطلب البيان وإنما هو سؤال من يستثقل الحكم ويطلب الرخصة ويريد أن يطلق لنفسه العنان.
ولذلك أثر القرآن فى هذه الآية أسلوب الجدال والاستدلال وأسلوب المقارنة بين النفع والخسران فقال: «وآثمهما أكبر من نفعهما».
وعلى أية حال فالوقف لا يقبل تلك الروايات التى نقلت لنا فى سبب نزول هذه الآية.
وإنما الذي يترجع فى تأويل الآية هو أنه لما جاء النهى عن معاورة الخمر ولعب الميسر اشتد ذلك على المنافقين ومن على شاكلتهم عن أسلموا ولم يحسن اسلامهم، فهم أثاروا هذا السؤال محتجين بما كان يتبع هذا الاثم من المنافع للناس.

(١) و (٢) كتاب الأمالى لأبى على القالى : ٢٠٤/١

(٣) العقد الفريد: ٢٧٢/١، نقلا من جمهرة خطب العرب : ١٣٧/١

(٤) كتاب الأشربة لابن قتيبة الدينورى: حجج المحرمين لجميع ما أسكر. ص/٢٤

وبيان ذلك أن المتيسرين في المجتمع العربى كانوا يجتمعون ليلاً حيث يوقدون النار ويعقرون الناقة ويشربون الخمر ويلعبون الميسر وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمى به الأيسار من أنصبتهم التى حرموها على أنفسهم كرماء وأنفة.

ولقد أشاد عمرو بن قميثة بعظمة قومه فقال: إذا اشتد البرد وانعدم البرق وامحى السحاب من السماء فلا ترى فيها غيمة، وإن رأيت فسرعان ما تنقشع، ولقد يتفرق الغمام فى السماء كأنه نعال بالية بانث منها سيورها، فى هذا الوقت تهزل النوق فلا لبن، وحينئذ غملاً قدورنا طعاماً، ونقدمها فيسرع اليها الضيوف والغرباء، كما تسرع صفار الابل التى نفرتها كبارها، وذلك بأننا نياسر بأفخاخ كاسية، ونقدم ما كسبناه طعاماً للناس:

إذا النجم أمسى مغرب الشمس دائباً	ولم يك برق فى السماء يليحها
وغاب شعاع الشمس فى غير جليلة	ولا غمرة اء وشيكاً مصوحها
وهاج عماء مقشور كائنه	نقيلة نعل بان منها سريحها
إذا أعدم المطلوب عادت عليهم	قدور كثير، فى القصاع قديحها
يثوب اليها كل ضيف وجانب.	كارد دهادة القلائص نضيحها
بأيديهم مقرومة ومغالق	يعود بأزراق العيال منيحها. (١)

فهؤلاء الناس احتجوا للخمر والميسر بتلك المنافع التى كانت تحصل للفقراء والغرباء عن طريقهما. ولعلمهم كانوا يقصدون بذلك الى أن يجدوا سبيلاً للاسترسال وراء رغباتهم الجامحة الهابطة فقال تعالى رداً على هذا السؤال :

﴿قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما﴾

السؤال الخامس:

ثم جاء السؤال الخامس: «ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو»

وجاء هذا السؤال متكرراً. وهذا التكرار يكشف لنا هؤلاء القوم كشفاً ويعطينا فكرة واضحة عما كان يخالج نفوسهم ويقلق بالهم، فهم كانوا مطبوعين على الشح وضيق النفس، وكانوا يكرهون الانفاق اشد الكراهية. وما كان يهمهم الا أن يتخلصوا منه كيفما استطاعوا.

ثم هذا التكرار بهذا السياق كما يدل على بخلهم وشحهم، يدل على استهانتهم واستخفافهم بدين الله. فانهم يحلولهم أن يهلكوا أموالهم فى معاقرة الخمر ولعب الميسر، ويودون أن يرخص لهم فيهما، ولكنهم لا يرضون أن يتبرعوا بأموالهم فى سبيل الله.

(١) ديوان عمرو بن قميثة: ص ٣٣-٣٤.

فالانفاق في سبيل الله أثقل شئ علي نفوسهم، كما أن الانفاق في سبيل الهوى والشهوات أحب شئ اليهم.

فرد القرآن على هذا السؤال بأسلوب يملؤه السمو والترفع والاستغناء:

(قل العفو!!)

وللمفسرين في المراد بالعفو هنا خمسة أقوال، منها:

(ما تطيب به أنفسهم من قليل وكثير، رواه عطية عن ابن عباس).^(١)

فكأن معنى الآية: أنفقوا ما تطيب به أنفسهم عفوا صفوا مبرأ من شوائب الشح والبخل وضيق النفس. فالله غني عنكم وأنتم الفقراء اليه.

السؤال السادس:

ثم جاء السؤال السادس:

«ويسألونك عن اليتامى، قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح. ولو شاء الله لأعنتكم، ان الله عزيز حكيم.»

يقول الامام ابن الجوزي - رحمه الله - في تأويل هذه الآية:

«في سبب نزولها قولان. أحدهما: أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾^(١) الاسراء : ٣٤، و ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ النساء : ١٠، انطلق من كان عنده مال یتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشئ من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروه للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس وعطاء وسعيد بن جبیر وقتادة ومقاتل. والثانى: أن العرب كانوا يشددون في أمر الیتيم حتى لا يأكلون معه في قصعته ولا يستخدمون له خادماً، فسألوا النبي ﷺ عن مخالطتهم فنزلت هذه الآية، ذكره السدى عن أشياخه وهو قول الضحاک.»^(٢)

هذان قولان ذكرهما الامام ابن الجوزي - رحمه الله - . ولقد لجأ كثير من المفسرين - رحمه الله - في تأويل الآية الى هذين القولين، الا أن الذي يترجح عندنا هو أنهما وان كانا داخليين في عموم الآية وشمولها، ولكنهما لا يفسران السبب الحقيقي لنزولها، لأنهما لا ينسجمان مع نظمها وسياقها. فقد سبقها قوله تعالى:

«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس، واشئهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة.»

(١) زاد المسير : ٢٤٢/١

(٢) زاد المسير : ٢٤٣/١ - ٢٤٤

كما تلتها هذه الآية:

﴿ولاتتكنوا المشركين حتى يؤمنوا ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم، ولا تتكنوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون.﴾

هذا السياق وهذا السياق لا يسمح لنا أبداً بأن نخضع تفسير الآية لهذين القولين.

فما هو تأويل الآية إذا؟ وما هو تفسير هذا السؤال المثار بخصوص اليتامى؟

قبل أن نرد على هذا السؤال نود أن نتحقق معنى المخالطة في قوله تعالى: ﴿وان تخالطوهم فإخوانكم﴾ فإن له تأثيراً كبيراً في تحديد اتجاه هذه الآية، كما أن له تأثيراً كبيراً في معرفة طبيعة هذا السؤال.

تحقيق معنى المخالطة:

يقول الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر معنى المخالطة :

«وقد حملت المخالطة على المصاهرة» (١)

ولقد ذكر الامام الرازي - رحمه الله - فيما ذكر من معاني المخالطة فقال:

«والقول الرابع ، وهو اختيار أبي مسلم ، أن المراد بالخلط المصاهرة في النكاح ، على نحو قوله:

﴿وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا﴾ وقوله عز من قائل: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء.﴾

وأضاف - رحمه الله - قائلاً:

«وهذا القول راجع على غيره من وجوه: (أحدها) أن هذا القول خلط لليتيم نفسه والشركة

خلط لماله. (وثانيها) أن الشركة داخلة في قوله ﴿قل اصلاح لهم خير﴾ والخلط من جهة النكاح،

وتزويج البنات منهم لم يدخل في ذلك ، فحمل الكلام في هذا الخلط أقرب. (وثالثها) أن قوله تعالى

﴿فإخوانكم﴾ يدل على أن المراد بالخلط هو هذا النوع من الخلط، لأن اليتيم لو لم يكن من أولاد

المسلمين لوجب أن يتحرى صلاح أمواله ، كما يتحرى إذا كان مسلماً فوجب أن تكون الإشارة بقوله

﴿فإخوانكم﴾ إلى نوع آخر من المخالطة (ورابعها) أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿ولاتتكنوا

المشركين حتى يؤمنوا﴾ فكان المعنى أن المخالطة المندوب إليها إنما هي في اليتامى الذين هم لكم

إخوان بالاسلام، فهم الذين ينبغي أن تناكحوهم لتأكيد الألفة، فإن كان اليتيم من المشركين فلا تفعلوا ذلك..» (١)

(١) الكشف : ١ / ٣٦٠

(٢) التفسير الكبير: ٥٢/٦

والامام أبوحيان - رحمه الله - أيضا يذكر هذا المعنى من ضمن المعانى التى يذكرها فى تفسير المخالطة ثم يقول:

«ورجح هذا القول بأن هذا خلطة لليتيم نفسه والشركة خلطة لماله. ولأن الشركة داخلية فى قوله: ﴿قل اصلاح لهم خير﴾ ولم يدخل فيه الخلط من جهة النكاح فحمله على هذا الخلط أقرب، ويقول: ﴿فاخوانكم فى الدين﴾ فان اليتيم اذا كان من أولاد الكفار وجب أن يتحرى صلاح ماله كما يتحرى فى المسلم فوجب أن تكون الإشارة بقوله: فاخوانكم الى نوع آخر من المخالطة ويقول بعد: ولا تنكحوا المشركات، فكان المعنى أن المخالطة المندوب اليها فى اليتامى الذين هم لكم اخوان بالاسلام.» (١)

وبهذا التفصيل نعلم أنه ليس هناك مانع من تفسير المخالطة بمعنى المصاهرة والمناكحة. بل يكون هذا التفسير أولى من غيره بناء على الحجج التى أشار اليها الامام الرازى والامام أبوحيان.

تأويل الآية:

والآن نجىء الى تأويل الآية فنقول:

ان هذا القرآن قد ركز على حقوق اليتامى تركيزا خاصا، وجاء فى شأنهم بأوامر مشددة يرتجف منها القلب، فقال - مثلا-:

﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم. انه كان حوبا كبيرا.﴾ (٢)

﴿ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا، وسيصلون سعيرا.﴾ (٣)

ان هذا الوعيد وهذا التأكيد يكفى لأن يفزع منه المؤمن ويقشعر وقد حصل ذلك فعلا كما تحكى لنا الروايات.

الا أن هؤلاء القوم، ممن سبق ذكرهم وما زال السياق يذكرهم، لم يفزعهم الموقف، وانما كان جل همهم أن يفتح لهم باب يكتنهم من الاستمتاع بهؤلاء اليتامى، فهم أشاروا موضوع المصاهرة والمناكحة معهم.

ولم يكن الدافع الى هذا السؤال - كما أشرنا - شدة الاهتمام بشئون اليتامى ومصالحهم، أو شدة التورع مما ليس لهم أو لا يطيب لهم. وانما الذى حفزهم الى هذا السؤال هو اهتمامهم بأنفسهم وانشغالهم بما يشبع شهواتهم. ونظير ذلك قوله تعالى:

(١) تفسير البحر المحيط: ١٦١/٢

(٢) سورة النساء: ٢

(٣) سورة النساء: ١٠

«ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً.» (١)

فبين الله تعالى - رداً على سؤالهم - ما يحل لهم من المصاهرة والمناكة معهم، مع التنبيه على أنه تعالى عليم بنياتهم وهواجس نفوسهم، فلو شاء لأعتهم ولكنه شملهم بعطفه وكرمه. فليصلحوا نياتهم في شأن هؤلاء اليتامى وليحرصوا على اصلاح حالهم والقيام بمصالحهم، دون الانغماس في شهواتهم والاستمتاع بما لديهم.

وبما أنه تعالى عزيز حكيم فلا يفوته أن يؤاخذهم ان لم يشيروا الى رشدهم ولم ينتهوا عما هم فيه من اتباع الهوى والتفريط في جنب الله:

«قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم. ان الله عزيز حكيم.»

ثم بين لهم أن هذه المصاهرة لا تصح ولا تجوز الا اذا كانت تربطهم بهم أصرة الايمان. فاذا وجدت أصرة الايمان فلا مانع من المصاهرة معهم:

«ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن. ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم. ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون.»

ولقد تصدى أبو مسلم لربط هذه الآية بما قبلها، والتمس المناسبة بين الآيتين من ناحية أخرى، فقال:

«بل هو متعلق بقصة اليتامى، فانه تعالى لما قال: «وان تخالطوهم فاخوانكم» وأراد مخالطة النكاح عطف عليه ما يبعث على الرغبة في اليتامى، وأن ذلك أولى مما كانوا يتعاطون من الرغبة في المشركات، وبين أن أمة مؤمنة خير من مشركة وان بلغت النهاية فيما يقتضى الرغبة فيها، ليدل بذلك على ما يبعث على التزوج باليتامى، وعلى تزويج الأيتام عند البلوغ ليكون ذلك داعية لما أمر به من النظر في صلاحهم وصلاح أموالهم.» (٢)

هذا ما قاله أبو مسلم في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

وكان هذا الرأي لا بأس به، لولا أن القرآن نفسه قد بين لنا أن الرغبة في يتامى النساء كانت حاصلة ومتوفرة عندهم سلفاً. ولم يكونوا بحاجة الى أن تثار فيهم هذه الرغبة، حيث قال تعالى:

(١) سورة النساء : ١٢٧

(٢) التفسير الكبير: ٥٤/٦

﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ.. الخ﴾

فليس هناك تحريض وترغيب في نكاح هؤلاء اليتامى، وإنما هو ترشيد وتقويم لتلك الرغبة، حتى لا تكون رغبة هابطة جامحة خالية من الشعور بالمسئولية، وملهية عما تمليه عليهم العقيدة.

السؤال السابع:

ثم جاء السؤال السابع وهو فوه بعضى:

﴿ويسألك عن المحيض. قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن. فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾
يقول القرطبي - رحمه الله - وهو يفسر سبب هذا السؤال، أو سبب نزول هذه الآية:

قوله تعالى: ﴿ويسألك عن المحيض﴾ ذكر الطبرى عن السدي أن السائل ثابت بن الدحاح- وقيل: أسيد بن حضير وعباد بن بشر، وهو قول الأكثرين. وسبب السؤال فيما قال قتادة وغيره: أن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنوا بسنة بني اسرائيل في تجنب موأكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساء في الحيض وأتونهن في أديارهن مدة زمن الحيض، فنزلت. وفي صحيح مسلم عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت. فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأُنزل الله تعالى: ﴿ويسألك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: اصنعوا كل شئ إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، ان اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن الى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما. قال علماؤنا: كانت اليهود والمجوس تحب الحائض، وكانت النصارى يجامعون الحائض، فأمر الله بالقصد بين هذين. (١)

لقد ذكر الامام القرطبي وغيره من المفسرين- رحمهم الله- هذه الأسباب أو بعضها لنزول هذه الآية. والسبب الأول هو أكثرها رواجاً وانتشاراً بين الناس .

ولعل هذا القول قد استمد قوته ووجاهته مما رواه مسلم في صحيحه عن أنس- رضي الله عنه - في هذا الشأن، فكلاهما يرميان الى معنى واحد، ولا فرق بينهما الا في الاجمال والتفصيل .
الا أن المتأمل في نظم هذه الآيات وسياقها لا يكاد يستريح الى هذا القول لكونه لا يتلاءم معه.

فالأقرب لسياق الآيات وأسلوبها هو ما روى عن مجاهد رحمه الله - وقد مر معنا آنفاً - فإن هذه العبارة برمتها تركز على اعتزال النساء والابتعاد عنهن في حالة الحيض:

﴿فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾

وهذا الخطاب لا يوجه أبداً إلى قوم قد بالغوا في اعتزال الحيض واجتنابهن، وغلوا في ذلك إلى أن كرهوا مواصلتهن ومجالستهن وأخرجوهن من بيوتهن.

وبالعكس من ذلك يوجه إلى قوم قد أسرفوا في إتيان النساء وملامستهن، حتى لم يراعوا في ذلك الحيض والطهر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى في نهاية الآية:

﴿ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾

فهذا التذييل ينبئ أن القوم قد أتوا في ذلك بما يتنافى مع الطهر، وبذلك استحقوا أن يزجى إليهم هذا التوجيه الكريم.

سبب نزول الآية، كما يلميه علينا السياق:

ان التأمل في نظم هذه الآيات وسياقها يوحي إلينا كأن شخصا من هؤلاء القوم - وهم الذين أسلموا ولم يحسن إسلامهم - أراد أن يأتي امرأته في حال الحيض. والمرأة استعصت عليه وقمّدت بحكم وضعها الذي تتأذى فيه، وتكره كراهية شديدة أن يؤتى إليها في ذلك الحين.

وأدّى هذا التمرد والعصيان إلى أن آلى الرجل أن لا يدخل عليها بعد هذا، ولا يشمّ ريحها، كما هو معروف ومشاهد في أيّ مجتمع لا يتخلص من رواسب الجاهلية ويرى الزواج سبيلا من سهل التلذذ والمتاع ليس الأ.

فيهمون عليه أن يهجر المرأة أو يرميها في سلة المهملات، إذا هي ترددت أو تأخرت في تلبية دعوته وأطفا. شهرته في وقت من الأوقات، كأننا ما كان السبب.

وبالجملة فهذه الحادثة هيأت فرصة طيبة لبيان أمور وتعليمات تعتبر من أساسيات الحياة الزوجية، ولا يمكن للبشرية أن تستغنى عنها، أو تحجّد فضلها وأهميتها البالغة في بناء أسرة هادئة مستقرة، أو في تكوين مجتمع عادل فاضل. قال تعالى:

﴿ويسألونك عن الحيض. قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله. ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملا قوه وبشر المؤمنين. ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم. والله غفور حلیم.

للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر. فإِنْ فاءوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ. وإن عزموا الطلاق فإنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ ﴿١﴾

إن هذه الآيات تظهر بادئ ذي بدء وكأنها تشتمل على تعليمات وتوجيهات مبعثرة متفرقة. ولكننا إذا وضعنا في اعتبارنا تلك الحادثة التي أشرنا إليها والتي استلهمناها من السياق نفسه، فستكون هذه الآيات كلها وكأنها حلقات متصلة آخذ بعضها بأعناق بعض.

ولا يهمنا هنا أن هذه الحادثة حدثت لمرة واحدة في تلك البيئة، أم تكررت وتعددت، فليس له أى تأثير على الموضوع والحادثة الواحدة تكفى لأن تشير ذلك السؤال، وتكون مناسبة طيبة لتزويد الجماعة بتلك التوجيهات الغالية القيمة.

فتناول السياق أولاً موضوع الحيض وبين حكمه.

ثم عرَّجَ الى بيان مكانة الزوجة في حياة الرجل وأثرها في شقائه وسعادته، فالمرأة ليست من أدوات اللهو والمتاع والتسلية، حتى ترمى كالمخلوقات إذا هي ضعفت أو تأخرت عن الاستجابة لداعي اللهو والمتاع والتسلية، وإنما هي في الواقع مزرعة يزرع فيها الرجل مصيره ويزرع فيها جنته وسعيه كما يزرع فيها نسله وذريته:

﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ. وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ. وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾

فحبلى متروك على غاربه، فليأت حرقه أنى شاء وليزرع فيه ما شاء، علماً بأنه سيحصد ما زرع ويجنى ما غرس، فإن غرس التقوى فسيجنى ثمارها ويستبشر بحصيلتها، وإن غرس غير ذلك فهو الذي يصلى بناره ويتعرض لمارته.

فقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ليس من باب رفع الحظر وفتح الباب على مصراعيه، كما ذهب إليه الزمخشري^(١) والشوكاني^(٢) وغيرهما -

فهذا التفسير لا يستقيم به المعنى. إضافة الى ذلك أننا لا نحس فيه ومضة من تلك الرفعة التي هي من خصائص مطالب القرآن.

ولعل هذا المفهوم لم يجد طريقه الى بطون الكتب وقرارة النفوس الا بسبب ذهول الناس عن أسلوب الآية، مضافا الى ذهولهم عن نظامها وسياقها.

فإن هذه الآية أشبه شئ في أسلوبها بقوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ﴿٣﴾

(١) الكشف: ٣٦٢/١

(٢) فتح القدير: ٢٢٦/١

(٣) سورة الزمر: ١٤-١٥

وقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم. انه بما تعملون بصير.﴾ (١)

ويقارب هذا الأسلوب قوله تعالى:

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (٢)

وقوله تعالى: ﴿لئن شاء منكم أن يستقيم﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿لئن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ (٤)

فهذه الآيات وان خرجت مخرج الاباحة والترخيص، الا أنها فى الواقع ليست للاباحة والترخيص. وانما هو أسلوب حكيم يخاطب العقول ويناديها نداء مباشرا حتى تعود الى صوابها وتذكر ما يضرها مما ينفعها.

ومنه قول قراد بن عباد:

فأخ لحال السلم من شئت واعلمن بأن سوى مولاك فى الحرب أجنب (٥)

أى: كن محبا لمن شئت فى حال السلم، واعلم أن ابن عمك هو الذي ينفعك عند الحرب، وأن سواء أجنبي يتغافل عنك ولا يتصرك.

فقوله: (أخ لحال السلم من شئت) ليس الا تنبيها له الى أن يكون عاقلا فى مؤاخاته ولا يتخير لها الا من ينفعه عنه النوائب وان كان الأسلوب يوهم بظاهره أنه تخيير و تحريض له على وضع الحب فى غير موضعه.

وعلى هذا فليست هذه الآية الا توجيهها تربويا وتصحيحا لمكانة المرأة فى الحياة، وتنبيها الى أنها ليست - فى الواقع - ملهى للرجل، وانما هي له حرث ومزرعة يزوع فيها آخرته ويغرس مصيره ان خيرا فخير وان شرا فشر.

ولقد صادف هذا التوجيه مكانه، حيث ان الاتيان فى حالة الحيض، لا يدل الا على أن هذا الآتى لم يدرك مهمته ولا مهمة المرأة فى الحياة، ولم يدرك شرف هذا اللقاء الذي حصل بينهما بفضل من الله ونعمة.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فان الرجل اذا بلغ منه الغيظ بحيث يحمله على الانتقام من امرأته، ويفضى به الى أن يولى منها أو يعزم طلاقها لا بسبب الا أنها لم تكن فى حالة تمكّنها من

(١) سورة فصلت: ٤٠

(٢) سورة الكهف: ٢٩

(٣) سورة التكوين: ٢٨

(٤) سورة المدثر: ٣٧

(٥) الحماسة لأبى تمام: ٣٣٦/١ رقم القصيدة (٢٢٦).

تلبية رغبته، فهذا أيضا يعنى أنه لم يدرك كرامة المرأة ومكانتها ووظيفتها فى الحياة، ولم يعرف ذلك الأثر الخطير، الذي تقوم به المرأة فى بناء مستقبله، وبالتالي هو بحاجة الى أن يبين له ذلك.

وعلى هذا فقد جاء هذا التوجيه الالهى الكريم فى مكانه وفى أو انه.

ثم انجز الكلام بمقتضى المقام الي تفصيل موضوع الايلاء حيث ان الدهول عن مكانة المرأة ووظيفتها فى الحياة قد أدى من أدى الى الايلاء من امرأته، كما سبق أن أشرنا اليه.

وأما ماسبقه من موضوع الأيمان، فانه ماجاء الا كتمهيد وتعميد لموضوع الايلاء.

وبيانه أن الله تعالى لما أراد أن ينهى عن الايلاء لم يقصر النهى عليه، بل جاء بتوجيه عام يشمل الأيمان الفاسدة كلها، فكل يمين يتنافى مع البر والتقوى والاصلاح بين الناس، فاسد وقبيح، ولا يجوز للمسلم أن يأتيه ويجعل الله عرضه له.

والايلاء- كما لا يخفى - من هذا القبيل، حيث انه عبارة عن حلف الرجل عند الغيظ والمغاضبة، أنه لا يقرب امرأته، ولا شك أن هذا يتنافى مع البر والتقوى والاصلاح بين الناس، وفيه ما فيه من امتهان للمرأة وهضم لحقها وقلة المبالاة بها.

ثم كان من فضل الله ورحمته أنه بعد ما حرم الأيمان الفاسدة، ذكرلنا حلا لهذه المشكلة، إن وقعنا فيها، حيث قال تعالى:

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حلیم﴾

التفسير الخاطىء لكلمة اللغو:

ولا يفوتنا التنبيه الى خطأ قد انتشر بين الناس فى تفسير (اللغو) فانه طالما حجب عنا نظام الآية وعوقنا عن التوصل الى صحيح دلالتها.

يقول الزمخشري - رحمه الله - فى تفسير هذا اللفظ:

«اللغو: الساقط الذى لا يعتد به من كلام وغيره. واللغو من اليمين: الساقط الذى لا يعتد به فى الأيمان وهو الذى لا عقد معه. والدليل عليه: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، بما كسبت قلوبكم﴾ (١).

ويقول ابن عطية - رحمه الله -:

«اللغو: سقط الكلام الذى لا حكم له، ويستعمل فى الهجر والرفث وما لاحكم له من الأيمان، تشبيها بالسقط من القول، يقال منه لغا يلغو لغوا، ولغى يلغى لغيا.» (٢)

(١) الكشف : ٣٦٣/١

(٢) المحرر الوجيز: ١٨٦/٢

ويقول أبو حيان - رحمه الله - فى تفسير هذا اللفظ:

«مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضا للأيمان كان ذلك حتما لترك الأيمان وهم يشق عليهم ذلك لأن العادة جرت لهم بالأيمان فذكر أن ما كان منها لغوا فهو لا يؤاخذ به، لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شئ يجرى على اللسان عند المحاورة من غير قصد. وهذا أحسن ما يفسر به اللغو لأنه تعالى جعل مقابله ما كسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد.» (١)

وهكذا نرى المفسرين - رحمهم الله - قد اتجهوا إتجاها واحدا فى تأويل هذا اللفظ. وقبل أن نحكم لهذا الاتجاه أو عليه نود أن ننبه إلى أمور لابد أن نضعها فى اعتبارنا، وهى كما يلى.

١- جرى اليمين على اللسان بدون قصد ليس شيئا محمودا ولا مقبولا حتى يراعيه الشرع ويترك الناس عليه.

٢- ان كانت هذه العادة قد تغلغلت فيهم حتى صعب عليهم التخلص منها، فليس معنى ذلك أن يشجعوا عليها. والتصريح المتكرر بعدم المؤاخذة بها لا يعنى الا التشجيع عليها. وكم من عادة سيئة قد تعودوا عليها، ولكن القرآن عالجهم بحكمة حتى تخلصوا منها. والقوم اذا قدروا على التخلص من الخمر بعد ما كانت تجرى فى عروقهم مجرى الدم فلا شك أنهم كانوا أقدر على أن يتخلصوا من أى رذيلة أخرى، كائنة ماكانت.

٣- ان كان الرجل بحيث يجرى اليمين على لسانه من غير قصد، فهو سيجعل الله - ولا محالة - عرضة لأيمانه التى نهى عنها. فهذا النهى مع هذا الترخيص يصبح جمعا بين المتناقضين.

٤- ان فسرنا اللغو بالمعنى الشائع، فسيكون هذا المعنى غريبا بين المعانى التى تحيط به. وهذا لا يتصور فى أى كلام رفيع فضلا عن القرآن الذى جعله الله ذروة فى التناسب بين موضوعاته. تلك أمور لابد أن يضعها الباحث فى اعتباره. وهى تصرفه عن ذلك التأويل صرفا لاهوادة فيه.

تحقيق معنى (اللغو):

إذا فما هو التأويل الصحيح لهذا اللفظ؟

يبدو للمتأمل فيه أن ما روى عن ابن عباس والضحاك فى تأويل هذا اللفظ أقرب للصواب من غيره، حيث قالوا - رضى الله عنهما:-

«لغو اليمين هو المكفرة، أى اذا كفرت اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغوا. ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع الى الذى هو خير.» (٢)

(١) تفسير البحر المحيط: ١٧٩/٢

(٢) المحرر الوجيز: ١٨٨/٢

وعلى هذا فليس هذا (اللغو) من لغا يلغو لغوا أو لغى يلغى لغيا، وإنما هو من الالفاء كالعون من الاعانة فى قوله - عليه السلام -:

﴿والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه﴾ (١)

ولهذا الاستعمال نظائر أخرى فى كلام العرب، فمنه قول سيدنا أبى بكر لعكرمة -رضى الله عنهما - حيث قال:

(مهما قلت انى فاعل فافعله. ولا تجعل قولك لغوا فى عقوبة ولا عفو، ولا ترج اذا أمنت ولا تخافن اذا خوكت، ولكن انظر ما ذا تقول وما تقول، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها، فان فعلت أثمت وان تركت كذبت.) (٢)

فقوله - رضى الله عنه - (لا تجعل قولك لغوا) يعنى طَبَّقَ كل ما قلت من عفو أو عقوبة ولا تلغه الفاء.

ومن ذلك ما قاله ذو الرمة وهو يهجو قوما لم يقروه:

يعد الناسبون الى تميم	بيوت العز أربعة كبارا
يعدون الرياب لهم وعمرا	وسعدا ثم حنظلة الخيارا
ويهلك بينها المرئى لغوا	كما ألفت فى الدية الحوارا (٣)

ف(لغوا) فى هذا البيت من الالفاء، وليس من لغا يلغو لغوا أو لغى يلغى لغيا، أى يهلك المرئى وسط تلك القبائل العزيزة وهو كالمهمل الملقى، الذى أسقط من قائمة الاعتبار، فلا يحسب له حساب، كالحوار الذى يلغى فى الدية فلا يحسب له حساب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ معناه : لا يؤاخذكم الله بأيمانكم التى تتنا فى مع البر والتقوى والاصلاح بين الناس اذا كنتم قد ألغيتموها وتخليتم عنها، وإنما يؤاخذكم بها اذا عقدتموها وأقمتم عليها.

(١) مختصر أبى داود: باب فى المعونة للمسلم: ٢٤٩/٧، رقم الحديث (٤٧٧٩).

(٢) عبقرية الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد: ص/١٢٥

(٣) ديوان ذى الرمة: ص/٢٧٦، رقم القصيدة (٢٧). «المرئى» نسبة الى «مرأة» وهى القرية التى

نزل بها الشاعر فلم يقره أهلها وكان ذلك سبب هجائه إياهم. و «الحوار» - بالضم وقد يكسر - ولد

الناقة ساعة تضعه، أوالى أن يفصل عن أمه. والحوار لا يؤخذ فى الدية.

وكسب القلوب فى قوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ يؤدى هذا المعنى، فكسب القلوب يتضمن معنى السدوم والاستمرار والإصرار على الشئ. ويؤيد هذا قوله تعالى: فى سورة المائدة:

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾

وما أجل أن تفسر هذه الآية بتلك. والقرآن يفسر بعضه بعضا.

والكفارة التى ذكرت فى قوله تعالى: ﴿فكفارتها اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ (١)

ليست كفارة الأيمان المعقدة، وإنما هى تلك الكفارة التى يدفعها المرء إذا أراد أن يلغى شيئا من تلك الأيمان.

ومن هنا قال ابن عباس - رضى الله عنهما -:

«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» فهذا فى الرجل يحلف على أمر اضرار أن يفعله فلا يفعله، فيرى الذى هو خير منه، فأمره الله أن يكفر بيمينه ويأتى الذى هو خير.» (٢)

وأما الأيمان المعقدة أو التى كسبتها القلوب، وهى التى يصير عليها المرء ولا يريد أن يقلع عنها فسيؤاخذ بها عند الله حينما تفوته الفرصة، ولا يمكنه الغاءها والتكفير عنها.

وكم نتعجب من القاضى ابن عطية حيث يقول:

«والمؤاخذة فى الأيمان هى بعقوبة الآخرة فى الغموس المصبورة وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا فى الزام الكفارة، فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة، لأن المؤاخذة قد وقعت فيها. وتخصيص المؤاخذة بأنها فى الآخرة فقط تحكم.» (٣)

فقد جاء - رحمه الله - بكلام فى غاية الضعف، فإن الكفارة ليست مؤاخذة ولا عقوبة، وإنما هى رحمة من الله وطهارة للمرء مما وقع فيه وخلص له من العقوبة والمؤاخذة التى كانت تنتظره لولأنه أقلع عن ذنبه وكفر عنه.

وهذا الأمر لا يبقى فيه مجال شبهة إذا تذكرنا قوله تعالى:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ (٤)

(١) سورة المائدة : ٨٩

(٢) تفسير الطبرى: ٤١٢/٢

(٣) المحرر الوجيز: ١٨٨/٢-١٨٩

(٤) سورة البقرة: ٢٨٦

فالمؤمنون لا يسألون ربهم من خلال هذا الدعاء أن يعفيهم من الكفارات وإنما يسألونه أن يعيذهم من سخطه وعقابه.

وكذلك قوله تعالى بعد ذكر كفارات الظهار:

﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ (١)

نص على أن الكفارات ما فرضت على المؤمنين عقوبة ومواخاة لهم، وإنما فرضت لتمدحهم بإيمانهم، أو تعيذهم إلى رحاب الإيمان أن كانوا قد خرجوا منه.

ويشبهه قوله تعالى في سورة النساء بعد ذكر كفارات قتل الخطاء:

﴿توبة من الله وكان الله عليما حكيما﴾ (٢)

فهذه حجة على أن الكفارات في الإسلام ليست عقوبة ولا مواخاة وإنما هي توبة ورحمة. والآن نعود إلى حديثنا السابق فنقول: ثم كان من فضل الله علينا ورحمته أنه بعد ما نهانا عن الأيمان التي تتنافى مع البر والتقوى والاصلاح بين الناس، ومنها الإيلاء من النساء، ذكر لنا حلاً لهذه المشكلة أن وقعنا فيها:

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلِيم﴾.

ثم ذكر لنا أقصى مدة الإيلاء حتى يكسب هذا الموضوع نوعاً من الجدّة. فللمرء أن يتروى في خلال هذه المدة وعليه أن يجزم فيها بأحد الأمرين، فإما أن يفئ إلى ما هو أولى به وهو التواد والتراحم، أو يختار ما يقابله، وهو الطلاق والفراق:

﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر. فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا

الطلاق فإن الله سميع عليم﴾.

وبما يجدر التنبيه إليه أنه تعالى ذكرهنا أمرين: وهما الفيئة وعزم الطلاق. كما ذكر في الآية

السابقة أمرين: وهما (اللغو) و ﴿ما كسبت قلوبكم﴾.

ولعلنا لانحاجب الصواب إذا قلنا، أن التالي جاء بيانا وتفصيلاً للسابق، فقوله تعالى: ﴿فإن

فأعوا فإن الله غفور رحيم﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ كما أن قوله

تعالى: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾.

ثم إن قوله تعالى: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ كان مناسبة طيبة لتفصيل

أحكام الطلاق وما يتبعه أو يتصل به من قضايا العدة والرجعة والخلع والرضاع والخطبة والصداق

والمتعة وما إلى ذلك. فنرى السياق يبادر إلى انتهاز هذه الفرصة السانحة ويزودنا بتوجيهات قيمة في

شأن الطلاق وما يتصل به.



(١) سورة المجادلة: ٤

(٢) سورة النساء: ٩٢

نظم الآيات (٢٢٨-٢٣٧)

قال تعالى:

فوالمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء. ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن أن كن يؤمن بالله واليوم الآخر. ويعولتهن أحق بربدهن في ذلك أن أرادوا أصلاحا. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف. وللرجال عليهن درجة. والله عزيز حكيم. الطلاق مرتان. فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتوهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله. فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به. تلك حدود الله فلا تعتدوها. ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره. فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا أن ظنا أن يقيما حدود الله. وتلك حدود الله يعلمون. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكنهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكنهن ضرارا لتعتدوا. ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه. ولا تتخذوا آيات الله هزوا. واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به. واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر. ذلكم أزكى لكم وأطهر. والله يعلم وأنتم لا تعلمون والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف. لا تكلف نفس الأوسعها. لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك. فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير. والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا. فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف. والله بما تعملون خبير. ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم. علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا. ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله. واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم. لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تقرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين. وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح. وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم. إن الله بما تعملون بصير.



يقول الأستاذ محمد عبدالله دراز وهو يبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

« ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين، يطل القارئ منه على أفق متلبد ينلر باحتمال الفراق، فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريبا، بل وجد مكانه مهيأ له من قبل، كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة، تستشرف الى عروة أخرى تشتبك معها، فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة. وما هو الا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها. وهكذا أصبح الحديثان حديثا واحدا. »
ويقول - رحمه الله -:

« وتمضى السورة في هذا النمط الجديد، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها: عدة ، ورجعة، وخلعا ، ورضاعا ، واسترضاعا، وخطبة، وصداقا، ومتعة... الى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧). (١)
ونرى أن هذه المجموعة من الآيات واضحة في نظمها ورباط معانيها وليست بحاجة إلى من يبين وجوه ارتباطها وتناسقها فيما بينها.
والجو العام الذي يسود هذه الأحكام كلها هو جواهر والتقوى والاصلاح بين الناس. كما كان الأمر في تلك الأحكام التي سبقتها.

فكنا أنه - تعالى - كره الإيلاء من النساء لكونه ينافي مع روح البر والتقوى والاصلاح بين الناس، فكذلك كره لهم، إذا عزموا الطلاق ، أن يحدثوا أنفسهم بضرار المطلقات والتضييق عليهن، وأمرهم أن يلتزموا دائما وأبدا بما على عليهم إيمانهم من التسامح والتكريم والاحاء والتعفف ورعاية الصدر، حيث قال تعالى:

﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا...﴾

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا ليعتدوا﴾

﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك﴾ -

﴿ومعتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾

﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح. وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا

الفضل بينكم.﴾

وهكذا نرى تلك الآيات تسمو بالنفوس الى ذرى البر والتقوى والاصلاح والاحسان كما أن

الآيات التي سبقتها كانت تحلق في تلك الأجواء نفسها، حيث قال تعالى:

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾

نظم الآيتين (٢٣٨-٢٣٩)

بعد هذا الحديث المستفيض بخصوص الطلاق وأحكامه تطالعنا هاتان الآيتان:

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالا أو ركبانا، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.﴾

فما موقع هاتين الآيتين من تلك الآيات؟

وما وجه مناسبتها لما بين يديهما وما خلفهما؟

إن البحث عن مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما يلزمنا أن نتراجع الى مسار الكلام ونكرر النظر الى تلك الأسئلة السبعة التي وجهت الى النبي - ﷺ - والتي مضت معنا قبل قليل، فإن الآيات التي وردت تبحث موضوع الطلاق وما يتصل به إنما جاءت عرضا واستطرادا. وليست من المقاصد الأصلية المستقلة، التي سبق لها الكلام. وقد بينا ذلك في موضعه.

فلا بد إذاً من العودة الى تلك الأسئلة التي سبق ذكرها ولا بد من استحضار جوها وملابساتها التي كانت تحيط بها.

وقد وضع مما أسلفنا، أن تلك الأسئلة كانت موجّهة من قبل منافقي اليهود ومن على شاكلتهم ممن آمنوا ولم تؤمن قلوبهم.

وكان الدافع الى تلك الأسئلة إهتمامهم بالدنيا وشهواتها من الخمر والميسر والنساء والتهرب مما يحول دون شهواتهم، أو يعكر عليهم صفو نعيمهم من الجهاد بالنفس والنفيس في سبيل الله.

ولا يستغرب أبدا إذا جاء في مثل هذا الجرح وهذا السياق ذلك التوجيه الكريم:

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.﴾

فانهم ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من الركون الى الدنيا والميل الى شهواتها الا لقلّة إهتمامهم بالصلاة والتهرب مما يمليه عليهم إيمانهم من الاتفاق والجهاد في سبيل الله.

وقد جاء ذلك واضحا في موضع آخر حيث قال تعالى:

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا.﴾ (١)

فاتباع الشهوات لا يكون الا نتيجة لإضاعة الصلاة، وما أضاع قوم صلاتهم إلا انغمسوا في شهواتهم.

والمحافظة على الصلاة هي التي تأخذ بيد العبد الى الله وتقوى صلته به وتحفظ له دينه وتقضى به قدما في سبيل طاعة الله ومن هنا قال سيدنا عمر - رضى الله عنه - :

«ان أهم أمركم عندي الصلاة. فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه. ومن ضيعها فهو لما سواها أضييع» (١)

فذكرت هاتان الآيتان بعد ما سبقهما من الآيات كما يذكر العلاج بعد ذكر المرض. ولعل هذا هو السر في اختيار لفظة «حافظوا» في الآية دون لفظة «أقيموا» فان «حافظوا» أقرب وأنسب للمقام اذا كان الخطاب موجها الى قوم قد أضاعوا الصلاة، فان اضاعة الصلاة تقابلها المحافظة على الصلاة لا اقامة الصلاة.

هذه ناحية. ومن ناحية أخرى فان هذه الآية جاءت على أسلوب العود على البدء، وهو أسلوب شائع في القرآن.

وتلك نكتة دقيقة لا بد من ايضاحها.

لقد رأينا في هذه السورة نفسها أن الله تعالى بعد أن أمر بتحويل القبلة الى الكعبة المشرفة، ويعد أن نبه الجماعة المسلمة الى المهمة الجليلة، التي نيظت بها في هذا الكون، أزعج اليها هذه النصيحة الغالية:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون.» (٢)

ثم تطرق الحديث بمقتضى المقام الى أمور وموضوعات متنوعة متلاحمة أخذ بعضها بأعناق بعض. وقد كانت لنا وقفات لأبأس بها عند كل من تلك الموضوعات، وفصلنا هناك وجوه ارتباطها بعضها ببعض، وفصلنا وجوه مناسبتها لما بين يديها وما خلفها. ثم عاد الكلام على بدنه:

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى .. الآية»

ولا غرابة في هذا الأسلوب، فان له نظائر وأشباها في القرآن. وهي من الوضوح بحيث لا تحتل الشك أو المراء.

نأخذ - على سبيل المثال - فاتحة سورة المؤمنون، حيث قال تعالى:

«قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون...» الى أن قال: «والذين هم على صلواتهم يحافظون» (٣)

(١) الموطأ للإمام مالك: باب وقوت الصلاة: ٦/١، رقم الحديث (٦)

(٢) سورة البقرة: ١٥٣-١٥٤

(٣) سورة المؤمنون: ١-٩

ونرى نفس الأسلوب في سورة المعارج حيث قال تعالى:

﴿أَن الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمَصْلِينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ إلي أن قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ (١)

ونلاحظ في هذين المثالين أمرين:

الأمر الأول: أن صفات المؤمنين بدئت بالصلاة وختمت بها. وهو الذي نسميه العود على البدء.

والأمر الثاني: أن المحافظة على الصلاة تذكر دائما في آخر الشوط. هكنا رأينا في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾. وهكنا نرى في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾.

ولا يمنعنا مانع من القول بأن الوضع في سورة البقرة أيضا هكنا، فإن الأمر بالصلاة بدئ بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ .. الْآيَةِ﴾

ثم ختم بقوله تعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

ولا بأس بأن نستأنس أيضا لهذا التأويل الذي يفسر الآية على أنها جاءت على أسلوب العود على البدء بالجو الذي يحيط بالمؤمنين، فالجاء في كلا الموضعين جد متقارب.

ففي الموضع الأول - مثلا - نرى الأمر بالصلاة والصبر قد سبقه التنويه بكون تلك الجماعة أمة وسطا:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

بينما نرى في الموضع الثاني الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

فالأمة الوسط ما أقيم بناها الأعلى الصلاة الوسطى. والصلاة الوسطى هي التي تجعل الأمة تحرز هذا الشرف وتنهض لهذا المنصب. وسنعود الى هذه النكتة بشئ من التفصيل باذن الله.

ونرى في الموضع الأول الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة، ونرى التنويه بشأن الصابرين: ﴿وَيُشِرُّ الصَّابِرِينَ﴾

بينما نرى في الموضع الثاني الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، ثم نرى مثلا عمليا رائعا للاستعانة بالصبر بعد الاستعانة بالصلاة:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا لِلَّهِ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

والمعنيون بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ هم الذين استطاعوا الاستعانة بالصبر والصلاة بدليل قوله تعالى :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . وَإِنَّهَا كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١)

ونرى في الموضع الأول قوله تعالى بعد الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ . بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

فقد جمع السياق هنا بين الصلاة والقتال في سبيل الله ، ومثل هذا النظم نرى في الموضع الثاني

حيث قال تعالى بعد الأمر بالمحافظة على الصلوات:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

وهكذا نرى الجو في كلا الموضعين جد متقارب، وهذا يحدونا الى القول بما قلناه آنفا من أن هذه

الآية وردت على أسلوب العود على البدء، وأن الحديث عاد الى الصلاة كما بدأ منها.

وحي هذا الأسلوب:

وهنا يثور سؤال: فما هي فائدة هذا الأسلوب ؟

ولماذا تكرر ذلك في القرآن؟

والجواب أن هذا الأسلوب يوحى الينا معانى لم نكن لندركها لولا أن القرآن قد لجأ اليه.

فهذا الأسلوب يجسد لنا مكانة الصلاة وأهميتها في دين الله بشكل عجيب. ويبين لنا أن

الصلاة هي أصل الدين، وهي عماد الدين، وهي ملاك الدين، والدين يبدأ منها وينتهي اليها.

والأمة التي ترتضى لنفسها ملة ابراهيم، وتريد أن تقوم بدورها المرتقب في أداء هذه الرسالة

العظمى، لابد أن تكون الصلاة هي عنوان حياتها ومصدر قوتها ونشاطها، كما أنه لابد أن تكون هي

أول خطواتها وغاية غاياتها.

تأويل الصلاة الوسطى:

ويحسن بنا قبل أن ننتقل الى حديث آخر، أن نطمئن الى تأويل الصلاة الوسطى، فقد اختلف

الناس في شأنها اختلافا كبيرا، حتى روى عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - أنه قال:

(كان أصحاب رسول الله - ﷺ - في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه). (٢) يريد

أنهم كانوا في خلاف شديد في الصلاة الوسطى.

(١) سورة البقرة: ٤٥-٤٦

(٢) زاد المسير: ٢٨٢/١

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله -:

«وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولاً، وأوردتها في شرحي للمنتقى وذكر ما تمسكت به كل طائفة.» (١)

وأرجح تلك الأقوال عندنا وأقربها لنظم الآيات وسياقها هو ما روى عن سيدنا معاذ بن جبل، فإنه قال في تفسير الصلاة الوسطى أنها الصلوات الخمس. (٢)

ولقد ذكر ابن عطية نفس القول عن بعض العلماء فقال:

«وقال بعض العلماء: الصلاة الوسطى المكتوبة الخمس.» (٣)

ويظهر لنا أن سيدنا زيد بن ثابت أيضاً كان يرى نفس الرأي فقد أخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين، قال: سأل رجل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى، قال: (حافظ على الصلوات تدركها). (٤) فجعلت هذه الأمة أمة وسطاً، وأمرت أن تحافظ على صلواتها، وأن تحاول أن تكون صلواتها كلها صلاة وسطى، أى قمة فى حسنها وروعيتها وكمالها، حتى تؤتى أكلها باذن ربها، وحتى تعد الأمة لأداء مهتها الجليلة، التى نيطت بها فى هذه الحياة، وهى الشهادة بالحق على الناس، المهمة التى بعث لأجلها النبى ﷺ حيث قال تعالى:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.﴾

فالأمة لا تكون أمة وسطاً حتى تكون صلواتها صلاة وسطى والصلاة لا تكون صلاة وسطى حتى يملأها القنوت، أى التضلع والخشوع، حيث قال تعالى:

﴿وقوموا لله قانتين﴾

فهذا توجيه وترشيد من الله تعالى، حتى يتبها الوصول الى الصلاة الوسطى لمن أراد أن يصل اليها.

وهذا التأويل هو الذى ينسجم مع نظم الآيات وسياقها، ويلتزم كل الملامة.

وأما بقية الوجوه، التى وردت بها الروايات، فهى لا تخلو من إشكال، ولا تنسجم مع نظم الآيات وسياقها.

(١) فتح القدير: ٢٥٦/١

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢٤١/٢

(٣) المحرر الوجيز: ٢٣٦/٢

(٤) الدر المنثور: ٧٢٩/١

بالإضافة الى أن تأويلنا هذا جامع شامل. وبإمكانه أن يضم فى بحبوخته سائر الروايات التي تبدو فى ظاهرها متنافرة متعارضة.

فليست الصلاة الوسطى صلاة واحدة بعينها دون غيرها. وانما هي كل صلاة تتحلّى بالفضل والكمال، وتتندى بالخشوع والخضوع والتضرع الى الله.

والخلاف الذي ورد فى الصحيح الثابت من الروايات، ليس خلافاً فى رأى، وانما هي أقوال قيلت فى مختلف الأوقات حسب المناسبات، فحملها الناس على الخلاف فى رأى، ورووها على ظاهرها، حتى قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - كما أئرنه: (كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا. وشبك بين أصابعه). (١)

وليس الأمر كما قال - رحمه الله -.

ونبيننا - عليه الصلاة والسلام - لما قال يوم الأحزاب - مثلاً :-

(شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر. ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً). (٢)

فلم يكن يقصد بقوله هذا الى حصر الحكم أو حصر الصفة على صلاة العصر، وأنها هي الصلاة الوسطى دون غيرها، بل كان ذلك مجرد حكاية للواقع.

ومعلوم أن ثبوت الوصف لشيء لا يعنى انتفاءه عن آخر. فاذا كانت صلاة العصر صلاة وسطى، فليس معنى ذلك أن غيرها من الصلوات ليست صلاة وسطى.

ولو وقع - مثلاً - أنه فاتته ﴿صلاة﴾ صلاة الفجر دون صلاة العصر حتى طلعت عليه الشمس لكان من المحتمل جداً أن يقول عن صلاة الفجر مثلاً قال عن صلاة العصر.

ويؤيد هذا ماورد فى بعض الروايات أنه - عليه الصلاة والسلام - قال ما قال ولم يكن صلى يومئذ الظهر والعصر حتى غابت الشمس. (٣)

فلا ينصرف اذا ما قاله - عليه الصلاة والسلام - الى صلاة العصر فقط، بل ينصرف اليهما جميعاً.

والمقام لا يسمح لنا بأن نتنفس فى الكلام أكثر مما فعلنا، فانه لا يتصل بموضوعنا اتصالاً مباشراً، مع أن ما قدمناه فيه كفاية باذن الله.

(١) زاد المسير: ٢٨٢/١

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة

العصر. ٤٣٧/١، رقم الحديث (٦٢٨)

(٣) الفتح الرباني: باب تأخير الصلاة لعذر الاشتغال بحرب الكفار ٣٠٩/٢، رقم الحديث (٢١٦)

والآن، وقد انتهينا من بيان المناسبات الواسعة المترامية لتلك الآية، نريد فنقول : ان هذه المناسبات الواسعة المترامية لاتعني أبداً أن تلك الآية غريبة في بيئتها الخاصة أو غريبة بين الآيات التي تجاورها من قريب.

كلا! فقد وافقت تلك الآية مكانها، الذي لا يكون مكان أنسب منه، وأشد ملائمة لها. فهذا المكان هو الذي قادنا الى ما قادنا من تلك المناسبات الواسعة المترامية التي تقصد اليها الآية قصداً أولياً ومباشراً، كما أنه هو الذي يقودنا الى ما يقودنا من مناسبات أخرى قريبة ومتصلة بما حولها من الآيات، وهي كما يلي.

المناسبة الأولى:

كان الحديث قبل تلك الآية يجري حول المحافظة على حقوق النساء - المطلقات منهن والمتوفى عنهن أزواجهن- فانتهز السياق هذه الفرصة بلباقة عجيبة، وانتقل من حديث المحافظة على حقوقهن الى حديث المحافظة على حقوق ربهن، وعلى رأسها الصلوات.

المناسبة الثانية:

لقد تكرر قبل هذه الآية التحريض على التقوى فى عدة آيات:

﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم.﴾ (١)

﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ (٢)

﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم﴾ (٣)

ثم جاء فى الآية الأخيرة، التي تلى هذه الآية:

﴿وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم. إن الله بما تعملون بصير﴾ (٤)

فلما كان الجرجو التحريض على التقوى، ناسبه أن يتبعه الأمر بالمحافظة على الصلوات فان الصلاة هى التى تغرس فى القلب بذور التقوى، وترسخ جذورها، وتهيب بالمرء أن يراقب الله فى سره وعلمه وفى صغير أموره وكبيرها، بل وفى جميع شئونه وأحواله.

ولقد صرح القرآن بذلك فى عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وامرأهك بالصلاة واصطبر عليها، لانسالك رزقا. نحن نرزقك والعاقبة للتقوى.﴾ (٥)

(١) سورة البقرة: ٢٣١

(٢) سورة البقرة: ٢٣٣

(٣) سورة البقرة: ٢٣٥

(٤) سورة البقرة: ٢٣٧

(٥) سورة طه: ١٣٢

المناسبة الثالثة:

الآيتان اللتان سبقتا هذه الآية تتضمنان الأمر بتمتع المطلقات والتسامي بالنفس فى أداء ما فرض لهن، وبعدهما مباشرة جاءت آية المحافظة على الصلوات.

ولا يخفى أن تمتيع المطلقات وأداء مهرهن من الاتفاق والصلة بين الاتفاق والصلاة واضحة معلومة.

تلك ثلاثة أوجه لمناسبة هاتين الآيتين لما يجاورهما من الآيات،

ولن نجانب الصواب ، اذا قلنا بعد هذا ، إن هاتين الآيتين قد وافقتا مكانهما الذي لا يكون مكان أنسب منه وأشد ملائمة لهما. كما أن الآيات التي سبقتهما جاءت شديدة الالتئام مستحكمة النظام ، منسوقا بعضها على بعض ، وإن كان يبدو بادئ ذى بدء أنها موضوعات متفرقة، لا يربطها رابط ولا يشملها نظام .

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما نتوجه الى ما بعد هما.



نظم الآيات (٢٤٠-٢٤٢)

قال تعالى:

«والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج. فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف . والله عزيز حكيم. وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقا على المتقين. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون.»
لقد ذهل الناس في الغالب عن نظام هؤلاء الآيات.

وهذا الذهول أفضى بهم الى الخطأ في تأويلها، والى الخطأ في استخراج الحكم منها، كما أفضى بهم الى القول بما لا يتفق مع جودة الترتيب وروعة النظام، التي عهدناها في كلام الله.
وهذا الوضع يتطلب منا أن نطيل الوقوف عندها ونستعرض ما قيل فيها، ثم نتبين الوجه الصواب في تأويلها.

فلنعلم أن هناك مذهبين متوازيين في تأويل تلك الآية، فمن قائل بنسخها، ومن قائل بمحكيته وسريان حكمها.

ومن قال بمحكيته واستمرارية حكمها الأستاذ سيد قطب، حيث يقول - رحمه الله -:

«والآية الأولى - أى الآية : (٢٤٠) - تقرّر حق المتوفى عنها زوجها في وصية منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، مدة حول كامل ، لا تخرج ولا تتزوج ان رأت من مشاعرها أو من الملايسات المحيطة بهاما يدعوها الى البقاء ... وذلك مع حريتها في أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذي قرّره آية سابقة. فالعدة فريضة عليها، والبقاء حولا حق لها .. وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتملك . ولا ضرورة لافتراض النسخ، لاختلاف الجهة كما رأينا. فهذه تقرّر حقا لها ان شاءت استعملته. وتلك تقرّر حقا عليها لا مفرّ منه.» (١)

ولقد قال بمثل هذا القول الدكتور عبدالله دراز - رحمه الله - حيث إنّه يعتقد بقاء هذا الحكم واستمراريته الا أنه يخصّصه ويقتصره على زوجات المجاهدين دون غيرهم. (٢)
وبالجملّة فهذان رأيان متوازيان في تأويل الآية. وان كان الرأي القائل بنسخ الحكم هو الرأي المفضل عند أكثر الناس.

وهنا يثور سؤال: فأى هذين الرأيين أرجح وأقوى وأدنى الى سداد القول؟

(١) في ظلال القرآن: ٢٥٩/١.

(٢) النبأ العظيم: ص ٢٠٦٦.

تقويم الرأيين فى ضوء السياق:

ولن نجد أمامنا فى هذا الموضوع وأمثاله من الموضوعات أفضل من الاحتكام الى نظام الآيات وسياقها.

فلنرجع الى هذا الحكم حتى نتمكن من تقويم هذين الرأيين، ونتمكن من معرفة الأقوى من الأضعف منهما.

إن الوضع الذي نستلهمه بالتأمل فى نظام الآيات وسياقها هكذا:

لقد تناول السياق قبل آتى المحافظة على الصلوات : (٢٣٨-٢٣٩) موضوع تمتيع المطلقة غير المدخول بها وغير المفروض لها، حيث قال تعالى :

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً. وَتَعَوَّهْنَ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ . حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ.﴾

ثم جاء أن المطلقة المفروض لها غير المدخول بها يكون لها نصف المهر إلا أن تعفو أو يعفوزوجها، بخلاف المطلقة غير المدخول بها ولا المفروض لها، فإنه لا نصيب لها فى المهر. وإنما لها المتاع:

﴿وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ. إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.﴾

ثم ختم هذا الموضوع بآتى المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى.

وهنا يثور سؤال: هل التمتع خاص بالمطلقة غير المدخول بها ولا المفروض لها كما يفهم من ظاهر الآية، أم يعم جميع المطلقات؟

ثم إن كان هذا الحكم يعم جميع المطلقات، فهل يعم المتوفى عنها زوجها كذلك أم يكون مقصورا على المطلقات فقط؟

لا بد أن تكون هذه الأسئلة قد ثارت فى الأذهان واقتضت البيان الشافى فى هذا الموضوع:

فجاء الوحى مرة ثانية يغطى ذلك الموضوع ويفصله:

﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُزَوِّجُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ. فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ.﴾

حقائق تستفاد من نظم الآيتين:

والتأمل فى نظم الآيتين يكشف لنا حقائق مهمة جدا، وهى كما يلى.

١- إن المتوفى عنها زوجها يصرف لها المتاع لحول كامل: «متاعا الى الحول»

- ٢- إن هذا المتاع لا يشترط فيه أن تبقى المرأة في بيت زوجها، فالمتاع حقها المستقل ، وهي تستحقه أينما كانت.
- ٣- إذا أرادت المرأة أن تبقى في بيت زوجها المتوفى قلها الحق أن تبقى في بيته الى حول كامل. وليس لورثة المتوفى أن يخرجوها: ﴿غير اخراج﴾.
- ٤- هذه الوصية من الله وليست من الزوج، كما جاء ذلك مصرحا في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿وصية من الله والله عليم خليم﴾. (١)
- فلا تبطل هذه الوصية استنادا الى قوله - عليه السلام -: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث). (٢)
- والمرأة تأخذ متاعها وتأخذ حقها من الميراث من غير أدنى حرج.
- ٥- هذه الوصية جاءت في سياق المتاع، وهي بيان وايضاح لما ثار في الأذهان بخصوص المتاع، كما بيناه آنفا، ولا صلة لها بموضوع العدة.
- وهذا هو رأى الامام مجاهد -رحمه الله - كما يظهر من رواية الامام البخارى - رحمه الله - حيث قال : حدثنا اسحق حدثنا روح حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا. قال كانت هذه العدة تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهن متاعا الى الحول غير اخراج، فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة، سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ان شامت سكنت في وصيتها وان شامت خرجت وهو قول الله تعالى: ﴿غير اخراج، فان خرجن فلا جناح عليكم﴾ فالعدة: كما هي واجب عليها ، زعم ذلك عن مجاهد. (٣)
- فهذه الرواية تبين لنا أمرين، أحدهما: أن هذه الوصية من الله وليست من الزوج، حتى نبطلها استنادا الى قول النبي ﷺ: (لا وصية لوارث).
- والثاني : أن هذه الآية (٢٤) لا صلة لها بموضوع العدة. ولقد وهم الامام الرازى - رحمه الله - في تفسير قول مجاهد حيث قال:
- (القول الثاني، وهو قول مجاهد، أن الله تعالى أنزل في عدة المتوفى عنها زوجها آيتين. (الخ).
- فقول مجاهد واضح في مدلوله. وهو لا يقبل هذا التفسير.
- وقد نستأنس لهذا رأى بما يوجد من فرق واضح بين العبارتين، فان القرآن كلما تناول موضوع العدة استخدم عبارة: (التريص بالنفس) أو عبارة: (بلوغ الأجل) أو صرح بلفظ (العدة) كما نرى في

(١) سورة النساء : ١٢

(٢) مختصر سنن أبي داود: ٢٥٠/٤

(٣) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتريصن بأنفسهن... الآية».

- ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ (١)
 ﴿وال المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ (٢)
 ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ (٣)
 ﴿واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ (٤)
 ﴿واللاني ينسن من الحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاى لم يحضن.
 وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن.﴾ (٥)
 وأما هذه الآية التى نتحدث عنها فعبارتها تختلف عن تلك العبارات كلها. وهذا الاختلاف لا يدل إلا على اختلاف الموضوع فى كلا الموضعين.
 فلا يصح أن تربط هذه الآية بآية العدة وتجعل تلك ناسخة لهذه .
 ولقد نبه القرآن نفسه الى هذا الوضع، حيث قال فى نهاية الحديث:
 ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾
 وهذا من عادة القرآن، فإنه كثيرا ماينبه اذا جاءت الآية بيانا للحكم السابق بمثل تلك العبارة.
 ولقد تكرر ذلك فى سورة النور بصورة واضحة جدا، حيث جاءت الآيات تبين ما سبقها من الأحكام. فجاء النص بمثل تلك العبارة فى كل مرة، حيث قال تعالى:
 ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات. والله عليم حكيم.﴾ (٦)
 ﴿كذلك يبين الله لكم آياته. والله عليم حكيم.﴾ (٧)
 ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون.﴾ (٨)
 ولقد سبق معنا مثل ذلك فى سورة البقرة نفسها، حيث جاءت الآيات: (١٨٣-١٨٦) تذكر لنا واجب الصيام وأحكام الصيام.

(١) سورة البقرة: ٢٢٦

(٢) سورة البقرة: ٢٢٨

(٣) سورة البقرة: ٢٣٤

(٤) سورة البقرة: ٢٣١

(٥) سورة الطلاق: ٤

(٦) سورة النور: ٥٨

(٧) سورة النور: ٥٩

(٨) سورة النور: ٦١

وبعد فترة جاءت الآية : (١٨٧) تبين للناس بعض ما التبس عليهم من أمر الصيام. ثم نبه السياق على هذا الوضع، حيث جاء في آخر الآية:

﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون.﴾

ومن هذا النوع ما نرى في سورة النساء حيث قال تعالى وهو يذكر الفرائض لأصحابها:

﴿وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين. غير مضار وصية من الله . والله عليم حليم.﴾ (١)

فهذه الآية أثارت تساؤلا في الأذهان، واستفتى الناس في الكلالة، وطلبوا زيادة البيان، فأنزل الله تعالى جوابا على هذا الاستفتاء أو بيانا وايضا لهذا الموضوع:

﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين.﴾ وفي آخر الآية صرح تعالى بأن هذا بيان وايضاح لما التبس عليهم في شأن الكلالة:

﴿يبين الله لكم ان تضلوا . والله بكل شئ عليم﴾ (٢)

وعلى هذا فهاتان الآيتان (٢٤٠-٢٤١) أيضا جاءتا بيانا وايضا للموضوع السابق، كما نبه عليه السياق.

وشتان بين كون الآية بيانا وايضا للموضوع السابق وبين كونها منسوخة وما يبعث الارتياح في أنفسنا أن الامام الفراهي أيضا سلك نفس الطريق في تأويل تلك الآيات. وتأمل في نظامها وسياقها ، فتوصل الى مثل ما توصلنا اليه. والفضل للمتقدم ولا شك . يقول - رحمه الله -:

«هاتان الآيتان: (٢٤٠-٢٤١) نزلتا لبيان بعض ما بقيت فيه شبهة، فهما كالجملعة المعترضة والضميمة بعد سرد الأحكام وختمها بذكر الصلاة عند القتال.» (٣)

٦- وإذا ثبت أن هذه الآيات لاصلة لها بآية العدة، فلا يصح أن تحسب مدة العدة: (أربعة أشهر وعشرا) في مدة المتاع.

فالمرأة تقضى العدة أولا في بيت زوجها المتوفى، ثم يكون لها الخيار، فان شئت خرجت من

(١) سورة النساء: ١٢

(٢) سورة النساء: ١٧٦

(٣) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط)

البيت، وإن شامت بقيت حولا كاملا ماعدا فترة العدة. وليس لأحد من الورثة أن يرغمها على الخروج قبل انتهاء هذه المدة.

٧- إن هذه الفترة التي تقضيها المرأة في بيت زوجها المتوفى بعد فترة العدة ليست للحداد على الزوج وإنما جعلت لها هذه الفترة مراعاة لظروفها، حتى تدبر لنفسها وتنتظر في أمرها. فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، - وهي في بيت زوجها- ولها أن تتلقى خطبة الخطاب، ولها أن تزوج نفسها ممن ترتضى «فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف».

٨- آية التريص أربعة أشهر وعشرا متقدمة في النظم على آية المتاع الى الحول. والمتقدمة لا تصلح أبدا لأن تكون ناسخة للمتأخرة.

وأما القول بأن الآية السابقة متقدمة في التلاوة، متأخرة في التنزيل وهذه بعكسها (١) فهو قول عظيم. ويحتاج لثبوته الى دليل أوضح من القمر الساطع وأرسى من الطود المنيف. ولعل الذين ذهبوا الى هذا القول لم يذهبوا اليه الا كرها، بعد ما عجزوا عن التوفيق بين الآيتين.

ولو أنهم ظهر لهم الوجه الصحيح، الذي هدانا اليه التأمل في نظم هذه الآيات، لكانوا أسرع الناس اليه، وأبعدهم مما قالوا.

٩- المتاع حق لكل مطلقة، سواء كانت مدخولا بها أو غير مدخول بها، وسواء كانت مفروضا لها المهر أو غير مفروض لها، فإن السياق هنا أطلق لفظ (المطلقات) من غير وصف ولا تحديد ولا استثناء.

ولا يفوتنا التنبيه الى أن العبارة جاءت في سياق المطلقات غير المدخول بهن ولا المفروض لهن هكذا:

«مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ . حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ»

وجاءت في سياق غيرهن هكذا:

«وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ . حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ»

هذا النظم يفيد أن المطلقات الأخريات أحق بالمتاع من المطلقات غير المدخول بهن ولا المفروض لهن، فإن المسلم مطالب بالتقوى قبل أن يطالب بالاحسان. والتقصير في الاحسان قد يتغاضى عنه، وأما التقصير في التقوى فلا خلاص للمرء من عقوبته الا من رحم الله.

ومن هنا نرى المتعة واجبة لكل مطلقة، كائنة من كانت، ومن أى نوع كانت.



(١) تفسير البحر المحيط: ٢٤٦/٢

تلك حقائق تنكشف لنا حين نتأمل في نظم تلك الآيات وسياقها. ولا شك أنها بأجمعها تضع ثقلها في كفة الذين يقولون بحكمية تلك الآيات وسريان حكمها، دون من يقول بنسخها.

سر الفصل بين البيان والمبين عنه:

وقبل أن نغادر تلك الآيات الى ما بعدها ، نود أن نعالج شبهة قد تشور عنها في ذهن الدارس، وهي أنها اذا كانت بيانا لآية المتاع: (٢٣٦) فلماذا لم توضع في جنبها؟ ولماذا تخللت تلك الآيات آية المحافظة على الصلوات؟

والرد على هذا السؤال يكمن في استحضار تلك الصلة الماسة، التي توجد بين الصلاة وبين تلك الشرائع. فالصلة بين هذه وتلك أمس من الصلة بين البيان والمبين عنه.

وما كانت هذه النكتة لتدرك لولا أن الأمر كان على ما هو عليه الآن.

ثم إن هذه الآية - آية المحافظة على الصلوات - مرتبطة في أصلها بالأسئلة السبعة، التي وجهت الى النبي ﷺ وقد بيناه فيما مضى.

فكان الموقف يقتضى أن توضع هذه الآية بعد الأسئلة مباشرة، بدون أن يكون بينها وبينها أى فاصل. إلا أن الموضوعات التي تبعت السؤال الأخير وتفرعت منه وتشعبت كانت متلاحمة ومتداخلة بعضها في بعض، بحيث لم يكن في النص لتلك الآية مكان مناسب الا بعد ما انتهى من تلك الموضوعات.

وبعد ما انتهى النص من تلك الموضوعات جاء بتلك الآية. ولم يترك الآيات التي جاءت للبيان تأخذ مكانها إلا بعدها.

فان الموقف الذي أشرنا اليه كان يتطلب ذلك، بالإضافة الى أن هذا الفصل ما كان ليخدش أو يشوش تلك الصلة القائمة بين تلك الآيات والآيات التي اقتضت ذلك البيان.

بل يبين ذلك للقارئ الوضع التاريخي لتلك الآيات، حيث أنها نزلت منفصلة ونزلت بعد تلك الآيات، التي كانت تنتظر ذلك البيان، بفترة.

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها. فنحمده تعالى ونشكره، ثم نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (٢٤٣-٢٥٢)

قال تعالى :

﴿ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم. من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة. والله يقبض ويبسط واليه ترجعون.﴾

ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله. قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم. والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا. قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم. والله يؤتى ملكه من يشاء، والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين.﴾

قبل أن نخوض فى البحث عن مناسبة تلك الآيات لما قبلها نود أن ننبه الى أمرين لم ينتبه لهما أكثر الناس. ومن هنا صعب عليهم التوصل الى وجوه المناسبة فيها، كما صعب عليهم التوصل الى الرؤية الواضحة لمراميتها وأهدافها.

الأمر الأول:

يقول الزمخشري - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾:

«فان قلت: ما معنى قوله : ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت: معناه فأماتهم، وانما جئ به على هذه

العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، تلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم

أمرؤا بشئ فامتثلوه امتثالاً من غير ابااء ولا توقف. « (١)

ذلك ما قيل فى تأويل هذه الآية، والذي نلاحظه فى عبارات المفسرين - رحمهم الله - هو أنهم جميعاً يجدون أنفسهم أمام اشكال يلح عليهم، وهو: ما هو السبب فى اختيار هذا الأسلوب: «فقال لهم الله موتوا» ولما ذا لم ترد الآية هكذا: «فأماتهم الله ثم أحياهم» مثلما جاء فى نفس السورة فى قصة الذى مر على قرية، حيث قال تعالى: «فأماته الله مائة عام ثم بعثه» ولما ذا اختلف الأسلوب فى الموضعين ان كان مدلولهما واحداً؟

لقد حاول المفسرون - رحمهم الله - أن يتخلصوا من هذا الاشكال بشئى الأجوبة ولكنها لا تخلو من ضعف وتكلف.

ولقد نقل أبو حيان - رحمه الله - عن بعض السلف، أنه قال فى تفسير هذا الموت:

« معنى اماتتهم تذليلهم تذليلاً يجرى مجرى الموت فلم تغن عنهم كثرتهم وتظاهروهم من الله شيئاً ثم أعانهم وخلصهم ليعرفوا قدرة الله فى أنه يذل من يشاء ويعز من يشاء. » (٢)

ويظهر لنا هذا القول أرجح من غيره حين نتأمل فى هذه الآية فى ضوء نظيرها من سورة آل عمران حيث قال تعالى:

«وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. قل موتوا بغيظكم. ان الله عليم بذات الصدور» (٣)

فما أشبه قوله تعالى: «قل موتوا بغيظكم» بقوله تعالى: «فقال لهم الله موتوا»

إذا فليس هناك مانع من أن نستعين بأحدى الآيتين فى تفسير الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

يقول ابن عطية - رحمه الله - فى تفسير «قل موتوا بغيظكم»:

«وقوله تعالى: «قل موتوا بغيظكم» قال فيه الطبرى وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم. قال القاضى أبو محمد: فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة. وقال قوم: بل أمر النبى ﷺ وأمرته أن يواجهوهم بهذا. قال القاضى أبو محمد: فعلى هذا زال معنى الدعاء وبقي معنى التفريع والاغظة. « (٤)

(١) الكشاف: ١ / ٣٧٧ - ٣٧٨

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢ / ٢٥١

(٣) سورة عمران: ١١٩

(٤) المحرر الوجيز: ٣ / ٢١٠

وما لا يخفى أن معنى التقرير والاعاظة جاء فى هذه الآية بزيادة قوله تعالى: «بغضكم» وإذا جاء «موتوا» بدون هذه الزيادة كما جاء فى الآية التى نتحدث عنها، انصرف المعنى من التقرير والاعاظة الى الخذلان وامسك النصر والقاء الحبل على الغارب.

وهذا الذى حصل مع هؤلاء القوم فانهم لما جبنوا ونكصوا وهربوا من الجهاد فى سبيل الله وخرجوا من ديارهم وهم فى كثرة كاثرة وجمع غفير خذلهم الله ووكلمهم الى أنفسهم فبقوا يتيهون فى الأرض عشرين سنة. (١)

ثم تابوا فتاب الله عليهم، وكتب لهم العز والحياة بعد ما طال شقاؤهم وطال هوانهم، حتى صاروا كأنهم أموات.

هذا الذى ذهب اليه أستاذنا الامام أبوالأعلى المودودى والأستاذ السيد محمد رشيد رضا - رحمهما الله - فى تأويل الآية. (٢)

وهذا الذى نميل اليه بحكم سياق الآيات ونظامها، بالإضافة الى ما ذكرنا له من شواهد ومؤيدات، وسيزداد الأمر وضوحا حين نتكلم عن سياق الآيات ونظامها، ونكشف القناع عن وجوه مناسبتها لما حولها.

الأمر الثانى:

ذهب الناس الى أن تلك الآيات، التى نتحدث عنها، تعرض علينا قصتين مستقلتين، لاصلة لاحدهما بالآخرى، حتى قيل انه يفصل بينهما من الزمان ما يقارب مائة عام فأكثر.

ولا ندرى ما الذى ذهب بهم الى هذا الرأى؟

فان كانوا قد لجؤا الى هذا الرأى بسبب روايات واردة بهذا الشأن، فهى كلها لينة الأسانيد (٣)

وهى لا تصلح أبدا لأن يبنى عليها رأى علمى أو يعتمد عليها فى تأويل آية.

وان كانوا قد لجؤا اليه مستنديين الى تكرار (ألم تر؟) فذلك لا يدل على اختلاف القصة واختلاف أبطالها.

فقد يتكرر (ألم تر؟) والقصة هى هى. وأبطالها هم هم. وانما تختلف الجهات التى يراد التنبيه اليها.

(١) انظر سمويل : باب ٧، آية: ٢

(٢) انظر تفهيم القرآن: ١٨٤/١، ومختصر تفسير المنار: ٢٣٢/١

(٣) المحرر الوجيز: ٢٤٦/٢

نأخذ- على سبيل المثال - الآيات التالية:

١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِييَا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ . وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيَا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا.﴾ (١)

٢- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِييَا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا.﴾ (٢)

٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ، بِإِلَهِ يَزْكِي مِنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا.﴾ (٣)

٤- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.﴾ (٤)

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا .. الْخِ﴾ (٥)

فقد تكرر (ألم تر؟) في هذه السورة خمس مرات، مع أن الطائفة المشار إليها واحدة لم تختلف ولم تتغير، وإنما اختلفت الجهات واختلفت النواحي التي يراد التنبيه إليها.

وعلى أية حال فليس هناك أى شئ يجرنا إلى القول بأن تلك الآيات تقص علينا قصتين مستقلتين مختلفتين. بل الراجع أن القصة الواحدة هي التي عرضت علينا مرتين، مرة بالاجمال وأخرى بالتفصيل.

وعرضت في المرة الأولى بسرعة هي أشبه بسرعة البرق، فذكر فيها طرفا الحديث (البداية والنهاية: خذلانهم واسلامهم للموت ثم احيائهم) مع التنبيه على النقاط الرئيسية التي تستفاد من تلك القصة..

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَنْ ذَٰلِ الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً. وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.﴾

ثم عرضت القصة بالتفصيل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. الْخِ﴾

(١) سورة النساء : ٤٤-٤٥

(٢) سورة النساء : ٥١

(٣) سورة النساء : ٤٩

(٤) سورة النساء : ٦٠

(٥) سورة النساء : ٧٧

وكان ذلك أقرب لبلاغة القول، فإن القصة إذا أجملت وعرضت كلمح البرق، توقّد الذهن وتعطّش واستعدّ لتلقى التفاصيل. إضافة الى ذلك أن القرآن لم يقتصر على اجمال القصة، بل شدّ انتباههم الى الأهداف والمعاني التي تعنيهم منها.

وهذا كما يزيد الشوق لهيبا وتأججا، فكذلك يصرف الذهن على النحو الذي تريده القصة ويساعده على الاتعاظ بها أكثر فأكثر.

رأى ابن عباس:

وهذا القول الذي قلناه من كون القصة قصة واحدة، شبيه بما روى عن ابن عباس فقد أخرج ابن جرير عنه - رضى الله عنه - فى قوله تعالى: (حذر الموت) قال: فرارا من عدوهم، حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه. فأمرهم فرجعوا، وأمرهم أن يقاتلوا فى سبيل الله، وهم الذين قالوا لنبيهم: ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ (١)

وكذلك أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى: ﴿ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ يقول عدد كثير خرجوا فرارا من الجهاد فى سبيل الله، فأماتهم الله حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه. ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم فذلك قوله تعالى: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ وهم الذين قالوا لنبيهم: ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ (٢)

ومن هنا نعلم أن ابن عباس لم يكن مع الذين يرون تلك الآيات تتضمن قصتين مستقلتين مختلفتين، وإنما كان يراها قصة واحدة عرضت مرة بالاجمال وأخرى بالتفصيل.

دليل من السياق:

والقرآن نفسه بين لنا هذا بسياقه حيث قال فى نهاية العرض الأول:

﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾.

ثم ختم العرض الثانى بمثل هذا القول:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

لفتة هامة:

وبما نلاحظه فى هذه الآيات أن العرض الأول لهذه القصة - مع قصره وشدة وجازته - تضمن بداية القصة ونهايتها، فهو يذكر أن القوم خرجوا من ديارهم حذر الموت مع أنهم كانوا ألوفاً

(١) تفسير الطبرى: ٥٩٠/٢

(٢) الدر المنثور: ٧٤٣/١

وكان بإمكانهم أن يصمدوا لعدوهم ويذودوا عن ديارهم وكرامتهم، ولكنهم أعطوهم ظهورهم فأسلمهم الله للموت والهوان لما استسلموا لعدوهم ، ثم أحياهم.

لقد تناول القرآن هذه الأمور كلها بايجاز سريع معجز، وضمنها فى آية واحدة قصيرة. ثم بدأ العرض الثانى، فلم يتناول من تلك الحلقات كلها الا الحلقة الأخيرة، وهى احيائهم بعد موتهم.

وفصلت هذه الحلقة الأخيرة تفصيلا حتى خيل الى الناس أنها واقعة أخرى مستقلة، وما هى واقعة مستقلة، وانما هى حلقة من الحلقات ليس الا.

والسر فى ذلك أن القرآن ماساق هذه القصة من ناحية تاريخية بحتة حتى يفصل لنا جميع حلقاتها. وانما ساقها لحكمة أرادها، وهى تنبيه الناس الى سر الحياة ومقوماتها، وتنبيههم الى دواعيها وأسبابها، فلم يفصل من أطراف القصة أو من حلقاتها الا ما كان يخدم هذه الغاية.

فقول بنى اسرائيل لنبي لهم: ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ لم يكن الا بادرة من بوادر الحياة، أو خطوة أولى فى درب الحياة.

ولقد نبه اليه القرآن مسبقا بعد ما انتهى من العرض الأول لهذه القصة وقبل أن يشرع فى العرض الثانى لها:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم.﴾

فكان أن اندفع القوم وساروا فى هذا الدرب ومضوا حتى نالوا ماكانوا يفقدونه من حياة عزيزة كريمة:

﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾

مناسبة تلك الآيات لما قبلها:

وبعد هذه المقدمات نتوجه الى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها.

لقد علمنا قريبا أن قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ جاء على طريق العود على البدء، وأنه ناظر الى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة. ان الله مع الصابرين.﴾

ولقد بينا هناك أن هذا الأسلوب الذى استخدمه القرآن، وهو أسلوب العود على البدء، يبين لنا مكانة الصلاة وأهميتها فى دين الله بيانا عجيبا. ويبين لنا أن الصلاة هى أداة المؤمن وسلاحه وهى زاده وغذاؤه، وهى منطلقه ومنتهاه. والأمة التى تترضى لنفسها ملة ابراهيم وتريد أن تقوم بمهمتها المرتقبة فى أداء هذه الرسالة العظمى، لايد أن تكون الصلاة عنوان حياتها، ومصدر قوتها ونشاطها، حتى تستطيع أن تسيطر على الظروف وتلك زمام الموقف.

وهذه نكتة لا يدركها الا من ذاق طعم الايمان وخالطت بشاشته قلبه وأصبحت الصلاة قُرّة عينه ومتعة روحه. وأما من كان دون ذلك ممن أسلم ولم يحسن اسلامه وصلى وهو فى سهو عن صلاته، فلا يمكن أن يرتفع بعقليته الى ذلك المستوى الرفيع، ولا يمكن أبدا أن يدرك تلك النكتة ويقبلها عن طمأنينة وقناعة.

وقد بينا قبل ذلك أن وجه الخطاب فى هذه الآيات بل فى معظم هذه السورة الى هذا الصنف الخاص من الناس، الذين أعلن عنهم القرآن فى مستهل هذه السورة حيث قال:

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ (١)

ومن هنا لا يستبعد أن تكون قد ثارت فى الأذهان بتلك المناسبة هذه التساؤلات الساخرة: كيف الاستعانة بالصبر والصلاة؟

وهل يجدى الصبر والصلاة إذا أقبلت الينا جحافل الأعداء ؟

وما ذا يغني الصبر والصلاة عن العدد والعدة، حتى نستعين بالصبر ونحافظ على الصلاة؟

ان الصلاة - بلاريب- لا تقدم شيئا ولا تؤخر فلماذا هذا التركيز عليها؟

ان موقع هذه الآيات ونظمها وسياقها ولونها وأسلوبها، كل ذلك يوحي الينا أن مثل هذه التساؤلات ثارت فى تلك الأذهان المريضة، وكان طبيعيا أن تثور.

فجاءت تلك الآيات تعالج هذه التساؤلات بأن قصت عليهم قصة من قصصهم التى كانت معروفة عندهم، وكان أبلغ وأقوى رد على تساؤلاتهم:

﴿ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟﴾

ألم تر؟ انه للتشنيع والتفطيع وليس للتعجيب كما قيل .

فالفعلة كانت شنيعة وفظيعة حقا، أن يحذروا الموت ويخرجوا من ديارهم وهم ألوف!

وإذا كانت المواقف تكسب بالعدد والعتاد فلماذا خرج هؤلاء من ديارهم وهم بذلك العدد الضخم الهائل؟! فقد قيل انهم كانوا ثمانين ألفا، وان كان هناك من يقول: انهم كانوا أربعين ألفا أو ثلاثين ألفا. (٢)

وعلى أى تقدير فقد كانوا فى عدد ضخم هائل بلاشك. ومع ذلك خرجوا من ديارهم وحذروا الموت ولم يقفوا حتى يجابهوا العدو.

هذه واحدة.

(١) سورة البقرة: ٨

(٢) انظر المحرر الوجيز: ٢ / ٢٤٧

ومرة أخرى: لما فصل بهم طالوت لى يجاهد معهم جالوت وجنوده، جن هؤلاء وأحجموا ورفضوا بكل وقاحة أن يستجيبوا للملكم وزعيمهم فى ذلك الموقف الحرج، مع أنهم هم الذين اقترحوا على نبيهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه فى سبيل الله.

فلماذا جن هؤلاء ولما إذا أحجموا عن القتال، فالقتال لم يفرض عليهم فرضا، وإنما كان ما كان على طلب منهم؟

هل فعلوا ذلك لأنهم كانوا فى قلة؟ كلا! فقد كانوا يومئذ على أقل تقدير سبعين ألفا والا فقد قيل: ثمانين ألفا، وقيل: مائة ألف. (١)

ومع ذلك هم خافوا وهابوا وجبنوا ونكصوا وقالوا بكل وقاحة:

«لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده».

ثم ماذا صار؟ الحفنة القليلة من المؤمنين الخاشعين المصلين، الذين يخافون أنهم ملاقو ربهم، والذين لم يكن عددهم يتجاوز ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا، (٢) نادوا ربهم واستعانوا به:

«ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».

ثم اقتحموا المعركة وحققوا انتصارا رائعا على عدوهم:

(فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء).

وهكذا كانت تلك القصة ردا وأفيا مسكتا على تساؤلاتهم، وكانت دليلا واضحا على أن القوة هى قوة الايمان، وهى التى تصنع الأعاجيب على أيدى رجال قليل عزل. وإذا لم تكن هذه القوة فالألوف المؤلفة والجحافل المدججة تصبح غشاء كغشاء السيل.

ومن هنا تبرز أهمية قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة».

وقوله تعالى:

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين».

ومن هنا نعرف الحكمة فى عدم اعفاء المسلمين عن الصلاة فى أى حال من الأحوال حتى ولو كانوا فى حومة الهيجا:

(١) زاد المسير: ٢٩٧/١

(٢) أخرج ابن جرير بسنده عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر (أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاث مائة وبضعة عشر رجلا. انظر: تفسير الطبري: ٦٢١/٢

﴿فإن خفتهم فرجالا أو ركبانا، فإذا أمنتم فانذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

وتزداد روعة هذه القصة ويزداد وقعها في النفوس حين ندرك انسجامها الكامل مع الجو، وندرك أن الذين سبقت لهم القصة ردا على تساؤلاتهم لم تكن معنوياتهم تختلف عن معنوياتهم، بل كانت تشاكلها تماما في ضعفها وانهارها، وهم أيضا كانوا يحذرون الموت كما كان يحذر أسلافهم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف.

ولقد رسم القرآن حذرهم في مطالع هذه السورة كما رسم حذر أسلافهم في آخرها، فقال:

﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت. والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا. ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم. إن الله على كل شيء قدير﴾.

ولقد تناولنا هذا التمثيل الرائع المثير بالبيان والتفصيل في موضعه فلا داعي لأن نعود إليه. وأيضا مضى معنا قوله تعالى في أثناء أسئلته المتكررة:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وهذا أيضا يعطينا صورة واضحة عن الخوف والهلع الذي كان يعاني منه هؤلاء القوم. هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإنا إذا وقفنا عند تلك الآيات وقفة امعان وتأمل وجدناها في صورتها العامة وكأنها جاءت بيانا وإيضاحا لتلك المجموعة من الآيات التي ترتبط بها على سبيل العود على البدء.

فقد مضى معنا قوله تعالى في تلك المجموعة : ﴿إن الله مع الصابرين﴾. (١)

وهنا نرى مثالا عمليا وشاهدا منظورا لذلك الوعد الإلهي الكريم، حيث إن الحفنة القليلة من المؤمنين الخاشعين من أصحاب طالوت لما واجهوا الموقف بصبر وصمود، من غير وهن ولا ضعف ولا استكانة، وانقطعوا إلى الله انقطاعا كاملا متجهين إليه بهذا الدعاء الضارع الخاشع:

﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

أنجز الله وعده فأفرغ عليهم الصبر وأنزل عليهم النصر:

﴿فهزمهم بآذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾.

مع أن الأسباب الظاهرة كلها كانت تبدو ضدهم وكانت تقضي عليهم بالنكسة والهزيمة.

و هكذا نرى هذه الآيات قد جاءت تفسر لنا تفسيراً عملياً قوله تعالى في تلك المجموعة

السابقة: ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

وأيا مضى معنا قوله تعالى في تلك المجموعة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

فنبهت هذه الآية بشكل اجمالى الى سنة من سنن الله فى أهل الدعوة ، وهى الامتحان والابتلاء . ونبهت الى أن المؤمنين سيجتازون - ولا بد - هذا الابتلاء فى أشكاله المتنوعة .

ثم جاء السياق هنا بمثال عملى يوضح لنا أبعاد هذا الابتلاء ويشخص حكمته وأهميته فى قوم يريدون أن ينهضوا بأعباء الدعوة:

﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم . فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .. الآية﴾

فندرك من هذا المثال أن الابتلاء - مع مرارته - كان طهارة لتلك الجماعة المؤمنة الصابرة من العناصر الفاسدة . وهو الذى حفظ لتلك المعركة ميزتها وحفظها من أن تتحول الى مأساة مخزية .

وبعبارة أخرى، ان الابتلاء هو الذى جلب النصر لتلك الفئة القليلة المؤمنة ، وحول تلك المعركة الحاسمة الى بطولة من البطولات الغذة الرائعة لتلك الجماعة .

ثم هناك شئ آخر نود أن ننبه اليه فى سياق مناسبة هذه الآيات لتلك وهو أن ذلك الصنف الخاص من الجماعة المسلمة الذى وجه اليه الخطاب فى تلك الآيات، لما سمع قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ . بَلْ أحياء ولكن لا تشعرون .﴾

فكأننا نراه قد استغلّق عليه ذلك القول واستعصى عليه فهمه فان القتل والحياة فى بادئ النظر شيان متناقضان لا يجتمعان، فكيف يجوز أن يقتل ناس ثم يقال انهم أحياء!

ومن هنا اقتضى المقام أن تبين للناس حقيقة الموت والحياة . فجاءت تلك الآيات تبين للناس هذه الحقيقة وترتفع بمداركهم من أفقها المعهود الى أفق أعلى وأوسع .

ولا شك أن هذه القصة، التى قصها القرآن علينا فى تلك الآيات كانت مادة صالحة وأداة طيبة لتقريب هذه الحقيقة الى الأذهان .

فالقوم لما هربوا فى المرة الأولى من الجهاد وخرجوا من ديارهم حذر الموت، دخلوا فى قائمة الأموات بمجرد هروبهم من الموت، ولو كانوا يأكلون ويشربون ويمشون ويركضون .

فان الذى يهرب من الموت يوفر دليلا على أنه ميت قبل أن يموت، وأنه لم يذق طعم الحياة . ولم يعرف ماهو الموت وما هى الحياة .

فان الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب أو المشى والحركة وما الى ذلك كما أن الموت ليس عبارة عن انعدام هذه الأمور .

وانما الحياة عبارة عن الاتصال بمن يملك الموت وملك الحياة، ويوزعهما كيف يشاء. فمن اتصل بمن يملك الموت وملك الحياة وجاهد فى سبيله حتى نال رضا فقد كسب الحياة، وهو حي، سواء عاش على ظهر الأرض أم توارى تحت التراب.

وهؤلاء هم الذين يعيشون وهم أحياء ويموتون وهم أحياء !
والذين يقاتلون ويستमितون فى سبيل الله ينتصرون على الموت، قبل أن ينتصروا على أى شى آخر.

فان قتل هؤلاء فليس معنى ذلك أنهم فارقوا الحياة أو حرموا من الحياة، أو اختطفهم الموت وذهبوا أدراج الرياح. وانما الواقع أنهم نالوا الحياة فى أروع صورها وأحلاها وان كنا لا نراها ولا نشعر بها.

وتلك الحياة هى التى تطول وتمتد، وتنمو و تزدهر، ويصحبها العز والمجد وتصحبها الكرامة والشرف.

وأما الحياة التى تنقطع عن أصلها ولا تعرف خالقها وواهبها، فهى تكون أقرب الى الموت منها الى الحياة. وهى التى تهاب الموت وتخشى الجهاد، وتبقى ما تبقى فى ظل الذل والهوان وسخط الله. وهذه الحقيقة التى أشار إليها القرآن حيث قال: ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾.

قال لهم ﴿موتوا﴾ لما هابوا الموت وهربوا من القتال فى سبيل الله.
ثم لما انتبهوا وأفاقوا وتداركوا ما فاتهم وخاضوا معمة القتال فى سبيل الله كتب لهم الحياة وآتاهم الملك والحكمة وعلمهم بما يشاء:

﴿فهنأموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾
فالخياة والملك والعلم والحكمة كل أولئك من خيرات الجهاد وبركات القتال فى سبيل الله.
والأمة المجاهدة هى التى تملأ أيديها من هاتيك النعم، وتعيش ما عاشت عزيزة كريمة متدفقة بالحياة وأسباب الحياة.

والجدير بالذكر أن القرآن كما يصرح بحياة المجاهدين فى سبيل الله فى هذه الدنيا وفيما بعدها، يصرح بموت من كفر بالله واستغنى عنه فى هذه الدنيا وفيما بعدها كما نرى فى تلك الآيات:

- ١- ﴿انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين﴾. (١)
- ٢- ﴿ولئن أرسلنا ريحا فראوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون. فانك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين﴾. (٢)

(١) سورة النمل : ١٨.

(٢) سورة الروم : ٥١-٥٢

٣- ﴿أَوَمِنْ كَانَ مِيتًا فَأُحْيَيْنَاهُ:وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (١)

٤- ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ. وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (٢)

فتلك الآيات كما أنها تحكم على الكفار بأنهم أموات في هذه الدنيا، وإن كانوا- حسبما ترى العين- أحياء. يمشون ويتحركون، فكذلك تخبر عن كونهم أمواتا في الآخرة، بحيث يأتيهم الموت من كل مكان، إلا أنهم لا يموتون ليلوقوا العذاب فهم يكونون أحياء وكأنهم أموات.

وبهذا نعلم أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة في هذه الدنيا وفي الآخرة. والأمة المجاهدة هي التي تذوق لذة الحياة في الدارين.

وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتتعد عن مهمة القتال في سبيل الله، فلاحظ لها من الحياة. وانما لها الموت، كماحصل مع بنى اسرائيل في فترات من تاريخهم ، وكما يحصل معنا اليوم، فالى الله المشتكى!

والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها، نتوجه الى ما بعدها.



(١) سورة الأنعام: ١٢٢

(٢) سورة ابراهيم: ١٥-١٧

نظم الآيتين (٢٥٣-٢٥٤)

قال تعالى:

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض. منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاعتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة. والكافرون هم الظالمون.﴾



لقد أشكل على الناس وجه ارتباط الآية الأولى بما قبلها. ولم نجد عند أحد منهم ما يسمن أو يغنى من جوع.

فعموم المفسرين - رحمهم الله - لم يطرقوا رأسا هذا الموضوع. والذين طرقوه مثل الامام الرازى والامام أبى حيان فهم أيضا لم يعطوه من الاهتمام ما كان يستحقه. والذي نلاحظه فى مقالهما هو أن أحدهما يركز على مطلع الآية دون بقية أجزائها (١) والثاني يلتبس للمناسبة وجها لا ينسجم مع جو الآية ومضمونها، بالاضافة الى أنه لم يكن دقيقا فى مراعاة معنى الاقتتال. (٢)

والاقتتال هو الذي تركز عليه الآية، حيث جاء ذلك متكررا فيها:

﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد جاعتهم البينات﴾

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾

فان ذهلتا عن معنى الاقتتال فسيرميننا هذا بعيدا عن هدف الآية ومضمونها، كما حصل مع أبى مسلم وغيره من المفسرين - رحمهم الله -.

تحقيق معنى (الاقتتال):

ومن العجيب أن كتب اللغة والتفسير لاتسعتنا بالمقصود اذا أردنا أن نعرف الفرق بين القتال والاقتتال. وبالعكس نرى المفسرين - رحمهم الله - قد خلطوا بعضهما ببعض.

والذي يترجع عندنا فى معناهما بعد تقصى استعمالتهما، هو أن الاقتتال يكون دائما بدافع المصالح الشخصية العارضة أو الحزازات الجنسية المقوتة، ولا يكون وراءه هدف رفيع أو غاية نبيلة.

(١) تفسير البحر المحيط: ٢٧٢/٢

(٢) التفسير الكبير: ١٩٤/٦ - ١٩٥

أما إذا كان هناك هدف رفيع أو غاية نبيلة، وكانت الحرب بالدافع الديني النزيه، كما تكون بين
الايان والكفر والحق والباطل فان ذلك يسمى قتالا وليس اقتتالا.
وعلى هذا فالأقتتال يكون دائما شؤما على المجتمع، ولا يأتي الا بالهلاك والدمار والشر
والفساد.

بينما القتال يكون خيرا ورحمة وهناء وسعادة إذا كان بدافع الإصلاح ودفع الفساد.
ولذلك نرى القرآن كلما دعا الى محاربة الكفر أو مقارعة الباطل، فانه يستعمل لفظ (القتال)
دون (الأقتتال).

ولقد استعمل القرآن لفظ (القتال) فى موضع المدح أو التحريض فى مختلف صيغه ومشتقاته
أكثر من أربعين مرة، ولكن لم يستعمل لفظ (الأقتتال) الا أربع مرات وكله فى موضع الذم
والاستنكار، وهو كما يلى:

١- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾

٢- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

٣- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ. هَذَا مِنْ شِيعَةِ
وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ.﴾ (١)

٤- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾. (٢)

أما الموضعان الأولان فسيستوضح أمرهما باذن الله حين نتناول تلك الآية فى ضوء سياقها.
وأما الموضعان الأخيران فهما واضعان فى معنى الذم والاستنكار، وليسا بحاجة الى بيان أو
إيضاح.

الا أننا نريد أن تكون لنا وقفة قصيرة عند الموضع الرابع وهى آية الحجرات. فانها جمعت
الكلمتين- الأقتتال والقتال - فى مكان واحد. وبذلك تساعدنا على ادراك الفرق بينهما. وقام الآية
هكذا:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا. فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى
فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا. إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.﴾

فالشئ الذي نلاحظه فى تلك الآية هو أنها توجه الجماعة المسلمة الى الإصلاح بين الطائفتين
المقتتلتين من المؤمنين:

(١) سورة القصص: ١٥

(٢) سورة الحجرات: ٩

وهذا يدل على أن الاقتتال يكون فى أصله ومن أول أمره مبنيا على الفساد و يؤدي الى الفساد . فأمر المسلمون ان يقضوا على هذا الفساد قبل أن يتفاقم أمره بأن يصلحوا بين هاتين الطائفتين . ثم ان حدث أن رأوا البغى وعدم الاستجابة لدعوة الإصلاح من احدى الطائفتين فهناك أمروا بالقتال - لا الاقتتال - ضد تلك الطائفة الباغية حتى تنفى الى أمر الله وحتى يتمكنوا من اقامة القسط والإصلاح بينهما بالعدل.

وهذا الاختلاف فى الاستعمال يكسب لفظ (القتال) نوعا من السمو والشرف والنزاهة، ويجعله نظير الكلمة (الجهاد) بخلاف الاقتتال فانه مقبوح مرذول، ولا يأتى الا بالويل والثبور . وحين لنا بعد هذا الايضاح أن ندلى بدلونا فى بيان مناسبة تلك الآية لما قبلها .

لقد مضى معنا فى نهاية الفقرة السابقة قوله تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ. وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ. وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ. وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ. وَاتَّكَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ.﴾

تلك النهاية تعلمنا أن الله ما أرسل من أرسل من الرسل الا ليظهر الأرض من الفساد . وكان القتال فى سبيله جزءا من وظيفتهم، حتى يتمكنوا من القيام بهذه المهمة العظمى . و بما أن محمدا - عليه الصلاة والسلام - منهم، فلا غرو أن ينظم صفوف القتال و يقيم علم الجهاد، كما فعله اخوانه من قبل.

وكما أن أصحاب طالوت لما استعانوا بالله وصبروا كسبوا المعركة ضد عدوهم، على الرغم من كثرة عددهم وعددهم، ف كذلك ستكون الغلبة لأصحاب محمد . وسيهزم الجمع ويولون الدبر . وهذا كما أنه تنبيه للفريق الذين كانوا يكرهون القتال و يفرون من الجهاد خوفا من الموت ف كذلك تقريع و تسفيه لفريق آخر منهم، قد ملأتهم السفاهة والعنجهية والعصبية المنتنة الخبيثة، فكل واحد منهم تعصب لرسوله الذي ينتمى اليه . وأبى أن يؤمن برسول غيره، محتجا بأن رسوله أفضل من غيره.

فزعمت اليهود - مثلا - أن موسى أفضل من غيره ، فان الله خصه بميزة لم يخص بها غيره، حيث كلمه تكليما . وهذا شرف يتفرد به موسى ولم يحصل لأحد سواه . وزعمت النصارى أن عيسى أفضل من غيره لما أن الله آتاه من البينات، ما لم يؤت أحدا غيره، فكلم الناس فى المهدي، وكان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص الى آخر ما هنالك من الآيات البينات . وبناء على هذا افتخرت كل طائفة منهما على غيرها .

ف قالت اليهود: ﴿ليست النصارى على شئ﴾

وقالت النصارى: ﴿ليست اليهود على شئ﴾

وقالت اليهود: ﴿لن يدخل الجنة الا من كان هودا﴾

وقالت النصارى: ﴿لن يدخل الجنة الا من كان نصارى﴾

وقالت اليهود: ﴿كونوا هودا تهتدوا﴾

وقالت النصارى: ﴿كونوا نصارى تهتدوا﴾

وقالت اليهود: ﴿نحن أبناء الله وأحبائه﴾

وقالت النصارى: ﴿نحن أبناء الله وأحبائه﴾

وهذه العنجهية والفطرسية والعصبية المنتنة الخبيثة كما زرعت العداوة والبغضاء فى قلوب بعضهم لبعض، وأدتهم الى اقتتال ضروس فيما بينهم، فكذلك صدتهم عن الايمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام - حين جاءهم ، وحملتهم على الكيد والمكر بهذه الدعوة الناشئة المباركة التى بشر بها موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - قبل ظهورها بقرون.

ولقد مضت الاشارة الى هذه الطائفة الباغية فى نفس السورة بصفتها تلك حيث قال تعالى:

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة. والله يورث من يشاء بغير حساب . كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه. والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم.﴾ (١)

وهذه الطائفة هى التى قرأنا عنها فى مطلع السورة:

﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.﴾ (٢)

وهذه الطائفة التى يصورها التمثيل القرآنى المثير بهذه الصورة القائمة المخزية:

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاعت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ (٣)

فجاءت تلك الآية تبرهن عن سفاهتهم وسوء تصرفهم.

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية .

(١) سورة البقرة: ٢١٢-٢١٣

(٢) سورة البقرة: ٦-٧

(٣) سورة البقرة: ١٧-١٨

ان هؤلاء الرسل كلهم أسرة واحدة. كلهم رسل الله. وكل أوتى من الفضل ما كان يناسبه ليكون له عوناً فى أداء مهمته. فالفضل موزع عليهم وليس موقوفاً على أحد منهم.

إذا فليس من المعقول أن يكون هذا الأمر مبعث خصام ونزاع وصراع فيما بين أتباعهم، حتى يفضى ذلك الى الكيد للحق وأهله والى الكيد لرسل الله على رغم ما جاءهم من البينات.

وبالعكس كان من واجبه أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويحشدوا طاقاتهم للمهمة التى بعث لأجلها هؤلاء الرسل، وهو القتال فى سبيل الله، حتى يتحطم الطاغوت ويحول الفساد من الأرض.

وكان من واجبه كذلك أن يكونوا أول مستجيب لرسلهم يأتهم من عند ربهم ولكنهم عكسوا الأمر فأخذوا يقتتلون فيما بينهم، وكلما جاءهم رسول كذبوه، وبذلك أسهموا فى نشر الشر وجلب الفساد، على خلاف ما كان ينتظر منهم.

فاذا عدل هؤلاء عن الطريق وتخلوا عن مهمتهم، فإنهم لا يضررون الا أنفسهم، فان الله ذو فضل على العلمين. وهو، لا محالة، دافع هؤلاء المفسدين بأيدى هؤلاء المؤمنين، حتى لا تفسد الأرض، ويبقى لها صلاحها وخيرتها.

ولما انتهى النص من تنبيه هاتين الطائفتين من بنى اسرائيل أزجى الى المؤمنين هذه النصيحة الغالية.

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾.

ان مناسبة هذه الآية لما قبلها تتجلى بوضوح حين ندرك أن المرض الذى كانت تعاني منه الطائفة الأولى- وهو حذر الموت أو كراهية الموت، والمرض الذى كانت تعاني منه الطائفة الثانية -وهو البغى والخصام، كان منشأهما حب المال وحب الدنيا.

ونستدل على الأول بما قالته الطائفة الأولى، حين قال لهم نبيهم: ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا: ﴿قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾.

فكان هؤلاء القوم يقيسون كل شئ بمقياس المال، وكانوا يزنون الأمور بهذا الميزان، وكان المال قد ملك عليهم لئهم، حتى لم يهودوا يتصورون أى ميزة أو أى شرف فى رجل لا تتراكم عنده الأموال.

فهذا الحب الجَم للمال هو الذى أصابهم بداء الجبن وكراهية الموت، وحملهم على أن يقولوا بكل وقاحة:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

ونستدل على الثانى بقوله تعالى - وقد مر آنفا- :

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا. والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة. والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

هؤلاء الكفار هم الذين كانوا يعانون من داء البغى وكانوا يختلفون ويقتتلون من بعد ما جاءتهم البينات، كما تصرح به الآية التى بعدها:

﴿كان الناس أمة واحدة. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه. والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم﴾.

فهؤلاء الكفار كانوا يسخرون من الذين آمنوا لأنهم زينت لهم الحياة الدنيا ، وكانوا مغترين بما يملكون من شهواتها وزخارفها، فى حين كان فيه المؤمنون يعانون من الجوع وشظف العيش ما كانوا يعانون، ولم يكونوا يملكون قوت يومهم أو ليلتهم.

وبالجملة فداء الجبن وداء البغى كلاهما ينشآن من حب المال وحب الدنيا. فبعد ذكر هذين الداءين ذكر دواؤهما، وهو الاتفاق فى سبيل الله أو الاتفاق لوجه الله.

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما نتوجه الى ما بعدهما.



نظم الآيات (٢٥٥-٢٦٠)

قال تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ. لَهٗ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. لَا أُكْرَاهُ فِي الدِّينِ. قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ. فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِي يَحْيِى وَيُمِيتُ. قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ. فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ. قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِى، قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.﴾

لقد مر معنا فى الفقرة السابقة أن يوم القيامة لا يكون فيه بيع، ولا تجدى فيه خلة خليل ولا شفاعة شافع، فانتبهز السياق هذه الفرصة السانحة، وجاء بعدها مباشرة بآية الكرسي، وهى أجمع آية وأشملها وأقواها فى ابطال الشفاعة وتهديم بنيانها، فان الشفاعة التى يعتقدها الغافلون أو الكافرون الظالمون تتعارض تعارضا مباشرا مع صفات الله وأسمائه الحسنى.

هى تتعارض مع قدرته الكاملة وسلطته الواسعة ومراقبته الدقيقة وعلمه المحيط، الذى لانهاية له.

فانها لا تتصور الا اذا فترضنا - والعياذ بالله - أنه تعالى ينقصه العلم وهو لا يحيط بكل شئ علما، اذا فالمجال مفتوح أمام الشافعين حتى يقوموا بوظيفتهم ويزكوا من يشاءون من أوليائهم، كائنا ما كان وضعهم.

أو افترضنا - والعياذ بالله - أنه تعالى لا يملك السلطة الكاملة الواسعة المطلقة، وأن هناك من يتدخل فى حكمه ويرغمه على ما يريد من عفو أو عطاء.

فجاءت هذه الآية تنفى هذه الشبهات وتنفى تلك الشفاعة التي كانت قائمة على هذه الشبهات.
هذه ناحية:

ومن ناحية أخرى فأننا علمنا قبل قليل أن قصة طالوت جاءت تكشف عن حقيقة الموت والحياة.
وهي تبين لنا - فيما تبين - أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة. والأمة المجاهدة في
سبيله، المتصلة به هي التي تذوق لذة الحياة، وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتقعده
عن الجهاد فلا حظ لها من الحياة، وإنما لها الموت.

والآن نرى الكلام عاد الى هذا الحديث مرة أخرى، حتى يفصله تفصيلاً بعد ما أومأ إليه إمامنا.
وبيانه أن الله هو الحي القيوم، فهو الذي يملك الحياة وينح الحياة وهو القائم بأمر العباد والبلاد.
فمن كان يريد الحياة والبقاء فليسرع اليه، ولا يعدل عنه الى غيره، فان فاقد الشيء لا يعطيه:
«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها».
ثم جاءت ثلاثة أمثلة، كلها تتصل بموضوع الحياة والاحياء لتؤكد للناس هذه الحقيقة الهامة،
وترسخها في أذهانهم.

ولكى نعرف موضع الاستدلال في تلك الأمثلة الثلاثة، لابد أن نتأمل في كل جزء من أجزائها،
ونستلهم دلالاتها وإيحاءاتها، فان ذلك سيساعدنا في استيعاب أبعادها وملابساتها، كما يساعدنا في
التماس مناسبتها لما قبلها.

القصة الأولى:

يظهر لنا بالتأمل في القصة الأولى أن سيدنا ابراهيم - عليه السلام - جهر بكلمة الحق عند
الملك الذي كان قد استولى على رقاب الناس في تلك الأيام، وكان قد استعبدهم ظلماً وعدواً،
وأرغمهم على أن يتخذوه الها لهم من دون الله.

ذهب اليه ابراهيم وصدع أمامه برسالة التوحيد، وبين له أنه عبد من عباد الله ليس إلا، فلا يحق
له أن يرغم الناس على عبادته وينازع الله في ألوهيته وسلطانه.

فاغتاض الملك لهذا الكلام وتوعده وهذبه بالقتل، فلم ينل هذا التوعد وهذا التهديد من ابراهيم
شيئاً، ورد عليه بجرأة المؤمن الواثق بربه: «ربى الذي يحيى ويميت» أى هو الذي يملك الموت
والحياة، وهو المتصرف في أعمار الناس، ومثلك لا يقدم شيئاً ولا يؤخر.

وهناك أخذته العزة بالاثم وانتفخ وتبجح وقال: «أنا أحيى وأميت» أى أنا المتصرف في أعمار
الناس، وأنا أملك الموت والحياة. فأحكم لمن أشاء بالحياة وأحكم لمن أشاء بالموت. وإذا أردت أن أمحو
إنساناً وأمحو آثاره فليس هناك من يمسك بيدي ويمنعني مما أريد.

حينئذ دخل عليه ابراهيم من مدخل آخر وقال: ان كنت تملك الموت والحياة، فهذه الشمس يأتى

بها الله من المشرق فأت بها من المغرب.

ومعلوم أن هذا النظام الذي تجري عليه الشمس له ارتباط مباشر بحياة هذا الكون. وإذا أراد الله أن يطوى هذا الكون ويفنى هذا العالم، فحينئذ تطلع الشمس من المغرب.

فطلوع الشمس من المشرق آية الحياة فى هذا الكون، كما أن طلوعها من المغرب سيكون دليلاً على فناءه وخرابه.

فلما طلب منه إبراهيم أن يأتى بالشمس من المغرب فكأنه قال له: ان كنت تملك الموت والحياة، فتصرف فى حياة هذا الكون، واحكم عليه بالموت!

وكانت هذه حجة ظاهرة على أن الله هو الحى القيوم، وهو الذى يملك الموت والحياة. وما كان فى حساب الملك أنه سيؤتى بهذا الشكل، فأفحم وبهت:

«فبهت الذى كفر. والله لا يهدى القوم الظالمين»

القصة الثانية:

مر رجل على قرية. وكانت هذه القرية - كما يبدو من السياق - قرية أهل الحق. فدمرها أعداء الله.

ولقد ورد فى الروايات أن القرية هى بيت المقدس. والذى دمرها هو بختنصر. يقول الامام ابن الجوزى - رحمه الله:-

«وفى المراد بالقرية قولان. أحدهما: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، قاله وهب وقتادة والريبع بن أنس.» (١)

فقال هذا الرجل لما رأى هذه القرية وما بها من دمار وخراب:

«أنى يحيى هذه الله بعد موتها»

والذى يترجع عندنا فى شأن هذا الرجل، هو أنه كان من الكفار، وهو بما روى عن مجاهد - رحمه الله: (٢)

الدليل الأول:

وما يدل على ذلك هو سياق الكلام نفسه، كما أشار إليه الإمام الزمخشري - رحمه الله - حيث قال: «أو كالتى: معناه: أو رأيت مثل الذى مر، فحذف لدلالة ألم تر عليه، لأن كلتيهما كلمة تعجيب، ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ كأنه قيل: رأيت كالتى حاج إبراهيم أو كالتى مر

(١) زاد المسير: ٣٠٨/١

(٢) زاد المسير: ٣٠٩/١

على قرية. والمار كان كافرا بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع غرود فى سلك، ولكلمة الاستبعاد، التى هى أنى يحى؟! (١)

وهذا الدليل الذى استدل به الزمخشري قوى ووجيه ولا شك.

الدليل الثانى:

ثم ان تقصى هذا الأسلوب - أى الأسلوب الذى وردت عليه الآية من قوله تعالى: ﴿أو كالذى مر﴾ يزيدنا ركونا الى هذا الرأى ويجعلنا نقطع بصحته، فان (الذى) وأخواتها كلما جاءت فى القرآن بدون ذكر موصوفها مصحوبة بـ «أرأيت» أو «ألم تر» أو «الكاف الجارة» وما شابه ذلك، فانها تتضمن معانى السخط والاعراض والاستحقار، ولا يقصد بها الا العصاة المتمردون المستكبرون.

ولا بأس بأن نمر هنا على بعض الأمثلة، قال تعالى:

﴿كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾. (٢)

﴿كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ (٣)

﴿كالذى استهوت الشياطين فى الأرض حيران، له أصحاب يدعونه الى الهدى انتن﴾ (٤)

﴿ألم ترالى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دارالبوار﴾. (٥)

﴿ألم ترالى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن اتاه الله الملك﴾ (٦)

﴿ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾. (٧)

﴿ألم ترالى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ (٨)

﴿أرأيت الذى يكذب بالدين. فذلك الذى يدع اليتيم﴾. (٩)

﴿أفأرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى﴾. (١٠)

(١) الكشف : ٣٨٩/١

(٢) سورة الأنفال: ٤٧

(٣) سورة البقرة: ٢٦٤

(٤) سورة الأنعام: ٧١

(٥) سورة ابراهيم: ٢٨

(٦) سورة البقرة: ٢٥٨

(٧) سورة البقرة: ٢٤٣

(٨) سورة الحشر: ١١

(٩) سورة الماعون: ٢-١

(١٠) سورة النجم: ٣٣-٣٤

هذه الأمثلة كلها تعزز الرأى القائل بأن الذي مر على القرية كان من الكفار، بل لا يبعد أن يكون بختنصر هو الذى قال هذه الكلمة الطاغية بعدما دمر تلك القرية، ثم خرج يتفرج عليها.

وعلى أية حال، فانتظامه مع غرود فى سلك واحد ان دل على شئ فإنما يدل على أنه كان من طراز غرود، وكان ممن أطفاهم الملك فتجراً على الله واستهزأ بقدرته، وزعم أن الله لا يملك أن يعيد لتلك القرية ما فقدتها من الحياة والمجد والكرامة والملك.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ قال: أنى تعمر هذه بعد خرابها؟ (١)

ولم يكن هذا السؤال سؤال استفهام أو استفسار أو استزادة علم واطمئنان كما زعمه كثير من الناس، وإنما كان ذلك انكاراً وتآمداً واستبعاداً واستهزاءً بقدره الله.

فلما استهزأ هذا الطاغية بقدره الله شاءت حكمته - تعالى - أن تريه قدرته الواسعة المطلقة فى نفسه، فأماته مائة عام ثم بعثه.

بعثه بعد مائة عام ليريه أن تفكيره وتقديره كان خطأً مائة فى المائة، فان تلك القرية المدمرة الخاوية على عروشها قد تحولت فى خلال تلك الفترة من موت الى حياة، ومن ضعف الى قوة، ومن ذل وهوان الى عز وسلطان.

فقد روى أن الله بعث الى تلك القرية من عمرها ورد اليها جماعة بنى اسرائيل حيث كملت على رأس مائة سنة. (٢)

وروى أن الله بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويجد فى ذلك، حتى كان كمال عمارتها عند بعث القائل: ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ (٣)

وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن وهب بن منبه قال: ان أرميا لما خرب بيت المقدس وحرقت الكتب، وقف فى ناحية الجبل فقال: ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟﴾ فأماته الله مائة عام ثم بعثه وقد عمرت على حالها الأول. (٤)

ثم كما ظهرت قدرة الله هذه على صعيد قومى اجتماعى، فكذلك ظهرت مع ذلك الرجل على صعيده الخاص. وكانت هذه صورة مصغرة لذلك الواقع الكبير.

وبيانه أن الطعام والشراب الذى كان مع ذلك المار لم يتغير وبقي كما كان صالحاً طازجاً على الرغم من تلك السنين التى مرت عليه.

(١) الدر المنثور: ٣٠/٢

(٢) المحرر الوجيز: ٢٩٣/٢

(٣) المحرر الوجيز: ٢٩٤/٢

(٤) الدر المنثور: ٢٩/٢

وأما الحمار فمع قوته وجلده وصلابته لم يصمد لتلك السنين الطوال وأصبح عظاما بالية نخرة.
فالقوى المنيع بلى وتفتت لما أرادت له قدرة الله ذلك.

والضعيف الذي يسرع اليه البلى ويخشى عليه الفساد لم يتضرر بتقلبات الأيام والأعوام ولم يتأثر بها، ولوتأثرا خفيفا، حين أحاطه الله برعايته.

إذا فليست القوة المادية هي كل شئ في هذا الكون. وإنما هي إرادة الله ومشيتته، فهي التي تسيّر الأمور، وهي التي تحكم الظروف، وهي التي تملك الموت والحياة، وهي التي توزع الغناء والبقاء.

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الله أنشئ عظام ذلك الحمار بعد ما بليت ونخرت وكساها لحما من غير أن يواجه فيه أية صعوبة.

إذا فهو أقدر على أن يقوي عظام المهزومين المهضومين، وأقدر على أن يجري في عروقهم ماء الحياة، ثم يعيد لهم الكرة على أعدائهم.

وهذا الذي حصل مع تلك القرية المدمرة الخاوية على عروشها.

ونحن نجد في العهد القديم نفس التمثيل لآحياء أمة قد دمرت وانكسرت حتى يئست هي من نفسها واستياست فضلا عن أعدائها الذين كانوا يريدون لها العفاء، ولا بأس بأن ننقله هنا حتى يتضح لنا وجه الاستدلال في هذا المثال.

ورد هذا التمثيل هكذا:

(كانت على يد الرب، فأخرجني بروح الرب، وأنزلني في وسط البقعة، وهي ملانة عظاما، وأمرني عليها من حولها، وإذا هي كثيرة جدا على وجه البقعة، وإذا هي يابسة جدا. فقال لي يا ابن آدم أتحيا هذه العظام، فقلت يا سيد الرب أنت تعلم. فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. هأنذا أدخل فيكم روحا فتحيون، وأضع عليكم عسبا وأكسيكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب.

فتنبأت كما أمرت، وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعى فتقاربت العظام، كل عظم الى عظمه. ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها ووسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي، تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح، هكذا قال السيد الرب، هلم ياروح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جدا جدا.

ثم قال لى يا ابن آدم، هذه العظام هى كل بيت اسرائيل. هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا، قدانقطعنا، لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب، هانذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى، وأتى بكم الى أرض اسرائيل، فتعلمون أنى أنا الرب عند فتحي قبوركم واصعادى اياكم من قبوركم يا شعبى، وأجعل روحى فيكم فتحيون. وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب. (١)

القصة الثالثة:

روى فى قصص هذه الآية أن الخليل - عليه السلام - أخذ هذه الطير حسبما أمر وذكأها ثم قطعها قطعاً صفاراً وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء، وأمسك رؤوس الطير فى يده، ثم قال تعالين باذن الله، فتطايرت تلك الاجزاء و طار الدم الى الدم و الريش الى الريش، حتى التأمّت كما كانت أولاً و بقيت بلارؤوس ثم كرر النداء فجاءته سعياً حتى وضعت أجسادها فى رؤوسها وطارت باذن الله تعالى. (٢)

ثم اختلف الناس فى سبب هذا السؤال، الذي صدر من سيدنا ابراهيم - عليه السلام - فقال الجمهور: ان ابراهيم - عليه السلام - لم يكن شاكاً فى احياء الله الموتى قط، وانما طلب المعاينة، وترجم الطبرى فى تفسيره فقال: وقال آخرون سأل ذلك ربه لأنه شك فى قدرة الله على احياء الموتى، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: ما فى القرآن آية أرجى عندي منها. وذكر عن عطاء بن أبى رباح أنه قال: دخل قلب ابراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: «رب أرنى كيف تحيي الموتى؟» وذكر حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: نحن أحق بالشك من ابراهيم الحديث. ثم رجح الطبرى هذا القول الذي يجرى مع ظاهر الحديث، وقال: ان ابراهيم لما رأى الجيفة تأكل منها الحيتان ودواب البر ألقى الشيطان فى نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء؟ وأما من قال: بأن ابراهيم لم يكن شاكاً، فاختلفوا فى سبب سؤاله، فقال قتادة: ان ابراهيم رأى دابة قد توزعت السباع فعجب وسأل هذا السؤال. وقال الضحاک: نحوه، قال: وقد علم عليه السلام أن الله قادر على احياء الموتى. وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر، وقال ابن اسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقال له: أنا أحيى وأميت، فكر فى تلك الحقيقة والمجاز، فسأل هذا السؤال. وقال السدى وسعيد بن جبیر:

(١) حزقيال: الاصحاح السابع والثلاثون: ١-١٤

(٢) (المحرر الوجيز: ٣٠٥/٢)

بل سبب هذا السؤال أنه لما بشر بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدلّ بهذا السؤال ليحرب صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره. وقال سعيد بن جبير: ولكن ليطمئن قلبي يريد بالخلة. (١)
ويظهر لنا من تتبع كتب التفسير أن الناس شبه متواظنين على صورة هذه القصة، التي أسلفناها، وإن كانوا مختلفين في سبب حدوثها.

وهنا يتردد في بالنا ما أشار إليه صاحب تفسير المنار، وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا﴾ حيث قال - رحمه الله -:

«قالوا: والمعنى: جزئهم واجعل على كل جبل منهم جزءاً ورووا أن ذبح الطيور ومنتفها وقطعها أجزاء. وخط بعضها ببعض، ولا يدل الكلام على ذلك.» (٢)

فإذا كان الكلام لا يدل على ذلك - والواقع أن الكلام لا يدل على ذلك - فكيف ذهب الناس إلى ما ذهبوا إليه؟

وكيف رضوا لتلك القصة بتلك الصورة التي لا يملئها عليهم النص ولا يحملها اليهم اللفظ؟

تحقيق معنى الجزء:

ولعل الذي أوقع الناس في هذه الغلطة هو عدم تثبتهم أو قلة تحريمهم في تحديد معنى الجزء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا﴾ فإن (الجزء) يختلف مدلوله باختلاف موقعه.

فجزء الفرد غير جزء الجماعة، وجزء الجماعة أو جزء المجموعة غير جزء الفرد. فإذا قيل - مثلاً - اشترت جزءاً من الشاة، يكون معنى ذلك: اشترت بعض أطرافها كالرجل أو الكتف أو الرأس وما إلى ذلك.

ولكن إذا قيل: اشترت جزءاً من الغنم، يكون معنى ذلك: اشترت عدداً من الشياه، أو شاة منها.

فالفرد الكامل أو عدد من الأفراد يعتبر جزءاً من الجماعة.

وعلى هذا إذا كانت أربعة طيور، فكل واحد من تلك الأربعة يعتبر جزءاً منها. ولا يجوز أبداً أن نقول: إن المراد بالجزء هنا أطراف الطير مثل الرجل أو الرأس أو الذنب وما إلى ذلك.

ولقد استعمل القرآن هذا اللفظ بهذا المعنى مرتين ماعداً هذه فقال:

١- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنْ جَعَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٣)

(١) المحرر الوجيز: ٣/٢-٣.٣

(٢) مختصر تفسير المنار: ٢٥٥/١

(٣) سورة الحجر: ٤٢-٤٤

٢- «وجعلوا له من عباده جزءا، ان الانسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين.» (١)

فهذان الموضوعان واضحان كل الوضوح. ولا احتمالان معنى غير هذا المعنى، الذي أشرنا اليه. والموضع الذي نتحدث عنه، أيضا كان واضحا كل الوضوح. ولم يكن هناك أى مبرر للعدول عن هذا المعنى. الا أن الذي أفسد على الناس القضية، هو أنهم لم يجدوا فى تلك القصة دليلا على احياء الموتى، اذا لم يذهبوا الى المعنى الذي ذهبوا اليه.

هذا التفكير هو الذي زاغ بهم عن الطريق وحملهم على أن يحملوا اللفظ ذلك المعنى الذي لا يحتمله! وهذا منهج غير سليم، فان الخطأ لا يؤدى إلا إلى الخطأ، ولا يمكن أبدا أن نصل عن طريق الخطأ الى المعنى الصحيح السليم.

فمن واجبا أولا أن نبقى اللفظ على معناه، ثم نبحث عن تأويل يوافق ذلك المعنى. ويتضمن دليلا على احياء الموتى. فما هو ذلك التأويل اذا؟

تأويل الآية:

ان التأمل فى تلك الآيات يكشف لنا أن ابراهيم - عليه السلام - لم يكن يسأل عن كيفية احياء الموتى يوم القيامة. فالإيمان بالحياة الآخرة، أو الإيمان بالبعث بعد الموت من أوليات الايمان. وما كان لنبى - فضلا عن أبى الأنبياء - أن يسأل رؤية شئ هو من أوليات الايمان، فانه يؤمن به من أول يومه كما يؤمن بالأرض التي يمشى عليها، أو الشمس التي تشرق فوق رأسه.

انه يؤمن بأساسيات الايمان ويطمئن بها كما يطمئن بشئ يلمسه بيديه ويشاهده بعينه. وليس هذا مقصورا على النبى فقط، بل المؤمن العادى أيضا يحصل له هذا الاطمئنان اذا أقبل الى الله بتجرد واخلاص. والدليل على ذلك قوله تعالى:

«من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم.» (٢)

وأیضا قوله تعالى:

«يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى وادخلى

جنتى» (٣)

(١) سورة الزخرف: ١٥-١٦

(٢) سورة النحل: ١٠٦

(٣) سورة الفجر: ٢٧-٣٠

فالإيمان بأساسيات الإيمان وأوليياته ليس موقوفا على الرؤية والمشاهدة، كما قال من قال مستندا الى قوله ﷺ: (ليس الخبر كالمعاينة) (١).

وهو يحصل للأتبياء ولغير الأنبياء بمجرد الاقبال الى الله والإيمان بما جاء من عنده بتجرّد وإخلاص، كما نعرف ذلك من الآيات التي أشرنا اليها آنفا.

وأما القول بأنّه - عليه السلام - لما بشر بأن الله اتخذه خليلا أراد أن يُدلّ بهذا السؤال، ليجرّب صحة الخلّة، فإن الخليل يُدلّ بما لا يُدلّ به غيره. (٢)

فهذا قول لا يستند الى أساس، وما قاله من قاله الأرجما بالغيّب، فإن هذا الدلال ليس الا من شأن المتصوفة، أهل الخرافة والبطالة!

وأما سيدنا ابراهيم - عليه السلام - الذي كان من أخصّ خصوصيّاته التأوّه والاناة كما قال تعالى:

﴿إِن اِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٣)

﴿إِن اِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (٤)

فهيهات هيهات أن يتدلّل ذلك الأوّاه المنيب على ربه ويقف منه موقفا يتنافى مع تأوّه واناة.

وهنا يبرز السؤال مرة أخرى: فما هو التأويل الصحيح للآية؟

وما هو الاطمئنان الذي كان يريده سيدنا ابراهيم - عليه افضل الصلوات والتسليم. -؟

ان الردّ على هذا السؤال سهل وميسّر باذن الله، ولكن لا بدّ له من تفصيل.

ان النظرة السريعة العاجلة الى حياة ابراهيم والى تاريخ دعوته توقفتنا أمام مشهدين عجيبين، مشهدين مختلفين متباعدين.

أحدهما مظلم قاتم يثير الأسى واليأس! ولا ترى فيه آية بارقة من بوارق الأمل!

والآخر وضئى مشرق، يبعث الفرح ويدعو الى العجب! ويفوق كل تقدير وكل حساب وكل ما يحلم به أيّ حال من البشر!

وبيانه أن سيدنا ابراهيم - عليه السلام - لهث فى قومه أمدا طويلا يدعوهم الى الاسلام والى

هجر الأوثان. وكم بذل فى هذه السبيل من جهد! وكم قاسى فيها من الشدائد والمعن!

(١) فتح القدير: ٢٨١/١

(٢) المحرر الوجيز: ٣٠٢/٢

(٣) سورة هود: ٧٥

(٤) سورة التوبة: ١١٤

ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لم تتجاوز دعوته أن تكون صيحة فى واد أو نفخا فى رماد

ما آمن به من قومه الا لوط - عليهما صلوات الله وسلامه:-

﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢)

ما آمن به الا رجل واحد فقط! فى خلال هذه الفترة الطويلة، الفترة التى لا تقلّ عن خمسة

وثلاثين عاما!

فقد ورد فى العهد القديم: (فذهب أبرام كما قال له الرب. وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس

وسبعين سنة لما خرج من حاران) (٣)

وأما الجماهير فكانوا كما قال القائل:

لقد أسمعنا لونا ديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى :

هذا مشهد، وباله من مشهد محزن قاتل !!



ثم هناك مشهد آخر.

يبشره ربه ببشارة ما بعدها بشارة:

﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (٤)

ويعهد اليه عهدا يحمل معنى تلك البشارة، وسيكون سببا الى تلك البشارة:

﴿وَطَهَّرْ بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا

رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.﴾ (٥)

هذا العهد وتلك البشارة تعنى أن دعوة ابراهيم، التى لم يستجب لها الا رجل واحد على مر

السنين، والتى لم تصادف من القوم الا قلوبا ميتة متحجرة، ستشرح لها الصدور وستفتح لها

القلوب، وستقبل اليها أقوام وأقوام وستسرع اليها أجيال وأجيال!

(١) سورة العنكبوت: ٢٦

(٢) سورة الأنبياء: ٧١

(٣) سفر التكوين: الاصحاح الثانى عشر آية: ٥

(٤) سورة البقرة: ١٢٤

(٥) سورة الحج: ٢٦-٢٨

وستنمو هذه الدعوة وتزدهر حتى يسمع صداها من كل فج وصوب، وسيكون صاحبها، الذى
لقى من الناس كل عدا، وكل استنكار، اماما لهم وقدوة الى يوم القيامة!
هذا مشهد ، وذاك مشهد!

مشهدان مختلفان متباعدان فى تاريخ هذه الدعوة، دعوة أبينا ابراهيم-عليه افضل الصلوات
والتسليم:-

فما ظننا بابراهيم؟

أليس يأخذه العجب اذا شاهد ذلك المشهد المتكرر المحزن بعينه ثم سمع هذه البشرى بأذنيه؟

أليس يشور فى نفسه سيؤال، سؤال كله عجب واستغراب:

كيف يتم هذا التحول العجيب فى موقف الناس؟

وكيف يتحول الموت إلى الحياة ؟

«رب أرنى كيف تحيى الموتى؟»

هناك سأله ربه: «أولم تؤمن» أولم تؤمن بهذا الوعد وبهذا العهد؟

قال ابراهيم: «بلى ولكن ليطمئن قلبى»

ان ابراهيم أراد أن يطمئن الى هذا الوعد والى هذه البشرى، مثلما فعل زكريا- عليه السلام- لما
جاءته الملائكة يبشرونه ببخى كما نرى فى تلك الآيات:

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا. قال يامريم أنى لك هذا؟ قالت هو من
عند الله. ان الله يرزق من يشاء بغير حساب. هناك دعا زكريا ربه، قال رب هب لى من لدنك
ذرية طيبة انك سميع الدعاء. فتنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك ببخى
مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين. قال رب أنى يكون لى غلام وقد
بلغنى الكبر وامراتى عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لى آية، قال آيتك ألا
تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا. واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار» (١)

ان سيدنا زكريا هو الذى دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، فلما استجاب الله دعاءه وبشره ببخى
عجب واستغرب وقال: «رب أنى يكون لى غلام؟ وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر!!»

ولم يكن هذا العجب وهذا الاستغراب وهذا السؤال لشك فى قدرة الله أو لشك فى وعده، وانما
كانت طبيعة الموقف هكذا ، فأراد أن يتأكد وأراد أن يطمئن.
وهكذا كان الأمر مع سيدنا ابراهيم.

(١) سورة آل عمران: ٣٧-٤١

انه أراد أن يتأكد من وعد الله وأراد أن يطمئن، لا لشك فى قدرته، أولشك فى وعده، وانما كانت طبيعة الموقف هكذا.

موقف كله يدعو الى العجب والاستغراب.

موقف لا يستطيع الانسان أمامه الا أن يتحير والا أن يشده، كائننا من كان، ومن أى طراز كان.

هناك أقبلت اليه العناية الالهية تعالج حيرته وتصف له ما يطمئن به قلبه:

«قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن

ياتينك سعيا. واعلم أن الله عزيز حكيم.»

ولكى نستوعب هذا المشهد لا بد لنا من أن نتأكد أولا من معنى قوله تعالى: «فصرهن اليك»

فانه عزب عن كثير من الناس وخفى عليهم، فأخطوا الهدف، ولم يستوعبوا المشهد.

تحقيق معنى (فصرهن اليك):

ان قوله تعالى: «فصرهن اليك» مشتق من صاره يصوره صورا أى أماله. والصور بالتحريك:

الميل. ورجل أصور: بين الصور، أى مائل مشتاق. ويقال: صر وجهك الى أى أقبل على. ومنه يقال:

عصفور صوار للذي يجيب اذا دعى (١)

ويقال: وأرى لك اليه صورة: أى ميله بالمودة. وعن ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما -: انى

لأدنى الخائن وما بى اليها صورة الا ليعلم الله أنى لا أجنبها لحبها. ويقال: هو أصور الى كذا،

اذا مال عنقه ووجهه اليه. قال:

فقلت لها غضى فانى الى التى تريد أن احببها غير أصور (٢)

ان هذا الاستعراض السريع لكلمة (صور) ومشتقاته يبين لنا أن هذه الكلمة تتضمن فى أصلها

معنى الأنس والشوق والاقبال والميل بالمودة. ومنه قول القائل.

الله يعلم أنا فى تلفتنا يوم الفراق الى أحبابنا صور (٣)

وهذا المعنى موجود فى أكثر مشتقاته، فيقال -مثلا- للشكل : الصورة، لأن الشكل هو الذي

يستأنس به. وهو الذي يجتذب الأنظار و يجلب الشوق والمودة. ويقال : رجل صير لمن يكون حسن

الصورة، فيقبل اليه الناس ويستأنسون به. ويقال للرائحة الطيبة ولوعاء المسك الصوار والصوار

ككتاب وغراب، لأن الطبايع تميل اليه من بعيد وتحميه وتستأنس به.

(١) انظر الصحاح للجوهري: (مادة : ص، و، ر)

(٢) انظر أساس البلاغة: (مادة: ص، و، ر)

(٣) انظر لسان العرب: (مادة: ص، و، ر)

وقد يكون هناك تجريد فى المعنى، فيراد مجرد الاقبال الى الشئ من غير أن يكون فيه معنى الأنس والشوق.

ومنه يقال للقرن: الصور، لأنه يشد الانتباه ويستلفت الأنظار، والقرآن نفسه أشار الى هذا المعنى حيث قال:

«ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله» ، وكل أتوه داخرين. (١)

«فقتول عنهم يوم يدع الداع الى شئ نكر. خشعا أبصارهم، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر. (٢)

ومنه يقال: صارة الجبل، أى أعلاه، فان أعلى الجبل هو الذي يستلفت النظر، والنظر يقع أول ما يقع على أعلى الجبل.

وهكذا نرى أن الأصل فى هذه المادة هو معنى الشوق والاقبال الى الشئ اذا كان لازما ومعنى الايناس والايلاف اذا كان متعديا.

ويتأكد هذا المعنى اذا جاءت هذه المادة مع (الى) كما نرى فى الآية: «فصرهن اليك».

فيكون معنى الآية: فأملهن اليك وأنسهن بك حتى يستجنن لك اذا ناديتهن، ويسرعن اليك اذا دعوتهن، كالعصفور الصوار، الذي يجيب اذا دعى.

وأما القول بأن «صرهن» معناه: قطعهن كما ذهب اليه جمع من المفسرين. (٣) فهو قول فيه نظر. ولقد أحسن الفراء اذا قال:

«وقوله: «فصرهن اليك». ضم الصاد العامة وكان أصحاب عبدالله يكسرون الصاد، وهما

لغتان. فأما الضم فكثير وأما الكسر ففي هذيل وسليم، وأنشدنى الكسائى عن بعض بني سليم:

وفرع يصير الجيد وحف كائنه على الليت قنوان الكروم الدوالج

ويفسر معناه: قطعهن، ويقال: وجههن. ولم نجد قطعهن معروفة من هذين الوجهين. (٤)

اذا فنسبنا هذا القول الى ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة نسبة خاطئة، فانهم - رضى الله عنهم - كانوا أجل من أن يفسروا الآية بمعنى غير معروف فى لسان العرب.

(١) سورة النمل: ٨٧

(٢) سورة القمر: ٦-٨

(٣) ومن ذهب الى هذا المعنى الامام القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٣٠١/٢، والامام ابن كثير:

(تفسير ابن كثير: ٣١٥/١) والقاضى ابن عطية: (المحرر الوجيز: ٣٠٥/٢)، والامام

السوطى: (الدرر المنثور: ٣٥/٢)

(٤) معنى القرآن للفراء: ١٧٤/١

ولعل الذين وقعوا فى هذا الخطأ، انما وقعوا فيه لأنهم أخطأوا معنى (الجزء) فى قوله تعالى: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ ولو أنهم وفقوا فى تأويله لما وقعوا فيما وقعوا فيه .
والآن، وقد انتهينا من تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿فصهرهن اليك﴾. يمكننا أن نستوعب المشهد الذي تعرضه الآية الكريمة.

﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً. واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.
وبيان ذلك أن الله تعالى قال لابراهيم: خذ أربعة من الطير، وأنسهن اليك حتى يألفنك ويستأنسن بك، ثم وزع تلك الطيور الأربعة على جبال أربعة ، ثم ادعهن. فاذا دعوتهن أتينك سعياً.
ويوحى الينا الموقف أن المراد بالجبال هى الجبال الأربعة فى الجهات الأربع حتى اذا دعا تلك الطيور الأربعة أتينه من كل جانب.

وكان القصد من ذلك التمثيل مجرد تقريب الواقع الموعود الى الذهن . حتى يطمئن ابراهيم أن هذا الوعد الالهى سيتم بهذا الشكل. وأن القلوب التى تنفر اليوم من هذه الدعوة وتتنكر لها ستقبل اليها غداً ساعية مسرعة. ستقبل اليها من كل حذب وصوب، ومن كل جهة وناحية.
ان البشرية التى تبدو اليوم ميتة متحجرة ستسرى فيها الحياة وستدبّ فيها الحركة وستنمو فيها المشاعر ^(١) وستطير هى الى تلك الدعوة والى تلك الملة كما تطير الطيور الى أنيسها واليفها.
كانت هذه لفظة بارعة أو لمحة دالة. ووجد فيها ابراهيم كل ماكان يبغيه فقد اقتنع واطمأن، ولم تعد به حاجة الى أن يجرب هذا فعلاً ، وانما كان يكفيه أن يتصور ذلك المشهد، ثم يقيس هذا على ذاك.
وكان الأمر كذلك فيما نرى.

أرجى آية فى القرآن:

وبالجملة فهذه الآية تحمل فى طواياها بشارة عظيمة لهذه الملة ، ملة أينا ابراهيم . وبالتالى تحمل بشارة عظيمة لهذه الأمة كذلك. فانها انما بعثت استجابة لدعوة ابراهيم، وبعثت لترفع لواء ملته. فهى ستنمو وتزدهر، كما أن ملة ابراهيم ستنمو وتزدهر.

(١) قال القرطبي : قال بعض أهل المعانى : انما أراد ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى القلوب . (انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٩٩)

وما يؤيد هذا المعنى ما روي عن عباد بن منصور قال سألت الحسن عن قوله:
(واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى) قال سأل نبى الله ﷺ ربه أن يريه كيف يحيى الموتى. وذلك مالم يلقى من قومه من الأذى، فدعا ربه عند ذلك عما لقي منهم من الأذى فقال: ﴿رب أرني كيف تحي الموتى﴾ (تفسير ابن ابي حاتم: ٣/٣٠١)

ولا يملك الباطل أن يقضى على هذه الأمة أو يعرقل مسيرها، كما لا يملك أن يقضى على هذه الأمة أو يعرقل مسيرها. وكلاهما ستتسع رقعتهما وتتسع ولا تزال تتسع باذن الله.

وهنا يحضرنا ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فقد أخرج ابن جرير عن عبدالرزاق، قال: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله: «ولكن ليطمئن قلبي» قال: قال ابن عباس: (ما في القرآن آية أرجى عندي منها). (١)

وروى ابن جرير: عن سعيد بن المسيب قال: اتعد عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو أن يجتمعا. قال: ونحن يومئذ شبيهة، فقال أحدهما لصاحبه: أى آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة، فقال عبدالله بن عمرو: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم» حتى ختم الآية، فقال ابن عباس: أما ان كنت تقول انها وان أرجى منها لهذه الأمة قول ابراهيم عليه السلام: «رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» (٢)

ولقد تحير الناس في قول ابن عباس وذهبوا مذاهب شتى في تأويله ولكنهم ما جاءوا بشئ تسكن اليه النفس. (٣)

ولعله - رضى الله عنه - انما كان يقصد بقوله هذا الى ما أشرنا اليه. وان فسرنا الآية بهذا التفسير الذي أشرنا اليه، فلا شك أنها ستصبح أرجى آية لهذه الأمة.

مناسبة الأمثلة الثلاثة لما قبلها:

بعد ما انتهينا من دراسة هذه الأمثلة الثلاثة وانتهينا من دراسة أبعادها ودلالاتها يمكننا أن ندرك وجه مناسبتها لما قبلها بكل يسر وسهولة.

لقد قلنا في بداية الحديث:

(علمنا قبل قليل أن قصة طالوت جاءت تكشف عن حقيقة الموت والحياة، وهي تبين لنا - فيما تبين - أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة.

والأمة المجاهدة في سبيله المتصلة به هي التي تذوق لذة الحياة، وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتقعده عن الجهاد، فلا حظ لها من الحياة. وانما لها الموت.

والآن نرى الكلام عاد الى هذا الحديث مرة أخرى حتى يفصله تفصيلا بعد ما أومأ اليه ايماء. وبيانه أن الله هو الحي القيوم، فهو الذي يملك الحياة ويمتلك الحياة، وهو القائم بأمر العباد والبلاد. فمن

(١). تفسير الطبري: ٣٤/٣

(٢). تفسير ابن جرير: ٣٤/٣

(٣). المحرر الوجيز: ٣. ٢/٢، وفتح القدير: ٢٨١/١

كان يريد الحياة والبقاء فليسرع اليه ولا يعدل عنه الى غيره فان فاقد الشئ لا يعطيه:

«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم.»

ثم جاءت ثلاثة أمثلة كلها تتصل بموضوع الحياة والاحياء لتؤكد للناس هذه الحقيقة الهامة وترسخها في أذهانهم.)

فلننظر الآن الى تلك الأمثلة الثلاثة كيف تؤكد هذه الحقيقة الهامة.

لقد علمنا فى القصة الأولى أن نمردو- الملك الظالم الغشوم فى أيام ابراهيم- قد توعد ابراهيم أنه سيقنتله ويخلع عنه ثوب الحياة، ولكن ماذا حدث؟

ان ابراهيم قد استمسك بالعروة الوثقى ، فمن يملك أن يناله بسوء؟ فلم يستطع الملك أن يحرك له ساكنا، وانما كان الأمر على العكس.

قد انقرض نمردو وامحي أثره وهلك عنه سلطانه ، فهل ترى له من باقية؟

وأما ابراهيم فقد كتب الله له الحياة، حياة أى حياة!!

فهو مات منذ قرون، وكأنه اليوم حى، وسبقى حيا مادامت السموات والأرض. ان رسالته قائمة، وملته باقية ، وأمتة التى تنتمى اليه وتعزى باسمه ورسالته قلاً المعمورة كلها وستملأها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهكذا صار الأمر مع القرية الخاوية على عروشها ومع الطاغية الذى مرّ عليها، فقد هلك الطاغية، الذى استهزأ بقدرة الله، وبقيت القرية بعده تأخذ طريقها الى القوة والحياة والى النمو والازدهار، لأنها آمنت بالله واستمسكت بالعروة الوثقى.

ووضعت قصة نمردو وقصة ابراهيم على طرفين وجاءت قصة الطاغية والقرية الخاوية على عروشها فى وسطهما.

والسر فى ذلك - فيما نرى، والله أعلم- أن ذلك الطاغية كان يشاكل نمردو فى علوه واستكباره، فكان من الأنسب أن ينتظم فى سلكه ويذكر فى جنبه.

بالاضافة الى أن هذه القصة كانت تفصل كثيرا مما أجمل فى قصة نمردو، حيث قال ابراهيم فى تلك القصة : «ربى الذى يحيى ويميت» وهذه القصة تفصل تلك الظاهرة: «فأما الله مائة عام ثم بعته» وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما»

وقال ابراهيم فى تلك القصة : «فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» أى ان الشمس خاضعة لأمر الله فى طلوعها وأقولها، وهو الذى يجريها حسب ما تقتضى حكمته

ومشيئته. وهذه القصة تبرهن تلك الحقيقة بمثال علمي واقعي: «فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنى وانظر الى حمارك» أى ان الشمس لم تعمل عملها فى الطعام والشراب، لأن الله ما أذن لها بذلك ، فبقى الطعام والشراب على هيئته الأولى وعلى صفته الأولى ، كأنه لم تمسه حرارة الشمس وكأنه كان فى ثلج!

وأما الحمار فلم ينج من تصرفات الشمس ومن تأثيرها فبلى وتفتت وأصبح عظاما ورفاتا، لأن مشيئة الله كانت تريد كذا.

هذا ما فتح الله علينا فى مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله. ثم نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (٢٦١-٢٧٤)

قال تعالى:

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم. الذين ينفقوا أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى. والله غنى حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتبليتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل. والله بما تعملون بصير. أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنا ب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه. واعلموا أن الله غنى حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم.

. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا. وما يذكر إلا أولو الأبواب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه. وما للظالمين من أنصار. ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم. والله بما تعملون خبير. ليس عليكم هداهم ولكن الله يهدي من يشاء. وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا. وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.﴾



ان كنا نريد الاطلاع على نظم هذه الآيات وحسن مناسبتها لما قبلها، فلنرجع قليلا، ولنكرر النظر في العرض الأول لقصة طالوت، حيث ذكر الله احياء قوم بعد ما أسلمهم للموت والهران الى حين. ثم نيه الى العاملين الأساسيين، الذين كان لهما دور فعال في عودة هؤلاء القوم الى ميدان الحياة،

حيث قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، واللّه يقبض ويبسط واليه ترجعون.﴾

فالقِتال والائتاق فى سبيل الله، هما السبيلان الموصلان الى كنز الحياة. وما تخلى قوم عن هذين السبيلين الا هودا فى هاروة الذل والموت، وما أقبلوا اليهما الا فاضوا بالحياة.

ولقد استوفى القتال فى سبيل الله حظه من التنويه والتفخيم فى العرض الثانى من قصة طالوت، ثم استطرده الحديث الى موضوع الحياة والإحياء، وجاءت الأمثلة الثلاثة تبلور هذا الموضوع وتؤكدّه.

والآن نرى السياق عاد بنا مرة أخرى، حتى يتناول ثانى اثنين من ذينك السبيلين الموصلين الى كنز الحياة، ألا وهو الائتاق فى سبيل الله.

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة. والله يضاعف لمن يشاء. والله واسع عليم.﴾

وما أشبه هذه الآية بتلك التى مضت معنا فى العرض الأول لقصة طالوت.

﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة. والله يقبض ويبسط واليه ترجعون﴾

ثم بما تهتزله النفس أن الكلام لم يقفز الى هذا الموضوع قفراً وانما تخلص اليه في غاية اللطف والدقة.

وبيانه أن الموضوع السابق كان موضوع الحياة، فان الآية - كما فصلناها تفصيلاً - تبشر بأن الملة الابراهيمية سوف تزخر بالحياة وسوف تهفو اليها النفوس، وتهوى اليها الأفئدة من كل ناحية ومن كل جهة.

وبعد هذه الآية مباشرة جاءت آية الائتاق، ولكنها ماجأت بلون غريب، وانما جاءت وكأنها - مثل أختها - تفيض بالحياة وتتدفق بالحياة:

﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة!!﴾

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية الكريمة:

«ان الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف، انما يبدأ بالحض والتأليف.. انه يستجيش المشاعرو الانفعالات الحية فى الكيان الانسانى كله.. انه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة: صورة الزرع . هبة الأرض أوهية الله. الزرع الذى يعطى أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس الى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلاً للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله.

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة﴾...

ان المعنى الذهني للتعبير ينتهى الى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة الى سبعمائة حبة! أما المشهد الحى الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا و أجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيرا فى الضمائر.. انه مشهد الحياة النامية. مشهد الطبيعة الحية. مشهد الزرعة الواهبة. ثم مشهد العجيبة فى عالم النبات: العود الذى يحمل سبع سنابل ، والسنبلة التي تحوى مائة حبة!

وفى موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشرى الى البذل والعطاء. انه لا يعطى بل يأخذ، وانه لا ينقص بل يزداد.. وتمضى موجة العطاء والنماء فى طريقها، تضاعف المشاعر التى استجاشها مشهد الزرع والحصيلة.. ان الله يضاعف لمن يشاء. يضاعف بلاعة ولا حساب. يضاعف من رزقه الذى لا يعلم أحد حدوده ومن رحمته التى لا يعرف أحد مداها. « (١)

إذا فليس هناك شئ مما يشبه المنافرة أو الاقتضاب فى الكلام فان الكلام قد انتقل من موضوع الى موضوع تجمعهما قرابة ماسة ومناسبة واضحة، ألا وهى التدفق بالحياة.

ثم ان السياق وضع موضوع الحياة والاحياء بين القتال والانفاق. وذكر القتال أولا والانفاق ثانيا، وخصص للانفاق مساحة أوسع وأكبر من مساحة القتال، ثم حذر فيه من المن والأذى والسمعة والرياء والشح والخيلاء وأمر بالاخلاص فيه والتجرد لله.

هذا النظم يكشف لنا وجهها جديدا لأهمية الانفاق فى سبيل الله ، فان الانفاق ليس فقط أنه صنو القتال فى سبيل الله فى كونه مصدرا للقوة والحياة، بل هو - فوق ذلك - قاعدة للقتال فى سبيل الله ووقاية له من كل ما يطرأ عليه ويفسده.

فهو الذي يروض النفس ويربها على البذل والتضحية، وهو الذي يزكيها وينقيها ويمسح عنها شوائب السمعة والرياء، وهو الذي يغسل عنها أدران البطر والخيلاء، ويكبح ما يثور فى النفس من نوازع التكبر والاستعلاء.

وبعبارة أخرى فان الانفاق اذا كان كما وصفه القرآن، فانه هو الذى يعد النفس للقتال، ثم هو الذى يصحح خط السير، اذا اتجه المسلم الى حومة القتال.

وهناك يؤدى القتال مهمته فى دفع الفساد وازالة الشر، ويكون مجلبة خير ورحمة للعباد والبلاد، كما يكون مصدر قوة وحياة للشعوب والجماعات.

ثم هناك فوائد أخرى تستفاد من نظم تلك الآيات وهى كما يلى.

الفائدة الأولى:

قال الله تعالى قبل البدء فى موضوع الانفاق:

﴿اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

(١) فى ظلال القرآن: ٣٠٦/١

يخرجونهم من النور الى الظلمات. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. (١)

ثم ورد في شأن أولياء الله أنهم يكونون في مأمن من الخوف والحزن حيث قال تعالى:

﴿لَا أَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢)

ولقد وردت نفس البشرى وتكررت في سياق الاتفاق في سبيل الله ، حيث قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣)

﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤)

﴿أَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٥)

ان التأمل في هذا النظم يكشف لنا ، أن الاتفاق اذا كان بروح صادقة من الايمان فهو يُكسب العبد ولاية ربه.

ثم ان هذه البشرى لم تتكرر في سياق أى عمل كما تكررت في سياق الاتفاق في سبيل الله. وهذه الظاهرة تدل على أن الاتفاق يُكسب العبد من ولاية ربه مالا يُكسبه غيره.

الفائدة الثانية:

ثم اذا عدنا الى تلك الآية مرة أخرى، نعننى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية وتأملنا في نظمها وسياقها ورأينا أن الله لم يأمر بعد هذا البيان الابا لاتفاق في سبيله، علمنا أن الاتفاق في سبيل الله هو الطريق المباشر الي اكتساب النور. وكلما ازداد العبد انفاقا في سبيل الله، ازداد حظًا من هذا النور.

ونجد تأييد ذلك في سورة الحديد. بشكل أوضح وأبين، حيث تكرر ذكر النور في سياق الاتفاق في سبيل الله، حيث قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ. وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مَنكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِل. أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا، وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى.

(١) سورة البقرة: ٢٥٧

(٢) سورة يونس: ٦٢

(٣) سورة البقرة: ٢٦٢

(٤) سورة البقرة: ٢٧٤

(٥) سورة البقرة: ٢٧٧

والله بما تعملون خبير. من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ويأيمانهم يشفعهم بشفاعتهم يومئذ هم فيها. ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم. قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، فضرب بينهم بسورله باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. (١)

فتلك الآيات واضحة كل الوضوح فى الدلالة على ما أشرنا اليه. وان كانت تلك الدلالة أيضا عن طريق نظم الآيات وسياقها.

الفائدة الثالثة:

قال تعالى بعد ما أمر بالانفاق من طيبات الأموال:

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلا. والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء. ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الأبواب.﴾

ان التأمل فى نظم هذه الآية وسياقها يرشدنا الى أن الحكمة تكون من بركات الانفاق فى سبيل الله. وهذه الحكمة هى التى تتقدم بالأمة فى طريق الحياة، وتفتح أمامها سبل الحياة. ثم اذا انضم الى هذا الانفاق القتال فى سبيل الله، انضم الى تلك الحكمة الملك والسلطة. واستكملت الأمة نصيبها من الحياة. وقدم ذلك معنا فى قوله تعالى:

﴿فقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾

الفائدة الرابعة:

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

ان التأمل فى نظم هذه الآية يكشف لنا أن المن والأذى يتنافى مع الاخلاص والتجرد لله. ولا يتصور وجوده الا اذا كان الإنفاق بدافع الرياء.

ثم هذا الرياء يتنافى أيضا مع الايمان بالله واليوم الآخر. ووجود أحدهما يستلزم انتفاء الآخر. وهنا نتذكر قول نبينا - عليه الصلاة والسلام -: (من صلى يرانى فقد أشرك، ومن صام يرانى فقد أشرك، ومن تصدق يرانى فقد أشرك) (٢)

(١) سورة الحديد ٩-١٣

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد للساعاتى: ٢٢١/١٩

ولا يبعد أن يكون هذا القول مستفادا من نظم تلك الآية.

الفائدة الخامسة:

قال تعالى فى مطلع حديث الانفاق :

﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.﴾

ثم قال تعالى فى ختام الحديث:

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

فالآية الأولى تشترط فى الانفاق أن يكون ﴿فى سبيل الله﴾ وألا يتبعه من ولا أذى، بينما الآية الثانية تشترط فيه فقط أن يكون سرا وعلانية، ولا تتعرض للشرطين السابقين.

وهذا النظم يرشدنا الى حقيقة هامة جدا، وهى أن الانفاق اذا كان سرا وعلانية، فهو أدنى أن يكون فى سبيل الله ولوجه الله، وأدنى أن لا يتبعه المن والأذى.

فان المن والأذى انما يكون اذا كان الانفاق رثاء الناس. ولا يمكن أن يكون الانفاق سرا وعلانية اذا كان رثاء الناس. فالمرأى انما ينفق علانية ليرأى الناس، وأما الانفاق سرا فهو ليس من شأن المرأى.

ولعل هذا هو السرفى أن الله أقر ابداء الصدقات: فان للابداء ثمراته ونتائجها الا أنه حرض مع ذلك على اخفائها ليكون ذلك علاجا لما يخشى من الابداء من مرض الرياء:

﴿ان تبدوا الصدقات فنعماً هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم. والله بما تعملون خبير.﴾

فابداء الصدقات واخفائها اذا كانا جنبا الى جنب، فهو أدنى أن تكون تلك الصدقات خالصة لوجه الله، وأدنى أن تكون بعيدة من آفة الرياء، وأدنى أن تحقق أهدافها وتؤتى ثمراتها بأذن ربها.

وليس هذا خاصا بالصدقات، بل الأمر هكذا فى الصلوات وفى جميع العبادات، فمنها ما يستحب علانية ومنها ما يستحب سرا.

فالله افترض على المسلمين خمس صلوات مع الجماعة، وبجانب ذلك حث على صلاة الليل ورغب فيها، حتى تكون صلاة الليل علاجا لصلاة النهار، وتكون وقاية لها مما يخشى عليهما من آفة الرياء.

وحينئذ يمكن لصلاة النهار أن تؤتى ثمراتها وتؤدى دورها فى تهذيب النفوس وتربيتها.

تلك عيون الحقائق، التى تظهر لنا عن طريق التأمل فى نظم تلك الآيات وسياقها، فنحمد الله تعالى حمدا كثيرا على أن هدانا اليها، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (٢٧٥-٢٨١)

قال تعالى:

﴿الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف. وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يحق لله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم. ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين. فان لم تفعلوا فأنذروا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون. وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لکم ان كنتم تعلمون. واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.﴾
ان مناسبة هذه الآيات لما قبلها واضحة ظاهرة. فان الآيات التى سبقتها كانت تبحث موضوع الاتفاق فى سبيل الله ، وهذه الآيات تبحث موضوع الربا. والصلة بين الربا والاتفاق كالصلة بين الظلمات والنور أو الظل والحورور.

فهما ضدان متقابلان لا يلتقيان. لا يلتقيان فى أول الطريق ولا فى منتصفه ولا فى آخره.
ولقد تناول الأستاذ سيد قطب- رحمه الله - هذا الموضوع تناولا حسنا وأبرز هذا الاختلاف الذي يوجد بينهما ، وكان فيه موقفاً.

ولا بأس بأن ننقل هنا نبذة منه حتى تتبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها بتبين الاختلاف الذي يوجد بينهما.

يقول الأستاذ الامام - رحمه الله :-

«الوجه الآخر المقابل للصدقة، التى عرض دستورها فى الدرس الماضى.. الوجه الكالـح الطالـح هو الربا!»

الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل.. والربا شع وقذارة ودنس وأثرة وفردية..

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد. والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه. من جهده ان كان قد عمل بالمال الذي استدانه فريح نتيجة لعمله هو وكبه. ومن لحمه ان كان لم يربح أو خسر. أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستريحه شيئا..

ومن ثم فهو- الربا- الوجه الآخر المقابل للصدقة.. الوجه الكالـح الطالـح!

ومن ثم فهو- الربا- الوجه الآخر المقابل للصدقة.. الوجه الكالح الطالح!

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمع الطاهر الجميل الودود! عرضه عرضاً منفراً، يكشف عما فى عملية الربا من قبح وشناعة، ومن جفاف فى القلب وشر فى المجتمع وفساد فى الأرض وهلاك للعباد..

وزيد - رحمه الله - فيقول:

« انهما نظامان متقابلان: النظام الاسلامى والنظام الربوى! وهما لا يلتقيان فى تصور، ولا يتفقان فى أساس، ولا يتوافقان فى نتيجة.. ان كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة. وينتهى الى ثمره فى حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف. ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة، وكان هذا التهديد الرعيب! » (١)

والقرآن نفسه نهبنا الى هذا الفرق الشاسع، الذي يوجد بين الانفاق وتعاطى الربا وبين لنا بنصه ونظمه أنهما خطان متوازيان متعاكسان يذهب كل واحد منهما فى جهة غير التي يذهب فيها الآخر.

١- فالانفاق فى سبيل الله يقرب العبد اليه ويجعله من أوليائه، وتعاطى الربا يقطع من ربه ويوقفه موقف المحارب المعادي لله ولرسوله!

٢- والانفاق يكون بركة لصاحبه وسببا الى مضاعفة أجره فيبارك الله له فى أعماله كلها ويضاعف له أجرها: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة. والله يضاعف لمن يشاء﴾.

بينما الربا يحبط أعمال المرابى كلها كما نعلم ذلك عن طريق التأمل فى نظم قوله تعالى: ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

فهذه الآية وضعت فى خلال الحديث عن الربا وعواقبة السيئة الوخيمة، وتفيد بنظمها أن المرابين لا تقبل لهم صلاة ولا زكاة، ولا ايمان ولا أى عمل صالح.

٣- والانفاق سبب الى الحياة، فهو يملأ اهاب الأمة بقوماتها. ويكسبها العز والفوز والفلاح. ولقد فصلنا ذلك فيما مضى.

والربا سبب الى البوار والدمار وطريق الى المحق والسحق والهلاك كما قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات﴾.

٤- والانفاق طريق الى النور، فهو يجعل للمنفق نورا يمشى به فى الناس، وسيكون له يوم القيامة نورا يسمى بين يديه. ولقد بينا ذلك فيما مضى.

والربا ظلم كما يصرح به قوله تعالى: ﴿وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون﴾

(١) فى ظلال القرآن: ٣١٨/١

وهو كفر واثم كما يعلن به قوله تعالى ﴿يُمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. واللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ
كَفَّارٍ أَثِيمٍ. ﴿١﴾

والظلم والكفر والاثم ظلمات بعضها فوق بعض. ولقد قال نبينا - عليه الصلاة والسلام - (الظلم
ظلمات يوم القيامة). (١)

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها فنحمده تعالى على حسن توفيقه ونشكره
بما هو أهله. ثم نتوجه إلى ما بعدها.



(١) مختصر صحيح البخارى للزبيدي، كتاب المظالم، رقم الحديث (١١١٧)

نظم الآيتين (٢٨٣-٢٨٢)

قال تعالى:

هيا أيها الذين آمنوا اذا تدايتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل. ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا. فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل. واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا، ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله. ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد. وان تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله. والله بكل شئ عليم. وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فلهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي ائتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتبها فإنه أثم قلبه. والله بما تعملون عليم.



ان هذه الأحكام تكملة للموضوع الذي تناولته الآيات السابقة فانها قد حذرت من التعامل بالربا. والربا نوعان:

فنوع منه يكون صريحا مكشوفاً، وهو الذي يتفق عليه الطرفان باسم الربا، ويتم هذا التعامل بينهما عن تراض منهما.

ونوع آخر يكون خفيا دقيقا قد لا ينتبه له الناس، وهو الذي يتم بدون اتفاق سابق من الطرفين. ومثاله أن يتداین فريقان بدون كتابة ولاشهود، ثم تمضى فترة، ويعداها يثور بينهما خلاف فى المبلغ الذي اتفقا عليه أو تداینا عليه. فالمقرض- مثلا - يدعى على المستقرض فوق المبلغ الذي دفعه اليه، وينجح فى انتزاع هذا المبلغ من كيسه. فهذا المبلغ الذي يزداد على المبلغ المستحق يكون (ربا) ولا شك.

وقد يكون الأمر على العكس، فالمستقرض يريد أن يرجع الى المقرض أقل من المبلغ الذي استلمه منه، فالذي يبقى عند المستقرض من حق المقرض يكون (ربا) ولاشك. سواء كان هذا التصرف من المقرض أو المستقرض عن قصد أو بدون قصد.

والآيات السابقة ماكانت تتناول الا ذلك النوع الواضح المكشوف من الربا، ولو وقف النص عند هذا الحد لكان المجال واسعا مفتوحا أمام الذي يريد أن يزاول ذلك النوع الثانى من الربا.

وأما الذى لا يريد ذلك ويحرص أن يكون نزيها ملتزما بحدود الله فى معاملاته فهو أيضا لم يكن بمغافة من أن يقع فى هذا الوحل. بل كان الأغلب أن يقع فيه وهو لا يعلم ولا يشعر. فجاءت تلك الأحكام تسد هذه الثغرة وتضع المعول على رأس الرجا حتى تقضى عليه نهائيا، وحتى لا يقع فيه من يريده ألا يرتجده.

ومن هنا نرى أن رأى القائل بوجوب الكتابة والشهاد عند التداين هو رأى. وأما ما قاله الفراء من أن: «هذا الأمر ليس بفريضة، إنما هو أدب ورحمة من الله تبارك وتعالى. فان كتب فحسن وان لم يكتب فلا بأس، وهو مثل قوله: «وإذا حللتم فاصطادوا» أى فقد أبيح لكم الصيد، وكذلك قوله: «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض» ليس الانتشارو الابتغاء بفريضة بعد الجمعة، إنما هو اذن.» (١)

فهو قول لا يخلو من ضعف. ونحن نتعجب من الفراء كيف لم يفرق بين الموضعين، مع أن الأمر كان واضحا جدا. فان الأمر جاء فى الموضعين، الذين ذكرهما بعد النهى والأمر اذا جاء بعد نهى سابق أفاد معنى الاباحة، كما هو مقرر فى كتب المعانى.

والوضع هنا مختلف تماما فانه أمر مستأنف لم يسبقه نهى ولا حظر. ثم ان أغضينا الطرف عن هذا الاشكال، فماذا نفعل بتلك التوكيدات الجادة المتكررة، التى تبعت هذا الأمر، وهى كما يلى.

﴿ولا يكتب بينكم كاتب بالعدل﴾
﴿ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾
﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾
﴿ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا﴾
﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله﴾
﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا﴾
﴿واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾
﴿وان تفعلوا فانه فسوق بكم﴾
﴿وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة﴾
﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه اثم قلبه﴾

هذه التوكيدات المتكررة المتعاقبة فى شأن الكتابة والشهاد ماذا تفيد؟ وهل مفهوم الاباحة والتخيير أيضا يحتاج الى هذه التوكيدات المتكررة المتعاقبة الصارمة؟

الواقع أن الوضع جد غريب!

ولعل الذي أدى بالناس الى هذا الوضع الغريب هو قلة اعتنائهم بنظام الآيات، وعدم انتباههم لخطورة الموقف، فإن الموقف هو موقف مكافحة الربا وموقف تضيق الخناق عليه، وموقف القضاء عليه نهائيا، حتى لا يبقى له ذكر ولا أثر في المجتمع.

وهذا هو السر في أن السياق أعقب هذا الأمر بتلك التوكيدات المتكررة المتعاقبة الصارمة. وبالجملية فنحن نقول بما قال صاحب الظلال - رحمه الله -:

«فالكتابة أمر مفروض بالنص، غير متروك للاختيار في حالة الدين الى أجل.» (١)

ولقد روي عن الضحاك - رحمه الله - أنه قال: «آية الدين حكم الله وفصله وبينه فليس لأحد أن يتخير في حكم الله» (٢).

ومن تبنى هذا الرأي وتحمس له من أعلام المفسرين الإمام ابن جرير - رحمه الله - (٣).

تحقيق القول في مشروعية الرهن:

وما يوحى إلينا السياق أن الرهن لم يشرع الا كبديل لأمر الكتابة، ولم يشرع إلا في حالة عدم وجود الكاتب، حذرا من الوقوع في الربا أو شبهة الربا. فلا يشرع الا في هذه الحالة الخاصة. ويمجرد وجود الكاتب يبطل هذا الحكم ويجب رد الرهان الى صاحبها. هذا هو المتبادر من قوله تعالى:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَّ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾

فالمراد بالأمانة هي الرهان والمؤتمن هو الدائن. والمراد من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تهيؤ الكتابة بوجود الكاتب، فإذا وجد الكاتب وتهيأت الكتابة وحصل الأمن من جحود المستدين ومماطلته، فهناك يجب رد الرهان الى صاحبها وهذا هو الأقرب للتقوى. وهذا هو التأويل الذي يلائم جو الآية وسياقها.

فالكتابة والاشهاد كما بينا، أمر مفروض بالنص، ولم يترك لنا فيهما الخيار حتى نستغنى عنهما إذا كانت الثقة متبادلة، ونلجأ اليهما إذا لم تتوفر دواعي الأمن والثقة.

وأمر الرهن كذلك، فهو لا يختلف عن الكتابة والاشهاد من حيث هو بديل لهما، فكما أن الكتابة والاشهاد واجبان إذا تيسرا، فكذلك الرهن واجب في وقت تعذرهما. ولا بد لنا في التداين من أحدهما بصرف النظر عن تبادل الثقة والأمن أو عدم تبادلهما.

(١) في ظلال القرآن: ٣٣٥/١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠٣/٣

(٣) تفسير الطبري: ٩٣/٣

وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن نفسر قوله تعالى: (فإن أمن بعضهم بعضاً) الآية بذلك التفسير الذي لا يتفق مع طبيعة الموقف.

بل يتعين علينا أن نفسره بوجوب رد الرهان إلى صاحبها، إذا تيسرت الكتابة وحصل الأمن من جوده ومماطلته.

قال ابن جرير حدثني المثنى قال ثنا اسحق قال ثنا أبو زهير عن جوير عن الضحاك قوله: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، فمن كان على سفر فبايع بيعاً إلى أجل فلم يجد كاتباً فرخص له في الرهان المقبوضة، وليس له أن وجد كاتباً أن يرتهن. (١)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾ قال لا يكون الرهان إلا في السفر. (٢)

والذي يظهر من نظم الآية وسياقها هو أن السفر ليس هو السبب في مشروعية الرهن، وإنما السبب هو عدم وجود الكاتب. وإنما ذكر السفر لأنه مظنة اعوازه في الغالب. فلو حدث - مثلاً - اعوُّ الكاتب في الحضر فليس هناك مانع من مشروعيته في الحضر. وهذا الذي يستفاد من كلام الضحاك - رحمه الله -

وأما ما روى عن مجاهد من اشتراط السفر لمشروعية الرهن، فهو ايضاً - فيما نرى - جاء بحسب الواقع الذي كان يعيشه - رحمه الله - فإنه ما كان يتصور في تلك الأيام، كما لا يتصور اليوم، أن لا يوجد كاتب في الحضر، ومن هنا قال (لا يكون الرهان إلا في السفر).

فمناط الحكم إذاً ليس هو الحضر والسفر، وإنما هو عدم وجود الكاتب، فيشرع الرهن إذا لم يوجد الكاتب وإذا وجد فلا يشرع.

كلمة قيمة للفراهي:

وأخيراً نقفل هذا الموضوع بكلمة للامام الفراهي حيث قال:

«الآيتان: (٢٧٢-٢٧٣) فيما يتعلق بالتعاون دون الصدقة وهو القرض. وأوجب فيه الكتابة أو الرهن حين تتعذر الكتابة. فلا رهن فيما عدا ذلك، كما ذهب إليه مجاهد والضحاك - رحمهما الله - فقالا: لا يجوز الرهن إلا في السفر (انظر ابن جرير الطبري: ٩٢/٣) .. فأوجب أداء الرهن عند ارتفاع الضرورة.. وأعلن به النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطبة حجة الوداع فذكر الرهن مع الربا والدم: (الطبري: ١٧٥٣) (٣) وترى اليوم كيف اختلط الربا بالرهن. وإنما خفي هذا الأمر

(١) تفسير الطبري: ٩٢/٣

(٢) الدر المنثور: ١٢٥/٢

(٣) تاريخ الطبري: ١٥٠/٣

لأن الرهن عبر بالأمانة. » (١)

هذا ماتيسر لنا فى بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما فنحمده تعالى على حسن توفيقه ونشكروهم بما هو أهلـه.

وقبل أن نغادر الآيتين الى ما بعدهما، نعود اليهما مرة أخرى. ونلقى عليهما نظرة أوسع وأشمل وأدق باعتبارهما مسك الختام لأحكام هذه السورة.

ان النظر فى هاتين الآيتين من هذه الناحية يكشف لنا أنهما كما تتمتعان بحسن المناسبة وحسن النظام فى اطارهما الخاص، تتسجمان تمام الاتسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وبيانه أن أقطع جريمة اقترفها بنو اسرائيل - كما نعلم من هذه السورة - هى أنهم نقضوا العهد وكتبوا الشبهة. والآيات الصريحة فى ذلك كما يلي.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الآية. (٢)

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ وَيَا أَيُّهَا الْفَارِثُونَ﴾ (٣)

﴿أَوْ كَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِلَ أَيْمَانِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٥)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية. (٦)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ. خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٧)

(١) مذكرات القرآن للفراهى (مخطوط).

(٢) سورة البقرة: ٢٦-٢٧

(٣) سورة البقرة: ٤٠

(٤) سورة البقرة: ١٠٠

(٥) سورة البقرة: ٨٣

(٦) سورة البقرة: ٨٥

(٧) سورة البقرة: ٦٣-٦٤

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى. قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤)

تلك آيات تسجل على بني اسرائيل نقض العهد والميثاق وتسجل عليهم كتمان الحق وكتمان الشهادة بالنص على هذه الكلمات ، والآفا لآيات التي تفيد هذا المعنى وتشير الى هذه الجريمة، أكثر منها مرات ومرات.

ثم لما بعثت هذه الأمة لتقوم بدورها في هذا العالم ناداها ربها بتلك الكلمات:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٥)

وهكذا نرى هذه السورة يسودها جو العهد والميثاق وجو أداء الشهادة والقيام بالحق

فأمة وصمت بأنها نقضت العهد والميثاق وكتمت الشهادة وكتمت الحق.

وأمة بعثت لتقوم بمهمة الشهادة على الناس، كما أن الرسول بعث ليقيم بمهمة الشهادة على هذه الأمة.

فلنرجع الى هاتين الآيتين مرة أخرى لنراهما كيف تتسجمان تمام الانسجام مع هذا الجو العام لهذه

السورة.

وان كنا نريد أن ندرك هذا الانسجام التام فلا يكلفنا هذا أكثر من أن نضع في اعتبارنا هذه

الترجيحات التي تشتمل عليها هاتان الآيتان.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ

الشهداء أَنْ تَضِلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى﴾

﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

(١) سورة البقرة: ١٤٠

(٢) سورة البقرة: ١٤٦

(٣) سورة البقرة: ١٥٩

(٤) سورة البقرة: ١٧٤

(٥) سورة البقرة: ١٤٣

﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة﴾

﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾

﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾

﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾

فقد تكررت لفظة (الشهادة) بمختلف مشتقاتها في آيتين اثنتين ثماني مرات.

وتلك ميزة تتميز بها هاتان الآيتان من بين سائر آيات القرآن، فانا لا نجد في القرآن آيتين

تكررت فيهما لفظة الشهادة كما تكررت في هاتين الآيتين.

وهذا الوضع يكفى لأن يلون جو الآيتين بلون (الشهادة) ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل

جمع السياق في هاتين الآيتين جميع مقومات الشهادة أو عيون مقومات الشهادة، فلنتدبر هذه

التوجيهات :

﴿ولا يكتب بينكم كاتب بالعدل﴾

﴿فليمل وليه بالعدل﴾

﴿ذلكم أقسط عند الله﴾

﴿فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي ائتمن أمانته وليتق الله ربه﴾

﴿وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا﴾

﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من

الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى﴾

فقد جمع الله في هذه التوجيهات - كما نرى - سنّ الشهادة: وهو أن يكون الشاهد قد بلغ مبلغ

الرجال، ونصاب الشهادة: وهو رجلان أو رجل وامرأتان: ومقومات الشهادة : وهو العدل والقسط

والأمانة والتقوى.

ثم ان هذه التوجيهات، التي تضمنت التنويه بالشهادة ومقوماتها انما جاءت بمناسبة التنويه بالعدل

والتحريض على أن نأخذه مأخذ الجد:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه﴾

أي اذا تداينتم بدين، أي دين، سواء كان صغيرا أو كبيرا، فاكتبوه. ولقد بين السياق نفسه هذا

الابهام فيما بعد فقال:

﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجل﴾

والقارئ المتأمل يتعجب من الزمخشري - رحمه الله - كيف لم ينتبه لهذه النكتة مع علو كعبه

في تلوق النكات البلاغية، حيث قال:

« إذا تداينتم » دأين بعضكم بعضا. يقال: دأينت الرجل إذا عاملته (بدین) معطيا أو آخذا كما تقول بايعته إذا بعته وأباعك قال رؤية:

دأينت أروى والديون تقضى فمطلت بعضا وأدت بعضا

والمعنى إذا تعاملتم بدین مؤجل فاكذبوه. فان قلت: هلا قيل إذا تداينتم الى أجل مسمى؟ وأى حاجة الى ذكر الدين كما قال دأينت أروى ولم يقل بدین؟ قلت: ذكر ليرجع الضمير اليه فى قوله : «فاكتبوه» إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكذبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين. لتنوع الدين الى مؤجل وحال.» (١)

ولعل القارئ لا يبالغ إذا قال: إن هذا التأويل الذي ذهب اليه الزمخشري تكلف محض، وهو لا يكشف شيئا من جمال هذا الأسلوب. وبيانه أن رجع الضمير المنصوب في قوله تعالى «فاكتبوه» إلى (دين) المذكور في قوله تعالى: «إذا تداينتم بدين» ليس له وجه وجيه، فإن المأمور بكتابته في الآية ليس هو الدين. وإنما هو التداين.

أى: لا يكتب قدر المبلغ فقط، بل تقيّد المعاملة كلها بجميع تفاصيلها. وعلى هذا فالضمير راجع إلى التداين، وليس إلى (دين).

ولم يكن هناك أي اشكال من ناحية الاعراب لو أن السياق كان قد استغنى عن ذكر لفظة (دين) ومن هنا يظهر ضعف هذا القول.

ولعله - رحمه الله - لو انتبه الى تلك النكتة التي أشرنا اليه لما ذهب الى ما ذهب اليه.

وعلى أية حال فجات هذه الآية تؤكّد للناس أمر العقد وتحرضهم على أن يأخذوه مأخذ الجد.

ولا يرتضوا فيه بالهونى، حتى لا يكتبوه، أو يكتبوه إذا كان كبيرا، ولا يكتبوه إذا كان صغيرا.

فترى هاتين الآيتين كيف تتناولان موضوع العقد والشهادة، وكيف تأخذ انهما مأخذ الصرامة والجدة، وبذلك تنسجمان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وكأنهما توحيان بهذا الانسجام أن الأمة إذا كانت جادة فى أمر الديون التي تتداين بها، وكانت جادة فى العقود التي تبرمها فيما بينها، وكانت تشعر بمسئولية الشهادة فى معاملاتها وتصرفاتها، فسيكون هذا اعدادا وتربية لها للإيفاء بعهد ربها، وللقيام بتلك الشهادة العظمى التي بعثت لأجلها، ألا وهي الشهادة على الناس: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا».

ومن هنا ندرك خطورة شأن هاتين الآيتين، وندرك السر فى كونهما مسك الختام لأحكام هذه السورة، وندرك السر فى كون الآية الأولى منهما أطول آية فى أطول سورة فى أعظم صحيفة الأمة. وبعد هاتين الآيتين، اللتين جعلهما الله مسك الختام لأحكام هذه السورة تطالعنا خواتيم آياتها وموضوعاتها.

نظم الآيات (٢٨٤-٢٨٦)

قال تعالى:

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ. فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ. كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكِتَابُهُ وَرَسُولَهُ. لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا. لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا. رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

تلك ثلاث آيات بقيت لنا من هذه السورة.

ولقد عني عدد من المفسرين - رحمهم الله - بإبراز مناسبتها لما قبلها، واهتموا بها اهتماما خاصا باعتبارها خواتيم هذه السورة العظيمة. (١)

ولاشك أنها كانت محاولات قيمة مشكورة. ولقد أبرزت لنا تلك المحاولات جوانب هامة لمناسبة تلك الآيات لما قبلها.

الا أن الذي ينقصها جميعا هو أنها قطعت الآية الثالثة الأولى من الآيتين الأخيرتين. وهذا الشئ حجب الكثيرين عن الرؤية الواضحة الكاملة لنظام تلك الآيات، كما أدى ببعضهم الآخرين الى تكلف واضح صارخ في تحميل العبارة معنى لا تحتمله كما نرى عند الدكتور عبدالله دراز بحيث جعل الآية الأولى: (٢٨٤) آية الاحسان (٢) ولاصلة لها بموضوع الاحسان، لامن قريب ولا من بعيد. وسنبين ذلك فيما بعد.

والذي يترجع عندنا هو أن الآية الثالثة الأولى أيضا من خواتيم هذه السورة. وهي أقرب نسبا الى ما بعدها من الآيتين، دون آيتي الدين والرهان.

وحجتنا في ذلك هي سياق الكلام ووحى النظام نفسه، فان المعنى لا يستقيم كما يستقيم اذا وصلنا هذه الآية بالآيتين الأخيرتين دون السابقتين. وسيتضح هذا الأمر حينمانتئين وجه المناسبة في هذه الآيات.

(١) انظر - مثلا - تفسير البحر المحيط: ٣٥٩/٢، ٣٦٣، ٣٦٤ ومختصر تفسير المنار:

٢٨٢/٢-٢٨٣، والنبا العظيم: ص/٢٠٩، ٢١٠. وفي ظلال القرآن: ٣٤٠، ٣٣٩/١

(٢) النبا العظيم ص: ٢٠٩

دراسة الروايات الواردة فى شأن خواتيم السورة:

ثم هناك روايات تعزز هذا الموقف وترشدنا الى الظاهرة التى توصلنا اليها من خلال التأمل فى سياق الكلام.

فقد أخرج الخطيب فى تلخيص المتشابه عن ابن مسعود قال: من قرأ الثلاث الأواخر من سورة البقرة فقد أكثر وأطاب. (١)

وأخرج أحمد والنسائى والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبى ﷺ كان يقول: أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبلى. (٢)

وأخرج الدارمى عن الشعبى قال قال عبدالله من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح. أربعاً من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث خواتيمها، أولها: لله ما فى السموات. (٣)

فهذه الروايات تفيد أن المراد من خواتيم البقرة ليست الآيتان فقط، بل المراد منها الآيات الثلاث الأخيرة. قد يشور هنا سؤال: كيف يكون التوفيق بين هذه الروايات والروايات التى تفيد أن المراد من خواتيم البقرة هما الآيتان فقط، فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :

(من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه). (٤)

والجواب على هذا السؤال سهل وميسر باذن الله، اذا وضعنا فى اعتبارنا أن الآيتين الأخيرتين عبارتان عن دعوات ضارعة خاشعة وهذه الدعوات لم تترك من الخير شيئاً الا اشتملت عليه ولا من الشر شيئاً الا استعاذت منه.

اذا فهى تخص كل مؤمن ومؤمنة وتتصل بحياتهما اتصالاً مباشراً. والمؤمن بحاجة الى أن تكون هذه الدعوات دائماً فى باله، حتى يمكنه القيام بمهمته التى نيظت به.

والنبى ﷺ نفسه نبه الى هذه الناحية، حيث أخرج الدارمى عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: ان الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطيتهما من كنز الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم، فانهما صلاة وقرآن ودعاء. (٥)

(١) الدر المنثور: ١٣٩/٢

(٢) الدر المنثور: ١٣٨/٢

(٣) سنن الدارمى: باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي: ص/٨٤٤

(٤) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب فضل البقرة: ١٠٤/٦

(٥) سنن الدارمى: كتاب فضائل القرآن، ص/٨٤٦

وعن محمد بن المنكدر قال: قال رسول الله ﷺ في أواخر سورة البقرة: (انهن قرآن وانهن دعاء وانهن يدخلن الجنة وانهن يرضين الرحمن). (١)

ثم ان هاتين الآيتين كما أنهما دعاء فكذلك هما ثناء على النبي ﷺ وعلى أمته، حيث أخرج ابن جرير عن حكيم بن جابر قال لما أنزلت على رسول الله ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأُكُنْهَ وَكِتَابَهُ وَرَسُولَهُ﴾ لا نفوق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. قال جبريل: «ان الله عزوجل قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه» فسأل (٢)

فهذه أمور تضاف على الآيتين الأخيرتين أهمية خاصة وتهيب بالأمة أن تعبرهما كل اقبال وكل اهتمام وكل تقدير.

ومن هنا جاءت بعض الروايات تنوه بشأنهما خاصة وتبحث على الحرص عليهما كل الحرص.

الا أن هذا الإيفاض من شأن الآية الثالثة الأولى ولا يتعارض مع كونها من الخواتيم.

وليس هناك أى اشكال اذا كانت بعض الروايات تسمى الآيتين الأخيرتين فقط بالخواتيم وبعضها الآخر تشرك الآية الثالثة الأولى أيضا في هذا الحكم فهذا له وجه وذاك له وجه. وسيزداد الأمر وضوحا اذا عرفنا وجه المناسبة في تلك الآيات، وعرفنا وجه مناسبتها لما قبلها.

مناسبة الآيات لما قبلها:

ان دراسة هذه السورة والتأمل في نظام آياتها يكشف لنا أن هذه السورة في أغلب قطاعاتها ومعظم أجزائها تقصد بالخطاب الى الطائفة الثالثة التى ورد ذكرها في أول هذه السورة. وهم الذين قال الله فيهم:

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾

حتى المواضع التي جاء فيها الخطاب مصدرا بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهذه المواضع أيضا تشمل - في الغالب - مع المؤمنين الصادقين، هؤلاء القوم الذين آمنوا، ولم يستقر الإيمان في قلوبهم ولم يتحل بالاستقامة سلوكهم.

فأول آية جاء فيها الخطاب مصدرا بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هي تلك الآية:

(يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا للكافرين وعذاب اليم.)

وبعدها مباشرة جاء قوله تعالى:

(١) الدر المنثور: ١٣٨/٢

(٢) تفسير الطبري: ١٠٢/٣

﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم. والله يختص برحمته من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.﴾

فهذه الآية تشير أن الخطاب السابق وإن كان خطابا عاما يشمل كافة المؤمنين، إلا أنه كان في الواقع موجهاً الى الذين كانوا على صلة بكفار أهل الكتاب، وكانوا يستمعون الى أحاديثهم ويتأثرون بآبائهم.

ويصبح الموقف واضحاً جلياً حين يتكرر اليهم الخطاب بعد قليل يعتفهم وينكر عليهم سلوكهم: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسوالم كما سئل موسى من قبل. ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾

فهذا الخطاب أميل - ولاشك- الى هؤلاء القوم الذين كانوا على صلة بأهل الكتاب، وكان يخشى منهم اقتفاء أثرهم واتباع سنتهم. ومن هذا النوع قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله أن كنتم إياه تعبدون.﴾^(١) فتعليق هذا التوجيه الكريم على هذا الشرط: ﴿أن كنتم إياه تعبدون﴾ له دلالة التي لا تخفى على من يتأمل فيه. وهذا الأسلوب لا يتخذه القرآن أبداً الا اذا كان في القوم من يدعون الايمان ولم يحسن ايمانهم. وكان هؤلاء هم المقصودين بالخطاب بالقصد الأول. ومنه قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر..... الآية﴾^(٢)

فسياق الآية وأسلوبها يدل على أن هذا الخطاب، وإن كان موجهاً الى كافة المؤمنين، إلا أنه أميل الى قوم كانوا يرضون بالمال وكانوا يراءون بالانفاق، وكانوا يتبعونه المن والأذى، ولم يكن يحفزهم الى الانفاق تلك الروح الصادقة من الايمان بالله واليوم الآخر.

وأوضح من ذلك كله قوله تعالى في سياق التنديد بالريا:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾^(٣) فلون تلك الآيات وسياقها يدل على أن الخطاب هنا، وإن كان بلفظه يعم جميع المؤمنين، إلا أنه

(١) سورة البقرة: ١٧٢

(٢) سورة البقرة: ٢٦٤

(٣) سورة البقرة: ٢٧٨-٢٧٩

أميل الى قوم كانوا يتعاملون بالريا وكانوا من ناحية سلوكهم وتصرفاتهم بحيث يخشى منهم ألا يطيعوا أمر الله ولا يرتضوا ماشرعه لهم فلا ينتقدوه فى حياتهم ، ولا يحكموه فى معاملاتهم.

ولا يفوتنا التنبيه الى أن السياق قد فرق هنا ينظمه بين (الذين آمنوا) وبين (المؤمنين) فـ«الذين آمنوا» يطلق على كل من المؤمن الصادق والمنافق المرائى. ويطلق على كل من ادعى الايمان سواء دخل الايمان فى قلبه أو بقى كلمة بلاروح على لسانه، بينما (المؤمنون) يطلق على الذين خلصت نياتهم وصدق ايمانهم وظهرت دلائله فى سلوكهم وتصرفاتهم.

تلك بعض النماذج مما يعزز قولنا الذي سبق أن قلنا، وهو أن هذه السورة فى أغلب قطاعاتها ومعظم أجزائها تقصد بالخطاب الى القوم الذين آمنوا ولم يحسن ايمانهم، وكانوا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.

ولست هنا بصدد تفصيل هذا الموضوع، فقد انتهيت منه فى الصفحات السابقة، حيث أبرزت هذه النكتة فى خلال بحثى كلما سنحت لى الفرصة، وخاصة فى خلال دراستى لتلك الأسئلة التى وردت فى هذه السورة.

والآن أرتقى خطوة أخرى فأقول: ان الآية الأولى من تلك الآيات الثلاث التى جاءت كخاتمة للسورة، ناظرة الى هؤلاء الذين آمنوا وماحسن ايمانهم. وكانوا يبذون للناس غير ماكانوا يخفون فى أنفسهم. فجاءت مخاطبتهم هذه الآية حسب واقعهم وتجميل لهم القول فى شأنهم:

﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض. وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شئ قدير.﴾

فكانت هذه الآية انذارا لهم وتنبيها الى أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها قبل أن يحاسبهم الله، فانهم اذا حاسبهم الله فلن يكون هناك احد يغنى عنهم من عذابه من شئ. وهو الذي يتصرف حينئذ كيف يشاء، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

فهذه الآية تشبه فى سياقها وصياغتها ودلالاتها قوله تعالى فى السورة التى بعد هذه السورة، حيث قال تعالى:

﴿قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شئ قدير. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه. والله رؤف بالعباد.﴾ (١)

وهذه الآية كما أنها تساعدنا فى فهم المراد من تلك الآية فكذلك قيل بنا الى رد قول الذين زعموا فيها النسخ، فانها لوكانت منسوخة لما تكرر مضمونها فى سورة نزلت بعدها.

ولعل الذين ذهبوا الى القول بتسخ تلك الآية انما ذهبوا اليه لأنهم لم يظهر لهم المحمل الصحيح لقوله تعالى بعد هذه الآية:

﴿لايكلف الله نفسا الا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ وسين ذلك فيما بعد باذن الله.

وعلى أية حال فجاءت هذه الآية تنبيها وانذارا لقوم كانوا يتعشرون في ايمانهم وكانوا يخافون من تبعات المهمة التي نيظت بهم، ألا وهى الشهادة على الناس:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا.﴾

ثم فى مقابل تلك الطائفة ذكرت طائفة أخرى صدقوا الله فى ايمانهم واستجابوا لدعوته فى خشوع واخلاص:

﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون. كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرق بين أحد من رسله. وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير﴾

ولقد سبق أن علمنا الفرق بين (الذين آمنوا) وبين (المؤمنين) فالطائفة الأولى كانت طائفة (الذين آمنوا) وهذه طائفة (المؤمنين) - المؤمنين الذين سبق ذكرهم فى مطلع هذه السورة، حيث قال تعالى:

﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين . الخ﴾

فالْمؤمنون آمنوا بما أنزل اليهم من ربه، وعلى رأسهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

كلهم آمنوا بما أنزل اليهم فى صدق وحرارة وخشوع واخلاص كما يمثل لنا ذلك قولهم: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير.﴾

وأیضا نعلم ذلك بالتأمل فى النظم الذي وردت عليه الآية، فان الدعوات التى تبعته هذا الاقرار وهذا الدعاء لم تكن منفصلة منه، الا أن السياق فصل بين هذا و تلك بقوله تعالى:

﴿لايكلف الله نفسا الا وسعها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾

وكان السياق أراد بهذا النظم أن يوحى الى هؤلاء المؤمنين أن قلوبهم الصادقة المؤمنة لما هاجت وفاضت بتلك الأدعية الخاشعة الضارعة أسرع اليهم الاستجابة قبل أن تصعد تلك الأدعية الى ربها. فقله تعالى: ﴿لايكلف الله نفسا الا وسعها.. الخ﴾ ليس رفعا أو نسخا لحكم سابق كما قيل، وانما وضع هذا القول حيث وضع تطبيبا لخاطر هؤلاء المؤمنين وتطمينا لنفوسهم أن الدعوات التى خفقت بها قلوبهم نالت الاستجابة قبل ان تنطق بها شفاهم فهم سينالون المغفرة عند ربهم، ولا يؤاخذون على خطأ أو نسيان، ولا يحمل عليهم ربهم اصرا كما حمله على من قبلهم ولا يحملهم مالا طاقة لهم به، وهم سينالون العفو والمغفرة والرحمة، وسينتصرون على القوم الكافرين فليفرحوا بذلك وليطمئنوا.

يقول أستاذنا الامام عبدالحميد الفراهي - رحمه الله - :

«قوله تعالى: ﴿لايكلف الله .. الآية﴾ تطيب من الله لقلوب المؤمنين ولا نسخ فيها لما مر من أمر

ويشبهه ما قاله من قبل العلامة ابن الزبير الغرناطى شيخ أبى حيان- رحمهما الله - حيث قال: «... فقال تعالى: ﴿آمن الرسول﴾ فاعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا ، لا نقول بني اسرائيل: سمعنا وعصينا ، وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الاصر والمشقة والمؤاخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: لا يكلف الله نفسا الا وسعها. ﴿ (٢) »

ومن سبقهما بالقول بعدم نسخ ما مر من أمر المحاسبة سيدنا ابن عباس (رضي الله عنهما) حيث روي قوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فذلك سر أمرك وعلاتيته ﴿يحاسبكم به الله﴾ وإنها لم تنسخ. (٣)

وأيضاً روي عن الربيع بن أنس قوله عن هذه الآية: (هي محكمة لم ينسخها شيء) (٤)

ثم ان هذه الأدعية الحارة الضارعة كما تمثل لنا بنظمها وسياقها ذلك الجو الحلو اللطيف، الذي أشرنا اليه فكذلك تذكرنا ذلك المشهد الرائع الجميل ، حين كان ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام- يرفعان القواعد من البيت. فكانت أيديهما الطاهرة ترص اللبانات، وكانت قلوبهما الخاشعة تخفق بهذه الكلمات:

﴿ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. انك أنت العزيز الحكيم.﴾

فهذه الأدعية التى جعلها الله مسك الختام لهذه السورة الكريمة - السورة التى تشتمل على الدعوة التى دعاها ابراهيم واسماعيل لهذه الأمة، هذه الأدعية توحى بما يملأها من حرارة الاسلام ويريق الايمان ، أن الأمة التى كان ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام- يتطلعان اليها ويتمنيان وجودها، هى تلك الأمة.

فهى أمة قد آمنت بما أنزل اليها ربها أروع ايمان. واستجابت لدعوته أحسن استجابة، فكانت مثلاً فذاً فى السمع والطاعة والبذل والتضحية.

ومن هنا كانت أمة مسلمة حقاً كما ارادها ابراهيم.

(١) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

(٢) البرهان فى ترتيب سور القرآن: ص/٩

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ١٢.٨ / ٣

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: ١٢.٧ / ٣

إذا فهذه الخاتمة الجميلة لهذه السورة الكريمة كانت اعلاتا باستجابة دعاء ابراهيم ، وكانت اعلاتا بأن الأمة التي ظل ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - يحلمان بها طوال السنين قد أخذت طريقها الى الوجود لتلمب دورها المرتقب فى هذا الكون العظيم.

وما هو غنى عن الذكر أن هذه الأدعية الحارة الضارعة الخاشعة لم تكن نتيجة وهن أو ضعف أو استكانة وما الى ذلك. وانما كانت نتيجة احساس مرهف بضخامة المهمة وعظم المسؤولية.

وهذا الاحساس المرهف هو الذي حملهم على أن يتزودوا بهذا الزاد الكريم - زاد الدعاء والتضرع الى الله - قبل أن ينزلوا فى المعركة.

فهذا الدعاء والتضرع الى الله كان دليلا على صفاء نيتهم وصدق عزيمتهم وعلو همتهم وكان مؤهلا لهم للقيام بتلك المهمة الجليلة التى لم ينهض لها غيرهم.

ومن الظواهر العجيبة فى تاريخ الدعوة أن أية أمة من الأمم لم توفق الى تلك الدعوات الضارعة الخاشعة كما وفقت اليها هذه الأمة.

فأصحاب طالوت لما برزوا لجالوت وجنوده لم يزدوا على أن قالوا:

﴿هَرَبْنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.﴾ (١)

والحواريون الذين استجابوا لدعوة سيدنا عيسى وتقدموا لنصره لم يزدوا على أن قالوا:

﴿هَرَبْنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ.﴾ (٢)

وصحابة الأنبياء الآخرين لم يؤثر عنهم غير قولهم:

﴿هَرَبْنَا أَغْفِرْلَنَا ذُنُوبَنَا وَأَسْرَأْنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.﴾ (٣)

أما تلك الدعوات الطويلة الضارعة الخاشعة - كما نرى فى خاتمة هذه السورة وكما سنرى فى أول آل عمران وفى خاتمتها - فهي من خصائص هذه الأمة - الأمة التى بعثت استجابة لدعوة سيدنا ابراهيم. فجاءت تشبه - بعض الشبه - أباه ابراهيم فى دعواته الطويلة الضارعة الخاشعة ، كما وردت فى هذه السورة وفى سورة ابراهيم.

وبالجملة فهذه الآيات الثلاث، التى جعلها الله ختاماً لهذه السورة الكريمة ، كانت اختصاراً عجيباً لمضمونها ، حتى جعلت آخرها تعانق أولها بشكل عجيب.

ولكن لا عجب ، فذلك تقدير العزيز العليم.



(١) سورة البقرة: ٢٥٠

(٢) سورة آل عمران: ٥٣

(٣) سورة آل عمران: ١٤٧

عمود السورة

إذا أردنا أن نعرف عمود هذه السورة ونعرف اتجاهها، فلا تغب عن بالنا تلك الآيات التي تلمع فيها كأنها نار على يقاع:

﴿الم . ذلك الكتاب . لاريب فيه . هدى للمتقين﴾ (٢-١)

﴿وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله . وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ (٢٤-٢٣)

﴿يابنى اسرائيل انكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهديكم وإياي فارهبون . وأمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتبوا الحق وأنتم تعلمون .﴾ (٤٠-٤٢)

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وبقينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلمنا جاءكم رسول بما لاتهى أنفسكم . استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بنسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فإثرا بغضب على غضب . وللكافرين عذاب مهين .﴾ (٨٧-٩٠)

﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون . أولكما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .﴾ (٩٧-١٠١)

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فولئك هم الخاسرون﴾ (١٢١)

﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا . انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم .﴾ (١٢٧-١٢٩)

﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكم الله .

وهو السميع العليم ﴿١٣٧﴾

﴿ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. الا الذين تابوا وأصلحوا ويبينوا قولك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم.﴾ ﴿١٥٩-١٦٠﴾

﴿ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا، أولئك ما ياكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق. وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد.﴾ ﴿١٧٤-١٧٦﴾

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه. والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم.﴾ ﴿٢١٣﴾

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوا. واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به. واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شئ عليم.﴾ ﴿٢٣١﴾

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. وانك لمن المرسلين.﴾ ﴿٢٥٢﴾

﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون. كل آمن بالله وملائكة وكتبه ورسله. لانفرك بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير.﴾ ﴿٢٨٥﴾

تلك الآيات التى تتلأ فى مختلف أنحاء السورة وتلمع فيها كأنها نار على يفاع. والتأمل فيها يساعدنا فى تحديد عمودها واتجاهها. ألا هو تقرير حقيقة القرآن والدعوة الى الايمان به.

فبدئت السورة بالاشادة بالقرآن والتنويه بشأنه وختمت بالثناء على الرسول وصحبه أنهم يؤمنون به.

ثم الآيات التى تحف بها فاتحة السورة وخاتمتها أيضا تحمل نفس اللون وترجع الى نفس النقطة.

هذا إجمال القول فى هذا الباب وتفصيله فيما يلى.

ان أو اثل هذه السورة (١-٢٠) تقسم الناس الى ثلاث فرق حسب مواقفهم من هذا الكتاب. ثم يوجه النصح الى الفرقة الثالثة منهم أن يؤمنوا بهذا القرآن. ويفينوا الى عبادة ربه، ان كانوا يريدون العزة والكرامة، وكانوا يريدون أن يكونوا فى مأمن من الخوف والحزن يوم القيامة:

﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿٢١-٣٩﴾

ثم يوجه الخطاب الى بنى اسرائيل أن يوفوا بعهدهم مع الله، ويؤمنوا بهذا القرآن الذى جاءهم مصداقا لما بشرت به كتبهم ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا.

ويوجه النصح الى المؤمنين كذلك أن يستعينوا بالصبر والصلاة ويطمئنوا أنهم سيلقون أجرهم

ثم يوجه الخطاب الى بنى اسرائيل مرة أخرى، وتفصل مواقفهم من أنبيائهم السابقين. ومواقفهم من كتابهم الذى آتاهم ربهم، حيث انهم حرقوه ويدكوه وزادوا فيه ونقصوا، فكتبوا الكتاب بأيديهم، ثم قالوا هذا من عند الله ليشترروا به ثمنا قليلا. وهم نكصوا عن أحكامه وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان.

ثم كان من صنيعهم كذلك أنهم أثاروا الشبهات حول هذا الكتاب، وصاحوا وجلبوا أنه جاء ينسخ الشرائع التى أنزلها اليهم ربهم. اذاً فليس هذا الكتاب من عندالله، فانه لو كان من عنده لم ينسخ ما جاء من عنده!

وهكذا يستمر السياق فى بيان موقفهم من كتاب الله ورسله فى القديم والحديث، ثم يختم الحديث بقول يبدد كل ما نسجوه من شبهات:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أولئك يؤمنون به. ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون.﴾

فطالما أن الصالحين منهم يستقبلون هذا الكتاب بالشوق والحب والحفاوة، ويؤمنون به ويتلونه حق تلاوته، فليس له مدلول الا أن الذين يطعنون فيه وينشرون حوله الشبهات هم الكاذبون المفسدون. (٤٧-١٢١)

ثم يناديهم السياق مرة أخرى:

﴿يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾

ثم يقص عليهم قصة أبيهم ابراهيم، ويقص عليهم قصة بنائه لهذا البيت، ويذكرهم تلك الأدعية الحارة الخاشعة التى دعا بها ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت:

﴿ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم﴾

اذاً فما أخرجت هذه الأمة، وما بعث فيهم هذا الرسول، وما أنزل اليهم هذا الكتاب الا استجابة لدعوة ابراهيم واسماعيل!

فان كانوا يعادون هذه الأمة، ويعادون هذا الرسول ويعادون هذا الكتاب، فهذا العداء سيؤذيهم - لا محالة - الى عداء ابراهيم!! ثم يؤذيهم الى عداء اسحق ويعقوب !! وبالتالي سيقطع صلتهم بتاريخهم المجيد الذى هو موضع افتخارهم!!

وهكذا يستمر السياق فى الحديث معهم حول هذا الموضوع بمختلف الأساليب.

ثم ينهى الحديث معهم بعد اقامة الحجّة عليهم بهذا القول الفصل ، وبهذا الوعيد الرهيب:
﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله. وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد دخلت ، لها
ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (١٢٢-١٤١)

ثم يتناول السياق موضوع تحويل القبلة ، فان هذا الموضوع كانت له صلة وثيقة بهذا الكتاب
وبهذه البعثة المباركة ، حيث ان الكعبة هي قبلة ابراهيم . وقد دعا ابراهيم لهذا الرسول وهذه الرسالة
وهو مشغول بهذا البناء الكريم.

وقد كان من علامات هذا الكتاب وعلامات هذه النبوة أنهما يعيدان الأمر الى نصابه ، ويعودان
بالناس الى ملة ابراهيم، كما يشير اليه قوله تعالى:
﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون﴾ (١)

فتناول السياق هذا الموضوع لكونه ذا صلة وثيقة بموضوع هذا الكتاب، اضافة الى ذلك أن الآيات
السابقة قدهيات جوا ملائما لتناول هذا الموضوع.

ثم انساق الكلام من موضوع تحويل القبلة الى موضوع الصفا والمروة، فانهما أيضا من معالم ملة
ابراهيم ، فكان لابد أن يبين أمرهما، وكان لابد أن تخرق الستور التي أرخاها عليهما بنو اسرائيل
حتى يكتنوا أمرهما.

ثم تناول السياق ما حرّمه بنو اسرائيل من طيبات الطعام :
﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم
عدو مبين﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . انما
حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم
عليه. ان الله غفور رحيم﴾

ولقد تناول السياق هذا الموضوع حيث انه كان من علامات هذا الكتاب أنه يحل لهم الطيبات
ويحرم عليهم الخبائث، قال تعالى:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل
يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث... الآية﴾ (٢)
وهكذا نرى السياق تناول موضوع القبلة وموضوع احلال الطيبات لكونهما من دلائل حقيقة هذا
القرآن ومن دلائل كونه ذلك الكتاب الذي بثر به كتبهم ونادت به رسلهم منذ مئات السنين.
(١٤٢-١٧٦)

(١) سورة البقرة: ١٤٦

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧

ولقد أشار القرآن نفسه الى هذه الظاهرة حيث قال بعد ما انتهى من هذين الموضوعين:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُ

اللَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٥-١٧٦)

ومما نلاحظ في هذه الآيات (١٤٢-١٧٦) أنها وإن كانت لا تخاطب بنى اسرائيل خطابا مباشرا،

كما رأينا في الآيات التي قبلها، إلا أنها تتناولهم من حين لآخر وتوجه اليهم القول بطريق غير مباشر، مثل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ أَنْبَاءُ مَا لَا

يَعْقِلُونَ شَيْنًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

أو كقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤)

أو كقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥)

فالكلام - في هذه المجموعة من الآيات - وإن كان متجها - في أغلبه - الى الذين آمنوا إلا

أنه قد ينصرف انصرافا الى بنى اسرائيل.

ثم نجيب آية البر:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ... الخ﴾ (١٧٧)

ولقد بينا في تأويلها أن وجه الخطاب فيها الى بنى اسرائيل ولقد جاءت هذه الآية لتخلع عنهم

فضيلة البر نهائيا حيث أنهم لم يوفوا بالعهد. ولم يؤمنوا بهذا القرآن. وأخلوا بكل ما على عليهم

واجب البر.

وبعد هذه الآية ينصرف عنهم السياق انصرافا نهائيا، كأنهم بعد اخلالهم بمقومات البر ومتطلباته

- وعلى رأسها الايمان بهذا الكتاب - لم يصلحوا لأن يوجه اليهم القول بأي طريق كان، بطريق مباشر

أو غير مباشر.

فالسبب ينصرف عنهم انصرافا كاملا الى جماعة الذين آمنوا. فيعظمهم ويرشدهم بأمرهم وينهاهم

ويعطيهم حشدا من التوجيهات والتشريعات المتنوعة. (١٧٨-٢٨٣)

ولانريد أن نطيل الوقوف عند تلك التوجيهات والتشريعات، فقد سبقت لنا وقفات وجولات عند

كل واحدة منها. وسبق أن بينا حسن موقعها وحسن مناسبتها فيما بينها.

والآن لا يهنا إلا أن نقول: ان هذه التوجيهات - مع اختلاف طبيعتها وألوانها - تخدم هدفا

واحدا موحدًا، فهي - في مجموعها - تعد المرء اعدادا روحيا، وتعلمه حسن التلقى لما جاء من عند

ربه. وهل أدل على ذلك من قوله تعالى في سياق إطلاق وعدة الطلاق :

«وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتوا. ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخفوا آيات الله هزوا، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم.» (٢٣١)

فهذه التوجيهات والتشريعات كلها تصرف اهتمام المرء الى تقوى الله وحسن التمسك بكتابه . وهذا هو السر فى أنه كثر ذكر التقوى فى هذه الآيات ، حتى أصبحت هى الأخرى أبرز شئ فى هذا الجو . ولا تخفى صلة التقوى بحسن التلقى لكتاب الله . وقد ورد التنبيه الى هذه الحقيقة فى مستهل هذه السورة حيث قال تعالى:

«الم . ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين»

فالتقوى هى أساس الانتفاع بهذا الكتاب . ولا ينتفع به الا من كان عنده رصيد طيب منها . وما نلاحظه كذلك فى هذه الآيات أنه كثر فيها ذكر الانفاق وكثر الترغيب فيه والحث عليه مع التحذير الشديد مما يقابله من أكل الربا وأكل الأموال بالباطل .

ولقد شغل هذا الموضوع مساحة أوسع وأكبر من أى موضوع آخر فى هذه الآيات . وهذه الظاهرة أيضا تخدم نفس الهدف الذي أشرنا اليه من الايمان بالقرآن والتمسك به ، حيث ان اليهود والنصارى لم يلهمهم عن كتابهم الا حب الدنيا والميل الى شهواتها كما مضى معنا فى قوله تعالى:

«ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا، أولئك ما ياكلون فى بطونهم الا النار.. الآية»

ويقابل ذلك ما ذكر لنا فى أول هذه السورة من الملامح البارزة الرئيسية لمن ينتفعون بهذا الكتاب ويهتدون به ومنها أنهم ينفقون مما رزقهم الله: «ومما رزقناهم ينفقون.»

فالانفاق فى سبيل الله يمسح عن القلب أدران حب الدنيا والميل الى شهواتها، ويذكرى فيه الشوق الى كتاب الله والحرص على التمسك به، ويجعل منه تربة خصبة صالحة لهذه البذرة الطيبة المباركة . فكان من المناسب جدا فى هذه السورة - وهى سورة تدور حول الايمان بالقرآن والتمسك به - أن يبرز فيها هذا الموضوع ، ويكثر من الترغيب فيه والحث عليه .

كما كان من المناسب جدا أن تبرز فيها حقيقة التقوى ويكثر من الترغيب فيها والحث عليها . وبالجمله فالقسم الأول من هذه السورة - وهو الذي يخاطب بني اسرائيل أويتحدث عنهم - تقرير لحقيّة القرآن ودعوة الى الايمان به ، وتقريع وتعنيف على الاعراض عنه والتشكيك فى أمره ، والصدّ عن سبيله .

والقسم الثانى منها - وهو الذي يخاطب الذين آمنوا - يدعوهم الى حسن الاستجابة وحسن التلقى لكتاب الله وشرائعه ، بعد الايمان به والانضمام الى لوائه ، ويرشدكم الى ما يساعدهم على ذلك

من التقوى والمحافظة على الصلاة والاتفاق لوجه الله.

ثم تأتي الخاتمة ، وهى تعرض صورة مشرقة منيرة لايمان الذين آمنوا بهذا القرآن حق الايمان ، ثم شعروا بعظم المسئولية وشدوا مآزرهم للتهوض بتكاليفها ، متضرعين الى ربهم أن يعينهم فى أمرها .
هذا ما تيسر لنا فى بيان عمود هذه السورة العظيمة بعون الله وتوفيقه .
فلك الحمد يا رب ، كما تحبه وترضاه ، ولك الشناء كما أثبتت على نفسك .



الباب الثالث:

نظام سورة آل عمران

ان النظرة الفاحصة المتأملّة فى هذه السورة تكشف للناظر فيها أنها
- كأختها - نموذج رائع لدقة النظام وحسن التناسق فيما بين آياتها.
ولقد أحكم نسجها وأتقن بناءها فما ترى فى وحى الرحمن من تفاوت.
وها نحن نتناول فى ما يلى هذه السورة فقرة فقرة ونحاول أن
نكشف القناع عن وجه نظامها وعما تتمتع به من نسج محكم وبناء متقن
كما سنشير الى نبذة من تلك الحكم والمعانى الغالية التى تزخر بها،
والتي لا تنكشف الا بعد انعام النظر فى نظامها وسياق آياتها.

نظم الآيات (١-١٨)

قال تعالى:

﴿الم . الله لا اله الا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام . ان الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا اله الا هو العزيز الحكيم .﴾



تلك ست آيات جاءت كمطلع لهذه السورة الكريمة .

وتلك الآيات تركز فى مجموعها على تقرير ظاهرة التوحيد حيث بدئت بقوله تعالى:

﴿الم . الله لا اله الا هو الحى القيوم .﴾

وختمت بقوله تعالى:

﴿لا اله الا هو العزيز الحكيم .﴾

فهو المتفرد بالألوهية لأنه - تعالى - هو الحى القيوم وهو العزيز الحكيم . وأما غيره فليس له منها نصيب ، لأنه ليس له نصيب من هذه الصفات التى تعتبر من مقومات الألوهية . ولا تقوم لها قائمة بدونها .

وبعبارة أخرى فان هذه الآيات جاءت تؤكد للناس دين الاسلام ، فان التوحيد النقى الخالص هو جوهر الاسلام وليس للاسلام معنى سواه .

وقد ذكرت هذه الحقيقة بأسلوب أوضح فى نفس السورة حيث قال تعالى:

﴿شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم .﴾

ان الدين عند الله الاسلام ﴿

فهاتان الآيتان تفيدان بنظمهما أن الاسلام هو دين التوحيد الخالص . والدعوة الى التوحيد وافراد الله بالألوهية هى الدعوة الى الاسلام .

وبهذه الدعوة جاء هذا القرآن . وجاء بها التوراة والانجيل : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما

بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾

ثم ان القرآن ليس مجرد نداء الى هذه الدعوة ، بل جعله الله فرقانا يفصل بين الحق والباطل :

﴿وأنزل الفرقان . ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام .﴾

ولقد سبق معنا مثل هذا الوصف فى شأن التوراة حيث قال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١)

فكما أن التوراة جاءت لتفرق بين الحق والباطل وجاءت لترفع قوما وتضع آخرين، فكذلك جاء هذا القرآن ليقوم بمثل تلك المهمة، ويكتب كل من حاد عن الطريق، وكفر بآيات الله، وعلى رأسهم هؤلاء اليهود والنصارى، الذين تنكبوا عن هدى الله، ولم يقيموا التوراة والانجيل، ولم يقبلوا ما جاءهم به هذا النبى، مع أنه جاء مصدقا لما بين يديه.

فليعلم هؤلاء أنهم لا يخفون على الله، ولا بد أن يلاقوا جزاء عملهم.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَحْزَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ شبيهاً بقوله تعالى فى سورة الملك: ﴿لَا يَلْمِزُكَ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢)

فالمخلوق لا يمكنه أن يخفى على الخالق، ولا يمكنه أن يفلت من يديه وينجو من عقابه إذا أراد به ذلك. ثم تطالعنا هذه الآيات:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْ أَمِ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَنَافَتْ تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ. زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ. قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ. شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(١) سورة البقرة: ٥٣

(٢) سورة الملك: ١٤

وقبل أن نبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها ، نود أن ندرس ماورد فى سبب نزولها ، فان هذا سيكون لنا عوناً على ادراك ما يوجد فيها من وجوه المناسبة.



سبب نزول الآيات:

يقول الاستاذ سيد قطب:

« وتذكر عدة روايات أن الآيات ٨٣-١ نزلت فى الحوارج وقد نصارى نجران اليمن الذي قدم المدينة فى السنة التاسعة للهجرة. ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هى زمن نزول هذه الآيات. فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت فى الفترة الأولى من الهجرة ، حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة. وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد فى كيانها وفى سلوكها. (١)

وزيد- رحمه الله - فيقول:

« اذا أخذنا بالروايات التي تقول : ان الآيات الأولى من هذه السورة الى بضع وثمانين آية منها قد نزلت فى مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن ، ومناظرته للرسول ﷺ فى أمر عيسى عليه السلام ، فان هذا الدرس بجملته يكون داخلا فى اطار هذه المناسبة. لولا أن هذه الروايات توقفت مجئ ذلك الوفد بالسنة التاسعة للهجرة ، وهى السنة المعروفة فى السيرة باسم "عام الوفود" حيث كان الاسلام قد انتهى الى درجة من القوة والشهرة فى الجزيرة العربية كلها - وفيما وراءها كذلك - جعل الوفود من شتى بقاع الجزيرة تغد على النبی ﷺ تخطب وده ، أو تعبرض التعاهد معه ، أو تستجلى حقيقة أمره.

ونحن كما أشرنا فيما تقدم نحس أن الموضوع الذي تعالجه هذه الآيات ، وطريقة علاجها له ، كلاهما يرجع أن هذه الآيات نزلت مبكرة فى السنوات الأولى للهجرة.. ومن ثم فنحن أميل الى اعتبار ماورد فى هذه السورة من حجاج وجدل مع أهل الكتاب ، ونفى للشبهات التي تضمنتها معتقداتهم المنحرفة ، أو التي تعمدها نشرها حول صحة رسالة النبي ﷺ وحقيقة عقيدة التوحيد الاسلامية وكذلك ما اقتضاه كيد أهل الكتاب من تحذير للجماعة المسلمة وتثبيت. نحن أميل الى اعتبار هذا كله غير مقيد بحادث وفد نجران فى السنة التاسعة ، وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة هى التي نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة.

ومن ثم سنمضى فى استعراض هذه النصوص بوصفها مواجهة لأهل الكتاب غير مقيد بهذا

الحادث الخاص المتأخر فى التاريخ . » (٢)

(١) فى ظلال القرآن : ٣٥٢/١

(٢) فى ظلا القرآن : ٣٦٢/١

ان هذا الاشكال الذي نبه اليه الأستاذ سيد قطب بشأن ماوردت به الروايات اشكال وجيه جدا ، ولايملك باحث أن يتغافل عنه ،

فنحن نؤيد رأى الأستاذ - رحمه الله - عن وعى وقناعة ، ثم نزيد فنقول:

اشكال آخر:

لاينحصر الاشكال فى أن وفد نصارى نجران جاء متأخرا فى السنة التاسعة للهجرة وأن هذه الآيات تطلب بجوها وطبيعتها مناسبة أو مناسبات مبكرة لتزولها .

بل هناك اشكال آخر ، ولعله أخطر شأنا من الأول ، وهو أن هذه المجموعة تشتمل على آيات لا تصدق إلا على اليهود .

نأخذ - مثلا - قوله تعالى:

﴿ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعدذاب آليم﴾ (٢١)

ومن يكون أولئك غير اليهود ؟ ان أعمالهم هذه من الاشتهار بحيث لايلزم أن يسموا بأسمائهم ، وانما تكفى الإشارة لأعمالهم ليعلم من هم !

وأیضا قوله تعالى:

﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوالالباب﴾ (٧)

فان القرآن لم يصم بالزيغ الا اليهود حيث قال:

﴿وان قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون انى رسول الله اليكم ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (١)

كما لم يطلق وصف «الراسخين فى العلم» الا على الصالحين منهم حيث قال:

﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما . لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ (٢)

(١) سورة الصف: ٥

(٢) سورة النساء : ١٦-١٦٢

إذا فلا يصح القول بأن هذه الآيات تتناول النصارى أو تخص وفدا منهم، يعرف بوفد نصارى نجران.

ولعل الذي ذهب بالناس الى هذا القول ، أو حملهم على قبول روايات أدّتهم الى هذا القول - على الرغم من ضعفها ورقة أسنادها- هو أن قدرا كبيرا من هذه الآيات تحتوى على ذكر عيسى وأم عيسى - عليهما الصلاة والسلام-.

ولكن مجرد هذا السبب لا يكفى للقول بأن هذه الآيات ناظرة الى النصارى، وأنها جاءت تخاطبهم وتردّ على تساؤلاتهم.

اشكال ثالث:

ولو أننا قلنا بمثل هذا القول ، فانه سيوقفنا أمام اشكال يعوزنا التخلص منه، وهو أن مناظرة هؤلاء النصارى وجدالهم انما كان يدور حول الاعتقاد بالهيّة عيسى وينوّته وما الى ذلك، فما بال القرآن قد استفاض فى ذكر نذر امرأة عمران، ثم فى نشأة مريم ثم فى قصة زكريّا ويحيى؟ وما صلة هذه القضايا بتلك؟

وأىضا تناول القرآن هنا قصة عيسى بأسلوب لا يتفق أو لا يتناسب مع القضية التى قد أثارها هؤلاء.

فمعلقة تلك القضية بمكر اليهود بعيسى ويرفعه ويوعده متبعية بالغلّب والنصر الى يوم القيامة؟

وانما كان يكفى فى مثل هذا الجو أن يعارض هؤلاء بماورد فى سورة مريم، فقد كانت سورة مريم ردا مقنعا وجوابا مفحما لكل من يعتقد فى عيسى غير ماكان عليه من البشرية والعبودية. وليست قصّة النجاشي وبطارقته عنّا ببعيد.

فما كان من سيدنا جعفر بن أبى طالب الا أن تلا عليهم من هذه السورة الكريمة واذا بهم قد انهمرت دموعهم واخضلت لحاهم! ولم يسع أحدا منهم أن يعارض تلك الآيات ولو بكلمة واحدة. وعلى أية حال فالتأمل فى تلك الآيات وسياقها وملابساتها المحيطة بها يذهب بنا الى القول بأنها لاصلة لها بحادث وقد نصارى نجران. بل هى أعم من ذلك.

ثم ان الخطاب فيها وان كان موجّها الى أهل الكتاب - وأهل الكتاب يشمل الطائفتين: اليهود والنصارى - الا أنها فى أصلها ناظرة الى اليهود. وسيزداد الأمر وضوحا حين نتناول تلك الآيات بالتفصيل وندرسها فى ضوء سياقها.

مناسبة الآيات فيما بينها:

والآن وقد انتهينا من دراسة ماورد فى سبب نزول تلك الآيات نتوجه الى التماس وشائج الربط فيما بينها.

لقد علمنا فى الفقرة السابقة أن تلك الآيات الست تركّز فى مجموعها على تقرير ظاهرة التوحيد وبالتالي على تقرير ملة الاسلام. فان الاسلام هو دين التوحيد. والتوحيد هو جوهر الاسلام. وهذه الآيات تصوّر لنا كأن أعداء الاسلام - وهم اليهود - يستقبلون هذه الدعوة شرّاً استقبال وينثرون حولها الشبهات، فيقولون - مثلاً:-

إذا كان هذا الدين دين التوحيد الخالص فما بال قرآنه يزعم عن عيسى أنه خلق من غير أب ! وهل يخلق بشر من غير أب ! وكيف يمكن أن يخلق بشر من غير أب ؟ هيئات هيئات أن يخلق بشر هذا الخلق. وان صحّ أن عيسى خلق من غير أب فلا جرم أنه ليس بشراً. وانما هو اله مع الله. إذا فأين بقى التوحيد الذي يزعمه القرآن؟ وما معنى قوله: ﴿لا اله الا هو العزيز الحكيم﴾ وما الى ذلك؟ ان دعوى القرآن تنتقض على لسانه نفسه!

وكان هذا أمّوذجاً لاتباع اليهود ما تشابه من الكتاب وعدّولهم عن آياته المحكمات. فان كون عيسى عبداً وبشراً رسولا كان واضحاً وضوح الشمس. وكم من آية محكمة فى القرآن قد تناولت هذه القضية تناولاً جاداً وبينته بيانا شافياً. الا أن اليهود ما كانت تعنيهم تلك الآيات.

وانما الذي كان يشغل بالهم هو أن عيسى كيف خلق من غير أب؟ وما هى حقيقة هذا الخلق، وما هى تفاصيله؟ هم كانوا يريدون أن يدركوا كنه هذا الحادث، ويعلموا تأويله، مع أن العقل البشرى يعجز عن ادراكه وعلم تأويله. وما يعلم تأويله الا الله.

ولم يكن الدافع الى اتباع هذا الأمر المتشابه أوالحادث المتشابه الا ابتغاء الفتنة. فان صنيعهم هذا قد تمخض عن شبهتين. شبهة حول هذا الدين الجديد الذي جاء به النبى ﷺ، وشبهة حول شخصية عيسى، الذي كانوا يحملون عليه الحقد منذ قديم. وبذلك رموا عصفورين بحجر واحد. وأظهروا للناس أن الدين هو دينهم. ولا يضره اذا كانت فيه شائبة الشرك، فان الشرك لا يخلو منه أى دين، حتى هذا الدين الجديد الذى ينادى بالتوحيد ويتبرأ من الشرك.

ولا يفوتنا التنبيه الى أن القرآن علّل (اتباع المتشابه) بقوله: ﴿ابتغاء الفتنة﴾. وهذا أيضاً يذهب بنا الى القول بأن وجه الخطاب فى تلك الآيات الى اليهود، فان اليهود، اذثاروا هذه القضية لم يكونوا يقصدون بذلك الا أن ينثروا الشبهات حول هذا الدين الجديد. وينفروا الناس عنه. وأنسب كلمة تنطبق على هذا الموقف السلمى ابتغاء الفتنة.

بخلاف النصارى فانهم لوكانوا رءاء هذه القضية وأرادوا بذلك أن يدافعوا عن معتقداتهم - سواء حقاً أو باطلاً - فان هذا لايسمى ابتغاء الفتنة. وانما هو جهل أو شقاق وما الى ذلك.

وبالجملة فان فريقا من اليهود قابلوا هذه الدعوة باتباع المتشابهات دون المحكمات وعارضوها
بخبث التصرف وابتغاء الفتنة، بينما الفريق الآخر منهم وهم الراسخون فى العلم استقبلوها بكل حفاوة
وحرارة وبكل حرص وشوق، كما قال تعالى:

﴿والراسخون فى العلم يقولون أمتابه، كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الآلآباب. ربنا
لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، انك أنت الوهاب. ربنا انك جامع الناس ليوم
لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد﴾

وما هو ذلك الميعاد الذي تشير اليه الآية الكريمة؟

الظاهر المتبادر أن المراد به هو الذي ذكر فى الآية التالية:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وقال الله انى معكم، لنن
أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وأمنتم برسلى وعزرتهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم
سيناتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء
السبيل﴾ (١)

وهذا أيضا يعزز قولنا الذي أسلفنا من أن المراد بالراسخين فى العلم هنا هم العلماء الصالحون
من اليهود قبل غيرهم. وقولهم: ﴿ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾. استبشار بذلك الوعد الذي
سبق لهم من ربهم حيث أنهم آمنوا بهذا الرسول وعزروه ونصروه. فبذلك استحقوا كل ما يتضمنه الوعد
من نعمة وسعادة. وقوله تعالى: ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ تأكيد لذلك الميعاد وتطبيب لقلوبهم
وتبشير لهم أنهم سوف يجدون ربهم عند وعده.

وبعد ذكر هذا الموقف المشرق لهؤلاء الراسخين فى العلم، ينصرف الحديث مرة أخرى الى القوم
الذين فى قلوبهم زيغ:

﴿ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ...﴾ الى قوله تعالى: ﴿ان فى ذلك لعبرة لأولى
الابصار﴾

ان هذه الآيات تدعوهم الى أن ينتبهوا من سكرتهم ويعلموا أن أموالهم وأولادهم التي قد غرتهم
وحملتهم على التلاعب بآيات الله لن تغنى عنهم من عذاب الله من شئ. كما أن آل فرعون ومن قبلهم
لم تغن عنهم أموالهم ولا جنودهم، وكلهم لا قوا مصيرهم حين كذبوا بآيات ربهم.

وان لم يكن عندهم استعداد لأن يتعظوا بالماضى البعيد فليتعظوا بالحاضر القريب.
فقد كان يرى منهم ومسمع أن فئتین التقتا ببدر. فئة مؤمنة وأخرى كافرة.. والفئة الكافرة كانت

تفوق الفئة المؤمنة في عُدَّها وعُدَّها. كانت تفوقها في عُدَّها ثلاث مرات وفي عُدَّها عدة مرات. الا أنهم لما التقوا انعكس الوضع. فقد رأت الفئة الكافرة تلك الفئة المؤمنة مثلهم. وليس أن الأمر قد شبه لهم بل رأوهم هكذا رأى العين، فإن الله قد أيدهم بنصره، وأنزل اليهم جنودا من عنده. فلم يغن عنهم عُدَّهم وعُدَّهم التي كانوا مفتخرين بها. وانجلبت المعركة بانتصار ساحق للفئة المؤمنة التي كانوا يزددونها.

«ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار»

لاشك أن حادثا واحدا كهذا الحادث يكفي للاعتبار لمن كان من أولى الأبصار. خاصة وقد كان هذا الحادث تصديقا واضحا لما جاء في كتبهم عن النبوة الأخيرة الخالدة، حيث قال لهم يسوع:

(ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترسّض ومن سقط هو عليه يسحقه). (١)

حقا، ان هذه المعركة كانت تصديقا واضحا لمثل هذه النبوءات التي وردت بها كتبهم. وكانت تكفي للاعتبار لمن كان من أولى الأبصار، ولكن أين أولو الأبصار؟!

فقد زين للناس حب الشهوات... وأتى لمن اخلد الى الشهوات ان يبصر الآيات ويعتبر بها؟!

«زين للناس حب الشهوات... والله عنده حسن المآب»

ثم في مقابل تلك الشهوات، التي لا تعدو أن تكون متاع الحياة الدنيا، ذكر ما هو خير وأبقى وذكر الذين يستحقونه ويستمتعون به عند الله:

«قل أنبئكم بخير من ذلكم... والمستغفرين با لاسحار»

ويتبين مما تقدم أن الفوز كله مرتبط بمشيئة الله. فهو يؤيد بنصره من يشاء في الدنيا، وهو الذي يكرم من يشاء بنعيم الآخرة. وهذا الوضع ان دل على شيء فأنما يدل على أنه ليس في هذا الكون اله غير الله. فالأمر كله بيده. وهو قائم بالقسط فلا يظلم أحدا ويسوق الى كل أحد ما يستحقه.

وهذا أمر يشهد به الله ويشهد به أولوالعلم - كما مر في أول هذه الفقرة - وتشهد به الملائكة حيث انهم نزلوا في بدر وفي غير بدر ليقاتلوا أهل الكفر. فذلك قوله تعالى:

«شهد الله أنه لا اله الا هو العزيز الحكيم»

فوائد تستفاد من نظم الآيات:

وبعد ما انتهينا من هذه الآيات وبيان مناسبتها فيما بينها نعود إليها مرة أخرى لنلمع إلى بعض الفوائد التي تستفاد من نظمها:

١- ذكر الراسخون فى العلم فى مقابل الذين فى قلوبهم زيغ. وهذا النظم يفيد أن الرسوخ فى العلم لا يجتمع مع الزيغ. وانما يصحب الايمان واستقامة السلوك وخوف الآخرة. وكلما قويت صلة المرء بالله ازداد رسوخا فى العلم. وأما من كان مقطوع الصلة بالله فلا يمكنه الفوز بهذا الكنز ولو أفرغ مكتبات العالم كلها فى ذهنه.

٢- اتباع المتشابهات يورث الزيغ فى القلب كما أن زيغ القلب يحمل على اتباع المتشابهات. هذا الذي نعلمه من قول الراسخين فى العلم: «ربنا لاتزغ قلوبنا.. الوهاب» بعد قولهم: «آمنا به كل من عند ربنا» فهم يتضرعون الى الله أن يحفظهم من اتباع المتشابهات فيما بعد كما حفظهم الآن حتى لا يقعوا فى الزيغ بعد اذ نجّاهم منه ولعل هذا هو السبب في نهى النبى ﷺ عن الكلام فى القدر. فان المقادير أيضا من المتشابهات. ولا يعلم تأويلها الا الله.

٣- ثم قولهم: «ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه» بعد قولهم: «آمنا به كل من عند ربنا» وقولهم: «ربنا لاتزغ... انك أنت الوهاب» يفيد بنظمه أن خوف الآخرة هو الذي يزم النفس ويحفظها من الزيغ ويمنعها من الخوض فى المتشابهات ويحفزها الى الايمان بكل ما جاء من عند الله.

٤- ذكر السياق هنا مشهدين متقابلين. أحدهما: مشهد الذين فى قلوبهم زيغ والثاني مشهد الراسخين فى العلم، وجاء فى الأول أنهم يتبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وجاء فى الثانى أنهم يبادرون الى الايمان بكل ما جاء من عند ربهم ويستعبدون به من أن يزيغ قلوبهم بعد اذ هداهم.

وهذا النظم يفيد أنه ليس هناك فارق بين الفريقين الا أن أحدهما يسارع الى الايمان بكل ما جاء من عند الله ويطلب منه الثبات والاستقامة على ذلك. بينما الآخر يخوض فى المتشابهات ويمتنع من الايمان بها.

فالقول بأن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابهات قول لا ينسجم مع السياق ولا يتفق مع نظم الآيات.

٥- ليس من الرسوخ فى العلم أن يعلم المرء تأويل كل شئ، فهذا من شأن الرب وليس من شأن العبد. وانما الرسوخ فى العلم أن يعرف الانسان حقيقته ويعرف حدوده ويعرف أنه ما أوتى من العلم الا قليلا. ثم يكون حريصا غاية الحرص على كل ما جاء من عند ربه، ويتلقاه بيد الشوق والقبول من غير تقاعس ولا تردد فى أمره.

٦- لقد تحير الناس فى تأويل قوله تعالى: «يرونهم مثليهم رأي العين» ولم يكن هذا التحير الا نتيجة طبيعية لقلّة اعتنائهم بنظم الآية وسياقها. والافلامر كان واضحا جدا ولم يكن ليجشّمهم هذا العناء ^(١) الذي لاقوه فى سبيله.

(١) ومن أراد أن يقدر الموقف فليراجع- مثلا - تفسير القرطبي ٢٥/٤-٢٦ والمحرر الوجيز

٣/٢٨-٣١، ومعاني القرآن للقرء ١/١٩٤، ١٩٥

وان كنا نريد أن نتوصل الى حقيقة الأمر فى هذا الموضوع فلنضع فى اعتبارنا أموراً يليها علينا السياق، وهى كما يلى.

○ ان وجه الخطاب فى هذه الآيات الى اليهود وليس الى المؤمنين. كما بيناه فيما تقدم.

○ إن كان المؤمنون هم الذين رأوا أعدوهم مثلهم، فليس فيه آية لليهود ولا لأشباعهم.

○ لو كان المراد من قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ أن المؤمنين رأوا عدوهم مثلهم مع أنهم كانوا ثلاثة أضعافهم لم تكن هناك أية حاجة لزيادة قوله تعالى: ﴿رَأَى الْعَيْنِ﴾ فان هذه الزيادة تفيد أنهم رأوا هكذا وكان الأمر كما رأوا. ولو كان الواقع خلاف ما رأوا، لكانت السياق بقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ﴾.

○ ثم جاء فى بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ولا يخفى ما فى هذه الزيادة من تأكيد وتفخيم للنصر الذي نزل على المؤمنين. وبعيد جداً أن يكون المراد بذلك النصر المؤكد المقصود أن المؤمنين رأوا أعدوهم مثلهم فى حين كونهم ثلاثة أضعافهم.

○ ثم جاء فى نهاية الحديث قوله تعالى: ﴿أَن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ولا يخفى ما فى هذه العبارة من دلالات وإيحاءات وهى كلها تظل غير مفهومة اذا قلنا فى تأويل الآية مثلاً قالوا.

ولعل أحسن قول وأقرب به لسياق الآية هو ما قاله الامام ابن كثير - رحمه الله - حيث قال:

«قوله ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مثلهم فى العدد رأى أعينهم أى جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الاسلام عليهم.» (١)

ويقاربه ما قاله المهاتمى - رحمه الله - حيث قال:

«تلك الآية ان المشركين كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً مع مائة وتسعين فرساً ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ أى المسلمين وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر مع فرسين وسبعين بعيراً وستة أدرع وثمانية سيوف ﴿مِثْلِهِمْ﴾ أى مثلى المشركين لا بطريق التخيل بل ﴿رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من غير احتياج الى اراءة ذلك لكنه أراهم لتكون عبرة.» (٢)

٧- ان الآيتين (١٦-١٧) تذكران لتاعدة صفات لعباد الله المتقين . والملاحظ فيها أنها بدئت بالاستغفار : ﴿رَبِّنا اِنَّا اٰمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وختمت به: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ وهذا النظم يبين لنا أهمية الاستغفار وعظم شأنه فى حياة المؤمن.

(١) تفسير ابن كثير: ٣٥٠/١

(٢) تبصير الرحمن وتيسير المنان: ١٠٥/١

٨- ثم ان قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا إِنَّهُمَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يشير بنظمه الى أن أكبر شيء يشغل بال المؤمن الصادق هو أن تغفر له ذنوبه وينجو من عذاب النار. ولعل هذا أدق مقياس يستطيع المؤمن أن يقيس به إيمانه.

٩- قوله تعالى: ﴿رَبِّينَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَتَابِ﴾ يفيد بنظمه أنه لا لقاء بين حب الشهوات وحب الله . والمطلوب من المؤمن أن يحب الله من كل قلبه وأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما. وأما تلك الشهوات التي تذكرها الآية، فإن المؤمن لا يحبها وإنما يستخدمها ويستعين بها في طاعة الله. وان شئت فقل: ان المؤمن اذا أحب شيئا منها فانما يكون حبها خاضعا لحب الله.

تلك بعض الحقائق تستفاد من نظم تلك الآيات. فنحمده سبحانه على أن هدانا اليها، ثم نقبل الى ما بعدها من الآيات.



نظم الآيات (١٩ - ٢٢)

قال تعالى:

﴿ان الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ومن يكفريات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجوك فقل: اسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين: اسلمتم، فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد. ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيشهرهم بعذاب اليم. اولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين.﴾



لقد ختمت الفقرة السابقة بقوله تعالى: ﴿لا اله الا هو العزيز الحكيم﴾ وما لا يخفى أن هذه الكلمة هي عنوان الاسلام وروحه وجوهره وعماده.

فلما ثبتت هذه الكلمة وثبت أنه لا اله الا الله ارتقى الكلام خطوة أخرى فنتبه الى أن هذا الدين هو الذي ارتضاه الله لخلقه. فهذا هو الدين. ولا اعتبار لدين آخر عند الله.

وهنا يثور سؤال: اذا كان هذا الدين هو الدين الذي اصطفاه الله لخلقه، فما بال أهل الكتاب يعرضون عنه ويتنكرون له؟ وما بالهم قد سخروا طاقاتهم لمحاربتة؟ مع أن الموقف كان يقتضى أن يكونوا في طليعة جيشه، ويجاهدوا لتقدمه وازدهاره.

فجاء الرد عليه: ﴿وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾

ثم قيل للرسول ﷺ: طالما أن هؤلاء يعانون من داء البغي فلاخير في محاجتهم ولا داعي لتضييع الوقت معهم. وانما عليك أن تبلغ الرسالة وتصارحهم أنك رضيت بالاسلام ديناً، ورضى معك من اتبعك به ديناً. وأى واحد من الركب لا يبغي عنه حولا فليكفوا عن المحاجة وليقطعوا الرجاء ان كانوا يحسبون أنهم يتمكنون من اضلال أحد من اتبعك، ولينظروا في أمرهم هم وليقرروا في شأنهم: هل هم يسلمون أولا يسلمون. فان اسلموا فقد اهتدوا، وان تولوا فسيذوقون وبال بغيتهم فليس الله غافلاً عنهم.

وما كان هؤلاء ليسلموا فانهم لم يكونوا يحاجون بحثاً عن الحق، وانما كانوا يريدون أن يشككوا الناس في أمر دينهم ويقذفوهم في الشقاء الذي كان يحيط بهم.

ومثل تلك المحاجة فضت معنا في سورة البقرة، حيث قال تعالى:

﴿فل اتحاجوننا فى الله وهو رينا وريكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ (١١)
ونظرا الى هذا الوضع يتقدم السياق اليهم بالوعيد و التهديد:

﴿ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة و ما لهم من ناصرين﴾

أي ان الذين درجوا على الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وقتل أوليائهم ممن يأمرون بالقسط ، لايرجى منهم اليوم أن يفيثوا الى الحق ويشوبوا الى الرشد. وانما لهم أن يذوقوا العذاب الأليم، ويبوؤوا بالخسران المبين.

حقائق تستفاد من نظم الآية وسياقها:

ثم ترشدنا هذه الآية بنظمها وموقعها الى عدة حقائق وهى كما يلى:

١- الكفر بآيات الله هو الذي يعرئ على قتل الأنبياء وقتل من يقوم مقامهم من العلماء والصلحاء.

٢- الأنبياء كلهم جاؤا ليأمرؤا الناس بالقسط وقيموهم عليه. وهذا يستفاد من نظم هذه الآية. ثم جاء ذلك صريحا فى موضع آخر، حيث قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (٢)

٣- ان الاسلام هو دين القسط . وما دام أن اليهود أعداؤه وظلوا فى تاريخهم الطويل المديد يقتلون الذين يأمرؤن به لايرجى منهم اليوم أن يغيروا موقفهم ويدخلوا فى دين الاسلام، الذي جاء ليقوم الناس به.

٤- ان قتل الأمرين بالقسط من جنس قتل الأنبياء. والذين يقتلون دعاة القسط والهدى لايبعد أن يلحقوا عندالله بقتلة الأنبياء.

وفى واقعنا الراهن ما يصدق ذلك. فان قوما قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة يدوسون مقدسات المسلمين بأفداهم ويعبثون بأعراضهم والمسلمون - مع كثرة عددهم وضخامة امكانياتهم - لا يستطيعون حيلة ذلك ولايهتدون سبيلا. كأنهم أصبحوا أهون على الله من عدوهم. وليس ذلك - فيما نرى - الا لأن دعاة القسط عذبوا وشرّدوا وقتلوا على أيدي نفر منهم ، ومازالوا يعذبون ويشرّدون ويقتلون. وطال ذلك وامتدّ ولكن لم يعرق لهم جبين. بل نال هؤلاء النفرمنهم كل تقدير وكل تعزيز وكل احترام ! قالى الله المفزع واليه المشتكى.

٥- تفيد هذه الآية بنظمها أن اليهود فى يومهم ذلك لم ينتهوا عند الحجاج واللجاج، بل هموا بقتل النبی وأصحابه، كما فعلوه مع أنبياءهم وصحابتهم فى تاريخهم الطويل المديد.

تلك بعض الحقائق التى تستفاد من نظم الآية وسياقها. فله الحمد وله الشكر على أن هدانا اليها. وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها وانتهينا من بيان ما يستفاد من نظمها نتوجه الى ما بعدها.

(١) سورة البقرة: ١٣٩

(٢) سورة الحديد: ٢٥

نظم الآيات (٢٣-٢٢)

قال تعالى:

﴿ألم ترالى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، انك على كل شئ قدير. تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب. لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ الا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه و الى الله المصير. قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله على كل شئ قدير. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد. قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين.﴾



لقد رأينا فى الفقرة السابقة أن أهل الكتاب قد لجأوا الى الحجاج واللجاج بعد ما أخفقوا فى ميدان الاستدلال. وكانوا يحاجون الرسول وصحابته فى أمر الاسلام. ولم يكن هناك شئ يحسم هذا النزاع وينهى هذا الحجاج واللجاج الا أن يحتكموا الى كتاب الله. ولكن أتى لهم أن يحتكموا اليه، وقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم؟

فأمر الرسول ﷺ أن يختصر معهم الكلام ولا يسترسل فى المحاجة، فان المحاجة مع البغى لا تأتى بخير.

وهنا نرى السياق يتعجب من اعراضهم عن كتاب الله بعد ما أوتوا نصيبا منه. فان المفروض فيمن يحمل علم الكتاب أن يكون أسرع الناس اليه، وأحرصهم على الاحتكام اليه.

وأما أن يسترسل مع البغى ويعطى مقاده بيد الجهل فهذا ليس من شأن العلماء.

﴿ألم ترالى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون!﴾

ولكن من أين جاء هذا البغى؟ وكيف استسأغ هؤلاء أن يعرضوا عن كتاب الله وقد دعوا اليه

ليحكم بينهم؟

نرى الآية التالية تفصح عن هذا السبب:

﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغروهم في دينهم ماكانوا يفترون﴾
هذا التصور الخاطئ المتحرف هو الذي جرّاهم على الله وحملهم على البنى والاعراض عن كتاب الله.
وهنا نرى السياق يتناول هذا التصور بالرد والتفنيد:

﴿فكيف اذاجمعناهم ليوم لا ريب فيه. ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون﴾
وبعد ما انتهى السياق من وصف الداء الذي كان يعانى منه أهل الكتاب والذي كان يحملهم على أن يتخذوا موقف العداء ضد الاسلام وأهله، التفت الى المسلمين ليرسخ في قلوبهم جذور الاسلام وحقيقته:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء.... وتزق من تشاء بغير حساب﴾
إن هاتين الآيتين تبينان للمسلم أبعاد كلمة الاسلام، فالاسلام ليس مجرد كلمة تقال باللسان. وإنما هو أن يعتقد المرء من صميم قلبه أن الله هو مالك الملك. فهو الذي يرفع من يشاء ويضع من يشاء. ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء. والخير كله بيده. وليس شئ الا وهو آخذ بناصره. حتى هذا الكون الواسع العريض خاضع لقدرته فهو الذي يقلب الليل والنهار وهو الذي يملك الموت ويفتح الحياة.
ان هذا التصور الشامل لكلمة الاسلام كما أنه يسوق المرء الى ربه ويلقيه على عتبة بابهِ فكَذلك يقطعه من غيره ويجعله يستهين بأعدائه. وأما أن يزعم الرجل أنه مؤمن ثم يكون مواليا للكافرين من دون المؤمنين، فهذا يتنافى مع طبيعة الايمان. والاسلام يأبى ذلك كل الاباء. فان موالاة الكفار لها دلالة غير دلالة الاسلام.

ان موالاة الكفار تشي بأن المرء لم يتخلص بعد من رواسب الشرك فهو يقيم وزنا للكفار، ويحسب أنهم يكسبون العزة من دون الله. كما قال تعالى:

﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أيتبعون عندهم العزة. فان العزة لله جميعاً﴾ (١)

بينما الاسلام لا يقر لغير الله الا الضعف والعجز والنقص ويرد الملك والعزة والكمال الى الله. فاقتضى الموقف أن يتبع بيان حقيقة الاسلام وأبعاد الاسلام هذا التحذير وهذا الوعيد:
﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ الا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذرکم الله نفسه، والى الله المصير﴾

(١) سورة النساء : ١٣٨-١٣٩

ثم لا يختلف الحكم اذا كانت هذه الموالاة ظاهرة مكشوفة أو خافية مستورة، ولا يختلف كذلك اذا كانت باسمها أو بغير اسمها. فلا عبرة بالألفاظ والأسماء أو بالصور والأشكال وإنما العبرة هنا بواقع الأمر. فإذا كان الرجل يحمل للكافرين المودة والصداقة في قلبه أو كان يخدم مصالحهم من غير أن يظهر نفسه، فليعلم أنه لن يخفى على الله وإن خفى على الناس. وكانت الآية السابقة تكفى للتحذير من هذا الولاء بأنواعه ولكن شامت رافة الله بعباده أن يفصل لهم الأمر ويكرر لهم التحذير:

﴿قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله... والله رؤوف بالعباد﴾

ثم ذكر مقياس الحب والولاء. المقياس الذي يقاس به حب كل انسان و ولاؤه، ويعلم من يحب الله ويواليه من ينذل الحب والولاء لغيره:

﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم، والله غفور رحيم. قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين﴾

أى الطاعة والاتباع هو الذي يكون مقياس الحب والولاء. ويلحق كل انسان بمن يطيعه ويتبعه. فمن كان يحب الله ويزعم أنه أسلم وجهه لله فليقم عليه الدليل باتباع الرسول واطاعته. ولقد مضى معنا فى السورة السابقة نفس التنبيه ونفس التحذير بشئ من التفصيل، حيث قال تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا رؤا والعذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار﴾ (١)

ولقد أسلفنا الكلام على تلك الآيات فى موضعها.

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لننبه الى بعض المفهومات التى شاعت وانتشرت مع أن السياق لا يقبلها، ولا ينسجم معها.

مفهوم الآية (٢٤):

يقول الامام ابن عطية - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى: ﴿ذلك بانهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات﴾:

«وقوله تعالى: ﴿ذلك بانهم﴾ الاشارة فيه الى التولى والاعراض أى انما تولوا وأعرضوا

لاغترارهم بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم فى قولهم «نحن أبناء الله وأحباؤه» الى غير ذلك من هذا المعنى وكان من قول بني اسرائيل: انهم لن تقسم النار الا أربعين يوما عدد الأيام التى عبدوا فيها العجل، قاله الربيع وقتادة، وحكى الطبرى أنهم قالوا: ان الله وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدا من ولده النار الا تحلة القسم، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لليهود: من أول من يدخل النار؟ فقالوا نحن فترة يسيرة ثم تخلفوننا فيها فقال: كذبتهم الحديث بطوله. « (١١)

تقويم تلك المذاهب:

تلك المذاهب التى ذهب اليها أئمة التفسير. فى تأويل قوله تعالى: «ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات»

وتلك المذاهب - على اختلافها فى عدد الأيام وتاريخها - ترجع فى أصلها الى مذهب واحد . وهو القول باعتراف أهل الكتاب على أنفسهم بأنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودات.

وهذا القول يصطدم مع نظم الآية وسياقها. فقد جاء بعدها مباشرة قوله تعالى:

«فكيف اذا جمعنا هم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.»

والذى يستفاد من هذه الآية هو أنهم ما كانوا يعتقدون أصلا أنهم سيجمعون ليوم الحساب ويحاسبون على أعمالهم. ثم يوضعون حيث تضعهم أعمالهم.

وبالعكس من ذلك كانوا يزعمون أنفسهم شعب الله المختار، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، وكانوا يعتقدون أن الجنة خلقت لهم وهم خلقوا لها، وليس لدخولهم اياها الا أن يفارقوا هذه الدنيا.

«وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى»

وأما النار فقد خلقت للآخرين. وهم يبعدون عنها ولا يسمعون حسيسها. فجاءت هذه الآية - الآية (٢٥) - تبطل زعمهم وتظهر سخافة قولهم.

وبالجمله فهذه الآية - الآية (٢٤) - بنظمها وسياقها تصرفنا عن القول بأنها اعتراف منهم على أنفسهم أنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودات. وأيضا لما يضعف هذا القول أننا لا نجد فى كتبهم شيئا يفيد أنهم كانوا يعتقدون ذلك.

ولقد كان الأستاذ رشيد رضا - رحمه الله - محقا ودقيقا فى كلامه حيث قال:

«وليس فى كتب اليهود التى فى أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد، فكل ما وعدت به على العمل بالكتاب هو الخير والخصب والسلطة فى الأرض وما أوعدت به هو سلب هذه النعم وتسليط الأمم عليهم، ولكن الاسلام بين لنا أن كل نبى أمر بالايان باليوم الآخر ووعد وأوعد، فهذا هو الحق سواء أوجد فى كتبهم أم لم يوجد، يعنى : أننا نعد هذا بما أضاعوه ونسوه.» (٢)

(١) المحرر الوجيز: ٤٧/٣-٤٨

(٢) مختصر تفسير المنار: ص/٣٠٧

وهنا يثور سؤال: فما هو المفهوم الصحيح للآية - المفهوم الذي يسلم من هذا الاشكال وينسجم مع نظم الآية وسياقها؟

وان أردنا الجواب عن هذا السؤال فلنستحضر في ذاكرتنا قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١)

فكما أن اليهود والنصارى لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ردّ إليهم قولهم هذا بحجة: فلم يعذبكم بذنوبكم؟

فكذلك لو أنهم قالوا: ﴿لن تمسنا النار﴾، لكان من المحتمل الغالب أن يردّ قولهم هذا بحجة: فلم مستكم النار في الأيام الخالية؟

فتحفظاً من هذا الاعتراض قالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ أي لن تمسنا النار إلا مامستنا في أيام معدودات قد مضت.

ولقد وردت هذه الآية على أسلوب قوله تعالى:

﴿لَا يَنفِقُونَ فِيهَا الْمَالِ الْآفِئَةِ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ۚ وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۚ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٢)

وقوله تعالى:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ۚ أَلَا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣)

وأما مس النار فليس ذلك خاصا بمس نار جهنم، بل هو أعمّ من ذلك. فقد كانت العرب تستعمله بمعنى حلول العقوبة ونزول البلاء والمحنة. ومنه قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه -:

يا ابني رفاعة ما بالي وبالكما هل تقصران ولم تمسكما ناري (٤)

ويقاربه قول عدى بن زيد:

أعاذل من تكتب له النار يلقها كفاحا، ومن يكتب له الفوز يسعد (٥)

ومنه قول زياد بن حمل:

إذا سقى الله أرضا صوب غادية فلا سقاها من إلا النار تضطرم (٦)

(١) سورة المائدة: ١٨

(٢) سورة الدخان: ٥٦

(٣) سورة الصافات: ٥٨-٥٩

(٤) ديوان حسان بن ثابت: ص/١٢٦

(٥) جمهرة أشعار العرب: ٨/٥

(٦) ديوان الحماسة: ٢/٢١٧ رقم ١٢٣

وعلى هذا فيكون المراد بالأيام المعدادات الأيام الخالية، التي حل بهم فيها سخط الله. ولا يخفى أن هذا التأويل ينسجم تماما مع نظم الآية وسياقها، وينسجم مع الجو الذي نزلت فيه. فان الجو جو الحجاج واللجاج وجو المكابرة والعناد. وما كان أهل الكتاب ليعترفوا على أنفسهم في مثل ذلك الجوّ أنهم سيدخلون نار جهنم ولو لثانية واحدة، فضلا عن الأيام المعدادات. وهل يتصور ممن يزعمون أنفسهم شعب الله المختار! وشعب الله المدلل!! وأبناء الله وأحباؤه! يزعمون أنه لن يدخل الجنة غيرهم! هل يتصور منهم أن يقولوا عن أنفسهم أنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودت؟؟ وخاصة في مثل ذلك الجو الذي يسود تلك الايات!

وأما ما قاله الناس في تأويل «أيما ما معدودات» فانهم لم يقولوه الا عن رأى منهم واجتهاد، ولم يستندوا في رأيهم هذا واجتهادهم الى شئ يعتد به.

ولقد كان الأستاذ رشيد رضا مصيبا في كلامه اذ قال:

«روى ابن جرير وغيره من المفسرين: أن بعض اليهود قالوا ذلك، وأن هذه الأيام المعدادات هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل، والمختار: أنه لم يثبت في عدد هذه الأيام شئ» (١)

وبالجملة فالملاحظات التي تحيط بالآية تعزّز التأويل الذي هدانا اليه نظم الآية وسياقها.

مفهوم الآية (٢٨):

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ الا أن تتقوا منهم بقاء»:

«معنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم على دينهم وتظاهرونها على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم فانه من يفعل ذلك فليس من الله في شئ يعنى بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر الا أن تتقوا منهم بقاء الا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على انفسهم فتظهروا لهم الولاية بألستكم وتضمرؤا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل» (٢)

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية:

«وفي ذلك دليل على جواز الموالاته لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهرا لا باطنا» (٣)

(١) مختصر تفسير المنار: ص/٣٠٧

(٢) تفسير الطبري: ١٥٢/٣

(٣) فتح القدير: ٣٣١/١

اشكالات تكتنف هذا التأويل:

هذا ما قاله ابن جرير والشوكاني. وإليه ترمي أقوال المفسرين - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية، والذي نلاحظه فيها هو أنها جميعاً تحوم حول معنى واحد، وهو إباحة مولاة الكافرين إذا كانت الظروف تقتضي ذلك. والباحث إذا تأمل في هذا التأويل، فإنه يسائل نفسه:

- ١- ان كان المؤمنون في سعة من موالاة الكافرين اذا خافوا شرهم، فما الذي نهوا عنه في هذه الآية؟
٢- المؤمن لا يتصور منه من أول أمره أن يوالى الكافرين الا ظاهرا، كما لا يتصور منه أن يواليهم الا في حالة خوف وشدة فعلا م جاء هذا الوعيد وهذا التهديد؟
٣- الذين كانوا يوالون الكافرين لم يكونوا يوالونهم الا بهذا الدليل، حيث كانوا يقولون: «نخشى أن تصيبنا دائرة» فماذا كان ذنبهم حتى تعرضوا للوم والعتاب والتقريع؟ حيث قال تعالى:

هَيَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَتُصْبِحُوا خَاسِرِينَ ﴿ ١١ ﴾

- ٤- لم يرد النهى فى أول الآية عن اظهار الولاء للكافرين. حتى يكون هذا الاستثناء ترخيصا لهم فى اظهاره، اذا اقتضى الأمر. وانما جاء النهى عن اتخاذهم أولياء فىكون الاستثناء منه - على هذا التأويل - ترخيصا فى اتخاذهم أولياء ، وهذا شئ لا يقره أحد.
- ٥- ان هذا التأويل يجعل هذا الجزء من الآية - الا أن تتقوا منهم تقاة - غريبا فى جوه غير منسجم مع ما قبله وما بعده، كأنه لم يصادف مكانه.

فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، انك على كل شئ قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ (٢١)

ولقد فسر النبي ﷺ هاتين الآيتين وخصص دلالاتهما وايضا ماتهما فقال:

﴿إِذَا سَأَلَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاستعني بِاللَّهِ﴾ . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم

(١) سورة المائدة: ٥١-٥٣

(۲) سورة آل عمران: ۲۶-۲۷

يضررك الا بشئ قد كتبته الله عليك ، رفعت الألقام وجفت الصحف. (١١)

فاذا كان المؤمن مطالبا بأن يستوعب هذه الدلالات والايهامات. وكان مطالبا بأن يعيش في هذا الجو الذي يملؤه الشعور بجلال الله وقدرته وواسع ملكه وعظيم سلطانه.

وكان مطالبا بأن يستشعر أن الله هو الذي يعطى ويمنع ويضر وينفع وله العزة وله الكبرياء ولا معقب لحكمه ولا راد لأمره.

فما مناسبة تزويده برخصة الولا. أو اظهار الولا. للكافرين في هذا السياق؟ وما معنى تهيبه وتخوفه من أهل الكفر ولجونه الى ما يسمونه (التقية) ؟

ان الجمع بين هذا التوجيه وتلك الرخصة لا يعني الاعداء جدية هذا التوجيه !! وحاشا لكلام الله أن يكون فيه شئ من ذاك.

تلك عدة اشكالات تشور في ذهن الباحث اذا تأمل في ذلك التأويل، ولذلك نرى في السلف من امتنع عنه. فقد روى ابن جرير عن قتادة في قوله لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، قال لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافراً ولياً في دينه وقوله : الا أن تتقوا منهم تقاة، قال أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك، حدثني محمد بن سنان عن الحسن في قوله الا أن تتقوا منهم تقاة، قال صاحبهم في الدنيا معروفاً بالرحم وغيره فأما في الدين فلا. « (١٢)

وكان هذا التأويل لا بأس به لو أنه كان منسجماً مع نظم الآية وسياقها. فانه أيضاً -كسابقه - لا يخلو من هذا النقص، وان كان أرجح منه وأقوى لسلامته من تلك الاشكالات التي أشرنا اليها.

تأويل الآية:

وهنا يشور سؤال: فما هو التأويل الصحيح، الذي يسلم من تلك الاشكالات ويتلاءم مع نظم الآية وسياقها؟

يبدولي أن فضيلة الشيخ أمين أحسن كان موقفاً في تأويل الآية حيث قال:
«وان (تقاة) في قوله تعالى: ﴿الا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قد وقع مفعولاً مطلقاً، كشأنه في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ وهو يفيد التأكيد.
وعلى هذا فيكون معنى الآية: ان الذين يتخذون الكفار أولياء، على حساب الاسلام والمسلمين، ليسوا من الله في شئ. وانما يعتبر هؤلاء منهم كما جاء في موضع آخر: ﴿ومن يتولهم منهم فانه منهم﴾
فمن المستحيل أن تجتمع ولاية الله مع ولاية أعدائه. ومن كان يريد أن يكون ولياً له فليقطع حبله من أعدائه وأعداء دينه وأعداء المخلصين من عباده.

(١١) سنن الترمذى ، كتاب صفة القيامة: ٦٦٧/٤ ، رقم الحديث (٢٥١٦)

(١٢) تفسير الطبري: ١٥٣/٣

فكان هذه الجملة وقعت استثناء من قوله تعالى: ﴿فليس من الله في شيء﴾ أى لا يستثنى من هذا الحكم الا من اجتنب موالاة الكفار وحذرهما حق الحذر، وأما من أباح التقية مستندا الى هذه الآية فلاشك أنه ذهل عن كل من أساليب اللغة وشواهد القرآن ونظم الآية وسياقها. ولعلنا لم تعد بنا حاجة الى تفنيد هذا القول بعد ماتيين التأويل الصحيح للآية. » (١)

هذا ما دبحته براعة الشيخ أمين أحسن فى تأويل هذه الآية. ويبدو أن أستاذه الامام عبدالحميد الفراهى - رحمه الله - أيضا كان يحمل نفس الراى حيث يقول وهو يبين معنى الاتقاء :
«الاتقاء فى أصل معناه يكون من خوف ضرر وعلى هذا يأتى على أربعة أوجه.»

ثم يذكر الوجه الأول فيقول:

«الأول هو التحفظ مما يخاف الضرر منه كما فى قوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ (٢)

هذه العبارة تفيد أنه - رحمه الله - أيضا كان يرى نفس الراى، وكان يزول الآية الى نفس

التأويل

وعلى أية حال فتحتم نيل الى هذا التأويل ونراه أشبه بالصواب لكونه أولقى لنظم الآية وسياقها.

وقبل أن ننتقل الى حديث آخر نود أن ننبه الى الأسباب التى كانت مزلة أقدام الآخرين، حتى يتضح الأمر، ولا يبقى فيه موضع شبهة.

السبب الأول:

أن الناس لم يستوعبوا دلالة الاستثناء فى هذه الآية، فان الاستثناء لا يكون دائما بمعناه العادى المشهور، بل كثيرا ما يفيد معنى التأكيد ويأتى لتعزيز المعنى السابق. وذلك كقوله تعالى:

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ، إلا أن يشاء الله﴾ (٣)

فقوله تعالى: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ ما جاء الا لتأكيد الجملة السابقة ويكون تقدير الكلام ، اذا فصلنا العبارة هكذا:

﴿ولا تقولن إني فاعل ذلك غدا - انك لست فاعلا شيئا إلا أن يشاء الله.﴾

وكذلك قوله تعالى:

﴿لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا، إلا حميما وغساقا﴾ (٤)

(١) تدبر قرآن: ٦٨/٢

(٢) مفردات القرآن للفراهى: ص/١٩

(٣) سورة الكهف: ٢٣-٢٤

(٤) سورة النبأ: ٢٤-٢٥

ف قوله تعالى: ﴿الاحميما وغساقا﴾ ما جاء الا لتأكيد الجملة السابقة. ويكون تقدير الكلام، اذا فصلنا العبارة، هكذا:

﴿لا ينوقون فيها بردا ولا شرابا. لا ينوقون فيها الاحميما وغساقا﴾.

وهكذا الأمر في الآية التي نتحدث عنها، ويكون تقدير الكلام، اذا فصلنا العبارة، هكذا:

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ليس لكم الا أن تتقوا منهم تقاة﴾

هذا على تقدير أن قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ جاء اعتراضا.

واذا قلنا انه من صلب الكلام وليس اعتراضا، كانت العبارة هكذا: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من

الله في شيء. ليس لكم طريق الى الله الا أن تتقوا منهم تقاة﴾.

السبب الثاني:

أن الناس لم ينتهوا للفرق بين اتقاء الشيء والاتقاء من الشيء. فان الاتقاء اذا تعدى الى المفعول

فانه يؤدي معنى الخوف منه واذا تعدى بـ «من» فانه يتضمن مع الخوف معنى الابتعاد منه.

ومنه قول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية وهي ترثي ابنها قيس بن زياد، وهو من تلك الأبيات التي

كانت تتمثل بها عائشة - رضى الله عنها - بعد وفاة النبي ﷺ:

قد كنت ذات حمية ماعشت لى أمشى البراز وكنت أنت جناحى

فاليوم أخضع للذليل وأتقى مسنه وأدفع ظلمى بالراح (١)

أى: فاليوم أخضع للذليل وأبتعد منه مخافة شره وان ظلمنى أحد فأدفعه بالراح لبالسلاح.

ومن ذلك قول كعب بن زهير:

يععضهن عضيض الثقا فبا لسمهرية حتى تلبنا

ويكدم أكفاله عابسا فبالشد من شره يتقينا

اذا ما انتحت ذات ضغن له أصر فقد سل منها ضغونا (٢)

فقد بين الشاعر بقوله: (فبالشد من شره يتقينا) أن الاتقاء من العدو أو من شر العدو يكون

بالشد والابتعاد منه لا بالالتصاق به والمصانعة معه.

(١) الحماسة لأبى تمام: باب المراثي: ٤٤٤/١

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير للسكري: ص/١٠٤ الثقاف: آلة من خشب تسوى بها الرماح.

السمهرية: الرماح، نسبة الى سمهر، رجل كان يقوم الرماح. يكدم: يعض. الشد: العدو. صر الفرس والحصارأذنه ويأذنه بصر صرا، وأصرها وأصرها: سواها ونصبها للاستماع.

وقد يكون هناك تجريد في اللفظ، فلا يراد به إلا معنى الابتعاد والتجنب دون معنى الخوف.
ومنه ماورد عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت:
(لقد كنت أقتل قلاتد هدي رسول الله ﷺ ثم يبعث به ويقيم فما يتقي من شيء).^(١)
وعلى هذا فيكون معنى الآية:

﴿إلا أن تحذروهم وتبتعدوا منهم ابتعادا﴾

السبب الثالث:

أن الناس وهموا أن تأويلهم هذا يؤيده قوله تعالى:
﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر
صدرا فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾.^(٢)
والواقع على العكس فإن لكل من الآيتين محملا يختلف عن محمل اختها. ولا يسعنا أن
نحملهما محملا واحدا.

والجدير بالانتباه أن القرآن لم يرخص في حالة الاكراه أيضا في النطق بكلمة الكفر إلا بعد
ما قبله يكون القلب مطمئنا بالإيمان. فكيف يتصور أن يتساهل هنا هذا التساهل في إباحة التقية أو
إباحة النطق بكلمة الكفر؟ وكيف يتصور أن يبيح ذلك كلما خاف المرء من شر الكفار؟ فحالة الخوف
غير حالة الاكراه وبينهما بون شاسع.

وبالجملة فذلك ثلاثة أسباب كانت مزلة أقدام في تأويل الآية فيما نرى بالاضافة الى قلة اهتمام
الناس بنظام الآية وسياقها.

والآن، وقد بلغ الأمر غايته من الوضع، وظهر ارتباط كل آية باختها، وظهرت مناسبتها لما
قبلها وما بعدها، نتوجه الى ما بعدها.

(١) مسند احمد: ٦/ ١٨٥

(٢) سورة النحل: ١٠٦- ومن شاء فليراجع- مثلاً- تفسير ابن كثير: ٣٥٧/١.

نظم الآيات (٣٣-٦٣)

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ أَنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ، إِنْ اللَّهُ يَرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا، وَادَّكَرَ بَيْتَكَ كَثِيرًا وَوَسَّحَ بِالْعُشَىٰ وَالْأَبْكَارِ. وَأَنقَلَبَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَتَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَبْرَأَ الْاِكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنْبَتَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنْ اللَّهُ رِئىٰ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرُوهٌ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْأَفِكْ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُحْكَمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْزِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُم وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ. ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا

ونساعكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. ان هذا هو القصص الحق، وما من اله الا الله ، وان الله هو العزيز الحكيم. فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين.»



ان هذه الآيات عبارة عن قصص رائع لآل عمران. وهى مرتبطة فيما بينها برباط واضح وثيق كما هو الشأن فى حلقات قصة واحدة.

اذا فليس موضع اهتمام الباحث طلب المناسبة فيما بينها ، وانما الذي يهمه فيها هو أن يلتصق الوشائج التي تربطها بما قبلها.

لقد مر معنا فى الآيات السابقة أن اليهود كانوا يحاجون الرسول فى ملة الاسلام، وكانوا يبذلون محاولاتهم الخبيثة المشتومة لاطفاء نوره واجتثاث جذوره. وكانوا يحلمون باحباط الجهود التي كانت تبذل فى سبيل اعلاء كلمته.

ولقد بلغت بهم شقوتهم الى أن همرا بقتل النبي وصحابته. وهكذا كان المسلمون يمرون فى تلك الأيام بظروف عصبية قاسية.

وفى مثل تلك الظروف لقنهم لسان الوحي ذلكم الدعاء حتى يسكب برد الاطمئنان فى كل قلب تعبث به عواصف الخوف والحزن واليأس:

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. وتعزمن تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، انك على كل شئ قدير. تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي. وترزق من تشاء بغير حساب»

ان هاتين الآيتين كما أنهما تبيينان للمسلم أبعاد كلمة الاسلام - كما بيناه فيما تقدم - فكذلك تسكبان برد الاطمئنان فى قلبه، وتسحان عنه كلما يعلق به من الحزن واليأس. فطالما أن الله هو مالك الملك ويده أزمة الأمور فما ذا يخافه المؤمنون من غير الله؟ وماذا عسى الأعداء أن يفعلوا بهم اذا كانت نواصيهم بيد ربهم وهم لا يستطيعون أن يمسكوا عنهم رحمة يريد ربهم أن يفيضها عليهم؟ بل ولا يستطيعون أن يستبقوا عما عندهم شيئا اذا أراد ربهم أن ينزعه منهم.

وبعد غرس هذه الحقيقة فى أذهانهم من خلال هذا الدعاء تناول السياق موضوع موالاة الكافرين من دون المؤمنين وجاء ذلك عرضا للمناسبة التي بيناها فيما تقدم.

ثم عاد السياق الى حديثه الأول وذكر قصص آل عمران باعتباره شهادة تاريخية واضحة لهذه الحقيقة.

فالجو الذي يسود هذا القصص كله هو جو الاصطفاء والتكريم ثم جو الاعزاز والتأييد لآل عمران على رغم أعدائهم الذين كانوا يمحرون بهم ويبغون لهم سوء.

والآيات التي لها دور بارز فى اعداد هذا الجو أولفت الانتباه الى هذا الجو كما يلى.

١- «ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين»

٢- «فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب»

٣- «فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.»

٤- «وإذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين.»

٥- «إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين.»

٦- «فومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين. إذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة، ثم الى مرجعكم فأنحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.»

فهذه الآيات تبين لنا مدى ما قسم الله لآل عمران من العزة والكرامة والسيادة والوجاهة. وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول:

ان الله تعالى ذكر الصفوة المختارة من عباده فذكر فيهم آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران. والآية بنظمها تفيد أن هؤلاء هم زبدة البشرية كلها وكفى بها مفخرة لآل عمران.

الوجه الثانى:

لما ولدت امرأة عمران تلك الصغيرة المباركة التى سمىها مريم تقبلها الله بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وهى لتربيتها أفضل من كان فى عصرها وهو نبي الله زكريا، ثم رزقها من عنده رزقا حسنا من العلم والحكمة ورزقها بغير حساب. حتى أصبحت مثارا للعجب والاستغراب لزكريا نفسه. وهذه الرعاية الخاصة والاهتمام الفريد لم يذكرهما القرآن لأى واحد غير مريم.

الوجه الثالث:

لما جاءت الملائكة الى زكريا لتبشره بيحيى ذكروا من صفاته التى سيتحلى بها، أنه يكون سيّدا حيث قال تعالى:

«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.»

كما ذكروا فى صفات عيسى التى سيتحلى بها أنه يكون وجيها فى الدنيا والآخرة. حيث قال تعالى:

«إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين.»

وتلك ميزة خص الله بها آل عمران، حيث لم تذكر صفة السيّد الا ليحيى من بين سائر الأنبياء كما لم تأت البشارة بحصول الوجاهة فى الدنيا والآخرة بهذا النص الواضح الا لعيسى.

ومن ناحية أخرى فإن أول صفة ذكرت ليحيى من بين صفاته الأخرى أنه يكون مصدقا بكلمة من الله. وهذا النظم ينبه الى أهمية هذه الصفة من بين سائر صفاته، كأن أول غرض بعث لأجله يحيى هو أن يصدق بعيسى ورسالته.

وهذا كله ان دل على شئ فأنما يدل على حظوة هذا البيت وخطورة شأنه وعظم مكانته عند الله.

الوجه الرابع:

لما حاول بنو اسرائيل أن يقتلوا عيسى لم يتمكنوا منه على قلة أنصاره وأحاطه الله بنصرته ورعايته ورفعته اليه بكل حب واکرام. ووعدته في ذات الوقت أنه سينزل نصرته على الذين اتبعوه وهم سيظلون منتصرين على عدوهم الكافرين الى يوم القيامة.

تلك النقاط الرئيسية التي تستلقت الانتباه من هذا القصص. وهي بجملتها تؤكد للمؤمن أن الله هو مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء وينزعه من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. وإذا أحب قوما وأراد أن يعزهم أعزهم ونصرهم من حيث لا يحتسبون. وليس هناك من يحول دون ذلك أو يستبد بالأمر وينفذ ما يريد ويهواه.

فكم حاول اليهود أن يقتلوا عيسى وكم حاولوا أن ينالوا من أمه مريم ويمسوا كرامتها، وكم حاولوا أن يخلعوا عنهما ما ألبسهما الله من ثوب العزة والوجاهة في الدنيا والآخرة.

ولقد كانت القوة والسلطة والعدة والعدد كل أولئك معهم، ولكن مع ذلك هل استطاعوا شيئا؟ هل استطاعوا أن يلحقوا بهما ضررا أو يحركوا لهما ساكنا؟ كلا بل باؤوا بالخيبة والفشل وخزى الدهر وباؤوا بغضب من الله.

فاذا كانت معاملة الله مع آل عمران هكذا، حيث اصطفاهم فأكرمهم ونعمهم وأسقامهم ماء غدقا، وكفاهم شر كل عدو كان يحرق عليهم الأرم حنقا،^(١) فليفرح المؤمنون وليطمئنوا على مصيرهم وليرجوا من الله كل خير فان الله لن يخذلهم بعد ما اجتباهم وسيكفيهم شر أعدائهم الذين يمكرون بهم ويضربون لهم الشر. وسينيلهم ما يحبونه من الغلب والنصر والعزة والملك.

وجوه آخر للمناسبة:

هذا، وهناك وجوه آخر لمناسبة هذه الآيات لجوها وسياقها فلا بأس بأن تكون لنا وقفات معها قبل أن تنتقل منها الى ما بعدها. فان هذه الوجوه ستكشف لنا نواحي أخرى لروعيتها وحسن نظامها.

الوجه الأول:

لقد رأينا في الفقرة السابقة أن المسلمين لقنوا هذا الدعاء:

﴿قل اللهم مالك الملك... وترزق من تشاء بغير حساب﴾

هذا الدعاء - كما لا يخفى - عبارة عن طلب الملك والعزة والحياة. وتلقيته من الله سبحانه وتعالى لا يعنى الا أن المسلمين اذا دعوا به فانه سيتال منه القبول والاستجابة.

(١) الأرم: الأضرار. يقال: فلان يحرق عليك الأرم: إذا تغيظ فحك أضراره بعضها ببعض. (الصالح: أرم)

والظروف التي لقن المسلمون فيها هذا الدعاء كانت ظروفًا عصبية قاسية. وكانوا فيها مهددين بالخطر من كل جانب. والتقديرات القريبة والمؤشرات الظاهرة ما كانت تسمح أبدًا بأن يحلم فيها بالعز والملك، أو يتصور أن هذا الدعاء سيحقق.

ولكن السياق الحكيم أتبع تلك الفقرة فقرة تجعل كل بعيد قريبًا وكل مستحيل ممكنًا. وتجعل كل غريب شاذًا كأنه شيء عادي لا غرابة فيه ولا شذوذ.

فهل يستغرب المسلم شيئًا أو يستبعده كائنة ما كانت الظروف إذا علم أن الله استجاب لذكرها وحقق أمنيته في الذرية مع أن الظروف والملابسات المحيطة به كانت تجعلها مستحيلة مائة في المائة؟ أوهل يستغرب شيئًا ويستبعده إذا علم أن السيدة مريم أنجبت نبي الله عيسى بدون أن يمسهأ بشر؟

فإن الله إذا استطاع أن يجعل المرأة العاقر والكبير الطاعن في السن ينجبان الذرية أو يجعل الفتاة العذراء تأتي بالولد من غير أن يمسهأ بشر استطاع أن يفعل كل شيء. وليس هناك عسير أو مستحيل بالنسبة إلى قدرته الواسعة القاهرة.

الوجه الثاني:

لقد رأينا في الفقرة السابقة كيف أنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يسترسل مع أهل الكتاب في المحاجة وأمر أن يختصر معهم الكلام، فإن قوما قد أشربوا في قلوبهم البغى وتنكبوا عن الهدى من بعد ما جاءهم العلم، لا مطمع لطامع في إيمانهم:

هَٰذَا نَحْنُ الْحَٰجُّونَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَصْلَحُوا فَقَدْ أَصْلَحُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. (١)

وهنا نرى ذلك البغى متمثلًا شاخصًا مع نبي الله عيسى، فكم رأوا على يديه من آيات بينات، وكانت لهم في كل منها موعظة ومزدرج. ولكن العجب كل العجب، أن الذي كان يحيى الموتى باذن الله لم يستطع أن يحيى تلك القلوب الميتة المتحجرة!! والذي كان يبرئ الأكفم والأبرص باذن الله لم يستطع أن يبرئ هؤلاء، مما كانوا يعانون منه من داء البغى!! والذي كان يخلق من الطين كهينة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا باذن الله، لم يستطع أن ينفخ فيهم روح الايمان فيسمو بأرواحهم من حضيض الشهوات الى علياء مرضاة الله!!

وبالعكس من ذلك ازدادوا بغيا الى بغيتهم وأرادوا ان ينفذوا فيه خططهم الاجرامية والعياذ بالله. فإذا كان موقف بني إسرائيل القدامى من نبيهم هكذا فلا غرو إذن أن يكون موقف خلفهم من نبيهم موقفهم من نبيهم بالأمس.

(١) سورة آل عمران: ٢٠

الوجه الثالث:

لقد رأينا فى الفقرة السابقة أن أهل الكتاب كانوا يحتاجون فى ملة الاسلام، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم ليثبتوا أن الملة اليهودية أو النصرانية هي الملة المفضلة وهي التى جاءت بها النبوات السابقة:

«فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أسلمتم؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» (١)
وهنا نرى الحوارين لما آمنوا بعميسى واستجابوا لدعوته هتفوا بهذه الكلمات:
«نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد باننا مسلمون» (٢)

ان هذه الكلمات تنبئ- أول ماتنبئ- أن الملة التى بعث بها عيسى وكان يدعو اليها هي ملة الاسلام . وهذا هو السر فى أن الحوارين لما استجابوا لدعوته استجابوا لها بهذه الكلمات:
«آمنّا بالله واشهد باننا مسلمون»

واذا ثبت هذا فى عيسى ثبت فيمن سبقوه من الأنبياء بالأولى فانه لم يأت بملة جديدة وانما جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاء ليجدد ما عفا من معاملها وتعاليمها:

«ومصدقا لما بين يدي من التوراة و لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم» (٣)
فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الذين يحتاجون اليوم فى ملة الاسلام ويحاربونها، انما يحاربون ما جاءت به كتبهم ورسلمهم، قبل أن يحاربوا هذا النبى وهذا القرآن.

الوجه الرابع :

لقد سبق منا القول فى أول السورة أن المراد بـ «الذين فى قلوبهم زيغ» وبـ«الذين يتبعون ماتشابه من الآيات» هم اليهود.

ولقد أشرنا هناك أن اليهود قد أثاروا موضوع مولد عيسى- جريا على عادتهم فى اتباع المتشابهات- ليحققوا منه أغراضا ثلاثة في وقت واحد:

١- أن يقدحوا فى نسب عيسى ويشككوا الناس فى أمره. وقد ساعدتهم على هذا القدح وهذا التشكيك أن العقل عاجز عن ادراك كنه هذا الخلق كما هو عاجز عن ادراك كنه كل أمر متشابه.

٢- أن يشككوا الناس فى أمر الاسلام ويوهموهم أن القول بمولد عيسى بدون أب يعزز القول

(١) سورة آل عمران: ٢.

(٢) سورة آل عمران: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ٥٠.

بألوهيته ويتنافى مع عقيدة التوحيد التي يهتف بها الاسلام.

٣- أن يلتبسوا مبررا للشرك الذي قد توغل في دينهم بحجة أن هذا الدين الجديد أيضا لا يخلو من الشرك، وان كان يزعم أنه برئ من الشرك.

فقص القرآن قصص آل عمران من أوله الى آخره ، بحيث اذا أصاح السامع الى ذلك القصص فانه يجد فيه ردا حاسما للشبهات التي أثارها اليهود، ويدرك في ذات الوقت خبث النوايا التي كانت تعمل وراءها، لأنه لا يجد فيه الا الطهر والتقى والزكاة والعفاف متمثلا شاخصا يكاد يلمس بالراح، ويشعر بجانب ذلك أن عيسى ما كان الا عبدا من عباد الله. وقد أنعم الله عليه واصطفاه برسالته. فكان ينجز كل ما ينجز بأذنه. والله هو الذي كان يكلؤه ويرعاه ويحفظه من كيد الأعداء.

وهكذا كان هذا القصص وحده يكفي لتبديد شبهات اليهود في عيسى وأم عيسى ، كما كان يكفي لتفنيد الشبهة التي أثاروها ليعكروا بها صفو عقيدة التوحيد، ثم ليتذرعوا بها الى الغارة على ملة الاسلام والى القول بأن دينهم هو الدين الصحيح القويم.

ولعل هذا هو السر في أن السياق لما انتهى من هذا القصص لم يتنفس في الرد على شبهاتهم بل أجمل القول في آيتين اثنتين:

﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾

﴿ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله، وان الله لهو العزيز الحكيم﴾

تنبيه هام:

ومما يجدر التنبيه اليه أن قوله تعالى: ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أظهر في الرد على اليهود منه في الرد على النصارى. ويظهر ذلك بالتأمل في نظم الآية نفسها.

فان قوله تعالى: ﴿خلقهم من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ انما جاء بيانا وايضا لما سبقه من قوله تعالى: ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ فهو يحدد وجه المماثلة بين سيدنا عيسى وسيدنا آدم. وهو أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى بقوله : (كن) كما خلق سيدنا آدم بقوله : (كن) بكل يسر وسهولة وبدون أى صعوبة أو كلفة.

وهذا أنسب للرد على اليهود منه للرد على النصارى. فان اليهود هم الذين كانوا يستبعدون هذا النوع من الخلق وكانوا يشكون فيه ويشككون. كأنهم كانوا يعتبرونه خارجا عن قدرة الله. فبين لهم أن هذا الخلق هين جدا بالنسبة الى قدرته، وان كان غير مفهوم لدى العقل البشري القاصر المحدود.

واذا تقصينا هذه العبارة في القرآن فاننا نجد دائما يستعملها في مثل هذا الوطن.

ونرى في هذه الفقرة نفسها أن السيدة مريم لما استغرقت البشرى بمولد عيسى وقالت:

«رب أنى يكون لى ولد ولم يمسننى بشر؟» أجابها الله تعالى بمثل هذه العبارة حيث قال:
 «قال كذلك الله يخلق ما يشاء. اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون»
 أما لو كان الأمر كما قاله الناس من أن هذه الآية جاءت للرد على النصارى^(١) لاختلفت العبارة عما هى عليه الآن، وجاءت على نحو هذا القول:

«ان مثل عيسى عند الله كمثّل آدم، خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب وأم»
 ثم ان هذا الاستدلال ضعيف جدا، ونحن ننزه القرآن عن مثله، فانه لو جاء الى النصارى بمثل هذا الاستدلال وقال لهم: ان آدم خلق من غير أب وأم ولم يكن ابن الله، فكيف يكون عيسى ابن الله لكونه خلق من غير أب؟ ألم يكن من المحتمل أن تقول النصارى ردا عليه: «طيب، اذا كان الأمر هكذا فنحن نقول فى آدم أيضا كما قلنا فى عيسى ونقول: ان آدم وعيسى كليهما ابنا الله.»
 ولو كانت النصارى قد قالت هكذا، ولايبعد من الخصم -اذا كانوا قوما لدا، وكانوا فى ساحة المناظرة - أن يقولوا هكذا، فماذا كان قد بقى فى هذا الاستدلال من قوة؟
 ولعل هذا هو السر فى أن القرآن تناول هذا الموضوع عدة مرات، وأنكر على النصارى ما يعتقدونه فى عيسى، ولكنه لم يلجأ أبدا الى هذا النوع من الاستدلال.
 وبالجملّة فهذه أمور تشجعنا على القول بأن هذه الآية أظهر فى الرد على اليهود منه فى الرد على النصارى.



وبعد ، فتلک وشائج قوية متينة متلاحمة تربط تلك الآيات بما سبقها، بحيث تهتز له النفس اهتزازا ولا تملك الا أن تقول: سبحان من أنزل هذا القرآن الذي لا يدرك غوره ويجل عن الوصف اعجازه.

آية قد تحير الناس فى أمرها:

وقبل أن ننتقل من هذه الآيات الى غيرها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة» فان الناس تحيروا فى تأويله تحيرا فظيما ولم نجد عند أحد منهم ما يقنع ويغنى من جوع.

فكم نتعجب حين نرى أن منهم من قال فى تأويل الآية: ان المراد بـ «الذين اتبعوك» هم النصارى فهم فوق اليهود، وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق. فعلى هذا القول يكون الاتباع بمعنى المحبة والادعاء لاتباع الدين لأن النصارى وان أظهروا متابعة عيسى -عليه السلام- فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى -عليه السلام- لم يرض بما هم عليه من الشرك^(٢).

(١) انظر -مثلا- تفسير ابن كثير: ١ / ٣٦٧، والتفسير الكبير: ٧٤/٨

(٢) انظر تفسير الخازن: ١ / ٣٠٠

ليت شعري من أين جاؤا بهذا المعنى الغريب لـ «لاتباع» فانه لا عهد لنا به في القرآن ولا في الحديث ولا في الكلام العربي الذي يحتج به؟

وانما الذي عهدناه في القرآن والحديث وفي كلام العرب أن هذا اللفظ نقيض الادعاء تماما. وهو يفيد معنى الملازمة واقتفاء الأثر والمشى خلف من يتبعه كظله، ومن هنا قيل للظل: التبع، لأنه يلزم الشيء ولا يفارقه.

ولقد استعمل القرآن هذا اللفظ بهذا المعنى قبل هذه الآية بآية واحدة، حيث قال تعالى:

﴿وَبِمَا آمَنَّا بِمَا آتَيْنَاكَ مِنَ الْكِتَابِ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

وأما التبرير لهذا المعنى بأن ملك اليهود قد ذهب وملك النصارى باق، فهو تبرير ضعيف. فان ملكهم ان كان باقيا في يومنا هذا فمن يضمن لنا بقاءه الى الغد أو الى يوم القيامة؟

وليس أقل غرابة منه أن يقال: (ومعنى اتبعوك أى في الدين والشرعة وهم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الاسلام وان اختلفت الشرائع) (البحر المحيط: ٤٧٤/٢)

أويقال: (يدخل في ذلك أمة محمد لأنها متبعة لعيسى) (المحرر الوجيز: ١٠٦/٣)

فان هذا قول لا نجد له تأييدا من الكتاب والسنة. والذي نجده هو عكس ذلك. فقد قال نبينا - عليه الصلاة والسلام -:

(انه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى) . (١)

ويؤيده قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

فنحن - أمة محمد صلى الله عليه وسلم - مأمورون بأن نتبع رسولنا، ورسولنا فقط. وأما الأنبياء الآخرون فلم نؤمر الا بالايان بهم وبما أنزل اليهم. والايان غير الاتباع. وبينهما فرق واضح.

ولقد وهم الامام ابن كثير - رحمه الله - اذ جعل الايمان والاتباع شيئا واحدا، حيث قال وهو

يتحمس لهذا الرأي:

(...) فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم الى الروم فلجؤوا الى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الاسلام وأهله فوقهم الى يوم القيامة. (تفسير ابن

كثير: ٣٦٧/١)

فهذا كلام جميل ولاشك. ولكن غير الجميل فيه أنه فسر الاتباع بالايان، كأنهما شيء واحد. وهذا

خطأ

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: ١٧٤/١، ومستند أحمد: ٣٨٧/٣

فالمسلمون كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، ولكن لم يكونوا متّبعين له أبداً. ثم إن البشارة التي تتضمنها الآية، والتي أراد الامام ابن كثير وغيره من المفسرين - رحمهم الله - أن يربطوها بهذه الأمة إن كانت قد تحققت لهذه الأمة في فترة من التاريخ فهي الآن أصبحت قصة من قصص التاريخ، ولا نرى لها من باقية في واقعنا الراهن.

وتلك أيضاً حجة ظاهرة على الذين ركنوا لهذا التأويل.

وأما القول بأن المراد بالقوقية هنا هي القوقية الروحانية الدينية أو فوقية الفضائل والآداب، كما ذهب إليه صاحب تفسير المنار (١) فهذا أيضاً تفسير غريب على لغة القرآن. وكم تكرر هذا اللفظ في القرآن، ولكنه في كل مرة جاء بغير هذا المعنى.

ويظهر لنا من كلامه - رحمه الله - أنه لم يلجأ إلى هذا التأويل إلا بعد ما اضطر إليه وبعد ما رأى الأبواب كلها مرتجة أمامه. ولو أنه ظهر له تأويل أسلم وأفضل من هذا التأويل، لعدل عنه إليه. وبالجملة فتلك ثلاثة أوجه من التأويل تبدو في بادئ النظر أنها تتسم بالوجاهة والقوة، ولكنها لا تخلو من ضعف وتكلف كما بيناه. ويمكن أن نقيس عليها بقية الأوجه التي ذهب إليها الناس، فهي أسوأ حالا من أخواتها، التي مرّ ذكرها ومضى الكلام عليها.

وليست هذه التأويلات كلها إلا نتيجة لقلّة الاهتمام بنظم الآية وسياقها، فالناس فسروها بعيدة عن جوّها، مقطوعة عن أخواتها، فنالهم مانالهم من الحيرة والكلال. والا فالأمر كان واضحاً جداً. وكان الطريق إليه معبداً سهلاً. وكان بإمكانهم أن يتوصلوا إلى بغيتهم بدون أن يلقوا من سفرهم هذا نصيباً.

تأويل الآية:

فالتأمل في نظم الآية وسياقها يبين لنا أن المراد بـ «الذين اتبعوك» في الآية هم الحواريون، الذين قالوا قبل قليل: «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين»، والمراد بالذين كفروا هم اليهود المعاصرون الذين كانوا يمكرون بهم ويرسلهم عيسى لينالوا منهم ويعيشوا بحياتهم وكرامتهم، والذين قال الله فيهم في نفس الآية: «ومسلهوك من الذين كفروا»

فاليهود لما بلغوا من مكرهم ما بلغوا وكادوا ينفذون في عيسى وأتباعه أو صحابته ما أرادوا، بشر الله عيسى بأنهم لن يصلوا إليه ولن يبلغوا منه ما أرادوا وأنه تعالى سيحبط كيدهم ويرفعه إليه ويظهره منهم.

ولكن ماذا سيكون شأن الحواريين؟ الحواريين الذين استجابوا لدعوة عيسى أروع استجابة، وشدوا مآزرهم لتصرته في ساعة العسرة، هل يتركهم ربهم لقمة سائغة لأعدائهم بعد ما يرفع إليه عيسى؟

(١) انظر مختصر تفسير المنار: ٣٢٩/١

كلا! فلن يخذل من قام لتصرته ونصرة رسوله، فانه أوجب على نفسه أن ينصر من ينصره، ﴿ان تنصروا الله ينصركم﴾

فبشر عيسى أنه كما سينصره ويعزه برفعه اليه وتطهيره من الذين كفروا فكذلك سيعز أصحابه من بعده وينصرهم على عدوهم، حتى يفارقهم عيسى و هو مطمئن الى مصيرهم ويودّعه هؤلاء وهم أيضا وادعون مطمئنون أن الله سيتولاهم بنصرته ورعايته كما تولى رسولهم وسيدهم. هذا الذي يمليه علينا نظم الآية وسياقها. ويجمع هذا المفهوم- كما نرى- الى وضوحه وسهولته شدة الانسجام مع طبيعة الموقف والسلامة من تلك الاشكالات التى رأيناها فى التأويلات السابقة. ثم نزداد اطمئنانا الى هذا المفهوم ونزداد اليه ارتياحا حين نجد له شاهدا فى كتاب الله وهو قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى الى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة، فأيدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.﴾ (١)

فقد ذكر تعالى فى هذه الآية التى نتحدث عنها الوعد بتأييد الحواريين على عدوهم وذكر فى سورة الصف تحقق ذلك الوعد حيث انهم انتصروا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

قد يقول قائل: ان الوعد ينص على استمرار هذا الغلب والانتصار الى يوم القيامة: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة﴾ وهذا لم يتحقق للحواريين فانهم انقرضوا وانقرض ذلك الانتصار الذي حققه على عدوهم.

هذا اشكال يبدو وجيها فى بادئ النظر ولكنه سيزول ويتلاشى اذا وضعنا فى اعتبارنا ما يلى:

ان المنتصر اذا مات وهو عزيز منتصر فهو عزيز منتصر الى يوم القيامة.

والدليل المخدول اذا مات وهو ذليل مخدول فهو ذليل مخدول الى يوم القيامة. ان الحواريين لما أيدهم الله بنصره وأظهرهم على عدوهم وهم ماتوا على ذلك، فمن يستطيع أن يخلع عنهم تلك الكرامة والعزة التى ألبسها الله اياهم الى يوم القيامة، وأعداؤهم اليهود لما سلط عليهم الذل والهزيمة وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف وهم ماتوا على ذلك فمن يستطيع أن يمسح عنهم ذلك الذل والهوان الملازمين لهم الى يوم القيامة.

والعرب ما كانت تعزب عنهم هذه الحقيقة، ولذلك قال عبيد بن الأبرص وهو يخاطب حجازا:

أنت المليك عليهم
وهم العبيد الى القيامة (٢)

(١) سورة الصف: ١٤

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص: ص/٧٨

فالمملك اذا دام له الملك ولفظ أنفاسه الأخيرة وعلى رأسه تاج الملك فهو يذكر الى يوم القيامة بذلك العزّ والشرف ويعتبر مليكا الى يوم القيامة، والذين كانوا تحت ملكه وسيطرته يعتبرون له سوقة ورعية وعبيدا الى يوم القيامة.

هذا، وهناك أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أن الظروف التي جاءت فيها هذه البشرى كانت ظروفًا سيئة جدًا، كانت حالكة مظلمة لا ترى فيها بارقة من بوارق الأمل.

فلما جاءت البشرى في مثل تلك الظروف جاءت بلا حدود ولا قيود، جاءت بألفاظ تفيض بالأمل وتوحى بدوام النصر. فإن الرب الرحيم الودود اذا توجه الى عباده المؤمنين المنكوبين برحمته ومودته فانه لا يكيل لهم بالمكيال ولا يزن لهم بالميزان وانما يصبّ لهم صباً ويفرغ عليهم افراغا. اذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة فانه لا يصعب علينا أن ندرك لماذا خص الله سيدنا عيسى وصحابته الخواريين بهذه المعاملة الخاصة الفريدة.

وبالجملّة فنحن نميل الى ما مال اليه الضحّاك ومحمد بن أبان وابن جريج حيث قالوا: ان المتبعين له هم في وقت استنصاره وهم الخواريون جعلهم الله فوق الكافرين. (١)
فهذا الرأي أقرب لنظم الآية وسياقها وأسلم من الاشكالات التي أسلفنا الإشارة اليها.



هذا ما تيسر لنا في تأويل هذه الآيات وفي التماس مناسبتها لما قبلها وفي التماس الوشائج التي تربطها بجاراتها، فلك الحمد يارب ولك الشكر كما تحبه وترضاه.
والآن، وقد انتهينا من هذه الآيات، نتوجه الى ما بعدها.



(١) انظر تفسير البحر المحيط (٤٧٤/٢). وتفسير القرطبي (١.٢/٢) والمحرر الوجيز (١.٦/٣).

نظم الآيات (٦٤-٧١)

قال تعالى:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا والان تعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. يا أهل الكتاب فلم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين. ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لم تكفون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون.﴾



قبل أن نلتبس مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها نود أن تكون لنا وقفة عند آيتين قد أشكل على الناس أمرهما، وهما قوله تعالى:

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده، أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾

فاننا اذا توصلنا الى مفهومهما الصحيح، تعبد لنا الطريق، ولم يصعب علينا ادراك وجوه المناسبة فيما بين تلك الآيات.

تأويل الآية: (٦٥):

يقول الامام ابن كثير-رحمه الله - في تأويل الآية الأولى:

« أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وانما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ » (١)

ونرى المفسرين- رحمهم الله- قد درجوا في تأويل الآية على مثل هذا المفهوم. (٢)

وهنا يثور سؤال: هل كان نزول التوراة ميلاداً للديانة اليهودية ونزول الانجيل كان ميلاداً للديانة

النصرانية؟

(١) تفسير ابن كثير: ٣٧٢/١

(٢) انظر- مثلاً- تفسير الطبري: ٣/٢١٥-٢١٦ وفتح القدير: ١/٣٤٩، وتفسير النسفي: ١/١٦٢

وان صح القول بأن ابراهيم - عليه السلام - لم يكن يهوديا لأن التوراة ما نزلت الا من بعده، أولم يكن نصرانيا لأن الانجيل ما نزل الا من بعده، فماذا تقول عن موسى وعيسى وغيرهما من الرسل الذين جاءوا في تلك الفترة؟

هل تقول: ان موسى كان يهوديا لأنه جاء بالتوراة وعيسى كان نصرانيا لأنه جاء بالانجيل، والرسل الذين جاءوا بينهما كانوا هودا والذين جاءوا بعد عيسى كانوا نصارى !!؟

لاشك أن الأمر على خلاف ذلك، فانه ما أنزلت التوراة والانجيل الا بدين الاسلام وملة الاسلام: والرسل والأنبياء كلهم جاءوا ليقودوا الناس اليهما.

وما نجمت اليهودية أو النصرانية الا بعد ما انحرف القوم عن هذين الكتابين، فلما جاء القرآن ما زاد على أن طالبهم باقامتها، حيث قال:

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم﴾ (١)

وقال: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ (٢)

وبعد الايام بمواقف المفسرين في تأويل الآية وبعد الاطلاع على ما فيها من ضعف، لم يبق أمامنا الا أن نستعين بالله ثم نبحث عن تأويل آخر سليم من هذه الاشكالات ومنسجم مع نظام الآيات، فنقول وبالله التوفيق:

من الواضح المعلوم أن أهل الكتاب كانوا يحتاجون المسلمين في سيدنا ابراهيم وكانوا يبذلون جهدهم ليقطعوا صلته بالاسلام ويشبثوا أنه كان يهوديا أو نصرانيا، حتى يشبث أن الدين هو دين اليهودية أو النصرانية، وأما الاسلام فهو شيء طارئ محدث لا ينتمى الى أصل، وليست له جذور ثابتة في التاريخ.

ولكن هل كانت هذه الدعوى قائمة على أساس من كتاب أو كانت عندهم أثاره من علم؟ كلا فلم يكن عندهم شيء من هذا ولا ذاك. وما كانت محاجتهم تستند الى أساس!

نعم، كانت عندهم التوراة والانجيل، ولكنهما كانا في واد وهم في واد.

انهما كانا يناديان أن ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان خنيفا مسلما.

ولو أنهم أصاخوا لندائهما أو احتكموا اليهما لكانت الفتنة قد ماتت في مهدها، بل قبل ميلادها.

(١) سورة المائدة: ٦٨

(٢) سورة المائدة: ٦٦

ولكنهم أعرضوا عنهما ، وتصاموا عن رسالتهما وهما فى أيديهم وبين ظهرانهم .
 فعاتبهم القرآن على هذا اللجاج واللجاج فى ابراهيم وعاتبهم على الاعراض عنهما ، مع أنهما
 نزلا من بعده ويشتملان على المعلومات الوافية الكافية الدقيقة فى شأنه .
 نعم ، كان هذا اللجاج وهذا اللجاج معقولا ومفهوما الى حد ما ، لوكان الكتابان قد نزلا قبل
 ابراهيم ، وكانا ساكتين فى شأنه ، أما وقد نزلا من بعده ، وهما يحملان المعلومات الوافية فى شأن ملته
 ودينه فما الذي يبرر موقفهم الذي وقفوه من هذا الموضوع ؟ وانما كان أولى بهم وأجدر وأليق بعقولهم ،
 لوكانوا يعقلون ، ان يرغبوا عن حجاجهم ولجاجهم الى حكم الكتابين ، ويسلموا له تسليما .

تأويل الآية (٦٦) :

ثم جاء قوله تعالى :

﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم . والله يعلم
 وأنتم لا تعلمون .﴾

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - فى تأويل هذه الآية :

« يعنى بذلك جل ثناؤه ها أنتم هؤلاء القوم الذين خاصمتم وجادلتم فيما لكم به علم من
 أمر دينكم الذي وجدتموه فى كتبكم وأنتكم به رسل الله من عنده ومن غير ذلك مما أوتيتهموه وثبتت
 عندكم صحته فلم تحاجون يقول فلم تحاجلون وتخاصمون فيما ليس لكم به علم ، يعنى فى الذي لا علم
 لكم به من أمر ابراهيم ودينه ولم تجدوه فى كتب الله ولا أنتكم به أنبياءكم ولا شاهدقوه
 فتعلموه . » (١)

ونرى المفسرين - رحمهم الله - قد درجوا فى تأويل الآية على مفهوم واحد ، شأنهم فى الآية
 البتى قبلها . (٢)

ولا ندري كيف ذهب الناس الى أن أهل الكتاب لم يكن لديهم علم بأمر ابراهيم ودينه ولم
 يجدوه فى كتب الله ولم تأت به أنبياءهم .

فهذا القول وأمثاله ليس لها سند فى كتاب الله .

ولو أنهم أنعموا النظر فى هذه الآيات نفسها لوجدوا الأمر على عكس ما ذهبوا اليه .

فقوله تعالى : ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لويضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما
 يشعرون﴾ صريح فى أن حاجة أهل الكتاب فى دين ابراهيم لم تكن لجهلهم بدينه وملته . فهم كانوا يعرفون

(١) تفسير الطبري : ٢١٦/٣ - ٢١٧

(٢) انظر - مثلاً - تفسير البحر المحيط : ٤٨٥/٢ ، وروح المعاني : ١٩٥/٣ ، وتفسير ابن كثير : ٣٧٢/١ .

وفى ظلال القرآن : ٤١١/١ - ٤١٢

دينه وملته وكانوا يعرفون جيدا أنه كان حنيفا مسلما ولكنهم مع ذلك كانوا يحاجون ويمارون ويدعون أنه كان منهم حتى يضلوا الناس ويبعدوهم عن الاسلام - الاسلام الذي كان يهدّد مصالحهم ويهدّد كياناتهم!

وأوضح من ذلك قوله تعالى فى ختام هذه الفقرة:

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾

فهم كانوا يحاجون ويمارون ويكفرون مع أنهم كانوا على بينة من الأمر وكانوا يعرفون الحق من الباطل وكانوا يشهدون به اذا خلوا الى اخوانهم!

وان أردنا زيادة البيان فى هذا الموضوع فلنرجع الى الآيات التى مضت معنا فى سورة البقرة، وهى قوله تعالى:

﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب. يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا، ونحن له مسلمون.﴾ (١)

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الآيات فى موضعها . وكانت لنا عندها وقفات لا بأس بها.

وبالجملة فكاتب هذه السطور لا يراتح الى ما ذهب اليه الناس فى تأويل هذه الآية. ويرى الخطأ فى تأويلها ناتجا من الخطأ فى تأويل الآية السابقة. ومن قلة الاعتناء بنظم الآية وسياقها. وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية؟

والتأمل فى نظمها سيجعل الجواب عنه سهلا ميسرا باذن الله .

لقد علمنا فى الآية السابقة أن أهل الكتاب كانوا يحاجون فى دين ابراهيم وملته وكانوا يزعمون أنه كان يهوديا أو نصرانيا، مع أن التوراة والانجيل كانا فى أيديهم وكانا يبينان لهم أنه كان بريئا من الشرك بأنواعه وكان حنيفا مسلما.

فهم كانوا يحاجون فيما علموه علم اليقين، وهو كون ابراهيم حنيفا مسلما. كانوا يحاجون فى هذا الأمر لينكروه ويرفضوه وينقروا الناس عنه.

وفى ذات الوقت كانوا يحاجون فيما لم يكن عندهم به علم، وهو كون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا. فكانوا يحاجون فى هذا الأمر، ليروجوه ويوهمو الناس أنه هو الحق.

يقول الامام الشوكانى - رحمه الله -:

«والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن ابراهيم كان على دينهم» (١)

ويقول صاحب تفسير المنار - رحمه الله -:

«فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم» وهو كون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا» (٢)

فجاء التقرير والتعنيف على موقفهم هذا، الذي لا يقبله عقل سليم ولا منطق مستقيم:

«ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم.» أى ان كان قد بلغ بكم الولوع بالحجاج واللجاج الى أن تنكروا ما هو ثابت معلوم عنكم، فما بالكم تصرّون على ما لا تعلمون! وبأى منطق وعلى أى أساس تنفّوهم بما تجهلون؟

ثم قال تعالى:

«والله يعلم وأنتم لا تعلمون»

أى هو الله - سبحانه وتعالى - مصدر العلم ، وما جاء من عنده فهو العلم . وأما أنتم فليس عنكم منه شئ الا ما جاءكم من عنده . فقولوا فى ابراهيم ما علمكموه ، ولا تقولوا من عنكم شيئا . فانه لاصلة له بالعلم ولا صلة له بواقع الأمر .

مناسبة الآيات لما قبلها :

واذا علمنا المفهوم الصحيح لهاتين الآيتين، سهل علينا معرفة وجوه المناسبة فيما بين هذه الآيات، خاصة وقد مضت اليها اشارات مفيدة خلال الحديث عن هاتين الآيتين. فلنعمد اذا هذا الموضوع الى موضوع مناسبتها لما قبلها.

لقد علمنا سابقا أن اليهود قد أثاروا قضية مولد عيسى - عليه السلام - وكان من ضمن الأغراض التى أرادوها من وراء هذه الفتنة هو أن يلتمسوا مبررا للشرك الذى توغل فى دينهم ورتق صفو عقيدة التوحيد التى جاءت بهارسلهم.

فقص القرآن عليهم قصص سيدنا عيسى من أوله الى آخره بأسلوب ينفى عنه شبهة الألوهية ويثبت له العبودية الكاملة الواعية التى تشعر بمسؤوليتها تجاه ربها.

ثم ختم هذا القصص بقوله تعالى:

«إن هذا لهُوَ القصص الحق وما من اله الا الله ، وإن الله لهُوَ العزيز الحكيم»

فكانت هذه مناسبة طيبة لأن تزجى اليهم هذه النصيحة الغالية بشأن اخلاص العبادة وتوحيد

الألوهية:

(١) فتح القدير : ٣٤٩/١

(٢) مختصر تفسير المنار: ٣٣٣/١

فقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بنا مسلمون»
ثم إن التوحيد والاسلام كانا قضيتين متداخلتين بعضهما في بعض. فإن الاسلام هو دين التوحيد والتوحيد هو روح الاسلام وجوهره ولا يمكن الفصل بينهما بحال من الأحوال.
وأهل الكتاب قديجدون في أنفسهم استعدادا للإقرار بعقيدة التوحيد، إذا كانت بصورة مجملة. وكانت لأقمن عاداتهم وتقاليدهم. ولكن يصعب عليهم جدا أن يقبلوها في اطار الاسلام فينخلعوا عما كانوا فيه من اليهودية أو النصرانية تماما.

فكانوا كلما قولوا بالدعوة الى الاسلام بعد الدعوة الى التوحيد، امتعضوا منها ولجؤوا الى الحاجة في دين ابراهيم وأصروا على أنه لم يكن يمت بصلة الى الاسلام، وإنما كان يدين يدين اليهودية أو النصرانية. والدين هو الدين الذي كان عليه - صلوات الله عليه -.

فبعد ما انتهى السياق من دعوتهم الى التوحيد، أقبل الى هذا الموضوع- موضوع دين ابراهيم- وحاجهم بأسلوب لا يترك لهم حجة للفرار عن دين الاسلام الا أن يكون الشقاق قد أصبهم وأعمى أبصارهم. وقد رأينا ذلك فيما تقدم بشئ من التفصيل.

وقد مضت معنا مثل هذه الحاجة في أول السورة والسياق نفس السياق والموضوع نفس الموضوع. ولا فرق بين الموضوعين الا من ناحية الاجمال والتفصيل. (انظر الآيات : ١٨-٢٠).



هذا ما تيسر لنا في تأويل هذه الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى بما هو أهله، ثم نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (٧٢-٩١)

قال تعالى:

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا
آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يأتى أحد مثل ما
أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم. يختص
برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك
ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى
الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب
المتقين. أن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم
الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يذكهم ولهم عذاب أليم . وإن منهم لفريقا يلوون السنتهم
بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله
ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم
يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما
كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيا أمركم بالكفر بعد أن أنتم
مسلمون. وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما
معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا
وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أفغير دين الله يبغون وله
أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون. قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما
أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من
ربهم لانفراق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو
فى الآخرة من الخاسرين. كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق
وجاءهم البينات، والله لا يهدى القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس
أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك
وأصلحوا فإن الله غفور رحيم. أن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم
وأولئك هم الضالون. أن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً
ولو افدتى به، أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين. ٤



قبل أن نتكلم فى مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها نود أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي قد أشكلت على الناس، فانتا اذا عرفنا تأويلها تيسر لنا التوصل الى حسن نظامها ووجوه مناسبتها فيما بينها.

فنبداً أولاً بالآية التي قال عنها الواحدى - رحمه الله -:

«ان هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً.» (١)

والتي قال عنها الامام القرطبى - رحمه الله -:

«هذه الآية أشكل ما فى السورة» (٢)

الاهمى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْنَمُوا الْاٰلَ مَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ قُلْ اِنْ الْهَدٰى اللّٰهُ اَنْ يُّوتٰى اَحَدٌ مِّثْلَ مَا اُوْتِيتُمْ اَوْ يَحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، قُلْ اِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُوْتِيْهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾

تاويل الآية (٧٣):

فلننظر اذاً ما قاله الأئمة الأعلام فى تأويل هذه الآية.

فكم بذل هؤلاء من جهد وكم بذلوا من محاولات ليتوصلوا الى التأويل الصحيح للآية، ولكن دون جدوى. فكل محاولة زادتهم حيرة الى حيرتهم، وأدتهم من تكلف الى تكلف.

وهذا الأمر من الواضح بحيث لا يحتاج منا الى تدليل أو تفصيل، فعباراتهم هم تنطق بهذا الوضع، وتعلن عن نفسها بالضعف (٣).

ولا بأس بأن نشبت هنا ما علق به المجلس العلمى بفاس على ما كتبه صاحب المحرر الوجيز فى تأويل هذه الآية فانه يؤكد لنا هذا الوضع ويعزز لنا هذا الموقف، يقول المجلس:

«ان الذي تثلج به النفس من الوجوه التى ذكروها فى هذه الآية هو ما صدر به البيضاوى وأبو السعود وهو الوجه الثانى عند الآلوسى وقال: انه الاوجه لتأييده بقراءة ابن كثير وكونه أفيد من الأول عنده وأقل تكلفاً من غيره وأقرب الى المساق وفسر به قبلهم الزمخشري وذلك أن قوله تعالى (ولا تؤمنوا) الآية من كلام أحبار اليهود لأتباعهم ومعناه، والله أعلم، ولا تقروا بهذا الايمان الظاهرى الذي قصد بالرجوع عنه آخر النهار رجوع المسلمين عن دينهم، الا لمن تبع دينكم أولاً وهم اليهود الذين أظهروا الاسلام أول النهار وكفروا آخره.

(١) روح المعاني : ٢. ١/٣

(٢) تفسير القرطبى : ١١٢/٢

(٣) ومن شاء فليراجع-مثلاً- الجامع لأحكام القرآن: ١١٢/٤-١١٤ ومعاني القرآن للفراء: ٢٢٢/١.

والكشف: ٤٣٧-٤٣٨ تفسير ابن كثير: ٣٧٣/١- وتفسير النسفى: ١٦٣/١

وهنا انتهى كلام اليهود لأتباعهم ثم قال الله ﴿قل ان الهدى هدى الله﴾ هدى الله خير ان، أى ان هداية المسلمين لما جاء به محمد ﷺ هى هداية من الله ، ومن يهد الله فلا مضل له، فلا تطمعوا فى رجوعهم عن دينهم، وقوله سبحانه ﴿أن يؤتى أحد﴾ الآية تعليل لمقدر بلام محذوفة ، والمعنى : لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضائل، أو لأن يحاجوكم عند ربكم فيغلبوكم، قلت ما قلت ودبرتموه لا لشيء آخر، أى فمابكم من الحسد على أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم هو الذى دعاكم الى أن قلت ما قلت ودبرتموه خوفا من أن يشاركوكم غيركم فى تلك الفضائل ثم رد الله عليهم حصر الفضائل فيهم بقوله : قل ان الفضل بيد الله (انظر تمامه فى الألوسى).» (١)

هذا التعليق وهذا الترجيح ان دل على شيء فانما يدل على عدم ارتياح المجلس لساثر الوجوه التى ذكرها المفسرون - رحمهم الله - لما يكتنفها من ضعف وتكلف شديد.

ثم اختارهم لما اختاروه - على ما به من علل - يدل على أنه لم يكن الا اختيارا نسبيا، ولو أنهم اطلعوا على أفضل منه لركنوا اليه ، وآثروه على غيره.

إذا فما هو تأويل هذه الآية؟

ان التأمل فى نظم الآية وسياقها يلهمنا فى تأويلها ما يلى :

ان قوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم﴾ جزء من الخطة التى دبرها أهل الكتاب لاضلال المسلمين عن دينهم، وهى قولهم لأتباعهم وجنودهم: ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ فهم لما أرادوا أن يرسلوا هؤلاء لانجاز هذه الخطة المشنومة نصحوهم أن ينجزوها بكل تيقظ وانتباه فلا يقبلوا أى نصح أو أى كلام الا بمن كان على دينهم حتى لا يتأثروا هم قبل أن يؤثروا ولا يقعوا فى شبكة المسلمين قبل أن يوقعوهم فى شبكتهم.

ثم ذكروا الدافع الذى دفعهم الى تدبير هذه الخطة حتى ينشطهم للعمل لها ويدفعهم الى انجازها وتنفيذها كما دفعهم الى وضعها وتدبيرها: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ أى انشطوا لهذه الخطة ونفذوها لئلا يؤتى أحد ذلك الشرف الذى حباكم الله به وحتى لا يمكن هؤلاء أن يحاجوكم عند ربكم ان لم تؤمنوا بنبيهم ولم تتبعوا سبيلهم .

فأهل الكتاب كان يحزّ فى صدورهم أن شرف النبوة والرسالة ، الذى كان ثاوريا فيهم منذ مئات السنين، نزع منهم ببعث هذا النبى فى بنى اسماعيل. وهذا الشعور المشنوم كان حجر عثرة فى طريقهم الى الاسلام. بل كان يدفعهم الى الكيد به والمكر بأهله.

وتفكيرهم المعكوس لم يكن يوجههم الى أن يسموا بأنفسهم عن هذه العنصرية المتنتنة وينضموا الى هذا الركب الكريم لينالوا نصيبهم من خيرات تلك النبوة المباركة، بل كان يحفزهم ليبذلوا ما فى

وسمعهم لاضلال المسلمين عن دينهم، فانهم اذا ضلوا عن دينهم حرموا من الشرف الذي أراد الله أن يخلعه عليهم كما خلفه عليهم قبلهم، وتحققت بغيتهم التي كانت تقصّ عليهم مضاجعهم، وهى أن لا يؤتى المسلمون مثل ما أوتى هؤلاء قبلهم.

كما أنهم اذا ضلوا عن دينهم أمن هؤلاء من أن يحاجهم أحد عند ربهم. وانطلاقاً من هذين الغرضين كان أهل الكتاب يعملون بجميع وسائلهم ومخططاتهم ليزيفوا المسلمين ويصرفوهم عن دينهم، وكانت هذه الخطة التي تذكرها الآية على رأسها. وهاتان الآيتان أشبه ماتكونان بما جاء فى سورة الحديد حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لَنَلَا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ نَوَافِلُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.﴾ (الآيتان : ٢٨-٢٩)

فالآية التي نتحدث عنها تكشف للمسلمين كيد أهل الكتاب وسعيهم في اضلالهم وتؤيسهم أنهم لن ينجحوا فى مسعاهم، اذا كان الله يزيد أن يؤتيهم فضله ويختصهم برحمته.

وأما آية الحديد، فهى توصى المؤمنين بالتقوى والايمان بالرسول حتى ينالوا نصيبهم من رحمة الله وحتى يخفق فيهم كيد أهل الكتاب ويفشل مسعاهم لابعادهم من فضل الله.

وبهذا نعلم أن الايمان هو الضمان الوحيد لبقاء فضل الله على المسلمين. وهو الذي من شأنه أن يكتنهم من محاجة أهل الكتاب عند ربهم.

وهم كانوا يدركون ذلك جيداً، وكانوا يدركون سرّ عزّ المسلمين وشرفهم فكانوا يدبرون ويخططون ليصرفوهم عن ايمانهم حتى لا يؤتوا مثل ما أوتى هؤلاء قبلهم، وحتى لا يحاجوهم عند ربهم. على هذا فجاءت هذه الآية على أسلوب قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ.﴾ (١)

أى لئلا تصيبوا، أوحى لاتصيبوا.

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ الْهَدَى الْهَدَى اللَّهُ﴾ فهو جملة معترضة بادر بها السياق قبل أن يتم حديثهم اشعاراً بأن قولتهم هذه - وهى : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِينَ دِينُكُمْ﴾- قد بلغت من الشناعة بحيث لا تحتمل التأجيل وهى جديرة بأن تنكر فى لحظتها الأولى. فان الهدى هدى الله والدين هو دينه ودين الله أحق بالاتباع وهدهأ أخرى بالاتقفاء. ومن عدل عنهما الى غيرهما فقد ضيع نفسه.

هذا ما يظهر فى تأويل هذه الآية. بعد التأمل الطويل المتكرر فيها.
وهو- كما لا يخفى - منسجم تام الانسجام مع نظمها وسياقها. فقد سبق هذه الآية قوله تعالى:
﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون﴾

وجاء بعدها قوله تعالى:

﴿قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، والله واسع عليم. يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾

وهذا السياق يفيد أن هذه الخطة وان كانت وضعت لاضلال المسلمين عن دينهم، ولكنه بالذات لم يكن غاية الغايات عندهم وانما الذي كان يهمهم ويشغل بالهم هو أن يجردوا المسلمين من ذلك الشرف الذي أكرمهم الله به. ويتخلصوا من ذلك الخزي الذي سيلحقهم اذا حاجهم المسلمون عند ربهم.
ولم يكن هناك طريق يؤدّيهم الى هذه الغاية ويخلصهم من هذا الخزي الا أن يضلّوهم عن دينهم، فهم بثّوا جنودهم المعلمين المدربين فى صفوفهم لينجزوا لهم ما يريدون. فأذنهم تعالى أنهم لا يستطيعون ما يريدون، فان الفضل بيده يؤتية من يشاء.



ثم ان هذا التأويل ليس فقط أنه أقرب من غيره لنظم الآية وسياقها، بل هو خلو فى ذات الوقت مما يحسّه الدارس فيما مضى من التأويلات من ضعف وتكلف. ولله الحمد .



تأويل الآية (٨٠):

ومما أشكل على الناس فى هذه المجموعة من الآيات قوله تعالى:

﴿أيامركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون﴾

يقول الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية:

﴿بعد اذا أنتم مسلمون﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن

يسجدوه له. (١)

ونرى المفسرين - رحمهم الله - شبه متواطئين على هذا المعنى . مع أن هذا المعنى يفكك نظم

العبارة ويجعل الآية مقطوعة الصلة عن جاراتها. (٢)

(١) الكشاف : ١ / ٤٤.

(٢) ومن شاء فليراجع مثلاً تفسير الطبري: ٣ / ٢٣٥، وتفسير البحر المحيط: ٢ / ٥٠٧.

وتفسير أبي السعود: ١ / ٣٨، وتفسير النسفي: ١ / ١٦٦.

ذهول عن أسلوب الآية:

ولعل الذين ذهبوا اليه لم يذهبوا اليه الا لذهولهم عن أسلوب من أساليب الكلام. فان اسم الفاعل وغيره من أسماء الصفة لا تدل دائما على قيام الوصف في موصوفها، بل تدل أحيانا على كونه من واجبه وما ينبغى أن يتحقق فيه.

ومن هذا النوع قوله تعالى في نفس السورة.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون﴾ (١)

فقوله تعالى : «فأنتم شهداء» لا يدل على كونهم شهداء بالفعل، وإنما يذكرهم تلك المهمة التي نيطة بهم وكان من واجهم أن يقوموا بها وينهضوا لأدائها ولكنهم تخلوا عنها، ألا وهي مهمة الشهادة بالحق على الناس.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، انك أنت الحليم الرشيد.﴾ (٢)

فقولهم : «انك أنت الحليم الرشيد» ليس استهزاء أو تهكما كما قيل، وإنما هو استنكار لقوله واشعار بأنهم وجدوه على غير ما يليق به، فانه من المفروض أن يتصرف تصرف الحليم الرشيد، ولكنه أخلف ظنهم بكلامه، وأتى بما هو ليس من شأنه.

وهذه يشبه في روحه ومذلوله كلام قوم صالح لسيدنا صالح:

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا. أنتنانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب﴾ (٣)

فقوله: «قد كنت فينا مرجوا قبل هذا» وقولهم «انك أنت الحليم الرشيد» يجريان في اتجاه واحد ويعبران عن معنى واحد. والذي يفرق بينهما هو اختلاف الأسلوب فقط.

وكان هذا الأسلوب مألوفاً عند العرب وكانوا يستعملونه في كلامهم. ومن ذلك قول مالك بن حريم الهمداني:

أثبنت الأيام ذات تجارب	وتبدى لك الأيام مالست تعلم.
بأن ثراء المال يرفع ربه	يثنى عليه الحمد وهو مذمم (٤)

(١) سورة آل عمران: ٩٩

(٢) سورة هود: ٨٧

(٣) سورة هود: ٦٢

(٤) الحماسة: ١/٥٩٨، رقم المقطوعة (٤٣٩)

فقلوه: (وهو مذموم) لايعنى أنه مذموم بالفعل فان الأمر على العكس والناس يشنون عليه ويكرمونهم ويشنون عليه الحمد وانما يعنى أنه ينال بثراته ثناء الناس وان كان من شأنه أن يذم ويقبَح ويجعل غرضا للشتيمة.

ومن ذلك قول يزيد بن الحكم الثقفى وهو يعظ ابنه بدرا:

ولقد يكون لك الغريب أخاويقطعك الحميم (١)

فليس المراد بالحميم الذي يكون حميما بالفعل. وانما المراد به هو الذي كان من واجبه أن يكون حميما. فان الذي يكون حميما بالفعل لا يكون قاطعا للرحم أو صارما لأواصر القرابة أو المودة بحال من الأحوال. فبينهمايون شاسع. وعلى هذا فيكون تقدير العبارة هكذا:

ولقد يكون لك الغريب أخاويقطعك القريب الذي كان من شأنه أن يكون حميما.

ونرى الآية التي نتحدث عنها قدوردت على مثل هذا الأسلوب فيكون معنى الآية هكذا:

﴿أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم من شائكم وواجبكم أن تكونوا مسلمين﴾

واذا أولنا الكلام الى هذا المعنى لم يكن هناك أى اشكال فى أن تكون هذه الآية أيضا ناظرة الى أهل الكتاب كشأن أخواتها، وانسجم الكلام مع ما قبله وما بعده تمام الانسجام.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

لقد علمنا فى الآيات السابقة أسلوبا من الأساليب التي كان يتبعها أهل الكتاب ليضلوا المسلمين عن دين الاسلام، ألا وهى الحاجة فى ملة ابراهيم ودينه. فان هذه الحاجة كانت ترمى - أول ما ترمى - الى اضلال المسلمين عن دينهم والتشكيك فى أمرهم ولذلك وردت بعد ذكرها هذه الآية:

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون﴾ (٢)

والآيات التي نتحدث عنها الآن تبين لنا أساليب أخرى كانوا يتبعونها لاضلال المسلمين وتنفيرهم

عن دينهم.

فمن ذلك ما ذكر فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات، حيث قال تعالى:

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، والله واسع عليم.﴾

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الخطة المدبرة بشئ من التفصيل. ويعد ذكرها وذكر ما قدر لها من الجبهة والفضل جاءت هذه الآية:

(١) الحماسة : ٦١٣/١ ، رقم (٤٥١)

(٢) سورة آل عمران: ٦٩

فومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادمتم عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»

وهذه الآية تكشف القناع عما تنطوي عليه صدور أهل الكتاب من البغض والحقد على المسلمين من ناحية أخرى، فقد بلغ من بغضهم وحقدهم عليهم أنهم استباحوا أموالهم واستباحوا حرما تهم ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

فاذا كان هذا حالهم معهم في أمر دنياهم فماذا يكون حالهم معهم في أمر دينهم ! فلا ينخدع المسلمون من كيدهم وخداعهم وليحذروهم كل الحذر!!

ثم ان هذا الوضع كما يدل على حقدهم الدفين ضد المسلمين فكذلك يوفر دليلا على نقض عهدهم مع الله، حيث أنهم قد عاهدوا الله أنهم سيؤمنون برسله ويعزرونهم (انظر الآية ١٢) من المائدة) ولكنهم لم يراعوا ذلك وارتضوا لأنفسهم غير ما كان عليه عليهم عهدهم .

فجاء قوله تعالى ينذرهم عاقبة غدركم بعهد الله:

﴿بلى من أوفى بعهد وأتقى فإن الله يحب المتقين. ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يذكهم ولهم عذاب اليم.﴾

وبعد ما انتهى السياق من ذكر هذه الخطة المدبرة لاضلال المسلمين عن دينهم وانتهى من كشف الغيظ الذي كان يتأجج عليهم في صدورهم أقبل الى خطة أخرى من خططهم ليحذر المسلمين منها:

﴿وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.﴾

وكان مما يلوون به ألسنتهم ما يوحى أن أحدا من أنبيائهم - مثلا - أمرهم بعبادته أو أمرهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا من دون الله، وكانوا يقصدون بذلك الى أن يوهمو المسلمين أن عقيدة التوحيد التي يعرضها الاسلام عقيدة طارئة محدثة، والشرك الذي يلوون حياتهم هو الأصل الأصيل الذي دعت اليه الكتب السابقة ودعت اليه الرسل والأنبياء، فجاء قوله تعالى ينبئه على كذبهم وينبئه على سفاهتهم وينبئه على أن دعواهم هذه مما يأباه العقل السليم ويرفضه المنطق المستقيم:

﴿ما كان لبشر أن يوئيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيا أمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون﴾

وبعد ما انتهى من تفنيد هذه الدعوى عقليا ومنطقيا، رجع اليها ففندها تاريخيا:

﴿واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم

لنؤمنن به ولننصرنه، قال أنقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين.

فهؤلاء يزعمون أن أنبياءهم أمروهم أن يكونوا عبادا لهم من دون الله ، أو أمروهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا من دون الله .

وبعبارة أخرى أمروهم أن يشركوا بالله ولا يألوا جهدا فى معارضة هذا النبى الذى يدعوهم الى الاسلام مع أن الواقع التاريخى يكذب ذلك، فقد أقر هؤلاء النبيون كلهم أنهم ليؤمنن بهذا النبى ولننصرنه اذا أدركوه. وهذا الاقرار أول دليل على أنه ليس هناك خلاف بينه وبينهم، فكلهم كانوا دعاة الى الاسلام وكانت هذه أمتهم أمة واحدة.

ثم التفت السياق الى تلك الطائفة من أهل الكتاب يصممهم بالفسق حيث أنهم يعرضون عن الحق بعد ما تبين لهم وأسفر، ويتعجب منهم على عدولهم عن الاسلام ورغبتهم عنه مع أنه دين هذا الكون وكل من فى السموات والأرض خاضعون له ومتنظمون فى سلكه:

فممن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون أغير دين الله ييغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون

ثم أزعجت النصيحة الى المسلمين أن يستمسكوا بدينهم ويعضوا عليه بالنواجذ ولا يبالوا بمخالفة من خالفهم وحرب من حاربهم وكيد من كايدهم وليعلموا أن الاسلام هو الدين المقبول عندالله وأهله هم المفلحون عنده، وأما من أعرض عنه وأبى فليس له الا الهلاك والخسار:

فقل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فقلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ثم كرر السياق على أهل الكتاب يتوعددهم ويتهددهم على سوء موقفهم الذى وقفوه من هذا الرسول والذى كان يناقض تماما ذلك العهد والميثاق الذى أخذ من أنبيائهم والذى كان يوجب عليهم أن يبادروا بالايمان به ولا يدخروا وسعا فى نصره وشد أزره:

كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاعهم البيئات، والله لا يهدى القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم. ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم المضالون. ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار قلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين

وما نلاحظه فى هذه الآيات أنها تتفق تماما مع طبيعة الموقف الذى تتناوله فكما أن هؤلاء

الأعداء شنوا غارة شعواء على هذا الدين ليفزوه من كل جانب ويحاربوه بكل أسلوب، فكذلك نرى هذه الآيات تنصب عليهم اللعنة وكأنها تنصب عليهم من كل جانب:

﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾

وكما أنهم لم يفتروا ساعة عن حرب هذا الدين وأهله فكذلك لا يفتزعهم العذاب يوم القيامة:

﴿والذين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾

واليوم هم يستهينون بدين الاسلام ويشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ولكنهم يودون يوم القيامة لو يقبل منهم ملء الأرض ذهبا ويتجاوز عن تغريطهم في حق الاسلام.



سرافرق بين آيتى البقرة وآل عمران:

وقبل أن تغادر هذه الآيات الى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى:

﴿قل أمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأنبياء

وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (١)

فقد مضت معنا هذه الآية فى سورة البقرة أيضا ولكن مع شئ من الفرق حيث قال تعالى:

﴿قولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأنبياء

وما أوتى موسى عيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (٢)

وهنا يثور سؤال: ما السر فى هذا الفرق الذي نلاحظه فى الموضعين؟ ثم ما السر فى تكرار هذه

الآية هنا بعد ما مضت معنا فى سورة البقرة؟

أما الفرق بين الموضعين من ناحية «الى» و «على» فالتأمل فى نظم الآيتين وسياقهما يظهر لنا

أن الآية الأولى وهى التى فى سورة البقرة جاءت فى جو الاعتزاز والافتخار حيث جاء قبلها قوله تعالى:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من

المشركين﴾ (٣)

كما جاء بعدها قوله تعالى:

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ (٤)

(١) سورة آل عمران : ٨٤

(٢) سورة البقرة: ١٣٦

(٣) سورة البقرة: ١٣٥

(٤) سورة البقرة : ١٣٨

فاليهود والنصارى لما اعتزوا باليهودية والتصرانية وادّعوا أنها هى طريق الهدى دون غيرها أهيب بالمسلمين أن يعتزوا بدينهم الاسلام، الذي أنعم الله به عليهم، والذي كان دين أبيهم ابراهيم ، ودين الرسل والأنبياء أجمعين.

وكان «الى» أنسب بهذا الجور وألصق بهذا المعنى. والقرآن كلما أراد أن يبرز هذا الجانب أو يعبر عن هذا المعنى - وهو خيرية الشئ وكونه رحمه ونعمة - عدّى (الانزال) بـ «الى» كما نرى في الآيات التالية:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا﴾ (١)

﴿لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ (٢)

﴿الم. كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور﴾ (٣)

﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته﴾ (٤)

﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك﴾ (٥)

﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق﴾ (٦)

﴿واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم﴾ (٧)

﴿فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير﴾ (٨)

وتكرر «أوتى» فى هذه الآية أيضا يؤدى دوره فى أداء هذا المعنى، ويساعد فى إبراز هذا الشعور الذي يوجب به قلب المؤمن تجاه نعمة الاسلام - النعمة التي لاتعدلها أى نعمة فى العالم على الإطلاق.

وأما آية آل عمران فيسودها جو الفرض والايجاب فقد سبقها قوله تعالى:

﴿فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون. أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من فى

السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون.﴾ (٩)

(١) سورة النساء : ١٧٤

(٢) سورة الأنبياء : ١٠

(٣) سورة ابراهيم : ١

(٤) سورة ص : ٢٩

(٥) سورة الرعد: ٣٦

(٦) سورة سبا : ٦

(٧) سورة الزمر : ٥٥

(٨) سورة القصص : ٢٤

(٩) سورة آل عمران : ٨٢-٨٣

كما جاء بعدها قوله تعالى:

﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ (١)

وهذا السياق ينادى بأن الانسان مكلف باتباع ملة الاسلام ومن عدل عنها لم يحمده عاقبته وكان

الخسران نصيبه.

ومن المعلوم أنه اذا كان السياق سياق فرض وإيجاب ، فحرف (على) يكون أولى به. ولذلك حسن أن يقال هنا: ﴿وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم .. الخ﴾ كأن المعنى : آمنا بالله وما فرض علينا وما فرض على ابراهيم الخ.

ثم لكون السياق سياق فرض وإيجاب اكتفى السياق بإيراد (أوتى) مرة واحدة. ولم يكرره كما كرر فى آية البقرة. فان تكراره هنا كان من شأنه أن ينقل ذهن الى جو غير الجو الذي يحيط بالآية. سر تكرار الآية:

بقى علينا أن نكشف القناع عن سر تكرار هذه الآية بعد مضيها فى سورة البقرة، فنقول: ان هذه الآية تعرض علينا صورة واضحة دقيقة للإيمان المطلوب، بحيث لا تترك فرصة لمن يريد التلاعب به والخداع فى أمره.

فالإيمان لابد أن يكون كما جاء به الاسلام، وكما جاء به هذا النبى، وكما جاء به الأنبياء كلهم، ولو أراد أحد أن يؤمن بنبى دون نبى، أو يؤمن بطريقة غير طريقة الاسلام ، فهو باطل مردود ، ولا قيمة له عند الله.

ولذلك كانت هذه الآية من أشد الآيات على اليهود والنصارى، وعلى كل من حاد عن الطريق وأتبع هواه. فجاءت أولاً فى سورة البقرة لتنبيه اليهود والنصارى من سباتهم وتبين لهم أن الإيمان الذي يتبعجون به، والذي تملبه عليهم يهوديتهم ونصرانيتهم باطل ومرفوض. وليس من الهدى فى شئ. وإنما الذي يعتبر عند الله هو الإيمان الذي جاء به الاسلام وجاء به هذا النبى وجاء به الأنبياء كلهم، فان كانوا يريدون الهدى فليعودوا اليه.

﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق﴾ (٢)

ثم تكررت فى هذه السورة لتضعهم أمام مرآة تجليهم للناظرين، ثم تعلن انسلامهم من الهدى واليأس من عودتهم اليه، كما يظهر من قوله تعالى بعد هذه الآية:

﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٣)

هذا ما يظهر لنا فى سر تكرار هذه الآية وفى مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده - تعالى - ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه الى ما بعدها.



(١) سورة آل عمران: ٨٥

(٢) سورة البقرة: ١٣٧

(٣) سورة آل عمران: ٨٦

نظم الآيات (٩٢-٩٩)

قال تعالى:

﴿لن تتألفوا البر حتى تتفقوا مما تحبون ، وما تتفقوا من شيء فإن الله به عليم. كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين. قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون﴾
يقول الامام ابن عطية - رحمه الله - وهو يذكر موقع الآية الأولى من هذه الآيات، ويذكر مناسبتها لما قبلها:

«ذهب بعض الناس الى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى: انه لا يقبل من الموافى على الكفر ملء الأرض ذهاباً وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحضر على الاتفاق من المحبوب المرغوب فيه.» (١)
ويقول الامام أبوحيان - رحمه الله -:

«مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما أخبر عن مات كافراً أنه لا يقبل ما أنفق في الدنيا أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة على الاختلاف الذي سبق حضر المؤمن على الصدقة ويبين أنه لن يدرك البر حتى ينفق بما يحب.» (٢)

تقويم هذا الرأي:

وهكذا نرى الناس قدنحوا منحى واحداً في ربط هذه الآية بما قبلها. (٣) مع أنه لا يخلو من تكلف بالاضافة الى أن أسلوب الآية نفسها لا يشجعنا على القول بمثلها.

(١) المحرر الوجيز: ١٥٧/٣

(٢) تفسير البحر المحيط: ٥٢٣/٢

(٣) ومن أراد التوسع فليراجع فتح القدير: ٣٦٠/١، وروح المعاني: ٢٢٢/٣، ومختصر تفسير

المنار: ٣٥٢/١، وفي ظلال القرآن: ٤٢٤/١.

وأما مناسبتها لما بعدها فالتناس سكتون عنها الا مارواه ابن عطية عن بعضهم أنه قال.

« ثم ذكر - تعالى - تقرب اسرائيل عليه السلام ، بتحريم ما كان يحبّ على نفسه ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الاتفاق من المحبوب، وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات، على أنها معان منحازة، نظمتهما الفصاحة المعجزة أجمل نظم. » (١)

ولعلنا لسنا بحاجة الى التعليق عليه ، فهو أسوء حالا مما سبق، فان تحريم ما أحل الله أو تحريم نعمة من نعمه ليس من البر أو التقرب أو الاتفاق في شيء. ولذلك لما أراد النبي ﷺ أن يفعله لسبب من الأسباب، جاء النهي عن ذلك:

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » (٢)
وأما ما حرم اسرائيل على نفسه فالذي يترجح في شأنه هو أنه - عليه السلام - فعل ما فعل لمرض كان يعاني منه.

واليه أشار صاحب الكشاف - رحمه الله - حيث قال:

« وقيل أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك باذن من الله ، فهو كتحريم الله ابتداء » . (٣)

فاسرائيل - عليه السلام - اما حرم على نفسه ما كان يخاف منه الضرر على صحته.
وأما القول بأنه حرم على نفسه أحب الطعام اليه وأشهى ايقا - بنذره أو حرصا منه على نيل البر، فهو قول يعوزه الدليل والشرع لا يقرّ مثل هذه النذور، ولا يسمح بتحريم ما أحل الله ، الا أن يكون الانسان مضطرا اليه بسبب مرض قد نشب فيه أظفاره. ولم تبق له حيلة الا أن يجتنب ما يضره.
وأما ما ذكروه في مناسبة الآية لما قبلها فهو أيضا لا يخلو من تكلف.

فان الآية التي قبلها ما جاءت لبيان ما لا ينفع الكفار من الاتفاق البتة، وانما جاءت للتنبيه على أن فرصة الايمان اذا فاتتهم فانها لن تعود ولن تعوض، ولو أراد أحد بعد فواتها أن يتداركها بملء الأرض ذهباً لم يقدر عليه.

إذا فلا يستقيم ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي ذكروه .

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فان أسلوب الآية أيضا لا يشجعنا على القول بما قيل في تأويلها ومناسبتها لما قبلها، فان هذا التأويل يعتمد على أن يكون الخطاب في قوله تعالى : «لن تتالوا البر... الخ» موجها الى المؤمنين. والمعهود في (الن)

(١) المحرر الوجيز: ١٥٧/٣

(٢) سورة التحريم: ١

(٣) الكشاف : ٤٤٥/١

أنها اذا دخلت على صيغة الخطاب كما نرى فى هذه الآية، فانها توحى - فى الغالب - بجَو يسوده الجحود والانكار، أو التردّد وعدم الاقتناع وسيتبين ذلك بأمثلتها، قال تعالى:

﴿وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.﴾ (١)

﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا، أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضل الله فلن تجده سبيلاً﴾ (٢)

﴿وان تعوبوا نعد ولن تغنى عنكم فئتمكم شيئاً ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين﴾ (٣)
﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير.﴾ (٤)

﴿فهل ينظرون الأسنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (٥)
فهذه الآيات قد دخلت فيها (لن) على صيغة الخطاب، ولا يخفى أنها كلها توحى بجو يسوده الجحود والانكار والتردد وعدم الاقتناع.
ومثل هذه المواقف يكون تأويل الخطاب فيها الى غير المؤمنين أولى من تأويله الى المؤمنين، وخاصة اذا كانت القرائن الأخرى تؤيد ذلك.

منشأ الوهم:

ولعل الذين أولوا الخطاب فى الآية الى المؤمنين لم يؤولوه اليهم الا لما وردت به الآثار.
فقد روى - مثلاً - عن أنس - رضى الله عنه - أنه قال:
(كان أبوظلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله اليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبی صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت ﴿لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبوظلحة: يا رسول الله ان الله يقول ﴿لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وان أحب أموالى الى بيرحاء، وانها صدقة لله أرجو برّها و ذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال رسول الله (ﷺ): بخ. ذلك مال رابع. ذلك

(١) سورة البقرة: ٢٣-٢٤

(٢) سورة النساء: ٨٨

(٣) سورة الأنفال: ١٩

(٤) سورة الممتحنة: ٣

(٥) سورة فاطر: ٤٣

مال رابع، وقد سمعت ماقلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين. قال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسما أبو طلحة فى أقاربه وبني عمه. (١)

ان مثل هذه الآثارهى التى ذهبت بهم فى تأويل الآية الى ماذهبوا اليه. مع أنها لاتلزمنا أبدا بأن نفسر الآية بها. بل يسعنا أن نقول: ان تلك الآثار كلها داخله فى عموم هذه الآية، والآية نزلت فى أصلها بمناسبة أخرى وجاءت فى شأن قوم آخرين. وما يؤيد ذلك ما رواه أنس - رضى الله عنه - قال:

لما نزلت هذه الآية ﴿لن تتألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أو هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله ، حائطى الذي بكذا وكذا صدقة، ولو استطعت أن أسره لم أعلنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله فى فقراء أهللك (٢)

فهذه الرواية تبين لنا الموقف وتساعدنا فى تفسير سائر المواقف التى تشبه هذا الموقف. فانها تبين لنا أن هذه الآية وحدها لم تكن تحملهم على أن ينفقوا فى سبيل الله من أحب أموالهم اليهم، بل كانت هناك آيات أخرى تملئ عليهم هذا الموقف مثل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ وان قرأ هؤلاء تلك الآية بمناسبة انفاقهم من أحب أموالهم اليهم فليس معنى ذلك أنهم كانوا يحسبون أنفسهم معنيين بهذا الخطاب ، بل جل ما يقال : انهم كانوا يعتبرون أنفسهم داخلين فى عمومها. وكان ذلك نتيجة طبيعية لحرصهم الشديد على تطبيق كتاب الله وأحكامه.

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية ؟ والى من وجّه الخطاب فيها ؟ وما وجه مناسبتها لما قبلها وما بعدها ؟

فنرجع الى البحث عن تأويل هذه الآية ولكن نودّ قبل ذلك أن نكون على بينة من أمرين.

الأمر الأول:

الانفاق ليس خاصا بما يسمى فى العرف العام بالمال بل هو أعمّ من ذلك. فكما أنه يطلق على الذهب والفضة ومشتقاتهما وعلى كل ما يمتلكه الانسان من عرض هذا الأدنى فكذلك يطلق على العلم والحكم ويطلق على الرحمة والنصيحة وما الى ذلك. والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكنكم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا﴾ (٣)

(١) صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن، باب لن تتألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون :

١٦٩/٥ - ١٧.

(٢) مسند الامام أحمد: ١٧٤/٣

(٣) سورة الاسراء : ١٠٠

والمراد بخزائن الرحمة هنا هو الكتاب والحكم والنبوة كما يظهر بالتأمل فى سياق الآية. ولقد استخدم القرآن هذا التعبير لهذا المعنى فى سورة ص أيضا حيث قال:

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَنْفِقُوا عَذَابِ. أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ.﴾ (١)

ولقد استخدمت كلمة (خزائن) كذلك لأداء هذا المعنى كما استخدمت كلمة (الرحمة) فى مثل هذا السياق لتؤدى نفس الغرض حيث قال تعالى:

﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٢)

وقال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟﴾ (٣)
فالخزائن والرحمة وخزائن الرحمة، كلها يستعملها القرآن فى سياق الكتاب والحكم والنبوة.

فيكون معنى الآية: لو أنكم كنتم تملكون هذه الأشياء إذا لأمسكتموها حتى تنحصر فيكم ومنعتموها من أن ينفق منها شئ على غيركم. وكان الانسان بخيلا ممسكا.

ومن هنا نعرف أن القرآن استعمل (الاتفاق) فى سياق الكتاب والحكم والنبوة.

فالانفاق ليس خاصا بما يسمى فى العرف العام بالمال، بل هو يطلق على الكتاب وعلم الكتاب ويطلق على النبوة وعلم النبوة وما الى ذلك.

الأمر الثاني:

أن الحب نسيب البخل. والحب المفرط للشئ هو الذي يحمل الانسان على أن يبخل به على غيره. ولقد أشار القرآن الى هذه الحقيقة اشارة واضحة، حيث قال:

﴿كَلَّا بَلْ لَاتُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٤)

فقوله تعالى: ﴿وتأكلون التراث أكلا لماً﴾ ناظر الى قوله تعالى: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾

وقوله تعالى: ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ ناظر الى قوله تعالى: ﴿ولا تحاضون على طعام

المسكين﴾

(١) سورة ص : ٨-٩

(٢) سورة الطور: ٣٧

(٣) سورة الزخرف: ٣١-٣٢

(٤) سورة الفجر : ١٧-٢٠

فحبهم المال حباً جماً هو الذي يحملهم على أن يبخلوا به ويمنعهم من أن يحضّ بعضهم بعضاً على طعام المسكين.

فالحب هو أصل البخل، وعلى هذا يستعمل أحياناً وكأنه مرادف للبخل، كما هو شائع مطرد في الألفاظ التي تكون بينها نسبة الأصل والفرع.

ومنه قول عدي بن زيد، وهو من فحول الجاهلية :

عسى سائل ذو حاجة إن منعته من اليوم سؤلاً أن يُيسّر في غسد
وللبخلة الأولى لمن كان باخلاً أعفّ، ومن يبخل يكم ويكهد
وأبدت لي الأيام والدهر أنه ولو حباً، من لا يصلح المال يفسد^(١)
موضع الشاهد هنا قوله: (ولو حباً) حيث أراد به معنى البخل.

أي : بيّنت لي الأيام أن البخل لا يمنع المال من الفساد. وإنما يمنعه منه الإصلاح والاقتصاد وحسن الرعاية وحسن التنمية. فمن لم يتخذ تلك الأسباب فسد ماله. ولم يمنعه من الفساد بخله. والأمر في الآية التي نتحدث عنها كذلك، فقد أطلقت فيها كلمة الحب وأريد بها البخل كما سنبينه.

تأويل الآية:

وبعد هذه المقدمة نعود إلى الآية فنقول:

الخطاب في هذه الآية وما بعدها مازال موجهاً لأهل الكتاب.

وقد علمنا في الآيات السالفة أن أهل الكتاب قد أرخوا سدول الكتمان على كل ما جاء في كتبهم عن هذه النبوة المباركة مما كان يبشر بها ويذكر آياتها وعلاماتها. وليس ذلك فحسب، بل أذاعوا في الناس ما يتفياها وينفّروهم عنها. ويوهمهم أن التي بشرت بها الرسل والكتب ليست هذه النبوة ! وعلى ذلك وجه العتاب إليهم:

«يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون»^(٢)

«كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات. والله لا يهدي القوم الظالمين»^(٣)

فجاءت هذه الآية بعد كل مامضى مما يفضحهم ويكشف حالهم، لتبين لهم أنهم ليس أمامهم طريق، إن كانوا يريدون أن يتألوا البر إلا أن يبينوا للناس ما كتموهم ويصدقوا بكل ما يبخلون به مما ورد في كتبهم في شأن هذه النبوة المباركة:

(١) جمهرة أشعار العرب: ٥١٢/٢

(٢) سورة آل عمران: ٧١

(٣) سورة آل عمران: ٨٦

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

ويمكن أن يستأنس هنا بما ورد في سورة البقرة والسياق نفس السياق، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.﴾ (١)

فوصفت لهم هذه الآية، ان كانوا يريدون أن يخرجوا من اللعنة التي تحيط بهم، ثلاثة أمور: التوبة، والاصلاح والتبيين.

وهنا يثور سؤال، فلماذا اقتصر السياق هنا في سورة آل عمران على أمرين فقط، وهما: التوبة والاصلاح، ولماذا لم يذكر الثالث، وهو التبيين، حيث قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

والجواب عنه أن السياق لم يترك الثالث وانما عدل به عن مكانه مع أخويه ليذكره مستقلا في مكان آخر وبأسلوب آخر تنويعا بشأنه وابرار الأهميته وتنبيهها على أنه لا معنى للتوبة والاصلاح ولا اعتبار لهما ما لم ينضم اليهما التبيين. وذلك قوله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

ولقد تكرر هذا المضمون في نفس السورة وبأسلوب آخر حيث قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ. سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.﴾ (٢)

وستتناول تلك الآية بالبيان والايضاح في موضعها باذن الله.

وهذا المفهوم يجعل الآية مرتبطة بما قبلها وبما بعدها أى ارتباطا. أما ارتباطها بما قبلها فقد علمناه آنفا. وأما ارتباطها بما بعدها فهو أن السياق بعد ما انتهى من بيان أهمية التبيين وضرورته وانتهى من بيان خطورة أمره أقبل الى موضوعين هامين قد ركز أهل الكتاب على كتمان أمرهما، وهما موضوع الطعام وموضوع البيت.

أما موضوع الطعام فقد كان من أمره أنهم أشاعوا في الناس أن هذا الذي يدعى النبوة ان كان صادقا في دعواه فما باله يخالف ملة ابراهيم ويخالف الأنبياء السابقين حيث يحل من الطعام كل ما كان حراما عندهم !؟

وأما موضوع البيت فأشاعوا عنه أن البيت الذي بناه ابراهيم هو بيت المقدس وليس الكعبة. فان

(١) سورة البقرة: ١٥٩-١٦٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٠.

كان هذا نبياً وكان مبعثه لأحياء ملة إبراهيم وتجديد معالمها فما باله قد رغب عن بيته الى بيت لاصلة له به؟

فأما الشبهة الأولى فأجاب عنها القرآن بأن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل وما حرم عليهم منه شئ. لافى كتاب منزل، ولا على لسان نبي مرسل. نعم، لقد حرم إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - شيئاً من ذلك، ولكنه حرمه على نفسه لظروف كانت تخص به، ولم يحرمه على قومه. وأيضاً صار ما صار قبل نزول التوراة، وهم لاشأن لهم بما حدث قبل نزولها.

فعلام هذه الجلبية وهذا الضجيج ؟ هل يريدون أن يتبع الحق أهواءهم فيحرم كل ما حرموه على أنفسهم وعلى غيرهم ظلماً وبغياً واقتراء على الله ؟

وهذه الآية وإن اختلفت فيها الآراء إلا أن ما ذكرناه أولى بالسياق وأقرب لنظام الآيات. ولقد كان الضحك يؤول الآية هذا التأويل. (١)

ومما يوحى إلينا السياق أن كل ما حرمه بنو إسرائيل على أنفسهم من الطعام إنما حرموه بعد ما توغل فيهم الشرك. وكان الشرك هو الذي يلى عليهم تلك التحريمات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى بعد كشف القناع عن حقيقة الواقع:

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾

والتأمل في نظم سورة الأنعام أيضاً يؤيد هذا القول ويذهب بنا إلى ما ذهبنا إليه.

وأما الشبهة الثانية فأجاب عنها القرآن بأن أول بيت وضع للناس - وقد وضعه إبراهيم ليكون قبلة لهم ومصلًى - هو الذي يوجد بمكة. ففيه آيات لا يمكن إنكارها، وهي لا توجد في غيره.

فهو الذي يمتاز بكونه مقام إبراهيم فإن إبراهيم جعله مقاماً له ولذريته واتخذ مركزاً لدعوته حيث قال تعالى حكاية عنه:

﴿ربنا انى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (٢)

وهو الذي يمتاز بكونه مأمناً للجميع، فكل من دخله كان آمناً، وتلك ميزة لا توجد في غيره، وكان ذلك من آيات هذا البيت حيث دعا له إبراهيم فقال:

﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ (٣)

(١) انظر تفسير الطبري: ٣/٤

(٢) سورة إبراهيم: ٣٧

(٣) سورة البقرة: ١٢٦

ثم هذا البيت هو الذي يعجبه الناس: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (١)

وهذا أيضا من آيات كونه بناء إبراهيم. فان إبراهيم لما انتهى من بنائه أمره ربه بأن يؤذن في الناس بحججه حيث قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢)
فكونه بيتا محجوجا يقصده الناس من كل حذب وصوب آية بيته على كونه ذلك البيت الذي بناه إبراهيم.

تلك ثلاث آيات بينات تتوافر في هذا البيت ولاتتوافر في غيره. وهي تكفى لتبديد شبهة قد أثارها أهل الكتاب وتكفى لادحاض حجتهم.

وبالجملة فهذان أمران قد ركز أهل الكتاب على كتمان حقيقتهما، ولبس الحق بالباطل فيهما ليتوصلوا بذلك الى التشكيك في أمره هذه النبوة المباركة ويتمكنوا من اثاره الشبهات حولها، فبيّن السياق أمرهما وكشف القناع عن حقيقتهما ليكون الناس منهم على حذر ولينبهوا لتلك الشبهات الكاذبة التي يثيرونها حول هذه النبوة ليصرفوهم عنها.

ومن ناحية أخرى فان هذا كان تنبيها لأهل الكتاب الى أن الله شهيد على ما يعملون وليس بغافل عنهم فان لم يثوبوا الى رشدهم ولم يتوبوا ولم يصلحوا ولم يبينوا فانهم لا يضررون الا أنفسهم. وأما هذا النبي فلن تعرقل مسيره تلك الشبهات التي يثيرونها حوله. فان الله سيكشف أمرها ويجعل تلك المكائد كلها في نحور أصحابها.

لفتة هامة:

وقبل أن نغادر هذه الآيات الى ما بعدها نود أن ننّه الى نكتة هامة يرشدنا اليها التأمل في نظم الآيات وسياقها، وهي أنه تعالى وجه الخطاب الى أهل الكتاب في موضعين من السورة بأسلوب واحد متقارب. فقال في الموضع الأول:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَتَّبِعُونَ الْهَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣)

وقال في الموضع الثاني:

(١) سورة آل عمران: ٩٧

(٢) سورة الحج: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران: - ٧٠-٧١

قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون. ﴿١﴾
فالأسلوب في الموضوعين واحد متقارب إلا أن هناك فرقاً يسيراً بينهما، وذلك أن الخطاب الأول وجه إليهم مباشرة، ووجه إليهم الثاني بواسطة.

فقال في الموضوع الأول: يا أهل الكتاب ... يا أهل الكتاب ... الخ ، وقال في الموضوع الثاني: قل يا أهل الكتاب... قل يا أهل الكتاب.. الخ.

فما هو السر في هذا الفرق الذي نلاحظه في الموضوعين؟

إذا أردنا أن ندرك هذا السر فلنضع في اعتبارنا موقع كل من الخطابين. وبيانه أن الخطاب الأول وجه إليهم وهم في ساحة حوار ونقاش، وكان للحديث بقية، والكلام معهم وعنهم لم ينته بعد فكان أنسب بالمقام أن يوجه الخطاب إليهم مباشرة، فانه يعبر عن ذلك القرب الذي ينبغي أن يوجد بين المتكلم والمخاطب.

وأما الخطاب الثاني فقد وجه إليهم بعد ما فصل لهم القول تفصيلاً وبعد ما وعظوا وذكروا وحذروا وأندروا ولكنهم لم يتعظوا ولم يذكروا، فلم يبق لهم إلا أن ينذروا الانذار الأخير ثم يتركوا وشأنهم.

فوجه إليهم الانذار بواسطة ، والانذار إذا جاء بواسطة فهو يعني الانذار مع الاعراض . وهذا يزيد من شدته وصرامته. ويؤذن في ذات الوقت بانقطاع الحديث ونهايته، فكان هذا انذاراً نهائياً صارماً لأهل الكتاب في هذه السورة ، وبعده مباشرة عدل عنهم الخطاب الى جماعة المؤمنين، ليحذّرهم من كيدهم ويمنعهم من الاستماع إليهم.



هذا ما تيسر لنا في مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه الى ما بعدها



نظم الآيات (١٠٠ - ١١٧)

قال تعالى :

هيا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين.
وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط
مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل
الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.
ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون. ولا
تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم. يوم تبيض
وجوه وتسود وجوه، فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم
تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون. تلك آيات الله نتلوها عليك
بالحق ، وما الله يريد ظلما للعلمين. والله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور.
كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل
الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون لن يضروكم إلا أذى. وإن يقاتلكم
يولؤكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس
وياؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء
بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله
أناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين.
ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون. مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا
أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفُسهم يظلمون.﴿



يقول صاحب تفسير المنار وهو يذكر مناسبة الآية الأولى لما قبلها :

« واتصال الآية بما قبلها ظاهر جلى . فانه بعد ما وُيخَّ أهل الكتاب على كفرهم وصدَّهم عن سبيل
الله، وهو الاسلام ، اثر اقامة الحجج عليهم وازالة شبهاتهم، ناسب أن يخاطب المؤمنين مبينالهم أن من
كان هذا شأنهم فى الكفر وهذا شأن ما دعوا اليه فى ظهور حقيقته لا ينبغى أن يطاعوا ولا أن يسمع

لهم قول، فانهم دعاة الفتنة و رواد الكفر. » (١)

وهذه المناسبة التي ذكرها صاحب تفسير المنار لاتخص الآية الأولى فقط، بل تشمل هذه الآيات كلها وتشمل ما بعدها ، فانها كلها فى جملتها تحذّر المؤمنين من أهل الكتاب وتحذّره من طاعتهم وانتصاحهم وتحذّره من الثقة بهم والاستماع اليهم. وقد أشرنا اليه فى نهاية الفقرة السابقة. فمناسبة هذه الآيات لما قبلها واضحة ظاهرة . وهى ليست بحاجة منا الى ايضاح أو تفصيل.

مناسبة الآيات فيما بينها :

وأما مناسبتها فيما بينها فسنبيّنها فيما يلى :

ان هذه الآيات تحذر المؤمنين أولا بأنهم ان أطاعوا أهل الكتاب واستمعوا لأى فريق منهم فانهم سيخسرون دينهم وإيمانهم ولا يلبثون أن يقعوا فى الكفر بعد اذ أنجاهم الله منه.

ثم تهيب بهم أن يعتصموا بالله ويتقوه حق تقاته ويحرصوا على أن يعيشوا على الاسلام ويموتوا عليه، فانه هو الذي يضمن لهم خير الدنيا والآخرة، وقد جرّبوا ذلك وشاهدوه بأعينهم، حيث انهم كانوا قبل الاسلام أعداء متصارعين فأصبحوا بفضل اخوانا متحابين وكانوا قبله واقفين على حافة الهاوية فأخذ الله بأيديهم وأنجاهم منها.

ثم تذكّرهم مهمّتهم فى هذه الحياة :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾

فليس من واجبه أن يعتصموا بحبل الله فى حياتهم الفردية فحسب، بل مهمّتهم فى هذه الحياة أن يكونوا دعاة الى الخير ويكونوا أمّرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

ومما نلاحظه فى هذه الآيات أن النهى عن التفرق جاء فيها مرتين : مرة بعد الأمر بالاعتصام بحبل الله حيث قال تعالى :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾

ومرة أخرى بعد توجيه المؤمنين الى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حيث قال تعالى :

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾

وهذا النظم يفيد أن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الخير له دور فى منع الأمة من التفرق كما أن الاعتصام بحبل الله له دور. ولا يمكن الحفاظ على وحدة الأمة الالبتعامل الاثنين.

فان أرادت الأمة جمع كلمتها وتوحيد صفوفها فلا بد لها من الاعتصام بحبل الله ولا بد لها في ذات الوقت من الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالقيام بأحد الواجبين لا يغنى عن القيام بالآخر.

أو بعبارة أخرى:

«ان الاعتصام بحبل الله لا يتم ولا يعتبر الا بعد القيام بواجب الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالقيام بهذا الواجب من تمام الاعتصام بحبل الله، وهو لا يؤتى أكله من توحيد الكلمة ومنع الأمة من الشتات والفرقة الا بعد أن يلحق به ما هو من تمامه.

وعلى أية حال فالاعتصام بحبل الله لا بد منه، اذا كانت الأمة راغبة في اجتماع كلمتها وتوحيد صفوفها وتضافر جهودها، كما أن القيام بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد منه، فهما أمران متلازمان، يكمل بعضهما بعضا.

ثم هناك وجه آخر لمناسبة هذه الآيات فيما بينها، وهو أنه لما انتهى السياق من تزويد المؤمنين بما يحفظهم من أن يعثب عابث بدينهم وإيمانهم - وهو أن يعتصموا بالله ويتقوه حق تقاته ويقرروا أنهم لن يموتوا الا وهم مسلمون - ارتقى بهم خطوة أخرى فذكرهم أنهم ليس من شأنهم فقط أن يقفوا من عدوهم موقف الحمية والاتقاء حتى يسلم لهم دينهم وإيمانهم، بل مهمتهم في هذه الحياة أن يكافحوا الشر بالخير ويحاربوا المنكر بالمعروف.

وهذا الكفاح وهذا الموقف الشجاع ليس فقط أنه يدفع عنهم خطر الأعداء بل يهد لهم الطريق الى الفلاح. ويكسبهم بياض الوجه ورحمة الله في الآخرة.

ولكنهم ان تخاذلوا وتقاعدوا عن هذا الكفاح وتفرقوا واختلفوا كما تفرق الذين من قبلهم واختلفوا فليس لهم الا سوء العذاب وليس لهم الا سواد الوجه.

ثم قال تعالى:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعلمين. ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور.﴾

فما دام أن الله له ما فى السموات وما فى الأرض وهو يملك أزمة الأمور وعواقبها فليس من رأى الا أن يعتصموا بحبله ولا يستمعوا الى غيره. وليعلموا أن الله ما يتلو عليهم هذه الآيات الا ليشملهم بعطفه ورحمته فالظلم ليس من سنته ولا من طريقته.

ثم يتوجه السياق الى المؤمنين يعرفهم مكانتهم وينبئهم على مهمتهم وعظم مسئوليتهم بأسلوب

جديد:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.﴾

فهؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لدعوة هذا النبى وآمنوا برسالته خير أمة أخرجت للناس.

والدليل عليه أنهم من أبرز صفاتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايان بالله.

وهذه الآية تذكرنا الآية التي وردت في وصف نبينا ﷺ حيث قال تعالى:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ (١)

فأول وصف ذكر للنبي ﷺ في هذه الآية هو أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ويظهر أن التوراة والانجيل كما ذكرا من أبرز صفاته ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فكذلك ذكرا من أبرز صفات صحابته أيضا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويمكن أن يستأنس لهذا القول بماورد في سورة التوبة في وصف هؤلاء المؤمنين، حيث قال تعالى:

﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشروا المؤمنين﴾ (٢)

فالتأمل في نظم هاتين الآيتين يسوقنا الى أن التوراة والانجيل كانا يتضمنان تلك الصفات التي يذكرها القرآن لهؤلاء المؤمنين كما كانا يتضمنان ذلك الوعد الذي كان نتيجة لتلك الصفات ، والذي يشير اليه القرآن.

وان أبرز صفة من بين تلك الصفات - كما لا يخفى - هي كونهم الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر والحافظين لحدود الله.

فاذا تأملنا في هذه الآية التي نتحدث عنها وتأملنا في تلك الصفات التي تذكرها الآية لهذه الأمة: «تأمرهم بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» مع استحضر تلك الظاهرة التي أشرنا اليها، تبين لنا ما ترمى اليه هذه الآية.

فهذه الآية - فيما يظهر لنا - اشعار للمؤمنين بتلك المسؤولية التي أقيت على أعناقهم حيث جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، الأمة التي بشرت بها التوراة والانجيل وذكرت من أبرز سماتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايان بالله.

وفي ذات الوقت هي اشعار بتلك الكرامة التي ألبسها الله هؤلاء المؤمنين واشعار بذلك الشرف الذي خصهم الله به من بين أمم سائر النبيين.

(١) سورة الأعراف: ١٥٧

(٢) سورة التوبة: ١١١-١١٢

فعلیهم أن یستشعروا دائما جسامه هذه المسئولیه ویشمروا عن ساق المجد للقیام بتكاليفها كما أن علیهم أن یستشعروا عظم الشرف الذی حباهم الله به فلا تستخفّتهم تلك الشبهات التی یشيرها الأعداء حول دینهم ونبیهم لیبعدوهم عنه.

هذا ما ترمى الیه هذه الآیه بالنسبة لهؤلاء المؤمنین .

وأما أهل الكتاب فهی توجه الیهم النصح كذلك ولكن بصیغه الغائب وبأسلوب یملؤه التحسر:

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خیر الملم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . ﴾

فان أهل الكتاب كان من واجبه أن ینضموا الی صفوف هؤلاء المؤمنین ویکونوا لهم عوناً وعضداً فی أعمالهم فان المهمه التی كانت تؤرقهم وكانت تقیمهم وتقعدهم لیلهم ونهارهم هی نفس المهمه التی ذکرتها لهم کتبهم ویشرت بها رسلهم ، فهم كانوا أولى الناس بمسا ندتهم وموارزتهم ، ولكن لم یستجب لنداء الواجب الاقلیل منهم وأما أكثرهم فقد أثروا الفسق علی الایمان ولم یحبوا أن یأخذوا نصیبهم من تلك الکرامه اتی ساقها الله الیهم .

فجاءت الآیات تحث المؤمنین علی مواصلة السیر فی طریقهم ، وتحثهم علی أن یؤدوا مهمتهم غیر مبالین بما یفعله أهل الكتاب لعرقلة مسیرهم ، فانهم لن یضروهم شیئاً ، وانما هم یتکملون نصیبهم من الذلة والمسکنه وغضب الله :

﴿ لن یضروکم الا اذى ، وان یقاتلوکم یولوکم الأدبار ثم لا ینصرون . ضربت علیهم الذلة أین ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وبأقوا بغضب من الله وضربت علیهم المسکنه ، ذلك بانهم كانوا یكفرون بآیات الله ویقتلون الأنبیاء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا یعتمدون . ﴾

وبعد ما ینتهی السیاق من ذکر هؤلاء الفاسقین المعتدین یتوجه الی الصالحین منهم لیثنی علیهم حسن استجابتهم لداعی الایمان وبنوه بحسن مشاركتهم للمؤمنین فیما نیط بهم من مهمه الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر والمساعدة الی الخیرات :

﴿ لیسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة یتلون آیات الله أثناء اللیل وهم یسجدون . یؤمنون بالله والیوم الآخر ویأمنون بالمعروف وینهون عن المنکر ویسارعون فی الخیرات ، وأولئک من الصالحین . وما یفعلوا من خیر فلن یکفروه ، والله علیم بالمتقین ﴾

ومما نلاحظه فی الآیات التی سبقت فی شأن الفاسقین المعتدین من أهل الكتاب ، أنها تذکر لهم

العقوبه التی یلاقونها فی هذه الدنیا من الذلة والمسکنه ولا تذكر ما سیلاقونه فی الآخرة .

نعم ، ان قوله تعالى : ﴿ وبأقوا بغضب من الله ﴾ کان من شأنه أن یشمل عذاب الدنیا والآخرة ، ولكنه لما وضع بین قوله تعالى : ﴿ ضربت علیهم الذلة أینما ثقفوا ﴾ و بین قوله تعالى : ﴿ وضربت علیهم المسکنه ﴾ انحصرت دلالتة فی عذاب الدنیا دون الآخرة بحکم سیاقه وبحکم جوه الذی یحیط به .

فکان یقتضی الموقف أن یذکر ما یصیرون الیه فی الآخرة بعد ذکر ما صاروا الیه فی هذه الدنیا

حتى تكتمل الصورة . فذلك قوله تعالى :

﴿ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.﴾
وأما الصالحون المؤمنون منهم فقد أجمل حسن ثوابهم فى هذه الدنيا وفى الآخرة فى آية واحدة حيث قال تعالى :

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين.﴾

وتجلى لنا روعة هذه الآية وحسن موقعها أكثر فأكثر حين ندرك أن هذه الآية الواحدة القصيرة ليس فقط أنها أجملت حسن ثواب الصالحين فى هذه الدنيا والآخرة بأسلوب يثلج الصدر ويشفى النفس، بل مهدت الطريق فى ذات الوقت لكى يعود السياق الى ذكر سوء عاقبة الكافرين فى الآخرة بدون أن تشعر النفس فى تلك الآيات بشئ من الفجوة أو الاقتضاب وما الى ذلك.



حقائق تستفاد من نظم الآيات :

وبعد ما انتهينا من دراسة هذه الآيات وعرفنا الوجوه التى تربطها فيما بينها نعود اليها مرة أخرى لننبه الى حقائق أخرى هامة تستفاد من نظمها :

١- قال تعالى : ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ ثم قال تعالى : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم﴾

التأمل فى نظم هذه الآية يبين لنا أن الاعتصام بالله عبارة عن الاعتصام بآيات الله وسنة رسوله وهو الهدى وهو الصراط المستقيم، وما عدا ذلك فهو غى وضلال وغفلة عن الله.

٢- قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون.﴾
تفيد هذه الآية بنظمها أن تقوى الله حق تقاته هي أن يعيش المرء وهو مسلم ويموت وهو مسلم، فكان قوله تعالى ﴿ولا تموتن الا وأنتم مسلمون﴾ تفسير لقوله تعالى : (اتقوا الله حق تقاته).

٣- وكذلك تفيد الآية بنظمها أنه لا يتيسر للمرء أن يموت وهو مسلم الا اذا كان يتقى الله حق تقاته . فالقول بنسخ أحد الأمرين يستلزم القول بنسخ الآخر.

وعلى هذا فالذين قالوا بنسخ قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ بقوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ قد أخطأوا وأبعدوا .

وليس هناك تعارض بين الآيتين حتى نقول بنسخ احدهما ولقد كان صاحب تفسير المنار موقفا كل التوفيق فى تأويل قوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ حيث قال :

«أى: بالفوا فى التتوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا.» (١)

٤- قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾

ترشدنا هذه الآية بنظمها الى أن الاعتصام بحبل الله هو السبيل الى وحدة الأمة ، وهو العلاج لما دهاها من داء الفرقة . فلا يمكن توحيد صفوفها ولا يمكن منعها من الفرقة والشقات ما لم تعتصم بحبل الله .

٥- ويعد هذه الآية مباشرة جاء قوله تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم

المفلحون.﴾

هذا النظم يرشدنا الى أن الأمة لا يمكنها أن تظل معتصمة بحبل الله اذا لم تقم بواجب الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذا أمر يصدق الواقع . فأمتنا الاسلامية ظلت معتصمة بحبل الله ما دامت قائمة بهذا الواجب ، ثم لما غفلت عنه دب الضعف والاسترخاء في اعتصامها بحبل الله . وما زال الأمر بها كذلك حتى بعدت عن الله بقدر بعدها عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٦- الاتحاد فى الله والأخوة بروح الله مما يكسب بياض الوجه فى الآخرة ، والعكس يكسب

العكس كما نعرف ذلك بالتأمل فى سياق قوله تعالى:

﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾

هذا ما أردنا أن ننبه اليه مما يستفاد من نظم هذه الآيات .



سرالفرق بين آيتى البقرة وآل عمران:

وقبل أن نغادر هذه الآيات الى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى:

﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله

وضربت عليهم المسكنة﴾

فقد سبق معنا نفس القول فى سورة البقرة ولكن مع اختلاف فى ترتيب بعض الكلمات ، حيث

قال تعالى:

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ (٢)

فما هو السر فى هذا الاختلاف؟

(١) مختصر تفسير المنار: ٣٦١/١

(٢) سورة البقرة: ٦١

والجواب عنه يكمن في استحضار جو الآية وأهدافها في الموضوعين.

ان هذه الآية وردت في سورة البقرة في سياق حكاية اعتداءات اليهود، وحكاية مواقفهم المخجلة المستمرة من كتب الله وأنبيائه عبر تاريخهم الطويل المديد.

إذا فهذه الآية في أصلها تتصل باليهود القدامى ولا تعنى الا أن تذكر العقوبة التي لاقوها لقاء عصيانهم واعتدائهم.

وأما آية آل عمران فهي تتصل بالمعاصرين لعهد النبوة كما يظهر من سياقها، حيث جاء قبلها قوله تعالى:

﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم الا اذى. وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينتصرون﴾
وهي جاءت هنا لتحقيق غرضين اثنين:

الأول: أن تربط على قلوب المؤمنين وتدخل في نفوسهم برد الاطمئنان: أن هؤلاء اليهود، الذين يحملون الحقد عليهم لا يستطيعون أن يلحقوا بهم ضررا، أو يحركوا لهم ساكنا، وماذا يفعل هؤلاء. وقد كانت الذلة والمسكنة حليفهم، وكان غضب الله جل ما يملكونه في أيديهم.

والثاني: أن تدخل اليأس في قلوب أهل الكتاب أنهم لا يملكون أن يمنعوا عن المؤمنين ما كتب لهم ربهم من العز والنصر والسعادة. فان كانوا يريدون لأنفسهم الخير، فلا سبيل اليه الا أن يعتصموا بحبل من الله وحبل من الناس وذلك بانضمامهم الى ركب الاسلام ولجؤهم الى الدين الذي طالما أبغضوه وحاربوه. فالاسلام هو الذي يضمن لهم خير الدنيا والآخرة. والا فليس لهم الا الذلة والمسكنة وغضب الله أينما ساروا وأينما ثقفوا.

هذا هو جو الآية في السورتين، وتلك هي الأغراض التي جاءت الآية لتحقيقها في الموضوعين.

والآن، وقد علمنا هذه الأمور، لايعز علينا أن ندرك السر في الاختلاف الذي نلاحظه في الموضوعين.

فآية البقرة ليس من أهدافها الا أن تحكى لليهود تلك النهاية السيئة التي لاقاها أسلافهم نتيجة عصيانهم واعتدائهم، حتى يعتبروا بها ولا يعرضوا أنفسهم لما تعرضوا له. فاقترضى الموقف أن تذكر لهم تلك النهاية بكلمات وجيزة سريعة:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾

وأما آية آل عمران، فهي تتناول موضوع الساعة، وتحمل في طيها التحريض والتطمين للمؤمنين، والانذار والتوبيخ لأهل الكتاب المعاصرين كما بيناه آنفا.

ففرى السياق هنا قد تنفس في العبارة مراعاة لطبيعة الموقف. فان التحريض والتطمين والانذار

التوبيخ، كل ذلك من طبيعته الاسهاب والتفصيل، فذلك قوله تعالى:

﴿ضربت عليهم الذلة - أينما ثقفوا - الا يحبل من الله وحبل من الناس - وباء وا بغضب من الله - وضربت عليهم المسكنة﴾
فنظرا الى طبيعة الموقف، التي أشرنا اليها، زيد هنا فى العبارة: ﴿اينما ثقفوا - الا يحبل من الله وحبل من الناس﴾
وذكرت (المسكنة) فى جملة مستقلة خلافا لما رأيناه فى آية البقرة، فقبل: ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾

فلما ذكرت (المسكنة) مفصلة عن (الذلة) وذكرت فى جملة مستقلة، وضعت تلك الجملة بعد قوله تعالى: ﴿وباء وا بغضب من الله﴾
فجاء قوله تعالى: ﴿وباء وا بغضب من الله﴾ فى مكانه السابق وعلى ترتيبه فى الآية الأولى أى بعد قوله تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾

و ﴿المسكنة﴾ ذكرت فى الآية الأولى مع ﴿الذلة﴾ بالتبع فجاءت مقدّمة على قوله تعالى :
﴿وباء وا بغضب من الله﴾ بالتبع ولما ذكرت فى الآية الثانية مفصلة عن ﴿الذلة﴾ وذكرت فى جملة مستقلة ، جاءت متأخرة عنه . فبقى قوله تعالى: ﴿وباء وا بغضب من الله﴾ فى مكانه هو،
ولما تغيرت ﴿المسكنة﴾ عن مكانها ، للحكمة التي أشرنا اليها .



هذا ما تيسر لنا فى مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها وهذا ما ظهر لنا مما يتضمنه نظمها
فنحمده تعالى بما هو أهله ، ثم نتوجه الى ما بعدها .



نظم الآيات (١١٨-١٢٩)

قال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم، ان الله عليم بذات الصدور. ان تمسسكم حسنة تسوهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا، ان الله بما يعملون محيط . واذغدوت من أمهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم. اذهمت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة، فانتقوا الله لعلكم تشكرون. افنتقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله الا بشئى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شئى أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون. والله مافى السموات وما فى الأرض، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله غفور رحيم»

قبل أن نأخذ فى بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها، نود أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي تحير الناس فى تأويلها ، فانه لا بد لنا منها للتوصل الى روعة نظمها وحسن مناسبتها.

تأويل الآية (١١٩):

يقول الامام أبو حيان - رحمه الله - فى تأويل قوله تعالى:

«ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله»

«وتؤمنون بالكتاب كله: الكتاب اسم جنس أى بالكتب المنزلة قاله ابن عباس والتوراة والانجيل

أوالتوراة أقوال ثلاثة.» (١)

هذا ما قاله ابو حيان فى تأويل هذه الآية.

وهذا هو رأى المفضل عند كثير من الناس. الا أن هناك اشكالات تجعلنا نتردد فى صحته

ونتأخر عن قبوله.

منها: أنهم يجعلون (الكتاب) فى هذه الآية اسم جنس، ويؤولونه الى الكتب المنزلة كلها.

(١) تفسير البحر المحيط: ٤٠/٣

وهنا يثور سؤال : ان القرآن قد استعمل لفظ (الكتاب) أكثر من (٢٥٠) مرة ، فهل هناك شاهد واحد لاستعماله هذا اللفظ بمعنى الجمع ؟
واذا لم يكن هناك شاهد واحد لهذا الاستعمال ، أليس من الأفضل أن نترك اللفظ على معناه ثم نبحث عن تأويل يناسبه ؟

ومنها : أن قوله تعالى : «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» جاء فى سياق العتاب والانكار فكيف يجوز أن يعطف عليه ما هو محض الحق وعين الصواب ، بل هو من الواجبات فان الايمان بالكتب الالهية السابقة مما يوجبه علينا ديننا ؟

ولعل هذا الاشكال هو الذي جعل الزمخشري - رحمه الله - يعدل عن هذا التأويل حيث قال :
«والواو فى «وتؤمنون» للحال وانتصابها من لا يحبونكم : أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابتهم كله وهم مع ذلك يرفضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم ؟» (١)

ولكن هذا التأويل أيضا لا يخلو من اشكال ، فقد نقله أبوحيان فى كتابه ثم علق عليه فقال :
« وهو حسن الا أنه فيه من الصناعة النحوية ما يخدشه وهو أنه جعل الواو فى «وتؤمنون» للحال وأنها منتصبة من «لا يحبونكم» والمضارع المثبت اذا وقع حالا لا تدخل عليه واوالحال تقول : جاء زيد يضحك ، ولا يجوز يضحك . » (٢)

ثم لا ينحصر الاشكال فى هذه النقطة فقط . وإلا لكان الأمر هينا . وكان بإمكاننا أن نلتمس له مبررا .

وإنما رأس الاشكال عندنا أن الموقف لا يقبل هذا المعنى ، وكم من آية جاءت فى القرآن لتحذير المؤمنين من حب الكافرين ولولائهم ولكنها لم تلجأ أبدا الى هذا النوع من الاستدلال .
بالاضافة الى أن لفظ الكتاب لا يطلقه القرآن على جنس الكتاب ، فتأويله الى الكتب السابقة المنزلة تأويل بعيد ومخالف لعادة القرآن .

اضافة الى ذلك أن هذا التأويل لا يمت بصلة قريبة ولا بعيدة إلى نظم الآيات وسياقها . اذا فليس امامنا الا ان نبحث عن تأويل آخر يكون سليما من هذه الاشكالات ويكون منسجما مع جو الآيات .

فما هو ذلك التأويل ؟

ان التأمل فى نظم الآيات وسياقها بل فى نظم السورة كلها يرشدنا الى أن المراد بالكتاب هنا هو الكتاب الذى مضى معنا ذكره فى نفس السورة حيث قال تعالى :

(١) الكشف : ٤٥٩/١

(٢) تفسير البحر المحيط : ٤٠/٣ - ٤١

فوان منهم لفرقا يلوون ألفتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون
هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» (١)
ولقد مضى معنا نظير هذا المضمون في سورة البقرة أيضا حيث قال تعالى:
«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل
لهم مما كتبتم بأيديهم ويويل لهم مما يكسبون.» (٢)
إذا فيكون معنى الآية هكذا:

«ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وقد بلغ بكم هذا الحب الى أنكم تؤمنون بكل ما يأتون
به اليكم، ولو كان مما كتبته أيديهم.»

فالعتاب واللام هنا ليس على الحب فقط، بل على الحب والايان معا. وليس المراد بالايان هنا
الايان بالوحي والتنزيل، وإنما هو تصديق ما يكتبه أهل الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله،
وكان ذلك - كما علمناه - أسلوا من الأساليب التي اتخذها أهل الكتاب لاضلال المسلمين وتشكيكهم
في دينهم.

ولا يخفى أن هذا التأويل يريحنا من الاشكالات التي سلف ذكرها، بالاضافة الى أنه متلائم مع
جوا الآية وسياقها.

فله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اليه.

تأويل الآيتين: (١٢٧-١٢٨)

اذ انظرنا فيما قاله أعلام المفسرين - رحمهم الله - في تأويل هاتين الآيتين، فإننا نستخلص
منه ما يلي.

١- قطع طرف من الذين كفروا أو كبتهما انما حصل في غزوة بدر ولم يحصل في غزوة أحد،
على الرأي المختار عند الأكثرين. (٣)

٢- الوعد بانزال الملائكة لم يحصل في غزوة أحد وان حصل فلم ينجز، لأن المسلمين لم يفوا
بالشرطين اللذين بني عليهما ذلك الوعد، وهما الصبر والتقوى. (٤)

(١) سورة آل عمران: ٧٨

« (٢) سورة البقرة: ٧٩

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٦/٤، الكشاف: ٤٦٢/١، زاد المسير: ٤٥٤/١ تفسير أبي السعود:

٤٨/١، روح المعاني: ٤٨/٤

(٤) انظر تفسير أبي السعود: ٤١٣/١، روح المعاني: ٤٨/٤

٣- هذا الوعد الذي تذكره تلك الآيات بخصوص انزال الملائكة، يتعلق بغزوة بدر، وليس بغزوة أحد. وكان هذا الوعد أولاً بألف، ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف. (١)

٤- الشطر الثاني من الآية (١٢٨) يتصل بغزوة بدر حيث إنه معطوف على قوله تعالى: (ليقطع) أو (يكتبهم)، بينما الشطر الأول منها يتصل بغزوة أحد- على الأرجح عند الأكثرين- أو غزوة أخرى غيرها. وبالتالي فهناك فاصل زمني لا يقل عن عام كامل بين نزول شطري آية واحدة. (٢)
٥- قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء» إنما جاء عتاباً للنبي ﷺ حين دعا على قوم أوهم بالدعاء عليهم. (٣)

تلك النقاط الرئيسية التي تتمخض لنا من مجموع ما قيل في تأويل هاتين الآيتين .
والعجيب في الأمر أن آية نقطة منها لا تتسم بالواقعية ولا تنسجم مع نظم الآيات ، بل هي تتركنا في واد وتترك الآيات في واد . كما سنبينه فيما يلي.
أما القول بأن قطع طرف من الكفار أوكبتهم إنما حصل في غزوة بدر ولم يحصل في غزوة أحد، فهو مبني على القول بأنه لم ينزل مدد من الملائكة في غزوة أحد وأنها انتهت بهزيمة المسلمين.
وهذا القول على الرغم من رواجه وانتشاره خطأ في خطأ. وذلك من عدة وجوه:
١- ان هذه الآيات لا تقبل هذا القول كما سيتضح حين نتحدث عن نظمها.

٢- قال تعالى في نفس السورة في سياق الحديث عن غزوة أحد: «ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه» الآية، فأى وعد صدقه الله المسلمين في غزوة أحد اذا لم يكن وعد الامداد بالملائكة؟ فانا لا نجد في سياق هذه الغزوة الا هذا الوعد حيث قال تعالى:
«بلى ان تصبروا وتتقوا. ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.»

ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال قال النبي ﷺ
يوم أحد:

(هذا جبريل أخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب). (٤)

٣- تناولت سورة الأنفال حديث غزوة بدر با لتفصيل، ولم يذكر هناك الا وعد الامداد بألف من الملائكة حيث قال تعالى:

(١) انظر تفسير ابي السعود: ٤١٤/١، روح المعاني: ٤٨/٤

(٢) انظر تفسير الطبري : ٥٦/٤، تفسير البحر المحيط: ٥٣/٣

(٣) انظر تفسير الطبري : ٥٦/٤، تفسير البحر المحيط: ٥٣/٣

(٤) صحيح البخاري : باب غزوة أحد.

﴿اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (١)

فالقول بأن هذا الوعد تطور من ألف الى ثلاثة آلاف ثم الى خمسة آلاف يحتاج الى دليل يكون أظهر من الشمس. والواقع أنه ليس هناك شئ يستحق أن يسمى دليلا فكيف بدليل يكون أظهر من الشمس!

٤- ولو سلمنا هذا القول- بصرف النظر عما فيه من ضعف - وسلمنا أن هذه الآيات تتصل بوقعة بدر، وتذكر ذلك الوعد الذي حصل ببدر، فإن هذا لا يقدم شيئا ولا يؤخر، بل يكون ذلك تأكيدا مؤكدا لما أراد أن ينفيه هؤلاء فإن تذكير ما حصل ببدر بهذه المناسبة لا يعنى الا الوعد بحصول مثل ذلك مرة أخرى.

فإن جاء المدد فى وقعة بدر بخمسة آلاف من الملائكة مع أن عدد الكفار ما كان يتجاوز ألفا، فسيكون المدد هذه المرة بخمسة عشر ألفا، فإن عدد الكفار يزيد الآن على ما كانوا عليه فى بدر ثلاث مرات.

٥- وأما القول بأن المشركين لم يقتل منهم فى هذه الغزوة الا ثمانية عشر رجلا أو اثنان وعشرون رجلا - على اختلاف فى الروايات - وأن هذه المعركة انتهت بهزيمة المسلمين فهو بحاجة الى أن يعاد فيه النظر.

فأما عدد قتلى المشركين فأقوى شئ يعتمد عليه فى هذا الموضوع قوله تعالى، وقد مر بنا آنفا:
﴿ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه﴾

قال ابن قتيبة : (اذ تحسونهم باذنه) أى تستأصلونهم بالقتل . يقال: سنة حسوس: اذا أتت على كل شئ. وجراد محسوس: اذا قتله البرد. (٢)

وقال الجوهري: حسناهم: أى استأصلناهم قتلا. ويقال: البرد محسة للكلأ: أى أنه يحرقه. والحس: برد يحرق الكلأ. (٣)

فلما استعمل القرآن هنا كلمة الحس لتصوير ذلك الموقف، والقرآن دائما يكون دقيقا غاية الدقة فى استعمالاته واختيار كلماته، علمنا بذلك أن المسلمين قتلوا المشركين قتلا ذريعا حتى كادوا يستأصلونهم. واذا أردنا أن نقدر هول الموقف ونقدر ما أنزل الله من النصر يوم أحد فلننظر الى ما روى عن ابن عباس-رضى الله عنه-حيث قال:

(مانصر رسول الله ﷺ فى موطن ما نصر فى أحد، فأنكر ذلك عليه ، فقال: بينى وبينكم

(١) سورة الأنفال : ٩

(٢) تفسير غريب القرآن: ص/١١٣-١١٤

(٣) الصحاح: ح.س.س

كتاب الله ، ان الله يقول: ﴿ولقد صدقكم الله وعده اذا تحسونهم باذنه﴾ (١)
فأين نكون من تلك الآية حين نقول: ان المسلمين ما استطاعوا أن يقتلوا طوال هذه المعركة أكثر
من ثمانية عشر رجلا أو اثنين وعشرين رجلا؟
وأما القول بأن هذه المعركة انتهت بهزيمة المسلمين فهو أيضا مخالف للواقع، والا فالواقع أنهم هم
الذين كسبوا هذه المعركة.

نعم ، انهم مسهم قرح، ولحقهم بلاء وأصابهم غم، ولكن ليس معنى ذلك أنهم خسروا الموقف
وباعوا بالهزيمة.
جل ما فى الأمر أنهم فوجئوا بفترة عصبية فى أثناء القتال لأسباب فصلها القرآن، فتعكر
عليهم صفو ذلك الانتصار الساحق الرائع الذي حققوه فى أول الأمر، ولم يستطيعوا أن يخرجوا من
المعركة على الرغم من انتصارهم فيها إلا وهم محزونون لما مسهم فيها من قرح وجرح.
ولذلك نرى القرآن لا يسمي هذه النكسة الطارئة أو هذه الفترة العصبية العابرة هزيمة، بل يختار له
تعبيرا آخر دقيقا غاية الدقة حيث يقول:

﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾

إذا فما الذي يمنعنا من أن نقف عند هذا الحد؟ وما الذي يحملنا على أن نعدل فى وصف هذه
المعركة عن التعبير القرآنى الدقيق الى تعبير آخر، لا يعطينا صورة صادقة عن طبيعتها ونتائجها؟
بل ويلجئنا الى حمل تلك الآيات على معاني لا تحملها!
فالحق الذي لا مرية فيه أن هذه الآيات كلها تتصل بوقعة أحد، وذكر النصر فى وقعة بدر انما جاء
هنا استطرادا.

والوعد الذي تذكره هذه الآيات قد أنجز فى وقعة أحد بشهادة القرآن نفسه فان الشروط كلها
كانت متوفرة، والمسلمون لم يقتحموا هذه المعركة الا بدافع من التقوى، ثم واجهوا الموقف بكل صبر وصمود.
نعم ، قد مس طائفة منهم طائف من الشيطان فى أثناء المعركة وطراً عليهم طارئ من الفشل
والعصيان ولكن سرعان ما تذكروا وانتبهوا وعادوا الى صوابهم فعاد اليهم النصر من جديد وعادت
اليهم الملائكة يشبثون أقدامهم.



وأما ما قيل فى تأويل قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شئ﴾ أنه نزل ردعا للنبي ﷺ حين دعا
على قوم أو هم بالدعاء عليهم، فهو أيضا باطل من عدة وجوه:

١- فأما كون هذه الآية نزلت بمناسبة أخرى غير وقعة أحد فهو قول لا ينسجم مع جو الآية
وسياقها، ولا شأن لنا بقول لا ينسجم مع جو الآية وسياقها.

٢- وأما القول بأنه - عليه السلام - هم بسبب الذين انهزموا يوم أحد فهو باطل بنص القرآن، فإنه يصرح بأن الله عفا عنهم حيث قال تعالى : ﴿هَمَّ صَرْفُكُمْ عَنْهُمْ لِيُتْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) وما كان للنبي أن يدعو على قوم قد عفا الله عنهم.

٣- وأما القول بأنه - عليه السلام - دعا على قريش يوم أحد فهو محجوج بما ورد في الروايات من أنه - عليه السلام - لما كسرت ربايته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً وقالوا: لو دعوت عليهم ! فقال : «انى لم أبعث لعناً ولكنى بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون.» (٢)

وايضاً روى عن سيدنا عمر (رضي الله عنه) أنه قال للنبي (ﷺ) فى بعض كلامه : يا بني انت وأمى يارسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» الآية ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت ربا عيتك فابيت ان تقول الا خيراً فقلت : رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون.

وأما الروايات التى اعتمد عليها الناس فى تأويل هذه الآية فهى ليست صريحة فى الدعاء على الأعداء فكان أولى بهم أن يؤولوها الى تلك التى كانت أصرح منها وأقرب الى ما عهدناه فى سيرته المباركة من الرأفة والشفقة والحلم والعفو عن الناس (سلام الله وصلواته عليه).

٤- لو افترضنا أن النبي (ﷺ) دعا على قومه ، فكأين من نبى دعا على قومه ، ولكن هل ردّ عليه بمثل هذا الردّ؟

فسيدنا موسى - عليه السلام - قد دعا على فرعون وملأه بهذه الكلمات القاسية: «ربنا انك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» (٣) فلم يقل له ربه «ليس لك من الأمر شئ» وإنما قال:

«قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون» (٤) وكذلك تقدم سيدنا نوح - عليه السلام - الى ربه بتلك الدعوات الحارة القاسية فى شأن قومه، ولكن هل قال له ربه : «ليس لك من الأمر شئ»؟

وأما الذي نراه أنه أسرع الى الاستجابة قبل أن يتم دعوته كما يظهر لنا بالتأمل فى نظم قوله تعالى:

(١) سورة آل عمران: ١٥٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٠٠/٤

(٣) سورة يونس : ٨٨

(٤) سورة يونس: ٨٩

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ (١)

وهكذا سنة الله في أنبيائه، فانه يكرمهم باستجابة دعوتهم اذا دعوه. ولا يهمل قوما اذا دعا عليهم نبيهم. اذا فكيف يقال: ان نبينا - عليه الصلاة والسلام - دعا على قوم فجاءت هذه الآية ردعاه!

هـ - ان دعا النبي ﷺ على قوم فلا يعنى ذلك أنه زعم أنه له من الأمر شئ، حتى يقال له: ﴿ليس لك من الأمر شئ﴾ فان الدعاء من طبيعته ومن أول دلالته التضرع والانكسار والافتقار والتفويض الى الله.

فهذا القول بالمعنى الذي فسر به لا يمكن أن يوجّه الى نبي قد تحرّر من نفسه وتجرّد عن هواه وكان صورة حية صادقة للاخبات والاتباء الى الله. وانما يوجّه مثل هذا القول - بذلك المعنى - الى رجل كانت تحدّثه نفسه - كذبا - أنه هو صاحب الأمر. أو أن له شركا في الأمر. وبالجملة فقد وهم الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شئ﴾ فانه ليس ردعا ولا عتابا للنبي ﷺ كما زعموه، وانما هو شئ آخر كما سنبيّنه.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

وبعد هذه المقدمات نتوجه الى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنقول:

لقد مضى معنا في الفقرة السابقة التحذير من الأعداء الصرخاء من أهل الكتاب، الذين كانوا يجاهرون بعدا وتهم للاسلام وكانوا يهاجمونه علنا في ضوء النهار، وكانوا ينثرون حوله الشبهات حتى يثيروا بلبلة في صفوف المسلمين.

والآن نرى السياق انصرف عنهم الى اخوانهم الذين كانوا يحاربون الاسلام بسلاح النفاق وكانوا يحاربونه في جنح الظلام.

كان هؤلاء يخرجون الى المسلمين في ثوب النصح والمودة وكانوا يبشّون في وجوههم وينسبون اليهم وكأنهم منهم.

وبعد أن يكسبوا ثقتهم كانوا يفضون اليهم بأشياء من شأنها أن ترتق صفو عقيدتهم وتوهن صلّتهم بكتابتهم وتزعزع ثقتهم بنبيهم.

وكانوا يفعلون ذلك كله بلباقة لا ينتبه لها ضعفاء المسلمين حيث انهم كانوا يأتون بما يأتون به اليهم بعد ما يكتبونه بأيديهم، ثم كانوا يلون به ألستهم ليحسبه المسلمون بما أنزله الله، فيأخذوه مأخذ الجبد، ويودعوه قرارة نفوسهم.

وهكذا كانوا يخادعون المسلمين وكانوا لا يألونهم خيالا.

فجاءت هذه الآيات تحذر المسلمين من أن يتخذوا بطانة من دونهم، وجاءت تحذّرهم من كيدهم وخداعهم وتبين لهم ما يكتنون لهم في صدورهم.

وبعد هذا التحذير وهذا التنوير وهذا التبصير يذكر لهم السياق من واقعهم ما يشخص لهم أن الذين اتخذهم المسلمون وليجة وبطانة كيف يتحينون لهم الفرص حتى لا يألوهم خبالا، وإذا سنحت لهم فرصة فكيف يستغلونها أسوأ استغلال وكيف يوضعون خلالهم ييغونهم الفتنة:

﴿وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

ان هذه الآيات - كما لا يخفى - تتناول ما حصل بين صفوف المؤمنين بأحد قبل أن تستمر الحرب، فقد كان النبي ﷺ يبوئنهم مقاعد للقتال، وهؤلاء اليهود، الذين كانوا من بطانة المؤمنين ووليجتهم وخرجوا فيهم ليقوموا بدورهم في افساد أمرهم، كانوا يوضعون خلالهم يخوفون عدوهم ويثبطون همهم.

وما زالوا يسعون فيهم ويسعون ويدسّون سمومهم ويدسّون حتى كادوا ينجحون في تثبيط طائفتين من المؤمنين، لولا أن تداركهما ولاية الله!

وإذا أردنا أن نقدّر ضخامة الجهد الذي بذله هؤلاء في افساد أمر المؤمنين ثم نقدّر حجم تأثيرهم فيهم فلنضع في حسابنا أن هاتين الطائفتين اللتين همتا أن تفشلا لم تكونا من عامة المؤمنين أو من ضعافهم، بل كانتا من رسوخ الايمان وحسن الصلة بالله بحيث قال الله فيهما: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

ومع ذلك فقد قذف فيهم هؤلاء من الرعب بحيث استعصى على النبي ﷺ أن ينزعه من قلوبهم ويعيدهم الى صوابهم، كما يظهر من قوله تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾

فهذا الأسلوب الذي خاطب به النبي ﷺ هؤلاء المؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ كما يشي بذلك الجهد والتعب الذي قاساه في المحاولة معهم، فكذلك يشي بأنه - عليه الصلاة والسلام - على الرغم من هذا الجهد والتعب لم يستطع اقناعهم ولم يستطع أن يعيدهم الى صوابهم.

ولعلنا لانبعد اذا استنبطنا من هذا الوضع أن الرعب الذي ملأ هؤلاء المؤمنين لم يكن ناتجا من ذلك الفرق الكبير الذي كان يوجد بين عددهم وعدد عدوهم بقدر ما كان ناتجا من تلك الأكاذيب التي كتبها اليهود بأيديهم عن نهاية المعركة وتنازحها ثم قالوا هذا من عند الله!!

فانه لو كان الأمر أمر العدد فقط لكان يكفي لاطمئنانهم أن يسمعو من نبيهم أن الله سيمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

ولكنهم لم يقتنعوا بما قال لهم نبيهم ولم يطمئنتوا حتى ناداهم ربهم من فوق سبع سموات، يذكرهم

النصر الذي أنزله عليهم يوم بدر:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾

وبشرهم بتلك الكلمات الحانية، حتى يزيل الرعب من قلوبهم ويسكب برد الاطمئنان في نفوسهم:
﴿بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.﴾

ويذكر لهم واجبه الذي يليه عليهم ذلك الوعد:

﴿وما جعله الله إلا بشراً لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾

أى فاستبشروا بهذا الوعد واطمئنوا بهذا النصر. واعلموا أن النصر لا يأتي إلا من عند الله فانه هو العزيز وهو الحكيم، ولا عزيز غيره ولا حكيم غيره فكرونا مع ربكم يكن النصر حليفكم.
وبعد تطمين المؤمنين وتبشيرهم بالنصر على المشركين يتناول السياق هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب، الذين لم يألوهم خبالاً ولم يدخروا وسعاً في افساد أمرهم.
يتناولهم السياق ليذكر مصيرهم وما سيثول اليه أمرهم:

﴿ليقطع طرقاً من الذين كفروا أويكبّتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾

وهنا يشور سؤال: اذا كانت هذه الآيات تتناول الذين كفروا من أهل الكتاب، فما معنى قطع طرف منهم، فانهم كانوا مرافقين لجيش الاسلام، ولم تكن هناك حرب فيما بينهم ولم يحدث أن قتل أحد منهم بتلك المناسبة فضلاً عن أن يقتل طرف منهم؟
ان هذا سؤال وجيه ولاشك، ويمكن أن يقال رداً عليه:

ان الذين فسروه بهذا المعنى لم يعتمدوا فيه على شئ ثابت، وانما ذهبوا اليه بما ظهر لهم بقرينة الحال. والا فنحن نقبنا فيما تحت أيدينا من كلام العرب، ولكن لم نعثر على شاهد لهذا المعنى. فليس من مدلول هذا اللفظ القتل والاهلاك كما ذهب اليه الناس، وانما مدلوله هو الذي نراه في جميع مشتقاته، وهو فصل قطعة من الشئ من مجموعه أو افراز البعض عن كله. ومنه يطلق القطيع على طائفة من البقر والغنم لأنها تفرز عن جماعتها. يقال: اقتطعت قطيعاً من غنم فلان.

فيكون معنى الآية: ليفرز من هؤلاء الكافرين طائفة منهم ممن فيهم خير وصلاح أو يذلهم فينقلبوا خائبين.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون﴾ تفسيراً وتأكيذاً لهذا المعنى. فقوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾ يؤكد قوله تعالى: ﴿ليقطع طرقاً من الذين كفروا﴾ وقوله تعالى: ﴿أو يعذبهم فانهم ظالمون﴾ يؤكد قوله تعالى: ﴿أو يكبّتهم فينقلبوا خائبين﴾.

«ليقطع طرفاً» أى لينتقص بأن يسلموا. (١)

واللام فى هذه الآية جاءت على حد قوله تعالى: «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عناً وحزناً» (٢)

أو قوله تعالى: «ربنا انك أتيت فرعون وعلاء زينة وأموا لا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك». (٣) وهى اللام التى تسميها النحاة: لام العاقبة أو لام المآل.
فيكون اذا تأويل الآية هكذا:

اصبروا أيها المؤمنون واتقوا واستبشروا بهذا الوعد واطمئنتوا فان هذا ليس فقط أنه يؤهلكم للنصر من الله ويكسبكم الانتصار على عدوكم المشركين، بل يكون من نتائجه كذلك أنكم ترتاحون من أعدائكم الذين تسربوا الى صفوفكم على غفلة منكم، فانهم بعد ذلك اما يعتبرون بما شاهدوا من نصر الله ينزل اليكم فينتهبون من غيهم ويفيقون ويتوبون الى الله فيتوب عليهم واما يذلمهم الله ويغزيهم فينقلبون بغيتهم حيث لم ينجح كيدهم ثم يعذبهم الله فى الدنيا والآخرة.

وجاء بين هاتين الآيتين قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شئ»

وهذا القول بجوه وسياقه كما يدل على شدة غضب الله عليهم حيث انه - تعالى - تولى أمرهم بنفسه فليس للنبي أن يتدخل فى شأنهم أو يحاول لأن يشفع لهم.

فكذلك يدل على شدة رافة النبي ﷺ بأعدائه حيث انه كان من المحتمل - لولا هذا النهى - أن يرق لهم ويشفع لهم اذا رأى غضب الله عليهم، كما فعل أبوه ابراهيم - عليه السلام - لما علم أن الملائكة جاءت بالعذاب على قوم لوط حيث جعل يجادل ربه فيهم:

«فلما ذهب عن ابراهيم الزوع وجاعته البشرى يجادلنا في قوم لوط. ان ابراهيم لحليم أواه منيب. يا ابراهيم أعرض عن هذا. انه قد جاء أمر ربك. وانهم آتيهم عذاب غير مردود» (٤)
اذا فقوله تعالى: «ليس لك من الأمر شئ» يشبه فى جوه وسياقه ودلالته وإيحائه قوله تعالى: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين» (٥) بعد قوله تعالى:

«الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم» (٦)

(١) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

(٢) سورة القصص: ٨

(٣) سورة يونس: ٨٨

(٤) سورة هود: ٧٤-٧٦

(٥) سورة التوبة: ٨٠

(٦) سورة التوبة: ٧٩

ولقد تكررت هذه الآية في مثل ذلك الجوِّ ومثل تلك الايحاءات حيث قال تعالى:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ (١)

ثم ختم هذا الحديث بقوله تعالى:
﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

اطمأنا لهم في رحمة الله ومغفرته، فباب التوبة أمامهم مفتوح على رغم ما ارتكبوه وما
اقترفوه! فإن الله غفور رحيم. ولا أحب إليه من أن يغفر لعباده إذا استغفروه ويشملهم برحمته، إذا
استرحموه. ولكن إذا أصر قوم على عصيانهم وطفيانهم فليس هناك من ينجيهم من عذابه.
هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده تعالى ونشكره بما هو
أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.



(١) سورة المنافقون: ٥-٦

نظم الآيات (١٣٠-١٣٦)

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ
الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ.
أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.



لقد علمنا فيما مضى أن السياق حذر المؤمنين أولا من أعدائهم الصرحاء المكشوفين من أهل
الكتاب، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ ﴾

ثم حذرهم من صنف منهم كانوا يتظاهرون لهم بالمودة والصداقة وكانوا يخدعونهم بمعسول من
القول بينما كانت صدورهم تغلي لهم بالعداوة وكانوا يعصون عليهم الأنامل من الغيظ، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا، وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وهنا نرى السياق يحذرهم من عدوهم الثالث وهو الربا فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هؤلاء الثلاثة هم أعداء المؤمنين !

أما العدو الأول فالمرمى ظاهر واضح، ولكن العدو الثالث قد يكون موضع غرابة عند كثير
من الناس.

ولكن الواقع أن هذا العدو الثالث أفتك من العدو الأولين كما أن العدو الثاني أفتك من
الأول. فكلما قرب العدو وخفى أمره كان ضرره أشد وكان خطره أكبر.

فلننظر إلى ما يخلقه الربا من آثار سيئة ونتائج سلبية في المجتمع.

أليس أنه يزرع الأحقاد في النفوس ويثير الضغائن في القلوب؟

وهل أضر للمجتمع وأنتك به من أن تنزع منه المودة والمرحمة ويسوده الحقد والضغينة؟ وهل يريد لنا الأعداء من وراء مؤامراتهم المتواصلة ومنظمتهم السرية أكثر من ذلك؟ ثم ليس هذا آخر ما فى الأمر، فهناك سلبيات أخرى متعددة، التي يخلفها الربا فى المجتمع وكل واحدة منهن أضر بالمؤمنين من جحافل الأعداء. وسيأتى ذكر طائفة منها فى موضعها.

وبالجملة فتلك أصناف ثلاثة من الأعداء. وكان من لطف الله بالمؤمنين أنه جمعها فى مكان واحد وحذرهم منها بأسلوب واحد فقال جل من قائل:

﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلؤنكم خبلا لا الخ﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة الخ﴾

وأما الآيات التسع التي تتناول ماحدث بأحد قبل نشوب الحرب وهى قوله تعالى: ﴿وإن غدت من أهلك.....﴾ الى قوله تعالى: ﴿والله غفور رحيم﴾ فهى جاءت اعتراضا للمناسبة التي أشرنا اليها فى أثناء حديثنا عن تلك الآيات.



هذا ما تيسر لنا فى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها، فله الحمد وله الشكر وله الشاء كما أثنى على نفسه.

هذا، وهناك وجه آخر لمناسبة تلك الآيات لما قبلها، وسنذكره فى أثناء حديثنا عن مناسبتها لما بعدها.

حقائق تستفاد من نظم الآيات:

وقبل أن نغادر تلك الآيات الى ما بعدها نود أن ننبه الى بعض الحقائق التي تستفاد من نظمها، وهى كما يلى: -

١- الربا والفلاح لا يجتمعان ولا يلتقيان، والمرابون أبعد ما يكونون من الفلاح.

٢- الربا، اذا استمر عليه المرء، يؤديه الى الكفر ثم يؤديه الى النار.

٣- الربا يورث فى الانسان البخل والشح ويمتنعه من الاتفاق، فهو لا ينفق فى السراء ولا ينفق فى الضراء.

٤- الربا يورث الغلظة والجفاء والأثرة وقسوة القلب. ولا يزال الانسان يأكل الربا حتى يكون قلبه كالحجارة أو أشد قسوة فهو لا يعرف كظم الغيظ ولا يعرف العفو عن الناس ولا يعامل الناس اذا عاملهم الا بالغلظة والجفاء.

بينما الاتفاق فى سبيل الله يرقق القلب وينبت فيه الحب والمودة والرأفة والإيثار، ويمكن المرء من كظم الغيظ والعفو عن الناس.

٥- الربا يطمس على القلب ويطفى نور العقل ويجعل صاحبه فاقد الشعور وفاقد الوعي . فهو يفعل الفواحش ويأتى الموبقات ويمسى ويصبح وكأنه لم يفعل شيئاً !! فلا يذكر الله ولا يستغفر للخطايا ويستمر على دأبه هذا طول الحياة!

وأما الذي ينفق فى سبيل الله فهو يتمتع - على العكس من ذلك - بسلامة القلب واستنارة العقل وشفافية الروح فلا تزل به قدمه ولا يقع فى الذنوب الا ويذكر ربه فى تلك اللحظة ويستغفره ويتوب اليه ويخرج من خطيئته تلك وما عليه منها شئ.

هذا بعض ما يستفاد من نظم تلك الآيات وسياقها. وناهيك به دلالة على خطورة أمر الربا وفداحة خطبه وكونه من أعدى أعدائنا. فلا كان الربا، ولا نامت أعين المرابين!

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بيتها نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (١٣٧-١٤٨)

قال تعالى:

«قد دخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين. ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنتظرون. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين. وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزي الشاكرين. وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين.»



قبل أن نأخذ في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» فقد تعثر الناس في تأويله. وهذه العثرة أفضت بهم الى عدة عثرات، كما شوشت عليهم نظم تلك الآيات، فنستعرض أولا ما قيل في تأويله، حتى نتبين ما فيه من ضعف ثم نبحث عن تأويل ينسجم مع نظمه وسياقه.

تأويل قوله تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية:

«يعنى تعالى ذكره وتلك الأيام نداولها بين الناس أيام بدر وأحد، ويعنى بقوله نداولها بين الناس نجعلها دولا بين الناس مصرفة ويعنى بالناس المسلمين والمشركين وذلك أن الله عزوجل أдал المسلمين من المشركين ببدر فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأдал المشركين من المسلمين بأحد فقتلوا منهم سبعين سوى من جرحوا منهم.» (١)

(١) تفسير الطبري: ٦٨/٤

ويقول الزمخشري - رحمه الله :-

« المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها: نصرفها بين الناس، ندبل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء.. » (١)

هذا ما ذهب إليه ابن جرير والزمخشري . وهذا الذي ذهب إليه المفسرون - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية. وملخصه أن المشركين هم الذين كسبوا المعركة والمسلمون باءوا فيها بالخيبة والهزيمة.

اشكالات تكتنف هذا التأويل:

وهذا التأويل لا يخلو من عدة اشكالات وهي كما يلي:

١- ان هذا التأويل يفسر (الأيام) بأوقات الظفر والغلبة، ولم يجر هناك ذكر لظفر المشركين وغلبتهم حتى نرجع (تلك) الى تلك الأوقات.

٢- ان هذا التأويل يجزئنا الى أن نصرف قوله تعالى: «أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله» عن ظاهره ونؤوله الى معنى لا يتبادر الى الذهن. فيقول - مثلاً - ابن عطية في تأويله: «والمعنى ان مسكم في أحد فقد مس كفار قريش بيدرب بأيديكم» (٢)

ويقول القرطبي - رحمه الله :-

«والمعنى: ان يمسسكم يوم أحد قرح فقد مس القوم يوم بدر قرح مثله.» (٣)

وهكذا نرى المفسرين- رحمهم الله - نحوه منحى واحداً في تأويل هذه الآية. (٤)

وهذا التأويل - كما لا يخفى - لا يخلو من ضعف وتكلف. وهو نتيجة طبيعية لذلك التأويل الذي مر معنا آنفاً لقوله تعالى: «فوتك الأيام نداولها بين الناس» والا فأسلوب الآية يأبى كل الإباء أن نصرف قوله تعالى: «فقد مس القوم قرح مثله» الى وقعة بدر ويوحى إلينا بكل اصرار أنما لحق المشركين في يوم أحد لم يكن أقل ولا أخف مما لحق المسلمين في ذلك اليوم، بل ربما كان أشد منه وأكثر.

والنظرة الفاحصة النافذة في الروايات التي وردت بهذا الخصوص تصدق ذلك. وما نحن نذكرهنا نبذة منها، فهي تساعدنا في ادراك طبيعة الموقف:

ذكر أصحاب المغازي أن أبادجانة - رضى الله عنه - لما أخذ السيف من رسول الله ﷺ قاتل به حتى أمعن في الناس. فكان لا يلتقى أحدا الا قتله. وكان اذا كل السيف يشحذه ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل.

(١) الكشف : ٤٦٦/١

(٢) المحرر الوجيز: ٢٤١/٣

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٧/٢

(٤) انظر - مثلاً - روح المعاني : ٦٧/٤، وتفسير أبي السعود : ٤٢٠/١، وفتح القدير : ٣٨٤/١.

وقاتل حمزة بن عبدالمطلب قتالا شديدا. وفي البخارى أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سباع بن عبدالعزيز فقال: هل من مبارز؟ فخرج اليه حمزة، فشد عليه، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله. وفي رواية فكان كأمس الذاهب. وكان تمام واحدا وثلاثين قتلهم حمزة.

وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ من أصحابه أبوطلحة فإنه استمر بين يدي النبي ﷺ يحوز عنه بحجفته وكان رجلا راميا شديدا الرمي، فنشركناته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، فلم يزل يرمى بها. وكان الرجل يمر بالجمعة من النبيل فيقول ﷺ انثرها لأبى طلحة. وكسر ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة.

وكان سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - من الرماة المذكورين. وفي رواية عن سعد أنه قال: «أجلسنى رسول الله ﷺ أمامه. فجعلت أرمى وأقول: اللهم سهمك فارم به عدوك، ورسول الله ﷺ يقول: اللهم استجب لسعد، اللهم سدّد رميته، وأجب دعوته، حتى اذا فرغت من كناتنى نشر رسول الله ﷺ ما فى كناتته.»

وفي الشرف «أن سعدا - رضى الله عنه - رمى يوم أحد ألف سهم مامنها سهم إلا ورسول الله ﷺ يقول له: ارم فذاك أبى وأمى. ففداه فى ذلك اليوم ألف مرة.» (١)
هذا غيض من فيض والا فالبطولات الرائعة التي سجلها أصحاب النبي ﷺ فى غزوة أحد بأيديهم تحتاج الى سفر كبير.

وهل يعقل بعد هذا أن يقال: ان المشركين لم يقتل منهم فى غزوة أحد الا نيف وعشرون؟! ولقد ذكر صاحب السيرة الحلبية هذه البطولات الرائعة التي ظهرت على أيدي صحابة رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة ثم قال:

«وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون، وقيل اثنان وعشرون».

ثم قال - رحمه الله - متعجبا من قلة هذا العدد الذي يذكر لقتلى المشركين:

«أقول: انظر هذا مع ما تقدم من أن حمزة وحده قتل واحدا وثلاثين!» (٢)

فالواقع أن هذا العدد الذي يذكر لنا عدد لا يقبله العقل ولا يقبله المنطق بل يرفضه رفضا على طول الخط.

اللهم الا أن يقال: ان هذا العدد لا يعبر عن مجموع قتلاهم وانما يعبر عن عدد قاداتهم وصناديدهم وأصحاب لوانهم، الذين قتلوا فى تلك المعركة، فقد ثبت أن أصحاب لوانهم قتلوا واحدا بعد واحد، ولم يزل لوانهم ملقى على الأرض حتى أخذته امرأة منهم تدعى عمرة بنت علقمة ورفعته لهم

(١) السيرة الحلبية: ٥٠١/٢ - ٥٠٧، باختصار.

(٢) السيرة الحلبية: ٥٤٧/٢

فاستداروا به واجتمعوا عنده. (١)

وأما عدد نعامتهم الذين أصيبوا في المعركة فلم تحفظه لنا الروايات، إلا أن القرائن متضافرة على أنه كان عددا هائلا، فقد هُدم المسلمون هُداً وقتلوهم قتلا ذريعا حتى كادوا يستأصلونهم، كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾

وبالجملّة فما مس المشركين من قرح وجرح في هذه الغزوة لم يكن أقل ولا أخف عما مس المسلمين، بل كان أكثر منه وأشد. والمثلية التي تذكرها الآية ليست في قدر القرح وحجمه وإنما هي في مطلق المسيس، علي حد قول القائل:

سقيناهم كأسا سقونا بمنثها ولكنهم كانوا على الموت أصبر (٢)

إذا فنحن نعود لما قلناه مسبقا فنقول:

إن ما قاله الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ لا يخلو من ضعف. وهذا الضعف نتيجة طبيعية لذلك الضعف الذي سبقه في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

٣- ومثلا حدث في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ حدث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الناس صرفوه عن ظاهره وأولوه - كسابقه - إلى مفهوم لا يتبادر إلى الذهن. وما اضطرهم إليه إلا ذلك التأويل الذي درجوا عليه لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فيقول - مثلا - أبوحيان - رحمه الله - في تأويله:

«لما انهزم من انهزم من المؤمنين أقبل خالد يريد أن يعلو الجبل فقال رسول الله ﷺ لا يعلن علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك، فنزلت قاله ابن عباس، وزاد الواقدي أن رماة المسلمين صعدوا الجبل ورموا بحبل المشركين حتى هزمهم فذلك قوله وأنتم الأعلى. وقال القرطبي وأنتم الغالبون بعد أحد فلم يخرجوا بعد ذلك إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهده عليه السلام وفي كل عسكر كان بعد ذلك ولولم يكن فيه إلا واحد من الصحابة. وقال الكلبي نزلت بعد أحد حين أمروا بطلب القوم مع ما أصابهم من الجراح وقال لا يخرج إلا من شهد معنا أمس فاشتد ذلك على المسلمين فنزلت نهاهم عن أن يضعفوا عن جهاد أعدائهم وعن الحزن على من استشهد من إخوانهم فانهم صاروا إلى كرامة الله قاله ابن عباس أو لأجل هزيمتهم وقتلهم يوم أحد قاله مقاتل أو لما أصاب النبي ﷺ من شجبه وكسر ربايعيته ذكره الماوردي أو لما فات من الغنيمة ذكره أحمد النيسابوري أو لمجموع ذلك.

(١). الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٥٤/٢

(٢). الحماسة: ٩٧/١، رقم القصيدة (٢٨).

وأنسهم بقوله وأنتم الأعلون أي الغالبون وأصحاب العاقبة وهو اخبار بعلو كلمة الاسلام قاله الجمهور وهو الظاهر وقيل أنتم الأعلون أي قد أصبتم بيدر ضعف ما أصابوا منكم بأحد أسرا وقتلا فيكون وأنتم الأعلون نصبا على الحال أي لا تحزنوا عالين أي منصورين على عدوكم. (١)

تلك الاتجاهات المعروفة في تأويل هذه الآية.

وهنا يثور سؤال: ما الذي يمنع الناس من أن يحملوا الآية على ظاهرها، ويقولوا: ان المسلمين هم الذين علوا وانتصروا في تلك الغزوة، حيث ان القرآن واضح في بيانه: «وأنتم الأعلون». وكانت تكفينا للقول بما قلناه هذه الآية وحدها. ولكن لا بأس بأن نشير الى قرائن أخرى تدعمه، وتثبت أن المسلمين كان حليفهم النصر، والمشركون هم الذين باؤوا بالخيبة والهزيمة، وهي كما يلي:

القرينة الأولى:

ان المنافقين الذين صحبوا المسلمين في تلك المعركة - وما صحبهم الا ليزيدوهم خبالا - كم حاولوا - في أثنائها وبعد رجوعهم منها - أن يشوهوا وجهها، ويعرضوها في صورة موحشة قائمة، حتي يخذلوا المسلمين وينفروهم عن دينهم ويزعز عوا ثقتهم بنبيهم، ولكنهم ما استطاعوا أن يجدوا شيئا يستعينون به في تسميم الجو وث القلق والفرع أكثر من أن يقولوا:

«لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» (٢)

«لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» (٣)

«لو أطاعونا ما قتلوا» (٤)

وهذا الوضع ان دل على شيء فأنما يدل على أن المسلمين كانوا هم المنتصرين وكانت الهزيمة في نصيب أعدائهم، والا لما سكنت عنها المنافقون وأبرزوها أي ابراز، وتردد ذكرها على كل لسان وفي كل مكان فأنها كانت تصلح لأن تكون أفضل وقود للفتنة التي أرادوا أن يؤججوا نيرانها بين المسلمين.

القرينة الثانية:

لما انقضت الحرب وعزم المشركون علي الرجوع الى مكة أشرف على المسلمين أبوسفيان، ثم ناداهم: «موعدكم الموسم بيدر»، فقال النبي ﷺ: «قولوا: نعم قد فعلنا» قال أبوسفيان:

(١) تفسير البحر المحيط: ٦٢-٦١/٣

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤

(٣) نفس السورة: ١٥٦

(٤) نفس السورة: ١٦٨

«فذلكم الموعد» ثم انصرف هو وأصحابه.. (١)

وهنا يبرز سؤال: إذا كان المشركون هم المسيطرين على الموقف، وقد أصابوا حد المسلمين وشوكتهم، فما الذي حملهم على أن يضربوا الموعد للعام المقبل؟ فإن المنتصر لا يؤجل الأمر إلى الغد ولا يمهل العدو حتى يستجمع قوته ويستجد نشاطه بل يقضى عليه في أقرب فرصة، وأما تأجيل الأمر وضرب الموعد فهو من دأب العاجزين المهزومين.

القرينة الثالثة:

ان المسلمين لم يبرحوا أرض المعركة حتى رحل أعداءهم عنها. ثم لما رحلوا عنها تبعوهم إلى مسافة بعيدة لا تقل عن ثمانية أميال من المدينة.

وهل يدل ذلك إلا على أن المسلمين كانوا هم المنتصرين في المعركة وأن هممهم كانت قوية عالية كما هو الشأن في الغالبين المنتصرين؟

وأما ما روى من أن أباسفيان وأصحابه هموا بالرجوع إلى المدينة ليستأصلوا شأفة المسلمين، فمن يدري! لعلها كانت مجرد حيلة سياسية حتى يشاع عنهم هذا القول، ويغطوا به على هزيمتهم المنكرة، ثم رجعوا على أعقابهم وكأنهم يغمغمون فيما بينهم وبين أنفسهم: (رضيت من الغنيمة بالاياب!). والقرائن كلها تعزز هذا الاحتمال، منها ما روى من أن أباسفيان لقي بعض المشركين يريد المدينة، فقال: هل لك أن تبلغ محمدا رسالة، وأقر لك راحلتك زبيبا إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم، قال: أبلغ محمدا أنا قد أجمعنا الكرة نستأصله ونستأصل أصحابه. (١)

فهل كان يريد أبوسفيان من هذه الرسالة إلا التخفيف من هوانه والتغطية على هزيمته؟

وعلى أية حال فالهمم والواقع واقع وشتان بينهما.

ان خروج المسلمين في طلب العدو واقع منظور مشهود وله دلالاته وإيحاءاته وأما هم المشركين بالرجوع إلى المدينة فهو شيء لم يشهده الناس ولا يمكن أن يعارض به هذا الواقع.

فالآية واضحة في مدلولها والقرائن متضافرة في تأييدها وليس هناك شيء يكذب انتصار المسلمين في أحد. ومع ذلك انصرف الناس إلى تلك التأويلات! ولعل السبب فيه هو التأويل الذي درجوا عليه لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

وهنا يبرز سؤال: فما هو التأويل الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾؟ وقبل الرد على هذا السؤال نود أن نتحقق معنى (الداولة) التي وردت في هذه الآية، فإن هذا سيساعدنا في التوصل إلى ما نريد والله ولي التوفيق.

(١) زاد المعاد: ٢٤١/٣

(٢) زاد المعاد: ٢٤٢/٣

تحقيق معنى المداولة:

يقال: دالت الأيام: أى دارت ومنه الدولة: أى انقلاب الزمان. والدول: انقلاب الدرهم من حال إلى حال^(١).
ويقال: صار الفبيء دولة بينهم يتداولونه، يكون مرة لهذا ومرة لهذا. وتداولته الأيدي، أى أخذته
هذه مرة وهذه مرة. واندال القوم: تحولوا من مكان إلى مكان^(٢).
وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكرة لهم عليه. والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة
عليهم^(٣).

هذه عدة استعمالات لهذه المادة.

ويتبين لنا بعد التأمل فيها أمران:

- ١- الأصل فى هذه المادة هو الانقلاب والانتقال والتحول، سواء كان من يد إلى يد أو من مكان إلى مكان أو من حال إلى حال.
- ٢- إذا كان معمول هذه المادة من ذوات العين كالدرهم والدينار - مثلاً - كان المراد هناك النقل أو الانتقال من يد إلى يد أو من مكان إلى مكان.
- وإذا كان غير ذلك كالأوقات والأيام أو الدهر والزمان - مثلاً - كان المراد هناك النقل أو الانتقال من وصف إلى وصف، ومن حال إلى حال.
- فاذا قيل: الدهر دول وعقب ونوب، كان معناه: أن الدهر يكون دائماً فى دوران ولا يستقر على حال. وتتعاقب فيه الشدة والرخاء وتتناوب فيه الأفراح والأحزان.
- وإذا قيل: الله يداول الأيام بين الناس، كان معناه أن الله يصرفها بين الناس ويقلبها من حلو إلى مرٍّ ومن مرٍّ إلى حلو ومن حسن إلى سيئ ومن سيئ إلى حسن ومن مفرح إلى محزن ومن محزن إلى مفرح. فتكون تارة لهم وتارة عليهم.
- وإذا جعل الله الأيام حلوا لأحد لم يستلزم ذلك أن يجعلها لآخر مرّاً، وإذا جعلها مرّاً لأحد لم يستلزم ذلك أن يجعلها لآخر حلواً.

تأويل الآية:

والآن ننتقل إلى تأويل الآية فنقول:

ان المسلمين - على الرغم من انتصارهم فى المعركة واثخانهم العدو - كانوا محزونين. وذلك لأن
نخبة طيبة من اخوانهم قتلوا فى المعركة وقد مثل بهم الأعداء بكل خبث وحقد وشراسة.

(١) القاموس المحيط: (د، دل)

(٢) الصحاح: (د، دل)

(٣) أساس البلاغة: (د، دل)

فكان منظرا رهيبا قاتلا. فقد ذكرت الروايات أن رسول الله ﷺ جاء نحو حمزة بعد انقضاء الحرب فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه ومثل به فجذع أنفه وأذناه وقطعت مذاكيره، فنظر ﷺ الى شئ لم ينظر الى شئ قط كان أوجع لقلبه منه وقال: (لن أصاب بمثلك أبدا! ما وقفت موقفا قط أغبط الى من هذا!) (١)

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: (ما رأينا رسول الله ﷺ باكيا أشد من بكائه على حمزة - رضى الله عنه - وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشق - أى شقق - حتى بلغ به الغشى). (٢)

فاذا كان هذا شأن رسول الله ﷺ فكيف بمن دونه!

اضافة الى ذلك أنهم ما كان يؤرقهم الحزن على من فجعوا بهم من اخوانهم فحسب، بل كانوا مرتجحين بسبب الجراحات التي قد أصابتهم أنفسهم وفوق ذلك كله بما أصاب رسولهم الذي كان أعز عليهم من أنفسهم ومن اخوانهم.

ومما زاد في هول الموقف أنها كانت مفاجأة محضة، حيث أنهم ما كانوا يتوقعون ما حدث! بل ما كانوا يتوقعون معشار ما حدث! فقد كان ما شاهده في معركة بدر - وهي لم يمض عليها أكثر من عام - حاضرا شاخصا في أذهانهم، ماثلا أمام أعينهم: حيث منحهم الله أكتاف المشركين، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ورجعوا الى المدينة سالمين غافين.

فاذا نال هؤلاء هذا النصر المؤزرا وقد أمدوا بألف من الملائكة، فماذا يكون من شأنهم اذا أمدوا بخمسة آلاف منهم هكذا كان ظنهم.

فلما صدموا تلك الصدمة العنيفة حيث كثر فيهم القرح وكثر فيهم القتل كان طبيعيا أن يحزنوا، على الرغم من ذلك الانتصار الساحق الذي سجلوه على عدوهم وعلى الرغم من ذلك الحس الرهيب الذي فعلوه فيهم.

وهنا أقبل اليهم ربهم يسكب برد العزاء في قلوبهم، فقال فيما قال: هؤلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. ﴿

أي: ما أصابكم من محنة وبلاء ليس بدعا في تاريخ الدعوات، بل هذه سنة من سنن الله في العبياد، انه يصرف هذه الأيام بينهم ويقلبها من حال الى حال ومن لون الى لون فتتعاقب فيها الشدة والرخاء وتتناوب فيها النعم والمحن، وقد تجتمع الشدة والرخاء وتجتمع النعم والمحن. وقد ينزل النصر و يملؤه الفرح كل الفرح، وقد يأتي النصر ويأتي معه القرح والمجرح.

(١) سيرة النبي لابن هشام: ٦١١/٣

(٢) السيرة الحلبية: ٥٣٤/٢

والسرّ في هذه السنة أنها تكشف الناس وتظهر كل واحد في لونه، اما مؤمنا واما كافرا. اذا فهذه المعنة التي حلت بكم ما حلت الا لتفرّق بين المؤمنين منكم والكافرين حتى يحقّ الله الكافرين، وأما المؤمنون فسيمدهم بعونه وتأييده ويؤهلهم لتلك المهمة الرفيعة التي اجتباها لها وهي مهمة الشهادة بالحق على الناس.



هذا ما يظهر لنا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ولقد ذكر الامام القرطبي في تأويله ما يقارب هذا التأويل حيث قال - رحمه الله -:

«وقيل: ﴿نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر.» (١)

ومما يرجّح هذا المفهوم أنه يجعل الآية تنسجم مع ما قبلها وما بعدها تمام الانسجام، بخلاف المفهوم الأول، فانه يفكّك النظام ولا تلتئم معه الآية بما حولها الا بتكلف شديد. وتعسف ظاهر. فان الناس لم يستطيعوا - بعد هذا التأويل الذي مالوا اليه - أن يوفّقوا بين هذا القول وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا - وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ - إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ إلا بعد أن صرفوها عن ظاهرهما وأكوهما إلى مفهوم لا يستقيم مع أسلوبهما، كما بيناه فيما مضى.

ثم ليس فقط أن هذا الكلام - بهذا التأويل - لا يتلاءم مع سياقه، بل لا يتلاءم مع سياقه كذلك حيث جاء بعده قوله تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ.﴾

وتفصيل هذا الاجمال أن تأويل ما تذكره الآية من ﴿مداولة الأيام بين الناس﴾ الى ادالة المشركين على المسلمين في الحرب لا يعنى الا أن هزيمة المسلمين أمام المشركين أيضا من صور ابتلائهم وتمحيصهم وأن هذه الظاهرة قد تكررت في التاريخ وتكررت باعتبارها سنة من السنن الالهية في هذا الكون. وهذا أمر لا نجد له تأييدا من القرآن ولا من التاريخ.

أما القرآن فقد تناول موضوع ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم في عدة مواضع وفصل صور الابتلاء وأسبابه، ولكن لم يذكر أبدا من ضمن تلك الصور أوتلك الأسباب اظهار المشركين على المؤمنين. نأخذ - مثلا - قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبِشْرِ الصَّابِرِينَ﴾ (٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢١٨/٤

(٢) سورة البقرة: ١٥٥

فقد جمع - تعالى- فى هذه الآية أسباب الابتلاء ولكن لم يذكر من ضمنها الهزيمة أمام الأعداء. وبالعكس من ذلك نجد القرآن ينقض ذلك، حيث ذكر من سنة الله التى لا تخلف فيها أنه كلما التقى الجمعان كانت الدولة للمرسلين وأصحابهم، وكانت الهزيمة حليف أعدائهم:

﴿ولقد سبقتم كلمتنا لعبادنا المرسلين. أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (١)

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى، أن الله قوى عزيز﴾ (٢)

والتاريخ أيضا لا يمدنا بمثال واحد يفيد أنه كان هناك لقاء بين جند نبى وأعدائهم ، ثم كانت الكرة لهم عليهم ولو لفترة قصيرة محدودة.

فاذا كان هذا شأن جنود الأنبياء بصفة عامة فكيف بجند خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - وقد ورد فى علاماتهم وصفاتهم ما يلى:

(ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه) (٣)

(تنبيهات الله فى أفواههم وسيف ذوخدين فى يدهم ليصنعوا نعمة فى الأمم وتأديبات فى الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود وشرقاتهم بكمول من حديد). (٤)

ان مثل هذه النبوءات التى وردت فى شأن هذا النبى وأصحابه كثيرة يطول ذكرها، وهى لا تقر أبدا فكرة هزيمة النبى وأصحابه فى غزوة أحد، ولا تقر ذلك التأويل الذى يبنى عليها.

هذا، وهناك أمر آخر نود أن ننبه اليه قبل أن ننتقل الى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، وهو أن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ليس موجها الى المؤمنين كما ذهب اليه من ذهب من المفسرين - رحمهم الله-: (٥)

ولابد لنا من الانتباه لضعف هذا رأى، فانه يكاد يفسد علينا قضية نظام تلك الآيات ويكاد يحجبنا عن الرؤية الصحيحة الواضحة الدقيقة لاتجاهها وأهدافها، بل لايبعد أن يكون هذا رأى هو الحجر الأول لذلك البنيان الشامخ الذى هدمناه قبل قليل، وهو فكرة هزيمة النبى ﷺ وأصحابه فى غزوة أحد.

(١) سورة الصافات: ١٧١-١٧٣

(٢) سورة المجادلة: ٢١

(٣) انجيل متى: ٢١/٤٤

(٤) المزمور: ٦/١٤٩

(٥) انظر تفسير الطبري ٦٥/٤

إذا فلا بد لنا من كشف عوار هذا الرأى فنقول وبالله التوفيق:

ان هذا الأسلوب الذي وردت عليه هذه الآية أسلوب شائع فى القرآن. الا أنه لا يستخدمه القرآن أبدا الا اذا كان الخطاب موجّها الى أعداء الله. وها هى تلك الآيات التي وردت على مثل هذا الأسلوب:

﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (١)

﴿فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (٢)

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (٣)

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل. كان أكثرهم مشركين﴾ (٤)

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأ الآخرة، ان الله على كل شئ قدير﴾ (٥)

هذه الآيات كلها - كما لا يخفى - جاءت فى سياق الخطاب الى المشركين والكفار.

فاذا كان القرآن لا يستخدم هذا الأسلوب أبدا الا للكفار والمشركين فكيف يصح أن يقال هنا: ان الخطاب موجّه فى الآية الى معشر أصحاب محمد وأهل الايمان به مع أنها جاءت على نفس الأسلوب؟ وهنا يثور سؤال: فالى من وجّه الخطاب فى هذه الآية:

والجواب أن الخطاب فى الآية موجّه الى أهل الكتاب الذين كانوا يعايشون المسلمين فى المدينة وكانوا لا يألوهم خبالا وكانوا يخدمون مصالح أعدائهم وهم فى داخل صفوفهم!

ولقد كان لتصرفاتهم العدائية المشؤمة دور كبير فيما أصاب المسلمين فى تلك الغزوة من جروح وقروح. ثم لم يشف صدورهم أنهم عكروا على المسلمين صفر انتصارهم بدسانسهم بل ظلوا يبيّثون سمومهم وينكثون قروحهم بعد قفولهم الى المدينة. فوجه الخطاب اليهم أن يفيقوا من سكرتهم ويعتبروا بمن مضى قبلهم ولا يعرضوا أنفسهم للعاقبة الوخيمة التى لاقاها أسلافهم من جراء تكذيبهم.

وسيزداد الأمرو ضوحا حين ندرس الآيات القادمة، ونتأمل فى إيعاءاتها ودلالاتها.

(١) سورة الأنعام: ١١

(٢) سورة النحل: ٣٦

(٣) سورة النمل: ٦٩

(٤) سورة الروم: ٤٢

(٥) سورة العنكبوت: ٢٠

مناسبة الآيات فيما بينها:

وبعد هذه المقدمات المهمة التي كان يقتضيها المقام نتوجه الى تلك المجموعة من الآيات لنبين مناسبتها فيما بينها فنقول:

بعد ذلك الوعيد والتنبيه الذي وجه الى أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قد دخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ والذي فصلناه آنفاً، جاء قوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾

وصارت هذه الآية معبرة لطيفة انتقل عليها الكلام من أهل الكتاب الى المؤمنين بلطافة عجيبة، حيث ان الشطر الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ ناظر الى أهل الكتاب والشطر الثاني منها وهو قوله تعالى: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ ناظر الى المؤمنين، فكانت هذه مناسبة طيبة لتقديم العزاء الى المؤمنين بعد توجيه الوعيد والتحذير الى أعدائهم الماكرين، فذلك قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين. ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾

وهذه الآيات تتضمن العزاء والسلى من عدة وجوه، وهي كما يلي:

١- لا سبب بين الوهن والحزن وبين الايمان، فالؤمن المتجرد لله لا يعرف الا البذل والتضحية ولا يجزع من الشدائد ولا لمحن فان كنتم مؤمنين حقاً فلا يتطرق الى قلوبكم الوهن والحزن.

٢- مادام أنكم أنتم الغالبون المنتصرون فأى معنى للوهن والحزن؟ فان القلب والانتصار يُعْلَى كل مرّة وينسى كل غم.

٣- ان ما أصاب عدوك من قرح وجرح ليس أقل ولا أخف مما أصابكم.

٤- ان الأيام لا تجرى على سنن واحد ولا تستقر على حال واحدة بل تظل في تقلب وتحول من حلوى مرّة ومن مرّة الى حلوى، فليس من شأن العاقل أن يجزع من تقلبات الأيام.

٥- ان كانت هذه المحنة قد ساءتكم فلها جانب آخر سيسركم ويسعدكم فانها كشفت الجماعة كشفاً، وأظهرت كل انسان بما فيه. فسيلقى كل انسان ما يستحقه فأما الذين آمنوا فسيأخذ الله بأيديهم الى الخير والسعادة وأما الكافرون الظالمون فليس لهم من الله الا السخط والمحق.

وهكذا نرى تلك الآيات قد جمعت في غضونها العزاء والسلى من جهات شتى.

ثم اقتضى الموقف أن يخلط هذا العزاء والسلى بشئ من العتاب والتنبيه على ما بدر منهم من الجزع وقصور في الصبر في أثناء المعركة، فذلك قوله تعالى:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم

تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقدّر أيتّموه وأنتم تنتظرون. وما محمد الا رسول قد دخلت من قبله
الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا،
وسيجزي الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت الا بإذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا
نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين.﴿

ان هذه الآيات - كما لا يخفى - تعاتب المؤمنين أولا على أنهم لم يكونوا من الصبر والجلد
ورباطة الجأش وشدة المراس حيث كان ينبغي لهم أن يكونوا، أو كان يلى عليهم الموقف أن يكونوا،
حيث انهم طلاب الجنة ، وما خاضوا هذه المعركة الا لينالوا به الجنة. فاذا كانت الجنة هى بغيتهم،
فالجنة لا يصلح لها الا الصابرون المجاهدون، الذين يصمدون لهول الموقف ولا تزعزعهم الأحداث مهما
كبرت وعظمت!

ويتناول السياق بهذه المناسبة ذلك الحادث الفاجع الذي كان مبعث الوهن والحزن فى قلوبهم، وكان
هو السبب الأول فى اضطراب أمرهم واختلاط حابلهم بنابلهم، ألا وهو خبر مقتل رسول الله ﷺ فما
كاد القوم يسمعون بهذا الخبر الكاذب المشؤم حتى خانتهم جوارحهم واستطيرت أفئدتهم ولم
يستطيعوا أن يجابهوا الموقف بصبر صمود. يقول الامام ابن القيم- رحمه الله :-

«ويصرخ الشيطان بأعلى صوته: ان محمدا قد قتل، ووقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين، وفرّ
أكثرهم، وكان أمر الله قدرا مقدورا.» (١)

فيتناول السياق هذا الحادث ليجعل منه مناسبة طبية لعلاج هذا الضعف الذي ظهر منهم، فيهيّب
بهم أن يتذكروا عظم ما أناء الله عليهم من نعمة الاسلام وكرامة الايمان، ويهيّب بهم أن يقدروها حق
قدرها ويكونوا من الشاكرين لها فيحيوا عليها ويموتوا عليها ولا يتوانوا فى المحافظة عليها والذود
عن حقيقتها مهما عظم الخطب وجلّ المصاب، حتى ولو كان ذلك موت النبی أو قتله- صلوات الله
وسلامه عليه-

ويعلمهم كذلك أن الله هو الذي قدّر الآجال ولن يموت انسان قبل أن يستوفى أجله، اذا فلاداعى
للجبن والفشل ولا داعى للوهن والحزن.

وبالعكس من ذلك ينبغي لهم أن يكونوا شاكرين لهذه النعمة عاضين عليها بالنواجذ ولو كلّفهم
ذلك ما كلّف، فان اجرهم لن يضيع، وثوابهم لن يفوت. والذين شكروا لهذه النعمة ولم يتزعزعوا لهذا
الحادث سينالون ثوابهم وسيحمدون عاقبة شكرهم.

ثم يذكر لهم السياق أن ما أصابهم فى سبيل الله ليس أول حادث فى تاريخ الدعوات والرسالات
حتى يهنوا ويحزنوا، أو ينقلبوا على أعقابهم:

(١) زاد المعاد: ١٩٨/٣

﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.﴾

فتاريخ الدعاء والدعوات وتاريخ الأنبياء والنبوات حافل بالشدائد والصعوبات إلا أن المؤمن حقيق ألا يعتريه الوهن والضعف إذا ابتلى بشئ منها، وحقيق ألا يساوره الشك في أمر الله ووعد، بل عليه أن يعتصم بالصبر ويحسن صلته بالرب، فيستغفره ويتوب إليه ثم يسأله الثبات ويسأله النصر. فإن الثبات والنصر لا يؤخرهما إلا الخطايا والذنوب، ولا يجلبهما إلا الدعاء والاستغفار والتوبة النصوح.

هكذا كان دأب الساترين على هذا الدرب قبلكم، وهكذا ينبغي أن يكون دأبكم. فكونوا شاكرين، وكونوا صابرين، وكونوا محسنين. والله يحب الصابرين. ويحب المحسنين وسيجزي الشاكرين.

وهكذا نرى تلك الآيات جاءت آخذاً بعضها بأعناق بعض، من غير أن تشعر فيها بشئ من الاضطراب أو الاقتضاب.

وبعد ما انتهينا من دراسة تلك الآيات وعلمنا مناسبتها فيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لنتنظر مناسبتها لما قبلها.

مناسبة الآيات لما قبلها:

إذا أردنا أن نعرف مناسبة تلك الآيات لما قبلها فهي واضحة ظاهرة. وهي كما يلي:

١- لقد مر معنا في الفقرة السابقة قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.﴾

ويطالعنا في هذه الفقرة قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾

فالآية الأولى ترغيب في مغفرة من الله وترغيب في جنته الواسعة.

والآية الثانية وعد وتبشيرها تين النعمتين لمن توفرت فيه الشروط المذكورة أو النعوت المذكورة.

والآية الثالثة إيذان للمؤمنين بأنهم لن يدخلوا الجنة إلا بعد اجتيازهم اختبار الصبر والجهد، حيث أن هذا الاختبار هو الذي سيكون ميزاناً أو مقياساً لتوفر تلك الشروط.

٢- لقد ختمت الفقرة السابقة بقوله تعالى في صفات المتقين:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

وهذه الفقرة أيضا ختمت بها هو شبيه بذلك الختام حيث قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصِرْنَا عَلَى قَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

ولا يخفى أن هذه الآية مثال عملي رائع لما ذكر في ختام الفقرة السابقة من فضيلة اللجوء الى الذكر والاستغفار.

٣- لقد تكرر قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في الفقرتين معا. وهذه دلالة واضحة على اتحاد الفقرتين أو تشابههما في اللون والاتجاه.

هذه ثلاث مناسبات ظاهرة بين هاتين الفقرتين:

الا أننا اذا تدبرنا تلك الآيات وأنعمنا فيها النظر ظهرت لنا وشائج أخر تربطها بما قبلها. وهي في غاية الروعة والجمال، وجديرة بأن نحرض عليها كل الحرص وهي كما يلي:

يكشف لنا التأمل في هذه الآيات أنها يسودها جو الصبر والشكر، حيث ذكر فيها الصبر مرتين، وكذلك الشكر مرتين.

ولقد ذكر هذان الأمران في هذه الآيات بأسلوب يجعلهما أبرز شيء فيها ويجعلها يشدان الانتباه اليهما، حيث قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

﴿وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابُ الدُّنْيَا نَوْتَهُ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابُ الْآخِرَةِ نَوْتَهُ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾

﴿فَمَا وَهَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

والشيء الذي نلاحظه هنا هو أن الشكر وإن كان قد ذكر مرتين، في آيتين مستقلتين مثل الصبر، إلا أن آيته وضعتا بين آيتي (الصبر) وهكذا تداخل بعضهما في بعض.

وهذا النظم يفيد أن هناك سببا ماسا وصلة قوية بين (الصبر) و (الشكر) وأن الصبر لا يتحقق

إلا بالشكر، كما أن الشكر لا يعتبر إلا بعد الصبر. فهما شيان متلازمان، وقرينان لا يفترقان. وكل

واحد منهما يخدم الآخر ويقويه ويغذيه وينميه ولا وجود لأحدهما بدون صاحبه. والصلة بينهما صلة

الروح والجسد، أو صلة الأصل والفرع، أو صلة الأساس والبناء.

فالشكر أساس للصبر والصبر نتيجة للشكر ودليل عليه. ولذلك نرى القرآن يجمع بينهما

فيقول:

﴿ان في ذلك لايات لكل صبار شكور﴾ (١)

إذا فلا بأس بأن نضم آيتي الشكر الى آيتي الصبر ونقول:

لقد تكرر ذكر الصبر في هذه الآيات أربع مرات، مرتين صراحة ومرتين كناية، أو مرتين بالعبارة ومرتين بالدلالة.

وبالتالي يسعنا أن نقول: ان هذه الآيات يسودها جو الصبر. والصبر أبرز شئ فيها.

وأما الآيات التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتاكلوا الربا أضعافا مضاعفة..﴾ الى قوله تعالى: ﴿ونعم اجري العاملين﴾ فالجو الذي يسودها هو جو التقوى، حيث تكرر ذكر التقوى في هذه الفقرة ثلاث مرات :

﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾

﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾

﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾

تلك ثلاثة مواضع ذكرت فيها التقوى بلفظها والافهذه الفقرة بكاملها تشتمل على التنويه بشأن التقوى وتفصيل أما راتها ومظاهرها وتفصيل المثوبة التي أعدها الله لمن يتصف بها.

وبالجملة فهذه الفقرة يسودها جو التقوى والتي بعدها يسودها جو الصبر ويتبين لنا حسن موقع هاتين الفقرتين إذا تذكرنا أن الفقرة التي سبقتهما تشتمل على هذا التوجيه الكريم:

﴿ان تمسسكم حسنة تسوهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا. ان الله بما يعملون محيط﴾

فقد ذكرت هذه الآية أن الصبر والتقوى هما سلاحا المؤمن في وجه العدو. وإذا كان المؤمن يملكهما فلا خوف عليه من كيدهم.

و ورد في نفس الفقرة قوله تعالى:

﴿بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.﴾

فالصبر والتقوى هما وسيلتان الى استئزال النصر من الله، كما أنهما وقاء المؤمن ضد العدو.

فلما كان هذان الأمران من الخطورة والأهمية بهذا المكان تناولهما السياق واحدا واحدا بكلام مستقل في فقرتين مستقلتين تنويعا بشأنهما وترغيبا في التمسك بهما.

(١) سورة سبا: ١٩

ثم ليس فقط أن الفقرة الأولى تتناول جانب التقوى وتحليلها والفقرة الثانية تتناول جانب الصبر وتحليله، بل الأمر أعمق منه وأعجب.

ان الذي يدرس هذه الآيات بادئ ذي بدء يستغرب ويسائل نفسه، كيف جمع الله هاتين الفقرتين ووضعهما في مكان واحد وفي سياق واحد، مع أن الجوَّ فيهما يختلف اختلافا واضحا، حيث ان الجو في الأولى جو اخاء ومودة وير ومرحمة. جو يملؤه الاتفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس والذكر والاستغفار، بينما الجوَّ في الأخرى جو كفاح وجهاد، وقتل وقتال. ولا يخفى ما بينهما من فرق كبير.

ومما يزيد الأمر غرابة أن هذه الفقرة قد سبقها الحديث عن الحرب كما تلاها. وعلى هذا فقد اكتفينا الحديث عنها من كلا طرفيها.

ان الذي يدرس هذه الآيات سيستغرب هذا الوضع ولاشك. ولكن التأمل فيها يزيل هذا الاستغراب، ويجعل الوضع طبيعيا ومنسجما مع جوَّ تمام الانسجام.

فالجوَّ في الفقرة الأولى أيضا جو كفاح وجهاد كمثلته في الثانية وكمثلته فيما قبلها. فان الأمور التي ذكرت في تفصيل صفات المتقين وملامحهم كلها توحى بالكفاح والجهاد. نأخذ -مثلا- الاتفاق فالمرء لا يقدر عليه أبدا - وخاصة في الضراء - الا بعد كفاح طويل وجهاد مرير مع النفس.

وكذلك الأمر في كظم الغيظ والعفو عن الناس، فانهما أثقل شيء على النفس. ولا يقدر عليهما الا من قضى فترة طويلة في الجهاد مع نفسه حتى تحرر منها تحررا كاملا.

وكذلك الأمر فيما ذكر من صفاتهم من ذكر الله والاستغفار للذنوب، فان هذه الآية تصوره لنا وكأنهم في صراع دائم مع أنفسهم وهم يغلبون ويُغلبون ، فاذا غلبوا مرة من المرات فلا ينكسرون ولا يستسلمون، ولا يستسلمون مع الذنوب ولا يصرون، بل سرعان ما ينتبهون ويتذكرون، ويستغفرون ثم يعودون الى ما كانوا فيه من الصراع من جديد.

فالواقع أن حياة المؤمن كلها جهاد وكفاح. وهو، قبل أن ينزل في ساحة الحرب ويشتبك مع أعداء الله، يكون قد مكث دهرًا طويلا في الجهاد مع نفسه بين أهله واخوانه. والجهاد في ساحة الحرب لا يكون الا جزء قصيرا من جهاده الطويل الذي يعيشه طول حياته في بيئته ومجتمعه.

اذا فلا اختلاف في جوَّ الفقرتين. وانما هو انتقال من معركة الى معركة ومن جهاد الى جهاد.

وهذا الجهاد الأول هو الأساس للجهاد الثاني. فالموثق في هذا الجهاد هو الذي يكون موثقا في ذلك الجهاد، والذي لم يسبق له أن يجاهد نفسه حريّا ألا يكون موثقا في النزال مع عدوه.

الا أن هناك فرقا يسيرا بين الجهادين، حيث ان الجهاد الأول يحتاج الى التقوى أكثر مما يحتاج الى الصبر، والجهاد الثاني يحتاج الى الصبر أكثر مما يحتاج الى التقوى، وان كان الجهادان يحتاجان الى الاثنين. ولا يغنى أحدهما غناء الآخر.

ولعل هذا هو السر في أن السياق أبرز جانب التقوى في الفقرة الأولى، وأبرز جانب الصبر في

الفقرة الثانية، وإن كان كلا الأمرين موجودين في كلتا الفقرتين.
وبما أن الاحسان عبارة عن هذين الأمرين، تكرر فيهما قوله تعالى:
﴿والله يحب المحسنين﴾

※ ※ ※

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، وما كنا لننتهي إليه لولا أن
هدانا الله. فنحمده تعالى بما هو أهله، ثم نتوجه الى ما بعدها.

※ ※ ※

نظم الآيات (١٤٩-١٥٥)

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فنتقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم، وهو خير الناصرين. سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار، وبئس مثوى الظالمين. ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين. اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون. ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يفشى طائفة منكم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل ان الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور. ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، ان الله غفور حلیم.﴾

قبل أن نشتغل بالحديث عن نظم هذه الآيات لا بد لنا من أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي لم نحرر بعد على كثرة ما درسها الدارسون وتأمل فيها المتأملون.

تأويل الآية (١٥١):

منها قوله تعالى: ﴿سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين.﴾
يقول الامام ابن عطية في تأويل هذه الآية:

«وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل أبوسفیان بالكفار بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وقال: انظر القوم فان كانوا قدجنبوا الخيل وركبوا الابل فهم متشمرون الى مكة، وان كانوا على الخيل فهم عائدون الى المدينة، فمضى عليّ فرأهم قدجنبوا الخيل فاخبر رسول الله ﷺ، فسر وسر المسلمون، ثم رجع رسول الله ﷺ الى المدينة فتجهز وأتبع المشركين يريهم الجلد، فبلغ حمراء الأسد، وان أباسفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق الا الفلّ والطريد تنصرف عنهم؟ ارجع بنا اليهم حتى نستأصلهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبى معبد الخزاعي قد جاء الى رسول الله عليه

السلام وهو على كفره، الا أن خزاعة كلها كانت تميل الى رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لقد سامنا ما أصابك، ولو ددنا أنك لم ترزأ في أصحابك، فلما سمع رسول الله ﷺ والناس بما عازمت عليه قريش من الانصراف، اشتد ذلك عليهم، فسخرأله ذلك الرجل معبد بن أبى معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فاني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا اللقاء، وهى - بعد - متناولة كل كافر. (١)

هذا ما ذهب اليه الامام ابن عطية في تأويل هذه الآية.

اشكالات تكتنف هذا التأويل:

وهذا التأويل، وان كان هو التأويل المفضل عند كثير من الناس، لا نسكن اليه لعدة وجوه، وهى كما يلى:

١- هذا التأويل يعتمد على القول بانتصار المشركين في غزوة أحد. وهذا مخالف للواقع ومتعارض مع ظاهر القرآن. وقد بينا ذلك وفصلناه فيما مضى.

٢- ان هذه الآية نزلت بعد انصراف كل من الفئتين من ساحة الحرب ووعدت بما وعدت به من لقاء الرعب في قلوب الكافرين لمستقبل الزمان حيث قال تعالى: «فستلقى في قلوب الذين كفروا الرعب .. الخ» بينما الروايات صريحة في أن هؤلاء المشركين قد داخلهم الرعب وهم لم يذبلوا ساحة الحرب فقد ورد، فيما ورد في شأنهم، أنهم جنوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالا. (انظر المحرر الوجيز: ٢٦٩/٣) وفي رواية: قعدوا على الأثقال سراعاً عجالا. (ابن جرير: ٩٢/٤)

ان هذه السرعة والعجلة في القعود على الأثقال ان دلت على شئ فانما تدل على ذلك الرعب الذي كان يملأ قلوبهم وكان يدعهم الى أن يهربوا بأنفسهم قبل أن يحاط بهم.

وتخوف المسلمين من دخولهم المدينة أيضا يؤكد هذا الوضع، فان العدو المتور الذي يفقد وعيه هو الذي يأتي بتلك التصرفات الشاذة، ويريد أن يقتصر لما أصابه في حومة الوغى بقتل النساء والذرائى في المدن والقرى، والا فالمتنصر يعتبر ذلك سبة الدهر، ويحسبه عارا لا يفارقه الى الأبد.

فإذا كان المشركون قد داخلهم الرعب وهم مازالوا في ساحة الحرب فما معنى الوعد بالقائه في قلوبهم بعد انصراف كل من الفئتين إلى محلهم؟

٣- لقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى: «وينشئ منوئ الظالمين»

و (الظلم) لم يذكر في هذه السورة الا في سياق الكافرين من أهل الكتاب، وها هي تلك الايات التي ورد فيها ذكره:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُم وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: ٥٧)
﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: ٨٦)

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الآية: ٩٤)
﴿مِثْلَ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صُرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الآية: ١١٧)
﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأَنْهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (الآية: ١٢٨)
﴿... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: ١٤٠)
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (الآية: ١٩٢)
تلك المواضع التي ذكرت فيها جريمة (الظلم).

وهذه الآيات كلها جاءت في سياق الكفار من أهل الكتاب كما لا يخفى على المتأمل فيها.
إذا فحمل الآية على نظائرها أولى من صرفها إلى غيرها.

٤- إن الله تعالى إذا تَوَعَّد قوماً بالقاء الرعب في قلوبهم فإنه لا يعني بذلك أنهم سيداخلهم
الرعب فهم سينسحبون من الموقف أو سيهربون مما يتوقعون من الخطر، وكفى ، كما حدث مع أبي
سفيان وأصحابه، وإنما يكون ذلك ايذاناً بأن القوم قد حانت عقوبتهم، وحان لهم أن يذوقوا وبال أمرهم.
وجاء ذلك واضحاً في قوله تعالى:

﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١)
فاذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنه سرعان ما يجعلهم نكالا للآخرين، ولا يعطيهم الفرصة
حتى يرجعوا إلى بيوتهم سالمين آمنين!

٥- إذا أولنا الآية إلى أبي سفيان وأصحابه فإننا لا نجد لها محملاً واضحاً بخلاف ما إذا أؤكناها
إلى كفار أهل الكتاب، الذين لم يكن لهم هم ولا وسن في تلك الأيام إلا تشييط عزائم المسلمين
وتخويفهم عاقبة السير مع نبيهم، فإن الأمر يكون واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، فإن هذه
الآية تتوعدهم بالقاء الرعب في قلوبهم ولم يكذب على هذا الوعيد نصف عام حتى أتى دورهم
وألقى الله الرعب في قلوبهم حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ
دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا

فكانت هذه الغزوة - غزوة بني النضير - تحقيقاً لذلك الوعد الذي تتضمنه هذه الآية. وقد نزلت الآية مع أخواتها بعد غزوة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، ولم يكدمضى عليها أربعة أشهر حتى كانت قصة بني النضير وكانت قصتهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة. (٢)

ثم بعد عام ونصف من هذه القصة كانت قصة بني قريظة. وكانت هذه القصة أيضاً - كقصة بني النضير - الحجازاً لذلك الوعد ومثالا واضحا للقاء الرعب في نفوس هؤلاء الكفار، حيث ان رسول الله ﷺ لما انصرف الى المدينة بعد الانتهاء من غزوة الأحزاب لم يكن الا أن وضع سلاحه فجاءه جبريل، فقال: أوضعت السلاح، والله ان الملائكة لم تضع أسلحتها! فانهض بمن معك الى بني قريظة، فاني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار. (٣)

ثم صار ما حكى الله في شأنهم حيث قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْوُوهَا. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٤)

وبالجملة فهذه خمسة وجوه قمعنا من القول بما قيل به في تأويل هذه الآية، وتذهب بنا الى أنها ناظرة الى كفار أهل الكتاب. والله عنده علم الصواب.



تأويل الآية (١٥٢):

ومن تلك الآيات التي مازالت بحاجة الى بحث ودراسة جادة، قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، وَلَقَدْ عَفَاكُمْ، وَاللَّهُ يُوفِّضُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله:

«يعنى بقوله جل ثناؤه حتى اذا فشلتم حتى اذا جبنتم وضعفتم وتنزعتم في الأمر يقول واختلفتم في أمر الله يقول وعصيتم وخالفتم نبيكم فتركتهم أمره وما عهد اليكم وانما يعنى بذلك

(١) سورة الحشر: ٢

(٢) زاد المعاد: ١٢٩/٣، والسيرة الحلبية: ٥٥٩/٢

(٣) زاد المعاد: ١٣/٣

(٤) سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧.

الرماة الذين كان أمرهم ﷺ بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشعب بأحد بازاء خالد بن الوليد ومن كان معه من فرسان المشركين الذين ذكرنا قبل أمرهم وأما قوله من بعد ما أراكم ما تحبون فانه يعني بذلك من بعد الذي أراكم الله أيها المؤمنون بمحمد من النصر والظفر بالمشركين. « (١)

ويقول - رحمه الله -:

«يعنى جل ثناؤه بقوله منكم من يريد الدنيا الذين تركوا مقعدهم الذي أقعدهم فيه رسول الله ﷺ فى الشعب من أحد لغيل المشركين ولحقوا بمعسكر المسلمين طلب النهب اذ رأوا هزيمة المشركين ومنكم من يريد الآخرة يعنى بذلك الذين ثبتوا من الرماة فى مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ واتبعوا أمره محافظة على عهد رسول الله ﷺ وابتغاء ما عندالله من الثواب بذلك من فعلهم والدار الآخرة. « (٢)

اشكالات تكتنف هذا التأويل:

هذا ما ذهب اليه الامام ابن جرير - رحمه الله - فى تأويل هذه الآية. وهذا هو التأويل المفضل عند كثير من الناس. الا أن هذا التأويل تكتنفه عدة اشكالات، وهى كما يلى:

ان ملخص هذا التأويل أن عصيان الرماة وعدم لزومهم مراكزهم هو الذي جلب عليهم ما جلب من سوء وغم، وأما الفشل والتنازع فى الأمر فلايجد لهما مكانا فى هذا التأويل. نعم يذكر هذا التأويل اختلاف الرماة فيما بينهم - وهو أن ناسامنهم تركوا مراكزهم فى الشعب واندفعوا الى الغنيمة، بينما الآخرون لزموا مراكزهم ولم يوافقوا اخوانهم فيما أرادوا، بل أرادوا أن يمنعهم منه - الا أن هذا الاختلاف شئ، والتنازع فى الأمر شئ آخر. فالتنازع هو التخاصم وهو أن يصّر كل من الفريقين على رأيه ويصرّ على موقفه، بدون احتكام ولا استناد الى الله ورسوله. والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ذلك خير وأحسن تأويلاً (٣)

وأما اذا لزم فريق أمر الله ورسوله واعتصم به، وأراد الآخر أن يخالفه ويعدل عنه الى غيره فهذا ليس من التنازع، وانما هو طاعة من فريق وعصيان من فريق آخر.

ثم أين موقع الفشل فى هذا التأويل؟ فان الذين تركوا مراكزهم لم يتركوها بدافع الفشل وانما تركوها بدافع الرغبة فى الغنيمة. وشتان بين الفشل والرغبة فى الغنيمة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان الرماة اذا كانوا قد لازموا مراكزهم فى وقت القتال وفارقوها بعد

(١) تفسير الطبري: ٤٤/٤٤

(٢) المرجع السابق: ٤٤/٥٥

(٣) سورة النساء: ٥٩

ما انهزم المشركون ولا ذوا بالفرار وتأكد عندهم أنه لا حاجة بهم الى لزومهم مراكزهم فان هذا أولى بأن يحمل على خطأ فى الاجتهاد دون العصيان. فانهم لم يتركوا مراكزهم وفى بالهم أنهم يخالفون أمر الرسول عليه السلام وانما تركوها وهم يحسبون أنهم قد أدوا واجبه كما كان الرسول ﷺ يريد منهم.

فهذه الحادثة أشبه شئ بما حدث فى غزوة بني قريظة، حيث ان الرسول ﷺ قال لأصحابه يومئذ: (لا يصليَنَّ أحدكم العصر الا فى بني قريظة)، وفى رواية: (من كان سامعا مطيعا فلا يصليَنَّ العصر الا ببني قريظة). فبادروا الى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها الا فى بني قريظة كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وانما أراد سرعة الخروج، فصلوها فى الطريق، لم يعتف واحدة من الطائفتين. (١)

إذا فالأمر هناك أمر الاجتهاد وليس أمر العصيان.

وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فى التعبير فلنقل: أنهم اجتهدوا فأخطأوا وكان أولى بهم وأجدر أن يظنوا فى مراكزهم كاخوانهم الآخرين.

ولكن ليس لنا أن نقول أنهم عصوا أمر الرسول، فانهم ما كانوا يريدون ذلك. ولو أرادوه لفعلوه قبل ذلك حين كانت الحرب قائمة على ساقها وكانت تسحب بينهم أذيالها.

ولعل هذا هو السبب فى أن النبی ﷺ لم يعتفهم بعد انقضاء الحرب ولم يعاقبهم كما لم يعتف الذين صلوا العصر فى الطريق ولم يعاقبهم.

وكذلك القرآن لم يؤاخذهم على هذا التصرف ولم يعتفهم ولم يتناولهم بالعتاب ولم يحكم عليهم بالعقاب.

وبالجملة فهذه القصة لاتصلح لأن تكون تفسيرا لهذه الآية لأنها لا يصدق عليها الفشل والتنازع فى الأمر ولا العصيان الا بتكلف شديد. اضافة الى ذلك أن هذا التأويل لا يستقيم مع قوله تعالى: «من بعد ما أراكم ما تحبون»، فان الغنائم لا تجمع ولا يمكن أن تجمع الا بعد رؤية الغلب والانتصار، فاذا أقبل هؤلاء الى جمعها بعد ما رأوا انهزام المشركين وانتصار المؤمنين، فقيم العتاب عليهم، أو ما هو وجه الملام والانتكار فى تصرفهم؟

وهذا كله على افتراض الصحة والدقة فيما وردت به الآثار، والا فالأمر كما قاله الامام ابن عطية - ولعله خير تفسير لما ذهب اليه الناس من ربط هذه الآيات - وما حدث فى تلك الغزوة من أحداث - بتلك القصة حيث قال - رحمه الله -:

«اختلفت الروايات فى هذه القصة من هزيمة أحد اختلافنا كثيرا، وذلك أن الأمر هول، فكل أحد وصف ما رأى وسمع» (٢)

(١) زاد المعاد: ١٣٠/٣، والسيرة الحلبية: ٦٥٩/٢

(٢) المحرر الوجيز: ٢٦٨/٣

ومن ذلك - كما يوحيه الينا الموقف - أن نفرمن المسلمين أقبلوا الى جمع الغنائم بعد ما رأوا انتصارهم وانهمزام عدوهم، وما كادوا يفعلون ذلك حتى اضطرب أمر المسلمين وتعكّر الجوّ عليهم، فمن رأى هذا المنظر خيل اليه أن الذين اشتغلوا بجمع الغنائم هم الذين كانوا موكلين بحفظ الثغر، فلما فارقوا مقاعدهم سئحت للمشركين فرصة الهجوم عليهم من ورائهم فوقعت المأساة وحدث ما حدث من أحداث.

هذا ما خيل الى من شهد هذا المشهد وكان الواقع على غير ما خيل اليهم.

ثم لما رأوا أن القرآن يذكر في سياق الحديث عن هذه المأساة التنازع في الأمر أضافوا اليه أن الرماة كلهم لم يفارقوا مراكزهم وانما وقع بينهم الخلاف في هذا الأمر ففارق بعضهم وبقي بعضهم، والذين بقوا في مقاعدهم لم يستطيعوا أن يقاوموا خيل المشركين لما هجموا عليهم، لأنهم كانوا قلة فكان أن تمكّن المشركون من قتلهم ثم دخلوا على المسلمين من ورائهم وأحاطوا بهم. وهكذا اكتملت جوانب القصة، ثم رويت هذه القصة وحدثت وشاعت وانتشرت مع أنها لم تكن صورة دقيقة صادقة لما وقع. وانما الذي وقع على غير ما ترويه هذه القصة!

إذا فما هي الصورة الصادقة لما وقع؟ وما هو التأويل الصحيح لهذه الآية؟

قبل أن نرد على هذا السؤال نود أن نضع في اعتبارنا نظائر هذه الآية من سورة الأنفال، فانها ستكون لنا عوناً في تمثيل الصورة الصادقة لأحداث تلك المعركة، كما ستكون لنا عوناً في التوصل الى التأويل الصحيح للآية.

يقول تعالى وهو يذكر المؤمنين ما امتنّ به عليهم في غزوة بدر:

﴿اذبيريكم الله في منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر، ولكن الله سلم، انه عليم بذات الصدور.﴾ (١)

ثم يقول تعالى، وهو يزود المؤمنين بتوجيهات تفيدهم في مثل تلك المواطن:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، ان الله مع الصابرين﴾ (٢)

منشأ الفشل والتنازع في الأمر:

فالآية الأولى تفيد أن الفشل والتنازع في الأمر انما تنشئهما المهابة من العدو. فاذا امتلأ القلب بشعور كثرة العدو و شدة بأسه، دبّ الفشل وظهر التنازع في الأمر.

(١) سورة الأنفال: ٤٣

(٢) سورة الأنفال: ٤٥-٤٦

والآيتين الأخريتان تفيدان أن قلة الثبات وقلة الصبر هما اللذان يؤديان إلى الفشل والتنازع في الأمر، حيث بدئت هذه التوجيهات بالأمر بالثبات وختمت بالأمر بالصبر، ووضع بينهما النهى عن الفشل والتنازع في الأمر.

ولا يخفى أن قلة الصبر وقلة الثبات شيء واحد كما أن قلة الصبر والمهابة من العدو أصلهما واحد. فمن قلَّ صبره تهيبَّ عدوه، وكذلك العكس.

وأما الفشل والتنازع في الأمر فهما كذلك شيان متلازمان وقد يأتي الفشل ويتبعه التنازع في الأمر كما نستوحيه من الآية الأولى.

وقد يكون الأمر على العكس حيث يأتي التنازع في الأمر ثم يتبعه الفشل كما نستلهمه من الآيتين الأخريتين.

تأويل الآية كما يمليه علينا السياق:

والآن نرجع إلى حديثنا الأول فنقول: هل هناك مانع من القول بأن المؤمنين قد خامر قلوبهم الخوف من كثرة العدو وشدة بأسهم، وهذا الخوف هو الذي أداهم إلى ما أداهم من الفشل والتنازع في الأمر؟ ولقد أشار السياق نفسه إلى هذه الظاهرة إشارة واضحة، حيث مضت معنا في الفقرة السابقة هذه الآيات:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ. وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَقُولَ قَدْ أَيْتَمَوْنَا وَأَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِي ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِي ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾

والجواب الذي يسود هذه الفقرة أيضا جو الخوف والرعب، وما أوضح قوله تعالى في هذا المعنى:

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تُلَوِّنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ.....﴾ الآية.

هذا، وسيطالعنا قوله تعالى في نفس السورة وفي نفس السياق:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)

فهذه الآيات واضحة في أن المؤمنين قد داخل قلوبهم الخوف من العدو. وهذا الخوف هو الذي أداهم إلى ما أداهم من الفشل والتنازع في الأمر.

هذا اجمال القول في هذا الموضوع. ولا بد له من تفصيل، فنقول:

لقد علمنا في أول الحديث عن هذه الغزوة في سياق قوله تعالى: ﴿أَذْهَمْتَ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا.... الآية﴾ أن جمعا من المنافقين قد صحبوا المؤمنين في هذه الغزوة. وما أنهضهم للخروج معهم الاحرصهم على افساد أمرهم وإيقاع الفتنة في صفوفهم.

وهكذا كان الأمر ما كادوا يصلون الى موقع الحرب حتى ظهرت بوادر الفشل في صفوف المؤمنين. وما كان ذلك الا نتيجة لجهودهم ودساتهم الحبيشة المشؤمة، حيث انهم خوفوا أعداءهم وهولوا أمرهم، وقالوا للمؤمنين، وكأنهم لهم ناصحون.

﴿ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ (١)

وما زالوا بهم كذلك يثبطون همهم ويخوفون عاقبة الصراع مع عدوهم، حتى دب الرعب في قلوب طائفتين منهم وأوشكو ان يفشلوا لولا أن تداركهم نعمة من ربهم. وقد بيناه وفصلناه في أثناء دراستنا لقوله تعالى: ﴿أَذْهَمْتَ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولقد أخفق كيدهم في تلك المرة ولا شك، الا أنهم عرفوا من خلال تلك المحاولات أن مواضع الضعف موجودة في صفوف المؤمنين. وأنهم ان أخفق كيدهم في هذه المرة فلن يخفق في كل مرة.

فلما رأوا - بعد ما استعرت نار الحرب بين المؤمنين والمشركين - أن كفة المؤمنين راحجة، وأنهم يحسّون عدوهم حسّا، لم يستطيعوا أن يصبروا على هذا الوضع، وشدّوا مآزرهم ليقوموا بدورهم في افساد أمرهم، وجعلوا يوضعون خلالهم ييغفونهم الفتنة وأشاعوا بينهم أن رسول الله ﷺ قد قتل.

وما كاد المؤمنون يسمعون بهذا الخبر حتى خارت قواهم وانهارت همهم، وفترت عزائمهم، ثم

تغير الوضع!

وكان كل ما حدث طبيعيا، فقد كان هذا المكر ولا شك، لتزول منه الجبال فكيف بهؤلاء الرجال! وظل المنافقون يشيرون هذا الخبر وظلوا يخذلون المؤمنين، ويثبطون همهم، حتى ملئت قلوبهم رعبا، ودبّ فيهم الفشل والتنازع في الأمر، ثم أدّاهم ذلك الى أن عصوا الله ورسوله، حيث تركوا مراكزهم ونسوا واجبهم ثم ولوا مدبرين.

وقد عصوا قبل ذلك أيضا حين استمعوا لكلام هؤلاء المنافقين وجعلوهم موضع ثقة ومودة عندهم، مع أنهم قد حذروا منهم أشد تحذير حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ . قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

فهذا العصيان هو الذي أفسد عليهم الأمر وجرّهم من عصيان الى عصيان وجرّهم الى الفشل والتنازع فى الأمر. ثم جرّهم الى ما جرّهم من سوء وغم.

ولو أنهم أطاعوا الله ورسوله فحدّروا ماحذروا منه لما كان لهؤلاء الأعداء ان يفسدوا عليهم الأمر ويعكّروا عليهم الجو.

ومن هنا نعلم أن خبر مقتل النبي ﷺ لم يكن حدثا اتفاقيا وانما كان كيدا وتديبرا من هؤلاء الأعداء.

وهذا الكيد، وان كان قد نجح فى عامّة المؤمنين الا أن جلة الصحابة قد فطنوا له، وعرفوا أنه لا يعدو أن يكون من أراجيف المنافقين وليس القصد منه الا الفتنة فى عضد المسلمين فقد أخرج ابن المنذر عن كليب قال: خطبنا عمر بن الخطاب، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول انها أحدية، ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت يهوديا يقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحدا يقول قتل محمد الا ضربت عنقه، فنظرت فاذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون اليه. (١)

وهذه الصورة أصدق عندنا وأشبه بما عهدناه فى سيدنا عمر بن الخطاب وأمثاله من الصورة التي تعرضها الرواية الأخرى وهى التي ذكرها الامام ابن القيم - رحمه الله - حيث قال:

(وانتهى أنس بن النضر الى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل) (٢)

وبالجملّة فهذا ما يظهر لنا فى تأويل قوله تعالى: ﴿حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتكم﴾ فالرعب والخوف هو الذي أدى بالناس الى هذا الفشل والتنازع فى الأمر وهو الذي أدى بهم الى العصيان.

والعجيب فى الأمر أنهم ما فشا فيهم هذا الرعب والخوف الا بعد ما رأوا النصر والظفر متمثلا شاخصا أمامهم. وذلك لأنهم صدموا بخبر أذهلهم وأنساهم أنفسهم. ألا وهو خبر مقتل رسول الله ﷺ. ولقد أشار القرآن نفسه الى هذه الظاهرة بنظم آياته حيث قال بعد ما عاتبهم على الجزع وقلة الصبر: ﴿وما محمد الا رسول، قد دخلت من قبله الرسل، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾

فهذا النظم يفيد أن هذا النبأ هو الذي أذهلهم وأنسد عليهم أمرهم كما يدل على أنهم لم يكن لهم ذنب الا أنهم لم يجابهوا الموقف بصبر وجمود، ولو كان طلب الغنيمة هو السبب فى اختلال نظامهم

(١) فتح القدير: ٣٨٨/١

(٢) زادالمعاد: ٢٠٩/٣

واضطراب أمرهم لما عاتبهم السياق علي قلة الصبر والضعف في الجهاد وانما عاتبهم على شع النفس وقلة الزهد والركون الى الدنيا وشهواتها.

ثم هذا التأويل كما أن يوضح الأمور في نصائها ويريحنا من الاشكالات التي أشرنا اليها، يجعل قوله تعالى: «من بعد ما أراكم ما تحبون» ظاهرا واضحا في مفهومه ومنسجما تمام الانسجام مع ما قبله، فانه لم يكن هناك مبرر للخوف من العدو والفشل والتنازع في الأمر بعد ما رأوا النصر والظفر متمثلا شاخصا أمام أعينهم. فالذي حدث كان في غاية الغرابة وفي غاية العجب ! وما كان ينبغي له أن يحدث كائنة ما كانت الظروف وكائنة ما كانت الأسباب!



هذا ما يظهر لنا في تأويل الآية، حين نعلم النظر في نظمها ونكرر التأمل فيها وفي نظائرها، ونرى أننا تناولنا أطراف الحديث كلها، ولم يبق هناك ما يحتاج الى بيان وايضاح. وان كان قد بقي شيء فسيتضح باذن الله، حين نتفرغ للحديث عن نظم تلك الآيات، ونبين وجوه مناسبتها فيما بينها.

(تأويل الآية (١٥٤):

ومن تلك الآيات التي تحتاج الى بحث ودراسة جادة قوله تعالى:

«.....وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» الآية.

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله:

«يعنى بذلك جل ثناؤه وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمتهم أنفسهم يقول هم المنافقون لاهم لهم غير أنفسهم فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل قد أطار عن أعينهم الكرى يظنون بالله الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله شكّا في أمر الله وتكذيبا لنبيه ﷺ ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ومعل عليه أهل الكفر به يقولون هل لنا من الأمر من شيء.» (١)

فالامام ابن جرير يعتبر هذه الطائفة من المنافقين.

الا أن صاحب تفسير المنار يعدل عنه الى رأي آخر، فيقول:

«فهذه الطائفة من المؤمنين ولا حاجة الى جعلها في المنافقين كما قيل، فان هؤلاء سيأتى الكلام فيهم. وما من أمة الا وفيها الضعفاء والأقوياء في الايمان وغيره.» (٢)

ثم يقول- رحمه الله - بعد ما ينتهي من تفسير هذه الآية:

«هذا، وان جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اخترناه في هذه الطائفة، فقالوا: ان المراد بها المنافقون ولكن يعارض فهمهم هذا كون الخطاب قبله وبعده للمؤمنين، والكلام عن المنافقين

(١) تفسير الطبري: ٩٣/٤

(٢) مختصر تفسير المنار: ٤٢٠/١

سيأتي بعده، وكذا قوله تعالى ﴿وليبتلئ الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم﴾ فان المصائب انما تكون بعد الابتلاء والاختبار تحيضا للمؤمنين كما قال ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وبأسا وضعفا للكافرين كما قال ﴿ويمحق الكافرين﴾. (١)

هذا ما يراه صاحب تفسير المنار في شأن تلك الطائفة.

ولعل رأيه - رحمه الله - أوجه وأرجح من رأى غيره وذلك من عدة وجوه:

١- ان الآية واضحة في أن النعاس لم يغش جميع المؤمنين وانما غشى طائفة منهم: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾ وأما الطائفة الأخرى فبقيت في قلقها واضطرابها فأين تلك الطائفة الأخرى اذا لم تكن هذه التي ذكرت بعدها؟

٢- هناك فرق واضح بين ما يذكره السياق عن هذه الطائفة وبين ما يذكره عن المنافقين. فقد ذكر عن هذه الطائفة أنهم يقولون:

﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾

بينما ذكر عن المنافقين أنهم يقولون:

﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ (٢)

﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ (٣)

فالقول الأول يوحى بالغزن والموجدة والصلة الروحية العميقة بين هؤلاء وبين من قتل من اخوانهم، فهم ينسبون القتل الى أنفسهم ويعتبرون ما أصاب اخوانهم كأنه أصابهم هم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾

بينما القول الآخر يوحى بالسخرية والشماتة ونكأ القرع وذر الملح على الجرح: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾

وهكذا ذكرهم الله تعالى فحكى عنهم:

﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾

وذكر المنافقين فحكى عنهم:

﴿يقولون بأفواههم ما ليس قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾ (٤)

ولا يخفى ما بين الحكايتين من فرق واضح حيث ان الحكاية الأولى توحى بالخوف والتهيب

(١) مختصر تفسير المنار: ٤٢١/١ (بحذف واختصار)

(٢) سورة آل عمران: ١٥٦

(٣) نفس السورة : ١٦٨

(٤) سورة آل عمران: ١٦٧

والاستحياء فهم خافوا النبي واستحيوا منه أن يقولوا له: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ أى لو قبل رأينا فى البقاء فى المدينة لما قتلنا ههنا. بينما الحكاية الأخرى توحى بالخداع والنفاق والحقد والضغينة.

٣- ان ربط هذه الآية بالمنافقين يفسد نظم الآيات، ويوقعنا فى اشكالات لانكاد نجد مصدرا منها. وسيتضح ذلك حين ندرس نظم تلك الآيات.

تلك ثلاثة أوجه تشفع للرأى الذي مال اليه صاحب تفسير المنار بالاضافة الى الوجهين اللذين نبه اليهما هو نفسه.

ولعل أكبر شيء ذهب بالناس الى أن هذه الآية ناظرة الى المنافقين قوله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾.

ولكن لا يلبث هذا الظن أن يزول اذا وضعنا في بالنا نظير هذه الآية فى سورة الأحزاب حيث قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا. اذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاجت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا.﴾ (١)

فما أشبه قوله تعالى: ﴿وإذ زاجت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ بقوله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾.

وإذا كان هناك وجه الخطاب الى المؤمنين باجماع المفسرين، فلا اشكال فى تأويل هذه الآية أيضا الى المؤمنين دون المنافقين.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

والآن - وقد انتهينا من دراسة تلك الآيات - نعود اليها مرة أخرى لنعرف مناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

لقد كانت الفقرة السابقة - كما رأينا - تعزية للمؤمنين وتسلية لهم على ما أصابهم فى غزوة أحد من قرح وجرح، وكانت تنبيهها لهم كذلك على ما ظهر منهم من ضعف وقلة صبر وتحريضا لهم على حسن التأسي بمن سبقهم من الأنبياء وأتباعهم الصابرين المحسنين.

وهنا نرى السياق يحذرهم من أعدائهم من أهل الكتاب ويحذرهم من الاستماع اليهم والانخلاع بأحاديثهم، التي ترمى الى خلخلة صفوفهم ولبلة أفكارهم وترمى الى تشكيكهم فى أمر دينهم وازالة

نقتتهم بقيادتهم ، وترمى الى أن تلقى فى روعهم أن الله قد تخلى عن نصرهم وأسلمهم لعدوهم وما وعدهم هو - جل وعلا - ورسوله الا غرورا. وأنهم ان يطيعوهم ويضعوا أيديهم فى أيديهم فانهم لينصروهم وليكونن لهم عوناً وعضداً فيما ينوبهم و....

فالسباق يحذرهم من هذا الكيد ويبين لهم أن الله هو مولاهم وناصرهم وهو خير الناصرين، وأما هؤلاء الأعداء، الذين يريدون أن يستغلوا هذه الفرصة شر استغلال، ويريدون أن يفتنواهم عن دينهم، ويردوهم على أعقابهم، فقد قرب أجلهم، وعما قليل ليصبحن نادمين، حيث أن الله سيلقى فى قلوبهم الرعب وسيذيقهم وبال أمرهم، فالذي يريد أن يأوي اليهم، انما يأوي الى بيت يريد أن ينقض، سينقض من قريب!

ثم يبين السباق أن الله لم يخلف ما وعدهم ولم يتخل عن نصرهم - كما يزعم لهم أعداءهم - بل هو مقبل الى نصرهم ورعايتهم منذ أول لحظتهم حيث سلطهم على عدوهم فحصدوهم بسيوفهم حتى كادوا يستأصلونهم ! وظل هذا النصر خليفهم حتى ظهر منهم ما ظهر من الفشل والتنازع فى الأمر والعصيان.

وكانت هذه الظاهرة دليلاً واضحاً على أن فيهم من يريد الدنيا وفيهم من يريد الآخرة، فان الفشل والتنازع فى الأمر والعصيان ليس من دأب من يريد الآخرة، وانما هى من علامات أهل الدنيا. ولكن مع هذا كله، فان الله لم يتخل عنهم.

وان صرفهم عنهم فانه لم يصرفهم ليعذبهم، أو يسلط عليهم عدوهم وانما صرفهم عنهم ليبليهم، ويميز من يريد الآخرة منهم من يريد الدنيا حتى يعود اليهم النصر الذي انحبس عنهم وما انحبس عنهم الا لاختلاط أمرهم، واشتغالهم على من يريد الدنيا ويريد الآخرة. وعلى هذا فقد كان هذا الابتلاء فى مصلحتهم، وكان من فضل الله عليهم. ولقد نبه السباق الى هذه الناحية، فقال بعد ذكر هذا الابتلاء: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

فلما تميزت صفوفهم، وتظهرت نفوسهم بفضل هذا الابتلاء ، عاد اليهم النصر مرة أخرى، وأنزل عليهم ربه من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منهم.

هذا ماعامل الله به عباده المؤمنين المتقين، وأما الضعاف منهم والفاورون الفاشلون فقد كان من لطف الله وسعة فضله أنه لم يغلظ عليهم كذلك، بل شملهم بعفوه وحلمه وغفرانه، وجعل هذه المحنة ابتلاء لما فى صدورهم، وتمحيصاً لما فى قلوبهم، وترك لهم الفرصة حتى يتداركوا ما فاتهم، ويصلحوا ما فسد من شأنهم.

اذا فليس من شأن المؤمنين، وليس فى صالحهم، أن يستمعوا لقول أعدائهم، ويشكوا فى أمر دينهم ونيبهم، ويسبوا الظن برهم الذي وسعهم فضله ونصره فينتقلوا خاسرين!

لفتة هامة:

وقبل أن نغادر تلك الآيات الى ما بعدها نود أن ننبه الى أمر هام يستفاد من نظمها، فإنه كثيرا ما عزب هذا الأمر عن الأذهان، وبالتالي لم يتيسر للناس أن يتمثلوا تلك المعركة الفاصلة على وجهها، ولم يتيسر لهم أن يأخذوا عنها صورة دقيقة واضحة.

ان التأمل فى نظم تلك الآيات يوحى الينا أن الصورة التي قتلها لنا هذه الآية: (اذتصدون ولا تلوون على أحد والرسول ... خبير بما تعملون) لم تكن هى الصورة الختامية التي انتهت بها المعركة، بل أفاق المؤمنون واستمسكوا بعد ما أنزل الله عليهم النعاس أمنة منه، وقد أنزل الله عليهم ذلك النعاس وهم مشتملون بالسلاح، والحرب قائمة ورحى القتال دائرة، فلم تكن الا موجة من النعاس - ولعلها لم تستمر الا ثوانى معدودة - فإذا بهم - وهم طائفة من المؤمنين - فى منتهى القوة والنشاط. وقد زال عنهم كل ما كان بهم من الخوف والرعب، فهم أسرعوا الى النبي ﷺ بل طاروا اليه زرافات ووحدا حتى اجتمعوا حوله، ثم كروا على المشركين وشدوا، وقتلوا وضربوا، حتى أمسكوا زمام الموقف.

وهكذا انتهت المعركة بانتصار المؤمنين، لا (بإصعادهم) و (توليهم) ! والأمور التي تقودنا الى هذا القول كما يلي:

١- لقد عطف قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا.. الآية﴾ على قوله تعالى: ﴿اذتصدون ولا تلوون على أحد.. الآية﴾ أو على قوله تعالى: ﴿فأتاكم غمابغم .. الآية﴾ ومعلوم أن هذا الإصعاد وهذه الاثابة قد حصلوا بالحرب دائرة وقائمة على ساقيها، فلا بد إذا أن يكون انزال الأمانة أو انزال النعاس أيضا فى نفس الفترة حتى يتحقق الاتحاد بين المعطوف والمعطوف عليه.

٢- قال تعالى عن الطائفة الأخرى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾.

يقول الامام الزمخشري - رحمه الله - فى تأويله:

« ما بهم الا هم أنفسهم لاهم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين.. »^(١)

ويقول العلامة الألوسى - رحمه الله -:

« أى جعلتهم ذوى هم وأوقعتهم فيه أو ما يهمهم الا أنفسهم لا النبي ﷺ ولا غيره ، من أهمه

بمعنى جعله مهما له ومقصودا. والحصر مستفاد من المقام، وذكر بعضهم أن العرب تطلق هذا اللفظ على الخائف الذي شغله هم نفسه عن غيره.. »^(٢)

(١) الكشف : ٤٧٢/١

(٢) روح المعاني: ٩٤/٤

ومما لا يخفى أن هذه الآية جاءت على أسلوب التقابل، وحذف من الجملتين ما ذكر في مقابلهما. ويكون تقدير العبارة هكذا:

﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم و طائفة أخرى ما غشيهما هذا النعاس فهم كانوا في خوف ورعب. وهذه الطائفة قد أهتمهم أنفسهم بينما الطائفة الأولى ما كان يهمهم إلا أمر دينهم وعقيدتهم.﴾

والصورة التي نتمثلها من هذه العبارة هي أن الحرب لم تنته بعد والصراع بين العسكريين مستمر ومحتدم. وطائفة من المؤمنين قد اقتحموا المعركة غير خائفين ولا وجلين وليس لهم هم إلا أن يدافعوا عن دينهم وعقيدتهم وطائفة أخرى يرتجفون من العدو ولا يهمهم إلا أن ينجوا بأنفسهم. ويتخلصوا من الخطر الذي يحقد بهم.

٣- ان النعاس الذي يذكره القرآن هنا لم يكن إلا لازالة الخوف من قلوب المؤمنين حتى يثبتوا في الحرب ويستمرروا في القتال مع أعدائهم، وليس المراد به ذلك النوم الثقيل الطويل الذي يناله الانسان وهو خلى البال. وإنما المراد به أخف النوم. ^(١) ولا يطول ذلك إلا ثواني معدودة. ومما يجدر بالانتباه أن هذا النعاس أنزل على المؤمنين في بدر قبل أن تنشب الحرب وأنزل في أحد في أثنائها.

والسر في ذلك أن المؤمنين في غزوة بدر كانوا- قبل أن يلاقوا العدو- في خوف شديد منهم، كما يظهر من الآيات التي وردت في شأنها وهي قوله تعالى:

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتوَدُونَ أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم.﴾ ^(٢)

فلما كان المؤمنون قد ملئوا رعبا من أول أمرهم، أنزل الله عليهم النعاس قبل أن يقابلوا عدوهم حتى يوا جهوا الموقف بصبر وصدور، ولا يولوهم الأدبار كما قال تعالى:

﴿إذ يغشيوكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ ^(٣)

(١) زاد المسير : ١/ ٤٨٠

(٢) سورة الأنفال: ٥-١٠

(٣) سورة الأنفال: ١١

وأما غزوة أحد فلم يكن المؤمنون فيها - كما كانوا فى غزوة بدر - خائفين من العدو، بل أقبلوا اليها وهم كأسود الشرى يستعذبون طعم اللقاء . وكانت همهم عالية، ومعنوياتهم قوية شامخة. فما كادت الحرب تستمر ناراها حتى جعلوا يحسنون عدوهم حساً .

إذا فلم يكن المؤمنون بحاجة الى أن ينزل عليهم النعاس فى أول أمرهم. وإنما مست الحاجة اليه بعد. ما تمكن المنافقون بكيدهم ومكرهم من تخويفهم وتخليطهم وتشبيط همهم . وقد بينا ذلك وفصلناه فيما مضى.

وهناك أنزل الله عليهم النعاس أمنة منه، حتى يستمسكوا ويعودوا الى ما كانوا فيه من قوة وحماس وشدة بأس، ويعودوا الى ما كانوا فيه من ضرب العدو وجذ رؤوسهم، وهضم أنوفهم. وقد تم ذلك ولله الحمد.

وبالجملة فإذا كان النعاس إنما ينزله الله تعالى على عباده المؤمنين ليربط به على قلوبهم ويثبت به أقدامهم فليس هناك مانع من القول بأن المؤمنين قد اجتمعوا بعد هذا النعاس حول النبى ﷺ ثم كانت لهم صولات وجولات فى صفوف المشركين، حتى انحلت المعركة بانتصارهم واندحار عدوهم. تلك ثلاثة أمور تستفاد من نظم هذه الآية، وهى تدفعنا دفعا الى القول بما قلنا. وسيأتى معنا قوله تعالى فى نفس السورة:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا فأتوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو تعلم قنالا لا تبعناكم.. الآية﴾ (١)

وهاتان الآيتان أيضا تعززان هذا الموقف ولا تبقيان مجالاً للشك فى هذا الأمر. وسنبين ذلك حين نتنا ولهما بالحديث باذن الله.

الرد على شبهتين:

وقبل أن نقفل هذا الموضوع نود أن نرد على شبهتين قد تشوران فى الذهن بهذا الخصوص وهما كما يلى:

١١- ان صح أن المؤمنين اجتمعوا بعد ما أنزل عليهم النعاس ثم كروا على المشركين كرة فاصلة فلماذا سكوت عنه السياق ولم يذكره.

١٢- ان أواخر هذه الآية لا تشعر بجوها وطبيعتها أنها تتصل بما جرى فى موقف القتال أو فى أن القتال فكيف يصح ربط أولها بما لا يرتبط به آخرها؟

هاتان شبهتان قد تشوران فى ذهن الباحث، فلا بد من علاجهما.

أما الشبهة الأولى فهى لا تلبث أن تزول اذا وضعنا فى اعتبارنا أنه ليس من عادة القرآن أصلاً

(١) سورة آل عمران: ١٦٦-١٦٧

أن يسرد القصص بكاملها أو يفصل جميع جوانبها.. فهو لا يذكر منها إلا ما يقتضيه الموقف ويتطلبه الموضوع. ولقد علمنا قبل قليل أن هذه الآيات ، التي نتحدث عنها الآن، إنما جاءت لرد شبهة قد أثارها اليهود في نفوس المؤمنين وهي أنه تعالى وعدهم النصر ثم أخلف وعده وتركهم غرضا لسيوف عدوهم حتى أصابهم ما أصابهم من قرح وجرح وقتل.

فجاءت هذه الآيات تبطل هذه الشبهة وتبين لهم أن الله قد صدقهم وعده وحاطهم بنصره ورعايته في كل مرحلة من مراحل هذه الغزوة، وإنما أصابهم ما أصابهم من عند أنفسهم.

وإذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة فسنرى أن السياق لم يترك من هذه القصة شيئا مما كان يخدم هذا الموضوع، كما لم يذكر منها ما لم يكن له صلة بالموضوع.

ومن الظاهر أن شدَّ المسلمين على المشركين بعد ما أنزل عليهم النعاس لم تكن له صلة بالموضوع. فكان أولى بالسياق أن يطوى ذكره ويترك نظم الكلام هو الذي يشير إليه.

وأما الشبهة الثانية فهي أيضا لا تثبت أن تنقشع إذا علمنا أنه لا غرابة في هذا الأسلوب، فهو أسلوب مطرد في القرآن. فكم من آية في القرآن نرى أولها يتصل بزمان وآخرها بزمان آخر.

نأخذ - مثلا - آية من هذه السورة نفسها وهي قوله تعالى في شأن سيدنا عيسى:

﴿ورسولا الى بني اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله، وابرى الاكهم والابرص واحيى الموتى باذن الله، وانبئكم بما تاكلون وما تدرخون فى بيوتكم، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين﴾ (١) فأولها وهو قوله تعالى: ﴿ورسولا الى بني اسرائيل﴾ من قول الله أو من قول الملائكة للسيدة مريم. وأما أواخرها وهي قوله تعالى: ﴿انى قد جئتكم بآية من ربكم ... الخ﴾ فهي من كلام سيدنا عيسى لقومه، والفصل بين الشطرين هو الفاصل بين البشارة بميلاده وبين قيامه - عليه السلام - في قومه بمهمة الرسالة والدعوة الى الله.

إذا فهذا أسلوب من أساليب القرآن، وعليه وردت تلك الآية التي نتحدث عنها الآن. فشطرها الأول وهو قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم... ظن الجاهلية﴾ متصل بما جرى في موقف القتال، بينما الثاني وهو قوله تعالى: ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شئ... الخ﴾ حكاية عما كانوا يقولون للنبي - عليه السلام - أو كانوا يحدثون به أنفسهم بعد القتال.

ولقد جمع السياق بين الموقفين على ما بينهما من فاصل لشدة الشبه بينهما ، كما جمع بين القولين في الآية السابقة لشدة الصلة بينهما.

هذا ما تيسرنا في تأويل تلك الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها. فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله ، ثم نتوجه الى ما بعدها.



نظم الآيات (١٥٦-١٧٩)

قال تعالى:

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم، والله يحيى ويميت، والله بما تعملون بصير. ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون. ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون. فيما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفصوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين. ان ينصركم الله فلا غالب لكم، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومناه جهنم، وبئس المصير. هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون. لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين. أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم، ان الله على كل شىء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأقواهم ما ليس فى قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادعوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين. ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين، استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله توفى فضل عظيم. ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين. ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة، ولهم عذاب عظيم. إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا. ولهم عذاب أليم. ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم، انما نملى لهم لحيزادوا انما ولهم عذاب مهين. ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن

الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم.



قبل أن نلتبس وجوه المناسبة في تلك المجموعة من الآيات نود أن تكون لنا وقفة عند بعض مواضعها التي تحير الناس في أمرها. فان التوصل الى بديع نظمها وحسن المناسبة بين آياتها لا يمكن قبل التوصل الى صحيح تأويلها.

سبب نزول : (وما كان لنبي أن يغفل):

فمن تلك المواضع قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ الآية.

يقول الامام ابن الجوزي في تأويله:

«قوله تعالى ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال.

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعن النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلا غل من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أن قوما من أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصصهم بشئ من الغنائم، فنزلت هذه الآية نقل عن ابن عباس أيضا.

والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائع فغنم النبي ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفئ ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

والخامس: أن قوما غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلبا للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: «من أخذ شيا فله» فقال لهم ﷺ « ألم أعهد اليكم ألا تبرحوا؟! أظننتم أنا نغل ١؟ فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرطبي، وابن اسحاق.

وذكر بعض المفسرين أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيب دينهم وآلهتهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فنزلت هذه الآية. (١)

تلك سبعة أقوال ذكرها الامام ابن الجوزي - رحمه الله - في سبب نزول هذه الآية.

وأما الآخرون، فهم أيضا يحومون حولها ولا يعدونها الا قليلا.

والجدير بالذكر أن جميعهم وقفوا منها نفس الموقف الذي وقفه الامام ابن الجوزي منها حيث انهم يذكرونها جميعا أو يذكرون بعضها بدون أن يقوموها أو يرجعوا بعضها على بعض.

ولا يدل ذلك الا على أنهم لم يذكروها عن رضا وقناعة وانما ذكروها لأنهم لم يطلعوا على خير منها. ولو اطلعوا عليه لأقبلوا اليه ولم يميلوا الى ما مالوا اليه.

إذا فضعف هذه الأقوال لايحتاج منا الى نقاش، وأى نقاش فيما لايتلام مع نظم الآية وسياقها ولا يتلام مع جوها وطبيعتها، بل يبدد شملها ويقطعها عما بين يديها وما خلفها؟

فليست مهمتنا الآن أن نعكف على تلك الأقوال لنبين ضعفها ونكشف عوارها وانما الذى يهمنا أن ننقب عن تأويل آخر يتسم بالقوة والوجاهة وينسجم مع نظم الآية وسياقها وجوها وطبيعتها. ولكن قبل أن نبدأ مسيرنا للتنقيب عنه لابد لنا أن نتحقق معنى كلمة الغلول، فقد وهم الناس فى معناه، ولعل هذا الوهم هو الذى لم يدعهم يصلون اليه.

تحقيق معنى الغلول:

نرى علماء اللغة شبه متواطئين على تفسير (الغلول) بالخيانة أو بالخيانة فى المغنم والفئ خاصة. (١)

والأمر عند أئمة التفسير أيضا لا يختلف عما رأيناه عند علماء اللغة، فهم أيضا يفسرون الغلول بالخيانة أو بالخيانة فى الفئ والمغنم خاصة.

وكم نتعجب حين نرى هذا الوضع ونرى هذا التواطؤ منهم على قصر الغلول على معنى الخيانة، ثم نرى العرب لم يقصروه عليه بل استعملوه بمعنى أوسع منه.

فمن ذلك ما قاله زهير وهو يمدح الحارث بن ورقاء ، الذى أغار على بني عبدالله بن غطفان وأخذ اهل زهير وراعيها يسارا، ثم رد يسارا اليه.

أبلغ لديك بني الصيداء كلهم أن يسارا أتانا غير مغلول

ولا مهان ولكن عندذى كرم وفى حبال وفى غير مجهول (٢)

أى أتانا يسار من غير أن يهان أو يراد به سوء، فإنه كان عند كريم وفى معروف بالكرم والوفاء فشمله باكرامه وحاطه بنصحه ومودته.

ومن ذلك أيضا ما قاله عبيد الراعى فى قصيدته الشهيرة التى يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من ظلم السعاة، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان:

وأتوا دواهي، لو علمت، وغولا

ان السعاة عصوصوك يوم أمرتهم

عـاد، يريد خيانة وغـولا

كتبوا لدهيم من العداء لمسرف

(١) انظر، مثلا، الصحاح للجوهري : مادة (غلّ)، والقاموس المحيط، والمفردات للراغب: كتاب الفين.

(٢) ديوان زهير: ص/ ٥٥

نخرا لخليقة لو أحطت بعلمه

لتركت منه طائفا مفصولا

أخذوا العريف فقطعوا حينومه

بالأصحية قائما مغلولا (١)

موضع الشاهد هنا قوله : (يريد خيانة وغلولا) فقد عطف الشاعر (غلولا) على (خيانة) وهو يدل على أن هناك فارقا بينهما، حيث أن العطف يدل على المغايرة. فالذين فسروا الغلول بالخيانة لم يتحروا الدقة في تفسيره. ولا وجه له إلا أن يقال: أنه تفسير تقريبي وليس حقيقيا.

ثم إذا قمنا الجو الذي قيلت فيه هذه الأشعار علمنا أنه لم يرد بالغلول هنا إلا ذلك التصرف الجائر الذي يكون بدافع الغل بمعنى الحقد والضغينة. فالغل والغلول بينهما صلة ماسة، وليس الغلول إلا ما يمارسه الإنسان بدافع الغل. وهو خلاف النصح والمودة. وأما ما قاله أبو عبيد من أن الغلول في المغنم خاصة ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد (٢) فهو لا يخلو من ضعف. ولقد استدل عليه بما لا يدل عليه.

تأويل الآية:

إذا فيكون معنى الآية: ليس لنبي أن يكون غالا لقومه غيرنا صرح لهم.

ولقد ذهب سماحة الشيخ أمين أحسن في تأويلها إلى ما يقارب هذا المعنى، حيث قال:

«هذا تنزيه ساحة النبي ﷺ من تلك التهمة التي وجهها المنافقون إليه بعد هزيمة أحد. (٣) وأشاعوها بين المسلمين وروجوها لكي يتفروها عنه.

وتفصيلها أننا ائتمنا هذا الرجل ووكلنا إليه أمورنا وحكمناه في خيرنا وشرنا فإذا به يستغل هذه الثقة استغلالا سيئا، ويهدر أموالنا وأرواحنا لكي يصل إلى ما تمنيه به نفسه وتتطلع إليه.

لقد أشرنا عليه بأن نكافح العدو محتمين بالمدينة ولكنه لم يقم لرأينا وزنا وخرج باخواننا ليفترسهم أعداءنا، هذا، ورب الكعبة، تغريب بالقوم ومكر بهم واساءة اليهم!

وهذه التهمة تشير إليها الآيات التي مضت معنا وسيأتى بيانها فيما يلي كذلك.

فأبطلها القرآن بأنها تهمة كاذبة باطلة، فإن النبي ليس من شأنه أن يغدر بأمتة ويتخلى عن نصيحهم ومودتهم ويتصرف تصرفا يتنافى مع مصلحتهم. إنه لا يخطو خطوة إلا باذن الله، ولا يعمل عملا إلا ويريد به وجه الله. انه لا يغيب عن باله أن كل غلول سيسأل عنه المرء أمام الله. وسيعاقب عليه عقابا وفاقا. ان من اتبع رضوان الله لا يجعل كمن باء بسخط من الله. انه لا بد أن يختلف مصيرهم وتختلف درجاتهم كما اختلفت أعمالهم. فالله بصير بما يعمله العاملون وما يقتضيه المقترون. (٤)

(١) جمهرة أشعار العرب: ٩٣٩/٣

(٢) انظر الصحاح للجوهري: مادة (غل)

(٣) ان فكرة هزيمة المسلمين في أحد فكرة باطلة خاطئة وهي لا تلبث أن تنهزم أمام جيش الأعداء القاطعة. ولقد بينا ذلك فيما مضى بما فيه كفاية باذن الله.

(٤) تفسير تدبر قرآن ٢١١/٢

وسيزداد الأمر وضوحاً حين نلتبس وجوه المناسبة في تلك الآيات.

تأويل: ﴿أولاً أصابتكم مصيبة﴾ (الآية):

وما أشكل على الناس وتحيروا في أمره قوله تعالى:

﴿أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم، ان الله على كل شئ قدير.﴾

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله:

« يعنى تعالى ذكره بذلك أو حين أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة وهى القتل الذى قتلوا منهم يوم أحد والجرحى الذين جرحوا منهم بأحد وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفراً قد أصبتم مثليها يقول قد أصبتم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مثلى هذه المصيبة التى أصابوهم منكم وهى المصيبة التى أصابها المسلمون من المشركين ببدر وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين قلتم أنى هذا ومن أين أصابنا هذا الذى أصابنا ونحن مسلمون وهم مشركون وفيما نبى الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء وعدونا أهل كفر بالله وشرك . » (١)

هذا ما ذكره الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله . والجدير بالذكر أنه ادعى الاجماع عليه حيث قال بعد ما ذكر هذا التأويل:

« ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله قل هو من عند أنفسكم بعد اجماع جميعهم على أن تأويل سائر الآية على ما قلنا في ذلك من التأويل . » (٢)

بينما الباحث اذا تأمل فيه استبعد أن يتعقد الاجماع على مثله وتردد في قبوله من عدة وجوه، وهى كما يلى:

١- ان تأويل قوله تعالى: ﴿قد أصبتم مثليها﴾ الى ما حصل في غزوة بدر من قتل المشركين وأسروهم لا يخلو من تكلف وليس هناك قرينة تدل عليه.

٢- ان الذين قتلوا المشركين وأسروهم في غزوة بدر كانوا من صفوة المؤمنين، ولم يؤثر عنهم أبداً أنهم قالوا عند أى مصيبة أصابتهم: (أنى هذا؟) فهذا قول يوحى بالهلع والجزع وضعف الايمان وقلة الصبر ولا يتصور صدوره الا ممن كان على مثل هذا الوضع. ومن يكون أولئك غير أهل النفاق؟

٣- ان السياق سياق لوم وتعنيف وتقريع فليكن تأويل ﴿قد أصبتم مثليها﴾ بحيث يتلام مع هذا السياق. نعم ، كون مصيبة عدوهم مثلى مصيبتهم قديهون الخطب ويورث السلوة، ولكنه مع ذلك ليس من الضرورة بحيث يوجب الملام والتقريع اذا لم يتسل المرء ولم يتعز بهذا الوضع.

هذه أمور تجعل الباحث يتردد في قبول ما ذهب اليه الامام ابن جرير وغيره من أئمة التفسير، وتلح عليه بأن يبحث عن تأويل آخر يناسب المقام ويتلاءم مع السياق، ويكون سليما من تلك الاشكالات.

فماذا يكون ذلك التأويل؟

ان التأمل في هذه الآية وما حولها يوحى إلينا أن الخطاب فيها موجّه الى أهل النفاق الذين قد لعبوا دورهم في افساد أمر المؤمنين، وجلبوا عليهم المصائب والمحن، ثم لما أصابتهم نعمة منها ضجوا وصاحوا: ﴿أنى هذا؟﴾

ف قيل لهم: أنتم الذين صنعتم كذا وكذا مما جلب على اخوانكم ما جلب ولما أصابتكم مصيبة- وكنتم أنتم السبب فيها، وقد أصبتم اخوانكم مثلها أي أضعافها. قلتم من أين هذا؟ إنما هو من عند أنفسكم وبشؤم صنيعكم.

وما يسرنا أن من جلة المفسرين رحمهم الله من أشار الى مثل هذا التأويل، فيقول مثلا العلامة الألوسي- رحمه الله:-

«أو أفعلتم ما فعلتم من الفشل والتنازع أو الخروج من المدينة والالحاح على النبي ﷺ ولما أصابتكم غائلة ذلك قلتم ﴿أنى هذا؟﴾ وهذا على تقدير توجيه الإنكار لا استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها.» (١)

ويقول العلامة أبو السعود - رحمه الله :-

«أو أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الإنكار الى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها.» (٢)

ويقول الامام الأخفش - رحمه الله :-

«فهذه الألف ألف الاستفهام دخلت على واو العطف، كأنه قال: صنعتم كذا وكذا ولما أصابتكم، ثم أدخل على الواو ألف الاستفهام» (٣)

وسيزداد الأمر وضوحا حين نتحدث عن نظم تلك الآيات، ونبين مناسبتها فيما بينها.

تأويل الآية (١٦٧)

وما أشكل على الناس والتبس عليهم أمره قوله تعالى :

﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبغناكم﴾

(١) روح المعاني: ١١٥/٤

(٢) تفسير أبي السعود: ٤٤٢/١

(٣) معاني القرآن للأخفش: ٢٢٠/١

فيتلخص لنا من كلام ابن جرير مثلاً أن هذه الآية تشتمل على قصتين مختلفتين، فأول الآية وهو قوله تعالى: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ يتصل بما حدث فى أثناء المعركة، وبقية الآية تتصل بما حدث قبل نشوبها حين كان النبی ﷺ وأصحابه في طريقهم الى أحد. (١)

كما يتلخص لنا من كلام ابن عطية أن الآية كلها تتصل بقصة واحدة وهي قصة انخزال عبدالله بن أبى وأصحابه ورجوعهم الى المدينة. (٢)

فأما اتصال هذه الآية بقصة عبدالله بن أبى وأصحابه فنحن لانسكن اليه من ناحيتين.

الأولى: أنه كان من كلام عبدالله بن أبى، لما هم بالانخزال:

(عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له. سيعلم ما ندرى. علام تقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس.) (٣)

والروايات كلها تذكر كلامه هذا بهذا النص أو بما يشبهه ويقاربه.

فان صح أنه قال حينئذ هذا الكلام، والقرائن كلها تجزم بأنه قال، فكيف نقبل أنه قال فى نفس اللحظة كلاماً آخر لا ينسجم مع هذا الكلام ويختلف منه اختلافاً واضحاً فى لونه وطبيعته وإيحائاته وهو ما تذكره الآية: ﴿قاتلوا لئلا تعلم قاتلاً لا تتبعناكم﴾ فالأول - كما لا يخفى - كلام عدو مجاهر مكاشر بينما الثانى كلام صديق مراوغ مخادع، وشتان بينهما، وهيهات وهيهات أن تجمعهما مناسبة واحدة.

إذا فكلا الكلامين يرتبطان بمناسبتين مختلفتين ولكنه التبس الأمر على الرواة، فذكروهما بمناسبة واحدة.

والناحية الثانية: أن السياق لا يقبل اتصال الآية بما حدث قبل التقاء الجمعين فانها انما جاءت لتبين حكمة ما أصاب المسلمين فى ذلك اليوم، لا لتفصل ما حدث قبله.

إذا فالامام ابن جرير كان أقرب للصواب اذ ربط أول الآية بما حدث فى ذلك اليوم، الا أنه لم يثبت على هذا الموقف، بل ربط بقيتها بقصة عبدالله بن أبى، وياحجداً لو أنه ثبت على موقفه ذلك ولم يعدل عنه ما لم يكن هناك صارف يصرفه عنه.

فالذى يظهر لنا بعد التأمل فى نظم الآية وسياقها هو أن هذا الحوار انما جرى بين المؤمنين والمنافقين فى أثناء المعركة.

وبيانه أن المؤمنين لما أفاقوا مما كانوا فيه-بعد ما أنزل الله عليهم النعاس أمنة منه- والتفوا حول نبيهم ﷺ كروا على المشركين كرة رجل واحد وحاولوا جهدهم ليتداركوا من الأمر ما فاتهم، وقد

(١) انظر تفسير الطبرى : ١١٠/٤ - ١١١

(٢) المحرر الوجيز : ٢٩٠/٣

(٣) السيرة الحلبية: ٤٩٤/٢، وسيرة النبی لابن هشام: ٥٨٤/٣

بيننا ذلك فيما مضى وفصلناه، إلا أن المنافقين تجنبوا الحرب وقعدوا عنها فانهم قد قضوا مهمتهم من تخذيل المسلمين وتثبيط همهم وكانوا مطمئنين أن الأمر لن يعود الى نصابه ولن يصلح من أمر النبي ﷺ وأصحابه ما فسد.

فلما قال لهم المؤمنون يحثونهم ويحرضونهم على القتال- وهم يظنون أنهم منهم - «تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو اذهبوا»، و «أو» هنا للترقى على حد قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» (١) فيكون معناه: تعالوا قاتلوا المشركين. وليس القتال هو آخر الأمر، بل ادفعوهم واتمعوهم واستأصلوا شأفتهم.

فلما قال لهم المؤمنون ذلك، ردوا عليهم بقولهم: «لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ»

وكانو يقصدون بكلامهم هذا أننا في حيرة عمياء ، لا ندري كيف نقاتلهم بعد ما سيطروا على الموقف سيطرة كاملة، وبعد ما أمسكوا بأزمة الأحداث بأيديهم. ولو كان بإمكاننا الآن أن نقاتلهم لاتبعناكم واستجبنا لدعوتكم، ولكن الأمر لم يعد يحتمل القتال!

فلم يكن جوابهم هذا رفضا لدعوة المؤمنين فقط، بل كان في ذات الوقت تخذيلًا لهم وتثبيطًا لهمهمهم وتثبيطًا لهم بما كانوا يرجونه من النصر، وإن كان يوهم بظاھرهم أنهم لم يقصروا شيئًا ولم يقعدوا عن القتال إلا لعجزهم عنه واليه يشير قوله تعالى:

«هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَقْوَاهِمَ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ. الَّذِينَ قَالُوا لَا خَافُوكُمْ لَوْ أَخَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبَ قَادِرَةٍ وَأَعَنَ أَنْفُسَكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.»

وعلى هذا فالآية كلها تتصل بما جرى في أثناء الحرب وتفصل أن ما أصاب المسلمين فيها كيف كان اختبارًا لهم، وتمييزًا بين المؤمنين منهم والمنافقين:

«فَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا.»

ثم الذي قلناه لا يدل عليه نظم الآية وسياقها فحسب، بل يدل عليه أسلوبها كذلك.

وبيانه أن الله تعالى قال هنا: «لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ» فكان يقتضى ذلك أن يقال بعده «لِيَعْلَمَ الْمُنَافِقِينَ» حتى يتم التشابه والجناح بين الجملتين ، ولكن النص عدل عنه وجاء بالجملتين الثانية على غير هذا الوجه، فقال: «لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا» فما هو السر في هذا الفرق؟

لقد حاول صاحب تفسير المنار أن يبيط اللثام عن هذا السر فقال:

«ولم يقل (المنافقين) كما قال (المؤمنين) لأن النفاق لم يكن صفة ثابتة لهم كشبوت إيمان المؤمنين

فإن منهم من تاب بعد ذلك وصدق في إيمانه.» (٢)

(١) سور الصافات: ١٤٧

(٢) مختصر تفسير المنار: ٤٣٤/١

ولكن قوله - رحمه الله - لا يخلو من اشكال، وهو أنه ان كان الأمر كما قال فلما ذا وردت كلمة (النافقين) فى الآيات التي نزلت قبل هذه الآية، مثل قوله تعالى فى سورة العنكبوت وهى سورة مكية:

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ (١)

أو قوله تعالى فى سورة الأنفال- وهى من السور التي نزلت قبل سورة آل عمران:-

﴿إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله

عزيز حكيم﴾ (٢)

إذا فالأمر على غير ما أشار اليه.

والذي يظهر لنا فى هذا الموضوع هو أن السياق أراد أن ينبّه هنا على ما جدّ وحدث يومئذ من مظاهر النفاق فذكرهم بصيغة تدل على حدوث نفاقهم وتبرّزهم للناس وكأنهم يزاولونه فى ساعتهم تلك: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ثم فصل ذلك النفاق الذي ظهر منهم: ﴿وقيل لهم تعالوا ... الخ﴾

وأما المؤمنون فلم يذكرهم بصيغة تدل على الحدوث لأنه لم يكن القصد هنا إبراز مواقفهم التي تدل على حدوث إيمانهم، فكان أولى أن يذكروا بصيغة تدل على رسوخهم فيه: ﴿وليعلم المؤمنون﴾.

تأويل الآيتين (١٧٢-١٧٣):

وأيضاً بما التبس على الناس أمره قوله تعالى:

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

فللناس فى تأويل هاتين الآيتين ثلاثة مواقف فمنهم من أوّل الاثنتين الى غزوة حمراء الأسد (٣) ومنهم من أوّل الأولى الى غزوة حمراء الأسد والأخرى الى غزوة بدر الصغرى (٤) ومنهم من أوّل الاثنتين الى غزوة بدر الصغرى (٥).

تلك ثلاثة مواقف، ولا رابع لها.

وحين يراها الباحث ويتأمل فيها، يسائل نفسه:

(١) سورة العنكبوت: ١١

(٢) سورة الأنفال: ٤٩

(٣) انظر تفسير الطبري: ١١٦/٤-١١٨

(٤) انظر الكشف للزمخشري: ١/٤٨.

(٥) انظر معالم التنزيل بهامش تفسير الحازن ١/٣٧٨-٣٧٩

الحديث، قبل الآيتين، كان يدور حول غزوة أحد وأحداثها، فما الذي يمنعنا من أن نؤولهما - كأخواتهما - الى غزوة أحد وأحداثها؟

وهل هناك اشكال اذا قلنا: انهما تعرضان أمامنا مشهدا جديدا من مشاهد تلك الغزوة نفسها، وهو مشهد يقابل ذلك المشهد الذي مر معنا فى قوله تعالى: ﴿اذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم...﴾

فان كان هناك ناس يصعدون ولا يلون على أحد والرسول يدعوهم فى أخراهم. فقد كان بازائهم ناس آخرون قد استجابوا لدعوة الرسول أروع استجابة ولم يكادوا يسمعون نداءه ﷺ حتى طاروا اليه على ما بهم من قروح وجروح، وعلى رغم تخذيل المنافقين وتشبيطهم، حتى اجتمعوا حوله وفدوه بأنفسهم وأرواحهم. وسجلوا فى تلك الساعة الحاسمة بطولات لا يكاد ينساها الزمان على مامر عليها من قرون وقرون! ولا يكاد التاريخ يقابلها بأمثالها الا نأ سجلوه هم واخوانهم بأيديهم!

ويمكن أن يستأنس لذلك بما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: نزلت هذه الآية فينا ثمانية عشر رجلا ﴿الذين استجابوا لله والرسول.. الآية﴾ (١)

فهذا العدد الذي ذكره ابن مسعود - رضى الله عنه - لا يمكن تأويله الا الى ما ذكرناه والا فالذين شهدوا غزوة حمراء الأسد أو غزوة بدر الصغرى كانوا أضعاف هذا العدد.

ويبدو أنه - رضى الله عنه - يعنى بهذا العدد تلك الصفوة المختارة الذين ثبتهم الله وربط على قلوبهم ووقاهم عدوى الفشل والاصعاد فى حين اضطراب أمر المسلمين وتعكر الجو عليهم. فهم ظلوا على صمودهم واستقامتهم وكانوا أول من استجاب لدعوة الرسول - عليه السلام - حين دعاهم. ثم لما أنزل الله عليهم النعاس أفاق المصعدون وانتبهوا وتذكروا ثم أسرعوا الى رسولهم والتفوا حوله، ثم كان من شأنهم ما ذكرناه.

وبالجمله فالتأمل فى نظم الآيات وسياقها يكشف لنا أن هاتين الآيتين تتصلان اتصالا أوكيا بغزوة أحد وأحداثها.

والاستجابة هى الاستجابة التى ظهرت فى تلك الغزوة نفسها.

والمراد بالتشبيط والتخذيل اللذين تذكرهما الآية الثانية هو ما كان يفعله المنافقون الذين صحبوا المؤمنين من أول أمرهم، وقد بينا فيما مضى كيف أنهم لعبوا دورهم المشتم فى تشبيط المؤمنين وتخذيلهم فى أثناء الغزوة.

ويمكن أن تستأنس هنا بما قاله أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قيل له يوم أحد ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأنزل الله هذه الآية. (٢)

(١) الدر المنثور: ٢٨٧/٢

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٣٠/١

ثم هذا التأويل لا يمنعنا، إذا أردنا أن نقول: ان الآيتين تشملان بعموم ألفاظهما ما حدث فى كل من غزوة حمراء الأسد أو غزوة بدر الصغرى.

قد يقال هنا، اذا كانت الآيتان ناظرتين الى غزوة أحد وأحداثها وكانتا متصلان بها اتصالاً أوكياً فما ذا نقول اذاً فيما يتلوها من قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ قد مس الناس فيها محنة وبلاء ومسهم فيها قرح وجرح، ولم يعودوا منها بشئ يعتبر نعمة وفضلاً؟ فلنعلم أن المراد بالنعمة والفضل هنا هو هو فى قوله تعالى فى ذكر الشهداء:

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾

وأما قوله تعالى: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ فليس المراد به أنهم لم يؤذهم أحد كما قيل، فالقرآن لا سعى الأذى فى سبيل الله سوءاً وإنما يسميها الحسن، حيث قال تعالى:

﴿قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنين ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا فتربصوا انا معكم مترصدون﴾ (١)

وإنما المراد به - فيما نرى - أنهم أدوا واجبهم أحسن أداء، وقضوا ما عليهم من غير تفريط ولا تقصير، حتى لم يثنهم عنه تجريح ولا تشبیط.

فالذي أدى واجبه وقضى ما عليه يعتبر بعيداً من السوء والذي فرط فيه وقصر، أو تهيب من أدائه وتأخر يعتبر من سوء السوء.

والعرب ماكانت تعزب عنهم هذه النكتة، كمايدل عليه قول قطرب بن الفجاءة المازنى حيث يقول:

لايركبن أحد الى الاحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

فلقد أرانى للرماح درينة من عن يمينى مرة وأما مى

حتى خضبت بما تحدر من دمي أكناف سرجى أو عنان لجامى

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الاقدام (٢)

فقلوه: (ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب) على رغم ما تحدر من دمه حتى خضب أكناف سرجه وعنان لجامه! لايعبر الاعن المعنى الذي اخترناه فى تأويل الآية

فهؤلاء المؤمنون لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله وهذا الذي جعلهم ينقلبون بنعمة وفضل منه، ولو كانوا قد مسهم السوء لكانت النتيجة على العكس من ذلك.

وعلى هذا فقلوه تعالى: ﴿لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله﴾ مدح لهؤلاء المؤمنين واشادة بحسن قيامهم بالواجب.

(١) سورة التوبة: ٥٢

(٢) الحماسة لأبى تمام: ٨٧/١، رقم القصيدة (٢٠).

والجدير بالانتباه أن السياق لم يذكر هذه الزيادة - وهي : «لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله» - في شأن الشهداء كما ذكرها في شأن هؤلاء المؤمنين، واقتصروا هناك على ذكر امتيشارهم بنعمة من الله وفضل، وذلك لأنهم بذلوا مهجهم في سبيل الله وأدروا واجبهم أداء لا يدانيه أي أداء. وبذلك استغنوا عن أي مدح وأية اشادة، ولم يبق لهم إلا أن يتقبلوا في نعمة الله وفضله، ويتوجروا بكرامته وحسن عطائه.

تأويل الآية (١٧٩).

وأیضا مما أشكل على الناس والتبس عليهم أمره قوله تعالى:

«ما كان الله ليعذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فأمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم.»

فيقول - مثلاً - الامام ابن عطية - رحمه الله - في تأويله :

« واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: «ما كان الله ليعذر» فقال مجاهد وابن جريج وابن اسحاق وغيرهم : الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالنافقين مشكلا أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكنهم ميز بعضهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أحد من الأفعال والأقوال، وقال قتادة والسدي: الخطاب للكفار، والمعنى: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالايان والهجرة، وقال السدي وغيره: قال الكفار في بعض جدلهم: أنت يا محمد تزعم في الرجل منا أنه من أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن أخبرنا بمن يؤمن منا ومن يبقى على كفره، فنزلت الآية، فقيل لهم: لا بد من التمييز - وما كان الله ليطالعكم على الغيب- فيمن يؤمن ولا فيمن يبقى كافرا ولكن هذا رسول مجتبي فأمنوا به. فان آمنتم لحجوتكم وكان لكم أجر وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول، فقولهم في تأويل قوله تعالى: «وما كان الله ليطالعكم على الغيب» انه في أمر - أحد - أي ما كان الله ليطالعكم على أنكم تهزمون، فكنتم تكونون عن هذا. وأيضا فما كان ليطالعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسمية لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الوطن، وحتى - في قوله «حتى يميز» غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانته حتى يميز، قال الزجاج وغيره : روي أن بعض الكفار قال: لم لا يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية. (١)

وأضاف الامام الشوكاني - رحمه الله - الى هذه الأقوال قولاً آخر فقال:

«وقيل : الخطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين من في الأصلاب والأرحام، أي : ما كان الله ليعذر

أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم» (١)

تلك عيون الأقاويل التي ذكرت لنا فى تأويل هذه الآية. وهى تكفيها لادراك ما واجهه الناس من حيرة وكلال فى تأويلها.

ويطول بنا الحديث ان أردنا أن نتناول كلا من تلك الأقاويل بالبحث والنقاش الا أننا سنذكرها نقاطا يمكن أن تعتبر عيارا لها، ويمكن أن تعرض عليها فيعرف ما فيها من قوة أو ضعف. وهى كما يلي:

١- اذا أمكن حمل الآية محملا يربطها بما حولها فهو أولى وأفضل حتما من أن نقول انه كلام مستأنف، ولا صلة له بما قبله ولا بما بعده.

٢- الآيات قبل هذه الآية فى ذكر المنافقين. وهذه فى سياقتها فكونها بأن تكون فيهم أشبه منها بأن تكون فى غيرهم. هكذا قال الامام ابن جرير - رحمه الله - (٢) وهى لفظة هامة لا بد أن ننتبه لها.

٣- هذه الآية - كأخواتها - نزلت بعد غزوة أحد. وتلك الغزوة قد هتكت أستار المنافقين وكشفتهم للناس كشفا كما ينص عليه قوله تعالى فى هذه الفترة نفسها: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا.... الآية﴾

الا أن ميز الخبيث من الطيب لم يحصل بعد الى انقضاء تلك المعركة والى نزول تلك الآية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه - أى: على ما أنتم عليه الآن- حتى يميز الخبيث من الطيب﴾.

وهذا يدل على أن كشف المنافقين شئ، وميزهم من المؤمنين شئ آخر.

٤- القرآن دائما يعلّق الميز بالخبيث فيقول: حتى يميز الخبيث من الطيب، ولا يقول: حتى يميز الطيب من الخبيث. كما نرى فى هذه الآية التي نتحدث عنها الآن، وكما نرى فى آية سورة الأنفال وهى قوله تعالى:

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم. أولئك هم الخاسرون.﴾ (٣)

ومنه ما جاء فى سورة يس حيث قال تعالى:

﴿وإما تاتوا اليوم أيها المجرمون.﴾ (٤)

(١) فتح القدير: ٤٠٤/١

(٢) تفسير الطبري: ١٢٥/٤

(٣) الأنفال: ٣٧

(٤) يس: ٥٩

ومنه ماورد في حديث النبی ﷺ حيث قال:

(من ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها).

إذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة ثم تأملنا في تلك الأمثلة بجوها وسياقها علمنا أن الميز لا يعنى كشف الشئ وفرزه وعزله عن غيره فحسب، بل يتضمن معه معنى المحق والسحق والابعاد والاهلاك، فاذا قيل: «حتى يميز الخبيث من الطيب» يكون معناه: حتى يحق الخبيث ويزيله بعد ابانته من الطيب وافرازه عنه.

تلك أربع نقاط يمكن أن نعرض عليها تلك الأقاويل ونعرف ما فيها من خلل وضعف.

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية؟

والذي يظهر لنا في تأويلها - بعد التأمل في سياقها - هو أنها جاءت تعزية وتسلية للمؤمنين على ما جلبه عليهم المنافقون في تلك الغزوة من شر وبلاء. فقول لهم: ما يمكن أيها المؤمنون أن يذركم ربكم - وهو شديد الرأفة بكم - على هذه الحال التي أنتم عليها الآن، حيث انكم تعانون من مكر هؤلاء المنافقين وكيدهم، فسيمحهم الله ويلحقهم بمصيرهم، بعد ما انكشف أمرهم وأسفر خبيثهم. ثم يجيب السياق على سؤال قد يختلج في صدورهم، وهو: إذا كانت رأفة الله بهم لا تتقبل أن تذرهم على ما هم عليه، فلماذا لم يطلعهم مسبقا على ما كان يخفيه المنافقون من الغش والكيد لهم، حتى يكونوا منهم على حذر وحتى لا يلاقوا ما لاقوه من عناء وعنت بسببهم؟ فقال: «وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء» أى: ليس من سنة الله أن يطلع العباد على ما تشتمل عليه الصدور وتنطوى عليه الجوانح، بل يجتبي من رسله من يشاء. وذلك الرسول هو الذي يكون سببا لاكتشاف الناس، حيث أن المؤمنين المتقين يلازمونه في السراء والضراء، وأما المنافقون فهم لا يلبثون أن ينقشعوا عند الضراء.

ثم يهيب بهم السياق أن لا يجزعوا مما أصابهم وأن يظلوا مستمسكين بالآيمان والتقوى حتى ينالوا ما أعد لهم من حسن المثوبة وعظيم الأجر:

«فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم»

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينهما:

وبعد ما انتهينا من دراسة ما أشكل علينا من تلك الآيات نعود إليها مرة أخرى لنرى مناسبتها لما قبلها وفيما بينهما.

لقد مر معنا في أواخر الفقرة السابقة قوله تعالى: «وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية. يقولون هل لنا من الأمر من شئ. قل إن الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا»

وهذا القول- اذا تأملنا فيه - يبين لنا أمرين:

١- ان النبي ﷺ وقف من تلك الطائفة - على الرغم من فشلهم وقعودهم - موقف اللطف واللين. وهذا اللطف واللين هو الذي جرأهم على أن يأتوا اليه ويقولوا له: «هل لنا من الأمر من شيء؟» وكانوا يقصدون بقولهم - فيما نرى - أن النبي ﷺ استبد بالأمر ولم يقبل منهم رأيهم في البقاء في المدينة، وهذا الاستبداد بالرأى هو الذى جلب عليهم ما جلب ولو قبل منهم رأيهم لما صار المسلمون الى ما صاروا اليه.

٢- ان قولهم: «هل لنا من الأمر من شيء؟» أو قولهم: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا؟» كان يشى - فيما يشى به - باستماعهم الى المنافقين وتأثرهم بما يوحون اليهم، فانهم بقوله هذا كانوا يضاهئون قولهم: «لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا».

فجاء السياق ينبههم في هذه الفقرة أن يحذروا هؤلاء المنافقين ولا ينخدعوا بمعسول كلامهم ولا يحسبوا أنهم حين يقولون لهم: «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» فانهم يقولونه بدافع النصيح والمودة أو بباعث من الحزن والشجا على موتهم أو قتلهم، وانما يقولون ذلك لينكأوا قروحهم ويلدروا الملح على جروحهم، ثم يشبطوا همهم ويفلوا عزائمهم ويزيفوا بهم عن مغفرة الله ورحمته الى سخطه وغضبه، فان أعرضوا عنهم ولم يستمعوا لحديثهم يكن ذلك حسرة في قلوبهم وهم أنفسهم يكتون بنارهم ويموتون بغيظهم.

وأما الغزو أو الضرب في الأرض فلا صلة لهما بالموت والحياة، فان الموت والحياة بيد الله وهو الذي يحكم لمن يشاء بما يشاء «والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير» هذه ناحية. ومن ناحية أخرى فان القتل في سبيل الله أو الموت فيها لا يزيد المرء الا سعادة ولا ينيله الا مغفرة ورحمة. إذا فلماذا يتأخر المرء عن احراز تلك السعادة ولما ذا يتردد في نيل تلك المغفرة والرحمة؟ فالمغفرة والرحمة - ولاشك- خير مما يجمعون:

«ولئن قتلتم في سبيل الله أو متتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون.»
ومن ناحية أخرى، فان الموت والقتل كليهما يؤديان الى مكان واحد، اذا فلماذا يخاف المرء من القتل؟ ولماذا يركن الى أن يموت على الفراش موت البعير؟
«ولئن مت أو قتلتم لالى الله تحشرون.»

وهكذا يستمر السياق في تحذير المؤمنين من أعدائهم المنافقين ويستمر في توعيتهم وترشيدهم، ثم ينصرف الى النبي ﷺ بسرعة عجيبة مذهشة.

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك .. الآية»

فما هو السر في هذا الانصراف السريع العجيب؟

لقد علمنا أننا - عليه الصلاة والسلام - قد عامل هؤلاء المؤمنين بالعطف واللين على الرغم

من جبنهم وفشلهم وعلى الرغم من قعودهم عن نصرته والاستجابة لدعوته.

ولم يكن ذلك الا لأنه - عليه الصلاة والسلام - قد جبل على العطف واللين والا فذنبهم كان أشد وافظع وكان حقيقا بأن يترك على قلبه الكريم آثارا من الحزن والأسى. وبالتالي كان الموقف يقتضى أن يتبع ذلك ما يسح عن قلبه ذلك الأسى. ويسكب عليه برد العزاء.

الا أنه كان من مقتضى الموقف كذلك أن يعاجل هؤلاء القاعدون بالتنبيه والتوجيه والترشيد بدون تأجيل ولا تأخير.

فجمع السياق بين المقصدين بأن تناول القاعدين أولا بما يلزمهم ثم انتقل الى تعزيتهم - عليه السلام - وتسليتهم بأسلوب يتدارك هذا التأخير فقال:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾

فهذه (الفاء) تطوي تلك المسافة كلها، التي تحول بين الموقف وبين تلك التعزية، وتربطها بمتعلقها بسرعة عجيبة مذهشة.

وكم نهتز لروعة هذا الانتقال وبراعته حين نضع في اعتبارنا تلك الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى:

﴿ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾

فقد جعل السياق من هذه (الرحمة) التي تذكرها هذه الآية معبرة لطيفة للانتقال الى (رحمة) أخرى تتضمن له - عليه السلام - عزاء وسلوى حيث قال تعالى:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾

أي: كان من خالص رحمة الله عليك أيها النبي، أنه جعلك لنا لهم فانك لو غلظت عليهم وقسوت لكانوا قد انقضوا من حولك. وهذا أمر لم تكن لترضى به أبدا. فانه لا أقر لعينك من أن يستقيموا على الحق. فطالما أنك لنت لهم بخالص رحمة الله عليك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر.

ولقد أشكل على الناس قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وتحيروا في حكمة هذا الأمر في هذا السياق (١).

ومنشأ الحيرة أنهم لم ينعموا النظر في جو هذا الأمر وسياقه.

والذى يظهر لنا بعد التأمل فيه هو أنه جاء تكميلا لمعنى العفو، فإنه لا يتم العفو عنهم الا اذا عادت العلاقات معهم كما كانت قبل حدوث هذا التقصير، فأمر - عليه السلام - بأن يستغفر لهم الآن كما كان يستغفرهم سابقا، ويشاورهم الآن كما كان يشاورهم سابقا.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمته فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾

(١) انظر - مثلا - الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٠ / ٤

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - فى تأويله:

« وأما قوله : فاذا عزمتم فتوكل على الله فانه يعنى فاذا صح عزمك بتثبيتنا اياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك و دنيائك فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتى من أمورك وتدع وتحاول أو تزاوَل على ريك فثق به فى كل ذلك وارض بقضائه فى جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، فان الله يحب المتوكلين وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه. » (١)

وعلى هذا فيكون هذا القول ردا لتلك الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم، حيث قالوا: «هل لنا من الأمر من شئ؟» وقالوا: «لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا» ويكون اقرارا لما فعله - عليه السلام - حيث خالف رأيهم ، بعد ما ظهر له الحق، وخرج الى أحد متوكلا على الله . ولم يعبأ بخلاف من خالفه فى ذلك.

ويكون تبيننا لمعنى «وشاورهم فى الأمر» فان الأمر بمشاورتهم فى الأمر لا يعنى أن يكون - عليه السلام - ملزما برأيهم حتى يسخطوا عليه ويرموه بالاستبداد بالرأى اذا لم ينزل عند رأيهم، وحتى يحملوه مسئولية العواقب كلها، على رغم كونها نتيجة محضة لسوء تصرفهم هم، كما فعلوه فى هذه الغزوة.

وهم من الأوهام الشائعة:

وهنا نود أن ننبه الى وهم من الأوهام الشائعة فى الناس وهو أن النبى ﷺ كان يرى ما يراه عبدالله بن أبى وأصحابه من المكث فى المدينة، وانما خرج - عليه السلام - الى أحد بعد ما اشتد الحاح أصحابه عليه .

فهذا أمر لا يقبله الا من ذهل عن سياق الآيات، والا فالآيات تذهب بنا الى غير هذا القول، وتوحى الينا بأنه - عليه السلام - لم يخرج الى أحد الا بعد ما اجتمع عليه رأيه ورأى جلة أصحابه. وانما الضعفاء والمنافقون هم الذين كانوا يرون المكث فى داخل المدينة حتى يكونوا فى أمن ودعة وحتى لا يفاجأوا بما يكرهونه من سوء وأذى.

هذا الذى يظهر لنا من هذه الآية التى نتحدث عنها الآن من قوله تعالى: «فاذا عزمتم فتوكل على الله» وهذا الذى يظهر لنا من قول ضعفاء المؤمنين: «هل لنا من الأمر من شئ؟» ويظهر من قولهم: «لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا» ويظهر من قوله تعالى: «وما كان لنبى أن يغفل .. الآية» كما سنبينه.

وما يسرنا أن سماعة الأستاذ أمين أحسن ممن نسبنا الى هذا الرأى حيث يقول:

«تذكرنا كتب السيرة والتاريخ أنه - عليه السلام - كان يرى - مع من يرى -

(١) تفسير الطبري: ١/٤.

أن يتحصن بالمدينة ويكافح العدو من داخلها إلا أن المتحمسين من أصحابه ألحوا عليه واستكروه على الخروج. وهذه حكاية ليس لها سند من الواقع.

فالواقع أنه - عليه السلام - لما طرح الموضوع أمام الجماهير احتفظ برأيه الخاص، حتى يبدى كل ذي رأى رأيه بدون تحفظ ولا تردد.

وكان القصد منه أن يبلى أخبار الناس ويبلى همهم، حتى يكون على بيّنة من معنويات الجيش ومشاعرهم قبل أن يقحمهم في المعركة.

فتعصب عبدالله بن أبي وأصحابه للبقاء في المدينة والتحصن بها وجنح جلة أصحابه للخروج منها.

فلما تأكد لديه - عليه السلام - ما عليه أصحابه من قوة وتحمس أو ضعف وتقاعس دخل بيته ثم خرج بعد ما لبس لأمنته وتقلد سلاحه.

وكان هذا إيذاناً بأن رأى هو رأى الخروج إلى العدو. فخيّل إلى بعض أصحابه - ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتورعهم - أنه عليه السلام ربما جنح لهذا الرأي لشدة تحمسهم والحاحهم عليه. فاعتذروا لذلك وأرادوا أن يسحبوا رأيهم ويكلوا الأمر إليه - عليه السلام -

فقال - عليه السلام - : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمنته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.) (١)

أى لن ننشئ عن هذا الرأي بعد ما عزمنا عليه .

فلما رأى عبدالله بن أبي وأصحابه أنه لم يقبل رأيهم انخزلوا وارتدوا على أعقابهم خاسرين. ولا يغيب عن بالنا أنه - عليه السلام - كان من عادته، كلما أراد أن يخرج بهم إلى غزوة ذات خطر، أن يستكشف رأى أصحابه ويستطلع ما عندهم بمختلف الأساليب.

ولقد فعل كذلك بمناسبة بدر. وتلك المناسبة قال رئيس من رؤوسه الأنصار كلمة رائعة لا زالت - ولا تزال - ترن في أذن الدهر. (٢)

هذا ما يراه ساحة الأستاذ أمين أحسن في هذا الموضوع. ولا شك أنه تحليل أدق وأروع مما نجده عند الآخرين، وأقرب لسياق الآيات وأوفق لطبيعة الموقف مما تذكره كتب السيرة والتاريخ.

والمقام لا يسمح لنا بأن نطيل الوقوف هنا أكثر مما فعلنا، فنرجع إلى حديثنا السابق فنقول:

بعد ما انتهى السياق من توجيه النبي ﷺ إلى التوكل على الله بعد انعقاد العزم على شيء، أقبل إلى الناس يعلمهم سر الغلب واللازمة فقال:

(١) زاد المعاد: ٣/٩٩٣

(٢) تدبر قرآن: ٢/٩٠٩

﴿ان ينصرکم اللہ فلا غالب لکم وان یخذلکم فمن ذا الذی ینصرکم من بعده وعلى اللہ فلیتوکل المؤمنون﴾

أی: لیس النصر مرهونا بما ترونه من الرأى حتى تتعصّبوا له وترجعوا الأحداث كلها الى أنه لم یقبل منکم رأيکم، فالنصر یأتى من عنداللہ، ولا سبیل اليه الا أن تواکبوا النبی وتساندوه فیما انعقد عزمه علیه متوکلین على اللہ. وأما اذا اعتمدتم على رأيکم فرأيکم لا ینیلکم النصر ان حبسه اللہ عنکم وخذلکم وعدوکم.

الفرق بین الأسلوبین:

ومما یجدر بالذكر أن الناس لم ینتبهوا للفرق بین أسلوبی الجملتين، وهما:

وقوله تعالى: ﴿ان ینصرکم اللہ فلا غالب لکم﴾

وقوله تعالى: ﴿وان یخذلکم فمن ذا الذی ینصرکم من بعده﴾

ومن هنا لم یفرقوا بین مدلولیهما واولوہما تأویلا واحدا. فیقول - مثلا - الامام الزمخشري - رحمه اللہ -:

﴿ان ینصرکم اللہ﴾ كما نصرکم يوم بدر فلا أحد یغلبکم ﴿وان یخذلکم﴾ كما خذلکم يوم أحد

﴿فمن ذا الذی ینصرکم﴾ فهذا تنبيه على أن الأمرکله للہ وعلى وجوب التوکل علیه ونحوه:

﴿ما یفتح اللہ للناس من رحمة فلا ممسک لها وما یمسک فلا مرسل له من بعده﴾. (١)

ویقول الامام أبوحیان - رحمه اللہ -:

« هذا التفات اذ هو خروج من غيبة الى الخطاب، ولما أمره بمشاورتهم وبالتوکل علیه أوضح أن

ما صدر من النصر أو الخذلان انما هو راجع لما یشاء وانه متى نصرکم لا یمکن أن یغلبکم أحد ومتى

خذلکم فلا نا صر لکم. فما وقع لکم من النصر أو حل بکم من الخذلان کیومی بدر وأحد

فبمشیتته» (٢)

فترى هذین الامامین لم ینتبهوا للفرق بین دلالة الأسلوبین وأولا الجملتين وكأنهما وردتا على

أسلوب واحد.

فهل الأمر هکذا؟ وان کان هکذا فلما ذا فرق السياق بین الجملتين؟ ولما ذا لم یوردهما على

أسلوب واحد فیقول:

﴿ان ینصرکم اللہ فلا غالب لکم، وان یخذلکم فلا ناصر لکم﴾ على نحو قوله تعالى: ﴿ما

یفتح اللہ للناس من رحمة فلا ممسک لها وما یمسک فلا مرسل له من بعده﴾ (٣)

فان کان السياق قد فرق بین الجملتين ولم یوردهما على أسلوب واحد كما أورد الآية التي

(١) الکشاف: ٤٧٨/١

(٢) البحرالمحیط: ١٠٠/٣

(٣) سورة فاطر: ٢

أشرنا إليها من سورة فاطر، فلا بد أن يكون هناك فرق بين دلالة الأسلوبين فما هو ذلك الفرق؟
الفرق بين دلالتهما - فيما نرى - هو أن الأسلوب الأول يحتمل تحقق الشرط وما يترتب عليه
فى الوقت الحاضر والغابر كما يحتمل تحققه فى المستقبل. بخلاف الثانى، فإنه يفيد عدم تحققه فى
الوقت الحاضر مع امكان تحققه فى المستقبل.

أما دلالة الأول فهى مفهومة معلومة ولا اشكال فيها.

وأما دلالة الثانى، فيمكن استيعابها اذا وضعنا فى اعتبارنا قوله تعالى فى سورة الملك: «أمن
هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا فى غرور. أمن هذا الذى يرزقكم
ان أمسك رزقه، بل لجوا فى عتو ونفور.» (١)

فهاتان الآيتان شبيهتان فى أسلوبهما بالشرط الثانى من الآية وهو قوله تعالى: «وان يخذلكم
فمن ذا الذى ينصركم من بعده»

وعلى هذا يسعنا أن نقيس الموضعين أحدهما على الآخر، ونقول: كما أن الخذلان وامسك الرزق
لم يتحققا الى الوقت الذى نزلت فيه الآيتان من سورة الملك مع امكان تحققهما فيما بعد اذا
اقتضى الأمر.

كذلك لم يتحقق الخذلان الى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآية من سورة آل عمران مع امكان تحققه
فيما بعد اذا اقتضى الأمر.

ومن هنا لا يستقيم القول بأن المؤمنين نصرُوا يوم بدر وخذلوا يوم أحد، فأسلوب الآية يأبى هذا
القول. وما ذهب اليه من ذهب الا لغفلته عن هذا الأسلوب.

وبعد هذا الايضاح نعود الى حديثنا، فنقول:

ان هذه الآية تذكر المؤمنين سرّ الغلب والهزيمة وتبين لهم أن مفتاح النصر هو التوكل على الله
فعليهم أن يتوكلوا عليه ويكونوا طوعاً لنبيه ورحمته لاشارته اذا دعاهم الى أمر قد عزم عليه.

ثم يخرج الكلام بمناسبة السياق الى تفنيد شبهة كان يزرعها المنافقون فى قلوب هؤلاء المؤمنين
حيث كانوا يقولون لهم: «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» والتى قد بدأت تحيك فى صدورهم
وتختلج فى نفوسهم كما يظهر من قولهم: «هل لنا من الأمر من شىء» وقولهم: «لو كان لنا من الأمر
شىء ما قتلنا ههنا».

وبين تلك الشبهة - وقد مضت الإشارة إليها فى أثناء حديثنا عن معنى الغلول - أن المنافقين
حاولوا جهدهم - بعدما اضطرب حبل المؤمنين فى غزوة أحد - أن يقلبوا فى روعهم أن هذا الرجل
الذى ائتمناه على أمرنا وملكتنا نواصينا، ليس لنا ناصحاً. ولو كان لنا ناصحاً لما رمانا فى هذه الورطة
ولما استبدّ برأيه دون رأينا مع أن الصواب كان معنا، وكانت المصلحة فيما رأينا.

فتناول السياق هنا تلك الشبهة بالردّ والتفنيد فان التوكل على الله والمصارعة الى طاعة النبي ﷺ شبه مستحيل مادامت هذه الشبهة تختلج في النفوس، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْمَصِيرِ. هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْمَلُونَ.﴾

ولقد أسلفنا تأويل هذه الآيات في أثناء حديثنا عن معنى الغلول.

الا أن الجدير بالذكر أن هذه الآيات لا تفيد نزاهة ساحة النبي عن الغلول فحسب بل تفيد بنظمها وأسلوبها أن الذين يتهمون النبي به، هم الذين يملأ أهابهم الغلّ، ويسود تصرفاتهم الغلول، وسينكشف ذلك يوم القيامة، ثم يساقون الى جهنم. فان الله لن يجعل من اتبع رضوانه - وهم النبي وأصحابه - كمن باء بسخط منه - وهم المنافقون وأصحابهم - وستختلف درجاتهم عند الله. والله بصير بما يعملون. فسيوفيههم جزاءهم غير منقوص!

وبعد هذا الوعيد وهذا التهديد على تشكيك المؤمنين في نصح النبي ومودته وأمانته جاء السياق بحجة ساطعة قاطعة على نزاهة ساحته - صلوات الله عليه - عن الغلول وكونه نصحا محضا ونعمة مهداة للمؤمنين، حيث قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.﴾

فالرسول من أنفسهم وهم يعرفونه من أول يومه ويعرفون صدقه وأمانته ونصحه وحنانه كما يعرفون أبناءهم!

ثم هذا الرسول جاء اليهم بأكبر نعمة تحت أديم السماء وهي آيات الله! ثم ليس له هم ولا وسن الا أن يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وقد علمهم فعلا وطهرهم وزكاهم بعد ما كانوا يتيهون في ضلال ليس بعده ضلال!

فان لم يوجد النصح والأمانة عند من يتمتع بهذه المزايا فعند من يوجد اذا؟! وبعد اقامة الحجّة على نصح النبي وأمانته، يتوجّه السياق الى المنافقين ليهدم أساسهم الذي بنوا عليه هذه الفتنة:

﴿أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبَإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ. يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ. الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبًا فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.﴾

أى: هذه المصيبة التي أصابتكم لم تصيبكم بصنيع هذا النبي، حتى تتهموه فى رأيه وصنيعه، وتشكوا فى نصحه وأمانته، ثم ترموه بالغلول وإرادة السوء، فإن الذى أصابكم، إنما أصابكم من عند أنفسكم. فأنتم الذين جلبتم على أنفسكم هذه المصيبة وجلبتم على اخوانكم أضعاف ما جلبتم على أنفسكم! فالمسئولية كلها تقع على أعناقكم وليس على عنق هذا النبي!

ثم الذى أصابكم إنما أصابكم باذن الله حتى يهتك ستركم ويكشف مساوئكم ويظهر للناس ما تنطوى عليه جوانحك من الكفر والتناق. فقد تهتك ستركم وانكشفت مساوئكم وظهر للناس كفركم ونفاقكم!

ثم بمناسبة قول المنافقين لـ «خوارجهم» الذين قتلوا فى تلك المعركة: «لو أطاعونا ما قتلوا» يستطرد السياق الى ذكر هؤلاء المقتولين.

وما أنهم كانوا يذكرونهم بأسلوب يشعر كأنهم كانوا سفهاء لم يصيخوا الى نصحتهم ومشورتهم ولو أنهم أصاخوا الى نصحتهم ومشورتهم لما لقوا هذا المصير البائس الذى يرثي له!

ولم يكونوا يقصدون بتلك الكلمات أن يشاركوا أهليهم فى حزنهم وتفجعهم، بل كانوا يقصدون بها أن يوجعهم ويذكوا فى نفوسهم نار الأسى والحزن على تعاسة حظهم ثم يثبطوا همهم ويقولوا عزائهم.

فالقرآن يقابل أسلوبهم هذا بأسلوب يبطل كيدهم، ويعطى القضية لونا آخر. انه يذكرهم بأسلوب يدخل البشر والسعادة فى نفوس أهليهم وذويهم، ويجعلهم يشعرون كأنهم هم المحظوظون المجددون دون الآخرين:

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين»
فيا لها من صورة وضيئة رفيعة عالية شفيفة مشرقة..

وهل يشعر المرء، اذا نظر فى هذه الصورة الشفيفة المشرقة أنهم ماتوا وهلكوا؟!

كلا! أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وفى نعمته وفضله يتقلبون وينعمون!

وما يزيد فى روعة هذه الصورة أنها تضمّ الى هؤلاء الشهداء اخوانهم الذين كانوا معهم فى حربهم ونضالهم، وقد أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن عقيدتهم، الا أنهم لم يقدّر لهم أن يشربوا كأس الشهادة معهم، فهى تضمّم اليهم وتلحقهم بهم فى أجرهم:

«ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.»

فكأن هذه الآيات تفتح نافذة من نوافذ الجنة ينظر منها المجاهدون الى مقاعدهم منها، وهم يمشون على الأرض!

وأيم الله تلك ميزة لم يذكرها النص لأحد غير هؤلاء الأبطال الأبرار ، الذين سجلوا ذكريات برهم
وطولتهم فى صفحات (أحد)!

ويستمر السياق فى مدح المجاهدين ويستمر فى الاشادة بحسن بلاتهم فى الحرب:
«الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا
أجرعظيم. الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا
حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ،
والله ذو فضل عظيم.»

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الآيات بما فيه كفاية باذن الله.
والجدير بالذكر أن هذه الآيات (١٦٩-١٧٤) انما جاءت اعتراضا بمناسبة قول المنافقين لآخوانهم
الذين قتلوا فى الحرب: «لو أطاعونا ما قتلوا» وقد سبق أن أشرنا اليه.

ثم يعود الكلام الى ما كان فيه من ذكر المنافقين . الا أن هذا العود على البدء أو هذه النقلة من
موضوع الى موضوع تتم بسرعة وبطريقة عجيبة لا ينتبه لها القارئ الا بعد حين.
فقد جعل السياق قوله تعالى: «الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»
مناسبة طيبة للتخلص من هذا الموضوع الى موضوع آخر، فقال: «انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
فلاتخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين»

ثم يستمر الكلام فى توعدهم بما ينتظرهم من عذاب عظيم وعذاب أليم وعذاب مهين، حيث قال تعالى:
«ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر انهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم
حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم. ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم
عذاب أليم. ولا يحسنن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم
عذاب مهين»

وهذه الآيات تصور لنا ضخامة الجهد الذى بذله المنافقون فى إلحاق الضرر بالمؤمنين فى غزوة أحد.
ثم يقبل السياق الى المؤمنين يثبتهم على الايمان والتقوى ويطأ من منهم أن الله لن يذرهم هكذا
يعانون من المنافقين بل سيمحقهم ويريحهم منهم:

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله
ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا
فلكم أجر عظيم»

ولقد أشبعنا الكلام على هذه الآية فيما مضى.



هذا ما تيسر لنا فى تأويل تلك الآيات وفى بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها ، فنحمده تعالى
ونشكره على حسن توفيقه، ثم نستأنف المسير، والله الهادى الى سواء السبيل.

نظم الآيات (١٨٠ - ١٨٩)

قال تعالى:

هولاً يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم،
سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السموات والأرض، والله بما تعملون خبير. لقد
سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق
ونقول نذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا ان
الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبلى
بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين. فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا
بالبينات والزبر والكتاب المنير. كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن
زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور. لتبلون فى أموالكم و
أنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وان تصبروا
وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور. واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا
تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون. لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا
ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم. والله ملك
السموات والأرض، والله على كل شئ قدير.



قبل أن نأخذ فى البحث عن نظام تلك الآيات نود أن تكون لنا وقفة عند الآيتين الأوليين منها،
فانهما ما زالتا بحاجة الى بحث ودراسة جادة على كثرة ما درسهما الدارسون وبحسبهما الباحثون.

تأويل الآية (١٨٠):

أما الآية الأولى فيقول ابن عطية - رحمه الله - فى تأويلها:

« وقال السدى وجماعة من المتأولين: الآية نزلت فى البخل بالمال والاتفاق فى سبيل الله وأداء
الزكاة المفروضة ونحو ذلك، وقال ابن عباس: الآية انما نزلت فى أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم
الله من أمر محمد ﷺ وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير. » (١)

فللعلماء فى تأويل الآية مذهبان، كما ذكره ابن عطية وكما ذكره غيره من أعلام التفسير.

الا أن المذهب الأول هو الذي حظى بالقبول والتأييد عند أكثرهم كما يظهر من كلامهم. وإن كان المذهب الثاني هو المذهب الراجح من عدة وجوه، وهى كما يلى:

١- المذهب الثاني أشد مناسبة لسياق الآية وجوهاً الذي وردت فيه، بخلاف الأول، فانه يجعل الآية غريبة فى جاراتها مقطوعة عن سياقها. وسنبين ذلك فيما بعد، حين نتحدث عن نظم الآيات ومناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

٢- كل كلمة وكل صيغة تكون لها طبيعة خاصة ودلالة خاصة والقرآن يراعيها بمنتهى الدقة ، فلنحرص نحن أيضا على مراعاتها فى تأويل آياته واستنباط معانيه.

فلنضع فى بالنا، اذا أردنا تأويل هذه الآية، أن القرآن لا يقول: ﴿ولا يحسبن﴾ الا فى سياق أعداء الله، كما نرى فى هاتين الآيتين، ما عدا هذه الآية التي نتحدث عنها:

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم﴾ (١)

﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون﴾ (٢)

٣- لقد تناول القرآن موضوع كنز المال وعدم انفاقه فى سبيل الله فى موضع آخر، فذكر هناك عقوبة غير هذه العقوبة التى ذكرت فى هذه الآية، حيث قال تعالى:

﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (٣)

فالذى يظهر بعد التأمل فى الموضعين أن آية سورة التوبة تذكر جزاء البخل بالمال بينما سورة آل عمران تذكر جزاء البخل بالعلم. فالذى يبخل بالعلم يطوق ما بخل به يوم القيامة. ولقد صرح به النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حديث رواه أبوهريرة حيث قال:

قال رسول الله ﷺ: (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة). (٤)

فالروايات التى تربط هذه الآية بموضوع منع الزكاة وعدم انفاق المال فى سبيل الله، لاتخلو أن تكون نتيجة لقلّة ضبط الرواة. والصحيح المحفوظ فى هذا الباب هو الذى رواه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - حيث قال:

قال رسول الله ﷺ: (أمن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها، الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما ردت

(١) سورة آل عمران: ١٧٨

(٢) سورة الأنفال: ٥٩

(٣) سورة التوبة: ٣٤-٣٥

(٤) مختصر سنن أبى داود: باب كراهية منع العلم: ٢٥١/٥، رقم الحديث (٣٥١١).

أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله: اما الى الجنة واما الى النار. (١)

٤- هذه السورة لم تتناول موضع الاتفاق فى سبيل الله البتة، فتكون الآية مفاجأة محضة اذا ذهبنا فى تأويلها المذهب الأول وقلنا انها جاءت تتوعد الذين يمنعون الزكاة ويكتزون المال. بخلاف ما اذا أوكناها الى بخل أهل الكتاب بالعلم الذى انتموا عليه وكلفوا بتبيينه للناس، فانه ينسجم تماما مع الجو العام الذى يسود هذه السورة. وبالجملة فتلك أربعة أسباب رئيسة تجعلنا نغيل فى تأويل الآية الى المذهب الثانى دون الأول، وان كان فى الناس من يرى الأول هو الأوجه والأفضل.



تأويل الآية (١٨١):

وأما الآية الثانية وهى قوله تعالى:

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء...﴾

فيقول ابن عطية - رحمه الله - فى تأويلها:

«وقوله تعالى: ﴿لقد سمع الله﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب فنحاص اليهودى، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث أبابكر الصديق - رضى الله عنه - الى بيت المدراس ليُدعوهم، فوجد فيه جماعة من اليهود قد اجتمعوا على فنحاص - وهو حبرهم - فقال أبوبكر له: يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة، فقال فنحاص، والله يا أبابكر ما بنا الى الله من حاجة وانه الينا لفقير، وانا عنه لأغنياء، ولو كان غنيا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، فى كلام طويل غضب أبوبكر منه، فرفع يده فلطم وجه فنحاص وسبه وهم بقتله، ثم منعه من ذلك أن رسول الله ﷺ قال له: لا تحدث شيئا حتى تنصرف الى، ثم ذهب فنحاص الى النبي ﷺ فشكا فعل أبى بكر، فقال النبي ﷺ لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟ قال يارسول الله، إنه قال قولا عظيما فلم أملك نفسي أن صنعت ما صنعت فنزلت الآية فى ذلك. وقال قتادة: نزلت الآية فى حبي بن أخطب، وذلك أنه لما نزلت ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ قال: يستقرضنا ربنا؟ انما يستقرض الفقير الغنى. وقال الحسن بن أبى الحسن ومعمار وقاتادة أيضا وغيرهم: لما نزلت ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ الآية قالت اليهود: انما يستقرض الفقير من الغنى، ولا محالة ان هذا قول صدر أولا عن فنحاص وحبي وأشباههما من الأخبار ثم تقاولها اليهود، وهو قول يغلط به الأتباع ومن لاعلم عنده بمقاصد الكلام،

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب اثم مانع الزكاة: ٢/ ٦٨.

وهذا تحريف اليهود التأويل على نحو ما صنعوا فى توراتهم. وقوله تعالى: ﴿قول الذين قالوا﴾ دال على أنهم جماعة. (١)

هذا ما يراه ابن عطية فى تأويل هذه الآية.

وهذا هو التأويل المفضل عند كثير من الناس.

الا أن الباحث اذا تأمل فى هذا التأويل وجد نفسه أمام عدة اشكالات، منها:

١- ان قوله تعالى: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً﴾ خطاب عام يتوجه الى الجميع ، وليس خطاباً موجّهاً الى اليهود خاصة. بل ليس موجّهاً اليهم أصلاً، وإنما هو موجّه الى جماعة المؤمنين. فكيف يصحّ اذا أن يقول اليهود رداً عليه: (يستقرضنا ربنا؟) كما هو مذكور فى الرواية.

٢- ثم ما وجه قولهم فى هذا التأويل: ﴿أن الله فقير ونحن أغنياء﴾؟ فقد كان المفروض أن يقولوا- اذا كانوا قائلين لامحالة -: ﴿أن الله فقير وعباده أغنياء﴾ أما التركيز على (نحن) وحصر الغنى على أنفسهم دون سائر الناس، فهذا أمر لا يظهر له وجه فى هذا التأويل.

٣- ان قولهم هذا قد عطف عليه قتلهم الأنبياء حيث قال تعالى: ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ فان كان العطف من شأنه المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه فما هى المناسبة بين هذين الأمرين؟

وأما القول بأنهما فى العظم أخوان (كما قاله الزمخشري (٢) والألوسى (٣)) أو ما شابه ذلك فلا يخفى ما فيه من تكلف.

٤- تذكر الروايات أنهم قالوا ما قالوه بمرأى ومسمع من المؤمنين، ولكن الآية تشير بلفظها وعبارتها أنهم ما قالوه الا فى مجالسهم الخاصة وهم يحسبون أنه سيبقى سراً فيما بينهم، فقد جاءت الآية على نط قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله، والله يسمع تحاوركما، ان الله سميع بصير.﴾ (٤)

وقد روى عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: (الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة الى النبی ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت، لا أسمع ما تقول فأنزل الله: ﴿قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها﴾ الى آخر الآية. (٥)

فتبين لنا هذه الآية بسبب نزولها طبيعة قوله تعالى: ﴿قد سمع الله﴾ أو ﴿لقد سمع الله﴾

(١) المحرر الوجيز: ٣٠٦/٣-٣٠٧

(٢) الكشف: ٤٧٤/١

(٣) روح المعانى: ١٤١/٤

(٤) سورة المجادلة: ١

(٥) مسند الإمام أحمد: ٤٦/٦

حيث ان القرآن لا يستعمله الا فى سياق النجوى حيث يظن القائل أن كلامه لا يسمعه الا من يناجيه.
بل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ أكد في هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ لدخول
لام القسم عليه.

وهذا التأكيد يفيد أن اليهود قالوا قولتهم هذه فى مجالسهم الخاصة المغلقة وهم واثقون تماما
أنها لن تجاوز الأذان التى تستمع اليهم. ففرعوا بأن الله قد سمعها سماعا قطعيا لا مجال فيه للشك،
فهى ستكتب عنده وهم سيذوقون وبالها.
وبالجملة فهذه أربعة أمور تصرفنا عن المذهب الذى ذهب اليه الامام ابن عطية وغيره فى تأويل
هذه الآية.

تأويل الآية بنظائرها

إذا فما هو تأويلها؟

ان تأويلها سيكون واضحا شاخصا باذن الله اذا وضعنا فى اعتبارنا أشباهها ونظائرها فى كتاب الله.
فقد جاءت مثل هذه الآية فى سورة فاطر حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ. وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١)

وكذلك قوله تعالى فى سورة محمد:

﴿هَآ أَنْتُمْ هَآءُ تَدْعُونَ لِنَبْتَقِىَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. فَمَنْكُم مِّنْ يَّبْخُلُ وَمَنْ يَّبْخُلُ فَاِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ
نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنَى وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (٢)

فمن الواضح المعلوم أن (الفقراء) فى الموضعين لم يستعمل بمعنى قليل المال أو خفيف ذات اليد
كما أن (الغنى) لم يستعمل بمعنى صاحب الثراء الواسع، و المال المملود.

فالقرآن نفسه يبين لنا معنى الغنى والفقر وبين قصده من ذكرهما حيث قال فى الموضع الأول
بعد ذكر غنى الله وذكر افتقار الناس اليه:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

وقال فى الموضع الثانى:

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

يقول الامام أبوحيان - رحمه الله - وهو يفسر آية سورة فاطر:

(١) سورة فاطر: ١٥-١٧

(٢) سورة محمد: ٣٨

« هذه آية موعظة وتذكير وأن جميع الناس محتاجون الى احسان الله تعالى وانعامه فى جميع أحوالهم لا يستغنى أحد عنه طرفة عين وهو الغنى عن العالم على الاطلاق وعرف الفقراء ليربهم شديد افتقارهم اليه اذ هم جنس الفقراء وان كان العالم بأسره مفتقرا اليه فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكر لكان المعنى أنتم من الفقراء وقول الفقراء بالغنى ووصف بالحميد دلالة على أنه جواد منعم فهو محمود على ما يسديه من النعم مستحق للحمد ولما ذكر أنه الغنى على الاطلاق ذكر ما يدل على استغنائهم عن العالم وأنه ليس بمحتاج اليهم فقال ان يشأ يذهبكم أى ان يشأ اذها بكم يذهبكم وفى هذا وعيد باهلاكهم. » (١)

ولا بأس بأن نشير هنا الى نكتة هامة تناسب المقام، ولم يشر اليها أبوحيان، وهى أن الآية تنفيذ بسياقها أن الله حين يرسل رسله الى عباده ويدعوهم الى عبادته وطاعته فانه لا يفعله عن حاجة وافتقار اليهم بل يفعل ما يفعل رافة بهم وشفقة عليهم والأ فهو غنى عنهم وقادر على اهلاكهم وقادر على انشاء قوم آخرين خير منهم، فليفيقوا من غفلتهم وليحذروا أن يصيبهم وبال كفرهم واعراضهم. فهذه الآية وأمثالها تكون من قبيل الا نذار والتحذير ولقد وجّه مثل هذا الانذار والتحذير الى أهل الكتاب فى سورتنا هذه حيث قال تعالى بعد ما أراح السترن كفرهم وكتمانهم للحق:

﴿ومن كفر فإن الله غنى عن العلمين﴾ (٢)

ولقد كان من واجب أهل الكتاب أن ينتبهوا من سكرتهم بعد هذا التحذير ولكنهم لجؤا فى عتوهم واستكبارهم.

وبلغ منهم العتو والاستكبار الى حد الاستهتار فجعلوا يسخرون من هذا التحذير فى مجالسهم وقالوا لأتباعهم وعملاتهم بكل وقاحة: «ان الله فقير ونحن أغنياء»

وكانهم كانوا يقصدون بذلك أن الله لن يستغنى عنهم وان كان يتوعدهم ويسخط عليهم، فانه لن يجد قوما يقومون مقامهم ويسدّون فراغهم. وبالتالي سيضطّر الى أن يرضيهم ويعيد اليهم شرفهم وكرامتهم - قاتلهم الله!

ولعلمهم لم يحملهم على هذا الغرور الا أن الله طول لهم وأرخى لهم حبلهم، وأبقى فيهم الرسالة والنبوة لمدة قرون على الرغم من عتوهم ونفورهم وعلى الرغم من قتلهم الأنبياء بغير حق. فزعموا أن استمرار الرسالات فيهم مع شناعة موقفهم منها ومن أصحابها لم تكن الا لخيريتهم وتفوقهم على سائر الأمم.

اذا فهى من حقهم واختصاصهم وستعاد اليهم كما كانت فيهم!!

كان هذا تفكيرهم . وهذا التفكير هو الذى حملهم على أن يجتدوا طاقاتهم لمحاربة هذه النبوة

(١) البحر المحيط: ٣٠٧/٧

(٢) سورة آل عمران: ٩٧

المباركة وحملهم على أن يصلوا ليلهم بنهارهم بمكرهم وكيدهم وعدائهم لهذه الأمة الناشئة المسلمة .
وحملهم على أن يقولوا لأتباعهم وعساكرهم بكل وقاحة وسوء أدب: «ان الله فقير ونحن أغنياء»
إذا فموقفهم هذا وقولهم هذا لم يكن الا امتدادا لموقفهم القديم من رسلهم وأنبيائهم. ومن هنا
جمعها القرآن في الوعيد والتهديد فقال: «سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا
عذاب الحريق»

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

وبعدما انتهينا من دراسة هاتين الآيتين وعرفنا صحيح تأويلهما، نرجع الى تلك المجموعة من
الآيات لنبين مناسبة لما قبلها وفيما بينها.

لقد رأينا في الفقرة السابقة كيف أثار المنافقون شبهات حول شخصية النبي ﷺ وأرادوا أن
ينفروا المسلمين منه، ويزعزعوا ثقتهم به، فاتهموه في رأيه وتدبيره واتهموه في صدقه ونصحه
وأمانته، وتأخروا عن نصرته وحمايته في ساعة العسرة والخرج وحاولوا جهمهم ليثبطوا المؤمنين
وليصرفهم عنه كما انصرفوا هم عنه ﷺ.

ثم رأينا السياق كيف تناول موقفهم هذا بالتنديد والتنفيد، وختم الحديث عنهم بأنهم
سيذوقون وبال أمرهم وسينالهم ما قدر لهم من المحق والسحق والهلاك، ثم سيسلمون لما ينتظرهم من
عذاب عظيم وعذاب أليم وعذاب مهين!

وبعد ما ينتهي السياق منهم يمرج الى أسأتذتهم وكبرائهم من أهل الكتاب، فيتوعدهم على
بشاعة موقفهم من هذه النبوة المباركة حيث كنتموا أمرها وأرخوا عليها سدول التعمية والاختفاء، وما
أحبوا أن يخرج الناس مما هم فيه من حيرة عمياء وجاهلية جهلاء:

«ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون
ما بخلوا به يوم القيامة. والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير.»

ثم ذكر ما كان يقوله اليهود لأوليائهم وأذنائهم ليثبتوهم على غيهم وضلالهم ثم يستعينوا بهم
على كتمان أمر هذه النبوة ويستعينوا بهم على تنفير الناس عنها، حيث قال تعالى:

«لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء»

وقال تعالى:

«الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى ياتينا بقربان تاكله النار»

فهذان القولان من جملة ما قالوه فيما بينهم حتى لا ينخل أحد منهم وحتى يستمر كل منهم
في ضلاله واضلاله.

أما القول الأول فقد أشبعنا الكلام عليه.

وأما الثاني فلم يكن ذلك الا استغلالا سيئًا للظاهرة التي كانت توجد عندهم ، حيث ان القران الذى تذكره الآية كان شيئًا معهودًا عندهم وكثر ذكره في صحفهم وكتبهم، وكثر حدوثه على أيدي رسلهم وأنبيائهم. (١)

فاستغله علماء اليهود لاضلال قومهم عن هذه النبوة ولايهاهمم بأنه من شروط النبوة وعلاماتها ، وقد عهد اليهم ربهم ألا يؤمنوا لرسول اذا لم يتوافر عنده هذا الشرط! مع أنه لم يكن أبدًا من تلك العلامات التى كانت تذكرها لهم كتبهم الا أن الحق قد أصمهم وأعشى أبصارهم!

وما يجدر بالانتباه أن السياق أتبع كل واحد من هذين القولين ما كان يناسبه، فأُتبع الأول ما كان يناسبه من الوعيد والتهديد حيث انه كان ينم عن صرف الغرور والتبجح والقحة وسوء الأدب في حق الله:

«سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول نوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد»
وأُتبع الثاني ما يكشف حقيقة صدقهم وتمسكهم بعهد الله:

«قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم تقتلتموهم ان كنتم صادقين»
ثم يلتفت السياق الى النبى ﷺ يسليه ويهون عليه ما يلقاه منهم من اعراض وتكذيب، فانه ليس أول حادث في تاريخهم، فهناك سلسلة طويلة من الرسل قد لقوا منهم ما يلقاه هو منهم اليوم:

«فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير»
ثم ان هذه الظاهرة التاريخية لا تحمل في غرضونها برد العزاء والسلوى فحسب بل تؤكد للمؤمنين أن من طبيعة هذا الطريق البلاء والابتلاء والمشقة والعناء، فليس أنهم قد اجتازوا الابتلاءات، وانتهى الأمر، فالمتاعب والابتلاءات ستواجههم على طول هذا الطريق ولا تنتهى الا بانتهاؤه. فليكن الصبر والتقوى هو زادهم وشعارهم فى جميع مراحل:

«للتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور»

الا أن من بلاغة القول أن السياق قبل أن يفتح أعينهم على متاعب الطريق وآلامها يبشرهم بتوفية أجورهم يوم القيامة ويبشرهم بزحزحتهم عن النار وادخالهم الجنة حتى يكون ذلك حافزا لهم ومشجعا على الصبر والتقوى، فذلك قوله تعالى:

«كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحرج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور»

(١) انظر - مثلا - قضاة ٦: ٢٠-٢١، ١٣: ١٩-٢٠، أخبار ٩: ٢٤ - ٢٥، تواريخ ٧: ١-٢.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هذه الآية تكمل العزاء والتسليّة التي كانت تتضمنها الآية السابقة.

وبعد ما ينتهي السياق من تسليّة النبي وتبشير أصحابه وينتهي من حثهم على التقوى وحثهم على الصبر على ما سيواجهونه من بلاء وعناء، يعود مرة أخرى الى أهل الكتاب ليعتقهم على نقضهم الميثاق وكتمانهم ما كلّفوا بتبيينه للناس من أمر هذه النبوة المباركة الخالدة وعلاماتها الواضحة الناطقة. ويعود اليهم ليتوعدهم على فرحهم بمحاربتها والمكر بأهلها وليونسهم بما يمتنون به أنفسهم من غير أن يقدّموا عملاً يؤهلهم له، فذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ. لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَءٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

يقول العلامة الألوسي في تأويل الآيتين:

« ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ المراد بهم اما أحبار اليهود خاصة - واليه ذهب ابن جبير - وهو المروى عن ابن عباس من طريق عكرمة، واما يشملهم وأحبار النصارى - وهو المروى عنه من طريق علقمة - وانما ذكروا بعنوان ايتاء الكتاب مبالغة في تقبيح حالهم، وقيل: رمزا الى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ جواب ميثاق لتضمنه معنى القسم، والضمير للكتاب أى باللّه لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوة محمد ﷺ وهو المقصود بالحكاية، وظاهر كلام السدى وابن جبير أن الضمير لمحمد ﷺ وان لم يصرح باسمه الشريف عليه الصلاة والسلام. »

ويقول - رحمه الله -:

« أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنهم (يفرحون) بكتمانهم صفة رسول الله ﷺ التي نطق بها كتابهم ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ بأنهم متبعون دين ابراهيم عليه السلام فعلى هذا يكون الموصول عبارة عن المذكورين سابقا، الذين أخذ ميثاقهم، وقد وضع موضع ضميرهم، وسيقت الجملة لبيان ما يستتبع أعمالهم المحكية من العذاب اثر بيان قباحتها، وفي ذلك من التسليّة أيضا ما لا يخفى. » (١)

لقد ذهب الناس في تأويل هاتين الآيتين مذاهب شتى الا أن ما ذكرناه من كلام الألوسي أقرب لسياق الآيات من غيره. وأما ما عداه من الأقوال فهو لا يعدو أن يكون من قبيل الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها، أو من قبيل انطباق تلك الآية عليها، كما هو معروف في روايات أسباب النزول.

ثم نزيد فنقول: الذي يظهر لنا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾

(١) روح المعاني: ١٤٩/٤ - ١٥١ (ب حذف واختصار).

هو أنهم يريدون أن يحمدا عند الله بما لم يفعلوه، فيريدون أن يحسبوا عنده من الأبرار وينالوا ما سيناله الأبرار مع أنهم كانوا أبعد الناس من البر، فهم لم يبرؤا بميثاقهم، بل نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنا قليلا. وستدرك روعة هذا التأويل وحسن مناسبته حين ندرس الآيات التالية باذن الله. حسن مناسبة الآيات باعتبارها تمهيدا لختام السورة:

والآن، وقد انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لنرى حسن مناسبتها باعتبارها تمهيدا لختام هذه السورة.

فالباحث حين يتأمل في هذه الآيات يقضى منها العجب حين يرى أنها تتصل بما قبلها اتصالا وثيقا - كما بيناه آنفا - ثم يرى في ذات الوقت أنها تتصل بأوائل السورة اتصالا عجيبا، وهي تنقل القارئ من الغزو المسلح الذي وقع بساحة أحد، والذي كان موضوع تلك الآيات، إلى الغزو الفكري المستمر الذي كان يعم أرجاء المدينة وما حولها، والذي كان موضوع تلك الأوائل.

ثم يتم ذلك كله ببراعة عجيبة مذهلة، حيث ان القارئ لا يروع الا انتقاله من جو إلى جو آخر. فما أشبه قوله تعالى:

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم. سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير.﴾ (١)

بقوله تعالى:

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.﴾ (٢)

وما أشبه قوله تعالى:

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء﴾ (٣)

بقوله تعالى:

﴿ان الله لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء﴾ (٤)

وما أشبه قوله تعالى:

(١) سورة آل عمران: ١٨٠

(٢) سورة آل عمران: ٧٢-٧٣

(٣) سورة آل عمران: ١٨١

(٤) سورة آل عمران: ٥

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ. لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا
بِمَالِهِمْ يَقْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.﴾ (١)
بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَإِخْلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْمِلُهُمُ اللَّهُ
وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزْكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.﴾ (٢)

ومن عجيب المناسبة أن أواخر الشطر الأول من هذه السورة - كما علمناه سابقا - تدور حول
موضوع كتمان اليهود لعلامات هذه النبوة المباركة الخالدة.

وهذه الفقرة - التي تعتبر من أواخر الشطر الثاني لهذه السورة وتعتبر تمهيدا لختمها - أيضا
تتناول نفس الموضوع وتدور حوله.

هذا ما تيسر لنا في تأويل تلك الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى
ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

(١) سورة آل عمران: ١٨٧-١٨٨

(٢) سورة آل عمران: ٧٧

نظم الآيات (١٩٠ - ٢٠٠)

قال تعالى:

﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب . الذين
يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا
باطلا سبحانه فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيت وما للظالمين من أنصار .
ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا
سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لاتخلف
الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ،
فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لآكفون عنهم سيئاتهم
ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب . لا يغرنك
تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مؤاهم جهنم ، وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم
لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار . وان
من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله
ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب . يا أيها الذين آمنوا اصبروا
وصابروا وربطوا واتقوا الله لعكم تفلحون .﴾



نقد وقفنا عند كل فقرة من فقرات هذه السورة والتي قبلها وقفنا لأبأس بها الآن هذه المجموعة
من الآيات تتطلب منا اهتماما خاصا ، لما روى عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حيث قالت :
(ان رسول الله ﷺ قال : هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربي ، فقلت يا رسول الله
انى لأحب قريبك وأحب هواك قد أذنت لك ، فقام الى قرية من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكسر من صب
الماء ثم قام يصلى . فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى
وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض فأثاه بلال
يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال له يا رسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما
تأخر . فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ، ثم قال وما لى لا أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه
الليلة : ﴿ان في خلق السموات والأرض .. الخ﴾ ثم قال : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وروى
«ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتأملها .» (١)

فتعوذ بالله أولا من أن نكون ممن قرأها ولم يتفكر فيها ، أو ممن لا كها بين فكيه ولم يتأملها .

(١) تفسير أبى السعود : ٤/١

كما نسأله تعالى أن يفتنح علينا بما تشتمل عليه من كنوز العلم والحكمة.

ثم نرجع الى ما يهمننا منها الآن، ألا وهو البحث عن نظامها فنقول:

ان الآيات السابقة كانت تتعلق بتوعد اليهود والمنافقين على سوء أدبهم في حق الله وعلى سوء موقفهم من عهوده ومواريثه، ومن رسله ورسالاته. ثم جاءت هذه الآيات لتشيد بذكر المؤمنين وحسن أدبهم في حق الله وتنوّه بحسن موقفهم من عهوده ومواريثه وحسن سيرتهم مع رسله ورسالاته. فهؤلاء المؤمنون لا تخلو حالة من حالاتهم أو لحظة من لحظاتهم الا وهم يذكرون فيها ربهم، ويتفكرون في خلقه ويستجيرون من عذابه.

بينما هؤلاء اليهود يستكبرون ويتجبرون ويريدون ليفجروا أمام الرب فيقولون بكل وقاحة وسوء أدب: ﴿ان الله فقير ونحن أغنياء!!﴾

ان هؤلاء المؤمنين استقبلوا الرسول بحرص وشوق وحفاوة بالغة. ولقد صورده القرآن تصويرا بليغا موحيا، حيث قال: ﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا الخ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال: ﴿ربنا اننا سمعنا الرسول يدعو الى الإيمان الخ﴾ ولكن السياق عدل عنه الى ما نراه.

وليس ذلك- فيما نرى - الا ليصور شدة حرصهم على الإيمان، وسرعة استجابتهم لداعى الإيمان. فان كلمة (مناديا) بمادته وصيغته وتنكيره أدلّ على هذا المعنى من كلمة (الرسول) ثم زيادة (ينادى) بعد (مناديا) تزيد من دلالته على ما يدلّ عليه، وتشخصه للسامع حتى ان السامع يشعر وكأنه يسمع دوى نداء يملأ الأجواء ويرنّ في الأذان، واذا بالناس يسارعون اليه ملبّين ومستجيبين!

فهم استجابوا لدعوة الإيمان بمجرد أن ناداهم مناد اليه!

هم استجابوا لدعوته من غير أن يسألوه الآية على ما يدعو اليه!

هكذا كانت حال هؤلاء المؤمنين الميامين، الذين آمنوا برسول الله.

ولا شك أن هذا المشهد يختلف تماما عما شهدناه في الآيات السابقة، حيث ان اليهود أبوا أن يؤمنوا برسول الله، وقالوا - افتراء على الله :-

﴿ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى ياتينا بقريان تاكله النار﴾

ثم لم يكن ذلك أول حادث في تاريخهم، فكم من رسل جاوهم بالبينات وبالذى قالوه، وجاوهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ثم كذبهم هؤلاء ولم يستحيوا من قتلهم!

ان هؤلاء المؤمنين قد علمهم ربهم في الفقرة السابقة فقال ﴿كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور﴾

فترى من حسن استجابتهم لتعليم ربهم أنهم نسوا كل ما كانوا يقاسونه من أعدائهم، وأقبلوا

اليه يسألونه أن يقيهم عذاب النار، ويحفظهم من خزي يوم القيامة، وأخذوا يتضرعون اليه أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويحشرهم مع الأبرار.

فكل هذه الأدعية الحارة الضارعة الطويلة تدور حول موضوع الآخرة ولم يكن لهذه الحياة الدنيا فيها نصيب! مع أنهم كانوا يكابدون في تلك الأيام ما يكابدونه وقد آذنتهم لسان الوحي أن المحنة التي يعانون من مرارتها ستمتد وتستمر:

﴿لتبلى في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور.﴾

هكذا كانت حال هؤلاء المؤمنين، حال كلها خشية وانابة وتضرع ولجوء الى الله، وسرعة الاستجابة لتوجيهاته وتعاليمه! كانت أجسادهم تمشى وتتحرك مع الناس، وكانت قلوبهم مع الله! وأما هؤلاء اليهود فلم يكن لهم هم ولا وسن الا هذه الحياة الدنيا، فقد انصرفوا بكل همومهم الى نعيم الدنيا ورخائها ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا!

ان هؤلاء المؤمنين كانوا يعملون ليل نهار لدين الله وقد هاجرو الأجله وأوذوا في سبيله، وقتلوا وقتلوا، ومع ذلك فهم خاشعون لله ويخافون عذابه ويبتهلون اليه بهذه الدعوات الحارة الضارعة ليجيرهم من عذاب النار ويجيرهم من خزي الآخرة.

ولاشك أن هذا المشهد يختلف تماما مما شهدناه في الفقرة السابقة حيث ان اليهود أساءوا الأدب مع الله وقتلوا رسله وأنبياءه، و وقفوا حياتهم لمحاربة دينه، ثم هم يفرحون ويمرحون ويختالون ويفخرون ويطمعون أن ينالوا عنده أجر العاملين وثواب المجاهدين!

﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم.﴾

لفتة هامة:

وما يجدر بالانتباه أن السياق لو اقتصر في استجابة دعائهم على ما يلي من قوله تعالى:

﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا كفرون عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾
لكانت فيه كفاية، ولم يكن في الاستجابة نقص.

ولكنه أسهب في ذكر هذه الاستجابة، فذكر أولا سعتها وشمولها. وكان ذلك هو الأنسب للموقف والأوفق لطبيعة الأدعية، التي كان يملأها الخوف والوجل:

﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾

ثم عدّد جلائل أعمالهم وكبار تضحياتهم، وكأنها هي مؤهلاتهم.

وطالما كانت المؤهلات معهم، فهي ستكسبهم الكرامة والوجاهة والمكانة عندالله:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

فهذه الاستجابة لاتغادر عملا من أعمال الجهاد والكفاح الا وتعمه ولا تغادر عاملا من هؤلاء العاملين المجاهدين الا وتشمله!

ولا يخفى ما يحمل لهم هذا الأسلوب من قرّة أعين، فهو ليس فى الواقع الا تنويها بشأنهم، وتطيبا لنفوسهم، واشادة بأعمالهم وتضحياتهم.

ثم قال تعالى، وفيه أيضا بيان لكرامتهم وتطيب لنفوسهم:

﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ. وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾

وعلى هذا فهذه الآية جاءت على نمط قوله تعالى فى أول السورة:

﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا أَمْنًا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١)

فذكر تلك الصفات الخمس بعد ذكر دعائهم واستغفارهم لايغنى الا تنويها بشأنهم وتطيبا لنفوسهم واشادة بسلوكهم وأوصافهم. فالأمر فى هذه الآية كمثلها فى أختها من خاتمة هذه السورة، سواء بسواء.. ولا فرق بينهما الا كالفرق بين الماء والماء أو التمر والتمر.

وهذا أسلوب من أساليب القرآن، قد غاب عن الكثيرين فلم يدركوا تلك الحكمة التي تستفاد من هذا الأسلوب ولم يدركوا السرّ فى تفصيل تلك الأعمال التي تفصلها هذه الآية.

فيقول - مثلا - صاحب الظلال -رحمه الله - وهو يبين محتويات هذه الاستجابة الالهية:

«ان أولى الأبواب هؤلاء تفكروا فى خلق السموات والأرض، وتدبروا اختلاف الليل والنهار، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح، واستجابت فطرتهم لايحاء الحق المستكنّ فيه، فاتجهوا الى ربهم بذلك الدعاء الخاشع الواجف الطويل العميق.. ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم، على دعائهم المخلص الودود.. فماذا كانت الاستجابة؟

لقد كانت قبولا للدعاء، وتوجيها الى مقومات هذا المنهج الالهى وتكاليفه فى آن:

﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم.. من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض﴾

انه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر. وليس مجرد الخشوع والارتجاف، وليس مجرد الاتجاه الى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار.. انما هو «العمل». العمل الايجابى الذى ينشأ عن هذا التلقى، وعن هذه الاستجابة، وعن هذه الحساسية المثلثة فى هذه الارتجافة. العمل الذى يعتبره الاسلام عبادة كمعبادة التفكير والتدبر، والذكر والاستغفار، والخوف من الله، والتوجه اليه بالرجاء.

مل العمل الذى يعتبره الاسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة، والذى يقبل من الجميع: ذكرانا وانا بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس. فكلهم سواء في الانسانية - بعضهم من بعض - وكلهم سواء فى الميزان..

ثم تفصيل للعمل، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة في النفس والمال، كما تتبين منه طبيعة المنهج؛ وطبيعة الأرض التى يقوم عليها، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك، وضرورة مغالبة العوائق، وتكسير الأشواك، وتهديد التربة للنبته الطيبة، والتمكين لها فى الأرض، أيا كانت التضحيات، وأيا كانت العقبات:

﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأتقن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ثوابا من عند الله. والله عنده حسن الثواب.﴾ (١)

هذا ما حرره صاحب الظلال فى تأويل هذه الآية أوفى كيفية هذه الاستجابة. ويرى صاحب هذه الكلمات المتواضعات أن كلامه هذا وإن كان فى غاية الروعة والجودة والجمال، إلا أنه لم يصادف مكانه والسياق لا يقبله، فإن السياق هنا ليس سياق التوجيه والتنبيه والترشيد، وإنما هو سياق الاشارة والا طراء والتنويه. ثم ليست هذه تمام المشكلة، فهناك أمور آخر تصرفنا عنه وتدفعنا الى الرأى الذى أشرنا اليه، وهى كما يلي:

١- لقد ذكر السياق هنا تلك الصفات أو تلك الأعمال بصيغة الماضى: ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا﴾ والمعهود فى اللغة أن صيغة الماضى تستعمل للحديث عن الواقع وللحكم على ما حدث، وأما التوجيه والترشيد فتناسبه صيغة الأمر أو صيغة المضارع.

وعلى هذا فلو كان المراد هنا التوجيه والتنبيه لكانت صياغة الكلام هكذا: ﴿فالذين يهاجرون ويخرجون من ديارهم الخ﴾ على نحو قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون.﴾ (٢)

٢- ان القرآن اذا مدح قوما بأنهم يذكرون الله أو يذكرون الله كثيرا، أو يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، أو تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، الى آخرها هنالك فإن المراد بالذكر هناك لا يكون مجرد الذكر باللسان وإنما يكون المراد به الذكر الكامل المطلوب الذى يصبغ الحياة كلها بصبغة الايمان والاحسان.

(١) فى ظلال القرآن: ١/٥٤٨-٥٤٩

(٢) سورة الصف: ١-١١

إذا فليس هناك ما يمنعنا من القول بأن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يشمل جميع تلك الصفات والأعمال التي ذكرت في آية الاستجابة، ثم فصلت تلك الصفات وكرّرت تلويها للجوّ بلون المدح والاشادة والتثويه. وقد علمنا فيما سبق أن هذه الآيات انما جاءت لتعرض حسن سيرة المؤمنين وصفاتهم بعد عرض صفات اليهود وسيرتهم البغيضة المفقوتة. فناسب ذلك أن تبرز صفات هؤلاء المؤمنين بحيث يتحقق هذا الغرض وقد تحقق والحمد لله.

وما يؤيد ذلك أن النبي ﷺ بكى بكاء شديدا حين نزلت هذه الآيات، ولما سأله بلال عن سبب بكائه، قال - عليه السلام -:

(افلا اكون عبدا شكورا!!) ثم قال: ومالي لا ابكى وقد انزل الله تعالى علىّ في هذه الليلة :

﴿ان في خلق السموات والأرض المن﴾

فكان - عليه الصلاة والسلام - يبكي بكاء على نزول هذه الآيات شكرا لربه - تبارك وتعالى - حيث أثنى على أصحابه ثناء عطرا، وأشاد بذكرهم ونوه بهم تنويه أي تنويهه

ولعمري ان النعمة اذا عظمت وجلّت فلا يعبر عن عظمتها في نفس الانسان وفرحه بها مثل الدموع الغزار التي تنحدر انحدارا ولا تنقطع

وقد كانت حاله - عليه السلام - في تلك الليلة شبيها بذلك كما تذكرها لنا الرواية.

٣- لقد مر معنا قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿فأذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (١)

ولقد أوجبت هذه النصيحة الى الأمة الناشئة المسلمة بعد ذكر بني اسرائيل وذكر تاريخهم الطويل الحافل بالكفر بآيات الله ونقض مواعيقه وقتل أنبيائه والاعراض عن شرائعه وأوامره.

فان صح ذلك - وهو صحيح - فلا جرم أنها كانت تعنى - أول ما تعنى - الاستقامة والطاعة والاستجابة الكاملة المطلقة لأوامر ربه في جميع نواحي حياتهم.

فسورة البقرة تزجى اليهم هذه النصيحة وسورة آل عمران تشهد بأنهم طبقوها في أروع صورها وأوسعها وأشملها حيث انهم أمروا بالذكر بدون تحديد ولا تفصيل فهم امتثلوا له امتثالا كاملا غير منقوص: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾

فالمراد بالذكر هنا ليس الذكر باللسان كما أنه ليس هو المراد في قوله تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾، وانما المراد به الامتثال لأوامر الله كلها ومنها الهجرة والجهاد والقتل والقتال والصبر على الأذى وما الى ذلك.

إذا فهذه الصفات أو هذه الأعمال انما ذكرت في الآية تنويها بشأن المؤمنين وتطبيبا لنفوسهم وليس المقصود بها التوجيه الى تلك الأعمال والتنبيه الى أهميتها كما قيل.

(١) سورة البقرة: ١٥٢

ويستمر السياق في تطيب نفوس المؤمنين وتبشيرهم بحسن العاقبة عند الله:
«لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن
الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، نزلا من عند الله وما عند الله
خير للأبرار.»

تحقيق معنى (التقلب):

وقبل أن نبين حسن مناسبة هذه الآيات وحسن ارتباطها بما قبلها نود أن نتحقق معنى قوله
تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) فانه سيساعدنا في التوصل الى ما نريد.

يقول الامام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية:

«قوله تعالى: «لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد» اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في اليهود، ثم في ذلك قولان.

أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال فنزلت هذه الآية، قاله ابن
عباس.

والثاني: أن النبي ﷺ أراد أن يستسلف من بعضهم شعيرا فأبى الا على رهن، فقال النبي
ﷺ: «لو أعطاني لأوفيته، اني لأمين في السماء، أمين في الأرض» فنزلت، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والقول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب، كانوا في رخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا
الجهد، وأعداء الله فيما ترون، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل.

وفي معنى «تقلبهم» ثلاثة أقوال.

أحدها: تصرفهم في التجارات، قاله ابن عباس، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج.

والثاني: تقلب ليلهم ونهارهم، وما يجرى عليهم من النعم، قاله عكرمة ومقاتل.

والثالث: تقلبهم غير مأخوذين بذنوبهم، ذكره بعض المفسرين. (١)

هذا ما قيل ويقال في تأويل هذه الآية. والباحث المتأمل يتردد في قبوله من ناحيتين.

أحدهما: أنه لا يتلاءم مع السياق الذي وردت فيه هذه الآية. فالذين هاجروا وأخرجوا من
ديارهم وأوذوا في سبيل الله وقتلوا وقتلوا، لم يفعلوا ذلك كله الا بعد ما عرفوا طبيعة هذا الطريق
وطبيعة هذا الدين.

(١) زاد المسير: ١/٥٣١-٥٣٢

هم قد عرفوا من أول يومهم أن الطريق الذي يسلكونه ليس لهم فيه الا شظف وحرمان ومتاعب وآلام ومشقات وأهوال
وأما أجرهم وثوابهم فهو عند الله.

إذا فمن المستبعد جدا أن يحيك في قلوب أمثالهم: (أن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد)

والناحية الثانية: أن الله تعالى قد استعمل لفظ (التقلب) في مواضع من القرآن الا أنه لم يستعمله في هذا المعنى الذي ذهبوا اليه في تأويل هذه الآية.

نذكر - مثلا - قوله تعالى في سورة النحل:

﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو ياتئيبهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين.﴾ (١)
وقال تعالى في سورة غافر:

﴿فما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد. كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فناخذتهم فكيف كان عقاب﴾ (٢)

فهاتان الآيتان قد استعمل فيهما لفظ (التقلب) وسباق الكلام نفسه يبين ما هو المراد به في هذين الموضعين.

فليس هناك ذكر المكاسب والتجارات وانما الذي ذكر هنا هو مكر السيئات، وتكذيب الأحزاب للرسول والرسالات واشتغالهم بالدسائس والمؤامرات وهمهم برسولهم ليأخذوه ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

إذا فالمراد بالتقلب هنا هو الجد والاجتهاد والمجى والذهاب للكيد بالحق وأهله وللمكر بهم ولاخباط جهودهم ومساعدتهم.

وشبهه ما قاله بعض الأعلام في تأويل قوله تعالى:

﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ حيث قال:

«في تقلبهم في مكرهم وحيلهم فيأخذهم قبل تمام ذلك» (٣)

(١) سورة النحل: ٤٥ - ٤٦

(٢) سورة غافر: ٤ - ٥

(٣) تفسير البحر المحيط: ٤٩٥/٥

ويقاربه ماروى عن الضحاك وابن جريج ومقاتل حيث قالوا فى تفسيره:

« فى ليلهم ونهارهم أى حالة ذهابهم ومجيئهم فيهما »^(١)

ولقد استعمل هذا اللفظ للجدة فى نشر الحق ورعايته وارساء أصله وتوطيد بنيانه كذلك، حيث قال تعالى:

«وتوكل على العزيز الرحيم. الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين. انه هو السميع العليم.»^(٢)

يقول الحسن - رحمه الله - فى تأويله:

«وتصرفك فى ذهابك ومجيئك فى أصحابك المؤمنين»^(٣)

ويقول الزمخشري - رحمه الله -:

«ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتجهدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين المصلون.»

ويقول - رحمه الله -:

«ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور الدين.»^(٤)

إذا فالقرآن يستعمل لفظ (التقلب) للتشمير عن ساق الجد، سواء كان للحق أو للباطل.

فيكون معنى الآية: لا تظن أن تقلب هؤلاء الكافرين فى البلاد وسعيهم لوقف تيار الاسلام، سيرقل مسيره، فانه سينمو ويزدهر على الرغم من معارضة الأعداء، وعلى الرغم من اخراجهم المسلمين من ديارهم، وعلى الرغم من ظلمهم واضطهادهم، وقتلهم وقتالهم.

ثم ان تقلبهم هذا لن يمتد وانما هو امهال لأجل معدود ثم هم يردون الى ما ينتظرهم من سوء المصير وعذاب السعير، وهكذا ترتبط الآية بما قبلها.

وكان من بلاغة القول أن يوجه الى هؤلاء الكفار هذا الانذار بعد ما سبقه من تبشير المؤمنين وحسن التنويه بأعمالهم، حتى يكون ذلك أطيّب لنفوسهم وأقرّ لأعينهم وأشحد معهم

(١) تفسير البحر المحيط: ٤٩٥/٥

(٢) سورة الشعراء: ٢٢٠-٢٢١

(٣) زاد المسير: ١٤٩/٦

(٤) الكشف: ١٣٢/٣

فوجه اليهم هذا الانذار بأسلوب يشويه الاعراض. وبهذا يتم المشهد وتكتمل الصورة.

ثم يعود السياق الى ما كان عليه من الحديث عن حسن مثوبة المؤمنين:

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾

ويبدو بادئ ذي بدء أن هذه الآية تكرر محض لما سبقها قبل آيتين وهو قوله تعالى: ﴿لا كفون عنهم سيئاتهم ولادخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾.

ولكن التأمل في الآيتين وسياقهما يكشف لنا أنها تزيد على الآية السابقة أمرين.

وبيانه أن الآية السابقة تقتصر على تبشير المؤمنين بادخالهم الجنات بينما هذه الآية تضيف اليه بشرى الخلود في تلك الجنات: ﴿خالدين فيها﴾

وذلك أنه لما قيل في ذكر الكفار: ﴿متاع قليل﴾ انتهز السياق هذه الفرصة وبين أن متعة الكفار ان كانت قليلة منتهية ذاهبة، فان متعة المتقين دائمة خالدة باقية.

وكان من الممكن أن تجمع البشارتان في آية واحدة، كما فعل في كثير من المواضع. الا أن البشرية اذا جاءت مناسبة تقتضيها فانها تكون أوقع في النفس وأحلى في الأذن. ثم ان افراد كل منهما بآية مستقلة كان له تأثير كبير في ايجاد جو يلائم الموقف، حيث انه عمل عمله في تلوينه بلون اللطف والنعمة والكرامة.

هذا، وهناك أمر آخر، وهو أن هذه الآية تبشر هؤلاء المؤمنين بنظمها أن دعاءهم قد استجيب وأن أسماءهم سجلت في سجل الأبرار: ﴿نزلاً من عند الله. وما عند الله خير للأبرار﴾

وقبل أن نتعدى هذه الآية الى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند كلمة (الأبرار). فقد تكررت هذه الكلمة في هذه الآيات مرتين. ولقد مر قبلها نسيبها وهي كلمة (البر) في قوله تعالى:

﴿لن ننالوا البر... الخ﴾ ولقد بينا هناك أن المراد بها هو الوفاء بعهد الله وميثاقه الذي أخذ من أهل الكتاب في شأن الكتاب وهو أنهم ليبينته للناس ولا يكتمنونه. والخطاب هناك موجه اليهم على وجه الخصوص دون غيرهم وان كانت الآية تعم - بعموم ألفاظها - كل من كان على شاكلتهم. وما لا يخفى أن كلمة الأبرار أيضاً تكررت هنا في نفس السياق.

فالرعيّل الأول من هذه الأمة يتضرعون الى ربهم أنهم سمعوا المنادى، واستجابوا لدعوته، وانضموا الى ركب الايمان، ولكنهم لا يستطيعون أن يبرؤوا بعهدهم، ويقوموا بأعباء هذه الأمانة حتى يتولاهم ربهم برعايته وحسن توقيته.

فقولهم: ﴿توقفنا مع الأبرار﴾ يوحى بشعورهم بجسامة المهمة وعظم المسئولية، مع ما يوحى من حرصهم الشديد على أن يكون محياهم ومماتهم في سبيل البر بعهدهم فلا يأتيتهم الموت الا وهم

سائرون على الدرب، قائمون على العهد.

ثم يبشرونهم باستجابة دعوتهم واحرازهم مكانة الأبرار: ﴿نَزَلَا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ ولكن بعد ما يصدقون ما عاهدوا الله عليه، فيتحملون في سبيله كل مشقة وكل بلاء وكل عناء.

هذا، وما يزيد كلامنا هذا قوة الى قوته أنه سبق هذه الآيات ذكر أهل الكتاب وذكر نقضهم ميثاقهم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١)

وتبعها الثناء على الصالحين منهم الذين أوفوا بعهدهم ولم ينقضوا ميثاقهم:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ الْيَكْمَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢)

وأما الاتفاق من أحب الأموال فلم يجر له ذكر في هذا السياق. مع أن الموقف كان يتطلب ذكره، إن كان هو الطريق الوحيد لنيل البر، أو كان هو السمة البارزة لجماعة الأبرار. وبالجملة فهذا ما يظهر لنا في حقيقة مفهوم البر والأبرار.

وبعد هذا التبشير المكرر لهؤلاء الأبرار يجيء ذكر المؤمنين من أهل الكتاب:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ الْيَكْمَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

لقد أراد الله أن تختتم خواتيم هذه السورة العظيمة بمدح هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب، وبإلها من مغفرة عظيمة نالها هؤلاء دون غيرهم!

ومن الواضح المعلوم أن الآيات السابقات المبشرات كانت تشملهم فيمن تشملهم إلا أن السياق أفردهم بالذكر هنا تنويها بشأنهم وتفخيما لأمرهم.

ولاشك أنهم كانوا أحق به وأهله، حيث إن اليهود هم الذين كانوا يقودون تلك المعارضة التي كان يعاني منها الاسلام في داخل المدينة وخارجها. فالذين آمنوا منهم كانوا يتعرضون لعدوانهم وشراساتهم أكثر من غيرهم. وكانت محنتهم أقسى وأدهى من محنة غيرهم.

ومن هنا يحسب لهم السياق حساسا خاصا ويخصهم بالتنويه والتبشير مرة أخرى بعد تبشيرهم والتنويه بهم مع غيرهم في المرة الأولى.

(١) سورة آل عمران: ١٨٧

(٢) سورة آل عمران: ١٩٩

ثم يجئ الختام الأخير لهذه الصورة:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

تأويل المصابرة:

ولقد اختلف الناس في تأويل (المصابرة) و (المرابطة) اللتين أمر بهما المؤمنون في هذه الآية. والذي يظهر لنا بعد التأمل في نظم الآية وسياقها وبعد تتبع الاستعمالات القرآنية لمثل هذه الكلمات، أن المراد بالمصابرة هو مصابرة المؤمنين فيما بينهم، ومباراتهم في الصبر على لأواء الجهاد ومشاق الطريق.

وكذلك المراد بالمرابطة هو مرابطة المسلمين فيما بينهم ومسابقتهم في الاستعداد للغزو بالاقامة في الثغور وربط الخيل فيها والترصد للعدو.

فمدلول المصابرة والمرابطة في هذه الآية شبيه بمدلول المسابقة والمسارعة في قوله تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...الآية﴾ (١)

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

وأما لو كان المراد بالمصابرة والمرابطة هنا مصابرة الكافرين ومرابطتهم، لكانت العبارة هكذا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَالْكَافِرِينَ وَرَابِطُوهُمْ الْخ﴾ بتعدي الفعلين إلى المفعول به.

فأما وقد ورد الفعلان بدون اظهار المفعول به فالمفهوم من مثل هذا الأسلوب هو ما ذكرناه.

وهذا المفهوم كما أنه يترجع من ناحية الأسلوب يترجع من ناحية نظم الآية وسياقها. وسيتبين

ذلك حين نعرف حسن موقعها وحسن مناسبتها لما قبلها.

إذا فما مناسبتها لما قبلها؟

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - وهو يعالج هذا الموضوع:

«سياق السورة حافل بذكر الصبر ويذكر التقوى.. يذكران مفردين، ويذكران مجتمعين.

وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة

والبليلة، ومن ثم تختتم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة وإلى المرابطة والتقوى، فيكون هذا أنسب

ختام.» (٣)

هذا ما قاله الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في مناسبة هذه الآية لما قبلها. وهي مناسبة وجيهة

ولاشك، فنحن نشكر للأستاذ الامام تلك الكلمة القيمة، ثم نقول:

(١) سورة الحديد: ٢١

(٢) سورة آل عمران: ١٣٣

(٣) في ظلال القرآن : ٥١/١

انه - رحمه الله - ذكر مناسبة هذه الآية لما قبلها باعتبارها خاتمة لهذه السورة، ولكن ما منا سببها للآيات التي تليها والتي تعرف بخواتيم هذه السورة؟ ان هذا سؤال مهم جدا. والتأمل فيه يفتح علينا ناحية جديدة من بلاغتها وروعته وحسن نظامها.

لقد علمنا فيما سبق أن هذه الآيات انما جاءت لتنويه بشأن تلك الثلثة المباركة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين استجابوا لدعوته فور سماعهم، ثم أسهموا في تنميتها وتعزيزها بدموعهم ودمائهم والذين أخرجوا من أجلها من أهلهم وديارهم، وفجعوا بسببها في نفوسهم ونفائسهم، ثم لم يقل ذلك كله من صبرهم وصمودهم.

جاءت هذه الآيات لتنويه بجلائل أعمالهم وعظيم تضحياتهم وجاءت لتبشرهم بجزيل الثواب الذي ينتظرهم عند ربهم.

ولقد تناولت الآيات هذا الموضوع بأسلوب مملأ نفس من يتلوها اليوم غبطة وسرورا، مع علمه بأنه ليس له نصيب منها، فكيف بمن نزلت في مدحهم هم وتبشيرهم والتنويه بشأنهم والاشادة بذكرهم وهل يسعنا أن نقيس فرحهم وسرورهم الذي فاضت به نفوسهم حين رتت في أسماعهم تلك الآيات العطرates المبشرات؟

فكان من الحكمة أن تفرغ أسماعهم تلك الوصية القوية المحكمة بعد مارتت فيها هذه الاشادة وهذه البشارة حتى لا تكون لها آثار سلبية. بل تغدو تلك الاشادة وتلك البشارة تنبيهها لهم الى عظم التبعة وضخامة المسؤولية، ثم حثا وتحريضا لهم الى مزيد من الحماس والنشاط والصمود والثبات، والبهل والتضحية ومواصلة الخطو مضاعفة الجهد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وما يجدر بالانتباه أن الأمر بالصبر والتقوى قد تكرر في هذه السورة ثلاث مرات وفي غيرها من السور عدة مرات. الا أن الأمر بالمصابرة والرابطة لم يرد الا في هذه الآية.

ولعل السبب في ذلك هو ما أشرنا اليه، من أن هذه الوصية جاءت في جو يفيض بالمدح والتنويه والاشادة والبشارة. فتناسب ذلك أن تكون تلك الوصية أيضا مكافئة لتلك الاشادة والبشارة في قوتها وجزالتها. ولا شك أن اضافة (المصابرة) و (الرابطة) الى تلك الوصية قد أكسبتها من القوة والجزالة والتوكيد ما جعلها مكافئة لتلك الاشادة والبشارة.

هذه نكتة هامة جدا. وبعد الوقوف عليها تصبح مناسبة الآية لما قبلها واضحة مثل وضع النهار. ثم هذه النكتة تساعدنا في فهم قول النبي ﷺ أيضا في شأن تلك الآيات:

﴿قِيلَ لِمَنِ قَرَأَهَا وَلِمَ يَتَفَكَّرُ فِيهَا؟﴾ أَوْ ﴿قِيلَ لِمَنِ لَکَهَا بَيْنَ فِکْهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْهَا؟﴾



هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله.

مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة:

ثم نعود إليها مرة أخرى - باعتبارها خواتيم هذه السورة - لنرى مناسبتها لأوائها.
ومما يدلّ على مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة اتحادهما في فواصل الآيات وقوافيها.
ولقد انتبه لهذه الظاهرة الأستاذ سيد قطب. ولا غرابة فيه، فهو جدير به وأهل له باعتباره فارس هذا المضمار.

يقول - رحمه الله - وهو ينبّه الى هذه الظاهرة:

«ولا بد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء - أى الدعاء الذى ورد فى هذه الخواتيم - من جانب الجمال الفنى والتناسق فى الأداء..»

ان كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة لآياتها - والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر، فهى ليست حرفا متحدا، ولكنها ايقاع متشابه - مثل : «بصير. حكيم. مبین. مريب»..
«الألباب. الأبصار. النار. قرار».. «خفيا. شقيا. شرقيا. شيئا».. الخ

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير. والثانية فى مواضع الدعاء. والثالثة فى مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى. ولم تبعد عنها الا فى موضعين:

أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء. والثاني هنا عند هذا الدعاء الجديد..

وذلك من بدائع التناسق الفنى فى التعبير القرآنى.. فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية، وعذوبة

صوتية، تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهاال. (١١)

فنى الأستاذ سيد قطب قد انتبه لهذا الاتحاد الذى يوجد فى فواصل الآيات وقوافيها فى أوائل السورة وخواتيمها، وهو يتذوق هذا الجمال الفنى والتناسق الفنى ويتملاؤه ويستمتع به كدأبه فى مثل تلك المواقف.

وكم كان تذوقه - رحمه الله - لجمال هذه القافية وروعيتها لو أنه أدرك أنه ليس من جمالها فقط أنها تمنح الدعاء بمدّها رنة رخيّة وعذوبة صوتيّة تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهاال، بل من جمالها كذلك أنها تربط آخر السورة بأولها على ما بينها من مسافة هائلة شاسعة، ولا شك أن هذا الجمال يفوق الجمال الأول - وان كان له شأنه وميزته ! - عدة مرات، والمتأمل اذا تأمل فيه وجد فيه لذة لاتقاس بتلك اللذة التى يجدها حين يتأمل فى الجمال الأول.

فنحن سنحاول فيما يلى أن نتأمل فى ذلك الجمال. وأملنا وطيد فى أن هذه المحاولة ستسفر لنا عما يسرّ الخاطر ويقرّ الناظر باذن الله.

ان تشابه قافية الخواتيم لقافية الأوائل من هذه السورة ان دلّ على شئ فانما يدلّ على عود الكلام على بدنه.

ونحن اذا تأملنا فى تلك الآيات وجدنا الأمر هكذا.

فما أشبه قوله تعالى فى أول السورة:

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله، والراسخون فى العلم يقولون أمانابه كل من عند ربنا. وما يذكر الا أولوا الألباب. ﴾
بقوله تعالى فى آخر السورة:

﴿ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففقتنا عذاب النار﴾

فالأية الأولى تذكر أولى الألباب وتذكر الراسخين فى العلم والآية الثانية تذكر سماتهم وتبين سيرتهم.

والآية الأولى تذكر مسارعة الراسخين فى العلم - وهم أولو الألباب - الى الايمان بكتاب الله فى مقابل استكبار أهل الزيغ وتلاعبهم بآياته.

والآية الثانية تصور حسن موقفهم من آيات هذا الكون وتذكر تفكرهم فيها وحسن تلقيهم لدروسها وعظاتها.

فهم يتذكرون بكتاب الله المفتوح فى هذا الكون كما يتذكرون بكتابه الذى أنزله على رسوله.



ثم ما أشبه قوله تعالى فى أول السورة:

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب﴾

بقوله تعالى فى آخرها.

﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.﴾

فقولهم: ﴿توفنا مع الأبرار﴾ يعكس نفس الشاعر التى يعكسها قولهم: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا﴾ فكلاهما يعبران عن حرصهم على التمسك بأهداب هذه الرسالة والموت تحت لوائها والبر بالمهد والميثاق الذى أبرموه على أنفسهم حين آمنوا بها و وصلوا حبلهم بحبلها.

فكلتا الدعوتين متشابهتان فى محتوياتهما.

وأما ما نراه من الزيادة فى الدعاء الثانى من قوله تعالى: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ فهو ليس فى الواقع زيادة، وإنما هو طلب شئ يقربهم الى مطلوبهم، حيث ان الذنوب والسيئات هى التى تورث الزغ فى القلب، ولا تدع الانسان ينهض بأعباء البر.



ثم ما أشبه قوله تعالى فى أول السورة:

﴿ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه. ان الله لا يخلف الميعاد﴾

بقوله تعالى فى آخرها:

﴿ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد﴾

فالدعاء الأول يصور لنا كأن عبادا من عباد الله الخاشعين خرّوا أمامه ساجدين، ليستجيروهم من عذاب النار، فطفقوا يقولون: ﴿ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه...﴾ وما يلفوا من كلامهم الى هذا الحد حتى اختنقت أصواتهم بالبكاء، فلم يستطيعوا أن يكملوا حديثهم ولم يستطيعوا أن يزيدوا على ما قالوه.

وإذا برهم الودود الرحيم يتوجّه اليهم بخطابه المباشر، يسكن قلوبهم الخائفة المرجفة، ويسكب فيها برد الاطمئنان:

﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾

وهذا الدعاء له ميزته وله دلالاته، فمانعهم فى القرآن دعاء ورد على مثل هذا الأسلوب، حيث ان القوم ينادون بهم بأصواتهم الخاشعة الضارعة:

﴿ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه...﴾ ثم تسكت أصواتهم قبل أن يقصحوا عما يريدون.

وإذا برهم يقبل اليهم ليسكنهم ويطأ من منهم، أنهم سيجدون كل ما وعدوا به

ثم لاندري كيف نعبّر عما نحسّ فى هذا الأسلوب من خوف وخشية وخشوع وتواضع وتضرّع واخبات ثم رجاء وتطلّع مع شعور بالتقصير

فلا ندري كيف نعبّر عما يشتمل عليه قوله تعالى فى هذا الجوّ وفى هذا السياق:

﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ ففيه من سكينه وطمأنينة وقرّة عين ما يجعل عن الوصف

ثم نشعر حين نضع بجانب هذا الدعاء تلك الأدعية التى وردت بها الخواتيم:

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا. سبحانهك فقنا عذاب النار. ربنا انك من تدخل النار فقد

أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك

ولا تخزننا يوم القيامة. انك لا تخلف الميعاد.

حين نضع تلك الأدعية الخاشعة الواجفة الطويلة بجانب ذلك الدعاء الضارع الوجيز نشعر كأن هؤلاء القوم هم رفعوا أيديهم مرة أخرى ليكملوا ما بقي من حديثهم مع ربهم، وليسكبوا بين يديه من دموعهم - بعد ما أراقوا في سبيله من دماهم - ليجيرهم من عذاب النار !

نكتة هامة:

وما يجدر بالانتباه أن ذلك الدعاء الذي ورد في أول السورة ختم بقوله تعالى:

﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾

وهذه الأدعية أيضا تختم بنفس الحتام مع فرق يسير:

﴿انك لا تخلف الميعاد﴾.

وهذا الحتام كما يدل على روعة المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، يدل على حسن تجاوب هؤلاء المؤمنين مع ربهم، حيث انه تعالى قال لهم:

﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾

فتلقاؤهم ما علمهم وردّوه في خشوع واخبات:

﴿ربنا وأنتا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزننا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد﴾

هذه نكتة نفيسة هامة. والذين خفيت عليهم تحيروا في تأويل الآية. فيقول - مثلاً - الامام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يفسرها:

«فان قيل: ما وجه هذه المسألة والله لا يخلف الميعاد؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه خرج مخرج المسألة ومعناه: الخبر، تقديره: فأما، فاغفلنا لتؤتينا ما وعدتنا.

والثاني: أنه سؤال له، أن يجعلهم عن آتاه ما وعده، لا أنهم استحقوا ذلك، اذ لو كانوا قد قطعوا أنهم من الأبرار لكانت تزكية لأنفسهم.

والثالث: أنه سؤال لتعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، لأنه وعدهم نصراً غير مؤقت، فرغبوا في تعجيله، ذكر هذه الأجوبة ابن جرير، وقال: أولى الأقوال بالصواب أن هذه صفة المهاجرين، رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم، فكأنهم قالوا: لاصبر لنا على حلك عن الأعداء، فعجل خزيهم، وظفرنا بهم.»^(١)

ولا يخفى ما في هذه الأجوبة الثلاثة من ضعف وتكلف. ونحن على يقين بأنهم -رحمهم الله - لو انتبهوا لما أشرنا اليه لآثروه على ما ذهبوا اليه. فلله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه.



ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى في أول السورة:

﴿زِين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب.﴾
وبين قوله تعالى في آخرها:

﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم و أؤنوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرون عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾
فهاتان الآيتان تمثلان لنا مشهدين مختلفين متقابلين. أحدهما: مشهد أهل الزيف من اليهود والنصارى، الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم غرقوا في شهواتها وآثروا متاعها على ما عند الله من أجر و ثواب وحسن المآب.

والثاني: مشهد أولى الألباب من صحابة رسول الله ﷺ الذين تحافوا عن زينة الدنيا وشهواتها الى نعيم الآخرة، وثوابها، فلم ينالوا من الدنيا الا متاعها وآلامها وعاشوا حياتهم كلها وهى عطاء وأداء و وفاء وابتلاء !! فهم أبعدوا عن أهلهم وأولادهم، وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم، ونالهم من الأذى ما نالهم، وقتل من اخوانهم من قتل، ومع ذلك كله لم يكن لهم هم ولا وسن الا أن يجبرهم ربهم من عذاب النارا

ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى في أول السورة:

﴿ان الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أن أسلمتم، فان أسلموا فقد اهتدوا، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾

وبين قوله تعالى في آخر السورة:

﴿وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا. أولئك لهم أجرهم عند ربهم، ان الله سريع الحساب﴾
فالذى يقرأ الآيتين الأوليين يشور في ذهنه سؤال :

فهل أسلم منهم من أحد ؟

وهل أقبل أحد منهم الى الهدى ؟ أم لجوا كلهم فى عتو ونفور ؟

فتأتى الآية الثالثة الأخرى ترد على هذا السؤال: أن نفوسا قدسية منهم قد أقبلوا الى الهدى وانضموا الى هذا الركب الكريم فهم يؤمنون بما أنزل اليهم وما أنزل الى هؤلاء المؤمنين.

وما يستأنس به فى هذا المقام تشابه الموضعين فى شئ يخصهما، وهو قوله تعالى: ﴿ان الله سريع الحساب﴾ فان هذا التنبيه أو هذا التذييل لم يرد فى السورة الا فى هذين الموضعين. ولا يدل

ذلك الا على وجود صلة خاصة ومناسبة ماسة بينهما.

ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى فى أول السورة:

﴿قُلْ أَزْنِبْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾
وبين تلك الآيات التى ختمت بها السورة.

فانه لافرق بينهما الا فى الاجمال والتفصيل، حيث ان الآيات التى ختمت بها السورة انما هى تصوير رائع ومفصل لتلك الصفات التى أجملت فى أولها.
فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تمثيل وتفصيل لقوله تعالى: (القانتين).

والأدعية الحارة الضارعة التى تتبعه تمثيل وتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾
ثم قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُؤْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾
تصويرو تفصيل لقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ﴾.
فهذه الأعمال لاينجزها الا من كان على ذروة عالية من الصبر والصدق والانفاق.

وما يدل على صلة هذه الآيات بتلك أن النبى ﷺ كان يقوم من آخر الليل ليستغفر ربه، فكان يبدأ بهذه الآيات فيقرأها. فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة والبيهقى عن ابن عباس، قال: بتّ عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم قرأ العشر الآيات الأو اخر من سورة آل عمران حتى ختم.

وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند والطبرانى والحاكم فى الكنى والبغوى فى معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل السلمى قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر، فرمقت صلاته ليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام، فلما كان نصف الليل استيقظ فتلا الآيات العشر، آخر سورة آل عمران، ثم تسوك، ثم توضأ فصلى احدى عشرة ركعة. (١)

فدل - عليه السلام - بعمله هذا أن أنسب شئ للاستغفار بالأسحار هى تلك الآيات التى ختمت بها سورة آل عمران.

فكانه تعالى أجمل فى أول السورة عيون صفات المؤمنين وعلى رأسها الاستغفار بالأسحار، ثم فصل فى آخرها تلك الكلمات التى كانوا يستغفرون بها.



تلك وجوه من مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة.

ولا شك أن الاطلاع عليها يكشف لنا ناحية جديدة من بلاغة تلك الآيات واعجازها.

فنحمده تعالى ونشكره على ما هدانا اليه وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

ومما حفزنا أولا الى تلمس تلك الوجوه -وقد أسلفنا الإشارة اليه - تشابه الموضعين فى فواصل

الآيات وقوافيها.

فكان السياق جعل من هذا التشابه فى القافية آية ناطقة على كونه من وجوه آخر.

فتلمسنا تلك الوجوه، فظفرنا منها بما قررت به أعيننا وثلجت له صدورنا، والحمد لله.

ومما لا يخفى أن رؤيتنا هذه تختلف اختلافا ما عن رؤية الأستاذ الامام سيد قطب -رحمه الله -

وهى تتلخص فيما يلى:

ان هذه الأدعية، التى تشتمل عليها الخواتيم، كان لها شأن خاص، وجو خاص وطبيعة خاصة

فاختار لها السياق قافية تناسب جوها وطبيعتها.

والتزم السياق بهذه القافية فى دعاء فاتحة السورة كذلك ، لأن الأدعية فى الموضعين كانت

متشابهة فى جوها وطبيعتها.

وهكذا الآيات الأخر- ما عدا الأدعية- كانت متشابهة فى الموضعين فى مضمونها ومحتوياتها،

فجاءت على قافية واحدة متقاربة، كما أنها كانت مشابهة لتلك الأدعية فى جوها وملابساتها

فشابهتها فى قافيتها.



وبعد ما انتهينا من دراسة وجوه المناسبة فى فقرات هذه السورة العظيمة، وانتهينا من البحث

عن نظامها و وشائجها التى تربطها فيما بينها وتحكم نسجها، نعود اليها مرة أخرى لنبين عمودها،

الذى تدور حوله السورة كلها بجميع فقراتها، مثلما فعلناه فى السورة التى قبلها.

ثم نبين صلة هذه بتلك، ونبين ميزة كل منهما، حتى يكون الحديث عن نظام السورتين واضحا

متكاملا من جميع نواحيه.



عمود السورة

ان عمود هذه السورة - كما يظهر لنا بعد التأمل فى محتوياتها - هو الدعوة الى الايمان بهذه البعثة المباركة والدعوة الى اتباعها، مع تبديد الشبهات التى كان يثيرها أهل الكتاب ليصرفوا المؤمنين عنها.

والآيات التى تقودنا الى هذه الظاهرة كما يلى:

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ (٣-٤)

﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين﴾ (٣١-٣٢)

﴿واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا. قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (٨١-٨٢)

﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاعهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (٨٦)

﴿وما كان لنبي أن يغفل. ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة. ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (١٦١)

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (١٦٤)

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله. وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم﴾ (١٧٩)

﴿فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاعوا بالبينات والزبر و الكتاب المنير﴾ (١٨٤)

﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ (١٩٣)

تلك بعض الآيات التى تذهب بنا الى القول بما قلناه ، من أن عمود هذه السورة هو التنبيه الى مكانة هذه البعثة المباركة، والحث على تعزيزها وحسن الاستجابة لها، مع القضاء على تلك الشبهات التى أثيرت حولها.

والقضايا التي تناولتها هذه السورة، كلها تدور حول هذه النقطة.

وبيانه أن النصف الأول من هذه السورة يدور - فى مجموعه - حول موضوع ملة الاسلام وتقريرها، وتفنيد الشبهات التي أثيرت حولها، وإزاحة السدول التي أرخيت على معالمها، كما بينا ذلك وفصلناه أثناء حديثنا عن تلك الآيات.

ولم يعالج السياق هذا الموضوع، حين عاجله فى تلك الآيات، الا لتقرير هذه البعثة المباركة وإقامة الحجة على حقيقتها. فان الاسلام هو عنوان هذه البعثة. وما بعث النبي ﷺ الا ليعيد ركب الحياة الى ملة الاسلام.

وأهل الكتاب لم يشدوا مآزرهم لمحاربة الاسلام الآوهم يعلمون أن هذه الحرب انما تعنى الحرب مع هذه البعثة. وهم سينجحون فى اضعاف أمرها و تقويض بنيانها بقدر نجاحهم فيها. ولقد أشار القرآن نفسه الى هذه الصلة بين الأمرين اشارات واضحة. فمنه ما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا تَأْتِيَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرِي. قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

ثم قال

﴿أَغْفِرْ دِينَ اللَّهِ يِغْفِرُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾
وعلى مثل هذا النظم جاء قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
حيث جاء بعده قوله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الاقرار بهذه البعثة هو اقرار بالاسلام، وكذا الرغبة عن الاسلام لا تعنى الا الرغبة عن هذه البعثة. فهما شيان متلازمان لا يفترقان، حيث يثبت أحدهما بثبوت الآخر ويتنفى بانتفائه.

وعلى مثل هذا النظم جاء قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
حيث جاء بعده مباشرة:

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
فبنى كون هذا النهى أولى الناس بإبراهيم على كون إبراهيم حنيفا مسلما.

وبالجملة فهذه الآيات تعالج موضوع ملة الاسلام لتخلص منه الى تقرير هذه البعثة المباركة.
ومما يؤيد هذا القول أن السياق، قبل أن يفتح باب هذا النقاش مع أهل الكتاب، يقرر لهم ضرورة
تباع هذه النبوة المباركة، ويقرر لهم ضرورة طاعتها مع طاعة الله:

﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم. والله غفور رحيم. قل
اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين﴾

فقد ذكر الامام ابن الجوزي - رحمه الله - في سبب نزول الآية الأولى وجوها، منها:
«ان اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي ﷺ عليهم فلم
يقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.» (١)

وكذا ذكر - رحمه الله - في سبب نزول الآية الثانية وجوها، منها:
«ان النبي ﷺ دعا اليهود الى الاسلام فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. ونحن أشد حبا لله مما
تدعوننا اليه، فنزلت: ﴿قل ان كنتم تحبون الله﴾ ونزلت هذه الآية. هذا قول مقاتل.» (٢)
هذا ما يظهر لنا في النصف الأول من هذه السورة: (١-٩٩)

وأما النصف الآخر: (١٠٠-٢٠٠) فهو يبدأ بتحذير المؤمنين من طاعة أهل الكتاب:
﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم
كافرين﴾.

ثم يتعجب السياق من حدوث ذلك - ان حدث منهم - وهم تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله:
﴿وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى
صراط مستقيم﴾.

ولم يقتصر السياق على هذا التحذير الواحد، بل تبعته تحذيرات متعددة:
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلؤنكم خيالا .. الآية﴾ (١١٨)
﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾
(١٤٩).

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم اذا ضربوا في الأرض أو
كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى
ويميت. والله بما تعملون بصير﴾ (١٥٦)

(١) زاد المسير: ٣٧٣/١

(٢) المصدر السابق: ٣٧٤/١

وفى مقابل هذا التحذير المكرر من طاعة أهل الكتاب، يكرر التوجيه الى طاعة الرسول:

﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ (١٣٢)

﴿فأمنوا بالله ورسوله. وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ (١٧٩)

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين

قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا.. الآية﴾ (١.٢)

ويتكرر التنويه بشأنه - عليه السلام -:

﴿وما كان لنبي أن يفل .. الآية﴾ (١٦١)

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (١٦٤)

هذا، ولقد رأينا في أثناء دراستنا لتلك الآيات، كم حاول الأعداء من أهل الكتاب بمناسبة غزوة

أحد أن يكسبوا الموقف، فينقروا المؤمنين عن نبيهم، ويوقعوا البلبلة في صفوفهم ولكن الله سلم، وردّ

كيدهم في نحورهم، وجعل من منا وأتهم لهذه البعثة المباركة سببا لظهور أمرها وقوة شوكتها، وأثنى

على المؤمنين حسن اتباعهم وسرعة استجابتهم للرسول:

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرع، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر

عظيم﴾.

وتوعد المنافقين على ترصصهم وتقاعسهم عن نصرته - عليه السلام -:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم

تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم

للإيمان. يقولون باقواهم مالميس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون﴾

ثم توعد الذين كانوا يكتمون أمر هذه النبوة:

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم،

سيطونون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض. والله بما تعملون خبير﴾.

كما بشر الذين اتبعوا الرسول ونصروه بحسن المثوبة في الآخرة، مع تحريضهم على أن يستمروا

فيما هم فيه ويصبروا:

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾

ولقد سبق هذا التحريض تحريض مثله، حيث قال تعالى:

﴿لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين

أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

ومما يجدر بالانتباه أن أبرز دعاء تشتمل عليه الخواتيم هو ذلكم الدعاء الذى يمثل حسن استحابة المؤمنين لنداء الرسول، وشدة مسارعتهن الى الايمان به، ثم تمنيهن الموت فى سبيل ذلك العهد الذى أبرموه على أنفسهن بمبايعة الرسول:

﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.﴾

وهكذا نرى هذه السورة العظيمة تدور بموضوعاتها كلها حول موضوع اتباع الرسول والتشبث به، مع تهديد الشبهات التي أثّرت حوله - عليه السلام -.

وهذا الذى نقصده بعمود السورة.



ارتباط السورة بالتى قبلها

ان النظرة الفاحصة المتأملة فى هذه السورة والتى قبلها تحسّ السورتين، وكأنهما شقيقتان أو توأمان، وذلك لما يوجد بينهما من تشابه وتقارب وتلاحم عجيب.

والقرآن نفسه نبّهنا الى هذه الظاهرة بنظم آياته، حيث تكررت فى هذه السورة كثير من الآيات التى قد مضت معنا فى سورة البقرة كقوله تعالى:

١- ﴿ان الذين يشتركون بهعدالله وأيمانهم ثمنا قليلا، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم.﴾ الآية: (٧٧)
أو كقوله تعالى:

٢- ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم. لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾
الآية: (٨٤)

أو كقوله تعالى:

٣- ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات. والله لا يهدى القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون﴾ الآيات: (٨٦-٨٨)
أو كقوله تعالى:

٤- ﴿ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.﴾ الآية: (١١٢)
أو كقوله تعالى:

٥- ﴿لقد من الله على المؤمنين اذبعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين.﴾ الآية: (١٦٤)
أو كقوله تعالى:

٦- ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا. بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾
الآية: (١٦٩)

فقد مضت معنا هذه الآيات كلها فى سورة البقرة مع فرق يسير فى بعض كلماتها.

فالآية الأولى تشبه قوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.﴾ (الآية: ١٧٤)

والآية الثانية تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (الآية: ١٣٦)

والآية الثالثة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.﴾ (الآيتان: ١٦١-١٦٢)

والآية الرابعة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.﴾ (الآية: ٦١)

والآية الخامسة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (الآيتان: ١٥٠-١٥١)

والآية السادسة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لاتشعرون.﴾ (الآية: ١٥٤)

فهذه الآيات كلها جاءت مكررة في هذه السورة. ولا يوجد في الموضوعين الا فرق يسير.

وهذا التكرار ان دل على شئ فانما يدل على تشابه السورتين وتلاحمهما الى حد بعيد.

ولقد عني عدد من العلماء بالبحث عن وجوه هذا التناسب والتشابه بين السورتين، كالامام السيوطي في كتابه (أسرار ترتيب القرآن: ص/٨٣-٨٨) أو العلامة أبي جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتابه: (البرهان في ترتيب سور القرآن: ص/٩-١١) أو الأستاذ أمين أحسن في تفسيره: (تدبر قرآن : ٩/٢-١٣).

الا أنه ليس من ضرورة هذا البحث أن ينقل هنا ما كتبه هؤلاء الأعلام، فان ماكتبوه أشبه بالعمل السريع المرتجل بينما الأمر كان بحاجة الى طول البحث ودقة النظر.

فنحن نحيل من أراد الاطلاع على عملهم، الى كتبهم، ونقتصر هنا على تسجيل ما توصلنا اليه من خلال دراستنا الدائبة المستمرة للسورتين.

وقد ظهر لنا- والحمد لله - من وجوه التناسب بين السورتين ما تفر به العين وتهتز له النفس،

فنحمده - تعالى - حمدا لاتنهاية له، ونشكره شكرا يليق بفضله، حيث انه تعالى هدانا الى تلك الوجوه بمحض فضله وكرمه، وما كنا لنهتدي اليها لولا أن هدانا الله.

والوجوه التى ظهرت لنا للتناسب بين هاتين السورتين كما يلى:

١- السورتان متشابهتان فى غرثيهما، حيث بدأت كل واحدة منهما بقوله تعالى: (الم) كما بدأت كل واحدة منهما بالتنويه بشأن القرآن والاشادة بذكره مع تفرّد الثانية بذكر الرسول مع القرآن حيث قال تعالى فى الأولى:

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه. هدى للمتقين﴾

وقال فى الثانية:

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾

وهذا التشابه فى المطلع والعنوان لا يدل الا على التشابه فيما وراء من المعنى والموضوع. والأمر فى الواقع هكذا، فان الموضوع فى كلتا السورتين جد متقارب حيث ان الأولى دعوة الى الايمان بالقرآن والتمسك به، كما أن الثانية دعوة الى اتباع الرسول والمسايرة الى أوامره وما جاء به من عنده.

وعلى هذا فهاتان السورتان جاءتا على غمط قوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (١)

حيث ان الأولى تشبه قوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ لكونها دعوة الى الايمان بما أنزل الله - تبارك وتعالى -.

والثانية تشبه قوله تعالى: ﴿واتبعنا الرسول﴾ لكونها دعوة الى اتباع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -.

ثم ان هذين الأمرين يلتقيان فى واجب الايفاء بالعهد، حيث ان بني اسرائيل قد أخذ منهم العهد على لسان رسلهم أن يؤمنوا بهذا القرآن، كما أخذ منهم العهد على أن يؤمنوا بهذا الرسول - عليه الصلاة والسلام -

وقد ذكر هذان العهدان فى هاتين السورتين عدة مرات.

فالسورة الأولى دعوة الى أن يوفوا بعهدهم الأول، كما أن الثانية دعوة الى أن يوفوا بعهدهم الثانى.

٢- ثم ان هاتين السورتين متشابهتان في خاتمتيهما أيضا كما أنهما متشابهتان في فاتحتيهما، حيث ان الخاتمتين كلتيهما مدح وثناء لصحابة رسول الله. وقد بينا ذلك وفصلناه تفصيلا في أثناء دراستنا لتلك الآيات.

ثم انهما تشتملان على أدعية حارة ضارعة من المؤمنين واستجابة عجيبة سريعة من الله. وهكذا نرى الخاتمتين متقاربتين جدا في جوها ومحتوياتهما.

٣- ان سورة البقرة ختمت بدعاء النصر على الكافرين: ﴿أنت مولانا فانصر﴾ على القوم الكافرين

فجاءت هذه السورة تتوعد الكافرين من أول أمرها، وجاءت تبشرهم بالهزيمة و سوء العاقبة: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد.﴾ (١)

٤- ان سورة البقرة تذكر تاريخ بنى اسرائيل الى عهد سيدنا موسى، ثم تحيى سورة آل عمران لتكمل هذه السلسلة وتقص علينا أنباء آل عمران .

٥- ان سورة البقرة كانت مرحلة اعداد وتربية للجهاد، وكانت مرحلة حث وتحريض عليه:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين.﴾ (٢)

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (٣)

﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ (٤)

ثم جاءت سورة آل عمران لتنتقل بهؤلاء المؤمنين من مرحلة الاعداد والتربية الى مرحلة التطبيق والتنفيذ، فدخلت بهم فى معركة فاصلة بين الاسلام والكفر ثم تناولت أحداث تلك المعركة بالتفصيل ليكون ذلك اعدادا لما سيتبعها من المعارك.

٦- ان سورة البقرة تفصل سمات المنافقين وملامحهم وتفصل مواقفهم وتصرفاتهم، من غير أن تصهم بالنفاق أو من غير أن تطلق عليهم لفظ (النفاق).

بخلاف سورة آل عمران فانها تكشف عنهم القناع وتعريهم وتصهم بهذه الرذيلة:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾

ثم نرى الأمر فى السورة التي تليها - وهى سورة النساء - أشد من ذلك وأفضح، حيث انها تكشفهم كشفا وتعريهم تعرية كاملة، وتقذفهم بهذا اللقب مرة بعد مرة:

(١) سورة آل عمران: ١٢

(٢) سورة البقرة: ١٩٠

(٣) سورة البقرة: ٢١٦

(٤) سورة البقرة: ٢٤٤

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالْيَاسُورَ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ الآية: (٦١)

﴿فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ الآية: (٨٨)

﴿يُبَشِّرُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الآية: (١٣٨)

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ الآية: (١٤٠)

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ الآية: (١٤٢)

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الآية: (١٤٥)

٧- ان سورة البقرة يغلب عليها طابع الدعوة والتوجيه فهي تدعو بني اسرائيل وترشدهم الى أن يثوبوا الى رشدهم، ويفيئوا الى الحق الذي نسوه بعد ما انتمنوا عليه، وان كانت هذه الدعوة والتوجيه لاتخلو في كثير من الأحيان من اللوم والتعنيف.

بينما سورة آل عمران تنبه المسلمين الى كيدهم وتحذّرهم من شرهم وتكشف لهم ما يبيتون لهم حتى يكونوا على حذر منهم.

٨- ان سورة البقرة تحتوى على مجموعة طيبة من الأحكام والشرائع، بينما سورة آل عمران لم تتناول الشرائع والأحكام البتة. ثم جاءت بعدها سورة النساء وسورة المائدة، وهما أيضا تشتملان على قدر طيب من الشرائع والأحكام.

هذا الوضع يدل على أن هذه السورة - سورة آل عمران - انما جاءت لتكمل سورة البقرة وجاءت لتخدمها في بعض أهدافها التي تتصل بعمودها. ومما يدل على ذلك أن سورة آل عمران بنيت على آية من آيات سورة البقرة، بل بنيت على جزء صغير منها، حيث قال تعالى في سورة البقرة:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ .. الْآيَةُ﴾ فبنيت سورة آل عمران على

هذا الجزء الصغير من آية سورة البقرة، حيث قال تعالى في مستهل هذه السورة:

﴿الْم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

٩- ان سورة البقرة تخاطب جماهير اليهود والنصارى، وتتحدث عنهم، بينما سورة آل عمران

تخاطب علماءهم وأحبارهم وتتحدث عنهم.

ولعل هذا هو السر في أن هذه السورة يغلبها جوّ الحجاج واللجاج، كما نرى ذلك واضحا صريحا

في مثل تلك الآيات:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ. وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

بِفَيَاسِيْنَهُمْ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ

وَمَنْ اتَّبَعَن. وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا

البلاغ. والله بصير بالعباد ﴿١٩-٢٠﴾.

﴿ها أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده، أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم. والله يعلم، وأنتم لا تعلمون.﴾ (٦٥-٦٦)

وهذا الجو يخص هذه السورة دون سورة البقرة. ولعل السر في ذلك ما أشرنا اليه.

١- ان الصراع العقائدى الذي شهدناه في سورة البقرة قد احتد واشتد في هذه السورة. ولذلك

نرى هذه السورة يغلبها جو الحجاج واللجاج، كما مر معنا آنفا.

ولعل هذا هو السر في أن هذه السورة تحت المؤمنين حثا على أن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن

المنكر، وتعد ذلك من صميم مهمتهم:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.﴾

الآية: (١١٠)

وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الضمان الوحيد لانتصارهم على العدو، وهو

الطريق الوحيد لسلامتهم من شر ذلك الصراع العقائدى الذى يهدد كيانهم، ويكاد يمزق شملهم!

ولقد بينا ذلك وفصلناه في أثناء دراستنا لقوله تعالى :

﴿ولكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وأولئك هم

المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات. وأولئك لهم عذاب

عظيم.﴾ الآيتان: (١٠٤-١٠٥)

* * *

تلك عشرة وجوه لارتباط هذه السورة بالتي قبلها. وهى من الوضوح بحيث لا تخفى على كل

من تدبرها وقعن فيها.

والا فقد تكون هناك وشائج أخرى تربط هذه السورة بالتي قبلها، ومن يستطيع أن يحيط بها

علما!

فان هذا الكتاب لا تنقضي عجائبه ولا تنتهى بدائعه، وحسبنا أن وفقنا الى ما ذكرناه، فله الحمد

وله الشكر على ما هدانا اليه.

* * *

الخاتمة

كم حَزَّ في نفسى وكم اعتصرفوا دى ما قاله المستشرقون قديما وحديثا عن القرآن! القرآن الذى هو أساس عزتنا ومجدتنا، والذى هو أحبّ إلينا من أنفسنا وأهلينا!
فمن ذلك ما تقوله موسوعة برتانيكا- ويشسما تقول!:-

«وهكذا، فما أكثر ما يوحى إلينا القرآن بسوء نظمه وأسلوبه، أنه ما جمع وألف الا بطريقة عشوائية بحتة!

وهذا واقع يؤيده واقع آخر. وهو أن كثيرا من تذييلاته اللطيفة الخلافة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» «أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» لا توجد بينها وبين سياقها أية مناسبة، وإن وجدت فلا تكون الا ضعيفة واهية لا يعتد بها. ولا يدل ذلك الا على أنها أضيفت حرصا على سجع خاص كان يريداه القرآن.»

Thus the Qur'an often gives the impression of having been produced by a rather haphazard method of composition, an impression that is further heightened by the fact that certain favourite phrases such as "but God is forgiving compassionate." "God is knowing, wise," "most of them know nothing" often have little or no connection with the immediate context and seem to have been added in order to produce a needed rhyme.(1).

والآن أسائل نفسى، بعد ما انتهيت من حديثى عن نظام هذه السور الثلاث، وعن مناسبات آياتها فيما بينها:

هل وفقت فى تفتيد هذه الدعوى، التى أطلقها المستشرقون قديما وحديثا؟

وهل استطعت أن أقدم شيئا رصينا محكما يظهر سخافة ما يتفوه به أعداء القرآن ضد القرآن؟

وهل استطعت أن أمسح عنه شيئا مما يتهمه به هؤلاء القوم؟

لا أدرى، بماذا يجيب المجيبون على هذا السؤال.

فقد يجيبون بـ «نعم» وقد يجيبون بـ «لا».

(١) موسوعة برتانيكا الحديثة : ٣٤٢/١٥

وعلى كلا الاحتمالين أقول:

ان كان هذا العمل على غير ما يرام، وكان الناس يرون فيه ضعفا أو خلا، فلنرم به عرض الجائط، ولا حرج، ثم لنبحث جميعا عن منهج آخر يسعفنا بالمقصود، ويساعدنا في اعداد شئ يشفى صدورنا، ويذهب غيظ قلوبنا، ويفنّد ذلك الطعن الذى طالما توجه به أعداءنا الى قرآنا.

وان كان الأمر غير ذلك، وكان هذا المنهج يتّسم بالاستقامة والرصانة والمتانة، وكان جديرا بأن يفحم الأعداء، ويخزيهم، ويرد طعنهم إلى نحورهم فلنكن من ورائه، ولتكن منا طائفة تنبّاه وتسهر عليه، وتسخر له أفضل جهودها وطاقاتها، حتى يتحول هذا النبت الصغير، الذى بين أيدينا الآن، الى دوحة كبيرة غلباء، يكون أصلها ثابتا، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها.

وذلك لأن هذا العمل العظيم الجليل يتطلب منا جهودا جبّارة عملاقة، ويتطلب أعمارا فتية نشيطة متوافرة!

وليس فى استطاعة شخص واحد أن يقوم بحق هذا العمل، ولويذل فيه من الجهد ما بذل.

وهنا قد يختلج فى بعض الأذهان سؤال:

إذا كان النظام فى القرآن حقيقة ثابتة، وكان فى ذات الوقت بتلك الخطورة والأهمية، فلما ذا جعل هكذا عزيز المثال، بحيث لا يبلغه كل من تطلّع اليه، ومدّ اليه يديه، وان بلغه أحد، فلا يبلغ الا جزءا يسيرا منه، حتى كان من الضرورى - ان أردنا أن نقوم بحق هذا العمل أو ببعضه - أن تتفرغ له منا طائفة يسهرون عليه ويستفرغون له الجهد؟

ان هذا سؤال وجيه جدا.

ومن حسن حظنا أنه ان اختلج اليوم فى أذهاننا، فقد اختلج قبل ذلك فى ذهن الفراهى، فتناوله - رحمه الله - بالردّ والإيضاح، وجاء بكلام فى غاية الروعة والدقة، حيث يقول:

«ان الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب لواجبات العقائد والشرائع فكذلك أنزله لتعليم الحكمة. وجعل ذلك من أخص صفات نبينا ﷺ وبذلك جعله خير المعلمين، وأعطاه من الآيات ما يكون أكثر اتباعا وأكمل تعليمًا.

ولا يخفى أن تعليم الحكمة لا يتأتى بالقاء المعارف، وانما يتأتى باستعمال الفكر والعقل، وحثّه وتنبيهه على النظر، حتى تبرز قواه الكامنة، كما هو الأصل فى كل تربية.

فعلى هذا كما جعل جانب من القرآن ظاهرا بينا، فكذلك جعل جانب منه باطنا مكنونا.

ولكى يهتدوا الى بطونه، جعل الباطن على مدارج، لكى يترقى المجتهد فى درجاته من الأقرب الى الأبعد، فان التربية لاتتم بدون ذلك.

والكلام اذا كان منظما من جهته الظاهرة لم يحتج فيه الناظر الى تأمل، ولكن اذا كان اتصاله تارة ظاهرا، وتارة خفيا، توقف الناظر وتأمل فيه. فانه كيف يرضى بالخلل الفاحش فى كلام الحكيم العليم. ولذلك آمن من آمن بالنظام.

ثم جعل الله تعالى ما أخفى من النظام على مراتب، فجعل أكثره على غاية البطون. واذا جعل النظام من أكبر ما يحدّث به على النظر والتأمل، أخفى العمود، ولو صرح بالعمود لم يبق كبير مشقة في فهم النظام، وصار غير محتاج الى النظر، وبطلت الحكمة. واذا أخفاه الله ليمتحن به العقول، لا بد أن يكون صعب المطلاع، فكأنه وضعه مناط الثريا. (١١) وقال - رحمه الله - فى موضع آخر:

«الكلام لا يلتزم بعضه ببعض الا بجامع يشتمل على اشتات المطالب. والجامع يكون أعلى وأوسع...»

فمن طلب النظم لأبد أن ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعا عاما. وهذا الطلب هو سلم الحكمة. ولا يتعاطى ذلك الا ذوبصيرة وذكاء.

ولولا ذلك لما جعل الله نظام كلامه محل التدبر و التفكير.

فأما كونه محل التدبر والتفكير فمبسوط فى موضعه. وانما المقصود هنا أن الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة، ويرشّحهم للملكة هي أصل العلم والمعرفة، لانفس المعلومات، فانها منحصرة محدودة. ثم العلم بها ليس من الملكة المقصودة فى شئ.

وقد أشار الى كون القرآن عليّا لاشتماله على الحكمة، حيث قال تعالى: ﴿وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾ (سورة الزخرف: ٤). (٢)

فهذه النكتة التي أشار اليها الفراهى قيّمة وهامة جدا. وهى تفسر لنا خير تفسير ما أثر عن الصحابة - رضى الله عنهم - من طريقتهم فى تلقى القرآن، حيث قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا اذا تعلّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوهنّ حتى يتعلّموا ما فيها من العلم

(١) دلائل النظام: ٧٨-٧٩

(٢) المرجع السابق: ٣٣

والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا. (١)

فهم ما كانوا يقيمون هذه الاقامة الطويلة المتأنيّة على عشر آيات من القرآن الا لأنهم كانوا يدركون جيدا أن هذا القرآن ما جاءهم ليلقى عليهم جملة من الأحكام والأنظمة فحسب، وانما جاءهم لغاية أكبر من ذلك.

انه جاءهم ليربى قلوبهم وعقولهم، ويربى مشاعرهم وأفكارهم، ويغيّر مقاييسهم وموازنهم حتى ينشئهم خلقا آخر.

وهكذا كان. فقد أنشأهم القرآن خلقا آخر، وجعل منهم أمة فريدة تفيض بالعلم والحكمة، وقد كانوا قبل ذلك يتيهون فى الجاهلية والعمى!

ولم يحصل ما حصل من هذا الانقلاب العظيم فى معنوياتهم ومواهبهم الا بفضل ذلك الأسلوب الحكيم، الذى أنزل عليه القرآن.

ولو كان القرآن واضحا كل الوضوح، ولم يكن نظمه بعيد القعر، عزيز المنال، ولم تكن فيه تلك المعضلات التى لا تحل الا بعد تدبر طويل وطويل، لما استطاع أبدا أن يشحذ تلك العقول ويلتقح تلك القرائح.

ولما استطاع أبدا أن يبني من مثل هؤلاء القوم جيلا فريدا يفيض بالعلم والحكمة، ويكون غنيا بتلك المؤهلات، التى قلما اجتمعت فى أمة!

وبالجملة فهذه النكتة التى أشار اليها الفراهى قيّمة وهامة جدا.

ولقد غابت عنا فلم نعد نقيم تلك الاقامة الطويلة المتأنيّة على آيات القرآن.

وقلنا: مالنا نرهق أنفسنا فى شئ قد كفيناه؟

فقد كفانا سلفنا الصالحون مؤونة التأمل فى آيات القرآن، حيث انهم وققوا أعمارهم لدراسته، ثم استنبطوا لنا الأحكام وخرّجوا لنا المسائل، وجمعوا لنا الفوائد.

فهذه المجلدات الضخام فى تفسيره كفيّلة بكل ما نريده ونحتاج اليه.

ثم ليس هذا فحسب، بل هناك مكتبة كبيرة حافلة تشتمل على جميع ما يتضمنه القرآن من أصناف العلوم.

فهناك قسم كبير لكتب العقائد، وهى كفيّلة بأن تبين لنا كل ماورد فى القرآن مما له صلة بقضايا العقيدة.

(١) تفسير الطبري: ٢٧/٦

وهناك قسم كبير لكتب الفقه، وهي كفيّلة بأن تبين لنا كل ماورد في القرآن ممّا له صلة بالأنظمة والأحكام.

وهناك قسم كبير لكتب الفرائض، وهي كفيّلة بأن تبين لنا كل ماورد في القرآن ممّا له صلة بالفرائض والموارث.

وهناك قسم كبير لكتب الأخلاق، وهي كفيّلة بأن تبين لنا كل ماورد في القرآن ممّا له صلة بعلم الأخلاق.

و.... و.... و

ثم هناك كتب الحديث فيها تفصيل لكل شيء.

فلم يبق لنا بعد ذلك الا أن نستفيد من تلك الجهود المباركة الجبّارة التي بذلها عمالقة الرجال في سبيل خدمة القرآن.

وأما القرآن نفسه فيكفيّننا منه أن نحفظه ونحفظه أبناءنا حتى نستزيد من الأجر ونستكثر من البركة.

هكذا قال الناس ويقولون!

ومن لم يقله بلسان المقال، قاله بلسان الحال.

فليعلم هؤلاء جميعاً أن هذه الكتب قد تمدّنا بكل شيء، ولكنها لن تمدّنا بتلك الحكمة التي بعث لأجل تعليمها النبي ﷺ ولن تمدّنا بتلك الحكمة التي جعلت من رعاء الشاء والبعير أساتذة العالم وقادة الأمم!

فهذه الحكمة لا يلقّاها الا من يعيش هذا القرآن ويعكف عليه، ويتذوّقه ويتدبّره، ويحيى به ليله ونهاره، ويحرص عليه كما حرص عليه صحابة رسول الله ﷺ.

وأما الكتب الأخرى فهي لا تزيد على أن تكون وسائل اليه، وما كان لها أبداً أن تغني غناه.

إذا فلنعد الى قرآننا العزيز الحبيب من جديد!

ولنعد اليه لتدبر آياته، ونكتشف حسن نظامه، ونبحث عما أودع في نظمه البديع الرصين من نفائس المعاني وفرائد الحكم.

حتى ندفع عنه ذلك الطعن الذي طالما وجّه اليه من أعدائه!

وحتى ننعم بذلك العزّ والمجد والسؤدد الذي لا ينعم به الا من أحسن صلته به، واستفرغ مجهوده للفوز بحكمته.

وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام - وهو الصادق المصدوق-:

«ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين»^(١)

هذا ما أردنا أن نبوح به في هذا الختام.

وخير ما نختم به هذا الختام ذلك الدعاء الجميل الذي كان يدعو به سيدنا عمر بن الخطاب، وهو

قوله - رضى الله عنه -:

(اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك. والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر

فى عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت. انك على كل شىء قدير.)^(٢)

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله ، القائل: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه.»^(٣)

فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وبارك وسلم تسليما كثيرا كثيرا.



(١) صحيح مسلم، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه: ٥٥٩/١، رقم الحديث (٨١٧)

(٢) العقد الفريد : ١٣٣/٢

(٣) مختصر سنن أبي داود، باب في ثواب قراءة القرآن: ١٣٣/٢ رقم الحديث (١٤٠٢).

مراجع البحث

- احكام القرآن للامام أبي بكر احمد بن على الرازي الجصاص دارالكتاب العربي. بيروت
- احكام القرآن للامام أبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي ت : على محمد البجاوي، دارالمعرفة. بيروت
- الأريعون الصغرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت : محمد نور بن محمد أمين المراغي، ادارة احياء التراث الاسلامي، الدوحة، قطر.
- ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- اساس البلاغة للزمخشري- ت : الاستاذ عبدالرحيم محمود. دارالمعرفة للطباعة والنشر- بيروت
- أسرار ترتيب القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق : عبدالقادر أحمد عطا دار الاعتصام، ط: ثانية ١٣٩٨هـ
- الأصمعيات، ت : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون دار المعارف. القاهرة.
- اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، ١٣٨٦هـ
- امعان النظر في نظام الآي والسور لمحمد عناية الله أسد سبحاني، رسالة ماجستير، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض
- البرهان في ترتيب سورالقرآن للعلامة أبي جعفر بن الزبير (مخطوط) وتوجد نسخة منه في الخزنة الشرقية العمومية بمدينة عظيم آباد ، الهند وهي التي تحت أيدينا الآن.
- تاريخ الطبري للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. ت : محمد أبو الفضل ابراهيم، دارالمعارف بالقاهرة، ط ثانية
- تبصير الرحمن وتيسير المنان للعلامة على بن احمد ابراهيم المهامي، عالم الكتب بيروت.
- تدبر قرآن لسماحة الشيخ أمين أحسن الاصلاحى. مكتبة فاران، باكستان.
- تفسير ابن أبي حاتم. دراسة وتحقيق : عبدالله على احمد الغامدي رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في جامعة ام القرى. مكة المكرمة سنة ١٤٠٧هـ
- تفسير البحر المحیط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الفكر بيروت ط ثانية ١٤٠٣هـ.

- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن للإمام أبي محمد الحسن الفراء البغوي ، دار الفكر بيروت.
- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن، دار الفكر بيروت.
- تفسير سورة الفاتحة للإمام عبد الحميد الفراهي. مطبعة اصلاح. الهند.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، المطبوع على هامش تفسير الامام الطبري -تفسير غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري، ت: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير. مكتبة الدعوة الاسلامية، شباب الازهر.
- التفسير القيم للإمام ابن القيم، ت: محمد حامد الفقي - لجنة التراث العربي - بيروت.
- التفسير الكبير للإمام فخر الرازي. دار الكتب العلمية - طهران
- تفسير النسفي للإمام عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي. دار الكتاب العربي بيروت.
- تفسير النهر الماد من البحر للإمام أبي حيان المطبوع على هامش تفسير البحر المحيط.
- تفهيم القرآن للأستاذ الامام أبي الأعلى المودودي. مكتبة ترجمان القرآن. باكستان.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: ثالثة، ١٣٨٨هـ
- الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبدالله محمد بن احمد القرطبي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- جمهرة اشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي. ت : الدكتور محمد علي الهاشمي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.
- الحماسة لأبي تمام، ت : الدكتور عبدالله بن عبد الرحيم عسيلان، ادارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض.
- دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب دار الشروق، بيروت. ط : ثالثة، ١٤٠٢هـ
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكا في برواية ابن أبي الفرج الاردستاني . ط رابعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ
- الدرّ المنثور في التفسير المأثور للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- دقائق التفسير للإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق: د/ محمد السيد الجليند، دار الانتصار بالقاهرة.
- دلائل النظام للإمام عبد الحميد الفراهي الدائرة الحميدية، الهند.
- ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت

- ديوان جرير بشرح: محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت
- ديوان حسان بن ثابت الانصاري، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت
- ديوان الخنساء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت
- ديوان ذي الرمة، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر لصاحبه محمد زهير الشاويش.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت
- ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر، بيروت
- ديوان عمرو بن قيسنة. ت : خليل ابراهيم عطية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٣٩٢هـ
- ديوان كعب بن زهير، بشرح السكري، دار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٥هـ
- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للامام عبد الحميد الفرامي، مطبعة معارف. الهند
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي، دار اخفاء التراث العربي بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير للامام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط: أولى، ١٣٨٤هـ
- زاد المعاد للامام ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط : ثانية. ١٤٠٥هـ
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت: ابراهيم عطوة عوض ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- سنن الدار قطني، تحقيق وتصحيح: السيد عبد الله هاشم، دار المحاسن للطباعة القاهرة.
- سنن الدارمي للامام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي طبعة استانبول، تركيا.
- السنن الكبرى للبيهقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، لعلي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- سيرة النبي لابن هشام، ت : محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.
- الصحيح للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي. طبعة استانبول، تركيا.
- الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ١٤٠٢هـ
- صحيح ابن خزيمة، تحقيق وتعليق: د/محمد مصطفى الأعظمي ط: ثانية، ١٤٠١هـ
- الصحيح للامام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. تحقيق وتعليق، محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة استانبول.

- العقد الفريد للفيقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت: محمد سيد العريان، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٧٢هـ
- العهد القديم والعهد الجديد المسمى (الكتاب المقدس).
- الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني، للأستاذ احمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، ١٣٥٣هـ
- فتح القدير للامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨٣هـ
- في ظلال القرآن للأستاذ الامام سيد قطب، دار الشروق، بيروت
- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دارالجيل.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩م.
- كتاب الأشربة لابن قتيبة الدينوري، ت: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٦هـ
- كتاب الأمالي، لأبي علي اسمعيل بن القاسم القالي البغدادي دارالكتاب العربي، بيروت.
- كتاب المصباح المنير لابن المقرئ، بيروت.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، دار احياء العلوم، بيروت.
- لسان العرب للامام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي، دار صادر، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنيع الفوائد للهيثمي، مكتبة القدسي بالقاهرة، ١٣٥٢هـ
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للامام ابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس. مديرية الشؤون الاسلامية ١٣٩٧هـ.
- مختصر تفسير المنار للأستاذ العلامة محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي بسيروت، ط: أولى، ١٤٠٤هـ
- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، ت: محمد حامد الفقهي، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.
- مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للامام زين الدين الزبيدي، دار النفائس بيروت، ١٤٠٥هـ
- مذكرات القرآن للامام عبد الحميد الفراهي (مخطوط).

- المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل، ت: د/محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي وأحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ثانية، ١٣٩٧هـ
- مسند الامام احمد بن حنبل، طبعة استانبول، تركيا ، ١٤٠٢هـ
- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة، ت: مختار احمد الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند.
- معاني القرآن للأخفش الأوسط، ت : د/فائز فارس، الكويت، ١٤٠١هـ.
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- مفردات القرآن للامام عبد الحميد الفراهي، مطبعة اصلاح، الهند،
- ملاك التأويل لأبي جعفر احمد بن ابراهيم بن الزبير الأندلسي الغرناطي، ت: د/محمد كامل احمد، دار النهضة العربية، بيروت.
- موسوعة برتانيكا الحديثة ١٩٨٢م.
- موطأ الإمام مالك:
- (١) بشرح الزرقاني، تحقيق ومراجعة: ابراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط: أولى، ١٣٨١هـ
- (٢) طبعة استانبول، بدون شرح الزرقاني
- النبأ العظيم - دكتور محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ط: ثانية، ١٣٩٠هـ
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للامام برهان الدين البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٨٩هـ
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لنور الدين علي بن احمد السمهودي، ت: محمد محي الدين عبد الحميد.



فهرس الأبواب

١- المقدمة

٢- التمهييد

٣- الباب الأول: نظام سورة الفاتحة

٤- الباب الثاني: نظام سورة البقرة

٥- الباب الثالث: نظام سورة آل عمران

٦- الخاتمة

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
١٥	تقديم
٢١	المقدمة
	التمهيد: دراسة موجزة لتفسير البقاعى
٢٩	والفرق بين منهجه ومنهج هذه الرسالة.
٣١	- منهج البقاعى فى التماس مناسبات الآيات
٣٢	- مقصود سورة الفاتحة، كما يراه البقاعى
٣٣	- مقصود سورة البقرة، كما يراه البقاعى
٣٤	- مقصود سورة آل عمران، كما يراه البقاعى
٣٦	- المناسبة بين السور الثلاث، كما يراها البقاعى
٣٩	- تقويم رأى البقاعى
٤١	- المناسبة بين القصص الثلاث، كما يراها البقاعى
٤٢	- تقويم هذه الوجوه
٤٦	- المناسبة بين القصص الثلاث الأخرى كما يراها البقاعى
٤٨	- تقويم هذه الافادات
٥١	- وقفة عند آية أقام عليها البقاعى شهورا
٥٣	- تقويم ما قاله البقاعى فى الفرق بين آيتى البقرة وآل عمران
٥٤	- كلمة عن المنهج الذى قمتله هذه الرسالة
٥٧	- تنبيه هام

٥٩	الباب الأول: نظام سورة الفاتحة
٦١	الفصل الأول: على هامش السورة
٦٦	الفصل الثاني: عمود السورة
٦٨	الفصل الثالث: وجوه الربط بين الآيات
٧٧	الفصل الرابع: ارتباط السورة بالتى بعدها
٨٠	الفصل الخامس: موقع السورة من جملة القرآن
٨٥	الفصل السادس: المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه
٩١	الباب الثانى: نظام سورة البقرة
٩٣	نظم الآيات (١٦-١)
٩٧	نظم الآيات (٢٠-١٧)
١٠٠	نظم الآيات (٢٩-٢١)
١٠٤	نظم الآيات (٣٩-٣٠)
١٠٦	النقطة الأولى
١٠٦	تحقيق معنى الخليفة
١٠٨	النقطة الثانية
١٠٨	منشأ الوهم
١٠٩	النقطة الثالثة
١١٠	النقطة الرابعة
١١٠	النقطة الخامسة
١١٠	تأويل قول الملائكة
١١٢	الاشكالات الواردة على ما قيل
١١٤	ما قيل فى تأويل الأسماء
١١٥	تساءلات حول تلك التأويلات

الموضوع

الصفحة

تأويل الآيات كما يليه علينا السياق

نظم الآيات (٦٢-٤٠)

نظم الآيات (٨٢-٦٣)

مناسبة ذكر المعتدين في السبت

النموذج الأول

النموذج الثاني

الأمر الأول

الأمر الثاني

الأمر الثالث

الأمر الرابع

منظر رهيب لقسوة القلوب

نظم الآيات (٨٧-٨٣)

لفتة بارعة

حقيقة هامة تستفاد من نظم هذه الآيات

نظم الآيات (١٠٣-٨٨)

تحقيق معنى (مصدقاً لما معهم) أو (مصدقاً لما بين يديه)

نبوءات حول هذا النبي وهذا القرآن

سبب نزول الآيتين

الاشكال الأول

الاشكال الثاني

درويات تؤكد نزول ميكال بالوحي

الاشكال الثالث

نظم الآيات (١١٠-١٠٤)

تأويل (راعنا) كما وردت به الروايات

١٥٥	تحقيق القول فى معنى (راعنا) و (انظرنا)
١٥٦	تأويل الآية كما ي عليه علينا السياق
١٥٧	سبب نزول (مانسوخ من آية أوتنسها) الآية
١٥٨	جتماع القول فى تأويل الآية
١٥٩	قوله تعالى: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) الآية
١٦١	نظم الآيات (١١١-١٢١)
١٦١	تأويل الآية: (وقالوا لن يدخل الجنة) الآية
١٦٣	تأويل الآية كما يراه الامام الرازى
١٦٥	تأويل الآية: (ولله المشرق والمغرب)
١٦٥	منشأ الوهم
١٦٨	نظم الآيتين: (١٢٢-١٢٣)
١٦٨	سر تكرار الآيتين
١٧٠	نظم الآيات (١٢٤-١٤١)
١٧٣	تحقيق معنى (مثل)
١٧٥	تأويل الآية كما وردت به كتب التفسير
١٧٦	الناحية الأولى
١٧٧	الناحية الثانية
١٧٨	منشأ الوهم
١٧٨	تأويل يتفق مع سياق الآية
١٧٩	السرفى تكرار الآية
١٨١	مناسبة تلك الآيات فيما بينها
١٨١	السرفى تسمية البيت مقام ابراهيم
١٨٢	الروايات الواردة فى شأن مقام ابراهيم
١٨٣	لماذا كان ذكر مشهد بناء الكعبة ختام هذا الحديث

١٨٤	وقفه موفقة للأستاذ سيد قطب
١٨٥	نظم الكلام له دور ملموس في روعة هذا الأسلوب
١٨٥	الحقيقة الأولى
١٨٦	الحقيقة الثانية
١٨٧	الحقيقة الثالثة
١٨٨	الحقيقة الرابعة
١٨٨	الحقيقة الخامسة
١٨٩	الحقيقة السادسة
١٩٠	الحقيقة السابعة
١٩٢	الحقيقة الثامنة
١٩٢	الحقيقة التاسعة
١٩٣	الحقيقة العاشرة
١٩٤	الحقيقة الحادية عشرة
١٩٥	الحقيقة الثانية عشرة
١٩٦	نظم الآيات (١٤٢-١٥٢)
٢٠٠	قول في غاية الضعف
٢٠٣	الحقيقة الأولى
٢٠٣	الحقيقة الثانية
٢٠٤	الحقيقة الثالثة
٢٠٥	الحقيقة الرابعة
٢٠٥	الحقيقة الخامسة
٢٠٦	الحقيقة السادسة
٢٠٧	الحقيقة السابعة
٢١٠	الحقيقة الثامنة

٢١١	نظم الآيات (١٥٣-١٦٢)
٢١٣	كلمة موفقة للأستاذ عبدالله دراز
٢١٣	الحقيقة الأولى
٢١٤	الحقيقة الثانية
٢١٤	الحقيقة الثالثة
٢١٤	الحقيقة الرابعة
٢١٥	الحقيقة الخامسة
٢١٥	الحقيقة السادسة
٢١٥	الحقيقة السابعة
٢١٦	الحقيقة الثامنة
٢١٧	نظم الآيات (١٦٣-١٧٦)
٢٢٢	الفائدة الأولى
٢٢٢	الفائدة الثانية
٢٢٣	الفائدة الثالثة
٢٢٣	الفائدة الرابعة
٢٢٣	الفائدة الخامسة
٢٢٣	الفائدة السادسة
٢٢٣	الفائدة السابعة
٢٢٤	نظم الآية (١٧٧)
٢٢٦	الفائدة الأولى
٢٢٦	الفائدة الثانية
٢٢٨	الفائدة الثالثة
٢٢٨	الفائدة الرابعة
٢٢٨	الفائدة الخامسة

الصفحة

٢٢٨

٢٢٩

٢٣٠

٢٣١

٢٣٢

٢٣٣

٢٣٤

٢٣٥

٢٣٦

٢٣٧

٢٣٨

٢٣٩

٢٤٠

٢٤١

٢٤٢

٢٤٣

٢٤٤

٢٤٥

٢٤٦

٢٤٧

٢٤٨

٢٤٩

٢٥٠

٢٥١

الموضوع

الفائدة السادسة

الفائدة السابعة

الفائدة الثامنة

الفائدة التاسعة

نظم الآيات (١٧٨-١٨٢)

الاشكال الأول

الاشكال الثاني

الاشكال الثالث

الاشكال الرابع

الاشكال الخامس

الاشكال السادس

تحقيق معنى القصص

تأويل الآية

ارتباط الآية بما قبلها

نظم الآيات (١٨٣-١٨٨)

الدليل الأول

الدليل الثاني

الدليل الثالث

الدليل الرابع

الدليل الخامس

الوجود الماثورة في تأويل الآية

تقديم رأي الامام ابن جرير

تقديم سائر الوجوه

الوجوه الصحيح في تأويل الآية

الموضوع	الصفحة
السرفى تكرار الشطر الأول دون الثاني من الآية	٢٥٤
مذهبان فى تأويل الآية	٢٥٥
تقويم المذهبين	٢٥٥
تأويل الآية	٢٥٦
دفع شبهة	٢٥٨
ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض	٢٥٨
مايستفاد من نظم هذه الآيات	٢٦٠
الفائدة الأولى	٢٦٠
الفائدة الثانية	٢٦١
الفائدة الثالثة	٢٦١
الفائدة الرابعة	٢٦١
الفائدة الخامسة	٢٦١
الفائدة السادسة	٢٦١
الفائدة السابعة	٢٦١
الفائدة الثامنة	٢٦٢
مناسبة هذه الآيات لما قبلها	٢٦١
نظم الآيات (١٨٩-٢٠٧)	٢٦٤
الاشكال الأول	٢٦٥
الاشكال الثانى	٢٦٥
الاشكال الثالث	٢٦٧
الاشكال الرابع	٢٦٨
تأويل الشطر الثانى من الآية	٢٦٨
الاشكال الأول	٢٦٨
الاشكال الثانى	٢٦٩

٢٦٩	الاشكال الثالث
٢٧٠	تحقيق مدلول الأهله
٢٧١	مدار السؤال
٢٧٢	معنى اتيان البيوت من ظهورها
٢٧٢	أصالة هذا المفهوم
٢٧٣	لفتة بارعة
٢٧٣	المراد بالاعتداء
٢٧٥	التشابه بين هذه الآيات وآيات سورة التوبة
٢٧٧	المفهوم الأول
٢٧٨	تحقيق معنى الاحصار
٢٧٩	حكم قضاء المحصر
٢٨٠	المفهوم الثانى
٢٨١	حكم حج التمتع كما يستفاد من نظم الآيات
٢٨٢	المفهوم الثالث
٢٨٣	تقويم هذا التأويل
٢٨٤	معنى: (لا جناح عليكم)
٢٨٥	المفهوم الرابع
٢٨٨	رأى ثالث
٢٨٨	معنى (من حيث)
٢٨٩	المفهوم الخامس
٢٩١	الوجه الأول
٢٩١	الوجه الثانى
٢٩١	تأويل الآية
٢٩٣	مناسبة هذه الآيات لما قبلها

الصفحة	الموضوع
٢٩٥	نظم الايات (٢٠٨-٢١٤)
٢٩٩	نظم الآيات (٢١٥-٢٢٧)
٣٠١	وجوه المناسبة بين تلك الأسئلة
٣٠٣	مناسبة السؤال عن الخمر والميسر
٣٠٤	الوجه الأول
٣٠٤	الوجه الثانى
٣٠٥	الوجه الثالث
٣٠٦	السؤال الخامس
٣٠٧	السؤال السادس
٣٠٨	تحقيق معنى المخالطة
٣٠٩	تأويل الآية
٣١١	السؤال السابع
٣١٢	سبب نزول الآية كما يمليه علينا السياق
٣١٥	التفسير الخاطئ لمعنى (اللفو)
٣١٦	تحقيق معنى (اللفو)
٣٢٠	نظم الآيات (٢٢٨-٢٣٧)
٣٢٢	نظم الآيتين (٢٣٨-٢٣٩)
٣٢٥	وحى هذا الأسلوب
٣٢٥	تأويل الصلاة الوسطى
٣٢٨	المناسبة الأولى
٣٢٨	المناسبة الثانية
٣٢٩	المناسبة الثالثة
٣٣٠	نظم الآيات (٢٤٠-٢٤٢)
٣٣١	تقويم الرأيين فى ضوء السياق

الموضوع

الصفحة

٣٣١

٣٣٦

٣٣٧

٣٣٧

٣٣٩

٣٤١

٣٤١

٣٤١

٣٤٧

٣٤٩

٣٤٩

٣٥٥

٣٥٦

٣٥٧

٣٥٧

٣٥٨

٣٦١

٣٦٢

٣٦٢

٣٦٧

٣٦٩

٣٧٠

٣٧٣

٣٧٥

حقائق تستفاد من نظم الآيتين

سر الفصل بين البيان والمبين عنه

نظم الآيات (٢٤٣-٢٥٢)

الأمر الأول

الأمر الثاني

رأي ابن عباس

دليل من السياق

لفتة هامة

مناسبة تلك الآيات لما قبلها

نظم الآيتين (٢٥٣-٢٥٤)

تحقيق معنى (الاقتتال)

نظم الآيات (٢٥٥-٢٦٠)

القصة الأولى

القصة الثانية

الدليل الأول

الدليل الثاني

القصة الثالثة

تحقيق معنى الجزء

تأويل الآية

تحقيق معنى (فصرهن اليك)

أرجى آية في القرآن

مناسبة الأمثلة الثلاثة لما قبلها

نظم الآيات (٢٦١-٢٧٤)

القاعدة الأولى

٣٧٦	الفائدة الثانية
٣٧٧	الفائدة الثالثة
٣٧٧	الفائدة الرابعة
٣٧٨	الفائدة الخامسة
٣٧٩	نظم الآيات (٢٧٥-٢٨١)
٣٨٢	نظم الآيتين (٢٨٢-٢٨٣)
٣٨٤	تحقيق القول في مشروعية الرهن
٣٨٥	كلمة قيمة للفراهي
٣٩٠	نظم الآيات (٢٨٤-٢٨٦)
٣٩١	دراسة الروايات الواردة في شأن خواتيم السورة
٣٩٢	مناسبة الآيات لما قبلها
٣٩٨	عمود السورة

الباب الثالث : نظام سورة آل عمران

٤٠٥	نظم الآيات (١-١٨)
٤٠٧	سبب نزول الآيات
٤٠٩	اشكال آخر
٤١٠	اشكال ثالث
٤١١	مناسبة الآيات فيما بينها
٤١٢	فوائد تستفاد من نظم الآيات
٤١٤	نظم الآيات (١٩-٢٢)
٤١٨	حقائق تستفاد من نظم الآية وسياقها
٤١٩	نظم الآيات (٢٣-٣٢)
٤٢٠	مفهوم الآية (٢٤)
٤٢٢	

٤٢٣	تقوم تلك المذاهب
٤٢٥	مفهوم الآية (٢٨)
٤٢٦	اشكالات تكتنف هذا التأويل
٤٢٧	تأويل الآية
٤٢٨	السبب الأول
٤٢٩	السبب الثاني
٤٣٠	السبب الثالث
٤٣١	نظم الآيات (٦٣-٣٣)
٤٣٣	الوجه الأول
٤٣٣	الوجه الثاني
٤٣٣	الوجه الثالث
٤٣٤	الوجه الرابع
٤٣٤	وجوه أخر للمناسبة
٤٣٤	الوجه الأول
٤٣٥	الوجه الثاني
٤٣٦	الوجه الثالث
٤٣٦	الوجه الرابع
٤٣٧	تنبيه هام
٤٣٨	آية قد تحير الناس في أمرها
٤٤٠	تأويل الآية
٤٤٣	نظم الآيات (٧١-٦٤)
٤٤٣	تأويل الآية (٦٥)
٤٤٥	تأويل الآية (٦٦)
٤٤٧	مناسبة الآيات لما قبلها

الموضوع

٤٤٩	نظم الآيات (٧٢-٩١)
٤٥٠	تأويل الآية (٧٣)
٤٥٣	تأويل الآية (٨٠)
٤٥٤	ذهل عن أسلوب الآية
٤٥٥	مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها
٤٥٨	سر الفرق بين آيتي البقرة وآل عمران
٤٦٠	سر تكرار الآية
٤٦١	نظم الآيات (٩٢-٩٩)
٤٦١	تقويم هذا الرأي
٤٦٣	منشأ الوهم
٤٦٤	الأمر الأول
٤٦٥	الأمر الثاني
٤٦٦	تأويل الآية
٤٦٩	لفتة هامة
٤٧١	نظم الآيات (١٠٠-١١٧)
٤٧٢	مناسبة الآيات فيما بينها
٤٧٦	حقائق تستفاد من نظم الآيات
٤٧٧	سر الفرق بين آيتي البقرة وآل عمران
٤٨٠	نظم الآيات (١١٨-١٢٩)
٤٨٠	تأويل الآية (١١٩)
٤٨١	فما هو ذلك التأويل؟
٤٨٢	تأويل الآيتين (١٢٧-١٢٨)
٤٨٧	مناسبة الآيات لما قبلها وفيها بينها
٤٩٢	نظم الآيات (١٣٠-١٣٦)

٤٩٣	حقائق تستفاد من نظم الآيات
٤٩٥	نظم الآيات (١٣٧-١٤٨)
٤٩٥	تأويل قوله تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس)
٤٩٦	اشكالات تكتنف هذا التأويل
٤٩٩	القرينة الأولى
٤٩٩	القرينة الثانية
٥٠٠	القرينة الثالثة
٥٠١	تحقيق معنى المداولة
٥٠١	تأويل الآية
٥٠٦	مناسبة الآيات فيما بينها
٥٠٨	مناسبة الآيات لما قبلها
٥١٣	نظم الآيات (١٤٩-١٥٥)
٥١٠	تأويل الآية (١٥١)
٥١٤	اشكالات تكتنف هذا التأويل
٥١٦	تأويل الآية (١٥٢)
٥١٧	اشكالات تكتنف هذا التأويل
٥١٩	منشأ الفشل والتنازع في الأمر
٥٢٠	تأويل الآية كما يمليه علينا السياق
٥٢٣	تأويل الآية (١٥٤)
٥٢٥	مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها
٥٢٧	لفتة هامة
٥٢٩	الرد على شبهتين
٥٣٠	نظم الآيات (١٥٦-١٧٩)
٥٣٢	سبب نزول (وما كان لنبي أن يغفل)

الصفحة	الموضوع
٥٣٣	تحقيق معنى الغلول
٥٣٤	تأويل الآية
٥٣٥	تأويل : (اولما اصابكم مصيبة) الآية
٥٣٦	تأويل الآية (١٦٧)
٥٣٩	تأويل الآيتين (١٧٢-١٧٣)
٥٤٢	تأويل الآية (١٧٩)
٥٤٤	مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها
٥٤٧	وهم من الأوهام الشائعة
٥٤٩	الفرق بين الأسلوبين
٥٥٤	نظم الآيات (١٨٠-١٨٩)
٥٥٤	تأويل الآية (١٨٠)
٥٥٦	تأويل الآية (١٨١)
٥٥٨	تأويل الآية بنظائرها
٥٦٠	مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها
٥٦٣	حسن مناسبة الآيات باعتبارها تمهيدا لختام السورة
٥٦٥	نظم الآيات (١٩٠-٢٠٠)
٥٦٧	لفتة هامة
٥٧١	تحقيق معنى (التقلب)
٥٧٦	تأويل المصابرة
٥٧٨	مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة
٥٨١	نكتة هامة
٥٨٥	عمود السورة
٥٩٠	ارتباط السورة بالتي قبلها

٥٩٧

الخاتمة

٦٠٥

مراجع البحث

٦١١

فهرس الابواب

٦١٢

فهرس الموضوعات